

Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES





Oct

تاريخ الإسلام السياسي

PT 70-10%

An Bouquiste Oriental

1 June 45

تأليف

الدكتور إبراهيم حسن

دبلوم المعلمين العليا ، وليسانس في الآداب ، ودكتور في الآداب (الجامعة المصرية) ، ودكتور في الفلسفة ،
ودكتور في الآداب (في التاريخ الاسلامي) جامعة لندن ، وعضو الجمعية الاسيوية الملكية
بإنجلترا ، وزميل جمعية الفنون الملكية بإنجلترا

Ph. D. , D. Litt. (London) , MRAS. , FRSA.

أستاذ التاريخ الاسلامي المساعد بكلية الآداب بالجامعة المصرية

Nd 11 - 100

الجزء الأول

يبحث في تاريخ العرب قبل الاسلام ، والبعثة النبوية ، والخلفاء الراشدين ، والدولة الاموية ،
والحضارة العربية في عهد الخلفاء الراشدين والامويين

يطلب من المؤلف ومن المكتبة التجارية الكبرى بشارع محمد علي بمصر

اصحابها : مصطفى محمد

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٣٥٣ هـ - ١٩٣٥ م

مطبعة حجازي بالقاهرة

تليفون ٥٥٤٨٠

893.791

H27

v.1

45-38141

v.1

COLUMBIA
UNIVERSITY
LIBRARY

مقدمة الكتاب

لهذا الجزء الأول من كتاب «تاريخ الاسلام السياسى» الذى اعترمت اخراجه فى ستة أجزاء تاريخ يرجع إلى عهد طويل . فانتى اشتغلت بمادة التاريخ الاسلامى من سنة ١٩١٥ عند التحاقى بالجامعة المصرية القديمة . فلما سافرت إلى إنجلترا سنة ١٩٢٣ والتحقت بجامعة لندن وأتممت الدراسة المقررة لدرجة الشرف، وسمح لى باعداد رسالة الدكتوراه فى الفلسفة فى التاريخ الاسلامى ، اخترت «الدعوة الشيعية» موضوعا لرسالتى . فلما حضرت إلى مصر فى صيف سنة ١٩٢٥ بالاجازة وزرت الدكتور طه حسين وأخبرته باختيارى «هذا الموضوع» موضوعا لرسالتى تكرم على بتبويه هذا الموضوع وأشار على باختيار «الحركات السياسية والدينية فى العصر العباسى الأول» موضوعا لرسالة الدكتوراه فى الآداب وتفضل على بتبويه .

فلما عدت إلى إنجلترا وعرضت تبويب هذين الموضوعين على الأستاذ المرحوم السير توماس أرنولد أعجب به كل الإعجاب . ولا عجب فان الدكتور طه لا يشق له غبار فى تبويب الكتب وتنظيمها . وإليه يرجع الفضل فى تبويب وتنظيم كتابى «عمرو بن العاص» الذى قدمته لنيل شهادة الدكتوراه من الجامعة المصرية القديمة سنة ١٩٢١ .

اشتغلت بهذين الموضوعين معاً وجمعت المادة التاريخية من مكاتب القاهرة ولندن واكسفورد وليدن وبرلين . وبدأت أنقح الموضوع الأول وأعدته للامتحان لولا أن اتسعت بى دائرة البحث . عند ذلك أشار على أستاذى السير توماس أرنولد بأن أقسمه قسمين : القسم الأول ويتناول الكلام عن الدعوة الشيعية وقيام الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب ثم فى مصر ، والقسم الثانى ويتناول الكلام على هذه الدعوة فى مصر .

فلما أتممت دراستى بجامعة لندن وزرت السير توماس أرنولد قبل عودتى إلى مصر أشار على بالكتابة فى تاريخ المغول ، ولا سيما عصر أكبر خان امبراطور الهند العظيم ، لأن مؤرخى العرب لم يتناولوا هذه الناحية من التاريخ الاسلامى بما تستحقه من العناية رغم أهميتها . ولما عدت إلى مصر ألح على المرحوم أبو زيد بك فايد وكيل

مدرسة المعلمين العليا سابقاً بالكتابة في السيرة النبوية ، لأنه لم يكن في هذا الموضوع سوى الكتب القديمة كسيرة ابن هشام . وقد عازمت على الكتابة في أحد هذه الموضوعات لولا أن كلفتني وزارة المعارف بترجمة كتابي عن الدولة الفاطمية إلى العربية . وقد قضيت في ترجمته عامين كاملين . وما كدت أتهى من إخراجه حتى أخذت في ترجمة كتاب *Recherches sur la Domination arabe, le Chi'itisme et les Croyances Messianiques sous le Khalifat des Omayyades* تأليف فان فلوتن Van Vloten (السيادة العربية والتشيع والاسرائيليات في عهد بني أمية) ونقده والتعليق عليه بالاشتراك مع تلميذي الشيخ محمد زكي إبراهيم خريج كلية اللغة العربية بقسم التخصص (شعبة التاريخ) والمترجم بمصلحة المساحة .

وقبل أن يظهر هذا الكتاب اشتغلت بتأليف كتاب العصور الوسطى في الشرق والغرب للمدارس الثانوية بالاشتراك مع الأستاذ أحمد صادق الطنطاوى ناظر مدرسة بورسعيد الابتدائية الأميرية . عند ذلك عولت على إخراج كتاب الحركات السياسية في العصر العباسي الأول لولا أن كلفتني وزارة المعارف بترجمة كتاب *Arabic Papyri in the Egyptian Library* للدكتور أدولف جروهمان Adolfe Grohmann استاذ الثقافة الإسلامية بجامعة براغ بتشيكوسلوفاكيا . فلما فرغت من ترجمته في آخر صيف سنة ١٩٣٤ فكرت في إخراج كتاب تاريخ الإسلام السياسي في ستة أجزاء : يتناول الجزء الأول منه تاريخ الإسلام منذ البعثة النبوية إلى آخر العصر الأموي ، ويشتمل على الموضوع الذي ألح على المرحوم أبوزيد بك فايد بالكتابة فيه ؛ ويتناول الجزء الثاني التاريخ السياسي للإسلام في العصر العباسي الأول أو العصر الذهبي للإسلام - أي من سنة ١٣٢ هـ إلى سنة ٢٣٢ هـ - ويشتمل على الموضوع الذي أشار على الدكتور طه حسين بالكتابة فيه ؛ ويتناول الجزء الثالث التاريخ السياسي للإسلام من وفاة الواثق سنة ٢٣٢ هـ إلى سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ ؛ ويتناول الجزء الرابع الكلام على تاريخ العالم الإسلامي بعد سقوط بغداد ، أي نشأة الأتراك العثمانيين ودول المغول الإسلامية في فارس والهند وبلاد الغرب ، وهو يشتمل على الموضوع الذي أشار على به الأستاذ المرحوم السير توماس أرنولد ؛ والجزء الخامس ، يتناول

الكلام عن تاريخ بلاد المغرب والأندلس ، ويتناول الجزء السادس تاريخ الاسلام في مصر من الفتح العربي إلى الفتح العثماني .

وقد عولت أولا على أن أتناول الكلام في هذا الجزء عن تاريخ الاسلام السياسي منذ البعثة حتى آخر العصر العباسي الأول لولا أنني لم أكّد أُنْتهى من طبع تاريخ العصر الأموي حتى بلغ ذلك الجزء حول ٦٦٥ صفحة . لذلك قنعت بهذا القدر من البحث وسافرد الجزء الثاني للكلام على تاريخ الاسلام السياسي في العصر العباسي الأول .

ولعلّي قد وفقت بعض التوفيق في هذا البحث ، كما أرجو أن أوفق إلى تقديم الجزء الثاني إلى القراء قريبا إن شاء الله .

ولا يفوتني أن أقدم جزيل شكرى وعاطر ثنائى لكل من حضرات : الأستاذ محمود زكى المقتش بمصلحة المساحة ، والأستاذ احمد صادق الطنطاوى ، والأستاذ الشيخ محمد زكى ابراهيم ، وحضرة جمال الدين سرور افندى خريج قسم التاريخ بكلية الآداب ، على جميل معاونتهم لى معاونة صادقة تستحق الثناء والاعجاب ، كما أشكر الحاج مصطفى محمد على عنايته بنشر هذا الكتاب .

القاهرة في يوم الأربعاء ٩ أكتوبر سنة ١٩٣٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذى علّم بالقلم؛ علم الانسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام
على نبيه محمد المبعوث إلى الناس كافة هادياً ومبشراً ونذيراً.

أما بعد؛ فهذا هو الجزء الأول من كتابي «تاريخ الاسلام
السياسي». أرجو الله سبحانه وتعالى التوفيق فيما أنا بسبيله من خدمة
هذا التاريخ المجيد، وتنقيته مما ليس منه.

حقق الله الآمال، وهدانا إلى سواء السبيل.

حسن ابراهيم حسن

Handwritten text in Arabic script, consisting of several lines of cursive script. The text is faint and appears to be a letter or a document fragment.

Handwritten signature or name in Arabic script, located at the bottom right of the page.

فهرس موضوعات الكتاب

صفحة

١ مقدمة الكتاب

١ فهرس موضوعات الكتاب

الباب الأول

العرب قبل الاسلام

١٩ وصف بلاد العرب : اسم عرب - العرب وجيرانهم - أقسام بلاد العرب - مواطن الخصب في بلاد العرب - وصف بلاد العرب الطبيعي - كثرة الجذب وأسبابها - الآبار - صحراء النفود - الدهناء .

٢٦ الشعوب العربية : القحطانيون - هجرتهم إلى الشمال - شعب عدنان : رأى نيكلسون - رأى مرجوليوت - ريعة - مضر - قريش - الهجرة العدنانية .

٣١ الحضارة العربية قبل الاسلام : حضارة اليمن - تجارة اليمن - أسباب انحلال اليمن في رأى العرب - فى رأى المستشرقين - سد مأرب - هجرة أهل مأرب - عناصر الحضارة اليمنية - أثر الفرس والروم فى العرب . إمارات أخرى .

٣٥ الحالة الاجتماعية : المرأة فى الجاهلية - سبي النساء - الطلاق - وأد البنات - التعاون بين أفراد القبيلة - انعدامه بين القبائل والبطون - أثر الشعراء - طبقتا الموالي والعبيد .

٣٩ الحالة السياسية : أنواع الحكومات فى بلاد العرب - الممالك العربية فى الجاهلية

٤١ بلاد اليمن : مملكة معين - تجارة معين - مملكة سبأ - سبأ - بلقيس - المركز التجارى - يوسف ذو نواس - استيلاء الحبشة على بلاد اليمن - سوء سيرة الأحباش فى بلاد اليمن - زهد الفرس فى بلاد اليمن - استيلاء الفرس على اليمن - ترحيب أهل اليمن بجيش الخلاص .

٤٧ امارتا الحيرة وغسان : تمهيد .

٤٧ مملكة الحيرة : تكوين إمارة الحيرة - أثر أهلها في الحضارة العربية -

ملوك الحيرة : عمرو بن عدى - النعمان بن امرئ القيس - سمار - قصر

الحضر - تنسك النعمان - المنذر بن ماء السماء - النعمان بن المنذر - المناذرة في

أواخر أيامهم - اقضاء البيت اللخمي عن الملك - ضعف الحكومة .

٥٦ مملكة غسان : أنساب بنى جفنة - الحارث بن جبلة - الحرب بين الحارث

والمنذر - المنذر بن الحارث - حضارة الغساسنة .

٦١ الحكم عند البدو .

٦٣ قريش : بلاد الحجاز - مكة - قبيلة جرحم - قبيلة خزاعة - انتقال السيادة

إلى قريش - الحرم المكي أو الكعبة - حماية قريش للكعبة .

الحكومة في قريش : تنظيم مكة - الأشهر الحرم - حلف الفضول .

٧٢ عبد المطلب - أبرهة وغزو مكة : رواية الطبرى - ان للبيت ربا سيمنعه -

الطير الأبايل - هزيمة أبرهة - أثر هذه الهزيمة .

٧٧ تجارة قريش : عوامل قيامها في قريش - تأمين طرق التجارة - موقع مكة

الممتاز - فيم كانت تتاجر قريش ؟ - أثر التجارة في قريش . رحلتا الشتاء والصيف -

أثر قريش من التجارة .

٨٠ الحالة الادبية : أثر مكة في الحالة الادبية - التعليم - أثر العلوم غير العربية في

العرب - علوم العرب - أغراض اجتماع العرب بمكة - الشعر العربي - رأى

نلده في الشعر العربي - أثر الشعراء في تمهيد الطريق للدين الاسلامي .

٨٤ الحالة الدينية : الوثنية - المسيحية - اليهودية - الحنيفية - الحالة الدينية عند ميلاد

الرسول .

الباب الثاني

البعثة النبوية

صفحة

- ٩١ الرسول منذ ولد إلى أن بعث : مولد الرسول - نشأته - اشتغاله بالتجارة -
زواجه بالسيدة خديجة - الرسول في الخامسة والثلاثين - أخلاق الرسول -
التبشير بنبوته .
- ٩٤ البعثة : بدء الوحي - دعوة الأفراد
- ٩٨ الجهر بالدعوة :
- ٩٩ ١ مناوأة قريش للدعوة : إيذاء المسلمين
- ١٠١ ب حماية أبي طالب للرسول : تهديد قريش أبا طالب - عرض أبي طالب
الأمير على الرسول . اصرار الرسول ورفق أبي طالب به - قريش تساوّم
أبا طالب في الرسول . بدء النضال - بيت هاشم والمطلب ينصر الرسول -
كيد قريش للدعوة - دور العمل .
- ١٠٦ هجرة المسلمين إلى الحبشة : لماذا لم يفكر الرسول في غير الحبشة ؟ -
المهاجرون إلى الحبشة - محاولة قريش اخراجهم . رسل قريش إلى النجاشي
- ١٠٩ اسلام عمر بن الخطاب : معارضة عمر للدعوة أول الأمر -
عوامل اسلام عمر
- ١١١ مقاطعة قريش بني هاشم وبني المطلب .
- ١١٢ وفاة أبي طالب وخديجة :
- ١١٣ الهجرة وعواملها : اشتداد إيذاء قريش للرسول - عرض الرسول نفسه
على القبائل - ترحيب أهل يثرب بدعوة الرسول - علمهم بظهور الاسلام -
أثر اليهود الديني في أهل يثرب - انقسام أهل يثرب .
- ١١٦ بيعتنا العقبه : دعوة الرسول الخزرج إلى الاسلام : العقبه الأولى - العقبه
الثانية أو البيعة الكبرى - نص البيعة - النقباء - تأمر قريش على اغتيال الرسول
- ١١٩ الهجرة : الطريق الذي سلكه الرسول من مكة إلى المدينة - الرسول بقاء .

- ١٢٤ نشوء حكومة نظامية في المدينة : الرسول في المدينة - سكان المدينة - معاهدة الرسول مع أهل المدينة - رأينا في هذه المعاهدة .
- ١٢٨ إقامة شعائر الاسلام : الأذان - احلال الوحدة الدينية محل الوحدة القومية .
- ١٣١ زواج الرسول من عائشة : منزلة عائشة في قلب الرسول - لم تزوج الرسول بعد عائشة . ؟ : جويرية بنت الحارث - صفية بنت حيي - أم سلمة - زينب بنت جحش - رأينا في هذا الزواج .
- ١٣٦ الغزوات والسرايا : هل انتشر الاسلام بحد السيف ؟
- ١٣٩ أغراض الجهاد : الدفاع عن النفس - الروح المعنوية عند المسلمين - استطلاع قوة قريش وإرهاها .
- ١٤٣ تحويل القبلة : أهمية القبلة .
- ١٤٦ غزوة بدر الكبرى : أثرها - الانفال .
- ١٤٨ غزوة أحد : مشاورة الرسول أصحابه - خروج الجيش - تقاعد المناققين - موقف المسلمين والكفار - الموقعة - حرص المسلمين على سلامة الرسول - قتل حمزة - هزيمة المسلمين
- ١٥٤ بين أحد والاحزاب : أثر انتصار قريش - سرية بني الرجيع - غزوة بدر معونة - غزوة بني النضير .
- ١٥٦ غزوة الاحزاب أو الخندق : تأليب اليهود الاحزاب على المسلمين - آمال قريش - مسير الاحزاب - حفر الخندق - قدوم الاحزاب - نقض بني قريظة عهدهم مع الرسول - تخرج مركز المسلمين - مهمة الرسول ونجاحه فيها - أسباب انتصار المسلمين
- ١٦١ غزوة بني قريظة :
- ١٦٢ غزوة بني المصطلق أو المريسيع : النزاع بين المهاجرين والانصار - علاج الرسول للوقف - حادثة الإفك

- ١٦٥ الهدنة مع قريش : بيعة الرضوان - شروط الهدنة - تدمير المسلمين من هذه الشروط - أثر هذا التدمير في نفوس المسلمين
- ١٦٨ موقف اليهود من المسلمين : أسباب كراهة اليهود للمسلمين - كيد اليهود للإسلام - تأهب اليهود للاغارة على يثرب - المستشرقون وغزو اليهود - رأى مرجوليوث في غزوة خيبر
- ١٧٤ غزوة خيبر - فتح خيبر
- ١٧٦ غزوة مؤتة
- ١٧٧ فتح مكة : العوامل التي ساعدت على فتح مكة - أثر فتح مكة - رأى نلدكة .
- ١٨٠ غزوة حنين : قدوم هوازن وثقيف لمحاربة الرسول - خروج المسلمين لحربهم - هزيمة المشركين .
- ١٨٢ حصار الطائف : استعمال المسلمين المنجنيق والدبابات - غنائم هوازن - تغير نفوس الأنصار - تفكير ثقيف في مصلحة الرسول - تمسك الرسول بأصول التوحيد - ثبات الطائف على الإسلام .
- ١٨٨ غزوة تبوك :
- ١٨٩ حجة الوداع :
- ١٩١ وفاة الرسول : وقع الخبر على المسلمين - رثاء أبي بكر - خطبة أبي بكر في المسلمين - مكان دفن الرسول .
- ١٩٣ صفات الرسول : حسن سياسته - زهده في مال الله - معاملته لأصحابه - كرمه - ميله للعفو .
- ١٩٦ دعوى عموم الرسالة : رسل النبي إلى الملوك والأمراء - كتب الرسول إلى هرقل ، والمقوقس ، والنجاشي وكسرى فارس - أثر الكتب فيمن أرسلت إليهم - رأى السير توماس أرنولد في قيمة هذه الكتب . رأى المستشرقين في دعوى عموم الرسالة .
- ٢١٣ أثر الإسلام في العرب :

المستشرقون والرسالة : رأى نلدكة - مذاهب لامانس في البحث ومناقشة
درمنجم لها . رأى فتلى .

٢١٦ القرآن بين عهدين : مدة نزول الوحي - القرآن في مكة - القرآن في المدينة :

٢١٧ ١ الأثر الديني : أركان الدين .

ب الأثر الاجتماعي : صيانة الأنفس والأموال - تنظيم المعاملات على
مبادئ قويمية - الزواج - مركز المرأة في الاسلام - صيانة حقوقها في
الميراث والزواج والطلاق - الآداب الاجتماعية - الرق وعناية الاسلام به -
المسكاتبة - التدبير - معاملة المسلمين للرقيق .

٢٣٥ ج - الأثر الأدبي

٢٣٦ د - الأثر السياسي .

٢٣٧ بين الجاهلية والاسلام : رأى براون - جولدزيهر - بعض المثل الاسلامية -

رأى نلدكة - بعض المثل الجاهلية - حديث جعفر بن أبي طالب إلى النجاشي -
عبارة ابن حزم - عبارة ويلز - عبارة ميور .

الباب الثالث

الخلفاء الراشرون

٢٤٧ أبو بكر الصديق : نسبه - مولده - مكاته في الجاهلية - اسلامه - مكاته
من نفس الرسول .

٢٤٨ بيعة أبي بكر : اجتماع السقيفة - توقف على عن مبايعة أبي بكر - خطبة
أبي بكر على أثر مبايعته البيعة العامة .

٢٥١ ردة العرب : حكومة الرسول - اشفاق القبائل ممن يخلف الرسول -
التنازع على منصب الخلافة - موقف قريش ازاء المرتدين .

١ - المتنبئون : مسيلة الكذاب - بجاح - الأسود العنسي - طليحة بن خويلد

ب - تسيير أبي بكر الجيوش إلى أهل الردة والمتنبئين - انتصار المسلمين
في حروب الردة .

ح - المستشرقون وردة العرب .

و - أقسام المرتدين : معاملة الاسلام لهم - أقوال الأئمة في المرتدين .

٢٦٤ بدء الفتوح .

٢٦٤ صفات أبي بكر : منزلته في الجاهلية - شجاعته وحسن بلائه في حروب

الردة - منزلته في نفس الرسول - انفاقه في سبيل الله - تواضعه وزهده -

رأى على بن أبي طالب فيه .

٢٦٦ عمر بن الخطاب : نسبه - مولده ونشأته - اسلامه - صحبته للرسول -

بيعه - استطلاع أبي بكر رأى الأمة في عمر - كتاب العهد - خطبة عمر

بعد البيعة

٢٧٠ الفتوح الاسلاميه : عواملها - غزوة أسامة - حرب الردة - بدء الفتوح -

حالة الروم والفرس وقت الفتح العربي .

٢٧٣ فتح بلاد العراق وفارس : في عهد أبي بكر - في عهد عمر - موقعة

القادسية - انهزام الفرس - تأسيس الكوفة - موقعة نهاوند .

٢٧٨ أثر الفتح العربي في بلاد الفرس : ترحيب الفرس بالعرب والاسلام -

حسن معاملة العرب للفرس . انتشار الاسلام في فارس - سياسة العرب في فارس

٢٨١ فتح الشام وفلسطين : حالة بلاد الشام قبل الفتح - دعوة العرب لفتح

الشام وفلسطين - مسير خالد الى الشام - واقعة اليرموك - وفاة أبي بكر -

فتح دمشق - موقعة أجنادين - فتح بيت المقدس .

٢٩٧ فتح مصر : حالة مصر الدينية والسياسية قبل الفتح - الفتح : الطريق الذي

سلكه العرب - الفرما - بليس - أم دنين - حصار حصن بابليون - عرض

المقوقس الأمر على هرقل - استيلاء عمرو على الحصون التي بين القسطنطينية

والاسكندرية - حصار الاسكندرية - شروط الصلح - انتفاض الروم .

٣١٢ أثر الفتح في مصر : تخفيف الضرائب - اطلاق الحرية الدينية - المساواة

بين المصريين في الحقوق - اصلاحات العرب .

٣١٤ مكتبة الإسكندرية : المؤرخون والمكتبة - آراء المؤرخين الذين قالوا

بحرق العرب للبكتبة - مناقشة هذه الآراء - رواية أبي الفرج - خلاصة أقوال المؤرخين .

٣٢١ صفات عمر : شدته في خلافته - تفقده أحوال الرعية بنفسه - محافظته

على اموال المسلمين - عدله وتواضعه - اجتهاده وفتياه - صراحته مع الرسول - فهمه لنفسية العرب .

٣٢٨ منشآت عمر - تنظيم شؤون الدولة الاسلامية

٣٢٩ عثمان بن عفان : نسبه - مولده - اسلامه - بلاؤه في الاسلام وبذله المال في سبيله - روايته الحديث .

٣٣١ قصة الشورى أوبيعه عثمان : رفض عمر أن يستخلف - العودة الى الشورى - بنو هاشم وبنو أمية - اختيار عثمان للخلافة - خطبته وبرنامجه السياسي .

٣٣٦ الفتح في عهد عثمان : طبرستان - خراسان - الثغور - بلاد الخزر - الشام وأرمينية - فتح إفريقية وأثر عبد الله بن الزبير في هذا الفتح - غزو بلاد النوبة - موقعة السواري .

٣٤٠ الفتنة التي أدت إلى قتل عثمان : لين عثمان وسهولته - بوادر الاستياء في أهل المدينة - الدعاية ضد عثمان وأثرها - حاله خارج المدينة - الارستقراطية القرشية - تهويل النفوس للثورة - أبو ذر - دعوة ابن سبأ وتطورها - نجاحها في مصر - رسل عثمان إلى الأمصار - تحقيق ابن سبأ برنامجه التمهيدي - جهود عثمان لتلافي الانفجار - قتل عثمان - موقف أهل المدينة .

٣٥٥ تدوين المصحف : القرآن في عهد الرسول وأبي بكر - أسباب تدوين القرآن في عهد عثمان - جمع القرآن في مصحف واحد : توزيع المصحف على الأمصار - رأينا في جمع القرآن

٣٦٠ صفات عثمان : تواضعه وحلمه - ثروته وجوده - توسعته على الناس - إقامته الحدود - وصف السيد أمير على لعثمان

٣٦٣ علي بن أبي طالب : نسبه - كفالة الرسول له - اسلامه - هجرته - مركزه في عهد الخلفاء الذين سبقوه - بيعته - عزله ولادة عثمان

٣٦٦ موقعة الجمل وعواملها : موقف علي من طلحة والزبير وعائشة - أم سلمة

- وخروج عائشة - محاولة طلحة والزبير استمالة زعماء البصرة وعبد الله بن عمر - مسير عائشة الى البصرة - يوم الجمل - الأحزاب بعد موقعة الجمل
- ٣٧٥ موقعة صفين : أسبابها - التقاء جيش على بجيش معاوية - رغبة أهل العراق في الموقعة .
- ٣٧٨ التحكيم : عقد التحكيم - اجتماع الحكمين - الحكم - نظرة في عقد التحكيم ورأينا فيه .
- ٣٨٥ ظهور الخوارج : رأى الخوارج في بيعة على - مفاوضة على للخوارج - يوم النهروان - هزيمة الخوارج - دعوة على إلى حرب معاوية - تناقل المحاربين عن على - قتل على غيلة .
- ٣٩١ صفات على : شجاعته - حرصه وتشدده في أموال المسلمين - علمه بمسائل الدين وتفسير القرآن - كفايته في القضاء - وصف نيكلسون له

الباب الرابع

الدولة الاموية

- ٣٩٥ معاوية بن أبي سفيان : نسبه - شرف بيته في الجاهلية - اسلامه - ولايته على الشام - توليته الخلافة .
- ٣٩٨ سياسة معاوية ازاء الخوارج والشيعة : المسلمون عند تولية معاوية الخلافة - النضال بين معاوية والخوارج - المغيرة يتعقب الخوارج - خمود روح التشيع وانضواء أهل الكوفة تحت لواء معاوية .
- ٤٠٦ ✓ الفتوح في عهد معاوية : السند - محاولة فتح القسطنطينية - فتح إفريقية وتحصين القيروان .
- ٤٠٧ ولاية العهد ليزيد : بدء الفكرة وترحيب معاوية بها - استطلاع رأى أهل المدينة - الاكراه على البيعة ليزيد - وفاة معاوية .
- ٤١٢ أخلاق معاوية وصفاته : رأى مؤرخي العرب - رأى نيكلسون - الدارمية .
- ٤١٧ يزيد بن معاوية : نشأته وتوليته الخلافة - خروج الحسين بن على - مقتل الحسين - أثر مقتل الحسين - واقعة الحرة - غزو الكعبة .

٤٢٦ معاوية الثاني .

٤٢٨ مروان بن الحكم : الحروب الأهلية في عهده - مؤتمرا الجالية - موقعة مرج راهط - حملات مروان إلى مصر والحجاز والعراق - وفاته .

٤٣١ عبد الملك بن مروان : حالة الدولة الاموية في أول عهده - عوامل انتصار

عبد الملك - التوابون - المختار بن أبي عبيد - الكيسانية وعقائدها - انضمام

التوابين الى المختار - قتل المختار - مسير عبد الملك الى العراق - رجوعه على

أثر سماعه بخروج عمرو بن سعيد بن العاص عليه - معاودته السير الى العراق

٤٤٤ حزب الزبيريين : نشأته - العوامل التي ساعدت على ظهوره - انتشار

الدعوة لابن الزبير - مقاتلة عبد الملك لمصعب - استمالة عبد الملك جند

مصعب إليه - قتل مصعب بن الزبير - محاصرة الحجاج بن يوسف مكة -

قتل عبد الله بن الزبير .

٤٥١ أسباب اضمحلال حزب الزبيريين : انصراف أهل الحجاز عن النزاع

السياسي - تواكل عبد الله بن الزبير في نشر دعوته - قيام الشيعة والخوارج

في وجه ابن الزبير - بخل عبد الله بن الزبير - عدم اهتمام الزبيريين بالدعاية

لأنفسهم - عبارات الدكتور طه حسين - أثر هزيمة ابن الزبير .

٤٥٧ الحجاج بن يوسف والعراق : تولية الحجاج بن يوسف بلاد العراق .

٤٥٨ الخوارج : انضمامهم إلى عبد الله بن الزبير بالحجاز - تفرق الخوارج عن

عبد الله بن الزبير - الخوارج بالبصرة - ازدياد نفوذ نافع في السواد - تولية

المهلب بن أبي صفرة حرب الخوارج - قطري بن الفجاءة - ظهور الخوارج

من جديد - استفحال خطر الخوارج - قيام الشقاق بين الخوارج -

أسباب انتصارات الخوارج .

٤٦٤ فرق الخوارج وتعاليمها : نظريتهم في الخلافة - من كان يتكون الخوارج ؟

أفكار الخوارج الدينية - معاملتهم لمخالفهم في المذهب الديني .

٤٦٧ فرق الخوارج : الأزارقة - النجدية - البيهسية - الاباضية - الصفرية -

رأينا في مبادئ الخوارج - الخوارج في نظر نيكسون .

٤٧٢ خروج ابن الأشعث : موقعة دير الجماجم .

- ٤٧٥ سياسة الحجاج ازاء الموالي في العراق :
- ٤٧٦ صفات عبد الملك : فصاحته - حزمه - آدابه الاجتماعية .
- ٤٧٨ الوليد بن عبد الملك : الفتوحات في عهده : فتح بلاد ما وراء النهر - انتشار الاسلام بها - محمد بن القاسم وفتح بلاد السند - فتح الأندلس : حالة الأندلس قبل الفتح الاسلامي . محاولة العرب غزو اسبانيا - تغلب موسى ابن نصير على بلاد المغرب - عبور طارق البحر : انتصار طارق على ضفاف وادي بكة - لحاق موسى بن نصير بطارق - محاولة جعل البحر الأبيض بحيرة عريضة - عودة موسى إلى دمشق - تولية عبد العزيز بن موسى بلاد الأندلس
- ٤٨٩ حروب العرب فيما وراء البرانس : ولاية السمع بن مالك - حصار تولوز - ولاية عنبسة بن سحيم الكلبي - استيلاؤه على ليون - تولية عبد الرحمن الغافقي - موقعة تور - أثر هذه الموقعة .
- ٤٩٠ أثر فتح الأندلس : طبقة الأشراف - طبقة اليهود - طبقة العبيد ورقيق الأرض .
- ٤٩٢ سليمان بن عبد الملك : حملة القسطنطينية - حالة البلاط في عهده - تنكيه بولاة أخيه الوليد (الحجاج ، قتيبة بن مسلم ، موسى بن نصير) - صفات سليمان .
- ٤٩٥ عمر بن عبد العزيز : توليته الخلافة - عمر بن عبد العزيز في نظر التاريخ .
- ٤٩٦ اصلاحات عمر بن عبد العزيز : رفع الجزية عن أسلم - سياسة عمر ابن عبد العزيز أزاء الخوارج .
- ٤٩٩ يزيد بن عبد الملك : الخوارج في عهده - خروج يزيد بن المهلب - أخلاق يزيد - انقسام البيت الأموي
- ٥٠١ هشام بن عبد الملك - خروج زيد بن علي زين العابدين - الزيدية - يحيى بن زيد .
- ٥٠٤ سياسة هشام ازاء الموالي : تولية أسد بن عبدالله القسري - تولية نصر بن سيار .
- ٥٠٤ المرجئة : تسميتها - عقيدتها - افول نجم المرجئة - أشهر شعراء المرجئة .
- ٥٠٨ أخلاق هشام : اصلاحاته - إمعانه في الانتقام من العلويين

- ٥٠٩ الوليد بن يزيد بن عبد الملك : شعره - انقسام البيت الأموي .
- ٥١٠ يزيد و ابراهيم ابنا الوليد بن عبد الملك : اضطراب جبل بنى أمية في عهده - ميله الى المعتزلة .
- ٥١٠ المعتزلة : نشأتها - عقائدها (التوحيد - العدل - الوعد والوعيد - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) - آراء المعتزلة السياسية - علاقة المعتزلة بالشيعية - علاقة المعتزلة بالخوارج
- ٥١٩ مروان بن محمد : قيام الفتن في عهده - الخوارج في أيامه (حمزة الخارجي) - ظهور العلويين - اشتداد أمر أبي مسلم
- ٥٢٣ أسباب سقوط الدولة الأموية
- ١ - ولاية العهد لاثنتين ٢ ظهور روح العصية : بين مضروالين - بين يزيد ابن عبد الملك ويزيد بن المهلب - قتل بن المهلب - سخط اليمينية على البيت الأموي - انتصار يزيد للقيسية - انحياز هشام بن عبد الملك إلى اليمينية - انضمامه الى المضرية - مقتل خالد بن عبد الله القسري زعيم اليمينية - انضمام يزيد بن الوليد إلى اليمينية - تعصب مروان بن محمد للقيسية - ثورة يزيد بن خالد القسري - العصية في العراق .
- ٣ - ٥٣٢ - إنغماس بعض الخلفاء في البذخ والترف : يزيد بن معاوية - يزيد ابن عبد الملك - الوليد بن يزيد بن عبد الملك .
- ٤ - ٥٣٢ - تعصب الأمويين للعرب : الشعوبية - سخط الموالي .
- ٥ - ٥٣٥ - الحركات السياسية والدينية في عهد بنى أمية وأثرها في سقوط دولتهم : حزب الثقة - الخوارج - الشيعة .
- ٥٣٦ عقيدة المهدي :
- ٥٣٧ وصف الحارث الجعدي لسوء حالة الدولة الأموية - وصف عباس بن الوليد حرج الدولة الأموية - عبارة المسعودي عن سبب سقوط الدولة الأموية
- ٥٤٠ انتقال الخلافة إلى العباسيين : كيف انتقل حق الخلافة من آل علي إلى بنى العباس - تأثر الولايات الإسلامية بالديانات الأخرى - وفاة أبي هاشم - قيام محمد بن علي العباسي بالدعوة - اختيار خراسان لنشر الدعوة العباسية

- ٥٤٧ - الدعاة في خراسان - الرضا من آل محمد - إنضمام أبي مسلم إلى الدعوة .
قيام الدولة العباسية : أسباب قوة المسودة - أبو مسلم يحول دون اتحاد العرب المنقسمين بخراسان - ذبوع الثورة - انكشاف الأمر .

الباب الخامس

الحضارة العربية في عهد الخلفاء الراشدين والامويين

- ٥٥٣ النظم الاسلامية : النظام السياسى - (١) الخلافة : معنى الخلافة - جمع الخليفة بين السلطين الزمنية والدينية - الخلافة والبابوية - شروط الخلافة - ابن خلدون والشيعية - الخلافة والعصية - طريقة انتخاب الخليفة - لمن تؤول الخلافة - انتخاب أبي بكر - رأى السير توماس أرنولد في هذا الانتخاب - رأينا في يعة أبي بكر - انتخاب عمر - انتخاب عثمان - انتخاب على - انتخاب الخلفاء الراشدين - الأمويون والخلافة - العباسيون والخلافة - ألقاب الخليفة - صلة الخلافة بالدين - الخلافة عند الفقهاء : البيروني والخلافة - نظامى عروضى والخلافة - الخلافة عند الفلاسفة والأخلاقين : اخوان الصفاء - شهاب الدين سهروردى - نظام الملك - نصر الدين الطوسى

٥٦٨ ب - ولاية العهد :

٥٦٩ ح - الوزير :

٥٧٠ مجلس الصحابة : علاقة المسجد بإدارة الدولة

٥٧١ د - الكتائب .

٥٧٢ هـ - الحاجب .

٥٧٣ النظام الادارى : ولاية الاقاليم - سلطة الوالى - اختيار الولاية .

٥٧٥ القضاء : توزيع سلطات القضاء - مرتبات القضاء - الحسبة - النظر فى المظالم -

محكمة المظالم - اختصاصات قاضى المظالم .

٥٨١ الشرطة .

٥٨٢ النظام الادارى فى الولايات : التقسيم الادارى فى عهد الامويين .

- ٥٨٤ نظام البريد .
- ٥٨٥ الجيش والبحرية .
- ٥٩٠ الدواوين : صيغ الادارة بالصيغة العربية - الطراز - اصلاح السكة - لغة الديوان في مصر الى عهد الوليد .
- ٥٩٦ النظم المالية : بيت المال - موارد : الزكاة - العشر - الخراج - الجزية - الفء - الغنمة - مصارف بيت المال : أرزاق القضاة - العطاء - فان فلو تن واصلاحات عمر بن عبد العزيز - أثر سياسة عمر في بيت المال .
- ٦١٢ نظام الضرائب في عهد بني امية .
- ٦١٤ العمارة : تأسيس المدن : والبصرة - الكوفة - الفسطاط - الجامع العتيق - دمشق : أبواب دمشق - قصر الخليفة بدمشق
- وصف دور الأغنياء - مسجد دمشق : عبارة المسعودي عن مسجد دمشق - عبارة ياقوت في وصف المسجد
- العلوم والمعارف :
- ٦٢٩ الادب : حالة الشعر في عهد البعثة - تأثر الشعراء الوثنيين بالاسلام - حال الأدب في عهد الأمويين - تطور الادارة الحكومية - عبد الحميد الكاتب .
- ٦٣٢ الشعر والغناء في مكة والمدينة : أثر الغنى والثروة - احتراف بعض العرب الغناء - الغزل وصلته بالغناء
- ٦٣٣ الشعر في الولايات الاسلامية الأخرى : النقائص - عصية القبائل شعرائها - الأخطل - شعراء الأحزاب الأخرى
- ٦٣٤ العلوم النقلية والعقلية : عناية الاسلام بالعلم - حظ النساء أيضا - شغف الصحابة بالعلم - أثر الدعاة في غير جزيرة العرب - نبوغ الصحابة في بعض العلوم - السير والمغازي - الحديث - أشعار الجاهلية - تحسين الحروف العربية
- ٦٣٩ العلوم العقلية : الكيمياء والطب

٦٤٠ الحالة الاجتماعية :

سباق الخيل - كلف الوليد بالخيل - الغناء - أنواع اللهو - نظام الأسرة
العريية - الخصيان - الحريم - المرأة العريية - شهيرات النساء في هذا العصر :
عكرشة بنت الأطرش - أم البنين - الملابس - ملابس النساء - الطعام -
زهد الخلفاء الراشدين وتقشفهم

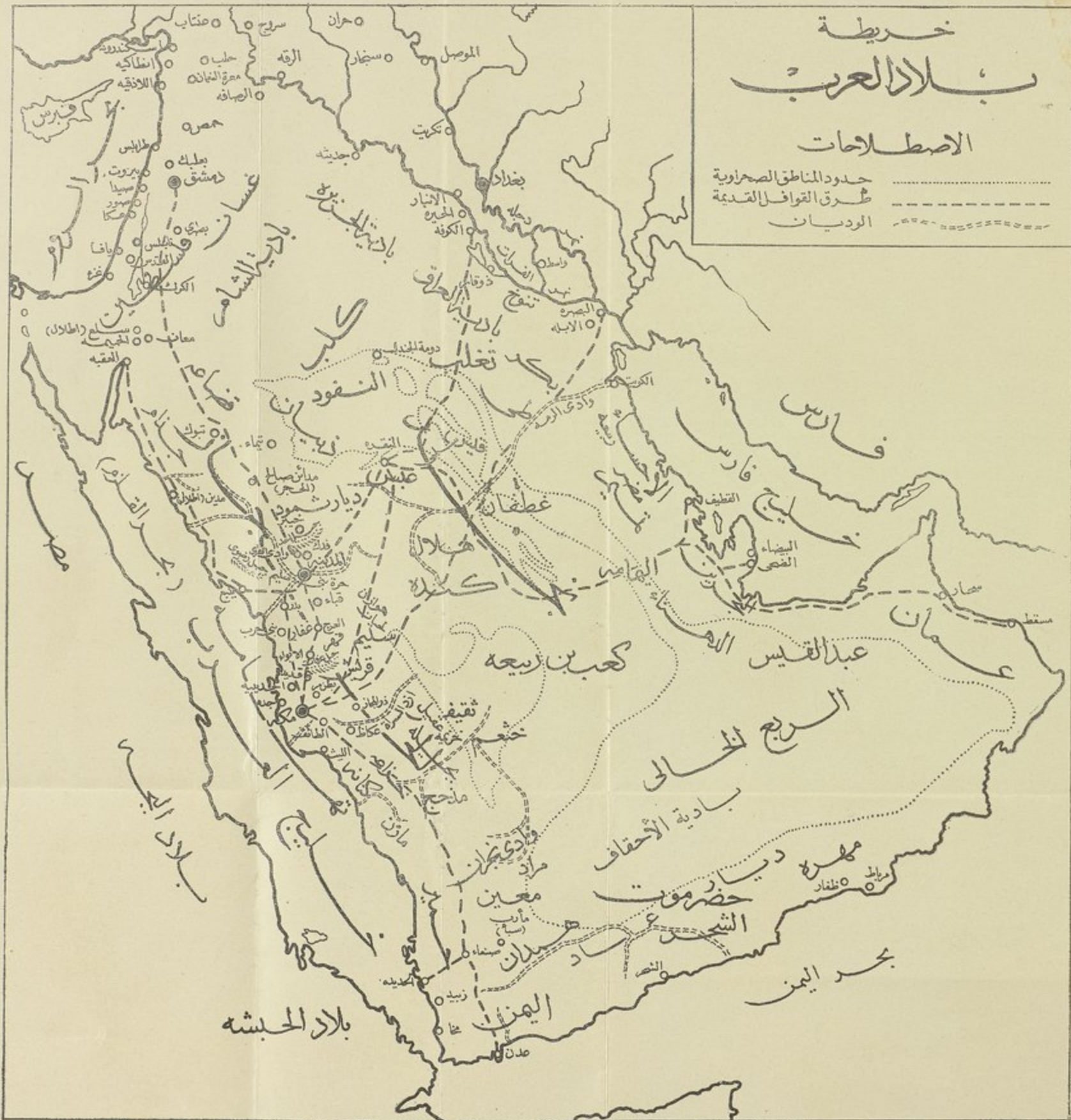
٦٥٢ مصادر الكتاب

٦٦٠ مؤلفات ومترجمات الدكتور حسن إبراهيم حسن

خريطة بلاد العرب

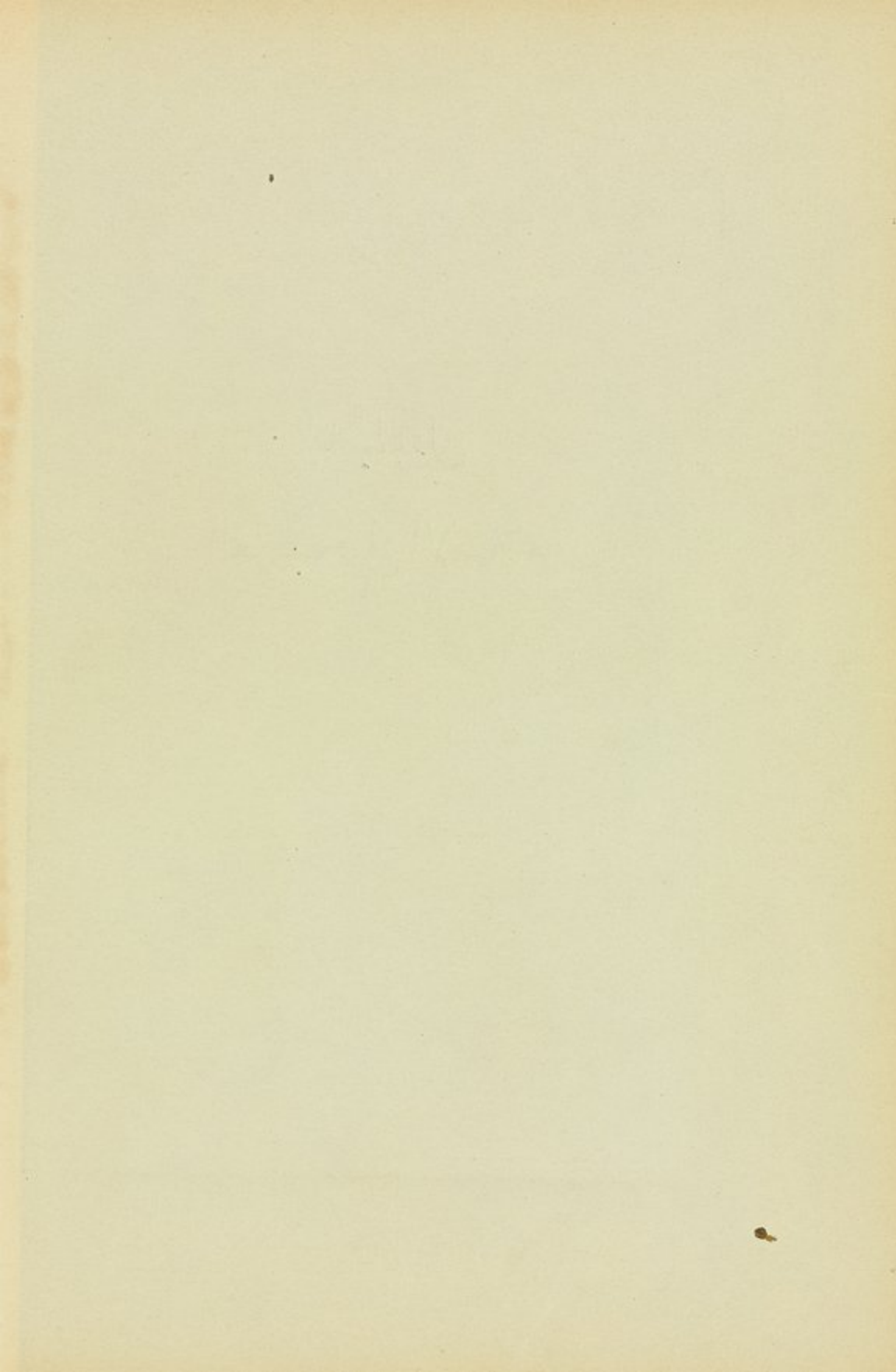
الاصطلاحات

حدود المناطق الصحراوية
طرق القوافل القديمة - - - - -
الوديان ~~~~~



البَابُ الْأَوَّلُ

العرب قبل الاسلام



وصف بلاد العرب :

لما كانت بلاد العرب مهد الدين الاسلامى والدول الاسلامية
وجب أن نعرف شيئاً عن وصف هذه البلاد الجغرافى ، وعن شعوبها
وحالتها الاجتماعية والسياسية والدينية قبل ظهور الاسلام .

يكاد يكون تاريخ العرب القديم مجهولاً جهلاً تماماً لسببين :

١ — انعدام الوحدۃ السياسية ، فقد كانوا بدواً رحلاً ،
متفرقين فى مختلف الأصقاع ، متعادين متنافرين .

٢ — عدم معرفتهم الكتابة ، إذ كان أكثرهم أميين ، ولذلك لم
يدونوا حوادثهم إلا فى أواخر عهد الدولة الأموية . أما قبل ذلك
فكان اعتمادهم على نقل الأخبار شفويًا .

قد بحث الأستاذ نلذكه لفظ « عرب » فى دائرة معارف تاريخ
العالم^(١) فقال : « يظهر أن المدلول الحقيقى للفظ عرب هو صحراء كما
يظهر أن معنى Arabia يشمل صحراء الجزيرة وسورية وشبه جزيرة
سينا ، كما أننا نصادف لفظ Arab ، Arabia فى الكتب
اليونانية . ولهيريدوت معرفة تامة بالعرب وكذلك بالجزء الذى بين
فلسطين ومصر . وقد درس معاصرو هيريدوت من المؤرخين من أمثال
إجزيونوفون Xenophon تلميذ سقراط كلمة عرب Arab دراسة تامة .
ويطلق لفظ عرب على صحراء بلاد الجزيرة بوجه خاص ، كما كان
يطلق على أهل البدو من زمن بعيد لفظ « أعراب » ، وأطلق عليهم
أخيراً « العربان » لتمييزهم عن أهل الحضرة أى « العرب » .

وقد اختلف المؤرخون فى موطن الساميين الأصلي ، وهل هم
من بلاد العرب أو رحلوا إليها من إفريقيا . ومع هذا فإننا نستطيع

(١) Thesdor Naeldeke, *Historians' History of the*
World, vol. VIII, p.p. 2—3

أن تنبين في اللغتين العبرية والآرامية (كما في اللغة العربية) شواهد وآثار تدل على أن آباءهم كانوا في وقت من الأوقات أقواما رُحَلا ، بدليل كثرة أسفارهم من بلاد العرب إلى البلاد الشمالية ، أى إلى صحراء الشام والجزيرة التي كانت تمدهم بما لم يجدوه في صحرائهم الجنوبية لكثرة المطر فيها كثرة نسبية .

العرب وجيرانهم

لا يتورع البدو عن شد رحالهم إلى البلاد الزراعية والصناعية على الرغم من احتقارهم أصحاب المهن والزراعة ، وذلك لما تعودوه في حياتهم البدوية التي نشأوا عليها ؛ كذلك كان البدو من العرب يخالطون سكان هذه البلاد الزراعية أو الصناعية لأجل الحصول على أرزاقهم إذا ما ألجأتهم الحاجة إلى ذلك ؛ ولهذا كان من أهم صفاتهم التنقل والرحلة إلى حيث يطيب لهم العيش إذا ما نضب معين الرزق من الجهة التي يسكنون فيها . ويقول الأستاذ نلدكه ^(١) : كان في القرن الرابع الميلادي قبيلة من النبطيين Nabateans أصلهم أقوام رحل في جنوب فلسطين ، استطاعت أن تنشئ مملكة مستقلة تمتد من ملك بني إسرائيل حتى دمشق ، وقد وصلت إلى درجة من الحضارة لا يستهان بها ، وتبعت رومة تبعية محدودة ، وظلت على ذلك حتى أتى الامبراطور تراجان ففضى عليها في سنة ١٠٦ م .

هذا وقد استقر كثير من القبائل العربية في أجزاء كثيرة من جزيرة العرب وأصبحوا من رعايا الدولة الرومانية ، وتكلموا الآرامية بدل الاغريقية لأن اللغة العربية لم تكن إذ ذاك صالحة للكتابة ، إذ أن حروفها لم تكن قد تهذبت ووصلت إلى الحالة التي هي عليها الآن . وقد ظهر منذ ذلك الحين لفظ Saracens, Taits ؛ وقد أطلق

Hitorians' History of the World, vol, VIII. p.p. (١)
2—3 Sprenger, Die alte Geographie Arabiens,
p. 293

أهالى الولايات الرومانية المجاورة لبلاد العرب لفظ Saracens على هذه القبائل بسبب تعديهم على القوافل أو فرضهم مكوساً ثقيلاً عليهم ، فأصبح يطلق على البدو من أهل هذه الجهات Saracens ؛ ومن ثم أطلق هذا اللفظ على جميع العرب ، بل وعلى جميع المسلمين من غير تمييز ، ثم تعداه إلى الشرقيين بلا استثناء . أما لفظ Taits فقد أطلق بهذه الصورة على جميع العرب ، وقد أطلقه عليهم السوريون من أهل الرُّهَاء Edessa وأهل بابل ؛ وربما اشتق هذا الاسم من لفظ Taits أو طيء سكان شمال نجد الذين انتشروا في جهات مختلفة خارج بلادهم .

تقع بلاد العرب في الجنوب الغربي من آسيا . وهي شبه جزيرة يحيط بها الماء من ثلاث جهات : البحر الأحمر والمحيط الهندي والخليج الفارسي . ويطلق العرب على بلادهم جزيرة العرب ؛ وقد تصح هذه التسمية إذا اعتبرنا بلاد الجزيرة والشام من جزيرة العرب باعتبار أن العرب قد سكنوا جزءاً مهماً منهما قبل الاسلام .

بلاد العرب صحراء ، ولاكنها ليست ككل الصحارى الجرداء التي لازرع فيها ولا ماء . وأول ما يلاحظ عليها هو طبيعة سطحها . فهي مختلفة الأجزاء ، إذ بعضها مغطى بالسكبان الرملية ، والبعض الآخر بالأحجار ، كما أن بعضها منخفض وبعضها مرتفع . وكانت هذه التفرقة سائدة بين الجغرافيين في العصور القديمة فقسموا بلاد العرب إلى : Arabia Petrix (أو Petraea كما سماها بطليموس) وهي الأرض الواقعة جنوب غربي بادية الشام وعاصمتها بطره ؛ Arabia Deserta وقد أطلق على بادية الشام فقط كما أطلقه البعض على شبه جزيرة العرب لجذبها بوجه عام ؛ Arabia Felix ، وهي بلاد اليمن التي تسمى الأرض الخضراء أو البلاد السعيدة التي قامت فيها حضارة معين وسبأ^(١) .

وتنقسم بلاد العرب بحسب طبيعتها إلى خمسة أقسام :

١ — تهامة : وهى الأراضى الواقعة بمحاذاة ساحل البحر الأحمر الشرقى ؛ وسميت بهذا الاسم لشدة حرها وركود ريحها ، من التَّهْم وهو شدة الحر وركود الريح ، وسميت كذلك الغور لانخفاض أرضها .

٢ — الحجاز : وتقع شمالى بلاد اليمن أى شرقى تهامة ، وتمتد إلى فلسطين . وسميت حجازاً لأنها تحجز بين تهامة ونجد ، وهو - كما وصفه جوستاف ليون^(١) - إقليم جبلى رملى يتكون فى الصقع الأوسط من المنطقة المعتدلة الشمالية تجاه البحر الأحمر ويحتوى على المدينتين المقدستين مكة والمدينة .

٣ — نجد : وتمتد بين اليمن جنوباً وبداية السماوة شمالاً ، والعروض وأطراف العراق ؛ وسميت نجداً لارتفاع أرضها .

٤ — اليمن : وتمتد من نجد إلى المحيط الهندى ، ويحيط بها حضرموت والشَّجَر وعُمان فى الشرق .

٥ — العروض وتشمل اليمامة والبحرين ؛ وسميت عروضاً لاعتراضها بين اليمن ونجد والعراق .

ويقول « هـل » فى كتابه « حضارة العرب » : وقد تزول هذه الدهشة التى أثارها الاعتقاد السائد بأن بلاد العرب صحراء جرداء لازرع فيها ولا ماء إذا ما بحثنا فى أرض بلاد العرب من الناحية الطبيعية (الطبوغرافية) . فشبه الجزيرة هذه لا تشتمل فقط على صحار وسهوب ، ولكنها تشتمل أيضاً على أراض غاية فى الخصب كانت تزرع منذ آلاف السنين ، فيها المدن والقرى الآهلة بالسكان .

Justave le Bon, Civilisation des Arabes, T.I, p. 11. (١)

موطن الخصب
في بلاد العرب

وتمتد هذه الأقسام الخصبة على ساحل شبه الجزيرة بوجه عام :
في الجنوب الغربي بلاد اليمن ، ويسمى الأقدمون الأرض الخضراء ،
وفي الجنوب بلاد حضرموت موطن البخور الكثير الاستعمال في
الآزمان الغابرة ؛ وفي الشرق بلاد الأحساء الخصبة الواقعة على الخليج
الفارسي - وكانت جميع أرضها صالحة للزراعة عدا جزء قليل جدا -
وأما الساحل الغربي فأرضه وعرة حزنة تتخللها التلال والكشبان ،
ولكنها تمتاز بمراعيها . وكانت في الآزمان الغابرة أحسن حالا مما هي
عليه اليوم . أما أرض بلاد العرب الوسطى المرتفعة - وهي نجد -
وما يتخللها من الجبال المرتفعة هنا وهناك ، ووديانها الطويلة وسهوبها
التي يرعى فيها أحسن الخيول العربية ، والتمامة الواقعة الى الجنوب
الشرقي ، فقد كانتا تسدان حاجة العرب من القمح - كما كانتا في القرنين
السادس والسابع - لا تقلان عن أراض أوروبا المنزرعة اليوم بل ربما
كانت تبذرها خصبا في كثير من البقاع . (١)

وقد وصف سديو (٢) بلاد الحجاز فقال « إن وصف الحجاز
يجذب النفوس ويشوقها أكثر من غيره ، لاشتماله على أكثر مدائن
العرب ، و « يثرب » التي سميت فيما بعد المدينة . ويتخلل أرض
الحجاز كشبان من الرمال وآكام خصبة - وهي مساكن القبائل -
وحول هذه الآكام قرى وضياح . وعليها قلاع حصينة تقيهم شر هجمات
الاعداء ، وينبت بمنحدراتها بعض الحبوب والثمار للبواشي ، وبها عيون
ماء نابغة ، وغرب إحدى تلك الآكام مدينة الطائف وهي بستان مكة
لما لقوا كهه من الشهرة العظيمة »

(١) Hell, Cultur der Araber, trans. by Khuda

Bukhsh, p. 2—3

Sédillot, Histoire générale des Arabes, tome I. (٢)

p.p. 41—42

وصف بلاد العرب
الطبيعي

هى شبه الجزيرة العظيمة الواقعة فى الجنوب الغربى من آسيا :
وسطها مؤلف من سهول قاحلة رملية جنوبا ، حجرية شمالا . وبالجهات
القاحلة أما كن جبلية ذات ينابيع مائية وسكان يشتغلون بالزراعة ، ولهم
مدن وقرى كثيرة كما هو الحال فى الصحراء الافريقية . وأول من وقف
على أحوالها من الأوربيين ووصفها وصفا تاما سائح اسمه بلجراف
(Palgrave) ، فقال عنها « أنها كتلة من الأرض الخصبة حولها منطقة
عريضة من الصحارى غير قابلة للسكنى ، تتصل فى كل أرجائها بالمنطقة
الجبلية المشرفة على البحر الأحمر ، ويفصلها عنه منطقة أخرى ساحلية
رملية شديدة القيظ اسمها تهامة »

وبلاد العرب كثيرة الجبال الجرداء المختلفة اللون ، ومنها الحار (١)
كما يوجد بها الصحارى الرملية المترامية الأطراف . وتتخلل هذه الجبال
الوديان التى هياتها السهول ، والأراضى القرية منها فهى خصبة التربة
صالحة لإقامة الأهالى الذين يعتمدون على ما تنبت تربة أرضهم وما
يحدونه من ماء يشربون منه ويسومون أنعامهم ؛ وأما ما بعد عن هذه
الوديان فهو قفر غير صالح للسكنى . وأعظم وادٍ ببلاد العرب هو وادى
الدهناء الذى يعود على العرب بالخير إذا أخصب ؛ غير أن الارتفاع بجميع
الماء غير ميسور ، لأن الكثير منها يغىض فى الرمال ؛ وقد يتأخر المطر ،
فتشتد الحال بالقبائل التى تعتمد عليه وهى كثيرة . ومع ذلك فقل أن
يبقى العرب فى مكان واحد ، لأنهم يتنقلون إلى حيث يوجد الماء . وبلاد
الذين كثيرة الوديان ، كما أن فى بلاد العرب مياهها يسمونها الأحساء .
والحساء جمع حسى وهو موضع رمل تحته صلابة ؛ فاذا نزل المطر على
ذلك الرمل منعته الصلابة أن يتسرب فى الأرض .

ولما كانت مياه هذه الأودية لاتسد حاجة الجزيرة ، غلب عليها كثرة الجذب وأسبابها

(١) جمع حرة وهى الحجارة الثخيرة السوداء .

الجذب ؛ لأن الكثير من مائها يغيب في باطن الأرض ، فلا يمكن الارتفاع به إلا بطرق هندسية لم يكن للعرب المام بها ، اللهم إلا بلاد اليمن التي استطاع أهلها أن يحولوا مجارى الوديان ؛ إذ بنوا سدًا يحكمها يحجز الماء خلفه في أرض مُصلبة للارتفاع به وقت الحاجة .

ويظن البعض أن المعيشة في الصحارى غير ممكنة ؛ ولكن الحال على العكس من ذلك لأن جوها ملائم للصحة ، ولسكنى قوم أقوياء خالين من الأمراض في استطاعتهم أن يتحملوا المشاق التي فرضتها عليهم طبيعة أرضهم . وكمية المطر قليلة أو منعدمة في بلاد العرب اللهم إلا في بلاد اليمن ، فانها أكثر بلاد العرب أمطارا ؛ إذ تمر عليها الرياح الموسمية الجنوبية الغربية التي تقابل الجبال ، فتساقط الأمطار على سفوحها الجنوبية . وقد تتسرب هذه الأمطار إلى باطن الأرض ، ثم تتجمع في بعض الجهات المنخفضة وتظهر على شكل آبار ، وتسمى هذه الجهات بالواحات .

وإذا نظرنا إلى خريطة بلاد العرب ، نجد أن في هذه البلاد جزأين صحراويين : أحدهما في شمال هضبة نجد واسمه النفود ، ويمتد من شمال هضبة نجد حتى جنوب فلسطين ؛ وهو كشيان رملية يتخللها وديان عميقة لا يصل إليها الماء . ويمكن اختراق النفود من الشرق إلى الغرب في نحو أربعين ساعة مع صعوبة عبورها . والصحراء الأخرى في الجنوب الشرقي من جزيرة العرب ، وتقع شمال حضرموت واسمها الدهناء أو الصحراء الحمر ، وهي أشق بكثير وأجذب من صحراء الشمال . ولم يعبر أحد تلك الأرض حتى الرحالة والبدو أنفسهم . وما عدا ذلك ترى ببلاد العرب أراضى زراعية وواحات يمكن السكنى فيها . وقد أكتسبت طبيعة هذه البلاد أهلها النشاط والخفة ، وخصوصا البدو منهم ؛ فانهم لا يعتمدون كثيرا على الزراعة ولا سيما إذا انعدم الماء ،

بل إن جل اعتمادهم على أنعامهم وخصوصا الابل ، فيأكلون لحومها ويشربون ألبانها ويكتسون بأوبارها ، وهى تحملهم وتحمل أمتعتهم إلى حيث يريدون الإقامة إذا انعدم الماء ، أو أرادوا الرحيل إلى جهة من الجهات للتجارة .

الشعوب العربية :

قبل أن نتكلم عن حضارة العرب فى الجاهلية وعن حالتهم الاجتماعية والدينية ، يجب أن نلمّ بشيء عن نسبهم . فى هذه البلاد قبائل شتى ترجع فى أصلها إلى شعبين عظيمين هما قحطان وعدنان ؛ وموطن شعب قحطان بلاد اليمن . وقد تشعبت قبائله وبطونه من سبأ ابن يشجب بن يعرب بن قحطان . ومنهم بطون حمير وأشهرهم قضاة ، وبطون كهلان وأشهرهم همدان ، وطى ، ومذحج ، وكندة ، ولخم ، والأزد الذين منهم الأوس والخزرج ، وأولاد جفنة الذين ملكوا الشام . وقد فكر ملوكهم فى الاستفادة بمياه السيول ، ولذلك أقاموا سد مأرب الذى سنتكلم عنه فى حضارة العرب .

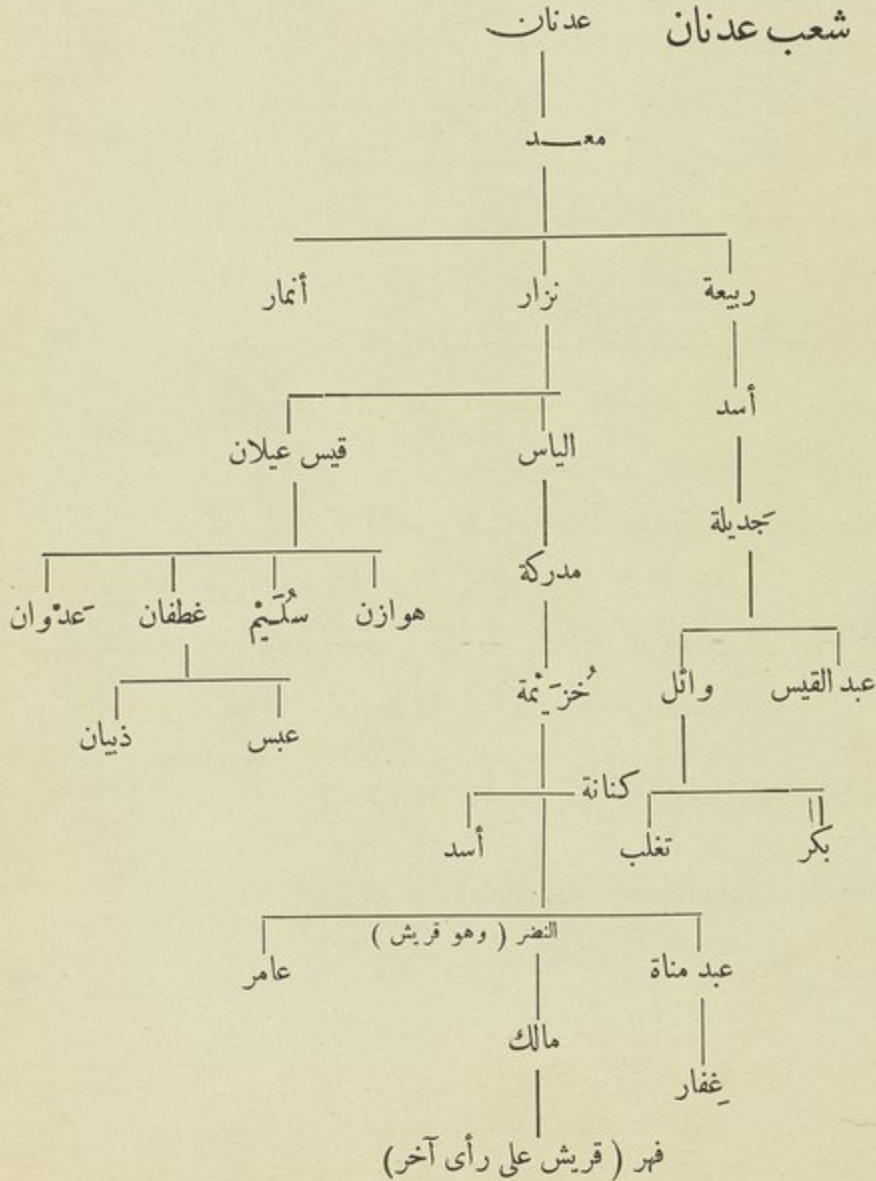
القحطانيون

ولما أخذت بلاد اليمن فى الانحطاط أخذ أهلها يهاجرون إلى أرجاء جزيرة العرب ؛ فسار ثعلبة بن عمرو نحو الحجاز ، و انتهى إلى المدينة فغلب هو وأهله من كان بها وأكثرهم من اليهود ، وسار حارثة ابن عمرو - وهو خزاعة - بمن معه فاقتحموا الحرم وأجلّوا عنه سكانه من جرهم (١) ، وسار عمران بن عمرو نحو عُمان فنزلها واستوطنها هو وبنوه وهم أزد عُمان ، وسار جفنة بن عمرو إلى الشام وأقام بها هو وأولاده وهو أبو الملوك الغساسنة . ومنهم قبيلة لخم بن عدى الذين منهم نصر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة بالخير ، ومنهم

هجرتهم الى الشمال والشرق

(١) هى قبيلة من اليمن .

طَيء الذين ساروا نحو الشمال ونزلوا في الشمال الشرقي من المدينة المنورة ، ولهم شأن كبير في تاريخ العرب الطائيين قبل الإسلام لما كان لهم من القوة والمنعة ، ومنهم قبيلة كَلْب بن وَبَرَة من قُضاعة الذين أقاموا ببادية السَّماوة التي في طرف شمال نجد ، وتتصل بأطراف العراق ويخترقها وادي الدهناء .



هكذا تفرقت القبائل اليمنية واحتلت أخصب بقاع جزيرة العرب في الشمال والغرب . وقد بقي باليمن كثير من قبائل حمير وكندة ، وكان لحميم السيادة على هذه البلاد .

أما شعب عدنان فموطنه الأصلي مكة وما جاورها من أرض الحجاز وتهامة . وإذا كان المؤرخون قد اختلفوا في سلسلة نسب عدنان إلى إسماعيل ، فقد اتفقوا على أن هذا النسب ينتهي إلى إسماعيل . وفي ذلك يقول الأستاذ نيكلسون ^(١) « لا وراء أن هذه الأنساب خرافية إلى حد ما وأن نسب عدنان لا يزال مثار كثير من الشك على الرغم من أن العرب قد أجمعوا على أنه من ولد إسماعيل ، وبنوا على ذلك أنسابهم وظهرت فيه عصبياتهم واضحة جلية . وخير لنا أن نتحدث عما يعتقد العرب ويتخذونه أساساً لنظامهم الاجتماعي ولآثارهم الأدبية صارفين النظر عن نقده وبيان خطئه من الخطأ والصواب » . ويقول الأستاذ مرجوليوت : إن الأبحاث الحديثة قد أظهرت على أن نسبة كل من القبائل العربية إلى جدّها الأول يشوبها شيء من الشك » ^(٢) .

شعب عدنان

رأى نيكلسون

رأى مرجوليوت

ومهما يكن من شيء فقد أمر الله إبراهيم ^(٣) أن يرسل بولده إسماعيل وأمه هاجر إلى مكة ، فأقام مع جرهم من أولاد قحطان

Nicholson, Lit. Hist. of the Arabs, p.p.XVIII, (١)

XX, XXI

Margoliouth, Mohammed and the Rise of Islam, p. 4 (٢)

(٣) ولد إبراهيم عليه السلام بالعراق . ولما أمره الله تعالى أن يدعو قومه إلى التوحيد دعا أباه فلم يجبه ، ودعا قومه فأجابوه . ولما نعى خبره إلى نمرود أمر به فألقى في النار فكانت عليه بردا وسلاما كما يحدثنا القرآن (قالوا حرقوه وانصروا آلهتهم إن كنتم فاعلين . قلنا يانار كوني بردا وسلاما على إبراهيم - سورة الانبياء ٢١ : ٦٨ - ٦٩) . وقد سار إبراهيم وزوجته سارة وغيرهما آمن بدعوته إلى حران ، ثم أتى مصر حيث لحق بهم حق فرعون الذي أطلقه هو

فنشأ معهم . وكانت لغتهم العربية فتعلمها منهم ^(١) ، ثم صاهرهم ووُلد له اثنا عشر ولداً تفرعت منهم بطون كثيرة ^(٢) . ويقال لبطون هذا الشعب مَعَدَّ وِزَار ، ومن نزار إِيَاد وربيعة ومُضَر ، ومن هذين الأخيرين كثرت البطون .

وكان من ربيعة قبائل كثيرة لها شهرة في التاريخ ، وكانوا ينافسون مضر في الشرف (ومنهم كان أكثر الخوارج في الإسلام) . ومن ربيعة بنو أسد ، وكانوا يسكنون شمالي وادي الرُّمَّة ، وعبدالقَيْس ، ووائل وتنقسم إلى بكر وتغلب .

وقد تشعبت قبائل مُضَر شعبتين : قَيْس عَيْلان بن مضر ومنهم هوازن وسُلَيْم وعُظْفَان ، وإلياس بن مضر . ومن عُظْفَان عَبْس وذُبْيَان . ومن أولاد إلياس بطون تميم بن مُرَّة وكانت تسكن بادية البصرة ، وهذَيْل بن مُذْرِكَة وكانت تسكن الجبال القريبة من مكة ، وبطون كِنانة بن مُخزِئمة ومنها قريش .

وقد انقسمت قريش إلى قبائل شتى من أشهرها جُمَح وسهم ابني هُصَيْن بن كعب ، وَعَدِي بن كعب ، وَتَيْم بن مرة ، وَزُهْرَة بن كلاب ، وعبد الدار بن قُصَي ، وأسد بن عبد العزَّى بن قُصَي ، وعبد مناف بن قُصَي ، وكان له من الولد عَبْدُ شَمْسٍ ونَوْفَل

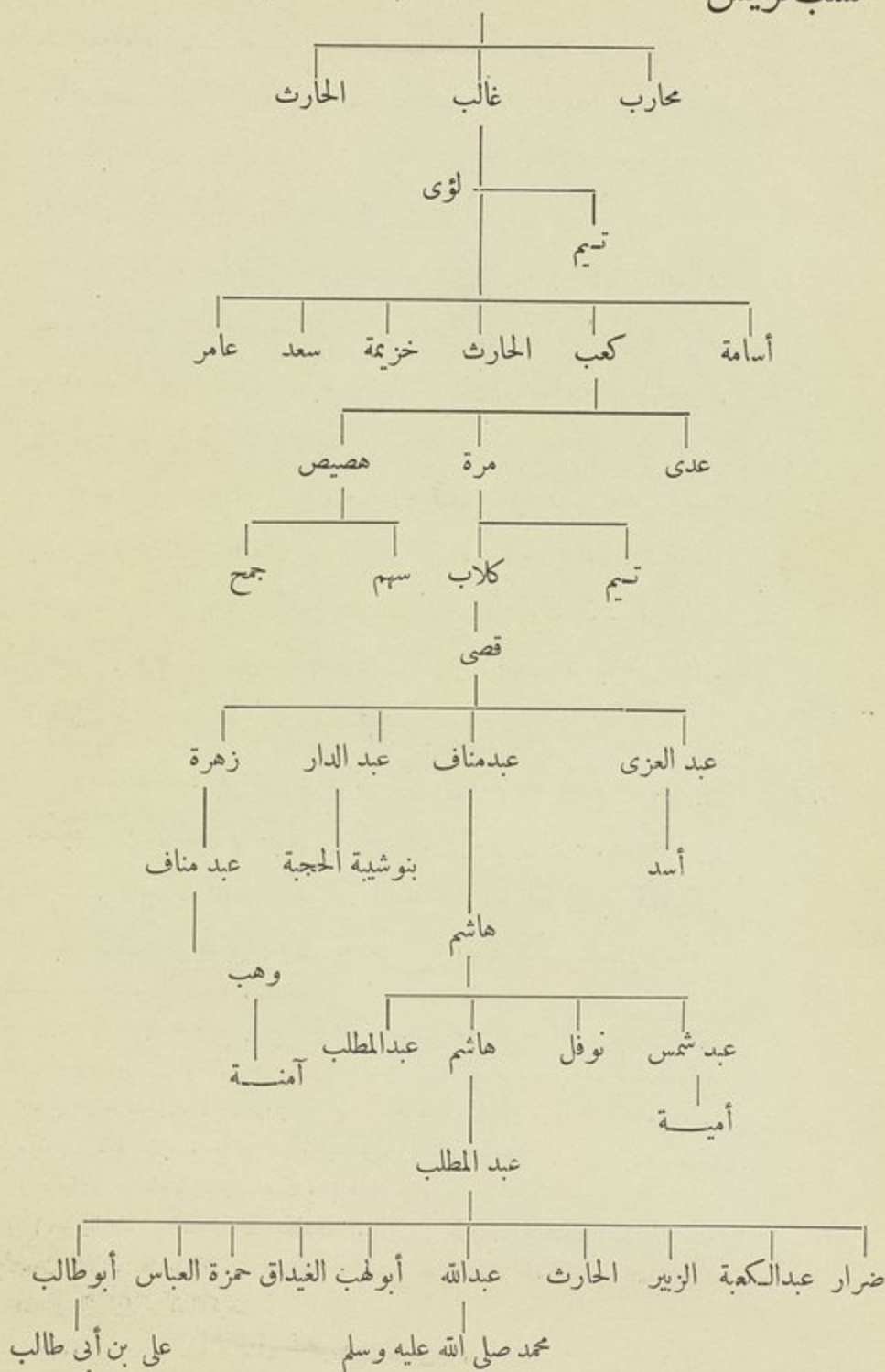
وزوجته بعد أن ظهرت على يدا إبراهيم آيات النبوة وهب سارة هاجر جارية لها ، ثم سار ثلاثهم إلى الشام واقاموا بين الرملة وبلا . وكانت سارة لا تلد ، فوهبت إبراهيم هاجر فأولدها اسماعيل ، لحزنت سارة لذلك ، فرزقها الله اسحق . ثم غارت سارة من هاجر وابنها اسماعيل وقالت : ان ابن الامة لا يرث مع ابني ، وطلبت من ابراهيم أن يخرجها عنها فاسار ابراهيم بهاجر واسماعيل إلى بلاد الحجاز وتركهما بمكة . ابو الفداء ج ١ ص ١٣

(١) يظهر لنا أن اسماعيل كان يتكلم العبرانية وأن بني جرهم كانوا يتكلمون لغة عربية مخالفة بعض الشيء . لما هي عليه الآن وأن اللغتين قد امتزج بعضهما ببعض فكانت منهما اللغة العربية الفصحى التي نزل بها القرآن الكريم

(٢) كتاب المعارف لابن قتيبة (طبعة وستنفلد) ص ١٨ .

نسب قريش

فهر (وهو قريش)



وعبد المطلب وهاشم . ومن بيت هاشم النبي صلى الله عليه وسلم ،
والعباسيون أولاد العباس بن عبد المطلب ، والعلويون أولاد علي بن
أبي طالب .

ولما تكاثرت العدنانية ورأوا أن البلاد التي كانوا يقيمون فيها قد
ضائق بهم ، تفرقوا حيث الماء والزرع . ومن هاجر منهم قبيلة
عبد القيس وبطون من تميم بن مرة ، هاجروا الى جهة البحرين .
وخرج غيرهم من القبائل الى اليمامة والبحرين وبلاد الجزيرة وبادية
البصرة ، وسكنت ثقيف بالطائف ، وهوازن في شرق مكة بنواحي
أوطاس ^(١) بين مكة والبصرة .

وأقامت قریش بمكة وضواحيها ، إلا أنهم ظلوا متفرقين حتى جاء
قصي بن كلاب فكوّن لهم واحة وغلب خزاعة على أمر الكعبة ؛ ومن
ثم ظهر أمرهم بين القبائل الأخرى . ^(٢)

الحضارة العربية قبل الإسلام :

لم يذكر لنا المؤرخون شيئاً ذا غناء عن الحضارة التي وصل إليها
العرب في الجاهلية ؛ ولكن مما لا شك فيه أنه كان في الجزء الجنوبي
الغربي من هذه الجزيرة — أي في بلاد اليمن — مملكة سبأ وحميز . وقد
بلغت هذه البلاد قبل الميلاد بألفي سنة درجة من الحضارة تدل عليها
أطلال المباني الفخمة والنقوش الكثيرة .

وهناك شواهد كثيرة لهذه الشهرة والعظمة والآبهة التي وصلت
إليها مملكة سبأ ، منها هذه القصة الخاصة بزيارة الملكة سبأ أو بلقيس

(١) اسم واد وقعت فيه موقعة حنين التي أوقع فيها النبي صلى الله عليه وسلم بني هوازن

(٢) راجع Wustenfild; Genealogische Tabellen der

Arabischen Stämme und Familien (Göttingen, 1852-1853)

لسليمان بن داود ، وما ظهرت به هذه المملكة من فاخر الثياب و ثمين
الحلى ، وما أهدته إلى سليمان من الهدايا الثمينة .

تجارة اليمن

وقد جمع أهل سبأ تلك الثروة الكبيرة من احتكارهم التجارة ،
وعلى الأخص في المواد العطرية كالبخور الذى كان شائع الاستعمال فى
الهياكل والمعابد بمصر والحبشة وغيرهما ؛ وكانت قوافل سبأ تحمل هذه
الحاصلات وغيرها من حاصلات هذه البلاد إلى الأصقاع الشمالية ،
كما كان لهم محطات تجارية تصل بلادهم بغيرها من البلاد .

ويؤيد هذا رأى ما وجد من النقوش فى شمال الحجاز . فهذه
النقوش تدلنا على ما كان هنالك من علاقات تجارية بين اليمن وغيرها
من البلاد العربية . ولا شك أيضا فى أن اليمن قد بلغت درجة عظيمة
من المدنية والحضارة انتقلت الى غيرها من أجزاء جزيرة العرب وعلى
الأخص الجهات التى اتصلوا بأهلها عن طريق هذه الأسفار المنتظمة .
بيد أنه لم يستمد من حضارة اليمن أحد من الأمم غير سكان بلاد
العرب أنفسهم .

أسباب انحلال اليمن
فى رأى العرب

هذا ، ويرجع انحلال هذه البلاد إلى أسباب متباينة ؛ أما مؤرخو
العرب فيذهبون إلى أن السبب فى ذلك هو تصدع سد مأرب الذى
ما كان لهم غنى عنه لرى أرضهم ريا منتظما ، والذى كان السبب
الأساسى لرقى بلادهم وتقدمها . أما المستشرقون فيذهبون إلى أن تهدم
هذا السد كان فى حد ذاته نتيجة اهمال من جانب أمة آخذة فى
الانحطاط ^(١) . ونحن نأخذ بهذا الرأى ، وهو أن هذا الخراب الذى
حل بأهل سبأ جاء تدريجيا قبل انهيار السد بزمان طويل ، لأنه لا يعقل
أن تهدم مدنية عظيمة دفعة واحدة ؛ وكان من أثر هذا الخراب
والانحلال فى تلك الدولة أن هاجر عدد كبير من أهلها إلى الجهات
الشمالية والشرقية من جزيرة العرب .

فى رأى المستشرقين

ويظهر لنا أنه لما تطاولت الأزمان على هذا السد وأهمله الملوك تصدعت جوانبه ، ولم يعد يحتمل هجمات السيول والمياه الكثيرة المحجوزة خلفه ، فانكسر وفاضت المياه على ماحوله من القرى والمزارع فأتلقتها . وكان ذلك سنة ١٢٠ ق . م على ما قاله سديو (١)

وهنا اختلفت كلمة المؤرخين في هجرة أهل مأرب من بلادهم . فبعضهم من يقول إن هجرتهم كانت قبل أن ينهدم السد ، ومنهم من يقول عكس هذا ، أى أن الهجرة إنما كانت بعد أن انكسر السد وأغرق الأرض والزرع . ويذهب أنصار الرأى الثانى إلى ما جاء فى القرآن الكريم (٢) فى سورة سبأ (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ : بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبَّ غَفُورٌ ، فَاغْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى الْأُكْلِ خُمَظٍ وَأَثَلٍ وَشَجَرٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ) . ومن هذا يتضح لنا أن سيل العرم إنما أصابهم وبدل أرضهم وهم على حالة إقامتهم بها . ومن سار على هذا الرأى سديو .

وليس لدينا ما يدل على أن العرب أخذوا عن الحضارات القديمة - كالحضارة المصرية مثلاً - اللهم إلا فى أواخر أيام الجاهلية ، فان هناك ما يثبت اتصالهم بحضارات غيرهم من الأمم ، وخاصة حضارة الفرس ودولة الروم الشرقية أو البيزنطية . وكانت حلقة الاتصال الأراضى الواقعة بين الفرات وسورية . فقد وجدت قبائل عربية استوطنت الأراضى القريبة من حدود الدولة الرومانية والفارسية وتمتعت بالاستقلال

Sédillot : Histoire générale des Arabes , Tome (١)

I. p. 36.

(٣)

(٢) سورة سبأ ٣٤ : ١٤

المحدود : أنشأها الفرس والرومان واستعانوا بها على الوصول إلى أغراضهم السياسية التي كانت ترمى إلى الوقوف في وجه القبائل العربية الأخرى التي كانت تغير على بلادهم بقصد النهب والغزو وتهديد الأمن في القرى الزراعية والمراكز التجارية المجاورة لتلك القبائل كلما أصابهم الجذب ؛ واستعاض الرومان والفرس عن جندهم بجنود أقيال (١) العرب كالغساسنة لأنهم أدرى بمنازلة العرب .

وقد اتخذ الرومان سياسة خاصة إزاء هؤلاء الجيران الذين كانوا يهددون الأمن في القرى الزراعية المجاورة لهم ؛ كما عبدوا الطرق وأنشأوا مصلحة حدود أقاموا فيها الجند ، وعقدوا المعاهدات لحفظ الأمن ، كما تفعل انجلترا الآن في الهند من إبرام المعاهدات مع أمراء الشمال الغربي كالأفغان وتسليح منافذ جبال الشمال الشرقي . وذلك طبعى لأن إبرام المعاهدات مع أقيال العرب لا يؤدي إلى الغاية المرجوة ، إذ ليست لهؤلاء الأقيال سلطة كبيرة على الشعب .

والذى يهمننا في هذا الصدد هو أن المناذرة والغسانيين حاولوا أن يقتلوا حضارة الفرس والروم ؛ فأحاط ملك الحيرة نفسه بجميع مظاهر البلاط الفارسي ؛ وكذلك كان الحال مع ملك الغسانيين بالنسبة إلى الدولة الرومانية الشرقية . وقد توالى وفود العرب على كسرى وقيصر ، حتى إن بعضهم قد تنصر واعتنق الدين المسيحي .

وكان من أثر اتصال العرب بالفرس والبيزنطيين أمران : الأول نزول العرب في المدن الفارسية والرومانية للتجارة ؛ وكان لذلك أثره في تثقيف عقول العرب الذين شاهدوا الفرق الشاسع بين مدنها ومدن بلاد فارس والرومان الأمر الذى نقف عليه من الشعر الجاهلى ، كما نقف من هذا الشعر أيضاً على أن العرب وصلوا إلى مدينة

أثر الفرس والروم
في العرب

(١) الأقيال هم الملوك التابعون لغيرهم

القسطنطينية نفسها . الثاني : أنهم نقلوا إلى العرب كثيرا من الألفاظ والقصص الفارسية والرومية كما تسرب إلى العرب عن طريقهم بعض أخبار الفرس والروم ومعتقداتهم .

وكان في جزيرة العرب نفسها ملوك من قبيلة كندة ، وكان موطنهم بلاد حضرموت الواقعة في الجنوب الشرقي ؛ وقد ملكوا جهات مختلفة من هذه البلاد ، كما كان لهم السلطان والقوة في بلادهم . ولكن أمر هذه المملكة لم يدم طويلا لأسباب منها :

١ — أن العرب لا يصبرون على قبول الحكم الملكي ؛ لأنهم أهل حلٍّ وترحال يغيرون أميرهم بتغير موضع إقامتهم .

٢ — لكثرة الحروب التي قامت بين القبائل العربية بسبب النزاع على البقاع الخصبة .

٣ — ولتأجج نيران العصبية بين القبائل مما أدى إلى كثرة حروبهم ومنازعاتهم ، وميلهم إلى الأخذ بالثأر ولو لأسباب واهية قد لا يكون للمعتدى أثر كبير في إثارتها .

والخلاصة أن سلطة الحكومة عند العرب لم تستطع أن تبدل من هذه العادات الراسخة في القدم والتقاليد الموروثة ، لأن العرب قد فطروا عليها بحكم البيئة وطبيعة البلاد .

الحالة الاجتماعية :

نعني بالحالة الاجتماعية علاقة العربي بزوجته وأولاده وبني عمه ، وعلاقة القبائل المختلفة بعضها ببعض .

وإذا بحثنا تاريخ العرب القديم وجدنا فيه ثلاث مؤثرات عظيمة هي : أولا : أنهم يتكلمون لغة واحدة هي العربية ، وإن اختلفت لهجاتها .

ثانيا : أنهم يدينون بدين واحد هو الدين الوثني .

ثالثا : أنهم من جنس واحد هو الجنس السامي .

وتفسر لنا هذه العزلة التي فرضتها الطبيعة على بلاد العرب ، كيف أن الجنس السامي لا يزال نقيا حافظا لصفاته .

هذا ، وتشمل بلاد العرب فريقين من السكان : بدو وحضر . فأما البدو فيعيشون في الصحراء ، وهم — كما وصفهم في عصر الأسرة التاسعة عشرة سمنه Simneh مؤرخ مصر — رعاة يحبون الحرب والسلب والنهب ؛ ولا يزالون على الرغم من مرور القرون والأجيال كما كانوا أيام الأسرة التاسعة عشرة والقرن السادس الميلادي لم يظهر عليهم تغيير جوهري . أما الحضري فيسكنون المدن ؛ وقد أفرغوا جهودهم إلى حرث الأرض ، وتجارة القوافل حتى جنوا من ذلك ثروة عظيمة .

ومن يتتبع أشعار العرب في الجاهلية يحزم أن المرأة العربية كانت تتمتع في ذلك العصر بقسط كبير وافر من الحرية ، فكانت تستشار في مهام الأمور ، بل وتشارك الرجل في كثير من أعماله . وعلى العموم فقد كانت علاقتها بزوجها على درجة من الرقي أكثر مما يخيل إلينا ؛ يدل ذلك على ذلك ما كان من افتخار الرجل بنسبه لأمه كما يفخر بنسبه لأبيه ، وما كان أيضا من إعطائهم المرأة قسطها مما تحب من النسيب ، إذا بدأوا قصائدهم التي يفخرون فيها بمحامد قومهم وعظيم فعالهم ؛ ناهيك بما كان للبرأة العربية من الأثر الصالح في الاسلام .

المرأة في الجاهلية

وكان للعرب نظام ثابت في الزواج ؛ فكان جمهورهم يقترن بالزوجة بعد رضا أهلها ، كما كان كثير منهم يستشيرون البنات في أمر زواجهن . وينبغي ألا نخلط بين هذا الارتباط بالزواج وبين غيره مما عرف عن بعض العرب من اجتماع الرجل بالمرأة بغير هذه الطريقة . وهذا الأمر لم يكن يستحسنه جمهور العرب مع ما عرف عنه من غيره

الزواج

على الأهل ومحافظة على الشرف ، حتى إنه كان من النادر أن يرى الإنسان بنتاً بالغة قد أدركت سن الزواج أو أرملة صغيرة في السن لم تتزوج ؛ لأنه كان من الضروري للأسرة أن يكون لها أطفال عديدون كي تكون غنية بأفرادها قوية محترمة . على أن الأمر الذي يؤخذ على العرب في الجاهلية هو تعدد الزوجات عندهم بلا قيد ولا شرط .

ومن عاداتهم الاجتماعية المستهجنة أن الرجل كان إذا قابل آخر ليس من قبيلته ولا من قبيلة مخالفة لقبيلته ومعه ظعينة (أى امرأة في الهودج) تقاطلا ، فإن غلبه أخذ هذه الظعينة منه سبيّة واستحلها لنفسه . وكان بعضهم يستنكر هذه العادة لما يلحق أولاده من المذلة والعار . ولذلك كانوا يدققون في اختيار الزوجة ، ويتحققون أنها حرة عريقة في النسب لاسيية .

وكانوا يطلقون ؛ والطلاق بيد الرجل ، إلا أنه كان هناك نساء يطلقن بشرط أن تكون الفرقة بأيديهن .

ومن عاداتهم المستقبحة أيضاً ما كان من وأدهم البنات أحياء لاعتقادهم أنه ليس بهم من حاجة لتربية نقر غير مفيد ؛ على أن هذا الأمر لم يكن شائعاً عند العرب ، بل كان في بعض الطبقات المنحطة منهم خشية الفقر ، وعلى الأخص في بني أسد وتميم . وقد نهى عن ذلك القرآن الكريم : (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ) .

أما معاملة العرب لأبنائهم فكانت معاملة تنطوى على الحنان والمحبة . وأما معاملتهم للأخ وابن العم ، فكانوا ينصرونهم أخطأوا أم أصابوا ، عدلوا أم ظلّموا ؛ بمعنى أن الرجل كان يصيبه العار إذا قعد عن نصرة أخيه أو ابن عمه . فكان لزاماً عليه أن يقوم بنصره سواء

سبي النساء

الطلاق

واد البنات

التعاون بين أفراد القبيلة

أكان مخطئاً أو مصيباً؛ وفي ذلك قالوا : انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً (١). هذه هي حال العربي مع أهله وابنه وأخيه وابن عمه وأفراد قبيلته . فاذا تشعبت بطون القبيلة الواحدة تنافس أفراد كل بطن في الشرف والثروة ، ووقفوا لأنفسهم بالمرصاد وعملوا على الاستيلاء على مواردها . وقد يبلغ العداء أشده وتراق الدماء بسبب هذه المنافسة . وقد اشتهر هذا العداء في الجاهلية بين الأوس والخزرج ، وبين عبس وذبيان ، وكذلك بين عبد شمس وهاشم ، وبين ربيعة ومضر ، وبين القحطانية والنزارية (٢) .

انعدامه بين القبائل
والبطون

والخلاصة أن روح الوثام كانت سائدة بين أفراد القبيلة الواحدة بينما كانت مفقودة تماماً بين القبائل المختلفة ؛ وقد انهك ذلك الأمر قواهم في حروبهم المستمرة وذلك لسببين :

أولاً : التنافس على مادة الحياة وهي المراعى وموارد الماء .

ثانياً : تنازع الشرف والرئاسة ؛ فاذا مات أكبر الأخوة نازع ابنه أعمامه . ولذلك نشبت الحروب بين القبائل المتقاربة في الأنساب أو المتقاربة في الأمكنة .

ومما كان يزيد نار العداء تصدى الشعراء لتعداد مفاخر قبائلهم ، وتأليب القبائل الأخرى .

اثر الشعراء

وإذا ذل أحد أفراد القبيلة لحق العار القبيلة بأسرها ؛ وقد يكنى النزاع بين شخصين من قبيلتين مختلفتين ليؤدي إلى قيام الحروب بين هاتين القبيلتين ، حتى ولو كان سبب هذا النزاع تافهاً .

(١) هذا القول من حكمة الجاهلية . وكانوا يعتبرون النصر هي الاعانة على الغير . أما في الإسلام فقد اعتبر من ضمن النصر نصيحة الظالم لردّه عن ظلمه . ولذا قال عليه الصلاة والسلام « أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » ، كما قال « الدين النصيحة » . قالوا « لمن يارسول الله » ؟ قال « لله ورسوله والمؤمنين » .

(٢) Noeldeke, *Historians' History of the World*, vol. VIII, p.p 6-7

وعلى الجملة فقد كان العرب يتكلمون لغة واحدة ، وكان لهم نظام اجتماعى واحد ، كما كانت فيهم فضائل ونقائص ؛ فكانوا شعباً ساذجاً لم تدخله مظاهر المدنية . فالعربى يمتاز بقلة الخبث وعدم الرياء والمكر . ولقد أثرت هجرة سكان بلاد اليمن فى أهالى الشمال والشرق ، وبلاد اليمن - كما لا يخفى - هى الجزء الذى قامت فيه مدينة العرب القديمة .

هذا وقد كانت هناك طبقتان أخريان بين العرب هما الرقيق والموالى . وقد يصبح الحر رقيقاً بالسبى فى الحروب أو بطرق أخرى ، كما أنه قد يصبح الحر مولى إذا اندمج فى قبيلة أخرى بطريق الولاء ، أو إذا كان عبداً فأعتقه سيده . وفى هذه الحالة يصبح لمعتقه حق الولاء عليه .

وبهذه الوسيلة أصبح كثير من الأسر الفارسية بعد الاسلام موالى للعرب الذين ملكوا رقابهم فى الحرب ، كما اندفعت أسر أخرى فارسية إلى إبرام عقود الموالاة بينهم وبين الأسر العربية للاحتواء بهم أو للانتفاع بشرفهم وجاههم . ثم أطلق لفظ « موالى » على غير العرب من الفرس وغيرهم لأن كثرتهم كانت موالى للعرب عن أحد هذين الطريقين .

الحالة السياسية :

لم يكن للعرب نوع من الحكومات المعروفة الآن ، ولم يكن لهم قضاء يحتكمون إليه ، أو « بوليس » يقر الأمن والنظام ، وجيش يدرأ عنهم الأخطار الخارجية . كذلك لم يكلفوا بدفع الضرائب لعدم وجود حكومة تقبض على زمام السلطة التنفيذية وتضرب على أيدي المعتدى وتوقع عليه العقاب المتناسب مع جرمه ؛ إنما كان للشخص المعتدى عليه أن يثار لنفسه بنفسه ، وعلى قبيلته أن تشد أزره . ولا يصبح

للمعتدى عليه حق في المطالبة بالتأثير إذا دفع المعتدى تعويضا كما كانت الحال مع الجرمانيين في العصور الوسطى . أما إذا كان المعتدى أحد أقرباء المعتدى عليه ، أخذ التأثير منه وحده لا من قبيلته كلها . وبما يلفت النظر أن العربي لما دخل في الاسلام لم يغفر لذوى قريبه كفرهم وعدم إيمانهم هذا . (١)

وكان الأحرار من العرب يحاربون تحت إمرة الأمير في وقت الحرب ، أما في وقت السلم فقد كانت الأسرة هي الشيء الوحيد المنظم . وكان الحكم في هذه البلاد قسمين :

الأول : الملوك المتوجون ، وهم تابعون لملوك آخرين ؛ ويسمون أقبالا ، ولم يكونوا مستقلين استقلالاً تاماً اللهم إلا بعض ملوك اليمن في عصور ازدهارها .

الثاني : رؤساء العشائر ولهم ما للملوك من الحكم والامتياز ، وليسوا أصحاب تيجان . وقد يكونون على تمام الاستقلال ، وقد يكونون تابعين للملك متوج .

ومن الملوك المتوجين ملوك معين وسبأ من أولاد قحطان باليمن . وكانت حمير وكهلان من قحطان تتنازعان الرياسة ؛ وكان ينبغ منهم في بعض الأحيان رئيس يوسع سلطانه إلى ما يجاوز مخالفه . وإنما يعظم نفوذه أو يصغر بحسب اتساع مخالفه وخصبه ، أو ضيقه

(١) من ذلك ما أشار به عمر بن الخطاب حين استشاره النبي صلى الله عليه وسلم وعبد الله بن رواحة فيما يصنع بأسرى بدر ، إذ أشار عمر بضرب أعناقهم وأشار عبد الله بن رواحة بخرقهم في واد كثير الحطب : حتى أبو بكر الذي أشار باخلاء سيولهم وأخذ الفداء منهم ، فإنه إنما قصد إلى انتفاع المسلمين واعزاز الدين بما يؤخذ من أموالهم فدية وبما تخسره قريش مما يفت في عضدها ويشبهها عن قتال المسلمين والصد عن سيل الله حتى نزل في ذلك قوله تعالى (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض . تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة - سورة الانفال ٨ : ٦٧) . الطبري ج ٢ ص ٢٩٤

وفقره . وكان مخالف صنعاء أضخم هذه المخاليف وأخصبها ؛ فكان رؤساؤه يدعون بالملوك .

الممالك العربية في الجاهلية :

مملكة معين

من هذه الممالك مملكة لم نسمع عنها في الكتب العربية ، ولكن نقف على أخبارها من النقوش التي كشفت حديثاً في جزيرة العرب ، وكذلك من بعض أخبار التوراة . وقد قامت هذه المملكة في اليمن قبل مملكة سبأ ، وكانت تسمى باسم معين .

ويستدل من النقوش ، ومما كتب في التوراة ، ومما كتبه أيضاً بعض مؤرخي اليونان أنها ظهرت في الألف الثاني قبل الاسلام ، أي بين سنتي ١٢٠٠ و ٧٠٠ ق . م . وكانت على جانب عظيم من القوة والثروة ، إلا أننا لم نعرف عنها الكثير .

تجارة معين

وقد اشتهرت معين بالتجارة ولا سيما بالبخور والمر ، وكانت سوقهما نافقة في مصر خاصة ، وذلك لقرب هذه البلاد منها . ونستدل من هذه النقوش أيضاً على أن نفوذ هذه المملكة قد امتد إلى غزة الواقعة على البحر الأبيض المتوسط ، وأن محطاتها التجارية والحربية انتشرت على طول الطريق . ومن ثم كانت مملكة معين أقوى وأغنى من مملكة سبأ . وإنما اشتهر أمر سبأ في التاريخ لأنها ظهرت في وقت كان فيه الجزء الجنوبي الغربي لبلاد العرب مزعزعا وأقل أمناً ولا سيما في عالم التجارة . أما معين فقد ظهرت في وقت كانت فيه قبائل الجزيرة العربية على جانب عظيم من القوة .

مملكة سبأ

وقد انتقل سلطان معين إلى سبأ التي بدأت قوتها في الظهور في أواخر أيام مملكة معين . ولم تؤثر السفن التي بناها البطالسة للسير في البحر الأحمر تأثيراً يذكر في تجارة أهل سبأ ، فقد ظلوا يمدون جميع الهياكل المصرية بالبخور . واشتهرت مملكة سبأ بالثروة والقوة

بين ممالك العالم في ذلك الحين . ولا غرو فقد وقفوا في وجه إيلوس جالوس Aelius Gallus قائد أوغسطس قيصر الرومان وأرغموه على الارتداد عن أسوار مأرب والعودة الى بلاده .

ولكن سرعان ما تطرق الضعف الى مملكة سبأ . وقد ذهب المؤرخون في أسباب سقوطها مذاهب شتى . بيد أن المؤرخين من العرب قد اتفقوا على أن زوال هذه المملكة كان راجعاً أولاً وقبل كل شيء الى انكسار سد مأرب (١)

وقد ساعد سبأ وحمير ذلك الخصب الذي امتاز به هذا الجزء الذي كانوا يحتلونه من بلاد العرب على الاستقرار ، كما أنه كان لتجارهم المطردة الواسعة النطاق مع مصر وسورية وبابل أثر كبير في تدفق موارد الثروة على هذه القبائل . ولا شك أنه كان لهذه الأقاليم الشائعة بين الأمم الغربية عما بلغته مدن سبأ وحمير من الأبهة والعظمة ، وهذه الستون هيكلًا ، وأواني الذهب والفضة ، وأعمدة الرخام ، وعربات مأرب أساس من الحقيقة . وإن أطلال هذه القناطر المقامة على الأعمدة لتوصيل ماء الشرب الى المدن ، وهذه السدود والأحواض لثيرا عجايب الرحالة والسائحين من الأوربيين من حيث براعة الرسم ومتانة البناء ؛ وهي لا تكشف لنا عن المهارة التي بلغتها سبأ وحمير في فن العمارة فحسب ، بل تدلنا أيضا على معرفتهم التامة بنظام الري . ولا غرو فقد حذقوا فن حفر الجداول وإقامة الأحواض من هذه المجارى المتدفقة من الجبال للارتفاع بها في رى أرضهم .

وإن أطلال الأبنية الفخمة قرب مأرب وبخران والغراب ونقب الحجرة لتؤيد الروايات العربية والأوربية التي تحدثنا عما بلغته هذه

Hell, Cultur der Araber, pp. 3-4; (١)
Encyclopaedia of Islam, ma'rib, S. V.

البلاد من العظمة والمجد في الأزمان الغابرة . وان النقوش التي وجدت على هذه الأطلال وغيرها في جنوب غرب بلاد اليمن (وترجع الى نحو سنة ١٢٠ ق . م) لتعطينا فكرة عن حياة القبائل التي تعيش في جنوب بلاد العرب وما بلغت من الثقافة ؛ كما أن الاشكال الأولى لحروف الهجاء قد اشتقت عن الأشكال البابلية ، ثم سارت معها جنباً لجنب من حيث التطور والرقى . (١)

ومن أشهر ملوك اليمن بلقيس ملكة سبأ ، وقد ذكرت في القرآن والتوراة بلقب ملكة سبأ . ونستدل من زيارتها لسلیمان عليه السلام على أن ملك اليمن لم يكن بتلك الضخامة والقوة التي ترهب الملوك بدليل تخوفها حين تسلمت رسالة سلیمان وقولها لقومها : (إِنَّا الْمَمْلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ) وبدليل قول سلیمان حين أرسل إلى بلقيس مهديداً . (فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُمْ يُحْشَدُونَ لِقَابِ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ بِالْآيَاتِ كَاذِبُونَ) (٢)

وإذا علمنا أن ملك سلیمان لم يتجاوز فلسطين وما حوالها أمكننا أن نبين مقدار قوة بلاد اليمن إذ ذاك .

ومن الملوك المتوجين ملوك سبأ من أولاد قحطان باليمن ؛ وقد تشعبت قبائل اليمن من قحطان في أنحاء بلاد اليمن . وكان لهم رؤساء من قومهم ؛ وكان ينبغ منهم في بعض الأحيان رئيس يوسع سلطانه إلى ما يجاوز خلافه .

وكانت حمير وكهلان من قحطان يتنازعان الرياسة ويتنافسان في الملك ؛ وقد قسموا بلادهم إلى مخاليف ؛ لكل مخاليف رئيس يكبر

(١) Noeldeke, *Historians' History of the Worle*, vol. VIII. p.p. 104—105

(٢) سورة النمل ٢٧ : ٣٤ ، ٣٧

ويصغر بحسب زيادة قوة مخالفه وضعفها ، وكان مخالف صنعاء أضخم هذه المخاليف وأخصبها : فكان رؤساؤه يدعون بالملوك .

وكان لسبأ أسطول بحرى بالبحر الأحمر تشحن سفنه بالبخور لإمداد الهيكل المصرية بها ؛ وقد ورثت سبأ من معين هذا المركز التجارى ، كما كان لها قوافل تخترق الصحراء إلى الشام وفلسطين لنقل السلع التجارية بينها وبين البلاد الأخرى (١) .

المركز التجارى

ولم تبسط سبأ سلطانها على جميع بلاد اليمن لأن حكمها لم يكن عاماً على جميع أرجاء البلاد ؛ فقد كان هناك رؤساء أو ملوك مستقلون كل منهم يحكم جزءاً من الأرض يسمى مخالفاً .

ومن ملوك حمير الذين منهم سبأ يوسف ذو نواس . وكان يحكم بلاد نجران التى كانت تدين بالمسيحية ، غير أنه اعتنق اليهودية فى أواخر أيامه واضطهد المسيحيين وأحرقهم بالنار سنة ٥٣٤ م (٢) ، فطلب جستنيان إمبراطور الدولة الشرقية من نجاشى الحبشة غزو هذه البلاد والعمل على إنقاذ المسيحيين ؛ وكان جستنيان يرمى بذلك إلى غرضين : ١ — سياسى : وهو اتخاذ بلاد اليمن طريقاً لتجارته إلى الشرق إذا وقعت فى يد مخالفيه الأحباش ليقضى على تجارة منافسيه من الفرس .

يوسف ذو نواس

٢ — دينى : وهو جعل السيادة للدين المسيحى هناك .

وقد تغلب أرياط الحبشى قائد النجاشى على اليمن وحكمها من قبل ؛ النجاشى إلا أن المنافسة قامت بينه وبين أبرهة أحد قواد الحبشة ، وتجاربا فقتل أرياط ؛ فخلفه أبرهة على اليمن برضاء النجاشى . وقد جرح أبرهة فى هذه المعركة ولذلك سمى الأشرم .

استيلاء الحبشة على بلاد اليمن

وكان من أول أعمال أبرهة الأشرم أن فكر فى بناء هيكل فى صنعاء

(١) Hell, Cultur der Araber, p.p. 3 - 4

(٢) وهم الذين ذكرهم القرآن فى سورة البروج وسماههم أصحاب الأخدود .

عاصمة بلاد اليمن لصرف الحجاج من الكعبة اليه ، كما غزا مكة لهذا الغرض ففشل على ما سيأتى عند الكلام عن قُرَيش .

سوء سيرة الاحباش
في بلاد اليمن

وقد توفى أبرهة بعد أن عاد الى اليمن بقليل . خلفه ولداه « يكسوم » ثم « مسروق » . وقد أذلا أهل اليمن وأساءا معاملتهم ؛ فلجأ سيف بن ذى يزن الحميرى إلى قيصر الروم ، وطلب منه أن يخرج الاحباش من بلاد اليمن وأن يكون له الملك فيها فلم يجبه ؛ فاستنجد بالمنذر ملك الحيرة (التابعة إزاء الفرس) وطلب منه تقديمه إلى كسرى أنوشروان (٥٣١ - ٥٧٨ م) . فلما قابله سيف بن ذى يزن فى بلاطه ووجد ذلك التاج العظيم معلقاً على رأسه ، لم تبهره هذه العظمة ، بل تقدم فى شجاعة إلى كسرى وطلب منه مساعدته لاسترداد بلاده من الاحباش ؛ فأهمله كسرى وقال له : بعدت أرضك من أرضنا وهى أرض قليلة الخير ، إنما بها الشاء والبعر وذلك مما لا حاجة لنا به . ثم صرفه بعد أن أعطاه ١٠٠٠٠ درهم فارسى وخلع عليه . فخرج سيف من عنده غاضباً ورمى الدراهم فتخاطفها الخدم ؛ فلما علم بذلك كسرى غضب وأمر باحضاره وأراد أن يعاقبه لجرأته وعبه بهيبته . فلما دخل عليه قال كسرى : ^(١) « عمدت إلى حياء الملك الذى حباك به تنثره للناس » . فأجابه ابن ذى يزن بقوله : « ما أصنع بالذى أعطانى الملك ، ما جبال أرضى التى جمئت منها إلا ذهب وفضة ؟ »

استيلاء الفرس
على اليمن

فطمع كسرى فى الاستيلاء على هذه البلاد وعقد مجلساً من ذوى رأى فى بلاده واستشارهم فى غزوها ؛ فأشار عليه بعضهم برأى يكفل له الاقتصاد فى الأرواح والنفقات التى تحتاجها غزوة كهذه ؛ ولذلك اختاروا الجنود لها من بين المسيجونين ؛ حتى إذا انتصروا لم يكلفهم ذلك شيئاً ؛ وإن قتلوا فى تلك الحرب كان فى ذلك خير وسيلة للتخلص منهم ؛ فأخرج ٨٠٠ مسجوناً وكان قائدهم اسمه « وهرز » . ويصفه المؤرخون ، ومنهم المستشرق نلذكه ^(٢) ، بأنه بلغ من الكبر عتياً لدرجة

أن جفنيه انطبقا أحدهما على الآخر ، وكان يرى بصعوبة . وسار الجيش وعدده ٨٠٠ مقاتل في ثمان سفن على كل سفينة مائة مقاتل ، غرق منها اثنتان ووصل ٦٠٠ جندي فقط ؛ فلما علم بذلك أهل اليمن ، وكانوا يقاسون ألوان العذاب وصنوف الخسف من الأحباش ، خرج كثير منهم وانضم إلى الجيش الفارسي .

ترحيب أهل اليمن
بجيش الخلاص

وقد أولم وهرز وليمة كبيرة في صنعاء ، وفي أثناءها أحرقت المراكب الستة ؛ وقال وهرز لجنوده أمامكم أن تختاروا إحدى اثنتين : إما القتال بشجاعة حتى الظفر ، وإما الاستكانة والتخاذل حتى الفشل ، وحين ذاك سيلاحظكم العار والخزي العظيم .

ولما نشب القتال بين الفرس والأحباش قُتل نوزاذ بن وهرز ، فحنق وهرز على الأحباش وقال : (١) أروني ملككم ؛ فقالوا ترى رجلا على الفيل عاقداً تاجه على رأسه بين عينيه ياقوتة حمراء ؛ ثم أمر بحاجبيه فغصبا له ، ووضع في قوسه نشابة فغط فيها حتى إذا أراها أرسلها فصك بها الياقوتة التي بين عينيه ، فتغلغلت النشابة في رأسه حتى خرجت من قفاه فمات . وهُزم الأحباش وكتب وهرز إلى كسرى : « إني قد ضبطت لك اليمن وأخرجت من كان بها من الحبشة . » ؛ فكتب إليه كسرى يأمره أن يملك سيف بن ذي يزن على اليمن وأرضها . وفرض كسرى على سيف بن ذي يزن جزية وخراجاً يؤديه إليه كل عام ، وكتب إلى وهرز أن ينصرف إليه ؛ فانصرف إليه . وقد قتل سيف بن ذي يزن كثيراً من الأحباش في بلاد اليمن ، وانتهى به الأمر بأن قتله رجل حبشي . فلما بلغ ذلك كسرى بعث وهرز إلى بلاد اليمن في أربعة آلاف من الفرس وأمره أن لا يترك أسود ولا ولد عربية من أسود إلا قتله

صغيراً أو كبيراً . فلما دخل وهرز بلاد اليمن لم يترك بها حبشياً إلا قتل ، ثم كتب إلى كسرى بذلك فأمره عليها حتى هلك خلفه (١) ابنه المرزبان . فلما مات خلفه خيراً خسرته بن البينجان بن المرزبان ابن وهرز ؛ وقد غضب عليه كسرى فخلف ليأتينه به أهل اليمن يحملونه على أعناقهم . فلما قدم على كسرى تلقاه رجل من عظماء فارس فألقى عليه سيفاً لأبي كسرى ؛ فأجاره كسرى بذلك ونجاه من القتل ونزعه ؛ ولى باذان على اليمن ، وهو آخر ولاية اليمن من قبل كسرى فارس . وقد عاش إلى عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وأسلم هو وقومه على إثر ما دار بينه وبين الرسول صلى الله عليه وسلم من المخاطبات بشأن إسلامه كما سيأتي بعد .

إمارتا الحيرة وغسان :

هناك مملكتان قامتتا على حدود بادية الشام هما إمارتا الحيرة
وغسان ؛ وكانت علاقته الحيرة ببلاد الفرس كملاقة غسان بدولة
الروم ؛ فقد اتخذ الفرس إمارة الحيرة عوناً لهم على حروب الروم
وحائلاً يحول بين العراق وغارات الأعراب على الدولة الفارسية ،
كما اتخذ الروم أمراء غسان أعواناً لهم على الفرس وذريعة لحكم
قبائل العرب القريبة منهم . وكان للغسانيين مواقف معدودة في الجاهلية
انتصروا فيها للروم على الفرس ، وصدوا عنهم ملوك الحيرة . وقد
تأثروا بحضارة الروم كما تأثر المناذرة بحضارة الفرس .

وتقع إمارة الحيرة على بعد ثلاثة أميال من موقع الكوفة على
بحيرة النجف موطن الشيعة حتى اليوم ؛ وكانت في أرض خصبة تمر
بها فروع من نهر الفرات .

أما أهلها فكانوا منذ القرن الثالث الميلادي ثلاثة أجناس :

١ — تنوخ وينزلون غربي الفرات

ب — العباد وهم الذين سكنوا المدينة

ح — الأحلاف وهم الذين لحقوا بها من غير تنوخ والعباد .

تكوين إمارة الحيرة
قد انحطت الدولة الفارسية على أثر هزيمة الاسكندر المقدوني لدارا ملك الفرس سنة ٣٣٣ ق . م وقد جزأ الاسكندر بلاد الفرس إلى دويلات صغيرة يحكمها ملوك يعرفون بملوك الطوائف . وقد اتبع الاسكندر هذه السياسة حتى لا يقروا على الاغارة على بلاد اليونان . واستمر ملوك الطوائف يتولون حكم بلاد الفرس إلى سنة ٢٢٦ م ، حين نبغ أردشير بن بابك مؤسس الطبقة الرابعة من ملوك الفرس المعروفين بآل ساسان أو الأكاسرة . واستمر أردشير في الحكم إلى سنة ٢٤١ م . وقد وحد كلمة الفرس من جديد ، كما أعاد إلى سلطانه الأراضي العربية المتاخمة لبلاده ومنها الحيرة والأنبار ، ومنحهما الاستقلال لينعهم من الاغارة على تخوم بلاده ، وليستعين بهم على الرومان وعلى العرب الذين يغيرون على بلاد الفرس .

ويرجع تاريخ إمارة الحيرة إلى القرن الثالث الميلادي ، وقد استمر إلى ظهور الاسلام . وكان لأهلها أثر كبير في الحضارة العربية : فقد كانوا يجوبون أرجاء الجزيرة العربية بالتجارة ، وكانوا يشتغلون بتعليم القراءة والكتابة ، وبذلك أصبحوا واسطة في نشر العلوم والمعارف في الجزيرة ، كما ساعدوا على نشر النصرانية في بلاد العرب ، وذلك على أثر اعتناق بعض ملوكهم الدين المسيحي بعد تركهم الوثنية . وصفوة القول أن أهل الحيرة كانوا واسطة بين الفرس والعرب ، وعلى أيديهم انتقلت الحضارة الفارسية الى بلاد العرب . وقد تعاقب

الزعماء في الحضارة العربية

ملوك الحيرة

على الحيرة خمسة وعشرون ملكاً نكتفي الآن بذكر أشهرهم :

عمرو بن عدى

تولى عمرو بن عدى الملك بعد جذيمة الأبرص صاحب القصة المعروفة مع الزباء (١) ؛ وكان عمرو أول من اتخذ مدينة الحيرة حاضرة لملكه

النعمان بن امرئ القيس

تولى : النعمان بن امرئ القيس الحكم في أوائل القرن الخامس الميلادى . وهو باني الخورنق والسدير ؛ وكان شديد الوطأة على العرب . ويقال إنه تنصر وتنسك في آخر عهده . ويذكر لنا الطبرى (٢) بناءه الخورنق فيقول إن يزدجرد الاثيم بن بهرام بن سابور كسرى فارس لم يعيش له ولد ، فسأل عن منزل برى . مرى . صحيح من الادواء والأسقام ، فدل على ظهر (ظاهر) الحيرة . فدفع ابنه بهرام جورالى النعمان بن امرئ القيس ، وأمره ببناء الخورنق مسكناله ، وأنزله اياه وأمره باخراجه الى بوادى العرب . وكان الذى بنى الخورنق رجلاً يقال له سمنار ؛ فلما فرغ من بنائه تعجبوا من حسنه واتقان عمله ، فقال لو علمت أنكم توفونى أجرى وتصنعون بى ما أنا أهله ، بنيت به بناء يدور مع الشمس حيثما دارت ، فقال : وانك لتقدر على أن تبني ما هو أفضل منه ثم لم تبنيه ، فأمر به فطرح من رأس الخورنق . وقد سار ما صنعه النعمان بسمنار سير الأمثال حتى قيل « جزاه جزاء سمنار » . وقال الشاعر فى ذلك :

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبير
وحسن فعل كما يُجزى سمنار

(١) راجع هذه القصة فى مروج الذهب للسعودى (ج ١ ص ٢٩٠ - ٢٩١)

(٢) ٢ ص ٧٢

وإذا امتاز الخورنق بهذه العظمة والوجاهة اللتين يطريهما الكثير
من شعراء العرب ، فقد كان هناك قصر يقال له الحضر ؛ بناء الضيـّـن بن
معاوية بن عمران بن الحاف بن قضاعة بحيال تكريت بين دجلة والفرات ،
وكان صاحبه قد ملك تلك الناحية وبلغ ملكه الشام فأغار على فارس
في غيبة سابور وأسر أخته . فلما عاد سابور غزا الضيـّـن فاحتـمى
منه في قصره الحضر . فاقام سابور أربعة أعوام لا يستطيع هدمه ولا
الوصول إلى الضيـّـن حتى خرجت النضيرة بنت الضيـّـن لأمر لها .
فلما رأت سابور أعجب كل منهما بحمال الآخر واتفقت معه على أن تعرفه
ما يهدم به سور هذا القصر ويقتل أباهما ثم يتزوجها ويحتملها ؛ ولكنه
قتلها قبل عودته بعد أن فتح الحصن . وقد وصفه عدي بن زيد في قصيدته
التي وصف فيها الخورنق فقال :

وأخو الحضر إذ بناه وإذ دج له^١ تجي إليه والخابور^٢
شاده مرمرًا وجلته^٣ ساء للظير في ذراه و^٤ كور^٥
وزاد الطبري على هذا أن الأعشى ذكر في شعره أن سابور إنما
أقام على الحصن حولين فقط قال :

ألم تر للحضر إذ أهله بنعمي وهل خالد من نعم^٦
أقام به شاهبور الجنو د حولين يضرب فيه القدم^٧
فما زاده ربه قوة ومثل محاوره لم يقم^٨
قال حمزة الأصفهاني^(٢) (+ ٣٠٦ هـ) : فلما أتى على الملك النعمان
ثلاثون سنة ، علا مجلسه على الخورنق وأشرف منه إلى النجف وما يليه

نفسك النعمان

(١) الطبري ج ٢ ص ٦٢ : الاغانى (طبعة دار الكتب الملكية) ج ٢ ص ١٤١

(٢) تاريخ - في ملوك الارض والانبيا . (برلين سنة ١٣٤١ هـ) ص ٦٨ ، الطبري ج ٢ ص ٧٣

من النخل والبساتين والجنان والأنهار مما يلي المغرب ، وعلى الفرات
مما يلي المشرق ، فأعجبه ما رأى في البر من الخضرة والنور والأنهار
الجارية ولقاط (١) الكمأة (٢) ورعى الإبل وصيد الظباء والأرانب ،
وفي الفرات من الملاحين والغواصين وصيادي السمك ، وفي الحيرة
من الأموال والخيول ومن يموج فيها من رعيته ، ففكر وقال : أى
درّك في هذا الذي قد ملكته اليوم ويملكه غدا غيرى ؟ فبعث إلى
حجابه ونحاهم عن بابه ، فلما جنّ عليه الليل التحف بكساء وساح في
الأرض فلم يره أحد ، وفيه يقول عدى بن زيد يخاطب النعمان بن المنذر

وتدبر ربّ الخورنق إذْ أشرفَ يوماً وللهُدَى تفكير
سرّه حاله وكثرة ما يَمَلُكُ والبحرُ مُعرضاً والسدير
فارعوى قلبه فقال وما غب طة حتى إلى الممات يصيرُ
ثم بعد الفلاح والملك والامة (٣) وارتهم هناك القبور
ثم أضجّوا كأنهم ورقٌ جفف فآلوت به الصبا والدبور (٤)

المنذر بن ماء السماء

تولى المنذر الحكم حول سنة ٥٢٠ م . وكان يعاصره كسرى
أنوشروان ملك فارس وجستينيان امبراطور الروم والحارث بن أبي
شمير الغساني عامل الدولة الرومانية على بلاد الشام الذي اشتبك مع
المنذر في نزاع على الأرض المسماة Strata (٥) . فقد كان كل من الأميرين

(١) لقط السنبل ولقاطه ما يلتقطه الناس

(٢) الكمأة نبات ترعاه الإبل

(٣) الامة : النعمة

(٤) الصبا ريح تهب من مطلع الشمس إذا استوى الليل بالنهار ، والدبور هي ريح تقابل الصبا .

انظر الطبري ج ٢ ص ٧٢ - ٧٤ والاغاني (طبعة دار الكتب) ص ٢ - ١٤٤

(٥) هي البادية الواقعة جنوبي تدمر على الارض الممتدة على جانبي الطريق الحيرية من دمشق

الى ما بعد تدمر حتى مدينة سرجيوس Sergiopolis (نلذكه أمراء غسان ص ١٨)

يدعى السلطة على القبائل العربية النازلة بها . ولم يكبد ينتهى ما بينهما من نزاع حتى نشبت الحرب بينهما من جديد حول سنة ٥٤١ م ، وفيها أسر المنذر ابناً للحارث ، وانتهت الحرب (سنة ٥٥٤ م) بهزيمة المنذر وقتله في موقعة مَرَج حَلِيمَة .

غير أن الحرب مالبثت أن نشبت من جديد بين عرب الحيرة والغساسنة وانتهت بموقعة عين أباغ^(١) (٥٧٠ م) التي قتل فيها ملك الحيرة أيضا .^(٢)

النعمان بن المنذر

تولى النعمان بن المنذر الحكم سنة ٥٨٠ م ، ثم قتله كسرى ابرويز سنة ٦٠٢ م . وكان يخاطب به « أبيت اللعن » . وقد مدحه النابغة الذبياني في عدة قصائد ؛ ويروى لنا المسعودي « أن النابغة استأذن على النعمان يوما ، فقال له الحاجب إن الملك على شرابه . قال فهو وقت الملقى تقبله الأفعدة وهو جذل للرحيق ، فان تلج تلقى المجد عن غرر مواهبه ، فأنت قسيم ما أفدت . قال له الحاجب : ما تفي عنايتي بدون شكرك ، فكيف أرغب فيما وصفت ودون ما طلبت رهبة التعدي ؟ قال النابغة : ومن عنده ؟ قال الحاجب : خالد بن جعفر الكلابي نديمه . فقال النابغة : هل لك الى أن تؤدي الى خالد عنى ما أقول لك ؟ قال وما هو ؟ قال : تقول إن من يدرك وفاء الدرك بك وتأديتي من الشكر ما قد علمت ؛ فلما صار خالد الى بعض ما تبعه موارد الشراب عليه ، نهض فاعترضه الحاجب فقال يَهْئِكَ التَّامُ حادث النعيم . قال وماذا لك ؟ فأخبره الخبر . وكان خالد رقيقا يأتي الأشياء بلطف وحسن بصيرة ، فدخل مبتسما وهو يقول :

(١) هو واد وراه الانبار على طريق الفرات الى الشام . انظر هذا اللفظ في معجم البلدان لباقوت

(٢) تلذذك : امراء غسان ص ٢٤ ، ٢٥

ألا لمثلك أو مَنْ أنت سابقه سَبَقَ الجواد إذا استولى على الأمد
واللات لسكّاني أنظر إلى ذى رعين وقد مُدَّت لهم قضبان المجد
إلى معالم إحسانكم ومناقب أنسابكم في حلبة أنت أبيت اللعن عُزَّتْها،
فجئت سابقا منهما وجاءوا لم يلم لهم سعى . قال النعمان : لا أنت في
وصفك أبلغ إحسانا من النابغة في نظام قافيته .

ثم أمر النعمان بادخال النابغة ؛ فدخل ثم انتصب بين يديه وحياه
بتحية الملك ، وقال أبيت اللعن ! أتفاخرُ وأنت سائد العرب وغرة
الحسب ؟ ثم قال :

أخلاق مجدك جات ما لها خطر في الجود والناس بين العلم والخبر
متوجّ بالمعالى فوق مقرِّقه وفي الوغا ضيغم في صورة القمر
فتهلل وجه النعمان بالسرور ، ثم أمر فحشى فوه جوهر (١) .

المناذرة في أواخر
أيامهم

حل الضعف والانقسام بأمرأ الخيرة على أثر ما نزل بهم من
الحوادث الجسام وما توالى على دولة آل ساسان من ضعف . وكانت
أولى تلك الحوادث هزيمة المنذر بن ماء السماء عاهل البيت اللخمي
وقتله على يد الحارث بن أبي شمر الغساني في موقعة مرج حايمة ، ثم
هزيمة ابنه وقتله على يد المنذر بن الحارث الغساني سنة ٥٧٠ م ؛ ثم تبع
ذلك اضطراب جبل هذا البيت وتنازع أولاد المنذر العرش . وإنه
وإن كان النعمان بن المنذر قد فاز به ، فإنه لم ينج من الدس والكيد له
في البلاط الفارسي حتى غضب كسرى عليه ؛ فاستدعاه إلى بلاده فذهب
إليه بعد أن عرض نفسه على القبائل ، فلم تجرؤ إحداهن على مناصرته
على كسرى وظل هناك حتى مات . ثم أقام كسرى إياس بن قبيصة خلفا
للنعمان على بلاد الخيرة ، ولم يكن من أهل بيته ، وأشرك معه رجلا فارسيا
في الحكم اسمه « النخير جان » .

افضاء البيت اللخمي
عن الملك

وكان من أثر ذلك أن ضعفت الأداة الحكومية في الحيرة وقامت حرب « ذى قار » بين إياس بن قبيصة حاكم الحيرة تؤيده حكومة فارس وبين العرب ، فكان النصر للعرب وهزم الفرس وأُمير الحيرة . ثم انفرد بالملك في الحيرة آزاذ به بن يابان الهمداني سبعة عشر عاما ؛ ولم يلبث المنذر بن النعمان بن المنذر الذي ملك الحيرة من بعده إلا ثمانية شهور حتى قدم خالد بن الوليد الحيرة (١) . بقي علينا الآن أن نأتى بطرف يسير من تلك المناظرة التاريخية - التي جرت بين عمرو بن كلثوم سيد تغلب وبين الحارث بن حلزة لسان بكر بن وائل وشاعرها (٢) - التي تكشف عن مظاهر هذا الانحلال الذي لحق الحكومة في بلاد الحيرة . وكان من أثره أن صار الناس فوضى ينهب بعضهم بعضا ، وكذلك أصبح الناس لا يخشون الملك .

١ — فيغلظون له في القول كما قالت تغلب لعمرو بن هند حين طلب إليهم العون في الثأر لأبيه :
هل نحن لابن هند رعاء ؟

ب — ويجرءون على ماله الخاص فيسلبونه كما فعلت بنو الشقيقة ورئيسهم قيس في إبل عمرو بن هند . ويشير إلى ذلك قول الحارث :
آية شارق الشقيقة إذ جاءوا جميعا لكل حى لواء
حوّل قيس مستلّمين بكبش قرظي كأنه عبّلاء
وصتيت من العواتك ما تنه هاهُ إلا مُبيضة رعاء
ويذكر الحارث أيضا أنه كان لبكر اليد الطولى عند ملك الحيرة

في صدم في هذه الأبيات (٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥)
فجبنهم بضرب كما يخو رُج من ضربة المزد الماء

(١) الطبري ج ٢ ص ١٥٦ ، ١٥٧

(٢) شرح القصائد العشر (للتبريزي) (القاهرة سنة ١٣٤٣ هـ) ص ٢٠٨ - ٢٧١

وحملناهم على حزنٍ شهلا نـ شلالا ودُمى الأنساء
وفعلنا بهم كما علم الله وما لب للخائنين دماء
هذا ما يكشف عنه كلام البكرين وهم الموالون لحكومة الحيرة .
وأما معلقة ابن كلثوم ، وهو شاعر التغلبيين ، فإنها تصوره ندًا قويا
وخصما عنيدا لملك الحيرة .

(١) انظر اليه وهو يخاطب الملك عمرو بن هند بهذه الآيات
(٢٠ و ٢١ و ٢٢) :

أبا هندٍ فلا تعجلْ علينا وأنظرنا نخبرك اليقيننا
بأننا نوردُ الراياتِ بيضا ونصدرُهنَّ حمرا قدرُونا
وأيامَ لنا غرّةً طوالاً عصيننا المملكَ فيها أن نديننا
(٢) ويقول :

بأى مشيئةٍ عمرو بن هندٍ تطيعُ بنا الوشاةُ وتزدرينا
بأى مشيئةٍ عمرو بن هندٍ نكونُ لقييلكم فيها قطينا
تهددنا وأوعدنا . رويدا متى كنتا لأكموا مقتوينا
فان قناتنا يا عمرو أعيت على الأعداء قبلك أن تلينا
(٣) ويقول :

إذا ما المملكُ سامَ الناسَ خسفاً أيدينا أن نقرَّ الخسفَ فينا
ألا لا يجهلنَّ أحدٌ علينا فنجهلُ فوقَ جهلِ الجاهلينا

ظلت الحيرة على هذا الضعف إلى بعد ظهور الاسلام حتى فتحها
خالد بن الوليد في عهد أبي بكر ، فانهى ملك المناذرة بالحيرة ودخلت
في حوزة الاسلام

وقد أخذ عمران الحيرة في النقصان إلى صدر أيام الخليفة المعتضد

العباسي . وكان بعض الخلفاء العباسيين كالسفاح والمنصور والرشد
ينزلونها لطيب هوائها وصفاء جوها . (١)

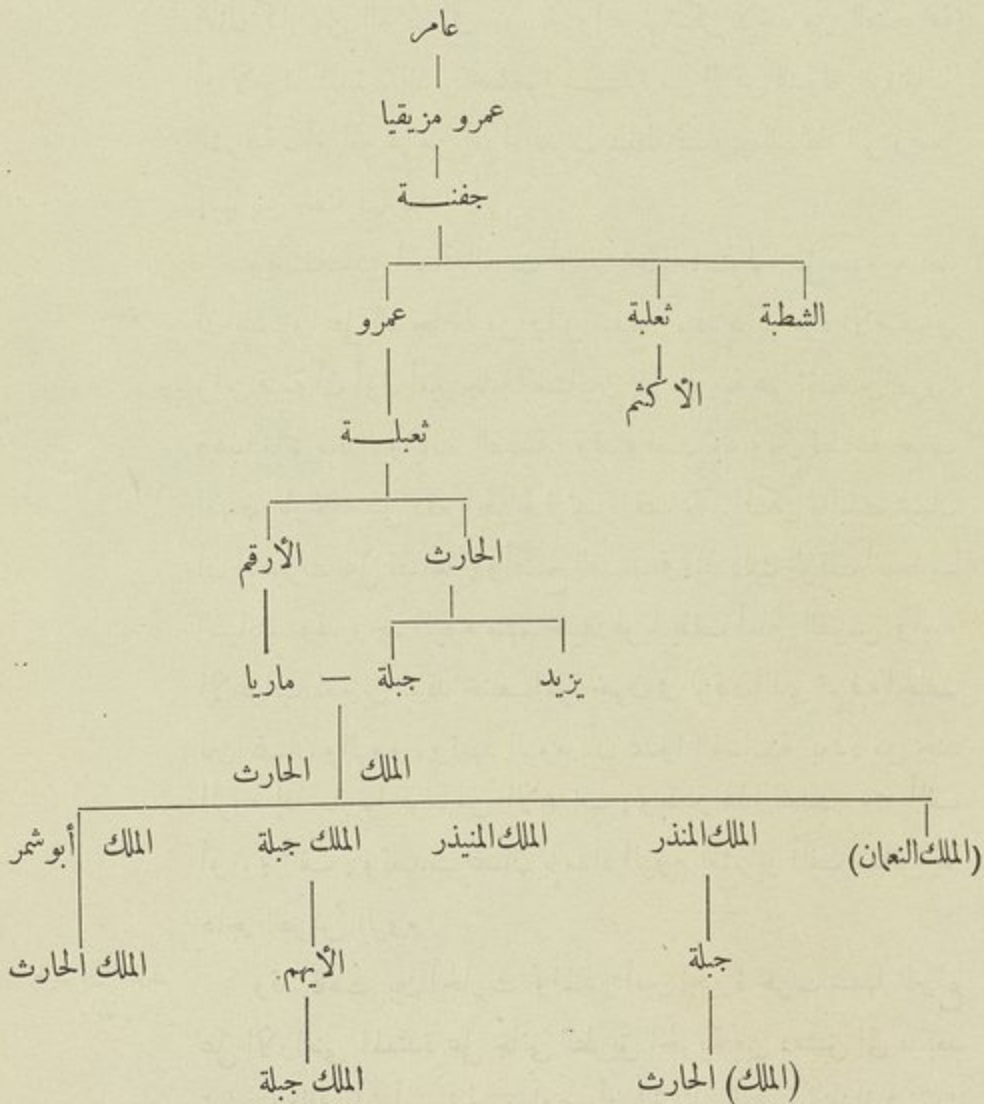
مملكة غسان :

سارت قبائل من قضاة إلى الشام في الوقت الذي هاجر فيه عرب
الين إلى العراق ، وسكنت في شمال غرب الجزيرة العربية فيما يسمى
الآن إقليم شرقي الأردن لخصوبة أرضها ، وكان يسكنها الضجاعة .
وكانت الشام تحت سلطان الدولة الرومانية ؛ فاستعان بهم الرومان -
كما قدمنا - على صد هجمات العرب من جهة ، والقيام ضد الفرس من
جهة أخرى . وأقام الرومان عليهم ملكا منهم . ولما هاجرت قبيلة أزد
من بلاد الين على أثر انكسار سد مأرب ذهب بطن منها إلى الشمال
عُرف بأزد غسان . وكان شأن الضجاعة قد ضعف ، فتمكنت أزد غسان
من إقامة دولة لهم عرفت بدولة الغساسنة ، فولى الرومان منهم جفنة
ابن عمرو ملكا على عرب الشام ؛ ولم يزل الغسانيون يحكمون هذه البلاد
من قبل الروم حتى جاء الاسلام وحدثت واقعة اليرموك سنة ١٣ هـ .
وقد أجمعت الروايات التاريخية والشعراء المعاصرون على أن جفنة
هو جد أسرة الغساسنة ، فقد دعا التابعة الدياني أحد أمراء هذا البيت
القدماء « بالحارث الجفني » . ويستنتج من قصيدة متأخرة لحسان بن ثابت
أن جفنة كان شيخا من أهل العصور القديمة يفتخر به سكان يثرب (٢)
وكان ملك الغساسنة حول دمشق وتدمر ، وكانوا يتجولون في
الجهات الجنوبية لدمشق ، وخاصة لبنان وفلسطين والبلقاء وحوارن .
وقد قابل النبي صلى الله عليه وسلم بعض الأعراب من غسان في غزوة
تبوك وأسلم بعضهم على يديه .

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ١ ص ٢٩٧

(٢) نللكه : أمراء غسان ص ٣

انساب بني جفنة — (حسب رواية ابن السكلي)



الحارث بن جبله كان الحارث بن جبله أول أمراء بني جفنة وأعظمهم شأنًا. وقد تولى ملك الغساسنة في أيام الامبراطور جستنيان من سنة ٥٢٨ إلى سنة ٥٦٩ م ، و ينتهى نسبه إلى جفنة بن عمرو . وقد رقى الأمبراطور جستنيان الحارث بن جبله إلى رتبة ملك ، وبسط سلطته على كل القبائل

العربية في بلاد الشام . وكان يريد بذلك أن يقيم خصما قويا في وجه المنذر ملك الحيرة . ومن المرجح أنه لم يكن للروم قبل هذا الإمبراطور عمال كبار من العرب في سورية وأنه لم تكن لأحد من الضجاعة أو لأمراء كندة - الذين خضعوا مدة من الزمن للدولة الرومانية الشرقية - أو لغيرهم من أمراء العرب سلطة تساوى السلطة التي وصل إليها بنو جفنة فيما بعد (١) .

ويستفاد من أخبار العرب أن بنى جفنة استولوا على سورية بعد أن انتصروا على الضجاعة من قبائل سليح . وقد ذكر حمزة الأصفهاني وابن قتيبة أن أول أمير جاء بالغسانيين إلى سورية هو ثعلبة بن عمرو ؛ وهذا ما تؤيده الروايات القديمة . وقد وقعت بينه وبين قضاة حرب انتهت بارغامه على دفع الجزية لرئيس قضاة . لكن ما لبثت غسان أن انتصرت على قضاة ، وأصبح الغساسنة منذ ذلك الوقت أصحاب السيادة . وقد وجد الروم منهم حليفا قويا يقف أمام الفرس وأمام الأعراب المغيرين ؛ وقد اختلف المؤرخون في الوقت الذي تم فيه الحلف بين غسان والروم . وتعهد الروم بأن يمدوا الغساسنة بعدد من جند الروم إذا حاربوا قوما من الأعراب ، ويقدر هذا العدد بـ ٣٠ ألف أو ٤٠ ألف ، وتعهدت غسان بإمداد الروم بعشرين ألف مقاتل إذا هاجم الفرس الروم .

وقد قامت بين الحارث والمنذر أمير الحيرة حرب سببها النزاع على الأراضي الممتدة على جانبي الطريق الحيرية من دمشق إلى ما بعد تدمر ؛ ذلك أن أمير الحيرة ادعى أن القبائل العربية النازلة في تلك الأراضي خاضعة لسلطته ، فتنازع الأمير الغساني هذه السلطة فنشب القتال بينهما . وكان من أثر ذلك قيام المنازعات بين الدولتين .

الحرب بين الحارث
والمنذر

(١) نلكة : أمراء غسان ص ١١

(٢) المعارف لابن قتيبة ص ١٣٣ ، تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ٢٣٥

وفي سنة ٥٤١ م حارب الحارث في العراق بجانب الروم تحت قيادة بليزياورس (Belisarius) ، ولم يحصل في حملته هذه على نتائج تذكر . ولهذا لم يمض على هذه الغزوة زمن قصير حتى عاد الأميران العريان إلى القتال سنة ٥٤٤ م ، ووقع في هذه الحرب أحداً بناء الحارث أسيراً في يدى المنذر . وقد استمر القتال بين الأميرين العريين إلى أن أحرز الحارث بن جبلة انتصاراً حاسماً سنة ٥٥٤ م في معركة وقعت بينهما بالقرب من قنشرين انتهت بقتل المنذر ملك الحيرة . وسافر الحارث على أثر ذلك إلى القسطنطينية سنة ٥٦٣ م لمفاوضة القيصر على من يخلفه من أولاده على سورية وما يجب اتخاذه من التدابير لمقاومة ملك الحيرة ؛ وقد كان لما شاهده الحارث في العاصمة من مظاهر الترف وسعة العيش وقع عظيم في نفسه .^(١)

ولما توفي الحارث سنة ٥٧٠ م خلفه ابنه المنذر بن الحارث ؛ ولم يكده يتسلم زمام الحكم حتى هبَّ لمحاربة عرب الحيرة الذين كانوا قد أغاروا على سورية بعد وفاة أبيه ، فقاتلهم وانتصر على ملكهم قابوس ابن المنذر ؛ ثم وقع شيء من الجفاء بين غسان والروم انقطع على أثره وصول المدد ثلاث سنوات ؛ فانتهز عرب الحيرة هذه الفرصة وأغاروا على سورية ؛ فاضطر الروم إلى استرضاء الأمير الجفني ، وعقدت محالفة بين امبراطور الروم وملك الغساسنة ، ثم ارتاب فيه الامبراطور ونفاه إلى صقلية . ولكن المنذر لم يلبث طويلاً في منفاه ؛ فقد سخط على الامبراطور أبناء المنذر الأربعة وشقوا عصا الطاعة على دولة الروم ، ثم أوغلوا تحت قيادة أخيهما الأكبر - النعمان - في الصحراء ، وأخذوا يشنون منها الغارات على أراضي الدولة . غير

(١) نلذكه : أمراء غسان ص ١٨ و ٢٠ - ٢١

أن القائد البيزنطى تمكن من القبض على النعمان وأخذه أسيراً إلى القسطنطينية سنة ٥٨٣ م . (١)

وقد تفرقت كلمة العرب فى سورية بعد أن حمل المنذر أسيراً إلى عاصمة الروم وتفككت عرى وحدتهم ؛ فاختارت كل قبيلة منهم أميراً لها . وكان من أثر ذلك أن التحق بعضهم بالفرس .

ولما كثرت النزاعات والتطاحن بين القبائل العربية بعد فقد أميرها ، أقام الروم مكان المنذر عاملاً جديداً لما كان لهؤلاء الأمراء فى الماضى من الهيبة فى قلوب جميع القبائل البدوية . (٢)

على أن دخول الفرس بلاد الشام سنة ٦١٣ م قضى على ملك بنى جفنة ؛ ففر بعض أمراءهم إلى بلاد الروم ، والتجأ البعض الآخر إلى داخل الصحراء . وقد أنزل الفرس الرعب فى قلوب أهالى بلاد الشام ، وطردوا منها عمال الروم . ولا شك أنهم لم يفكروا فى أن يتركوا فيها عمال الروم ، وقد ذاقوا الأمرين على يدهؤلاء العمال ، كما لم يشأ عمال الفرس من العرب أن يتركوا الحكم فى أيدي بنى جفنة الذين أراقوا دماءهم وعاثوا فى ديارهم . (٣)

وفى سنة ٦٢٩ م انتصر الروم على الفرس واستردوا بلاد الشام . وليس لدينا ما يثبت أن هرقل فى ذلك الوقت أسند الحكم فى سورية إلى أحد أمراء بنى جفنة . وقد يتضح لنا من عدم مقاومة قبائل الحثم ، أنه لم يكن لدولة الروم فى بلاد الشام فى ذلك الحين عامل قوى يحميها ويدفع عنها المغيرين عليها من بلاد الشام .
والواقع أن الغساسنة فى ذلك الوقت كثيراً ما حاربوا المسلمين فى

(١) نذلكه : أمراء غسان ص ٣١ ، ٣٢

(٢) : د د د ص ٣٥

(٣) شرحه ص ٤٦

جانب الروم . وكان آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم (١) ؛ ويقال إنه أسلم في عهد عمر بن الخطاب على أثر انتصار العرب في اليرموك (٦٣٦٥١٣ م) . غير أنه ما لبث أن عاد إلى جانب الروم وتحول إلى النصرانية وهاجر وطنه ليستقر نهائياً في الامبراطورية الرومانية

وقد بلغت دولة الغساسنة درجة كبيرة من الحضارة . فقد كان يبلادها كثير من القلاع الحربية عرفت بالمسالح ، كما كان بها كثير من البيع والكنائس . وكان ملوكها يفتنون كثيراً من الجوارى الروميات ، وكانت مبانيها من الحجر الأبيض المأخوذ من الجبال القريبة منها . وقد تعلموا من محاربتهم الفرس الفنون الحربية وطرق الدفاع وكسبوا المراتن العسكرية ، كما اكتسبت اللغة العربية كثيراً من الكلمات التي لم تكن معروفة بها مثل الكنيسة والراهب . وقد نبغ فيهم كثير من الشعراء الذين امتلأت أشعارهم بالحماس والقوة .

الحكم عمر البمر

كانت قبائل نجد القريبة من بلاد الحيرة تابعة لملك العرب بالحيرة ، كما كانت القبائل القريبة من بادية الشام تابعة للغسانيين . إلا أن هذه التبعية كانت اسمية ؛ لأن العرب لا يطيقون أن تقيد حريتهم التي هي كل شيء عندهم .

وكان لكل قبيلة رئيس منهم حسب نظام القبيلة المسمى

(١) كان - ببارتداده إلى النصرانية أن أحد العامة وطى ذيل إزاره وهو يطوف بالكعبة فطشه جبلة حتى هشم أنفه . فشكاه الرجل إلى عمر بن الخطاب فحكم بالقود . فعز على جبلة - وهو ملك - أن يصفعه رجل من العامة ويهشم أنفه . فتحايل للهرب ولجأ إلى ملك الروم وتبعه خمسمائة رجل من قومه فتنصروا عن آخرهم وفرح بهم هرقل وأكرمهم ، ثم ندم جبلة على فعله . أبو الفداء ج ١ ص ١٦١ - ١٦٢

Patriarchal state الذى كان مألوفاً لدى العرب فى جاهليتهم ؛ وكان لهذا النظام مثيل بجزيرة قرسقة (كورسيكا) .

وكان من أهم مزايا رئيس القبيلة أو شيخها : الشجاعة والكرم والحلم ، ثم الثروة والعدد ؛ وهذه الصفات كافية لسيادة القبيلة التى تأتمر بأمره ، فتقيم باقامته وترحل برحيله ولا تتأخر عن الحرب لنصرته . فاذا غنمت القبيلة ، أخذ من الغنيمة حقوق الرئاسة والسيادة ليعدها لما يطرأ من الحوادث ، فكان له :

١ — المربع وهو ربع الغنيمة .

٢ — الصفى وهو ما يصفيه الرئيس لنفسه قبل القسمة .

٣ — النسيطة وهى ما أصاب الرئيس فى الطريق قبل أن يصل

الى القوم الذين عزم على محاربتهم .

٤ — الفضول : وهو ما فضل من الغنيمة مما لا تصح قسمته على

عدد الغزاة كالبعير و « الفرس » وغيرها .

وقد ذكرها أحد الشعراء فى هذا البيت :

لَكَ الْمِرْبَاعُ مِنْهَا وَالصَّفَايَا وَحُكْمُكَ وَالنَّشِيطَةُ وَالْفُضُولُ

وقد يُورث الأبُ الرئاسة لابنه ؛ وقد يعظم قدر الرئيس ويقوى

أمره ، فيغزو القبيلة الضعيفة ويرغمها على أن تؤدى له جزية كل

سنة تُدفع له فى سوق عكاظ حيث كان يجتمع العرب .

وعلى الجملة فقد كانت مكانة رؤساء القبائل فى قومهم كمكانة الملوك ،

ولم يكن بينهم وبين الملوك فرق إلا أن هؤلاء الرؤساء لم يُتَوَجَّوا .

وطالما كانت تظهر المنافسة وتشدد بين أبناء العم ، فبالغ كل منهم فى إقراء

الضيف والدفاع عن العشيرة ليظفر بمدائح الشعراء .

قریش

بلاد الحجاز

حافظ الحجاز على استقلاله منذ أقدم العصور ؛ فلم يَعْبَثْ بحريته الملوك الفاتحون في الوقت الذي عبث فيه كيرش وقبيز وغيرهما من ملوك الفرس باستقلال كثير من الأمم . كذلك ظل محافظا على استقلاله أيام الاسكندر المقدوني الذي صده العرب حين أغار على دارا ملك الفرس . وكان من أثر تمتع أهل الحجاز بالاستقلال طوال حياتهم أن ظهرت فيهم طبائع خاصة بهم من حيث عراقة أصلهم وشرف آبائهم وشهامتهم التي كانت ولا تزال مضرب الأمثال ولغتهم التي حافظت على نقائها وصفائها . (١)

وكان لبلاد العرب دين واحد وعقيدة مشتركة مركزها مكة (٢) ، وهي قرية تأسست حول منتصف القرن الخامس الميلادي في واد ضيق طويل مجذب على مقربة من ماء أجاج ، وتبعد عن جدة بنحو ٤٠ ميلا . وكان العمالقة أول من سكن مكة ؛ ثم خلفتهم قبيلة جرهم اليمنية . وفي مدتهم نزل اسماعيل وأمه بوادي مكة ، وصاهرهم اسماعيل ولمامات تولى البيت بعده ابنه نابت وهو أكبر أولاده ؛ ثم تولى ولاية من جرهم ؛ وقد استمرت ولايتهم الى سنة ٢٠٧ م كما ذكر سديو (٣) .

قبيلة جرهم

Sédillot, Histoire générale des Arabes, vol. 1, pp. 41-42 (١)

(٢) قال ياقوت في معجمه (ج ٨ ص ١٢٣) : مكة هي بيت الله الحرام ، يقال مكة اسم المدينة وبكة اسم البيت . وقال آخر هي بكة . وقيل بالميم الحرم كله وبالباء المسجد خاصة . وقد تضاربت أقوال المؤرخين في تسمية مكة واشتقاقها : فهي أم القرى كما سماها الله تعالى (لتذري أم القرى ومن حولها) ، والبيت الأمين كما في قوله تعالى (والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين) ، والبيت العتيق كما سماها الله تعالى (ولطوفوا بالبيت العتيق) ، والبيت الحرام كما قال الله تعالى (جعل الله البيت الحرام قياما للناس) . ومكة أو بكا كلمة بابلية سمته بها المالقي ، ومعناها (البيت) كما ذكر البنانوني بك في كتابه الرحلة الحجازية ص ٥٩ .

لبثت ولاية البيت في جرهم حتى كبر سلطانهم وعظمت شوكتهم ؛
فغشوا في الأرض فسادًا واستحلوا أموال الكعبة واضطهدوا من دخل
مكة من غير أهلها . (١)

قبيلة خزاعة

ولما قدمت خزاعة من اليمن أجلت جرهم وانتزعت منها السيادة
بعد تفرق سبأ على أثر حادثة سَيْلِ العَرَمِ ، إذ عرَّج على مكة بنو حارثة
ابن عمرو الملقب بخزاعة ؛ فاستعان بنو حارثة بكنانة (٢) ، فغلبهم
بنو حارثة وكان رئيسهم يومئذ عمرو بن لُحَيٍّ (٣) . واستمرت خزاعة
على ولاية البيت نحوًا من ثلثمائة سنة أحدثوا فيها كثيرًا من الأوهام
الفاسدة ولا سيما عبادة هُبَل . (٤)

انتقال السيادة الى
قريش

وقد استمرت خزاعة على ولاية البيت حتى قويت قريش (٥)
وتغلبت عليها في القرن الخامس الميلادي ؛ وكانت على درجة كبيرة من
الرقى . فاستولى قُصَيٌّ بن كلاب على أمر مكة والبيت الحرام
سنة ٤٤٠ م (٦) من يد خزاعة ، وأجلاهم عنها بما كان له من العصية ؛

(١) كتاب أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار للازرق ص ٣٦

(٢) بطن من مر

(٣) ابن خلدون ج ٢ ص ٣٣٢ مروج الذهب للسعودي ج ١ ص ١٨٦

(٤) بضم الهاء وفتح الباء : اسم صنم أتى به عمرو بن لُحَيٍّ .

(٥) لا يريد أن تقف طويلا إزاء اختلاف المؤرخين في تسمية قريش بهذا الاسم . على أنه
لا يجعل بنا أن نمر على هذه المسألة من الكرام من غير أن نقول فيها كلمة قصيرة . فقريش هم
ولد النضر بن كنانة على ما يقول البعض . وقد ورد مثل ذلك عن الرسول حين سئل : من قريش ؟
فقال : من ولد النضر ، وهم بنو فهر الذي هو قريش ، وإن كل من كان من ولد فهر قرشي ،
ذلك النسب الذي يتصل بعد بن عدنان ؛ وقد سما قريشا حين جهمهم الى الحرم قصي بن كلاب
بعد أن نفى خزاعة من الحرم ، من القرش وهو التجمع كما ورد ذلك في معاجم اللغة ، أو أنهم سماوا
قريشا لاحترافهم التجارة ، كما قيل أيضا انها سميت قريشا بدابة في البحر ؛ فشبّه بنو النضر بن كنانة
بها لانها أعظم دواب البحر قوة .

(٦) الطبري ج ٢ ص ١٨٧ : المبرد : نهاية الارب في معرفة قبائل العرب ص ١٢٩ : العقدة

الفريد ج ٢ ص ٢٠٢)

فرحلت خزاعة ونزلت في بطن مَرَّة (وادي فاطمة) . ومن ثمَّ عظم نفوذه واجتمعت له السقاية والحجابة والرَّفادة واللواء ، ولم تجتمع في رجل قبله .

وقد أجمع المؤرخون على أن قريشا الذين منهم قُصَيَّ بن كلاب الجد الرابع للرسول عليه الصلاة والسلام هم من ولد كِنَانَة الذي يرجع نسبه إلى عدنان وينتهي إلى اسماعيل عليه السلام ؛ وإلى ذلك يشير الحديث الذي أثر عن الرسول : « اخْتَارَ اللهُ مِنْ إِسْمَاعِيلَ كِنَانَةَ ، وَاخْتَارَ قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ ، وَاخْتَارَ بَنِي هَاشِمٍ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَاخْتَارَنِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ ، فَأَنَا خِيَارٌ مِنْ خِيَارٍ مِنْ خِيَارٍ »
وتحدثنا المصادر العربية ، ومن بينها القرآن ، أن ابراهيم كان يزور ولده اسماعيل من حين لآخر وأن الله أمره ببناء الكعبة — أى البيت الحرام — وأن ابراهيم كان يبني واسماعيل يرفع له الحجارة حتى أتياه (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ، رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (١)

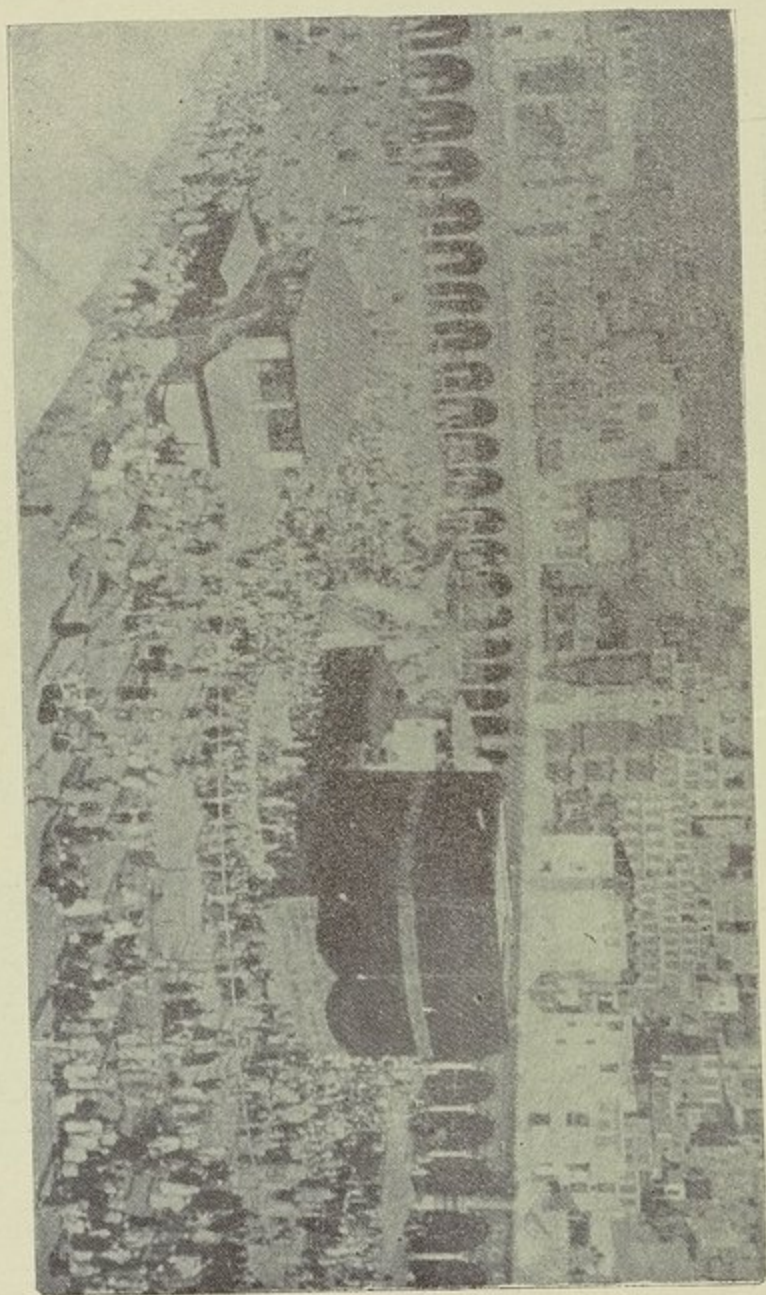
الحرم المكي أو
الكعبة

سارت الركبان بذكر الكعبة وخصوصا بعد أن أمر الله ابراهيم عليه السلام بقوله (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) (٢) . ولولا هذه القصة التي أوردها لنا القرآن الكريم في سورة ابراهيم وما حوته من الأخبار لما عرفنا عن قريش شيئا ذا غناء .

وقد بُنيت الكعبة في مكة . وهى بيت صغير مربع الشكل يحيط به بناء مكشوف . وقد أطلق عليها الكعبة لما لشكلها من الشبه بالكعب . وهى رمز لمجد ثلثائة وستين قبيلة من قبائل العرب ، لكل قبيلة صنمها

(١) سورة البقرة ٢ : ١٢٧

(٢) سورة الحج ٢٢ : ٢٧



الكعبة المشرفة

الخاص . وفيها صور ابراهيم والمسيح والحجر الأسود - ويقال أنه سقط من السماء - وتمثال لهُبُل صنم قريش (وهو من العقيق) ، وكان أكثر احتراماً وتقديساً من الأصنام الأخرى .

حياة قريش للكعبة

وقد قام حول الكعبة بعض أسر من فُهر إحدى بطون قبيلة كنانة عُرفت باسم قريش - كما تقدم - وأسست حكومة جمهورية من نوع الحكومات التي كانت منتشرة في بلاد العرب ؛ واتخذوا جزءاً من الأرض المجاورة أولوه احترامهم واعتبروه مقدساً ، وبنوا به بيتاً حراماً لا يحل فيه القتال ، وأخذوا على عاتقهم حمايته ، فأمنوا بذلك أذى غيرهم من القبائل . وكان لمكة مركز خاص لوجود الكعبة بها ، كما أصبحت قبيلة قريش محترمة في نظر القبائل العربية .

وإلى أهل قريش يرجع الفضل في إيجاد الروابط التي كانت تربط جميع من كانوا يأمنون البيت الحرام كل عام على اختلاف قبائلهم . لهذا لا نعجب إذا أصبحت مكة المكان الذي تقصد إليه القبائل من كافة أرجاء بلاد العرب حيث يجتمعون للحج والتجارة في كل عام . وقد جعل هذا الأمر لقريش مركزاً خاصاً في نفوس القبائل وأتاح الفرصة بعد ظهور الإسلام إلى كثير من رجال هذه القبيلة فظهرت مواهبهم ؛ وكان منهم كثيرون يعتبرون بحق من أكبر رجال العالم في الحرب والسياسة (١)

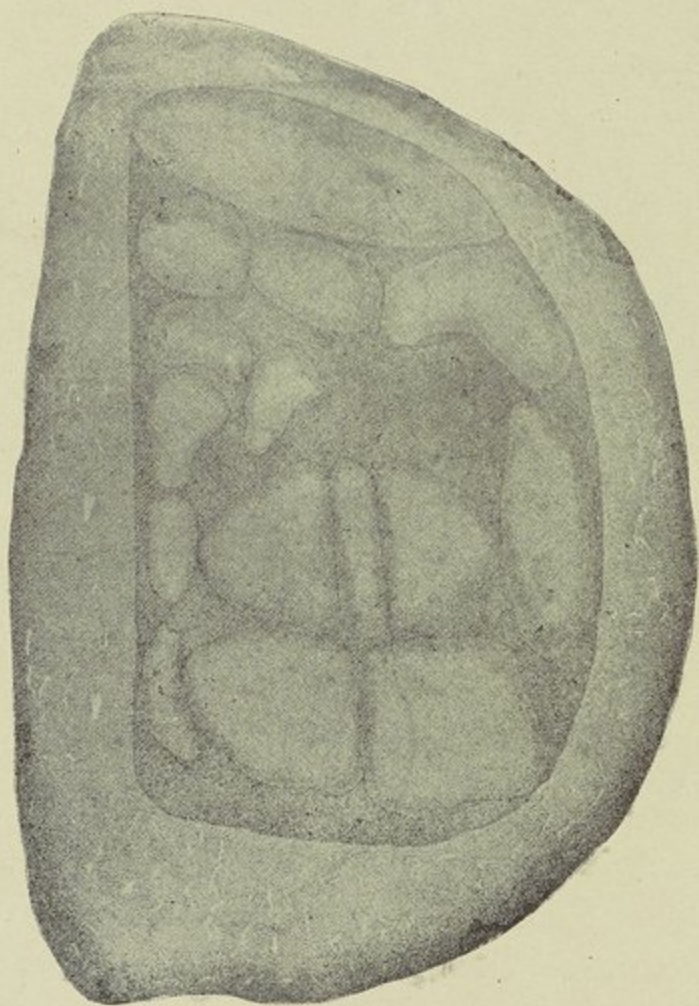
الحكومة في قريش :

وقد ذكر المؤرخون أن بنى سهم (ومنهم عمر وبن العاص) كانوا أصحاب الحكومة في قريش قبل الإسلام . على أننا لا ندري حقيقة

Noeldeke, *Historians' History of the World*, (١) vol. VIII, p. 8.

ونهاية الأثر في معرفة قبائل العرب للقلقشندي (خط يد) ، ورقة ١٢٩ ، وصبح الاعشى

الحجر الأسود



هذه الحكومة ؛ وكل مانع له هو أن العادة قد جرت عند العرب وعند غيرهم من الأمم في عصورها الأولى قبل الإسلام أن تنقسم الأسر الكبيرة منها الأعمال الاجتماعية ؛ ففعلت هذه الحكومة كانت شيئاً يشبه القضاء ، بحيث يحكم القرشيون وغيرهم ممن يفدون على مكة من العرب إلى بني سهم ، أو بعبارة أصح إلى زعماء بني سهم ، فيما كان يقع بينهم من الخصومات . وكان يلي الحكومة عند قریش أصحاب الرأي والحلم والدهاء فيها ؛ ولا يغيب عنا ما يُروى عن أكتهم بن صَيْفِي وذی الاصبغ العدواني وغيرهما من حكماء العرب .

ولم تكن حكومة قریش قبل قصة بن كلاب في يد هذه القبيلة بل كانت في يد خزاعة ؛ فلما جاء قصة جمع شتات القرشيين ووجد كلمتهم ، ثم أصبح الرئيس الديني للبيت الحرام الذي كان يفد إليه العرب من كافة أنحاء الجزيرة .

ومن مآثر قصة إنشاء دار الندوة بمكة ؛ وكان له من مظاهر الرياسة أربعة أمور .

تنظيم مكة

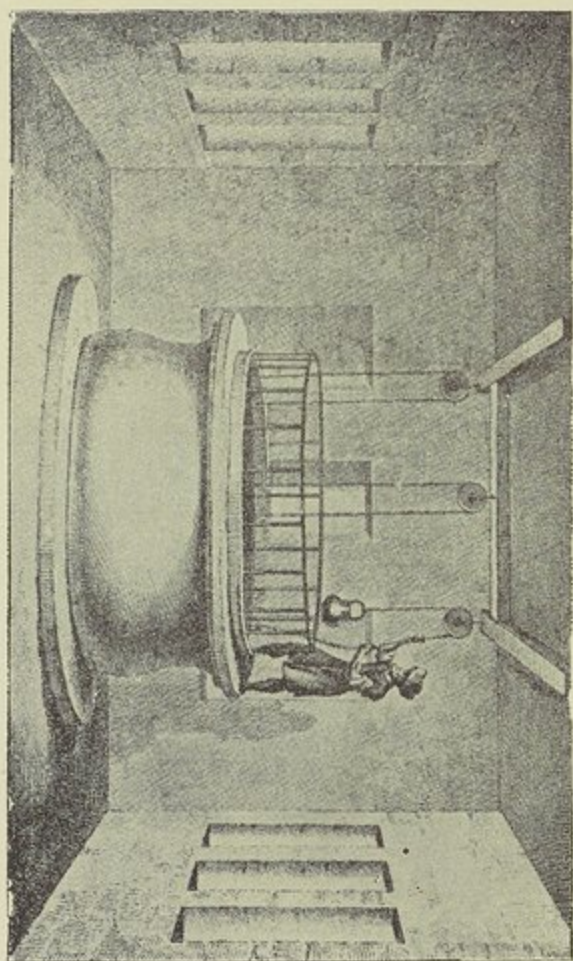
١ — رئاسة دار الندوة حيث يتشاورون في مهام أمورهم ويزوجون بناتهم ؛ وكان لا يسمح بدخولها إلا من بلغ الأربعين .
٢ — اللواء : فكانت لا تعقد راية الحرب إلا بيد قصة .

٣ — الحجابة وهي حجابة الكعبة أو سداتها . فلا يفتح بابها إلا هو ؛ وهو الذي يلي أمر خدمتها (١)

٤ — سقاية الحاج ورفادته (٢) ؛ ومعنى السقاية أنهم كانوا يملأون للحجاج أحواضا من الماء يحلون بها شئ من التمر والزبيب . والرفادة

(١) وكانت الحجابة في بني عبد الدار حتى فتحت مكة فطلبها العباس من النبي صلى الله عليه وسلم ، فأراد أن يعطيه مفتاح الكعبة ، فأُزيل الله تعالى (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) ، فرد النبي المفتاح إلى عثمان بن طلحة بن عبد العزى .

(٢) لم تترك جميع بطون قریش في الرفادة قبل قصة ، فلما جاء زمن الحج رأى قصة أن يكون لكل قرشي نصيب في إطعام الحاج لعله أثر قرى الضيف في نفس مضيفه .



بدر زمزم

طعام كان يصنع للحجاج على سبيل الضيافة . وقد قام بوظيفة الرفادة بعد قصي ابنه عبد مناف^(١) ، ثم ابنه هاشم^(٢) ، ثم ابنه عبد المطلب ، ثم ابنه أبوطالب ، ثم أخوه العباس ، وجرى الأمر على ذلك في الجاهلية والإسلام .

وكانت لقريش مصالح أخرى تلي هذه في الأهمية وزعت بين رؤسائهم حتى لا يكون هناك مجال للنزاع . على أنهم ، وإن أمنوا الحروب ، فإنهم لم يأمنوا المنافسة بين كبار البيت الواحد ؛ كما حدث بين هاشم بن عبد مناف وابن أخيه أمية بن عبد شمس الذي كان ينافس عمه في رئاسة قريش بما لديه من ثروة ، مما ولد الجفاء بين البيتين .

وكانت أشهر الحج عندهم أشهراً محرماً يعقدون فيها أسواقهم التجارية حول الحرم ؛ ولم يجرؤ أحد على الإخلال بحرمة البيت . ولما قامت الحرب بين قريش وكنانة واضطرت قريش إليها اضطراراً ، ستمتها العرب حرب الفجار ، لما كان فيها من انتهاك حرمة الحرم . وما ساعد على سيادة قريش واحترامهم عند جميع العرب حلف الفضول^(٣) ؛ فقد أخذت فيه قريش على نفسها أن ترد كل مظلمة لأهلها ، لا فرق في ذلك بين قرشي وغيره . وكان منهم كثيرون يعتبرون بحق من أكبر رجال العالم في الحرب والسياسة .^(٤)

الأشهر الحرم

حلف الفضول

وما زال فضل قريش يزداد بين القبائل حتى كان عبد المطلب الذي اشتهر بحفر بئر زمزم^(٥) سنة ٥٤٠ م . وفي عهده خذل الله أبرهة الأشرم وصدّه عن مكة والبيت الحرام ؛ ونجت مكة في أيامه من خطر

عبد المطلب

(١) أعقب عبد مناف بن قصي : عبد شمس والمطلب ونفلا وهاشما .

(٢) سمى هاشما لشمه الثريد لقومه بمكة وقد أصابهم قحط .

(٣) واتما سمى حلف الفضول لأنهم حلفوا أن يردوا الفضول إلى أهلها ، أو لانه يشبه حلف ثلاثة من جرم كل واحد منهم يقال له الفضل . سيرة ابن هشام ص ١٢٥ - ١٢٧

(٤) Noeldeke, Historians' History of the world, vol. VIII. p. 8.

وسبائك الذهب ص ٦١-٦٩

(٥) يقال إن اسماعيل لما عطلش ضرب بقدمه الارض فنبع الماء وظهرت بئر زمزم

الأحباش فذاعت شهرته وقصدته القبائل من كافة أطراف الجزيرة .
 فقد كتب أبرهة الى قيصر الروم في ذلك الوقت أنه يريد بناء
 كنيسة بصنعاء ، وسأله المعونة ، فأرسل اليه الصناع وأمدّه بالفُسَيْفِساءَ
 والرَّخام . فلما تم بناؤها ، كتب أبرهة الى النجاشي أنه يريد أن يصرف
 اليها حجاج العرب ويُحول تجارة قريش الى صنعاء .
 فأثار ذلك حفيظة العرب ؛ فخرج رجل من بني مالك بن كنانة حتى
 قدم اليمن ودخل الكنيسة وعبث بأثاثها وانتَهك حرمتها ؛ فغضب أبرهة
 وأقسم ليَهْدِمَنَّ السَّكْبَةَ ، وجرّد جيشاً عظيماً من الأحباش سيّر أمامه
 الفَيْلَة ، ويم شطر السكبة وعسكر بقرب مكة ^(١) في مكان يقال له
 الْمُغَمَّس ^(٢) حيث دارت المناوشات بين الأحباش والعرب .

رواية الطبري

يروى لنا الطبري ^(٣) أن أبرهة لما نزل الْمُغَمَّس بعث رجلاً من
 الحبشة يقال له الأسود بن مقصود على خيل له حتى انتهى الى
 مكة ، فساق إليه أموال أهلها من قريش وغيرهم وأصاب مائتي بعير
 لعبد المطلب بن هاشم ، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها ، فهتّت قريش
 وكنانة وُهَذِيلُ وَمَنْ كان بالحرم من سائر الناس بقتاله ورأوا أن
 لا طاقة لهم به . وبعث أبرهة حنّاطة الحميري الى مكة ، وقال له سلّ
 عن سيد هذا البلد ، ثم قل له إن الملك يقول لكم إنني لم آت لحربكم
 إنما جئت لهدم البيت ، فإن لم تعرضوا دونه بحرب فلا حاجة لي بدمائكم ،
 فإن لم يرد حربي فأتني به . فلما دخل حنّاطة مكة سألت عن سيد قريش
 وشريفها فقيل له عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي ؛ فجاءه

(١) ذكر سديو (Histoire générale des Arabes, vol.I.p.14)

أن عدد هذا الجيش كان أربعين ألفاً على حين ذكر غيره أنه بلغ ستين ألفاً .

(٢) المغمس بتشديد الميم وفتحها موضع على ثلثي فرسخ من مكة في طريق الطائف ، يرجع
 فيه الحجاج قبر أبي رغال الذي كان دليل أبرهة .

(٣) ج ٢ ص ١١١ .

فقال له ما أمره به أبرهة . فقال له عبد المطلب : والله ما نريد حربه
وما لنا بذلك من طاقة ؛ هذا بيت الله وبيت خليله إبراهيم . فقال له
حناطة : انطلق إلى الملك فانه قد أمرني أن آتيه بك . فانطلق معه
عبد المطلب ومعه بعض بنيهِ حتى أتى العسكر ؛ فلما تقابل مع أبرهة
قال لترجمانه : « حاجتي إلى الملك أن يرد عليّ مائتي بعير أصابها لي » .
فلما قال له ذلك قال أبرهة لترجمانه : قل له قد كنت أعجبني حين
رأيتك ثم زهدتُ فيك حين كلمتني . أتكلمني في مائتي بعير قد أصبتها
لك ، وتترك بيتنا هودينك ودين آبائك قد جئتُ لهدمه لا تكلمني فيه ؟
قال له عبد المطلب « إني أنا رب الابل وإن للبيت ربا سيمنعه » . ثم
عرض على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن مكة ولا يهدم
البيت فأبى ، فخرج عبد المطلب حائفاً وجاء إلى الكعبة ومعه جماعة من
قريش وقال :

ان للبيت ربا سيمنعه

يَا رَبِّ لَا أَرْجُو لَهُمْ سِوَاكَ يَا رَبُّ فَامْنَعْ مِنْهُمْ حِمَاكَ
إِنْ عَدُوَّ الْبَيْتِ مَنْ عَادَاكَ إِمْنَعَهُمْ أَنْ يُخْرِبُوا قُتْرَاكَ (١)
صمم أبرهة على دخول مكة وهدم الكعبة ، فعبأ جيشه وهياً فيله ،
وكان اسم الفيل محمود . فلما وجهوا الفيل إلى مكة أقبل نُفَيْل بن حبيب
حتى قام إلى جنب الفيل ، ثم أخذ بأذنه فقال ابرك محمود أو ارجع
راشدا من حيث جئتَ فانك في بلد الله الحرام ؛ ثم أرسل أذنه
فبرك الفيل . وخرج نُفَيْل بن حبيب يشتد حتى أصعد (٢) في الجبل ؛
وضربوا الفيل ليقوم فأبى ، فضربوا رأسه ليقوم فأبى ، فوجهوه راجعاً
إلى اليمن فقام يهرول ، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه
إلى المشرق ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى مكة فبرك . فأرسل الله عليهم

الطير الأبايل

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٥٢ - ٥٣ ؛ الطبري ج ٢ ص ١١٣ .

(٢) توغل

طيراً من البحر أمثال الخطاطيف ، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها : حجر في منقاره وحجران في رجله أمثال الحمص والعَدَس ، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك . (١)

وقد ورد ذكره في القرآن في سورة الفيل . قال تعالى :

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ، أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ) (٢)

هزيمة أبرهة
هزيمة أبرهة
هكذا هزم أبرهة وجيشه . وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذي جاءوا منه ويسألون عن نُفَيْل بن حبيب ليدلهم على الطريق إلى اليمن ؛ فقال نُفَيْل حين رأى ما أنزل الله بهم من نقمته :
أين المفرُّ والاله الطالِبُ والأشْرَمُ المغلوبُ ليس الغالبُ
وقال أيضاً :

أَلَا مُحِيتِ عَنَّا يَا رُدَيْنَا نَعْمَنَا مَعَ الْإِصْبَاحِ عَيْنَا
أَتَانَا قَابِسٌ مِنْكُمْ عِشَاءً فَلَمْ يُقَدَّرْ لِقَابِسِكُمْ لَدَيْنَا
رُدَيْنَةُ لَوْرَايَتٍ وَلَمْ تَرَيْهِ لَدَى جَنْبِ الْمُحَصَّبِ مَا رَأَيْنَا
إِذَا لَعَذَرْتَنِي وَحَمِدْتَ رَأْيِي وَلَمْ تَأْسَى عَلَى مَا فَاتَ بَيْنَنَا
حَمِدْتُ اللَّهَ إِذْ عَايَنْتُ طَيْرًا وَخِفْتُ حِجَارَةً تُلْقَى عَلَيْنَا
فَكَلُّ الْقَوْمِ يَسْأَلُ عَنْ نُفَيْلٍ كَأَنَّ عَالِيَّ لِلْجَبْشَانِ دَيْنَا (٣)

وتصف لنا هزيمة أبرهة تلك الآيات التي قالها عبد المطلب وهو ممسك بحلقة الكعبة .

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٣ - ٦١

(٢) سورة الفيل ١٠٥ .

(٣) الطبري ج ٢ ص ١١٢ - ١١٤ : وأخبار مكة للأزرقي ص ٨٦ - ١٠٢ يتصرف ؛

وأخبار الأول لابن اسحاق ص ١٩ - ٢١ : 41 : Sayed Ameer Ali,

لا همَّ إن العبد يد - صنع رَحْلَه فاهتج حلالك
لا يَغْلِبَنَّ صَلِيْبُهُمْ وَمَحَالُهُمْ عَدُوًّا مَحَالِك
فلئن فعلتَ فربما أولى فأمره ما بدا لك
ولئن فعلتَ فإِنَّه أمره تُشِمُّ به فعالك
وكُنْتَ إِذَا أَتَى بَاغٍ بِسِلْمٍ - رُجِّي أَنْ تَكُونَ لَنَا كَذَلِكَ
فولوا لم ينالوا غيرَ خِزْيٍ - وَكَانَ الْحَيْنُ يُهْلِكُهُمْ هُنَالِكَ
ولم أسمع بَارِجَسَ مِنْ رَجَالٍ - أَرَادُوا الْعِزَّ فَاتَهُمْ أَحْرَامُكَ
جَرُّوا جَمُوعَ بِلَادِهِمْ - وَالْفِيلَ كَيْ يَسْبُوا عِيَالَكَ
عمدوا حماك بَكَيْدِهِمْ - جَهْلًا وَمَارَقُوا جَلَالَكَ (١)

أثر هذه الهزيمة
اختلف المؤرخون فيما حل بجيش أبرهة ؛ فقال بعضهم إنه لم ينج
منه سوى أبرهة ورجل آخر من الأحباش عاد إلى اليمن ، وتحدث بما
صنع الله بأصحاب الفيل . وقد تعقب هذا الرجل طائر حلق فوق رأسه ؛
فلما وصل الرجل إلى بلاد اليمن قال للناس هذا نوع الطيور التي هزمتهم .
وبينا هو يقص عليهم كيف حلت بهم الهزيمة سقطت الحجارة على
رأسه فمات لساعته .

ويقول الأستاذ براون (٢) عن غزو الأحباش للسكبة :

• The year of the elephant marked an epoch in
the development of their national life. •

« يعتبر عام الفيل فاتحة عصر جديد في تاريخ حياة العرب القومية »

ولا شك أن هذه الحادثة التاريخية العظيمة كانت فاتحة خير على

العرب عامة وقريش خاصة ، حتى أصبحوا يؤرخون بها حوادثهم ، فقد

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١١٥-١١٥ و الطبري ج ٢ ص ١١٢-١١٣

(٢) Browne, Lit. Hist. of Persia, vol. I. pp. 176-181

مهدت السبيل لقبول الدعوة الإسلامية والقيام بنصرتها ونشر دين توحيد جديد هو دين الحنيفية ؛ إذ لو أتيح لهذا الجيش النصر والظفر لتغير وجه التاريخ ولا تنتشر الدين المسيحي في بلاد العرب ولا نصرف الناس عن مكة إلى صنعاء .

ولما ذاع نبأ أصحاب القيسل بين العرب زاد احترامهم للحرم وقالوا « أهل الله قاتل عنهم وكفاهم كيد عدوهم » .

تجارة قريش

لما كانت تربة مكة صخرية لآماء فيها ولا زرع ، امتاز أهلها على عوائل قيامها في قريش غيرهم من العرب بالنشاط . أضف إلى ذلك ما كان لهم من احترام في نفوس غيرهم من القبائل ومكانة لا تنكر ، لأنهم ولادة الكعبة الذابون عن حياضها الحافظون مجدها . على أن تربة بلدهم وإن حالت دون اشتغالهم بالزراعة ، فقد أيقظت في نفوسهم روح التجارة . وقد ساعدتهم على ذلك مركز مكة الجغرافي . لذلك لاندعش إذا أصبحت مكة منذ القرن السادس الميلادي واسطة عقد التجارة بين اليمن والشام والحبشة

وكانت قوافل قريش معروفة عند العرب محترمة في نفوسهم لأنهم سكان مكة وحماة الكعبة التي يحترمها العرب ويقدمونها . فكانوا يسيرون آمنين مطمئنين ؛ فجاب قوافلهم هذه البلاد طولا وعرضا كما فعل أهل اليمن من قبل ؛ فوصلوا إلى غزة وبنت المقدس ودمشق وعبروا البحر الأحمر إلى بلاد الحبشة . وكانت ميناء جدة ، وتبعد عن مكة بنحو أربعين ميلا ، واسطة عقد التجارة بينها وبين الحبشة ، فكانت تحمل كنوزها إلى القطيف في إقليم البحرين ، حيث تنقل في القوارب مع اللؤلؤ الذي كان يُستخرج من سواحل الخليج الفارسي إلى مصب الفرات .

موقع مكة الممتاز

فيم كانت تتاجر قريش ؟

وتقع مكة في نحو منتصف المسافة بين اليمن جنوباً والشام شمالاً . وبها عين زمزم التي كانت تردّها القوافل لتأخذ منها ما تحتاج إليه من الماء . وكانت إبل قريش تحمل من أسواق صنعاء ومن موانئ عمان واليمن الطيب والبخور الكثير الاستعمال في المعابد والكنائس والقصور في البلاد الواقعة في حوض البحر الأبيض المتوسط ، وكذا المنسوجات الحريرية والجلد والأسلحة . كما كان يشتري من أسواق بصرى ودمشق القمح والمصنوعات وزيت الزيتون والحبوب والخشب . وكانت تأتي التوابل من بلاد الحبشة ، بينما كانت تجيء من مصر المنسوجات التي كانت تسمى بالقباطي . وكانت ترد إلى موانئ بلاد اليمن من الهند والصين وغيرهما من بلاد الشرق المنسوجات الحريرية والمعادن النفيسة وغير ذلك من ضروب التجارة .

اثر التجارة في قريش

وقد استفادت قريش من اشتغالها بالتجارة فوائد معنوية وأدبية على جانب كبير من الأهمية . ولا غرو فقد ساعدت ممارسة القرشيين التجارة وكثرة أسفارهم إلى الشام والحبشة ومصر وغيرها ، ومخالطتهم لأقوام مختلفين كالفرس والروم من ذوى المدينيات القديمة والأدب التالذ على معرفة أحوال هذه الأمم الاجتماعية والأدبية ؛ كما كان لها أثر كبير في تثقيف عقولهم وارتقاء مداركهم حتى وصلوا إلى مستوى فكري لم يصل إليه أهل البدو وسكان الواحات . ومن هنا حسنت إدارتهم لشئون السكبة وسهلوا على الناس القدوم إليها وشجعوهم على الحج إلى بلدهم .

رحلتا الشتاء والصيف

وقد بلغ من اهتمام القرشيين بالتجارة أنهم كانوا يرحلون رحلتين في العام : رحلة الشتاء إلى اليمن ، ورحلة الصيف إلى الشام . وكان بنو عبد مناف الأربعة يتوجهون إلى البلاد المختلفة للتجارة ؛ فكان هاشم يتوجه إلى الشام ، وعبد شمس إلى الحبشة ، والمطلب إلى اليمن ،

ونوفل إلى فارس . وكان تجار قريش يختطفون إلى هذه البلاد في ذمة هؤلاء الاخوة الأربعة لا يتعرض لهم بسوء^(١) . وكان كل أخ منهم يأخذ من ملك البلد الذى يقصده أمانا له ؛ فكان هذا أشبه بالروابط والعلاقات بين أمراء مكة وغيرهم من الملوك . وقد من الله تعالى على قريش فى ذلك بقوله :

(لَا يَلَاقِي قُرَيْشٌ إِلَّا فِيهِمْ رَحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

وكانت بلاد العرب « وعرة إلا عليهم لعلمهم بالصحراء وسبلها ومواضع الأمن والخوف منها ، وقدرتهم على تحمل الغيظ وعناء السير »^(٢) ، فلم يكن لأهل الشام والحبشة وغيرهما من سبيل لولوج هذه الفيافي والقفار الكثيرة الوعرة والأخطار . فاحتكروا تجارة البلاد السعيدة (اليمن) والشام وغيرهما واستقلوا بتبادل سلعها . وكان من أثر احتكارهم لتلك التجارة وانتشارها فى مكة أن أثرى أهلها ثراء كبيرا . ولم يكن حب أبناء الأشراف والنبلاء وأهل الشرف فيهم للفروسية بأقل من حبهم للتجارة التى كانوا يمارسونها منذ نعومة أظفارهم^(٣) . أضف إلى ذلك ما كان من ازدياد عددهم على مر الأيام لجودة غذائهم بالنسبة لغيرهم من القبائل وعدم تعرضهم للنزاعات والحروب التى أنهكت قوى العرب فى جاهليتهم ، كما ساعدتهم ثروتهم على إقراء الضيف فلهجت بمحامدهم السنة الشعراء والوافدون على مكة من كافة أرجاء بلاد العرب .

وقد أثرت قريش من التجارة ثراء عظيما ، وظهر فيها الكثيرون اثره قريش من التجارة

(١) صبح الاعشى ج ١ صفحة ٣٥٨ ؛ واليعقوبى ج ٢ ص ٢٨٢ ، وسبائك الذهب فى معرفة

قبائل العرب (بعدد سنة ١٢٨٠ هـ) ص ٦٩

(٢) فجر الاسلام للاستاذ أحمد أمين ص ١٤

Gibbon, vol. IX, p. 94

(٣)

من الأثرياء كأبي سفيان والوليد بن المغيرة وعبد الله بن جُدعان الذى استطاع أن يجند فى حرب الفجار مائة رجل . وكان القرشيون بمشابة الوسطاء بين أقليم البحر الأبيض المتوسط فى الشمال - حيث الشام وفلسطين وسواحل آسيا الصغرى ومصر الشمالية - وبين ذلك الأقليم المسمى الذى تكثر به الخيرات المعروفة من توابل ومحاصيل أخرى هامة وبما أن التجارة تقتضى علما بالسياسة العامة والعلاقات التجارية عني القرشيون بالوقوف على العلاقات بين فارس والروم وبين اليمن والحبشة وهل هناك ما يعترض تجارتها ؛ وبذلك أصبحت التجارة مدرسة لتكوين أفراد يصعب على المدارس العادية تخريجهم ، كما تقتضى التجارة علما خاصا بالحساب التجارى وكل ما يتعلق بالتجارة من مكاييل ومقاييس . والتجارة من أشرف المهن عند العرب ، فقد ورد فى الحديث الشريف «التَّاجِرُ الصَّدُوقُ خَيْرٌ مِنَ الْبَكْرَامِ السَّيِّئَةِ» . وهكذا تولدت فيهم المواهب النادرة ، ونمت وأزهرت ، فتجلت مظاهرها فى جميع أدوارهم وكل فعاظمهم مما كان له أعظم الأثر فى مواقفهم السياسية والحربية .^(١)

الحالة الأدبية :

كانت مكة - كما أسلفنا - مركز الحركة التجارية والأدبية ببلاد الحجاز . فكان يقد إليها العرب من كل صوب وحذب أيام الحج والمواسم ، فيتناقلون الآداب الاجتماعية بعضهم من بعض ويتناشدون الأشعار الحماسية ويتحدثون بشرف أصلهم وكرم محتدهم ، فتغرس كل هذه المظاهر الاجتماعية والأدبية فى نفوس أطفالهم المواهب النادرة

أنز مكة
فى الحالة الأدبية

Wellhausen. Reste Arabischen Heidenthums, (١)

أنظر كتاب عمرو بن العاص للدؤلف ص ٢٣ - ٢٤ vol. II., p. 39 seq.

والقرايح الوقادة والخصال الكريمة ، وتدفع بهم الى جليل الاعمال
وأسمى الغايات .

التعليم

على أن التعليم في هذا العصر لم يكن منتشرآ في بلاد العرب ، لأن
العرب لم يكن لهم بالعلوم عهد . وما نظن أن بلاد العرب - وعلى
الاخص مكة - كانت تُعنى بتعليم أطفالها الكتابة والقراءة ، إنما كان
يشعر الرجل من أهلها بالحاجة الى ذلك فيتعلّمها . وكان النبي صلى الله
عليه وسلم أول من عُنى عناية خاصة بتعليم العرب الكتابة والقراءة ،
بأن عهد الى أسرى بدر الذين يعرفون الكتابة والقراءة والعاجزين
عن دفع الجزية بأن يعلم كل منهم عشرة من أبناء المسلمين هذه الكتابة
والقراءة .

أثر العلوم غير العربية
في العرب

ولا يغيب عن أذهاننا ما كان لاجتماع الشعراء في مكة وفي سوق
عكاظ من أثر في حياة العرب الأدبية ، كما لا نجعل أيضا أن كثيرين
من هؤلاء الشعراء كانوا يجوبون البلاد الأجنبية ، فاتصلوا بالفرس عن
طريق المناذرة وبالروم عن طريق الغساسنة ، وبالفرس والروم معاً
عن طريق التجارة ؛ كما أخذوا بعض الفكر الدينية عن الجاليات
اليهودية وعن نساطرة الحيرة .

وقد ظهر أثر تلك الأفكار في شعر الشعراء كقس بن ساعدة وأمية
ابن أبي الصلت ، وفي خطب الخطباء وأقوال الحكماء من العرب مثل
أكثم بن صيفي وورقة بن نوفل .

علوم العرب

أما العلوم التي حذقها العرب بحكم البيئة التي نشأوا عليها وطبيعة
البلاد التي درجوا على أرضها فهي علم الأنواء . ولاغرو فقد مهر وافي
تتبع الأنواء وتعرف أوقات نزول الغيث . كما مهر وافي علم الأثر . فقد كانت
لهم دراية خاصة بمعرفة آثار الأقدام ؛ وقد ساعدتهم على ذلك تلك الصحراء

المغطاة بالرمال التي تنطبع فيها آثار الأقدام بسهولة . ثم علم الأنساب ، فقد كان يسكن جزيرة العرب قبائل متناحرة متدبرة . ومن ثمّ دفعتهم الحاجة الملحة الى أن يحفظوا أنسابهم التي يعتمدون عليها في عقد محالفاتهم أو شن الغارة على أعدائهم أو المنافسة على مركز الرياسة فيهم - وغير ذلك من العلوم التي تنشأ في مثل هذه البيئة والتي هي أولى بأن يطلق عليها مجموعات من المعارف من أن تكون علوما بالمعنى الذي نعرفه .

وكان الغرض الأصلي من اجتماعات العرب دينياً بحتاً . وأما تناشدهم الأشعار وتبادلهم الأفكار إنما كان أمراً ثانوياً دُفعوا إليه بحكم اجتماعهم في صعيد واحد ترفرف عليهم ألوية السلام وتظلمهم أعلام الهدنة . على أن ذلك الغرض الديني لم يلبث أن تقهقر وأصبح عرضاً لا قيمة له وشيئاً ثانوياً لا يؤبه له ، بعد أن حلت محله الأغراض الاجتماعية والشؤون السياسية . فطالما كانت تعقد المعاهدات وتمضي المحالفات في تلك المجتمعات . ومن ثمّ ظهر الشعراء . وكانت لهم جلسات ممتعة يتبارون فيها في الشعر ؛ وأصبح تبادل الأفكار والمنافع هو الغرض الأصلي من تلك المجتمعات .^(١)

اغراض اجتماع
العرب بمكة

لم يحل عدم انتشار التعليم في بلاد العرب في الجاهلية دون قيام نهضة أدبية خلال ذلك العصر . ولا أدل على تلك النهضة من ازدهار الشعر ؛ وانه لصورة صادقة للخلق القومي . وهو يختلف تماماً عن الشعر في الشعوب السامية الشمالية في مادته وتركيبه . ولم نعلم بهذا الشعر إلا في أزهى عصوره وشدة انتشاره .

الشعر العربي

(١) Noeldeke, *Historians' History of the World* vol. VIII. pp. 8-9 ; Wellhausen, *Reste Arabischen Heidenthums*, vol. II. p. 89 seq.

وجميع الشعر العربي مُقَفًى . على أن القافية ليست خاصة بالشعر ؛ فقد تَقَفًى العبارات التي لها علاقة ما بالأمور الدينية والأحاديث ذات الخطر والتي ليست خاضعة لقواعد الشعر الضيقة ، وذلك مثل نبوءات بعض المتنبيين وحكم الحكماء .

رأى نلذكه في الشعر
العربي

يقول نلذكه : « ولما كان هذا النوع من الشعر يرجع الى عصر غير معلوم ، وأنه قد ظهر وانتشر بادیء ذی بدء بين الاغريق والروم في القرن الرابع الميلادی ، فليس بعيداً أن يكون ثمة ارتباط من وجه ما بين ذلك الشكل من الشعر وبين الشعر العربي ، وخصوصاً في استعمال تلك الطريقة الفنية التي لا يبعد أن تكون قد وصلت الى العرب في نفس ذلك الوقت . . على أنه يغلب على الظن أن يكون الشعر العربي قد ابتداء بالنثر المُقَفًى ثم تطور حتى انتهى إلى ما نراه عليه اليوم من البحور والأوزان . ومع ذلك فإن هذه المسألة لا تزال محلاً لاحتِمالات كثيرة ، ولم تقم للآن أدلة قاطعة نستطيع الأخذ بها . على أن أخذ الشعر العربي أوزانه عن الشعر اللاتيني أو اليوناني لا يحيط من قدره ، كما لا ينقص من طرافته تلك الدقة في مراعاة هذه القافية واستيلائها على النفس ، حتى إن العربي الذي لم يمرن على الأدب والذي لم يكن له من الثقافة حظ كبير أو قليل ، ليحفظ تلك القصائد والمقطوعات الشعرية وينقلها مع الرعاية التامة والمحافظة الشديدة لتلك الأوزان النظمية ، على الرغم من أنها تختلف كثيراً في وزنها وقافيتها عن المقاميس النظمية للشعر اللاتيني واليوناني » .

ويتناول الشعر العربي الحياة العادية والشؤون الحيوية للبدوى . وطالما كان يتغنى الشعر العربي بذكر تلك الحياة وامتداحها وصبغها بحم الألوان من الأخيلة الشعرية . ولم ينس هذا الشعر نصيبه من الحكم الرائعة والأفكار القيمة .

وقد مهد الطريق للدين الاسلامي بعض مشاهير الشعراء الذين
ثقفت عقولهم الاسفار الطويلة والمجاهدات الجمة ، والذين اختلطوا
بالمسيحيين وترددوا على بعض أقيال ^(١) العرب . وكان العربي يحرص
كل الحرص على الامتناع عن القتال في بعض أشهر السنة ، وهي الأشهر
الحرم . وكانوا يتهادنون وتضع الحرب أوزارها بين جميع القبائل في
تلك الأشهر ، وتوضع جميع الأضغان جنبا إلى جنب ، وتُنسى الحفيظة
بينهم - ولو إلى أجل - فلا يراق فيها دم ولا تنتهك فيها حرمة ،
فيتقابل الأصدقاء والأعداء لا يذكر أحدهم للآخر في تلك الفترة من
السلم ضغنا أو مؤجده ، ويجتمعون في أوقات معينة وأما كن معروفة
للقيام ببعض النسك ^(٢) والشعائر الدينية وتكريم الآلهة والزلفى
اليها . وكان لهذا النظام أثر كبير في نهضة العرب .

أثر الشعراء في
تمهيد الطريق للدين
الاسلامي

الحالة الدينية:

لم يحفظ لنا التاريخ شيئاً ذا غناء عن ديانة العرب في الجاهلية . على
أن ما لدينا من المعلومات - على قلته - يمكننا من أن نقدم للقارئ
بعض ما بهم معرفته .

كان دهماء العرب يدينون بالدين الوثني . ويقال إن الذي نقل
الوثنية الى العرب هو عمرو بن لحي الخزاعي . ولا يبعد أن يكون عمرو
هذا قد نقل بعض الأوثان من الشام الى الكعبة ؛ وفي ذلك يقول
الشهرستاني : « وأول من وضع فيه الأصنام عمرو بن لحي لما ساد
قومه بمكة واستولى على أمر البيت ، ثم سار الى مدينة البلقاء بالشام ،
فرأى قوماً يعبدون الأصنام فسألهم عنها ، فقالوا هذه أرباب اتخذناها

الوثنية

(١) القيل : هو الملك الصغير أى الخاضع لغيره من الملوك المستغنيين

(٢) العبادة

على شكل الهياكل العلوية والأشخاص البشرية ، نستنصر بها فننصر ونستسقى بها فنسقى . فأعجبه ذلك وطلب منهم صنما من أصنامهم ، فدفنوا اليه هبل ، فسار به الى مكة ووضعها في السكبة .

ولم يكن هبل وحده هو معبود العرب ، فقد انتشرت الأصنام بعد ذلك في أنحاء الجزيرة العربية على شكل بيوت وأشجار وحجارة مصورة وغير مصورة .

وكان للعرب الوثنيين كثير من الأماكن المقدسة ؛ غير أن اعتقاداتهم الدينية لم تكن من الجد في شيء كثير . ولا شك أنه كان لطبيعة بلاد العرب تأثير كبير على العادات التي خلفها لهم آبائهم ، وكانوا محافظين عليها شديدي التمسك بها ، ولو أنهم لم يجهدوا أنفسهم لمعرفة كنهها . ولكن الوثنيين في شمال بلاد العرب كانوا أكثر حماسة من غيرهم وأشد تعصباً لدينهم لاتصالهم بالمسيحيين في الشام وفلسطين ، وكذلك كانت الحال في اليمن لاتصالهم بالأحباش الذين كانوا يدينون بالمسيحية .

وكان العرب يقدمون القرابين لآلهتهم ويسرون في مواكب حول معابدهم . وكان المنذر بن ماء السماء (٥٠٥ - ٥٥٤ م) في الحيرة يقدم كثيراً من أسرى المسيحيين تكريماً للسيار فينوس Venus « الزهرة » ، كما كان يقدم عرب شبه جزيرة سيناء القرابين البشرية لنفس هذا السيار . وقد سبقهم الاسرائيليون منذ عهد بعيد الى مثل ذلك . ومن المحتمل أن يكون لاتصال العرب الشديد بالمسيحيين وأهل الديانات الأخرى أثر كبير في احياء الخماس الديني . وقد تلاشت تلك القرابين البشرية في عهد النبي صلى الله عليه وسلم . (١)

Noeldeke, *Historians' History of the World*, (١)
vol. VIII. pp. 9-10.

ونقف من القرآن على أن العرب كانوا - على الرغم من وثنيهم - يؤمنون بالله بدليل قوله تعالى (مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) وقد ذكر القرآن بعض أصنام العرب ، وأشهرها اللات (١) والعزى (٢) ومناة (٣) . ومن أعظم أصنامهم هبل ، وكان من أصنام الكعبة ، وهو مصنوع من العقيق على صورة إنسان . وقد كثرت الأصنام عند العرب حتى روى أن المسلمين أخرجوا من البيت الحرام ٣٦٠ صنما حين فتحوا مكة . وكانوا يستفتحون بالأزلام عند أصنامهم ولا سيما هبل .

المسيحية

كانت المسيحية منتشرة في قبائل تغلب وغسان وقضاة في الشمال وفي بلاد اليمن في الجنوب . وقد دخلت بلاد العرب بفضل جهود أباطرة القرن الرابع الميلادي ؛ إلا أنها لم تجذب إليها أنصاراً كثيرين منهم . وقد تكون الحال على غير هذا لو أن حكومة رومة أخذت على عاتقها نشر هذا الدين . على أن العرب - وإن لم يعتنقوا المسيحية ويدينوا بها - فقد كان من وراء هذه العلاقات الوثيقة بين العرب والبيزنطيين أن تأثر العرب بالمسيحية إلى حد ما . وقد انتشرت المسيحية في بلاد العرب من الجنوب عن طريق الحبشة والشمال عن طريق سورية وشبه جزيرة سيناء والآلهة بالأديرة والصوامع .

وقد انقسمت الكنيسة في ذلك الوقت إلى جملة فرق ، تسرب منها إلى جزيرة العرب فرقتان كبيرتان : النساطرة واليعاقبة . فكانت النسطورية منتشرة في الحيرة ، واليعقوبية في غسان وسائر قبائل الشام (٤) .

(١) اللات : معناه الإله . عرفت في آثار تدمر والنبط ، وكانت تمثل في صخرة في الطائف

(٢) العزى : كانت تمثل في شجرات في وادي نخلة عن يمين الذهاب من مكة إلى العراق

(٣) مناة : آلهة القضاء ولا سيما قضاء الموت ، وكانت تعظمها قبائل الأزد واللاس والحزرج

(٤) فجر الاسلام للإستاذ أحمد أمين ص ٢٩

اليهودية

كان اليهود رغم كثرتهم ببلاد العرب يتكلمون اللغة العربية . وكانت
أسماءهم عربية . وقد اختلف المؤرخون في أصل هؤلاء اليهود ؛
فذهب بعضهم إلى أنهم عرب اعتنقوا الديانة الموسوية ، وقال بعضهم
إنهم يهود هاجروا الى بلاد العرب . ومع كل فإن العرب لم يعرفوا
الديانة الموسوية ، وإنما انتقلت الى بلادهم من الخارج .

ويقول « نلدكه » إن هؤلاء اليهود هم من أهالى البلاد العربية
الذين اعتنقوا دين اليهودية ، وأنهم لم يكونوا مُزَوِّدين بمعلومات
كافية في التوحيد ولو أنهم كانوا شديدي التمسك بدينهم ^(١) . وقد
انتشرت اليهودية ببلاد العرب قبل الاسلام بقرون ، وتكونت فيها
مستعمرات يهودية ، وأشهرها يثرب - وهي التى سميت بعد بالمدينة -
كما تكونت مستعمرات يهودية فى تيماء وفى قَدَك وفى خَيْبَر وفى
وادي القَرْى وفى يثرب وهى أهمها . وكان يهود يثرب ثلاث قبائل :
بنى النَضِير وبنى قَيْنُقَاع وبنى قَرْيَظَة ^(٢)

الحنيفية

وكان من بين العرب أناس مستنبرون فطنوا إلى سوء حالتهم
الدينية وحاولوا الارتقاء من الوثنية إلى اعتقادات أرقى منها ، وذلك
لاختلاطهم باليهود والمسيحيين ، ووجد من بينهم أناس دعوا إلى
دين توحيد جديد له علاقة كبيرة أو قليلة بالمسيحية ، ودعوا إلى نبذ
عبادة الأصنام والتخلص من عادات الجاهلية كوأد البنات وشرب
الخمر ولعب الميسر ، وكانوا يعتقدون فى البعث بوجود إله واحد
يحاسب ويجازى على أعمال الناس من خير وشر . ويطلق على هذه
النزعة التحنف وعلى أصحابها الحنفاء أو التائبون المعترفون .

وكان من هؤلاء أمية بن أبى الصلت الشاعر المعروف ، وكان

Noeldeke, vol. VIII. p. 10.

(١)

(٢) فجر الاسلام للاستاذ أحمد أمين ص ٢٧

يؤمن أن يكون النبي المنتظر ؛ فلما بعث الرسول صلى الله عليه وسلم
 حقد عليه . ومنهم ورقة بن نوفل ، وقس بن ساعدة الإيادي ، وكان
 أشهر قضاة العرب وفصحائهم وخطبائهم . وقد سمعه الرسول صلى الله
 عليه وسلم يخطب بسوق عكاظ على جمل له يحث العرب على ترك
 العادات العربية المردولة ويبشرهم ببعث الرسول . وقد قال فيه الرسول
 « يرحم الله قسا ! إني لأرجو أن يُبعث يوم القيامة أمة وحده » (١)

وقد وجد بينهم من أخذ الزندقة عن الحيرة وقالوا بإله النور
 والظلمة أو إله الخير والشر ، كما وجد بينهم صابئة وعبداء للنجوم ومجوس .

وعلى الجملة ، فإنه لما ولد الرسول صلى الله عليه وسلم ، أخذت
 الوثنية لدى العرب في الضعف ، وأخذ البعض منهم يعتقدون بالحياة
 الآخرة ، وانتشرت المسيحية في بلاد العرب . وكان لليهودية أشياع
 كثيرون ، فضلا عن أنها ساعدت تلك العقيدة القائلة بالتوحيد .

الحالة الدينية عند
 ميلاد الرسول

ولم يُقدَّر لآي دين من هذه الأديان الخارجية الفوز والغلبة في
 بلاد العرب . فقد كانت المسيحية إذ ذاك مذهبا مُعَقَّدَا تعددت فيه
 الفرق واختلفت ، وكانت اليهودية دين الشعب المختار الذي لم يقبل
 العرب على أنفسهم أن يضحوا له باستقلالهم ، كما ضعف مذهب
 التوحيد لما لاقاه من المعارضة من العناصر المقتبسة من دين زرادشت
 (Zoroaster) . ومع ذلك فقد مهدت المذاهب والأفكار والآراء
 المسيحية واليهودية والفارسية الطريق لظهور المصلح المنتظر ألا وهو
 النبي محمد صلى الله عليه وسلم .

(١) راجع خطبة قس بن ساعدة في صبح الاعشى ج ١ ص ٢١٢ وما كتبه ولغزنت
 Wellhausen عن ديانة العرب في كتابه Reste Arabischen Heid-
 enthums, vol. II.

البَابُ الثَّانِي

الْبَعْثَةُ النَّبَوِيَّةُ

الرسول منذ ولد الى أنه بعث :

ولد الرسول في ٢٠ ابريل سنة ٥٧١ م كما تروى لنا الروايات العربية ^(١) ، وهي السنة المعروفة بعام الفيل ، من أبوين فقيرين في مالهما غنيين في جاههما وحسبهما . وكان أبوه عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف بن قصي بن كلاب . وكان لأولاد هاشم الإشراف على بئر زمزم . وقد مات أبوه قبل أن يولد ، فكفله جده عبد المطلب ، فلما مات كفله عمه أبو طالب من بعده ، وعُهد به وهو صغير لامرأة بدوية تسمى حليمة كما هي عادة أبناء الأشراف من قريش ، فنشأ الطفل في جو بدوي يتكلم بلغتهم الفصحى . وتوفيت أمه آمنة وهو في السادسة من عمره ، ولم يكن له من الميراث إلا القليل .

وقد اضطر الرسول أن يرعى الغنم لحساب غيره على تلال مكة (وكان يرعى الغنم وهو طفل في البادية مع اخوته من الرضاع) . وكان لهذه الحرفة أثر كبير في نفسه ، إذ أنها ولدت في قلبه الرأفة والرحمة ولين الجانب وغيرها من الصفات الحميدة .

وقد ذهب عليه الصلاة والسلام بالتجارة إلى بلاد اليمن والشام ^(٢) . اشتغاله بالتجارة والتجارة — كما لا يخفى — تربي في التاجر صفات حرية لا تقل عن صفات القائد في الجيش ، إذ يحتاج التاجر المسافر في القافلة لحراسة

(١) هذا ما ذكره المرحوم محمود باشا الفلكي وهو أن ولادة الرسول كانت في صبيحة يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الاول الموافق ٢٠ ابريل سنة ٥٧١ م

(٢) سافر الرسول التجارة الى الشام أكثر من مرة . فذهب به عمه أبو طالب الى بصرى وهو في الثانية عشرة من العمر ، وهناك لمع فيه راهب اسمه بحدرا علامات النبوة بعد أن سأله عن أمور في نومه ويقظته ، ورأى في بدنه علامات النبوة على ما في كتب النصارى ، وصنع له ولبن من معه طعاماً أكراماً له . وقد سافر الرسول الى الشام وهو في الخامسة والعشرين مع ميسرة غلام السيدة خديجة ، فربحت التجارة وأخبر راهب اسمه نسطورا الرسول بأنه نبي .

بضاعته والذود عنها اذا هجم عليه بعض الأعراب . كذلك ينبغي أن تكون عند التاجر المهارة الكافية ليستطيع أن يبيع بضاعته بأسهل الطرق ويشترى غيرها بأرخص الأثمان .

زواجه بالسيدة خديجة

وقد أدى اشتغاله بالتجارة ، وما عرف عنه من الصدق والأمانة اللتين كانتا شعاراً له منذ نعومة أظفاره ، إلى معرفته بالسيدة خديجة بنت خويلد ، وهى سيدة موسرة كانت تدعى فى الجاهلية الطاهرة وسيدة قریش ، فأنفذته فى تجارة لها الى الشام ، فربحت هذه التجارة ضعف ما كانت تربح من قبل ، فضاعفت له الأجر وخطبته لنفسها وهو فى سن الخامسة والعشرين وهى أرملة فى سن الأربعين . وقد دفع صداقه عمه أبو طالب ^(١) ، وخطب خطبة — شهدها حمزة بن عبدالمطلب عم الرسول — أبان فيها ما عليه محمد من الفضل والنبيل على الرغم من قلة ماله فقال : « الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل ، وجعل لنا بيتاً محجوجاً وبلداً حراماً ، وجعلنا الحسكام على الناس . ثم إن محمداً بن عبد الله ابن أخى من لا يؤازن به فقى من قریش ، الأرجح ^(٢) عليه براً وفضلاً ، وكرماً وعقلاً ومجداً ونبلاً ^(٣) ؛ وإن كان المال قل ^(٤) فانما المال ظل زائل وعارية ^(٥) مُسْتَرْجَعَةٌ ، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتم من الصداق ^(٦) فعلى » . وقد أعقب الرسول منها ستة أطفال منهم فاطمة التى تزوجت فيما بعد بعلي بن أبى طالب .

الرسول فى الخامسة والثلاثين

ولما بلغ الرسول الخامسة والثلاثين جددت قریش بناء الكعبة

(١) كان المزوج لها عمها عمرو بن أسد ، والمزوج له بها عمه أبو طالب ، والسفير بين خديجة والرسول نقيسه بنت منبه . وكان الصداق اثنتى عشرة أوقية ونصف أوقية (والواقية أربعون درهماً) .

(٢) فاقى (٣) ذكاً . (٤) قلة (٥) ما تداول الناس بينهم (٦) المهر

لتصدع جدرانها . وكان الرسول ينقل الحجارة مع القرشيين . وقد اختلفوا فيمن يضع الحجر الأسود مكانه ، ثم اتفقوا على أن يحكموا أول داخل من باب شيبة (١) ، فكان الرسول أول من دخل منه فقالوا : هذا هو الأمين رضيناه حكماً ، وأخبروه الخبر فبسط رداءه ووضع الحجر فيه وقال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب . فرفعوه حتى انتهوا إلى موضعه ، فأخذ الرسول ووضعته في مكانه . وبذلك أَرْضاهم جميعاً .

وكان الرسول على جانب عظيم من حسن الخلق . وقد اشتهر بين قومه بالمرومة والوفاء بالعهد وحسن الجوار والحلم ، والعفة والتواضع والجود والشجاعة والصدق والأمانة ، حتى سموه الأمين . وكان يكره عبادة الأوثان فلم يحضر مواسم الحج . وكان لا يشرب الخمر ولا يأكل مما يُذبح على النُصب (٢) ، ولا يحضر مجالس اللهو والسمر .

أخلاق الرسول

التبشير بنبوته

وقد عصمه الله قبل النبوة وبعدها . وبشرت التوراة والانجيل كما تنبأ الرهبان والسكان بقرب بعثته ، وكثرت بذلك الأخبار حتى سُمي بعض العرب أولادهم باسم محمد عسى أن يكون هو النبي المنتظر . وقد قال الله تعالى عن عيسى عليه السلام (إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ)

وكانت حياة الرسول قبل النبوة على حد قوله تعالى (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى . فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) . وقد يكون المقصود بالضلال الخيرة وعدم الرضا عن الوثنية .

(١) وكان يقال له في الجاهلية باب عبد شمس ؛ ويقال له باب السلام الآن

(٢) وهي حجارة تصب وتصب عليها دماء الذبائح وتعبد .

وقد أجمع المؤرخون وأصحاب السيرة على أن الرسول ما كان يأنس لهذا النوع من الديانات. فقد كان يخلو بنفسه ويأخذ في التفكير حتى كانت نفسه منذ نعومة أظفاره تميل الى الآراء والمذاهب الدينية ، واستمر كذلك حتى اعتنق دين الخنيفية وهو دين ابراهيم الذي كان يدين به كثيرون من العرب الذين تنبّهت عقولهم الى انحطاط الوثنية من أمثال قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي وأمّية بن أبي الصلت .

ويظن بعض المستشرقين أنه أخذ الكثير عن الآراء اليهودية والمسيحية . ولكن ذلك لم يتجاوز المشافهة بتلك التعاليم والقواعد .

البعثة :

وقد آثر الرسول العزلة وألف النشك والعبادة . فكان يتعبد في غار حراء ^(١) ، وأخذ يتأمل في عجائب الكون ، ويفكر في البعث والحساب والجنة والنار . فاذا فرغ ما معه من الزاد عاد الى خديجة .

غار حراء

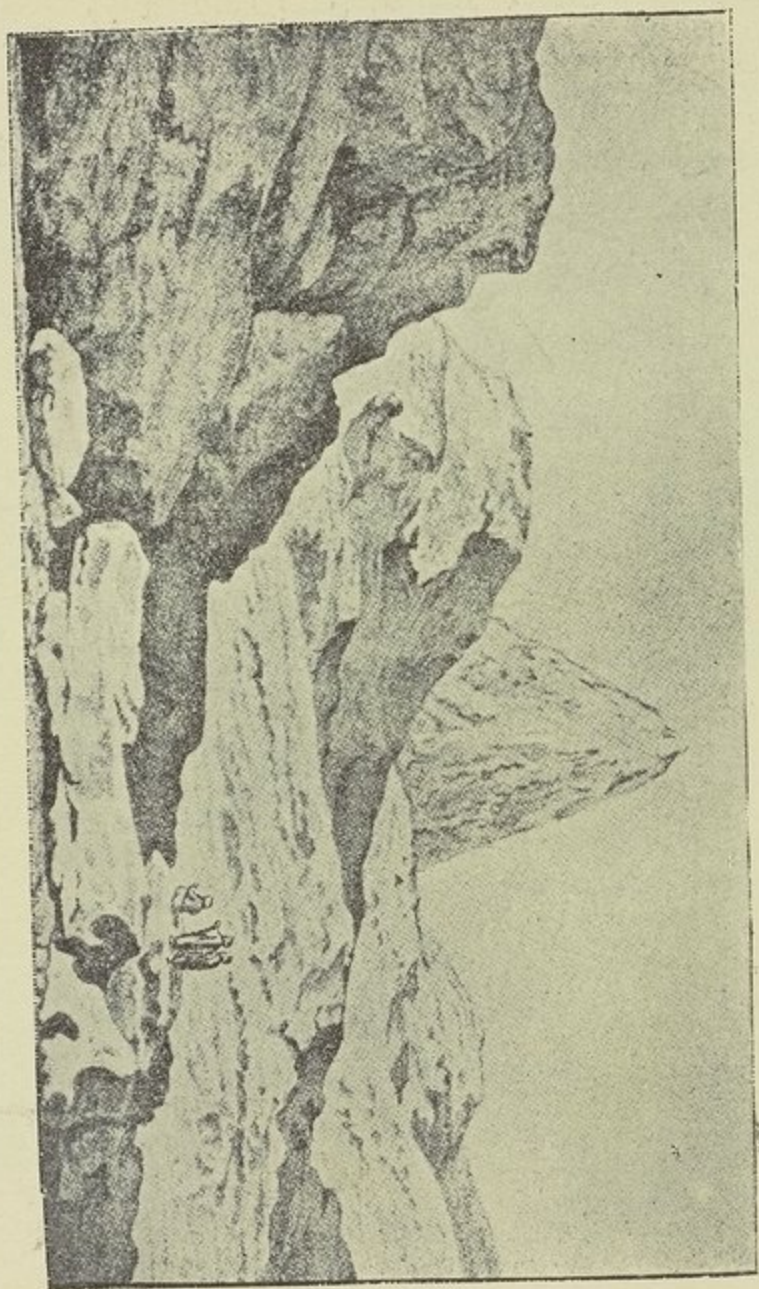
وكان أول ما بُدئ به الوحي الرؤيا الصالحة . وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . وبقى الرسول على ذلك ستة أشهر حتى بلغ الأربعين من عمره ، فنزل عليه الوحي يوم الاثنين لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان ، فرأى جبريل الذي ظهر أمامه وقال له : اقرأ ! فقال : ما أنا بقارى . ^(٢) ، فضمّه ضمة قوية حتى بلغ منه الجهد وقال له : اقرأ ! فقال : ما أنا بقارى . فضمه كذلك ثم أطلقه وقال له : « إقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق . إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم » فكانت هذه الآية أول ما نزل من القرآن .

بدا الوحي

(١) وهو جبل على مقربة من مكة .

(٢) لان الرسول كان أميا لا يقرأ ولا يكتب .

جبل حرا



ولما كان الرسول يصدق سمعه اعتقد أنه مكلف من قبل الله سبحانه وتعالى برسالة الى هذا العالم يعلمه الحقيقة الخالدة ، وهي أنه ليس هناك إلا إله واحد نبيه محمد الذي يدبر ويراقب أعمال الانسان ، ويعاقب ويجازى الطيبين والأشرار بعد الموت كل بمقدار عمله .

وسرعان ما عاد الرسول الى خديجة وهو يرتجف مما أصابه فقال : زمّلوني زمّلوني^(١) ، فزملوه حتى ذهب عنه الروح ، وأخبر خديجة بما رأى وقال : قد خشيت على نفسي^(٢) ، فقالت : كلا والله ! ما يخزيك الله أبداً . ثم انطلقت به الى ابن عمها ورقة بن نوفل - وكان شيخاً كبيراً يحفظ الانجيل - فقالت له : يا ابن العم ! اسمع من ابن أخيك . فأخبره عليه الصلاة والسلام بما رأى فقال له ورقة : هذا الناموس^(٣) الذي نزل على موسى ، ثم قال : يا ليتني كنت فيها جذعا^(٤) ! إذ يخرجك قومك . فقال الرسول : أو تخبرني جيّهم ؟ فقال ورقة : لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومى أنصرك نصراً مؤزراً ، ثم لم يلبث ورقة أن توفي .

وعاود الرسول الذهاب الى غار حراء مدة . وقد سمع ذات يوم صوتاً من السماء ، فرفع اليه بصره فاذا الملك الذي جاءه أولاً بين السماء والأرض ؛ فرجع الى داره وقال : دثروني دثروني ! فنزل قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَتَيْبَاكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ) ، وهذا هو بدء رسالته صلى الله عليه وسلم .

اعتنق هذا الدين البسيط السامى أول الأمر الأفراد المتصلون

دعوة الافراد

(١) أى لفوني في ثياب (٢) من شدة ما لاقاه من الملك (٣) أى ملك الوحي

(٤) أى شاباً قوياً

بالرسول كزوجته خديجة ، وابن عمه علي بن أبي طالب ؛ وكان في كفالة الرسول لأن أبا طالب كان كثير العيال قليل المال ، فكفل العباس جعفرًا والرسول علياً ، وأسلم من الموالى زيد بن حارثة الكلبي الذي وهبته السيدة خديجة الى الرسول فأعتقه وتبناه ، فكان يقال له زيد بن محمد الى أن نزل قوله تعالى (اَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ) فدعوه زيد ابن حارثة . (١)

ولكن الأمر لم يقتصر على أقاربه ومواليه ، بل تعداهم الى بعض رجالات قريش كأبي بكر الصديق الذي اتصف بصفات قل أن تجتمع في شخص . فقد كان ثرياً عالماً بقريش وأنسابها ، وكان لا سلامه أثر كبير ، فقد أسلم على يديه رجال عظام منهم عثمان بن عفان وكان لا يتجاوز العشرين من العمر ، والزيير بن العوام وقد بلغ الحلم ، وسعد ابن أبي وقاص وعبدالرحمن بن عوف (٢) ، وكان اسمه عبد عمر فسماه الرسول بهذا الاسم ، وطلحة بن عبيدالله . وتلاه هؤلاء رجال من أفخاذ قريش كأبي عبيدة بن الجراح والأرقم بن أبي الأرقم الذي اتخذت داره مركزاً لبث الدعوة سرّاً الى الاسلام ، ولا تزال بمكة الى اليوم . ولم تقتصر الدعوة على هؤلاء ، بل أسلم رجال يلون من سبقوا في الرتبة ، وسميت هذه الدعوة بدعوة الأفراد ، لأن الرسول كان يدعو كلا من هؤلاء على انفراد ، وقد سموا السابقين الأولين ، كما سمي من أسلم بعدهم المستضعفين .

(١) وقد قيل إن أول من آمن بالرسول من الموالى بلال الحبشي ، وآمنت به أيضاً أم بركة الحبشية .

(٢) لما علقت أمه باسلامه قالت له : واقع لا يغفلني سقف من الحر والبرد ، وأن الطعام والشراب على حرام حتى تكفر .

وكان مشركو قريش يسومون المستضعفين من المسلمين سوء العذاب .

٣ - الجهر بالدعوة :

ظل الرسول ثلاث سنين يدعو الى الاسلام سرّاً كل من يثق فيه ويطمئن الى استعداده النفسى لقبول مبادئه . وكان هو وأصحابه في تلك الفترة يستخفون من قريش في صلاتهم وفي الدعوة الى هذا الدين . وكان المشركون كلما رأوهم في صلاتهم ناكروهم وسخروا منهم ومن عبادتهم .

حتى اذا كثرت المسلمون وخافت قريش تزايدهم قعدت لهم بكل طريق تصد الناس عن دعوتهم وتحقر من شأنهم وتستهزئ بهم . ولكن الرسول أمر على رأس ثلاث سنين بالجهر بالدعوة وعدم المبالاة بما نصب له المعارضون المستهزون (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزين) ، وقال تعالى (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ)

صدع الرسول بأمر ربه وأخذ يفكر فيما يحدث به قريشا ، ويستشير ذلك النفر القليل الذين آمنوا به وصدقوه . ثم دعا الرسول بنى عبد المطلب الى طعام صنعه على بن أبى طالب ، وتكلم الرسول فقال : يا بنى عبد المطلب ! إني والله ما أعلم شابا في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتمكم به . إني قد جئتمكم بخير الدنيا والآخرة ، ^(١) ودعا بطون قريش من فوق جبل الصفا بظاهر مكة .

فلما اجتمعت إليه قال : أرأيتم لو أخبركم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مُصدّقين ؟ قالوا نعم ! ما جربنا عليك كذبا . فقال (إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد) ، فقال أبو لهب : تبّاً لك ! أهذا جمعتمنا ؟ فأنزل الله تعالى في أبي لهب وزوجه ^(١) قوله (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ . مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ . سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ، وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ)

(١) مناوأة قريش لدعوة :

وهنا بدأت عداوة قريش تظهر ظهوراً جلياً ، لأن الرسول لو قصر كلامه على تطهير النفس وإصلاح الأخلاق لما أثارت دعوته شيئاً من المقاومة أو المعارضة التي لقيها . ولكن جهره بالدعوة الى وحدانية الله ، ودعوته الى تلك الوحدانية في كل مكان ، وغضّه من شأن الأوثان التي كان مجرد وجودها بالكعبة مصدر ثراء قريش : كل ذلك جعلهم يحشون القضاء على عبادة الأوثان التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم ؛ فناصرته قريش العداة وأجمعوا على خلافه والوقوف في سبيل دعوته ، وإيذاء أتباعه ليفتنوهم عن دينهم ، فلم يزدتهم ذلك إلا إيماناً .

(١) كان أبو لهب من أعمام الرسول ، ولكنه كان من أشد الناس عداوة له وأحرصهم على إيذائه . وقد يكون السبب في ذلك أنه كان متزوجاً بأم جميل بنت حرب بن أمية وأخت أبي سفيان بن حرب . وكانت هي الأخرى معادية للرسول تسيء إليه بالقول والفعل . فقد روى أنها كانت تجلس في مجتمعات النساء وتقوم بدعاية سيئة ضده وضد ما يدعو إليه . كما روى أنها كانت تطرح الشوك في طريق الرسول إذا سار . وقد سماها القرآن حمالة الحطب . قال البيضاوي « يعني حطب جهنم ، فانها كانت تحمل الأوزار بمعاداة الرسول ، وتحمل زوجها على إيذائه ، أو التهمة ، فانها كانت توقد نار الخصومة أو حزمة الشوك أو الحسك التي كانت تحملها فتثرها بالليل في طريق رسول الله » (تفسير البيضاوي - سورة اللهب رقم ١١١) .

وقد روى ابن اسحق عن عبدالله بن عباس أن المشركين كانوا يضربون المسلم ويحججونه ويعطشونه حتى كان لا يقدر على الجلوس من شدة الضرب ، ليرتد عن دينه ويقول آمنت باللات والعزى . وكان بعض المسلمين يقول كلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان فرارا من أذاهم . وقد فرق الله بين هؤلاء وبين من ارتد عن الإسلام وانشرح صدره للكفر بقوله (إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ)^(١)

ابن عبد الله المسلمين

ويقول ابن الأثير^(٢) إن مشركي قريش كانوا يخرجون عمار بن ياسر وأباه وأمه إلى الأبطح^(٣) إذا حميت الرمضاء ويعذبونهم بحرها ، فيمر بهم الرسول فيقول « صبرا آل ياسر موعدكم الجنة » . وكان أبو جهل^(٤) إذا سمع بإسلام رجل من ذوى الشرف أنبأه وقال : « تركت دين أبيك وهو خير منك . لَنُصَقِّنَّ حَلَكُ ، وَلَنُفَيْدَنَّ^(٥) رأيك ، ولنضعن شرفك » ، وإن كان تاجرا قال له لنكسدن تجارتك ولنهلكن مالك ، وإن كان ضعيفا ضربه وأغرى به . ولما مات ياسر من العذاب ، أغلظت امرأته سمية القول لآبى جهل فطعنها بحربة فماتت . وهى أول شهيدة في الإسلام . ثم أمعن المشركون في تعذيب ابنه عمار بالحر تارة ، وبوضع الصخر على صدره تارة ، ثم بالتغريق تارة أخرى .

تعذيب عمار بن ياسر

اول شهيدة في الاسلام

وهذا بلال مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم : كان خلف الجمحي من مشركي قريش يلقيه في الرمضاء على وجهه وظهره إذا حميت الشمس وقت الظهيرة ، ثم يأمر بالصخرة الكبيرة فتلقى على

بلال

(١) سورة النحل ١٦ : ١٠٦

(٢) ج ٢ ص ٣٠ (٣) الرمل المنبسط على وجه الارض . وهو مكان بين مكة ومنى .
أظهر هذا اللفظ في معجم البلدان لياقوت (٤) ابن هشام ج ١ ص ٢٩٠ — ٢٩١ (٥) قوله لنفيلن رأيك أى لتقبحنمو لنخطئنه .

صدره ، ويقول له لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى . وكان ورقة بن نوفل يمر به وهو يقول : أحد أحد ! فيقول ورقة : أحد أحد والله يابلال . ولم يزل على هذا العذاب حتى اشتراه أبو بكر واعتقه .

أما خباب بن الارت فقد عذبه الكفار عذاباً شديداً ، إذ كانوا يوثقون ظهره بالرّمضاء ثم بالرّضف^(١) ؛ فلم يزد ذلك إلا تمسكاً بالإسلام وإخلاصاً له . وقد هاجر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهد معه المشاهد كلها .

ولم يقتصر تعذيب قريش المسلمين على الرجال ، بل تعداهم إلى النساء ؛ فقد أسلمت لبينة جارية مؤمل بن عدى قبل إسلام عمر بن الخطاب ؛ فكان عمر يمعن في تعذيبها حتى يمل ، ثم يدعها ويقول : إنى لم أدعك إلا سامة . ولم يزل في هذا العذاب حتى اشتراها أبو بكر وأعتقها^(٢) .

(ب) صحابة أبى طالب للرسول :

ولم تفعل قريش بالرسول أول الأمر ما فعلت بالمسلمين الذين اتبعوه نظراً لمساكنة عمه أبى طالب وشرفه وجاهه فيهم .

وقد عطف أبو طالب على الرسول ومنعه وحماه ، فحضى رسول الله على أمر الله مظهراً لدينه لا يردّه عن ذلك شيء . فلما رأت قريش منه الجِد في الدعوة ، وسكوت أبى طالب عنه وعدم نهيه عن ذلك الذى يقوله عن آلهتهم وآبائهم ونظمهم ، خشيت أن يتفاقم شره ويعظم أمره .

(١) الحجارة المحماة بالنار

(٢) ابن الاثير ج ٢ ص ٣٠ — ٣٢

فشى رجال من أشرافها إلى أبي طالب فقالوا : يا أبا طالب ! إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا ، فاما أن تكفه عنا ، وإما أن تخلى بيننا وبينه — فانك على مانحن عليه من خلافه — فنكفيكه . فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً وردهم ردّاً جيلاً ، فانصرفوا عنه ، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما هو عليه يظهر دين الله ويدعو إليه . ثم اشتد الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال ودبت العداوة والبغضاء بين أفراد الأسرة الواحدة ، فمشوا إلى أبي طالب مرة أخرى فقالوا له : يا أبا طالب ! إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنا قد استهينناك من ابن أخيك فلم تنته عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين .

ملاينة أبي طالب
لقريش

تهديد قريش أبا
طالب

ثم انصرفت قريش عن أبي طالب ، فعظم عليه تحدى قومه له وفراقهم إياه وعداوتهم له ، ولم يطب نفساً بإسلام رسول الله ولا خذلانه ، وبعث إلى رسول الله فقال له : يا ابن أخى ! إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا ، فابق على وعلى نفسك ولا تحمئني من الأمر مالا أطيع . فظن رسول الله أن عمه يريد أن يخذله وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه ؛ فقال رسول الله : يا عم ! والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه متركته ؛ ثم استعبر فبكى ، ثم قام . فلما ولي ناداه أبو طالب فقال : أقبل يا ابن أخى ! فأقبل رسول الله ، فقال : اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبدا . وبذلك أظهر أبو طالب الجد في نصرته الرسول .

عرض أبي طالب
الأمر على الرسول

إصرار الرسول ورفض
أبي طالب به

فلما رأت قريش أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله ، وأنه قد آثر فراقهم وعداوتهم ، مشوا إليه بعارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا له :

قريش تسام
أبا طالب في الرسول

يا أبا طالب ! هذا عمارة بن الوليد أنهد قتي في قريش وأجمله ، فخذَه
فلك عقله ونصره واتخذَه ولدا فهو لك ، وأسلم الينا ابن أخيك هذا
الذي قد خالف دينك ودين آبائك ، وفرق جماعة قومك وسقه
أحلامهم فنقتله ، فيأتما هو رجل برجل . قال والله لبئس ماتسو موتى !
أتعطوني ابنيكم أغذوه لكم وأعطيكُم ابني تقتلونه ؟ هذا والله ما لا يكون
أبدا . فقال المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف بن قصي : والله
يا أبا طالب لقد أنصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكرهه ،
فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا . فقال أبو طالب للمطعم : والله
ما أنصفوني ، ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم على فاصنع
مابدا لك . واشتد الجدل وتنازعا الفريقان . فخرجت قريش من عند
أبي طالب وقد أجمعت على التنكيل بمحمد وأتباعه ليحولوا دون انتشار
دعوته ؛ فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم
عن دينهم ، ومنع الله رسوله منهم بعمه أبي طالب .

بدء النضال

بيت هاشم والمطلب
ينصر الرسول

وقد قام أبو طالب في بني هاشم وبني المطلب حين رأى صنيع قريش
بالمسلمين فدعاهم الى ما هو عليه من منع رسول الله والقيام دونه ،
فاجتمعوا اليه وقاموا معه وأجابوه الى مادعاهم اليه ، إلا ما كان من
أبي لهب . فلما رأى أبو طالب من قومه ماسره ، جعل يمدحهم ويذكر
فضل رسول الله فيهم ومكانه منهم فقال :

إِذَا اجْتَمَعَتْ يَوْمًا قُرَيْشٌ لِمَفْخَرٍ فَعَبْدُ مَنْفٍ سِرُّهَا وَصِمِيمُهَا
فَإِنْ حَصَلَتْ أَنْسَابُ عَبْدِ مَنْفٍ فِيهَا فِي هَاشِمٍ أَشْرَافُهَا وَقَدِيمُهَا
وَإِنْ تَخَرَّتْ يَوْمًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا هُوَ الْمَصْطَفَى مِنْ سِرِّهَا وَكَرِيمِهَا
تَدَاعَتْ قُرَيْشٌ غَنَمًا وَثَمِينُهَا عَلَيْنَا فَلَمْ تَنْظُرْ وَطَاشَتْ حُلُومُهَا
وَكُنَّا قَدِيمًا لَا نُقَرُّ بِظِلَامَةٍ إِذَا مَا تَنَوَّاهَا صُغَرَ الْخُدُودُ نُقِيمُهَا

وَنَحْمِي حِمَاهَا كُلَّ يَوْمٍ كَرِيهَةٍ وَنَضْرِبُ عَنْ أَحْجَارِهَا مَنْ يَرُومُهَا
 بِنَا انْتَعَشَ الْعَوْدُ الذَّوَاءُ وَانَّمَا بَأْ كُنَّا فَنَاتَدْنَى وَتَنَمَّى أُرُومُهَا (١)
 وقد خشيت قريش أن يستميل الرسول الحجاج الذين كانوا ينفدون
 على مكة في الحج ، وتشاوروا فيما بينهم للقضاء على الدعوة الإسلامية
 وهي لا تزال في مهدها . واجتمع إلى الوليد بن المغيرة نفر من قريش
 وقد حضر الموسم ، وكان الوليد ذا سن وشرف فقال لهم : يا معشر
 قريش ! إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم
 فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ؛ فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا
 تختلفوا فيكذب بعضهم بعضاً ويردّ قولكم بعضه بعضاً . قالوا :
 فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقل به . قال : بل أنتم فقولوا
 اسمع . . قالوا : نقول كاهن . قال : والله ما هو بكاهن . لقد رأينا
 الكهان فما هو بزَمَزَمَةَ الكاهن ولا سَجَعَهُ . قالوا : فنقول مجنون .
 قال ما هو بمجنون . لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخَنْثِقِهِ ولا
 تَخَنُّجِيهِ ولا وَسْوَستِهِ . قالوا : فنقول شاعر . قال : ما هو بشاعر ؛
 لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه ،
 فما هو بالشعر . قالوا : فنقول ساحر . قال : ما هو بساحر ؛ لقد رأينا
 السِّحْجَارَ وسحرهم ، فما هو بنقشهم ولا عُقْدِهِمْ . قالوا : فما نقول يا أبا عبد
 شمس ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعزق ، وإن فرعه
 لجناه ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل . وإن
 أقرب القول فيه لأن تقولوا هو ساحر جاء بقوله ، هو سحر يُفَرِّقُ
 بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء
 وعشيرته . فتفرقوا عنه وجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا
 الموسم ، لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا لهم أمره (٢)

كيد قريش للدعوة

الفضل ما شهدت
 به الأعداء

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٤٧

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٤٧ - ٢٤٨

وقد روى البيضاوى أن المغيرة هذا قد مر بالرسول وهو يقرأ
السَّجْدَةَ (١) ، فَأَتَى قَوْمَهُ وَقَالَ : لَقَدْ سَمِعْتُ مِنْ مُحَمَّدٍ أَنَّهُ كَلَّمَ مَا هُوَ
مِنْ كَلَامِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ . إِنَّ لَهُ لِحَلَاوَةً ، وَإِنْ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةٌ ، وَإِنْ
أَعْلَاهُ لَشُمُورٌ ، وَإِنْ أَسْفَلُهُ لَمُغْدِقٌ ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَلَا يُعْلَى . فَقَالَتْ
قَرِيشٌ : صَبَأُ الْوَلِيدِ . فَقَالَ ابْنُ أَخِيهِ أَبُو جَهْلٍ : أَنَا أَكْفِيكُمْوه . فَقَعَدَ
إِلَيْهِ حَزِينًا وَكَلَّمَهُ بِمَا أَحْمَاهُ ، فَقَامَ فَنَادَاهُمْ فَقَالَ : تَزْعُمُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا
مَجْنُونٌ ، فَهَلْ رَأَيْتُمُوهُ يُخْنَقُ ؟ وَتَقُولُونَ إِنَّهُ كَاهِنٌ ، فَهَلْ رَأَيْتُمُوهُ يَتَكَهَّنُ ؟
وَتَزْعُمُونَ أَنَّهُ شَاعِرٌ ، فَهَلْ رَأَيْتُمُوهُ يَتَعَاطَى شِعْرًا ؟ فَقَالُوا : لَا ! فَقَالَ :
مَا هُوَ إِلَّا سَاحِرٌ . أَمَا رَأَيْتُمُوهُ يُفَرِّقُ بَيْنَ الرَّجُلِ وَأَهْلِهِ وَوَلَدِهِ وَمَوَالِيهِ ؟
فَفَرَحُوا بِقَوْلِهِ وَتَفَرَّقُوا عَنْهُ مَتَعَجِبِينَ مِنْهُ . وَقَدْ نَعَى الْقُرْآنُ ذَلِكَ عَلَى
الْوَلِيدِ بِقَوْلِهِ (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا
وَبَنِينَ شُهُودًا وَمَهَدْتُ لَهُ تَمَهِيدًا ، ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلَّا إِنَّهُ
كَانَ لَا يَأْتِنَا غَنِيدًا) (٢)

يقول ابن هشام (٣) : « فَجَعَلَ أَوْلَئِكَ النَّفَرِ يَقُولُونَ ذَلِكَ فِي
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَنْ لَقُوا مِنَ النَّاسِ . وَصَدَرَتِ الْعَرَبُ
مِنْ ذَلِكَ الْمَوْسِمِ بِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَانْتَشَرَ ذِكْرُهُ
فِي بِلَادِ الْعَرَبِ كُلِّهَا . فَلَمَّا خَشِيَ أَبُو طَالِبٍ دَهْمَاءَ الْعَرَبِ أَنْ يَرْكَبُوهُ مَعَ
قَوْمِهِ ، قَالَ قَصِيدَتَهُ الَّتِي تَعَوَّذَ فِيهَا بِحَرَمِ مَكَّةَ وَبِمَكَانِهِ مِنْهَا ، وَتَوَدَّدَ فِيهَا
أَشْرَافَ قَوْمِهِ وَهُوَ عَلَى ذَلِكَ يُخْبِرُهُمْ وَغَيْرُهُمْ فِي ذَلِكَ مِنْ شِعْرِهِ ، إِنَّهُ
غَيْرُ مُسْلِمٍ . رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا تَارَكَ لَشَيْءٍ أَبَدًا حَتَّى

(١) سورة السجدة أو فصلت رقم ٤١

(٢) تفسير البيضاوى . سورة المدثر ٧٤ : ١١ — ١٦

(٣) ج ١ ص ٢٤٩

يهلك دونه ، فلجأوا إلى تعذيب المسلمين عن طريق السفهاء . وهاك
بعض أبيات من هذه القصيدة :

ولما رأيتُ القومَ لا وُدَّ فيهمُ * وقد قطعوا كلَّ العرى والوسائل
وقد صارَ حوْنَا بالعداوة والأذى * وقد طاعوا أمر العدو المزايل
وقد حالفوا قومًا علينا أظنَّةَ * يعصون غيظًا خلَقْنَا بالأنامل
صَبَرْتُ لهم نفسى بسمراءَ سَمَحَةً

وَأَيْضَ عَصَبٍ مِنْ تَرَاثِ الْمَقَاوِلِ
وَأَحْضَرْتُ عِنْدَ الْبَيْتِ رَهْطِي وَإِخْوَتِي
وَأُمْسَكْتُ مِنْ أَثَوَابِهِ بِالْوَصَائِلِ (١)

هجرة المسلمين إلى الحبشة :

ولما رأى الرسول ما أصاب أصحابه من البلاء قال لهم : « لو
خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملك لا يظلم عنده أحد ؛ وهي
أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه » .

ولم يفكر الرسول في هجرة المسلمين إلى إحدى القبائل العربية ،
لأنها كانت ترفض دعوته في مواسم الحج مجاملة لقريش أو تمسكا
بدينها الوثني . كذلك لم يفكر في الهجرة إلى مواطن أهل الكتاب من
اليهود والمسيحيين في يثرب ونجران وغيرهما ؛ لأن كلا من الجاليتين
اليهودية والمسيحية كانت تنازع الأخرى وتنافسها في النفوذ الأدبي
ببلاد العرب ، فهما والحالة هذه لا تقبلان منافساً ثالثاً خصوصاً إذا
كان من العرب أنفسهم الذين يحتقرونهم ويقولون عنهم « لا علينا في
الأميين من سبيل » (٢) . أما اليمين — وهي مستعمرة للفرس الذين

لماذا لم يفكر الرسول
في غير الحبشة ؟

ملك الحبشة لا يظلم
عنده أحد

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٤٩

(٢) وقد بدأ هذا الشعور منهم واضحاً عند ما هاجر الرسول إلى المدينة إذ اتهموا به مرات
وجادلوه غير مخلصين حتى وصل بهم الأمر إلى أن قالوا لقريش « لدينكم أفضل من دينه »

لم يدينوا بدين سماوى — فلم يطمئن الرسول إلى الالتجاء إليها . وقد برهنت الأيام على بعد نظره . فقد كتب كسرى ^(١) إلى « باذان » عامله على بلاد اليم : « ابعث إلى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين جلدَيْن من عندك فليأتيا به »

وكذلك كان شأن الحيرة التى كانت إلى ذلك الحين بعيدة غاية البعد عن مكة ^(٢) . أما الشام فهى بعيدة كذلك فضلا عما كان يسودها هى والحيرة إذ ذاك من اضطراب . ثم إن كلا من الشام واليم والحيرة كانت أسواقا هامة لتجارة قریش . ولقریش بكل منها صلات وثيقة ومصالح متبادلة وزيارات فى أوقات منتظمة . فإذا علمت قریش بوجودهم فى بلد منها ، فإنها تطلب إلى أهل ذلك البلد أن يردهم إليها ويخرجوهم ، كما حاولت ذلك مع النجاشى لولا تسامحه وقوة خلقه .

لذلك اتجه الرسول إلى بلاد الحبشة لما كان يعهده عن ملكها من العدل والتسامح . وفى ذلك يقول الرسول للمسلمين « فإن بها ملكا لا يُظلم عنده أحد وهى أرض صدق . . . الخ » . وقد هاجر عشرة المهاجرون إلى الحبشة رجال وأربع نسوة ، ثم زاد عددهم حتى بلغ ثلاثة وثمانين رجلا وسبع عشرة امرأة سوى الصبيان ؛ وكلهم من بطون قریش . وكان فيهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت الرسول ، والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وجعفر بن أبى طالب وامراته أسماء بنت عميس ، وعمر بن سعيد بن العاص بن أمية وأخوه خالد بن سعيد ابن العاص . وقد اكرمهم النجاشى وأمنهم على حياتهم ، وأصبحوا فى رغد من العيش .

(١) كان ذلك عند ما وصل إليه كتاب الرسول يدعو إلى الاسلام وترك المجوسية ، فغضب ومزق الكتاب وأهان حامله ، ثم كتب إلى باذان ليحمل إليه هذا الذى على ما سأتى مفصلا فى دعوى عموم الرسالة . (٢) ولا يخفى استحالة الهجرة إلى مكان قصى كالحيرة والشام على أولئك اللاجئين الذين كانوا يخرجون من مكة فقراء متخفين من قریش لئلا تحول بينهم وبين الخروج .

محاولة قريش إخراجهم « فلما رأى أهل قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد آمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة وأنهم قد أصابوا بها داراً وقراراً ، اتتمروا فيما بينهم على أن يبعثوا منهم رجلين جليدين إلى النجاشي ليخرجهم من بلاده . فبعثوا عبدالله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص ^(١) . ويقال إنه كان معهما معاوية بن أبي سفيان والمغيرة بن شعبة .

رسل قريش إلى النجاشي سار عبدالله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص إلى النجاشي ومعهما الهدايا ، وطلبا مقابلته ثم قالوا له : « أيها الملك ! إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت ؟ وقد بعثنا إليك فيهم أشرف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائريهم لتردهم عليهم ؛ فهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه » . فقالت بطارقة النجاشي : أيها الملك ! قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلهم إليهما فايرداهم إلى بلادهم وقومهم ^(٢) .

وكان النجاشي بعيد النظر ، فطلب هؤلاء المهاجرين وسألهم عن حقيقة دينهم ؛ فتقدم جعفر بن أبي طالب ووصف له حالة العرب قبل الاسلام وبعده ، وشرح له أن دعوة الرسول ترمى إلى ترك الأوثان وعبادة الله والتخلق بكمكارم الأخلاق . فقال له النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله شيء ؟ فقال جعفر . نعم ! قال . فاقرأه على ! فقرأ جعفر عليه صدراً من كيعص (سورة مريم - وفيها حديث ميلاد المسيح) فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته ، وبكى اساقفته حتى ابتلت مصاحفهم حين سمعوا ما تلى عليهم ، ثم قال النجاشي : إن هذا والذي جاء به

(١) ابن هشام ج ١ ص ٣٠٢

(٢) ابن هشام ج ١ ص ٣٠٣ — ٣٠٤

عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما^(١) .

ولما خرجا قال عمرو بن العاص : « والله لا أتينه غداً عنهم بما أستأصل »
به خضراءهم ، ولا أخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد ،
وطالب مقابلة النجاشي في الغد وقال له : « أيها الملك ! إنهم يقولون
في عيسى بن مريم قولاً عظيماً ، فأرسل إليهم وسأهم عما يقولون فيه » .
فطلب النجاشي المهاجرين مرة أخرى . فلما دخلوا عليه قال لهم : ماذا
تقولون في عيسى بن مريم ؟ فقال جعفر بن أبي طالب : نقول فيه
الذي جاءنا به نبينا صلى الله عليه وسلم . هو عبد الله ورسوله وروحه
وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول . فقال النجاشي : والله ما عدا
عيسى بن مريم ، ثم قال : اذهبوا فأتهم شيوم^(٢) بأرضي ، من سببكم
غرم^(٣) ، فانصرفوا . وقد رجع بعضهم إلى مكة قبل هجرة الرسول
إلى المدينة وأقام بعضهم في الحبشة إلى السنة السابعة للهجرة .

اسلام عمر بن الخطاب :

وفي السنة الخامسة للدعوة أسلم حمزة بن عبد المطلب وعمر بن
الخطاب ؛ وكان لا إسلامه أثر يذكر في ازدياد شوكة الاسلام ؛ إذ
أبى إخفاء شعائره الدينية لاعتقاده أنه لم يكن بين القرشيين من يجرؤ
على معارضته .

وكان عمر يعارض الدعوة الاسلامية معارضة شديدة في مبدأ الأمر ؛
ولكنه ما لبث أن صار من أتباع الرسول المتفانين في نشر الاسلام .
وإليك ما رواه ابن هشام^(٤) عن إسلامه : خرج عمر يوماً متوشحاً

معارضة عمر للدعوة
أول الأمر

عوامل اسلام عمر

(١) ابن هشام ج ١ ص ٣٠٤ — ٣٠٥ (٢) آمنون

(٣) ابن هشام ج ١ ص ٣٠٥ — ٣٠٦

(٤) ج ١ ص ٣١١ — ٣١٤

بسيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقبه نعيم بن عبد الله فقال له : أين تريد يا عمر ؟ فقال : أريد محمدا هذا الصابي الذي فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله . فقال له نعيم والله لقد غرّتك نفسك يا عمر . أترى بني عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا ؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ قال : وأى أهل بيتي ؟ قال : خنتك (١) وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو ، وأختك فاطمة بنت الخطاب . فقد والله أسلمها وتابعا محمدا على دينه ، فعليك بهما . فرجع عمر عامدا إلى أخته وخنته وعندهما خباب بن الارت معه صحيفة فيها « طه » يُقرؤها إياها . فلما سمعوا صوت عمر اختفى خباب في البيت وأخفت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة . . . وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب . فلما دخل قال « ماهذه الهينة التي سمعت » ؟ قال له : ما سمعت شيئا . قال : بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدا على دينه . وبطش بخنته سعيد بن زيد ؛ فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها ، فضر بها . فلما فعل ذلك قالت له أخته وخنته : نعم ! قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك . فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ، ندم على ما صنع ، فارعوى وقال لأخته : أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرءون أنفا أنظر ماهذا الذي جاء به محمد . فقالت له أخته : إنا نخشاك عليها ، قال : لا تخافي وحلف لها بالهتة ليردنها إليها إذا قرأها ، فقالت له أخته : يا أخي ! إنك نجس على شركك وإنه لا يمسها إلا الطاهر . فقام عمر فاغتسل ، فأعطته الصحيفة وفيها « طه » . . . فلما قرأها صدرا قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ! فلما سمع ذلك خباب ، خرج إليه فقال له : يا عمر ! والله إنني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة

عمر يسمع القرآن

(١) الخن كل من كان من قبل المرأة مثل الاب والائخ وجمعها أختان

نبيه . فإني سمعته أمس وهو يقول : اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم
ابن هشام أو بعمر بن الخطاب ، فالله الله يا عمر . فقال له عند ذلك
عمر : فدلستني يا خبابُ على محمد حتى آتته فأسلم . فقال له خباب : هو
في بيت عند الصفا ، معه فيه نفر من أصحابه . فأخذ عمر سيفه
فتوشح ، ثم عمد إلى رسول الله وأصحابه فضرب عليهم الباب . فلما
سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله : فنظر من خلل الباب
فرآه متوشحاً بالسيف ؛ فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو
فرع فقال : يا رسول الله ! هذا عمر بن الخطاب متوشحاً بالسيف .
فقال حمزة بن عبدالمطلب : فأذن له ؛ فان كان جاء يريد خيراً بذلناه
له ، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه . فقال رسول الله : ائذن له ؛ فأذن
له الرجل ونهض إليه رسول الله حتى لقيه بالحجرة ؛ فأخذ بمجمع
ردائه ثم جذبه جذبة شديدة وقال : ما جاء بك يا ابن الخطاب ؟ فوالله
ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة . فقال عمر : يا رسول الله !
جئتكم لأؤمن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله . فكبر الرسول
تكبيرة عرّف أهل البيت من أصحاب الرسول أن عمر قد أسلم .
ولما وافق إسلام عمر إسلام حمزة اطمأن المؤمنون وعرفوا أنهما
سيمنعان رسول الله وينصفانه من عدوه .

ولما رأت قریش أن مكائدهم التي دبروها للرسول قد فشلت مقاطعة قریش بنى هاشم
وأجمعوا أمرهم على مقاطعة بنى هاشم وبنى المطلب ، وعاهدوا أنفسهم على
ألا يتعاملوا مع هذين البيتين ؛ فلا يتزوجون منهم ولا يزوجونهم من
أنفسهم ولا يتجرون معهم حتى يسلموا إليهم رسول الله ليقتلوه ،
وكتبوا بذلك صحيفة علقوها في جوف الكعبة ، فأقاموا على ذلك
سنتين أو ثلاثاً حتى جهدوا لا يصل إليهم شيء إلا سرّاً مستخفياً
من أراد صلّتهم من قریش (١) «

وقد رثى بعض القرشيين لحال بنى هاشم وبنى المطلب وتعاقدوا على نقض الصحيفة وإخراجهم من الشعب . وكان من بينهم زهير بن أمية بن عاتكة عمه رسول الله . فقد حرض قومه على الخروج على الصحيفة وقال لهم : يا أهل مكة ! أنا كل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلكن لا يبيعون ولا يشترون ؟ والله لأقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة القاطعة » . فعارضه أبو جهل ، فقام المطعم بن عدي — وكان من سادات قريش من بيت نوفل بن عبد مناف — إلى الصحيفة فشقها ؛ وبذلك نقضوا هذه الصحيفة ؛ فعاد بنو هاشم والمطلب إلى مساكنهم بعد ما ذاقوه من العذاب ^(١) . وقد روى أن المطعم بن عدي حين قام ليشق الصحيفة وجد أن الأرض قد أدت على جميع ما فيها من الكتابة ما عدا اسم الله عز وجل .

وفاته أبي طالب
وخديجة

كان الرسول في ذلك الوقت يجد في نشر الدعوة الإسلامية . وكان أهل بيته ، مسلمهم وكافرهم ، ينصرونه على الرغم مما لاقوه من الشدائد والأهوال . وما وافت السنة العاشرة من نزول الوحي حتى أصيب الرسول بوفاته عمه وحاميه أبي طالب . وقد مات أبو طالب على الكفر رغم تصديقه لرسول الله ونصرته مخافة العار وخشية المسبة لترك ما كان عليه آباؤه . وقد أثر عن العباس أنه سمع أبا طالب يحرك شفثيه بالشهادتين وهو على فراش الموت ، كما أثر عن أبي طالب قوله :
وَدَعَوْتَنِي وَعَلِمْتُ أَنَّكَ صَادِقٌ وَلَقَدْ صَدَقْتَ وَكُنْتُ شَمَّ آمِنَا
وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنْ دِينَ مُحَمَّدٍ مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينَا
وَاللَّهِ إِنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ حَتَّى أَوْسَدَ فِي التَّرَابِ دَفِينَا ^(١)
ثم ماتت خديجة بعد أبي طالب . وكان موتهما قبل الهجرة بنحو

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٣٦ - ٣٣٧

(٢) ابن القلاء ج ١ ص ١٢٠

ثلاث سنين . وقد فقد الرسول بذلك نصيرين كبيرين ، وأصبح بقاؤه بمكة محفوفا بالمخاطر . يقول أبو الفداء : « وتتابع على رسول الله صلى الله عليه وسلم بموتهما المصائب ، ونالت منه قریش ، خصوصاً أبو لهب بن عبد المطلب ، والحكم بن العاص ، وعقبة بن أبي معيط ابن أبي عمرو بن أمية ، فانهم كانوا جيران النبي صلى الله عليه وسلم . وكانوا يؤذونه بما يُلقون عليه وقت صلاته وفي طعامه من القاذورات » . (١)

الهجرة : عوامل الهجرة :

ولما اشتد أذى قریش لرسول الله بعد وفاة عمه سافر إلى الطائف يلتمس من ثقيف النصرة ، فدعاها إلى الاسلام ، فلم يلق منهم أفناً مصغية ، بل قابلوا دعوته بالاستهزاء « وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونهم ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى حائط » ، فعاد إلى مكة ولم يتمكن من دخولها إذ علمت قریش أنه توجه إلى الطائف يستنصر بأهلها عليهم . فطلب الرسول حماية المطعم بن عديّ فتسلح مع بنيه ودخلوا معه عليه الصلاة والسلام الحرم حيث طاف وصلى ولم يصبه أحد بسوء . ثم عاود الرسول نشر الاسلام بين أهل مكة . وكان كل اعتماده في نشر الدعوة على زمن الحج . فكان يعرض نفسه على القبائل في مواسم الحج ويدعوهم إلى الله وعمه أبو لهب . ينادى : « إنما يدعوكم إلى أن تسلكوا اللات والعزى من أعناقكم إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه » (٢) . وكان بعض الحجاج يرفض دعوته ، وبعضهم يرد عليه رداً قبيحاً .

اشتداد اذى
قریش للرسول

عرض الرسول
نفسه على القبائل

(١) أبو الفداء ج ١ ص ١٢٠ (٢) شرحه ج ١ ص ١٢٢ — ١٢٣

ولقد وجدت دعوة الرسول مرعى خصيباً عند أهل يثرب الذين
 يُظن أنه قد وصل الى علمهم ما كان بين المسلمين وكفار قريش في مكة
 من نزاع أدى الى هجرة جماعة من المسلمين ونجاتهم بعقيدتهم الى بلاد
 الحبشة ، كما يغلب على الظن أنهم علموا باسلام رجال من بطون قريش
 المختلفة ومن القبائل الأخرى ، كما علم غيرهم من العرب بذلك وهم على
 اتصال بمكة عن طريق من كانوا يفدون من أهلها على مكة للحج ، وعلى
 الأخص عن طريق ذلك الوفد الذى أرسلته الأوس سنة ١٠ هـ لمفاوضة
 قريش فى النزول بجوارهم بمكة أو محالفهم بالخزرج . فان الرسول
 انتهر فرصة وجودهم ودعاهم الى الإسلام ، فأسلم بعضهم وأعرض
 البعض الآخر .

ترحب أهل يثرب
 بدعوة الرسول

علمهم بظهور الاسلام

وكان أهل المدينة شعباً قوياً صلب العود ، ولا غرو فقد برهنوا
 على شدة بطشهم وقوة بأسهم فى تلك الحروب التى لم تهدأ ثائرتها ولم
 تنطفئ نارها بين الأوس والخزرج . كما كان فيها اليهود من بنى قريظة
 وبنى النضير ، كما كان اليهود أيضاً فى فدك وتيما . ووادى القرى
 وخيبر . وقد كانت هناك صلات وثيقة بين هؤلاء اليهود وبين
 من جاورهم من الأوس والخزرج ، حتى إنهم ألفوا أفكار اليهود
 الدينية ومروا على استساعة الكثير منها ، وأشربوا بعض المبادئ
 اليهودية . والحق لقد كان لوجود أديان سماوية بالمدينة لها كتب
 منزلة من عند الله كاليهودية ، فيها ذكر للوحي والنبوة ووحدة
 الإله ثم عظمته وقدرته الشاملة ، والبعث والحساب وما بعدهما من
 جنة ونار وغير ذلك ، كان لهذا كله من الأثر ما أضعف الوثنية فى
 نفوس العرب النازلين بالمدينة .

قوة بأسهم فى الحروب

أثر اليهود الدينى فى
 أهل يثرب

ولقد عرف أهل يثرب عند مارأوا محمداً وتعاليمه مبلغ الشبه بينه
 وبين من توعدهم به اليهود ، فبادروا الى تصديقه حتى لا يسبقهم اليهود

الى اتباعه فيقتلوهم قتل عاد وإرم^(١) . لهذا لانعجب إذا رأينا أهل
يثرب أكثر تحمساً للإسلام .

ولعل حالة المجتمع في يثرب كانت تدعو الى انتهاز مثل هذه الفرصة ،
إذ وجد أهلها في هذا الدين ما يوحد كلمتهم ويجمع شملهم ويقضى على
ما بينهم من تنازع وبغضاء ، كما وجدوا في شخصية الرسول ضالته
المنشودة ، إذ عرفوه رجلاً من أكرم بيوتات قريش وساداتها ، ثم
هو ابن أمنة من بني النجار أحد بطون الخزرج . ومع ذلك فهو نبي
يستطيعون أن يطاولوا اليهود بما ينزل عليه من وحى . فهو الذى تستطيع
الأوس والخزرج أن ينضوا تحت لوائه . ولقد كانوا أحوج الى ذلك
بعد يوم بُعث الذى كان النصر فيه للأوس . ولعل انهزام الخزرج يوم
بُعث قد جعلهم أكثر استعداداً لقبول الدين الإسلامى حتى كانوا
أسبق اليه من بنى عمهم الأوس .

ففى الموسم التالى ليوم بُعث أقبل جماعة من الخزرج للحج فيهم
سنة من ساداتهم ، وكانوا ينشدون حليفاً لتوحيد كلمتهم مع الأوس
أو للتغلب عليهم ، إذ كان كل منهما يريد أن تكون له الرياسة ، فلقىهم
الرسول عند العقبة (٢) ، فسمعوا لدعوته وأجابوا .

(١) ذكر ابن هشام (ج ١ ص ٢٠١) عن رجال من الانصار قالوا : ان مما دعانا الى
الاسلام مع رحمة الله وهداه لما كنا نسمع من رجال يهود . كنا أهل شرك أصحاب أوثان ،
وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا . وكانت لاتزال بيننا وبينهم شروفاذا قلنا منهم بعض مايكرهون
قالوا لنا : انه تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم . فكنا كثيراً ما نسمع
ذلك منهم . فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم أجناه حتى دعانا الى الله وعرفنا ما كانوا يتوعدونا
به ، فبادرناهم اليه فأما به وكفوا به . فقينا وفيهم نزلت الآيات (ولما جاءهم كتاب من عند الله
مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا . فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ...)
الخ — سورة البقرة ٢ : ٨٩

(٢) منزل فى طريق مكة بعد واقعة وقبل القاع لمن يريد مكة . وهو ماء لبني عكرمة من
بكر بن وائل . انظر هذا اللفظ فى معجم البلدان لياقوت .

بمعنا العقبة :

دعوة الرسول الخزرج
الى الاسلام

يقول ابن هشام (١) : فبينما الرسول عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً . ولما لقيهم رسول الله قال لهم : من أنتم ؟ قالوا نفر من الخزرج . قال من موالى يهود ؟ قالوا نعم ! قال أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا بلى ! فجلسوا معه فدعاهم الى الله عز وجل وعرض عليهم الاسلام وتلا عليهم شيئاً من القرآن . فلما كلم رسول الله أولئك النفر ودعاهم الى الله — وكانوا متأثرين إذ ذاك بما سمعوا من اليهود — قال بعضهم لبعض : يا قوم ! تعلموا والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا يسبقنكم اليه . فأجابوه فيما دعاهم اليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الاسلام وقالوا له : إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم . وعسى أن يجمعهم الله بك . و سنقدم عليهم فندعوهم الى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبتك إليه من هذا الدين . فإن يجمعهم الله عليه ، فلا رجل أعز منك . ثم انصرفوا عن رسول الله راجعين الى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا ، وكانوا ستة من الخزرج . فلما قدموا المدينة الى قومهم ذكروا لهم رسول الله ودعاهم الى الاسلام حتى فشا فيهم . فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله .

العقبة الأولى

ولما حل الموسم التالى (٢) وفى مكة إثنا عشر رجلاً من أهل يثرب لقوا الرسول بالعقبة وبايعوه فى تلك الليلة . وقد سميت تلك البيعة « بيعة النساء » و « بيعة العقبة الأولى » . قال عبادة بن الصامت كنتُ فيمن حضر العقبة الأولى ، وكنا اثني عشر رجلاً . فبايعنا رسول الله صلى

(١) ج ٢ ص ٣٠ - ٣٢ ، الطبرى ج ٢ ص ٢٣٤

(٢) السنة الثانية عشرة من النبوة .

الله عليه وسلم على بيعة النساء ، وذلك قبل أن يفترض علينا الحرب ؛ على ألا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ، ولا ننزى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفترية من بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نَعْصيه في مكرهه . فان وفيتم فلکم الجنة ، وإن غشيتم من ذلك فأمرکم الى الله عز وجل ، إن شاء غفر ، وإن شاء عذَّب . » (١)

ولعل هذه الغزوة قد سميت بيعة النساء لوجود « عَفْرَاء بنت عُبيد بن ثعلبة بها » . وهى أول امرأة بايعت الرسول .

وقد أرسل الرسول مع أهل يثرب مُصْعَب بن نُمَيْر يقرئهم القرآن ويعلمهم الاسلام ، ويؤمهم في المسجد . وكان يسمى المقرئ (٢) . وسرعان ما أصبحت الرئاسة له على الأوس والخزرج جميعاً ، وأسلم كثير من أهل يثرب حتى لم يبق دار من دورها إلا وفيها مسلمون ومسلمات .

العقبة الثانية أو
البيعة الكبرى

وفي السنة الثالثة عشرة من النبوة اجتمع برسول الله بالعقبة بعد الحج ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان من الأوس والخزرج . وكان معه عمه العباس ، وكان لا يزال على الشرك . « فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب . فقال : يا معشر الخزرج ! إن محمدا منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا بمن هو على مثل رأينا فيه . فهو في عز من قومه ومنعة في بلده وأنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللاحق بكم . فان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه وما نعوه ممن خالفه فأتهم وما تحملتكم من ذلك . وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فمن الآن فدعوه فانه في عز ومنعة من قومه

(١) ابن هشام ج ٢ ص ٣٣ .

(٢) ابن هشام ج ٢ ص ٣٤ ؛ ابن سعد ج ٣ ص ٨٢ .

وبلده . ، (١) فقلنا له : قد سمعنا ما قلت ؛ فتكلم يا رسول الله نخذ
لنفسك ولربك ما أحببت ؛ فتكلم رسول الله قتل القرآن ودعا إلى
الله ورغب في الاسلام ، ثم قال : أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون
منه نسألكم وأبناءكم . فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم ! والذي
بعثك بالحق لنمنعنك مما تمنع منه أزربنا ؛ فبايعنا يا رسول الله فنحن
والله أهل الحروب وأهل الحلقة ورثناها عن كابر . فاعترض القول
- والبراء يكلم رسول الله - أبو الهيثم بن التيهان ؟ فقال : يا رسول
الله ! إن بيننا وبين الرجال حبالا وإنا قاطعوها ؛ فهل عسييت إن
نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ فتبسم
رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : بل الدم الدم والهدم
الهدم (٢) ، أنا منكم وأتم مني ، أحارب من حاربتم وأسالم من
سالمتم . »

نص البيعة

وقد طلب منهم الرسول أن ينتخبوا من بينهم اثني عشر نقيبا
ليكونوا رؤساء عليهم ؛ فانتخبوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس .
وقال العباس بن عباد بن نضلة الأنصاري موجه كلامه إلى الخزرج :
هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم ! قال : فان كنتم
ترون أنكم إذا أنهكت أموالكم مصيبة وأشراقكم قتلا أسلمتموه ،
فمن الآن فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة ، وان كنتم
ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على تهلكة الأموال وقتل
الأشراف نخذه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة . قالوا : فانا نأخذه
على مصيبة الأموال وقتل الأشراف فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن
وقيننا . قال : الجنة . قالوا : أبسط يدك ! فبسط يده فبايعوه . فأما

النقباء

(١) ابن هشام ج ٢ ص ٤١ - ٤٢ : الطبري ج ٢ ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .

(٢) معنى ذلك أن تكون ذمة الرسول ذمتهم وحرمة حرمتهم .

عاصم بن عمر بن قتادة فقال : والله ما قال ذلك العباس إلا ليشد العقْل
لرسول الله في أعناقهم ، وأما عبد الله بن أبي بكر فقال : ما قال ذلك
العباس إلا ليؤخر القوم تلك الليلة رجاء أن يحضرها عبد الله بن أبي
ابن سلول فيكون أقوى لأمر القوم (١) .

تأمر قريش على
اغتيال الرسول

ولما وصل نبأ تحالف الرسول مع أهل يثرب تأمروا على اغتياله ،
 واجتمعوا في دار الندوة للتشاور في هذه الحالة الخطيرة ؛ فأشار
بعضهم بحبسه ، وبعضهم بنفيه ، وبعضهم بقتله . وانتهى بهم الرأي
إلى أن يؤخذ من كل قبيلة قتي جلد ، وأن يُعطى كل منهم سيفاً صارماً
فيضربوه ضربة رجل واحد ، وبذلك يتفرق دمه في القبائل ، فلا
يستطيع بنو عبد مناف أن يُحاربوا العرب جميعاً (٢) ، فنزل على الرسول
قوله تعالى : (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ
يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) (٣)

الهجرة

ذهب الرسول إلى صاحبه أبي بكر وأطلعته على ما أخبره الله به من
تأمر قريش به ، وقال له إن الله قد أمرني بالهجرة ، فطلب منه أبو بكر
أن يصحبه . وخرج الاثنان من باب صغير خلف دار أبي بكر . وقد
أمر الرسول على بن أبي طالب أن يبيت في مكانه تلك الليلة ثم جاء
القوم ووقفوا على باب بيت الرسول .

رواية ابن هشام

يقول ابن هشام (٤) : فلما أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم
الخروج ، أتى أبا بكر بن قحافة ، فخرجا من خوْحة لأبي بكر في ظهر
بيته ، ثم عمدا إلى غار ثور جبل بأسفل مكة فدخلاه . وأمر أبو بكر
ابنه عبد الله بن أبي بكر أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره ، ثم

(١) ابن هشام ج ٢ ٤٥ - ٤٦ .

(٢) ابن هشام ج ٢ ٧٣ - ٧٩ (أنظر أيضا كتاب : السيادة العربية والبيعة

والاسرائيليات ، ترجمة المؤلف ص ١٦ - ١٧ .

(٣) سورة الانفال ٨ : ٣٠ (٤) ج ٢ ص ٧٩ — ٨٠ ، ٨٢

يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر ؛ وأمر عامر بن فهيرة موله أن يرعى غنمه نهاره ثم يريحها عليهما ، يأتيهما إذا أمسى في الغار ، وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمسى بما يصلحهما .

وخشى الرسول وأبو بكر أن يلحقهما أذى قريش إلا أنهما تذرعا بالصبر . وإلى ذلك يشير القرآن الكريم في سورة التوبة ^(١) (إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ، إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ، إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا، فَاَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ اللَّهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

ولما خرج الرسول من مكة مهاجراً إلى المدينة جعلت قريش مائة ناقة مكافأة لمن يدهم عليه أو يأتي به ^(٢)

وقد وصف جغرافيو العرب الأرض التي بين مكة والمدينة بأنها وعرة موحشة ، لا يصادف فيها المسافر ما يخفف عنه عناء السفر من زرع وماء . ويتخللها طريقان : أحدهما شرقي محاذ لبلاد نجد ، والآخر غربي محاذ لساحل البحر الأحمر . وقد اختار الدليل الطريق الثاني . بيد أنه لم يسلك جادة هذا الطريق المألوفة تماماً ، بل كان يلتوى هنا وهناك تفادياً من أن يلحقهم من يقفوا أثرهم من القرشيين ممن كان يطمع في الحصول على المكافأة التي قررتا قريش لمن يأتي بالرسول .

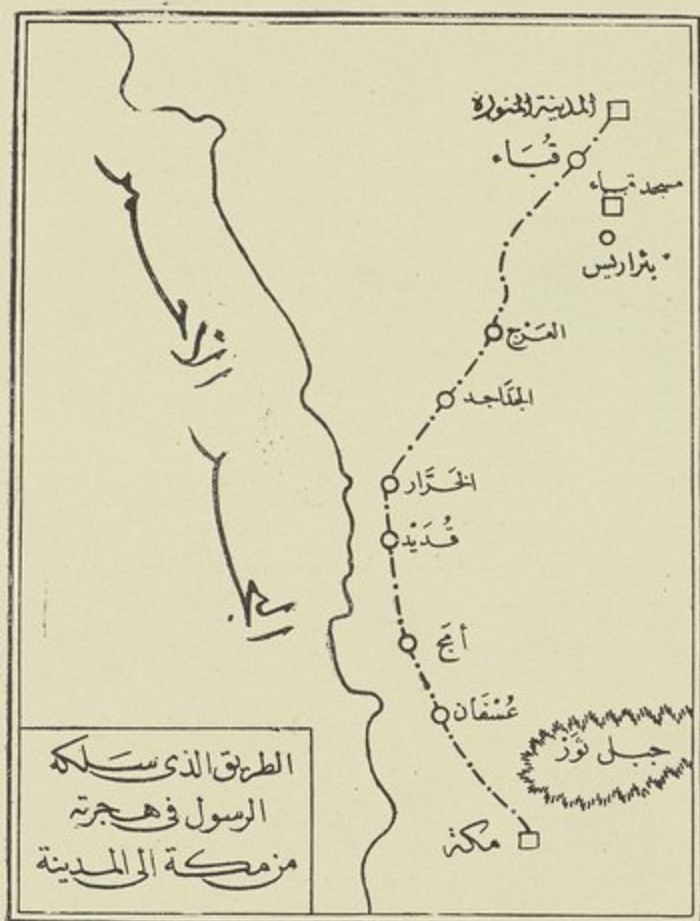
وقد وصف لنا ابن هشام ^(٣) الطريق الذي سلكه الرسول وصحبه

الطريق الذي سلكه
الرسول من مكة
إلى المدينة

(١) آية ٣٦

(٢) ابن هشام ج ٢ ص ٨٢

(٣) ج ٢ ص ٨٥ - ٨٦ .



من جبل ثور^(١) الى المدينة ، فقال إن عبد الله بن أريقط سلك
بهما أسفل مكة ، ثم مضى بهما الى الساحل حتى عارض الطريق أسفل
عسفان ، (٢) وتبعد عن مكة بستة وثلاثين ميلا ، ثم سلك بهما
الدليل على أسفل آج ، ثم استجاز بهما حتى عارض الطريق بعد أن
أجاز قديد^(٣) ، ثم سلك الخزار^(٤) وهو واد يقع في نحو منتصف
الطريق بين مكة والمدينة ، ثم أخذ بهما الجدادجد^(٥) وتقع في
أرض مستوية صلبة ، ثم هبط بهما العرج^(٥) . ثم هبط وادي العقيق
الذي يؤدي الى المدينة ، ثم قدم بهما قباء على عمرو بن عوف يوم
الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ؛ فأقام بها أربعة
أيام ومعه أبو بكر ، وأسس مسجده في هذه الأيام الأربعة . وبينما هم
بقباء لحق بهم علي بن أبي طالب بعد مارد الودائع التي كانت عند
الرسول لأصحابها من أهل مكة . وقد غادر الرسول قباء متحملا كل
ألم في سبيل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه .

الرسول بقباء

-
- (١) اسم جبل بمكة فيه الغار الذي اختفى فيه الرسول وأبو بكر . وسمى ثورا لأن ثور بن
عبد مناة ولد عنده فنسب ثور بن عبد مناة اليه . أنظر هذا اللفظ في معجم البلدان لياقوت .
- (٢) يضم أوله وسكون ثانيه ثم فاء وآخره نون . وهي قرية صغيرة قريبة من ساحل البحر
الاحمر تقع على حد تهامة على طريق المدينة . ويكثر بها التخيل والمزارع . وسميت عسفان
لتعسف الطريق . ويسمى الطريق بين عسفان وملل الساحل .
- (٣) يضم أوله وتشديد ثانيه وهو موضع بالحجاز قرب الجحفة .
- (٤) جمع جدجد وهي الأرض المستوية الصلبة ، ويجوز أن يكون جمع جدجد وهي البئر
القديمة . وبظن ياقوت أنها آبار قديمة . أنظر هذا اللفظ في معجم البلدان لياقوت .
- (٥) بفتح أوله وسكون ثانيه وجيم . والعرج الكثير من الابل . فاذا جاوزت الابل المائتين
وقاربت الألف فهي عرج وعروج وأعراج . وقيل سميت العرج لانه يعرج به عن الطريق .
وهي قرية كبيرة في واد قريب من الطائف ينرج الطريق عندها بالمسافر .

وصل الرسول الى المدينة في ١٦ ربيع الأول (٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ م) . وكان ذلك يوم الجمعة ، فصلى بالناس الجمعة لأول مرة في الاسلام كما خطب لأول مرة في المدينة . (١)

نشوء حكومة نظامية في المدينة :

الرسول في المدينة
وصل الرسول وصاحبه إلى يثرب في ١٦ ربيع الأول (٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ م) كما تقدم . ومن ثم أصبحت هذه المدينة معقل الاسلام وملجأ جماعة المسلمين وغدت تعرف باسم مدينة النبي ؛ وتسمى اليوم المدينة والمدينة المنورة لوجود قبر الرسول بها (٢)

وقد اتخذ المسلمون السنة التي هاجر فيها الرسول من مكة الى المدينة مبدأ للتاريخ عندهم ، نسبة الى هذا الحادث العظيم .

وقد أصبح بالمدينة في ذلك الوقت أربعة أصناف من السكان :
الأول : المهاجرون وهم الذين هاجروا فرارا بدينهم من مكة الى المدينة .

الثاني : الأنصار وهم الذين دخلوا الاسلام من سكان المدينة الأصليين ، وسموا بذلك لأنهم نصروا النبي على قريش .

الثالث : فريق كبير من أهل المدينة لم يرغب في تغيير دينه الوثني فوقف من المسلمين مواقف متناقضة ، ويسمى المتأقنين .

الرابع : اليهود وهم بقية بني اسرائيل مع من تهود من العرب ، وانتهى بهم الأمر إلى الخروج تدريجيا من جزيرة العرب

وقد استطاع الرسول أن ينشر دينه بين أهل المدينة ، وأن يجد

(١) راجع الطبري ج ٢ ص ٢٥٥

(٢) وقد ذكر ياقوت تسعة وعشرين اسما . فنما المدينة ، وطيبة (لطيب هوائها) والحبية ، والحجوبة ، ويثرب ، والناجية ، والمباكة ، والعاصمة ، والشافية

معاهدة الرسول مع
أهل المدينة

من بينهم أتباعا كثيرين في فترة قصيرة ، كما استطاع أيضا أن يصلح ذات بينهم ويوطد السلم بين عشائهم وأن يعقد حلفا بين المهاجرين وبين أهل المدينة من المسلمين واليهود وغيرهم من المشركين . وقد أورد لنا ابن هشام (١) صورة هذه المعاهد التاريخية نقتطف منها ما يلي :

« بسم الله الرحمن الرحيم ! هذا كتاب من محمد النبي (صلى الله عليه وسلم) بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، إنهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على ربعتهم (٢) يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم (٣) بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنوعوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ولا يحالف مؤمنٌ مولى مؤمنٍ دونه ، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى (٤) دسيعة ظلم أو أثم أو وعدوان أو فساد بين المؤمنين ، وإن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولدٌ أحدهم ؛ ولا يقتل مؤمنٌ مؤمنا في كافر ولا يُنصر كافر على مؤمن . وإن ذمة الله واحدة يُجبر عليهم أديانهم ، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس ، وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم ، وإن سلم المؤمنين واحدة لا يسلّم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم ، وإن كل غازية غزت معنا تُعقب بعضها بعضا ، وإن المؤمنين يُبئى (٥) بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله ، وإن المؤمنين المتقين على

(١) ج ٢ ص ٩٤ — ٩٨

(٢) جمعها ربعات وهي المنازل أى على منازل أيهم . والمقصود كلهم ، كما يقال على بكرة أبيهم .

(٣) العاني هو الأجير

(٤) دسيعة — طيعة

(٥) يرجع

أحسن هدى وأقومه ، وإنه لا يُجِيرُ مشرك (١) مالا لقريش ولا نفسا ولا يحول دونه على مؤمن ، وإنه من اعتبط مؤمنا قتلا عن بيته فانه قود به إلى أن يرضى وليُّ المقتول . وإن المؤمنين عليه كافة . ولا يحل لهم إلا قيام عليه ، وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصرُ محدثا ولا يؤويه ، وإنه من نصره أو أواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ؛ لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم وأنه لا يخرج منهم أحد إلا باذن محمد (صلى الله عليه وسلم) . وأنه لا ينحجز على ثأر جرح . وأنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره ، وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها ، وأن بينهم النصر على من دهم يشرب . وإذا دعوا إلى صلح يصلحون ويلبسونه فإنهم يصلحونه ويلبسونه . وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فانه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم »
وإن الناظر إلى هذا الحلف ليرى أن الرسول :

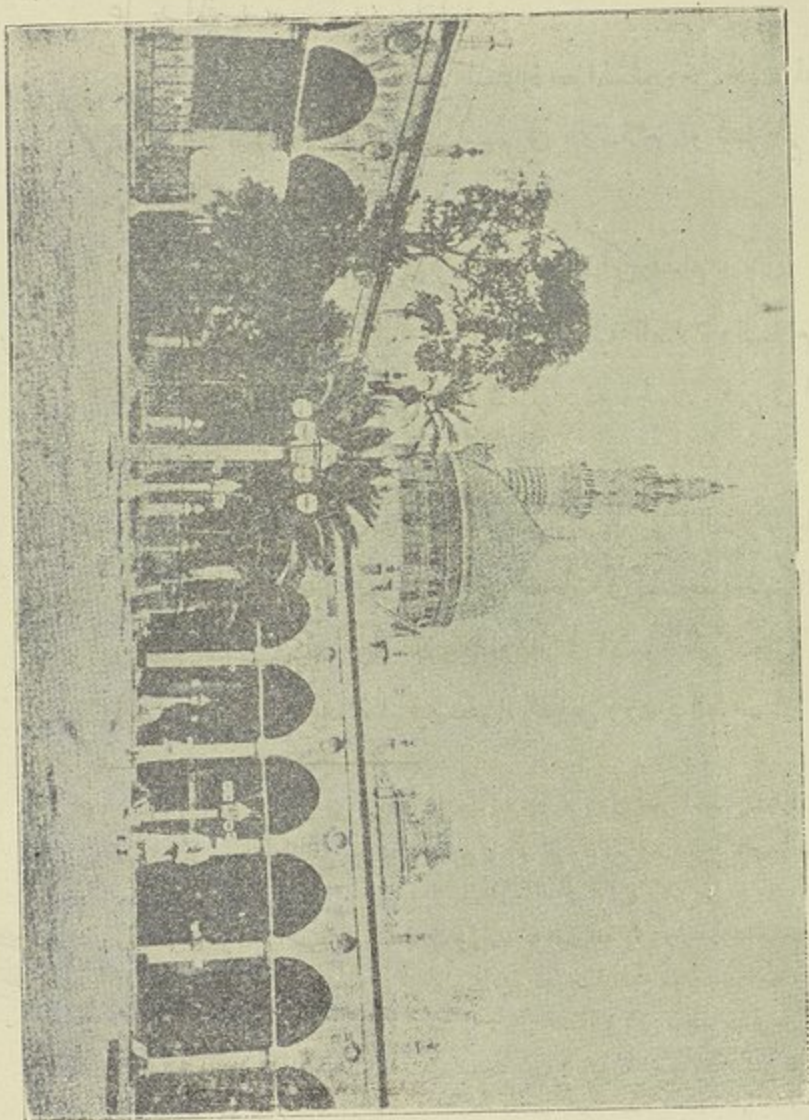
رأى في هذه المعاهدة

١ — قد استطاع أن يوحد بين جميع المسلمين على اختلاف شعوبهم وقبائلهم وأن يجعل منهم أمة واحدة وقد ألفت الدين بين قلوب أفرادها المتباينة .

٢ — أوجد التعاون والتضامن بين أفراد تلك الجماعة على أساس أن الزمالة في الدين مقدمة على غيرها من الصلات حتى صلة القرابة

(١) لعله يقصد من دخلوا في الحلف من مشركي المدينة .

في سنة ١٢٨٤ هـ الموافق ١٨٦٧ م. وقد كان من بين
الذين شاركوا في هذه الحملة العامة على
الذين شاركوا في هذه الحملة العامة على



المسجد النبوي

الذين شاركوا في هذه الحملة العامة على
الذين شاركوا في هذه الحملة العامة على
الذين شاركوا في هذه الحملة العامة على

٣ — ذكر أن للجماعة من حيث كونها جماعة ذات شخصية
أدنية وسياسية حقوقا على الأفراد أظهرها السهر على الأمن والضرب
على يد المفسد .

٤ — شرط للجماعة اليهود المساواة مع المسلمين من حيث المصلحة
العامه ، كما فتح الطريق للراغبين منهم في الاسلام ، وكفل لهم التمتع
بما للمسلمين من حقوق .

ولم يرد لهذا الكتاب ذكر إلا في سيرة ابن هشام .

كان أول شيء اتجه اليه نظر الرسول عليه الصلاة والسلام حين
وصل إلى المدينة العمل على إقامة شعائر دينه الجديد . فبنى في المدينة
مسجده الذي دفن فيه (١)

إقامة شعائر الاسلام

ولم تكن أهمية المسجد إذذاك مقصورة على إقامة الصلاة ، بل كان
الرسول صلى الله عليه وسلم يجلس إلى صحابته في المسجد يعلمهم الدين ،
ويقضى بينهم بما أنزل الله ويشاورهم في الأمور التي تتعلق بجماعة
المسلمين ، كما كان يستقبل فيه سفراء القبائل ووفود العرب .

(١) كانت الأرض التي بنى عليها المسجد لغلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة . وكانت
مرتبدة للتمر . وقد أراد أن يهبها لله وللرسول ، فأبى الرسول إلا أن يشتريها بالتمن وأمر بتسوية
حفره وقطع مابه من النخل . وشرع الرسول في بنائه من اللبن ، وكان يبنى فيه بنفسه ، وكان
سقفه من الجريد وأعمدته من خشب النخل وارتفاعه قدر قامة . وجعلت قبلته لبيت المقدس
إلى أن حوت إلى الكعبة . وبنى الرسول بجانبه حجريين لزوجه سودة بنت زمعة وعائشة .
وكان كلما تزوج امرأة بنى لها حجرة خاصة بها . وبنى الصفة (وهي موضع مظلل من المسجد)
ليأوى إليها فقراء المسلمين وجعل الرسول للمسجد بابين : باب عائشة والباب الذي يقال له باب
عائشة وبابا في مؤخر المسجد يقال له باب مليكة ، وبنى بجواره بيوتا باللبن وسقفها بجذوع النخل .
ثم زاد الرسول في المسجد بعد فتح خيبر لازدياد عدد المسلمين . ولما ولي عمر الخلافة أراد أن
يشتري دار العباس بن عم المطلب عم الرسول ليدخلها في المسجد فوهبها العباس لله وللمسلمين ،
فأدخلها عمر فيه وجعل طوله مائة وأربعين ذراعا وارتفاعه أحد عشر ذراعا ، وجعل له ستة
أبواب وحصنه (١٧ هـ) . ثم بناه عثمان بن عفان بالحجارة المنقوشة والقصة (الجصه ويكسر)
وجعل عمده من الحجارة المنقوشة أيضا ، وسقفه بالساج وزاد فيه زيادة كبيرة وثق إليه الحصار .

الأذان

كان يجتمع المسلمون في المسجد للصلاة لا ينادى بها أحد فيهم . فتكلموا يوماً في ذلك ، فقال بعضهم : اتخذوا ناقوساً مثل ناقوس النصارى . وقال بعضهم : اتخذوا قرناً (١) مثل قرن اليهود . فقال عمر : ألا تتبعون رجلاً ينادى بالصلاة ؟ فقال الرسول : يابلل ! قم فناد بالصلاة . فكان بلال إذا جاء وقت الصلاة يقول الصلاة جامعة . وكان من بين المنادين عبدالله بن زيد بن ثعلبة الأنصاري . فبينما هو بين اليقظان والنائم رأى شخصاً يلقيه الأذان ، فحضر إلى الرسول وقص عليه ما رأى ، فقال له : إنها لرؤيا حق ، لقن ذلك بلالاً فإنه أندى صوتاً . ولما أذن بلال حضر عمر يجر رداءه فقال : والله لقد رأيت مثله يارسول الله (٢)

ولم يكد الرسول يفرغ من بناء المسجد حتى أخذ يثبت الدين في نفوس أصدقائه وأتباعه ويحثهم على الخضوع والإذعان لإرادة الله .

من العقيق (٢٩ - ٣٠ هـ) . وقد أمر الوليد بن عبد الملك الأموي عمر عبدالعزيز عامله على المدينة بادخال حجرات زوجات الرسول في المسجد وجعله مائتي ذراع في مثلها ، وكتب إلى امبراطور الروم يطلب منه العمال لعمارة مسجد الرسول ، فبعث إليه أربعين رجلاً من الروم وأربعين من القبط ، كما أرسل إليه أربعين ألف مثقال من الذهب وأحمالاً من الفيسفسا ، فبنوا الأساس والجدار والأساطين بالحجارة ، وجعلوا عمداً المسجد من الحجارة المشوة بعمد الحديد والرياح . وجعل المحراب والمقصورة من الساج . ثم تولاه أمراء المسلمين بالعمارة والتجديد . ففي عهد الخليفة المستعصم العباسي احترق منبر المسجد سنة ٦٥٤ هـ ، فعمل المظفر صاحب اليمن له منبراً نصب في موضع منبر الرسول ، فبقي إلى سنة ٦٦٦ هـ . يقول القلقشندي : فأرسل الظاهر بيبرس (أحد سلاطين المماليك في مصر) المنبر الموجود الآن بالمسجد . وطوله أربعة أذرع ، ومن رأسه إلى عتبة سبعة أذرع ، ودرجاته سبع بالمعقد ، (صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٨٧) . انظر مدينة يثرب في معجم البلدان لياقوت .

(١) بوقا

(٢) اختلف الفقهاء في الطريق الذي ثبت به الأذان . فقال بعضهم إنما ثبت عن طريق الوحي . وقال آخرون إنه ثبت عن طريق الرؤيا التي رآها عبدالله بن زيد . ونحن نميل إلى الأخذ بالرأى الثاني . فقد وقع فيما رواه عبد الرازق وأبو داود في المرسى عن طريق عبيد بن عمر الليثي أحد كبار التابعين أن عمر لما رأى الأذان جاء يخبر الرسول فقال له : قد سبقك بذلك الوحي (جامع الترمذي - طبعة الهند سنة ١٣١٠ هـ ص ٢٦)

(٩)

ومن ثم سمي هذا الدين بالاسلام لما فيه من الانقياد والخضوع المطلق لإرادة الله تعالى . والذين يدينون به يسمون المسلمين ، أى الذين يخضعون لأمر الله ورسوله . وأمر بإقامة الصلاة خمس مرات فى اليوم ، وبصوم شهر رمضان ، وحمل حقوق الملكية ، وجعل للمرأة مركزا محترما لم يكن لها فى الجاهلية . وهكذا مهدت الوحدة الدينية الى وحدة بلاد العرب السياسية .

وقد استطاع الرسول بهذا الجيش الذى جمعه من أنصاره أن يقف من أهل مكة موقف المحارب ، ويدخل مكة دخول الظافر المنتصر ، ويقضى على الوثنية ويظهر الكعبة من الأصنام .

وقد روى البلاذرى أن بلالا مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقف ببابه ويقول : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، حتى على الصلاة ، حتى على الفلاح ، الصلاة يا رسول الله ! فلما ولى أبو بكر كان المؤذن يقف ببابه ويقول : السلام عليك يا خليفة رسول الله ورحمة الله وبركاته ، حتى على الصلاة ، حتى على الفلاح ، الصلاة يا خليفة رسول الله . وفى خلافة عمر بن الخطاب كان المؤذن يردد هذه الكلمات مبتدئا بقوله : السلام عليك يا خليفة رسول الله الخ ومنعا لتكرار لفظ خليفة بالنسبة إلى من يتولى أمور المسلمين من الخلفاء بعد أبى بكر ، أمر عمر ابن الخطاب أن يستبدل هذا اللفظ بعبارة أمير المؤمنين ، وأن تزداد عبارة رحل الله على الأذان (ذكر المقرئى أن عثمان هو الذى أمر بإضافة هذه العبارة — الخطوط ج ٢ ص ٢١٧) . ويقول ابن خلدون (مقدمة ، طبعة بيروت سنة ١٩٠٠ ص ٢١٧ — ٢١٩) أن المؤذنين كانوا يختمون الأذان بعبارة : "السلام عليك" ، يعنون بذلك الخليفة أو أحد عماله . وظلت الحال على ذلك طول عهد الأمويين وفى الصدر الأول من أيام العباسيين ، حين تولى الخلفاء والولاة الصلاة بأنفسهم . على أن الخلفاء تخلفوا عنها فى أواخر أيام العباسيين ، لوقوعهم تحت سلطان الأتراك ؛ فتخلى الخلفاء عن إقامة الصلاة بأنفسهم فبطل استعمال هذه الكلمات وحذا حذوهم الخلفاء الفاطميون من لم يقيموا الصلاة ، فلم تذكر هذه الكلمات الا فى أذان الفجر .

الاحكام السلطانية للمواردى (ص ٩٦ — ٩٩) وابن خلدون ، مقدمة (ص ١٩٧ — ١٩٩) وقد أورد لنا كاتب « محاسن الملوك » (ورقة ٢٥ — ٢٧ ، وهو مخطوط بالمكتبة الملكية بالقاهرة — راجع كتاب التاج طبعة أحمد زكى باشا ص ٨٨ — حاشية ٣ ص ٨٦ — ٨٨) عن هذا الاستعمال منذ أيام عمر ما نصه : « قال المغيرة لعمر رضى الله عنهما : يا خليفة الله ! فقال عمر : ذاك نبي الله داود . قال : يا خليفة رسول الله ! قال ذاك صاحبكم المقفود . قال : يا خليفة خليفة رسول الله ! قال : ذاك أمر يطول . قال : يا عمر . قال : لا تبخس مقامى شرفه ، أنتم المؤمنون وأنا أميركم . فقال المغيرة : يا أمير المؤمنين . »

أنظر كتاب « الفاطميون فى مصر » للمؤلف ص ١٣٢

احلال الوحدة الدينية
محل الوحدة القومية

وكان من أظهر آثار الدين الاسلامي أن آخى بين المسلمين على اختلاف قبائلهم ومراتبهم ، وأحل الوحدة الدينية محل الوحدة القومية ، فأصبحوا متساوين جميعا — لافرق بين السيد أو العبد ، وغدوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا . وقد مَنَّ الله على المسلمين بقوله (وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخَذَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبِصْرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَاللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ . لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (١) وقد ساعد الرسول على توحيد كلمة العرب تلك الديمقراطية التي جاء بها الاسلام والتي تلاشت أمامها هذه الفوارق الجنسية التي طالما مزقت شمل العرب . وليس أدل على تلك الديمقراطية من قوله تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا . إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) (٢) ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى » .

وهكذا أصبح الدين دون الجنس المرجع الوحيد في تحديد العلاقات بين الحكومة والرعية ثم بين أفراد الشعب . فلما فرغ الرسول من توحيد كلمة العرب في المدينة حول همته الى نشر الاسلام خارج المدينة . وحينئذ بدأت غزواته الأولى .

كانت السيدة خديجة عون الرسول على الشدائد كما كانت وزير زواج الرسول من عائشة صدق للاسلام . وقد توفيت في السنة العاشرة من نزول الوحي قبل الهجرة بثلاث سنين ؛ وسمى هذا العام عام الحزن حيث كانت الفاجعة فيه مزدوجة بوفاة عمه أبي طالب الذي كان يحميه من العرب وزوجه

(١) سورة الانفال ٨ : ٦٣

(٢) سورة الحجرات

التي كان يسكن إليها . يقول ابن سعد (١) « وجدَ الرسول صلى الله عليه وسلم على خديجة حتى خشي عليه » . وكان هذا الحزن يمنعه من التفكير في أمر الزواج حتى ساق الله إليه خولة بنت حكيم . وقد قالت له : يا رسول الله ! كأنى أراك قد دخلتكَ خَلَه (٢) لفقد خديجة فقال : أجل ! أمُّ العيال وربُّ البيت . قالت أفلا أخطب عليك ؟ قال : بلى ! فإنكن معشر النساء أرفقُ بذلك . فخطبت عليه سودة بنت زمعة من بني عامر بن لؤى ، وخطبت عليه عائشة بنت أبي بكر فتزوجها ، فبنى بسودة بمكة ولعائشة يومئذ ست سنين (٣) ، حتى بنى بها بعد ذلك حين قدم المدينة . وكان زواج الرسول بسودة بنت زمعة في شهر رمضان سنة عشر من النبوة ، ثم تزوج عائشة بنت أبي بكر ودخل بها في المدينة . وكان صداق الرسول اثنتي عشرة أوقية ونشأ - أى خمسائة درهم - لأن الأوقية أربعون درهماً والنش عشرون (٤)

سودة بنت زمعة

منزلة عائشة في قلب الرسول

كان الرسول يحب عائشة حباً جماً ويعطف عليها كل العطف ؛ فقد روى عن عائشة أنها قالت ؛ كنت ألعب بالبنات (اللعب) ويحبن صواحبات لى فيلعبن معى فإذا رأين رسول الله صلى الله عليه وسلم انقمعن (٥) منه ؛ فكان رسول الله يدخلهن فيلعبن معى (٦)

وعن عائشة أيضاً قالت : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك فهبث ريح فكشفت ناحية من ستر على صفة في البيت عن بنات لى ، فقال ما هذا يا عائشة ؟ قلت بناتى . ورأى يبينهن فرساً لها

(١) كتاب الطبقات الكبير ج ١ ص ٤١

(٢) حاجة

(٣) الطبرى ج ٢ ص ١٧٥

(٤) ابن سعد ج ١ ص ١١٥ ، ١٥٧

(٥) أى دخلن في بيت أو من وراء ستر . وأصله من القمع الذى على رأس الثمرة ، أى

يدخلن فيه كما تدخل الثمرة في قمعها . النهاية في غريب الحديث ج ٣ ص ٣١١

(٦) ابن سعد ج ٨ ص ٤٥

جناحان من رِقاَع^(١) . قال وما هذا الذى أرى وسطهن ؟ قلت فرسى . قال وما هذا الذى عليه ؟ قلت جناحان . قال جناحان ؟ قلت أما سمعت أن لسليمان خيلا لها أجنحة ؟ فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه^(٢) »

ولا غرو فقد تمتعت السيدة عائشة بمنزلة لم تتمتع بها امرأة غيرها من زوجات الرسول إلا خديجة . وإنا لنجد مظهر ذلك الحب باديا فى كلام الرسول لعائشة وفى كلام عائشة نفسها ، وفى كلام زوجات الرسول والصحابة ؛ فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : يا عائشة ! حبك فى قلبى كالعروة الوثقى . وكانت السيدة عائشة تسأله من وقت لآخر كيف حال العروة يارسول الله ؟ فيقول لها : إنها على حالها لم تتغير ولم تتبدل^(٣) . وكانت السيدة عائشة تشعر بهذا الحب وتعلم مكاتها عند الرسول . تقول فى حديث لها : ولقد كانت زينب بنت جحش وأم سلمة لهما عنده مكان ؛ وكأنا أحب نسائه إليه فيما أحسب بعدى^(٤) . وكانت زوجات الرسول يعلن هذه المكانة ، فلها كبرت سودة بنت زمعة وخافت أن يفارقها الرسول وهبت يومها لعائشة دون سواها^(٥) . وقد غضبت زينب بنت جحش لما رآته من أن عائشة قد ملكت قلب الرسول^(٦) .

لم تزوج الرسول
بعد عائشة ؟

ولعل قائلا يقول : إذا كانت هذه مكانة عائشة من الرسول ، فلم تزوج عليها وفى هذا مافيه من الاساءة اليها ؟ وقد ظن بعض المستشرقين

(١) الرقاَع بالكسر جمع رقعة بالضم وهى الخرقَة التى يرقع بها الثوب ، يريد أن جناحى الفرس كانا من الرقاَع .

(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٣٠

(٣) روح المعاني ج ٢ ص ٧٥٣

(٤) ابن سعد ج ٨ ص ٨١

(٥) ابن سعد ج ٨ ص ٣٦

(٦) السمط الثمين فى مناقب أمهات المؤمنين لحب الدين احمد بن عبد الله ص ٣٩

ومن يجهلون حقيقة ما يرمى اليه الاسلام ، وهو أن الرسول قد تزوج بعد موت خديجة بغير امرأة ، وعابوا عليه ذلك ، ولم يدروا أن هذا الزواج كان لأغراض دينية وسياسية أكثر منها جنسية . فقد تزوج الرسول جميع زوجاته بعد موت خديجة وهو في سن الخمسين ، تلك السن التي تتوارى فيها الغريزة الجنسية أمام الأغراض الدينية والسياسية ^(١) . أضف الى ذلك أنه كان يحب عائشة حباً جماً ، وأنه كان يعمل على إرضائها ، وأنه لم يتزوج بعدها بامرأة لجمال أعظم من جمالها . وبذلك أصبح من اليسير علينا أن ندرك أن ذلك إنما كان لأغراض لا أثر للبول الجنسية فيها .

وكان من أثر تلك الأغراض الانتفاع بالمصاهرة واتخاذها وسيلة لاستجلاب الأفئدة واجتذاب عطف القبائل . ويفسر لنا هذا أن أن أكثر زواجه كان من قريش سيدة العرب . كما كان لتأليف القلوب الى الاسلام دخل كبير في زواجه عليه الصلاة والسلام . أضف الى ذلك ما كان لرأفته عليه الصلاة والسلام وعطفه على من ذل بعد عز من أثر في زواجه ببعض زوجاته .

جويرية بنت الحارث
وصفية بنت حيي

فقد تزوج من جويرية بنت الحرث سيد بني المصطلق ، وصفية بنت حَيٍّ سيد بني النضير ليتم له إسلام قومها ، لا لتأثير جمالها كما يقولون ، فهو أعلى نفساً من أن يتأثر بذلك ، وهو الذي يقول في المرأة «فاظفر بذات الدين تر تبتْ يداك» ^(٢) ، وهو الذي تُفيض الروايات في وصف حبه لعائشة طوال حياته .

أم سلمة

وقد تزوج الرسول أم سلمة ، وهي امرأة مسلم مات في سبيل الله

(١) روى الطبري (ج ٣ ص ٨٣) أن الرسول حين بعث عبد الرحمن بن عوف الى دومة (أو دومة الجندل بلد بينها وبين دمشق خمس ليال وبينها وبين المدينة خمس عشرة ليلة ، وتقع قرب بترك . وهي أول غزوات الشام في السنة الخامسة للهجرة) قال له : « إن أطاعوك فتزوج ابنة ملكهم ، مما يدل على أن ذلك كان سياسة من الرسول .
(٢) يدعو عليه بالفقر حتى تلتصق يده بالتراب

والدفاع عن الاسلام ، تطيباً لقلبها وإثابة لها عن زوجها ، كما تزوج حفصة بنت عمر تطيباً لقلبها عن زوجها المتوفى ، ومكافأة لايها عمر ، ومكاته في نصرة الدين على ما نعلم .

وأما زينب بنت جحش فكان زواج الرسول منها لأغراض
تشريعية . فقد كان العرب يحرمون في جاهليتهم الزواج بزوجة المتبني
لاعتقادهم أن زوج المتبني كزوجة الابن من الصلب . فتزوجها الرسول
ابطالاً لهذا الزعم . ولما خشى أن يتقول عليه اليهود والمنافقون ويرمون
بأنه قد خرج على هذه التقاليد نزل قوله تعالى (فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا
وَطَرًا زَوَّجْنَا كَمَا لِسَكَيَلًا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ
أَزْوَاجِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا) (١)

أضف إلى ذلك أن الرسول قد تزوج زينب أيضاً للمحافظة على
سمعتها بعد زواجها بمولى . فقد كانت بنت عمه الرسول وهي أمة
بنت عبد المطلب . وقد خطبها الرسول لمولاه زيد بن حارثة ، فعز
على أهلها أن يتزوج من مولى ، ولكنهم لم يروا بدا من إجابة الرسول .
فلما تزوج بها زيد أظهرت له من الشمم والعظمة ما لم يتحمله ، فشكا
ذلك إلى الرسول ، فأمره أن يتذرع بالصبر . ولكن الوحي قد نزل
على الرسول بالطلاق ، وأمره أن يتزوج هو بها حسماً لما بين الزوجين
من نزاع ، وحرصاً على شرفها أن يضيع بعد زواجها بمولى وهي من
أشرف بيوت العرب .

على أننا نرى في زواج الرسول بزينب بنت جحش مثلاً أعلى من
مثل الديمقراطية التي امتاز بها الاسلام . فليس أمعن في تلك الديمقراطية
من أن يتزوج رسول الله بامرأة كانت بالأمس زوجة أحد مواليه ،
تلك الديمقراطية التي وضع أساسها بخطبة زينب ، وهي بنت عمه

ومن أشرف العرب، لزيد وهو من الموالي، والذي لم يستكشف من أن يطبقها على نفسه بزواجه منها بعد أن طلقها زيد.
هذا الى ما كان يرمى اليه الرسول من تحميل زوجاته رسالة الاسلام وتبليغها الى الرجال والنساء.

الغزوات والسرايا (١)

الجهاد وأغراضه :

يزعم بعض ذوى الأغراض أن الرسول قد أكره الناس على قبول هذا الدين، واعتمد في نشره على السيف. ولكن هذا لا يتفق مع صريح قوله تعالى (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) (٢) أضف إلى ذلك منافاته لما رواه الثقة من المؤرخين عن بدء انتشار الاسلام. فقد بدأ النبي صلى الله عليه وسلم بدعوة بعض أصحابه ممن كان يثق بهم، فأسلم أبو بكر وعثمان بن عفان والزبير بن العوام وسعد ابن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف، وتبعهم غيرهم. وطالما كان يعرض الرسول نفسه في موسم الحج على القبائل داعياً من أقبل إلى مكة من سائر العرب الى الاسلام. وكان من هؤلاء جماعة من الأوس والخزرج من أهل المدينة، فأجابوه الى مادعاهم اليه من اعتناق الاسلام ثم رجعوا الى المدينة ودعوا قومهم الى هذا الدين، فلم يبق دار من دور أهل المدينة إلا وظهر فيها الاسلام. مضى ذلك في جزيرة العرب دون أن يستل النبي سيفاً أو يقاتل عدواً. كذلك اتبع الرسول الطرق السلمية في نشر الاسلام خارج جزيرة العرب إذ كتب الى الملوك والأمراء في ذلك العصر يدعوهم الى الاسلام بالطرق السلمية.

هل انتشر الاسلام
بمحذ السيف ؟

(١) الغزوة هي ماخرج فيها الرسول مع المقاتلين . والسرية أو البعث مالم يخرج فيها بنفسه ، فقد يعقد اللواء لها على رجل من أصحابه . وقد يطلقون على السرية غزوة (ولكن ذلك قليل) كما قالوا غزوة مؤتة وغزوة ذات السلاسل . وكانت الغزوات التي غزا فيها الرسول بنفسه سبعة وعشرين غزوة ، وكانت السرايا والبعوث ثمانية وثلاثين ، وقيل أكثر من ذلك .

وإن هذه الفرية التي يرمون الاسلام بها لتتنافى مع ماسار عليه الخلفاء الراشدون مع أهل البلاد التي فتحوها واحترامهم لحريتهم الدينية ومحافظتهم على حقوقهم المدنية . يدل على ذلك أمان عمر بن الخطاب رضى الله عنه لأهل إيلياء الذى نقله عن الطبرى (١) : « هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان . أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها ، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد »

تغلب الاسلام على
قلوب المغول

من هذا يظهر أن الاسلام لم ينتشر في جميع أدواره بحد السيف والارهاب . وإلا فماذا يقولون في انتشار هذا الدين في القرن السابع الهجرى في الوقت الذى ضعفت فيه الدولة الاسلامية بزوال الخلافة العباسية وسقوط بغداد في أيدي التتار ؟ وإلى القارىء كيف وجد ذلك الدين السمع الطريق الى نفوس هؤلاء الفاتحين المتبربرين من المغول . يقول الأستاذ المرحوم السير توماس أرنولد (٢) : « لا يعرف الاسلام من بين ما نزل به من الخطوب والويلات خطبا أشد هولا من غزوات المغول . فلقد انسابت جيوش جنسكيزخان انسياب الثلوج من قُنين الجبال واكتسحت في طريقها العواصم الاسلامية وأتت على ما كان لها من مدنية وثقافة . على أن الاسلام لم يلبث أن نهض من تحت أنقاض عظمته الأولى وأطال مجده التالد ، واستطاع بواسطة دعائه أن يجذب أولئك الفاتحين المتبربرين ويحملهم على اعتناقه . ويرجع الفضل في ذلك الى حماس الدعاة من المسلمين الذين كانوا يلاقون من الصعوبات أشدها لمناهضة منافسين عظميين هما المسيحية والبوذية ،

(١) ج ٢ ص ١٥٩

Sir Thomas Arnold, The Preaching of Islam, (٢)
pp. 218 - 219.

وكانا يحاولان إحراز قصب السبق في ذلك المضمار . وليس في تاريخ العالم نظير لذلك المشهد الغريب وتلك المعركة الحامية التي قامت بين البوذية والمسيحية والاسلام — كل ديانة تنافس الأخرى — لتكسب قلوب أولئك الفاتحين الذين داسوا بأقدامهم تلك الديانات العظيمة ذات الدعاة والمبشرين في جميع الأقاليم والأقطار »

والى القارىء ما فعله بعض الحريصين على نشر الاسلام في أوروبا .
كان أوزبك خان (Uzbeck Khan) ، الذى كان زعيماً للقبيلة الذهبية (١٣١٣ - ١٣٤٠ م) ، والذى اشتهر بتحمسه الشديد للدين الاسلامى وحرصه على تحويل الكثيرين من الاهلين اليه ، أول من جد في نشر الاسلام في كافة أرجاء بلاد روسيا . ويذكر لنا التاريخ أنه رغم تحمسه للدين وتغافيه في الاخلاص له ، فقد كان كثير التسامح نحو رعاياه من المسيحيين . فقد منحهم الحرية التامة في إقامة شعائرهم الدينية ؛ وذهب في تسامحه معهم الى أبعد من هذا ، فقد سمح لهم بالتبشير لدينهم ونشره في بلاده . وما يدل على ذلك التسامح تلك الوثيقة (١) ، وقد جاء فيها : « إن كنيسة بطرس مقدسة ، فلا يحل لأحد أن يتعرض لها أو لأحد رجالها بسوء ، ولا أن يستولى على شيء من عقارها أو متاعها ، ولا أن يتدخل في أمورها . ومن خالف أمرنا هذا بالتعدى عليها فهو مجرم أمام الله وجزاؤه منا القتل » (ج ٤ ص ٣٩١ - ٣٩٤) .

ولم يكن هذا المرسوم كلمات جوفاء أو مجرد « خبر على ورق » . فقد ظهر ذلك التسامح واضحا جلياً في كتاب أرسله البابا يوحنا الثانى والعشرون في سنة ١٣١٨ م إلى أوزبك يشكر له عطفه على رعاياه من المسيحيين ويثنى على تلك المعاملة التي كان يعاملهم بها أوزبك .

وقد ظلت حركة الدعوة للاسلام في بلاد روسيا بطيئة حتى سنة ١٩٠٥ ، حتى صدر مرسوم حرية الدين في الامبراطورية الروسية .

الاسلام يحى
الكنائس وأتباعها

منشور حرية الدين
في روسيا

ومن ثم نشطت حركة الدعوة الى الاسلام في تلك البلاد ، وأخذ الكثير من الروس يدخلون في هذا الدين . ويرجع الفضل في هذا الى القوة المعنوية التي كان يمتاز بها المسلمون في هذه البلاد ^(١).

المسيحية والاسلام
في ظل الحرية

وفي القرن الثامن عشر نشطت الحكومة الروسية من جديد في تحويل القبائل الوثنية من المغول الى الدين المسيحي . ففي سنة ١٧٧٨ أمرت كاترين الثانية بأن يوقع كل من هؤلاء الحديثي عهد بالمسيحية على إقرار كتابي يتعهدون فيه بترك الوثنية دينهم القديم والتمسك بالدين المسيحي وعقائده . وعلى الرغم من ذلك فان الذين تعمدوا من المغول لم يدخلوا المسيحية إلا ظاهراً ولم يكونوا مسيحيين إلا بالاسم فقط . وسرعان ما تخلصوا من الكنيسة الأرثوذكسية واعتنقوا الاسلام . ولم يكن هذا الدخول في المسيحية إلا خطوة تمهيدية لدخولهم في الاسلام .

من هذا يتبين لنا أن الاسلام إنما وجد طريقه إلى القلوب وخالطت بشاشته النفوس عن طريق الحجة والاقناع . أضف الى ذلك أن النفوس كانت تتطلع منذ مستهل القرن السابع الميلادي الى مصلح جديد . فقد تطرق الفساد الى جميع مناحي الحياة ومال ميزان العدل بين الناس ببلاد العرب والفرس والروم . ومن ثم بادر الناس الى الاسلام لما امتاز به من الديمقراطية الصحيحة والمساواة الحققة (فِطْرَةُ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ) ^(٢) مكث الرسول بمكة ثلاثة عشر عاماً يدعو الناس بالحجة والموعظة الحسنة . وقد أذاقته قريش هو والمسلمين كل صنوف الأذى فصبر على أذاهم ، وحثه الله تعالى على التذرع بالصبر بما أنزله عليه من الآيات ، وضرب له الأمثال في الصبر والاحتمال . ومن ذلك قوله تعالى

أغراض الجهاد

Ibid, pp. 244 - 245 .

(١)

(٢) - سورة الروم ٣٠ : ٣٠

(واَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ اُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ) (١) .
ولما تفاقم اذى قريش للرسول وصحبه أمره الله تعالى بقتال المشركين ،
وهو ما يعبر عنه بالجهاد أو القتال في سبيل الله ، وهو القتال الخالص
لله تعالى . وقد أذن الله لرسوله وللمؤمنين بأن يقاتلوا في سبيل الله
في آيات بعضها نزل بمكة وبعضها نزل بالمدينة .

وقد أذن للمسلمين بالقتال لأموالهم منها :

الدفاع عن النفس

١ - الدفاع عن النفس . وفي ذلك يقول الله تعالى (اَذِنَ لِلَّذِينَ
يُقَاتِلُونَ بِأَنفُسِهِمْ ظُهُومًا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا
مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ) (٢)
وقوله تعالى (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا
تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . وَاقْتُلُواهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ
وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ، وَلَا
تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ، فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ
فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ
وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا
عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ) ، (٣)

(وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ
وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ
الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ
نَصِيرًا) (٤)

(١) سورة الاحقاف ٤٦ : ٣٥

(٢) سورة الحج ١٢٢ : ٣٧

(٣) سورة البقرة ٢ : ١٩٠ — ١٩٣

(٤) سورة النساء ٤ : ٧٤

من ذلك نرى أن القتال لم يُشرع الا دفاعا عن النفس وما إلى ذلك من العيرض والمال .

٢ — تأمين الدعوة والدفاع عنها ضد من يقف في سبيلها ، حتى لا يخشى من يريد الدخول في الاسلام الفتنة عن دينه ، كما حدث لعمار ابن ياسر وبلال وغيرهما من المستضعفين من المسلمين .
ولما تمالأ أهل مكة مع غيرهم من العرب على قتال الرسول أمره الله بقتال المشركين كافة (وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً) (١) .

ولما نقض يهود المدينة العهد الذي أخذه الرسول عليهم وانضموا إلى مشركي قريش لقتاله نزل قوله تعالى (وَإِذَا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْهَئِ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ) (٢)
وقد وعد الله المسلمين النصر على أعدائهم في الدنيا وبشرهم بالنعيم في الآخرة فقال (فَلْيَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ؛ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا) (٣) وقوله تعالى (وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْمُونًا فَإِنَّهُمْ يَأْمُونُ كَمَا تَأْمُونُ ، وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ) (٤) وقوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ، وَمَنْ يُؤْلَمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرُهُ إِلَّا مُسَحَّرًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَاهُ جَهَنَّمُ وَيَسَّنُ الْمَصِيرُ) (٥)

الروح المعنوية عند المسلمين

- (١) سورة التوبة ٩ : ٣٦
(٢) سورة الأنفال ٩ : ٥٨
(٣) سورة النساء ٤ : ٧٤
(٤) سورة النساء ٤ : ١٠٤
(٥) سورة الأنفال ٨ : ١٥ — ١٦

ذكر الواقدي (١) أن رسول الله عقد في رمضان من السنة الأولى للهجرة لحزبة بن عبد المطلب لواء في ثلاثين رجلا من المهاجرين ليعترض عيرا لقريش . وقد لقي أبا جهل في ثلاثمائة رجل ، فحجز بينهم مجذى ابن عمرو الجهني ، فافترقوا دون قتال . وقد أرسل الرسول عدة سرايا بقصد الاستطلاع « والمناورة » ؛ حتى إذا كان شهر ربيع الأول من السنة الثانية للهجرة خرج بنفسه إلى وُدَّان (٢) يريد قريشا وبنى ضمرّة فوادعته بنو ضمرة وعاد إلى المدينة .

وفي شهر رجب من نفس هذه السنة بعث رسول الله عبد الله بن جَحْش (٣) ومعه ثمانية من المهاجرين وكتب له كتابا أمره ألا يفرضه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه ويمضي لِمَا أمره به ولا يستكره أحدا من أصحابه ففعل ، حتى إذا فتح الكتاب وجد فيه : « اذا نظرت في كتابي هذا فسر حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم (٤) » . ثم عرض الرسول الأمر على أصحابه وخيرهم بين المضى معه أو الرجوع ففضوا ، ولم يتخلف عنه واحد منهم حتى نزل نخلة ؛ فمرت به قافلة قريش بتجارها وعليها عمرو بن الحضرمي الذي قتله المسلمون عند ما اشتبكوا بهم ، ثم أسروا منهم عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان ، وقدموا بهما وبالغير على الرسول بالمدينة فقال لهم : « ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام » ؛ ثم وقف العير

(١) تختلف الرواية العربية في أول غزوة وتاريخها وترتيب السرايا التي سبقت بدرا ؛ فيزعم الواقدي أن سرية حمزة كانت في رمضان من السنة الأولى للهجرة كما يعتبرها الأولى . أما ابن هشام فيعتبرها مسبوقة بغزوة ودان ، وسرية عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب إلى ماء بالجزاز في أسفل ثنية المرة ، ويعتبران أول غزوة كانت في صفر من السنة الثانية (الطبري ج ٢ ص ٢٥٩) (٢) هي قرية بينها وبين الأنواء ثمانية أميال والأنواء قرية بين مكة والمدينة . وتسمى هذه الغزوة غزوة الأنواء أيضا .

(٣) هو من السابقين إلى الاسلام . ولما بعث النبي سماه أمير المؤمنين ، فكان أول من سمي في الاسلام بهذا الاسم . وهذا لا يتناقى مع القول بأن عمر أول من تسنى به من الخلفاء .

(٤) الطبري ج ٢ ص ٢٦٢

والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً . وعنتفهم اخوانهم المسلمون على ما صنعوا وقالوا لهم : صنعتم ما لم تؤمروا به وقاتلتم في الشهر الحرام » فسقط في أيديهم وظنوا أنهم قد هلكوا بما صنعوا . فانتهزت قريش هذه الفرصة ونادت في كل مكان بأن محمداً وأصحابه استحلوا الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا الأموال وأسروا الرجال ، كما خاض اليهود في ذلك أيضاً حتى غفر الله للمؤمنين ودافع عنهم بقوله (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ، وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُم عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (١)

ولما وضعت الحرب أوزارها بعثت قريش في اقتداء الأسيرين ؛ فقال الرسول لا نُفديكموهما حتى يقدم صاحبانا (٢) ، فانا نخشاكم عليهما . فان تقتلوهما نقتل صاحبيكم » . فلما قدم سعد وعُتبة أفداهما رسول الله . فأما الحكم بن كيسان فقد أسلم وأقام عند الرسول إلى أن استشهد يوم بدر معونة .

وينا كان الرسول يعمل على نشر الدعوة خارج المدينة ، كان يفكر في أمر القبلة ويقلب وجهه في السماء ينتظر الوحي من عند الله ، وذلك لأنه كان في مكة يتجه إلى السكبة (٣) في صلاته . وقد جرت شائعة

(١) سورة البقرة ٢ : ٢١٧

(٢) يعني سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان ، وكانا قد تحلفا عن عبد الله بن جحش في بحثهما عن بعير ضل منهما .

(٣) تفسير الطبري والفتحي الرازي سورة البقرة ٢ : ١٤٢ : وفيها رواية أخرى عن ابن عباس أنه كان يتجه إلى بيت المقدس . ولكنه كان يجعل السكبة بينه وبين بيت المقدس .

الله تعالى بان يمتحن المسلمين ومبلغ استمساكهم بهذا الدين وإذعانهم
لربهم . فأمرهم بالتحول إلى بيت المقدس بدلا من الكعبة ، التي هي
بيت ابراهيم ومعقد فخار العرب واحترام قبائلهم جميعا ، والتي ألفوا
التوجه إليها عن آبائهم . وقد ظل الرسول عليه الصلاة والسلام يصلي
إلى بيت المقدس حتى شعبان من السنة الثانية للهجرة واليهود يجادلونه
بما يعلمون وما لا يعلمون ، ويلبسون الحق بالباطل ليفتنوا المسلمين
ويوقعوا بينهم ، لما رأوه من قوة شوكتهم وعظم أمرهم ، بعد أن ظنوا
إمكان اجتذابهم إليهم والاستظهار بهم على الجالية المسيحية وعلى
المشركين من العرب ، فتصبح الجزيرة العربية يهودية كلها أو على الأقل
منطقة نفوذ لليهود . فلما خاب أملهم في ذلك أخذوا يرجفون ويتحدثون
بأن من واجب محمد ، وقد جاء مُتَقَفِّيًا على آثار موسى وعيسى ، أن
يذهب إلى بيت المقدس كما كانت الأنبياء من قبله يفعلون ، ومنهم
من يقول نحن علمنا محمدا قبلته ولولانا ما درى إلى أين يتجه (١) ،
ومنهم من يتساءل ويعجب لمحمد هذا الذي يخالف دينهم ويتبع
قبلتهم .

وقد ألقى في روع الرسول إذ ذاك أن الله مُخَوِّلُهُ عن قبلتهم هذه ،
لأن من سنة الله تعالى أن يجعل لِكُلِّ وَجْهَةٍ وَرَقْلَةً هُوَ مُؤَلِّيَهَا .
قال تعالى (وَلِكُلِّ وَجْهَةٍ هُوَ مُؤَلِّيْنَهَا) (٢) ؛ ولأن الله ما جعل القبلة
إلى بيت المقدس إلا ليمتحن المسلمين ليعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب
على عَقْبِيهِ . لذلك كله توقع الرسول الوحي في أمر القبلة وانتظر حكم
الله فيها فأُنْزِلَ الله عليه (قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ
قِبْلَةً تَرْضَاهَا . قَوْلَ وَجْهِكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ

(١) الطبري ج ٢ ص ٢٦٥ : وابن هشام ج ٢ ص ١٩٦

(٢) سورة البقرة

قَوْلُوا وَجْوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ
الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١) ليقضى على
تخرصات اليهود ويدحض حججهم وحجة المشركين الذين كانوا
يقولون إن محمداً يدعى ملة ابراهيم ويخالف قبلته . ولقد أشار
القرآن الى أن أمر القبلة وتحولها يعرفه أهل الكتاب (٢) ، ولكنهم
يشيرون الشبهاب ويعرضون على الرسول أنه لو عاد الى قبلتهم لكانوا
يرجون أن يكون صاحبهم الذى ينتظرونه . كل ذلك ليفتنوه فيتبع
قبلتهم ؛ فأجاب الله عن ترهاتهم بأن الله المشرق والمغرب ، وبأن لكل
شريعة قبله كما يعلمون ، ثم يأسيهم من رجوع الرسول الى قبلتهم ، فقال
تعالى (وَأَمَّا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ
وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ (٣)

أهمية القبلة

» أما تعيين القبلة فى الصلاة فقد ذكرها فيه حكما أحدها أن الله
تعالى خلق فى الإنسان قوة عقلية مدركة للمجردات والمعقولات ،
وقوة خيالية متصرفة فى عالم الأجسام . وقلبا تنفك القوة العقلية عن
مقارنته القوة الخيالية ومصاحبتهما . فاذا أراد الإنسان استحضار أمر
عقلى مجرد ، وجب أن يضع له صورة خيالية يحسنها حتى تكون له
تلك الصورة الخيالية معينة على إدراك تلك المعانى العقلية . ولذلك فإن
المهندس إذا أراد إدراك حكم من أحكام المقادير وضع له صورة معينة

(١) سورة البقرة ٢ : ١١٤

(٢) يقول البيضاوى فى ذلك « لعلمهم بأن من عادة الله وسنته تخصيص كل شريعة بقبلة ،
ولنضمن كتبهم أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى الى القبلتين » . كما يشير الى أن قبلة اليهود
الصخرة بيت المقدس وقبلة النصارى مطلع الشمس . ويروى أيضا أن من أوصاف النبى فى التوراة
الذى كانت بين أيديهم أن قبلته السكبية .

(٣) سورة البقرة ٢ : ١١٥

وشكلا معينا ليصير الحس والخيال معينين للعقل على إدراك ذلك الحكم السلكي .

ولما كان العبد الضعيف إذا وصل الى مجلس الملك العظيم ، فانه لابد وأن يستقبله بوجهه ، وأن لا يكون معرضا له ؛ وأن يبالغ في الثناء عليه بلسانه ، ويبالغ في الخدمة والتضرع له ، فاستقباله القبلة في الصلاة يجري مجرى كونه مستقبلا للملك لا معرضا عنه . والقراءة والتسبيحات تجري مجرى الثناء عليه ، والركوع والسجود يجري مجرى الخدمة . . . وثالثها أن الله يحب الموافقة والألفة بين المؤمنين . وقد ذكر المنّة بها عليهم حيث قال (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا) (١) . ولو توجه كل واحد في صلاته الى ناحية أخرى ، لكان ذلك يومهم اختلافا ظاهرا . فعين الله تعالى لهم جهة معلومة وأمرهم بالتوجه نحوها ليحصل لهم الموافقة بسبب ذلك . وفيه إشارة الى أن الله يحب الموافقة بين عباده في أعمال الخير « (٢)

غزوة بدر الكبرى :

وفي رمضان من السنة الثانية للهجرة وقعت غزوة بدر الكبرى ، فقد نذب الرسول نفرا من المسلمين لاعتراض قافلة قريش وهي قادمة من الشام . فلما علم بذلك أبو سفيان بن حرب رئيس القافلة بعث الى قريش من يخبرها باعتراض المسلمين لتجارتهن ويستنفرهم لاستنقاذها ؛ ثم غير طريقه ، وتوجه الى البحر وسار بجذائه حتى جاوز موقف المسلمين ، ثم انسل إلى مكة دون أن تمس تجارة قريش بسوء . وقد

(١) سورة آل عمران ٣ : ١٠٣

(٢) تفسير الفخر الرازي : سورة البقرة ٢ : ١٤٢ - ١٥٠

التقى الرسول بقریش عند ماء بدر . وكان عددهم بين التسعمائة والألف ، وفيهم العباس بن عبدالمطلب عم الرسول وأبوجهل بن هشام ابن المغيرة . فنصر الله المسلمين وقتل سبعون من رجالات قریش وساداتهم . أما المسلمون فقد استشهد منهم أربعة عشر .^(١)

كان لهذه الغزوة أثر كبير في تاريخ الاسلام . فقد كانت أول اصطدام جدى بين المسلمين وقریش انتصر فيه المسلمون على الكفار ، وتجلّى فيه للمشرّكين مبلغ تمسك المسلمين بعقيدتهم وتقانيهم في نصرته دينهم . وقد أحفظ ذلك رجالات قریش ، فأجمعت أمرها على أن تغسل عار تلك الهزيمة بغارة أخرى تشنها على المسلمين .

وقد بلغ من اعتزاز المسلمين بانتصارهم في تلك الغزوة أن سموها غزوة الفرقان ، لأن الله سبحانه وتعالى قد فرق بها بين الحق والباطل وأعزّ الاسلام وأذل الكفر بقتل صناديد قریش وأسر كبرائهم مع قلة عدد المسلمين وعددهم ؛ كما سموا كل من شهداها من المسلمين بدرياء ، وكانوا يعتزون بهذه السمة ويفخرون .

وبلغ من تأثر قریش لهزيمتها في تلك الموقعة أنها رصدت جميع أموال تلك القافلة لحرب الرسول والقضاء على أصحابه ؛ ومن ثم ابتدأت سلسلة من الحروب كان النصر فيها حليف المسلمين (اللهم إلا في غزوة أحد) ، وكان يتخرج مركز المسلمين أو يتوطد بعد كل حرب تبعا لنتيجتها ؛ ولكنهم صبروا واطمأنوا إلى نصر الله وكانت العاقبة للمتقين .

الاختلاف القوم في النفل (٢) الذي ساقه الله إلى المسلمين في غزوة

(١) ابن هشام ج ٢ ص ١٩٦ — ٢٣٠. الطبري ج ٢ ص ٢٦٧ — ٢٩٧

(٢) النفل أو الغنيمة هو ما أخذه المسلمون من الكفار قهرا بعد هزيمتهم في الحرب . وهناك الفري . وهو أيضا مأخوذ من الكفار ولكن عن طريق صلح واتفاق معهم لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب .

بدر . فقد ادعاه الذين جمعوه ، كما ادعاه من باسروا القتال ومن أحاطوا بالرسول يحرسونه خشية أن يغتاله المشركون . وقد نسي كل فريق من هؤلاء نصيب الآخرين واستحقاقهم في النفل ، كما أهملوا من وكل اليهم الرسول أعمالا تتصل بالقتال وليست منه ، ومن تخلف عن القتال لأعذار كعثمان بن عفان الذي أبقاه الرسول مع أسامة بن زيد في المدينة تمرىض رقية بنت الرسول وزوجة عثمان التي فاضت روحها والمسلمون في المعركة ، وأتى البشير بالنصر وهم يوارونها التراب .

ولما رُفِعَ الأمر إلى الرسول نزل قوله تعالى (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (١) . ثم أقبل رسول الله إلى المدينة واحتمل معه النَّفْلَ وجعل عليه عبد الله بن كعب ، حتى إذا قربوا من المدينة قسم الرسول الغنائم بين المسلمين على السواء .

غزوة أُحمر :

وقعت غزوة أحد في النصف من شعبان في السنة الثالثة للهجرة . وسببها أن قريشا عندما أرادت أن تثأر لما أصابها يوم بدر خصصت

ويختلف النفل عن الفية . بأن أربعة أخماس النفل تقسم على المحاربين . أما أربعة أخماس الفية فانها تترك للرسول أو لأمام المسلمين ليصرفها في مصالح المسلمين التي منها الجيش . وأما خمس الفية أو الغنيمة فانه يقسم إلى خمسة أسهم أو أقسام : سهم للرسول (في حياته) ينفق منه على نفسه وأزواجه ويصرفه في مصالحه ومصالح المسلمين ، والسهم الثاني لذوى القربى ، والسهم الثالث لليتامى من ذوى الحاجات ، والسهم الرابع للمساكين ، والسهم الخامس لآبناء السبيل . ويدخل في الفية الجزية والخراج والعشر من متاجر المشركين . وهذا كله يختلف عن الصدقات فانها المال الذي يؤخذ من المسلم زكاة كان أو تطوعا .

أنظر كتاب الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٢١ — ١٥١

جميع ما كان من مال — في العير التي اعترضها المسلمون يوم بدر — ليستعينوا به على حرب الرسول وأصحابه .

وقد اجتمع حول أبي سفيان بن حرب ثلاثة آلاف من قريش والأحابيش ^(١) وعرب كنانة وتهامة . فخرج بهم يريد المدينة ، واصطحب القيان ومعهم المعازف والخمر ، وخرج معه نساء كبارهم إثارة لحماستهم .

ولم يحضر العباس بن عبدالمطلب عم الرسول يوم أحد . وتحدثنا بعض الروايات بأنه أرسل إلى الرسول سرّاً من يعلمه بخروج قريش إليه (٢) .

فلما سمع الرسول بقدوم قريش استشار الصحابة فيما يصنع ، مشاورة الرسول أصحابه فأشار عليه قوم بلقاءهم خارج المدينة . وكان يقول بذلك الشباب ومن لم يشهد بدرا ، وهم أكثر أهل المدينة . أما كبار الصحابة فكانوا يرون البقاء في المدينة . وكان ذلك رأى الرسول أيضاً اعتماداً على حصانة المدينة الطبيعية ومناعتها وسهولة الاحاطة بالعدو في أزقتها ، والارتفاع بمساعدة النساء والأطفال إذ يستطيعون أن يحصبوا المشركين بالحجارة وهم في دورهم آمنين .

وكان هذا الرأي هو رأى عبد الله بن أبي بن سلول عندما استشاره

(١) كان هؤلاء الأحابيش من الجند المرتزة . وقد استأجرتها قريش لتدافع عنها عند الحاجة لانصراف أهلها للتجارة . وقد اختلف المؤرخون في أصل هذه الجماعة وتسميتها بهذا الاسم . فبعضهم يقول ان بعض قبائل العرب تجمعت ونزلت عند جبل بأسفل مكة اسمه حبش ، من تحبش بمعنى اجتمع . ولكن الالب لا مانس يقول انهم كانوا من أصل حبشى . ومع كل فسواء أكانت هذه القوة عرباً خلصا أو من الاحابش أو من الاثرفاء الذين كانوا في خدمة قريش ، فقد كانوا قوة لقريش يدافعون عنها اذا أغار عليها عدو .

(٢) وليس ذلك بعيدا . فقد كان معروفا عن بنى هاشم أن هواهم مع الرسول ، وما كانوا يخرجون لحربه إلا مستكرهين . ولذلك يشك بعض المؤرخين في أن العباس قد حضر بدرا (راجع الطبرى ج ٢ ص ٢٧٦ - ٢٨٢)

الرسول - وكان ذلك لأول مرة في أمر كهذا - وكان رأى كبار الصحابة أيضا .

وقد قبل الرسول رأى الأول لما وجد في أصحابه من كثرة عددهم وقوة بأسهم . فعزم على الخروج ، ولبس لامته وصلى بالناس الجمعة ، وحثهم على الثبات والصبر ؛ فخشى هذا النفر من الصحابة أن يكونوا قد استكروها الرسول وتحدثوا إليه بذلك وعرضوا عليه البقاء في المدينة والنزول على رأيه ورأى كبار الصحابة . فقال : ما كان لني لبس لامته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه .

سار الرسول وقت السحر من ليلة السبت في ألف من المسلمين . خروج الجيش

ولم يكد جيش المسلمين يبلغ الشوط (١) حتى رجع عبد الله بن أبي بلثهم وقال : عصاني واتبع الولدان . فلما ذكرهم عبد الله بن عمرو بن حرام بحق الله عليهم وقال لهم : (تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ اذْفَعُوا ، اِحْتَجُوا بِأَنَّهُ لَنْ يَكُونَ قِتَالٌ وَقَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعُنَا كُمْ) (٢)

تقاعد المنافقين

وكان لهذا الانقسام أثر كبير في صفوف المسلمين . فقد كادت أن تتفرق كلمتهم وتتمزق وحدتهم . وقد وصف الله تعالى حال عبد الله ابن أبي بن سلول ومن لف لفه من المنافقين بقوله :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَاطِلًا مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْتِ لَكُمْ خَبَرًا وَلَا دُونًا مَا عِنْتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْثَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ . هَآؤُنْتُمْ أَتُولَآءُ مُّحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ

(١) مكان خارج المدينة

(٢) سورة آل عمران

كَلِمَةٍ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا . وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ . قُلْ مُؤْتُوا بَعِيثُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . إِنْ تَسْتَسْنِكُمْ حَسَنَةً تَسْؤُهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ، وَإِنْ تَصْرِيحُوا وَتَتَّقُوا لَا يَصْرُوكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ، وَإِذْ عَادَتْ مِنْ أَهْلِكَ تَبَوَّئِ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ، إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١)

موقف المسلمين
والكفار

نزل رسول الله الشعب من جبل أحد وعسكر على سفحه المواجه للمدينة والمنحدر إلى بطن الوادي الذي عسكرت فيه قريش ، فاحتوى الرسول بالجبل ، وجعل الرماة في أعلاه ليحموا ظهر الجيش وأوصاهم ألا يتركوا مكانهم سواء أكانت الغلبة للمسلمين أم عليهم . ثم استعرض الجيش وأخرج منه الأحداث الذين دفعتهم الحماسة إلى اصطلاء نار الحرب ؛ ثم ألح عليه فتيان وبكيا فاستبقاهما بعد أن اختبرا استعدادهما . ابتدأت المعركة بالمبارزة . وكان على رأس المشركين أبو سفيان بن حرب ، وعلى الخيل خالد بن الوليد . ثم التحم الجيشان وصمدا بعضهما لبعض . واتبع المسلمون خطة الرسول أول الأمر فكان النصر في جانبهم ؛ فقد حسوا أعداءهم بالسيوف حتى كشفوهم عن العسكرة . ويقول الزبير بن العوام في رواية ابن هشام : والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم هند بنت عتبة مشمرت هوارب ما دون أخذهن قليل ولا كثير .

غلطة الرماة

ولما رأى المسلمون تقهقر المشركين أهمل الرماة وصية الرسول إياهم بالثبات أما كنهم حتى يعلن هوانتهاء القتال ، وانكفأوا يجمعون

ماتركه العدو وراهم من الغنيمة والأسلاب . ولقد ذكرهم أميرهم عبد الله بن جبير بما قال الرسول فلم يسمعوا بل اندفعوا يتعجلون الغنيمة ويستبقون إليها . فاتهنز خالد بن الوليد فرصة خلوا الجبل من الرماة وأتى المسلمين من خلفهم وأعمل الرماح في ظهورهم .

اضطرب المسلمون لهذه المفاجأة واختل نظامهم حتى تعرضت حياة الرسول للخطر ، ثم اشتد الخطب عند ماصرخ ابن قبيصة (من المشركين) : « ألا إن محمدا قد قتل » ، فقد تخاذل المسلمون واستولى اليأس على قلوب فريق منهم ، ومن بينهم عمر بن الخطاب (١) ، كما استعمل فريق آخر من أمثال أنس بن النضر (عم أنس بن مالك) الذي قال « ماذا تصنعون بالحياة من بعده ؟ فموتوا على مامات عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . »

أما الباقيون فقد أحاطوا بالرسول وقاموا دونه يدفعون عنه ويتلقون دونه السهام والنبال وطعنات السيوف الموجهة إليه صلى الله عليه وسلم . على أن خبر مقتل الرسول ، وإن كان سببا في انخزال المسلمين واستيلاء اليأس عليهم ، فقد كان سببا في نجاته من أيدي المشركين . ولا غرو فقد اتخذت بذلك الخبر واكتفت من الحرب بتلك النتيجة . وقد فطن الرسول نفسه لهذا ، ورأى في ذلك فرصة أتاحها الله له وللمسلمين لصرف المشركين عنه . ولا غرو فقد أشار الرسول إلى كعب بن مالك الأنصاري بالسكوت حين هم بأن يصيح في المسلمين بأن الرسول على قيد الحياة .

حرص المسلمين
على سلامة الرسول

(١) وقد ندهش أن يستولى اليأس على مثل عمر لما امتاز به من رباطة الجأش وقوة النفس ، لولم نعلم أن ذلك اليأس طالما يدب الى النفس في مثل تلك الازمات النفسية الحادة . ناهيك بموقفه رضي الله عنه عندما فوجئ بخبر وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام .

وعلى الرغم من استئصال المسلمين وتقانيهم في الذود عن حياته ؛ فقد جرح النبي في وجنته وكسرت رُباعيته وشُجَّ في رأسه ، كما أنه وقع في إحدى الحُفَر التي حفرها المشركون ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون . واستشهد من المسلمين أكثر من سبعين .

هند وحمزة

وقد مثل نساء قريش بقتلى المسلمين حتى إن هنداً بنت عتبة (زوجة أبي سفيان بن حرب) بقرت بطن حمزة بن عبد المطلب ^(١) ، وأخذت كبده فلا كتها حتى إذا عجزت عن أكلها لفظتها . ^(٢)

وقد أمر الرسول بجمع قتلى المسلمين إلى جنب حمزة وصلى عليهم ثم أمر بدفنهم .

هزيمة المسلمين أبلغ
درس لهم

ثم عاد الرسول إلى المدينة . وقد تلقى المؤمنون في هذه الموقعة أنفع الدروس وأبعدها أثراً في حياتهم المستقبلية ، إذ كانت أول انهزام حربي حلَّ بهم بعد تلك الانتصارات التي اعتادوها . كما كشفت للمسلمين عن مبلغ إيمان المنافقين واستعدادهم للتضحية ، كما أطمعت قريشاً وغيرها من القبائل في جماعة المسلمين حتى استهانوا بهم وظنوا أنه من اليسير القضاء عليهم . وهكذا شجعت تلك الغزوة المشركين على حرب المسلمين كما سيأتي .

(١) هو عم النبي . وقد قتله غلام حبشي يقال له وحشي مولى مطعم بن جبير ، وقد بعثه سيده مع قريش وقال له : ان قتل حمزة بمعنى طيعة بن عدى فأنت عتيق . فأتى وحشي إلى حمزة وقد سبقه إليه سباع من بني عبد العزى . فلما رأى حمزة سباعاً ضربه فقتله ، فاتهر وحشي فرصة انشغال حمزة بطن سباع وصب حربته على حمزة فاثبتها في جسمه ؛ فاتجه حمزة إلى قاتله ليفتك به ولكنه عجز وهوى إلى الأرض . فتركه وحشي حتى مات ثم عاد فاتهر منه حربته ولم يقا تل حتى رجع إلى مكة . وقد هرب منها إلى الطائف يوم الفتح خائفاً من الرسول لعلمه بشدة حزنه على عمه . فلما أخبر بأن الرسول يعفو عنه أنه ، ذهب إليه فأسلم ، فعفا عنه الرسول . وما يجدر ذكره في هذه المناسبة أن وحشياً هذا حارب مع المسلمين جيوش مسيلمة الكذاب بحمية ، وأنه تمكن من قتل مسيلمة نفسه حتى كان يقول : « قتل خير الناس بعد رسول الله (يعني حمزة) وقد قتل شر الناس » (يريد مسيلمة)

(٢) تاريخ البعقوبي . ج ٢ ص ٤٨

بين أمر والأحزاب :

اثر انتصار قريش

ظننت قريش بعد أحد أنها قد هزمت محمداً ، وأخذت تعد العدة لغزوة أخرى تقضى بها على ما بقي له من قوة . فكان خروجها يوم الأحزاب (٥٥) تنفيذا لهذه الخطة . على أن هذه الفترة بين غزوتي أحد والأحزاب لم تمر من غير أن يشتبك المسلمون فيها مع بعض القبائل العربية الأخرى التي استخفت بقوة المسلمين وتجرات عليهم ، فاعتدت عليهم لتتقرب بذلك الى قريش زعيمة الوثنية ولتأخذ بنصيبها في شن الغارة والنيل من هذا الدين الجديد . من ذلك ما صنعت عضل والقارة يوم الرجيع ، ثم بنو سائب يوم بئر معونة ، حتى لقد بلغ الاستخفاف بالمسلمين والاستهانة بشأنهم أن فكر بنو النضير من يهود المدينة في قتل محمد رأس هذه الجماعة للتخلص منها .

سرية بني الرجيع
(سنة ٤ هـ)

قدم على رسول الله وفد من عضل والقارة فقالوا : « يا رسول الله ! إن فينا إسلاما وخيراً ، فابعث معنا نفرأ من أصحابك يفقهوننا في الدين ويقرءوننا القرآن ويعلموننا شرائع الاسلام » . فبعث رسول الله ستة من أصحابه ؛ فلما أتوا على الرجيع ^(١) غدروا بهم ؛ فأخذوا سيوفهم ليقاتلوهم ، وما زالوا يدافعون عن أنفسهم حتى قتل بعضهم وأسرا البعض الآخر ، فكانت نهايته القتل . فكان ذلك سبب غزوة بني الحنينا ^(٢) .

غزوة بئر معونة
(سنة ٤ هـ)

ذكر ابن هشام ^(٣) أن أبا براء عامر بن مالك قدم المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فعرض عليه الرسول الاسلام ودعاه إليه فلم يسلم ؛ ثم قال للرسول : « يا محمد ! لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك » . فقال رسول الله : « إني أخشى عليهم أهل نجد » ، فقال أبو براء . « أنا لهم جار فابعثهم »

(١) وهو ماء لذيذ بين مكة والطائف

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ٤٩ - ٦٠ . الطبري ج ٣ ص ٢٩ - ٣٣ .

(٣) ج ٣ ص ٤٤ - ٤٥ . الطبري ج ٣ ص ٣٣ - ٣٦ .

فليدعوا الناس الى أمرك . فبعث الرسول المنذر بن عمرو في أربعين رجلا من خيار المسلمين ؛ فساروا حتى نزلوا بئر معونة ؛ فبعثوا أحدهم بكتاب رسول الله إلى عامر بن الطفيل ، فلم ينظر فيه وعدا على الرجل فقتله ، ثم استصرخ عليهم بنى عامر ، فأبوا أن يجيبوه وقالوا : « لن نخفر أبا براء وقد عقد لهم عقداً وجواراً » . فاستصرخ عليهم قبائل من بنى سليم فأجابوه إلى ذلك وخرجوا حتى عَشَوْا القوم ، فأحاطوا بهم وهم في رحالهم ؛ فلما رأوهم أخذوا سيوفهم ثم قاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم ، وكانوا - رضى الله عنهم - من أشهر القراء والحفاظ .

أما بنو النضير ، فقد أجمع المؤرخون على أن السبب في حربهم يرجع الى تأمرهم على قتل الرسول . فقد جاءهم يستعينهم في دية قتيلين قتلتهما المسلمون خطأ ^(١) ، قالوا « نعم يا أبا القاسم (٢) نعينك على ما أحببت بما استعنت بنا عليه » . ثم خلا بعضهم الى بعض فقالوا « إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه » .

غزوة بنى النضير
(سنة ٤ هـ)

وكان الرسول قد جلس الى جنب جدار من بيوتهم حتى يأتوه بالمال . فقالوا : من رجل يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه ؟ فقال عمرو بن جحاش : أنا لذلك . ثم صعد ليلقى بالحجر على الرسول وهو جالس في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي ، فأتى الرسول الخبر من السماء بما أراد القوم . فعاد الرسول الى المدينة من غير أن يعلم أحداً بذلك . فلما استبطأ أصحابه خرجوا يبحثون عنه ، فأخبرهم رجل أنه رآه داخل المدينة . فأقبلوا عليه يسألونه عن السبب ، فأخبرهم بما ألهمه الله من تأمر اليهود وأمره بالتهيو لحربهم . ثم سار اليهم فتحصنوا منه بأطامهم ، فحاصرهم ستة أيام ،

(١) كان بينهم وبين المسلمين حلف يقضى بالتعاون على دفع الدية الواجبة على أحد الفريقين .

(٢) وكانت هذه كنية الرسول .

وأمر بقطع النخيل وتحريقه . ثم ألقى الله في قلوبهم الرعب ، فسألوا الرسول أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن يأخذوا معهم ما تحمل الابل من المسال إلا الدروع . فأجابهم الرسول الى ذلك ، فخرجوا الى خيبر وسار بعضهم الى الشام . وكان من أشرفهم الذين ساروا الى خيبر سلام بن أبي الحقيق ، وكنانة ابن أخيه الربيع ، وحيي بن أخطب . فلما نزلوها دان لهم أهلها ^(١) .

غزوة الأحزاب أو الخندق (سنة ٥ هـ) :

لما أجلى الرسول يهود بني النضير عن ديارهم بالمدينة رحلوا الى خيبر وعزموا على الانتقام منه ومن أصحابه . ومن ثم ذهبوا يؤلبون عليه سائر العرب ويحزبون الأحزاب ضده . وكانت قريش قد خرجت من أحد منتصرة ، وخيل إليها أنها قد هزمت المسلمين أو محمداً ، ولم يبق إلا أن تشن عليه غارة أخرى فتقضى عليه نهائياً . يدل على ذلك صيحة أبي سفيان بن حرب : « إن موعدكم بدرٌ للعام المقبل » ^(٢) ولكن قريش لم يسعها الحظ في ذلك العام لوقوع الجذب بأرضهم والكساد بتجارهم . فلما جاءهم وفد اليهود ^(٣) واطمأنت قريش إلى نصرتهم وانضامهم إليها ، رأت قريش أنهم سوف يحيطون بمحمد داخل المدينة وخارجها ، كما رأوا في خروجهم محوا لما لحقهم من تهمة الجبن عن قتال محمد . وقد خرج الرسول إلى لقائهم في الموعد الذي ضربوه وأقام ثمانية أيام فلم يخرجوا إليه . لذلك نشطت قريش لما دُعيت إليه من حرب الرسول واعتبرتها فرصة سانحة .

فلما اطمأن اليهود إلى مناصرة قريش ، ذهبوا إلى غطفان من

تأليب اليهود الأحزاب
على المسلمين

آمال قريش

(١) ابن هشام ج ٣ ص ٥١

(٢) الطبري ج ٣ ص ٢٤

(٣) هم سلام بن أبي الحقيق النضري وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق النضري ، وحيي بن أخطب النضري في نفر من بني النضير ، وهودة بن قيس الوائلي ، وأبو عمار الوائلي في نفر من بني وائل

قَيْس عَيْلان فدعوههم إلى مثل مادعوا قريشا إليه ، ووعدوهم العون
وأخبروهم بانضمام قريش اليهم ، فقبلت غطفان ، وتمهأت الأحزاب
للخروج إلى المدينة . وكان قائد قريش أباسفيان بن حرب ، وقائد بني
مُرَّة من غطفان عَيْمَنَة بن حِصْن ، وقائد بني أشجع من غطفان أيضا
مِسْعَر بن رُخَيْلَة . فلما اتصل بالرسول ما عزم عليه المشركون حفر
الخنندق . وعمل الرسول بنفسه في الخندق « ترغيبا للمسلمين في الأجر ،
وعمل معه المسلمون فيه . فدأب فيه ودأبوا وعمل المسلمون فيه
حتى أحكموه ، وارتجزوا فيه برجل من المسلمين يقال له « جُعَيْل »
فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عَمْرًا ، فقالوا :

سَمَاء من بَعْدُ جُعَيْل عَمْرًا * وكان للبأس يوما ظَهْرًا
فاذا مروا بعمره قال رسول الله « عمر » ، واذا مروا بظهر
قال رسول الله « ظَهْرًا » . (١)

وكان الخندق شمالى المدينة لأن الجهات الأخرى كانت محصنة
بالجبال والنخيل والبيوت . وقد اختلف المؤرخون في مكان الخندق
وطوله . ويظهر لنا أنهم خطوه من الحرة الشرقية إلى الشمال ،
فالغرب ثم إلى الجنوب قليلا . وإذا صحت الرواية القائلة بأن الرسول
قد وكل إلى كل عشرة من المسلمين أن يحفروا قطعة من الخندق طولها
أربعون ذراعا ، فاننا نستطيع أن نستنتج أن طول الخندق قد بلغ اثني
عشر ألف ذراع على الأقل ، إذا فرضنا أنه لم يعمل في حفر هذا الخندق
إلا رجال الجيش الذى اتفقت الروايات على أنهم كانوا ثلاثة آلاف .
وفرغ المسلمون من حفر الخندق قبل وصول قريش على الرغم
من تسلل المنافقين وهربهم أثناء العمل دون استئذان الرسول .
« وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التى لا بد له

منها يذكر ذلك لرسول الله ويستأذن في الحقوق لحاجته ، فيأذن له .
 فاذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله رغبة في الخير واحتساباً
 له . فأنزل الله تعالى في أولئك النفر من المؤمنين (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ
 الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ
 يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ . إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ
 يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ . فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنْ لِمَنْ
 شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ) . ثم قال تعالى في المنافقين الذين كانوا
 يتسللون من العمل (لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ
 بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا . قَلِيلٌ حَذَرِ الَّذِينَ
 يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (١)
 أقبلت قريش ومن تبعها من أعراب كنانة وتهماة في عشرة
 آلاف ، ونزلوا في مجتمع الأسيال من رومة (٢) . وأقبلت غطفان
 ومن تبعهم من نجد فنزلوا بذي نقيص إلى جانب أحد . وخرج
 الرسول في ثلاثة آلاف وجعلوا ظهرهم إلى جبل سلع . وجعل
 الرسول النساء والأولاد في الآطام (الحصون) والخنساق بينهم
 وبين المشركين . (٣)

قدوم الأحزاب

وقد جاء حبي بن أخضب النضري إلى كعب بن أسد القرظي
 صاحب عقد بني قريظة ليرأوده على نقض ما بينه وبين الرسول من
 عهد ، فامتنع أولاً ثم انتهى إلى أن نقض بنو قريظة ما بينهم وبين
 المسلمين . فلما علم الرسول بذلك أرسل إليهم أربعة ، منهم سعد بن
 معاذ سيد الأوس ، وسعد بن عباد سيد الخزرج ليستيقنوا من هذا

نقض بني قريظة عهدهم
 مع الرسول

(١) سورة النور ٢٤ : ٦٢ — ٦٣
 (٢) بضم الراء وسكون الواو أرض بالمدينة بين الجرف (على بعد ثلاثة أميال شمالى المدينة)
 وزغابة . وفيها بئر رومة التى ابتاعها عثمان بن عفان وتصدق بها .
 (٣) تاريخ يعقوبى ج ٢ ص ٥٠ - ٥١

الخبر . فرأوا منهم الغدر ، فعادوا وأخبروا الرسول فقال : الله أكبر
أبشروا يامعشر المسلمين .

واشتد الخوف وعظم البلاء على المسلمين إذ ذاك ، وظهر نفاق
الكثيرين حتى قال مُعْتَب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف : كان محمد
يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه
أن يذهب إلى الغائط « (١) » وأقام الرسول وأقام المشركون عليه
قريبا من شهر لم يكن بينهم حرب الا المراماة بالنبل والحصار . فلما
اشتد الأمر على المسلمين بعث الرسول الى قائد غطفان يفاوضهما في
قبول ثلث غلة المدينة على أن يرجعا بمن معهما ، فقبلا . وكتب نص
المخالفة خلوا من أسماء الشهود ، اذ لم يتم الصلح ولم يكن إلا المروضة .
فتحدث الرسول الى سعد بن معاذ وسعد بن عباد سيدي الأوس
والخزرج وذكر لهما ما وصل اليه مع غطفان ، فلم يرضا الا أن يكون
أمرا من عند الله ، فأخبرهما الرسول بأن هذه فكرة عرضت له
للخروج من هذا المأزق الذي كان يحيط بالمدينة ، ثم أعطاهما الكتاب
ليمحوا ما به ففعلا ، وعاد الموقف إلى ما كان عليه من تبادل المناوشات
التي لم تأت بنتيجة حاسمة لأحد الطرفين .

مهمة الرسول
ونجاحه فيها

وكان الرسول في ذلك الوقت يدأب على مصابرة المسلمين الذين
اشتد بهم البلاء وزاد تأثير الجوع والبرد فيهم (٢) وفي مفاوضة
غطفان ابتغاء صرفهم عن قريش ليفت ذلك في عضدهم فيرجعوا هم

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٧٦ تاريخ يعقوب ج ٢ ص ٥١

(٢) قد بلغ من شدة وطأة الجوع على الرسول وعلى المسلمين أن كانوا يربطون الحجارة على
بطونهم . وقد ذكر أن الرسول كان يصلي في الليلة التي عادت فيها قريش في مرط (وهو ازار من
صوف أو خز) . وقد روى ابن هشام (ج ٣ ص ٨٤) أن حذيفة بن اليمان الذي بعثه الرسول
ليتعرف حالة الاحزاب قال : رجعت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قائم يصلي في مرط لبعض
نساءه مراجل (ضرب من وشى اليمن) . فلما رأى أدخلني الى رجله وطرح على طرف المرط .

أيضا . وأما قریش فقد ثقل عليهم الحصار وملوا الانتظار في البرد القارس والمطر الذي لم تغن عنهم خيامهم منه شيئا .

نعم بن مسعود يوقع بين الأحزاب

عند ذلك جاء الى الرسول نعيم بن مسعود مسلما ، وعرض عليه أن يكلفه بأى عمل ليقوم بنصيبه في جهاد المشركين وصر فهم عن المدينة ، فقال له : خذل عنا فان الحرب مكدعة . فذهب مسعود الى بنى قريظة وحذرهم إن هزمت قریش فنجت بنفسها وتركتهم تحت رحمة محمد ... ثم نصحهم ألا يطمئئوا إلا إذا أعطوهم رهائن من ساداتهم وأشرفهم . ثم ذهب إلى كل من قریش وغطفان وأوهمهم أن بنى قريظة قد ندموا على نقضهم عهد محمد ، واتفقوا معه على أن يخذعوا له قریشا وغطفان عن بعض ساداتهم فيأخذونهم على أنهم رهائن ويقدمونهم إلى محمد ليضرب أعناقهم . فاستعجلت قریش وعد قريظة لها ونصرتها . فكان في جوابهم عليهم ما يؤكد عزم بنى قريظة على الغدر بهم .

أسباب انتصار المسلمين

وقد فعلت هذه الواقعة فعلها في الأحزاب وتأكدت قریش وغطفان من غدر القرظيين بهم ، فعزموا على الرحيل . وكان للعوامل الطبيعية أيضا أكبر الأثر في ذلك ، إذ هبت ريح زعزع عاتية جعلت تكفأ قدورهم وتنزع خيامهم ، فأرغمتهم على الرحيل . (١)

وكان لطول أمد الحصار أسوأ الأثر في نفوس الأحزاب المتحالفة مع قریش ، مما جعل لفشلها ورجوعها تجر أذيال الخيبة وتندب الآمال التي كانت تحلم بها أثرا كبيرا في سرعة انتشار الاسلام بين قبائل العرب .

كما ظهرت في هذه الحرب مقدرة الرسول الحربية ومروته ، إذ أنفذ مشورة سلمان الفارسي بحفر الخندق ، وهو من الاستحكامات الحربية التي لم تعرفها العرب قبل ذلك ، حتى لقد دهشت قریش عندما

رأته وقال قائلهم : « والله إن هذه ملكيدة ما كانت العرب تكيدها » (١) كما تجلت حنكته السياسية في مساومة غطفان لزلزلتها (٢) عن موقعها الى جانب قريش ، ثم في التفريق والوقعة بين هذه الأحزاب وبين بنى قريظة . هذا الى ما أبداه الرسول من المهارة في مصابرة المسلمين وتشجيعهم على تحمل هذا الجوع والعُرى في تلك الأيام التي عصفت الطبيعة بمعسكر قريش واضطرتهم الى الجلاء .

عاد الرسول من جبل سلع بعد رحيل قريش ، فوصل الى المدينة ظهرا . فدخل بيت عائشة ثم خرج ، وأمر بلالا أن يؤذن : من كان سميعا مطيعا ، فلا يصلين العصر إلا ببنى قريظة . فتلاحق المسلمون وخرج على الراية — وكانت على حالها لم تنطو بعد . ولا غرو فقد أحفظ قلوبهم وملاها حقدا وموجدة على بنى قريظة نقضهم العهد وبمالة الأعداء عليهم حتى (زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ) (٣)

فلما رأى بنو قريظة جيش المسلمين خارت قواهم وأيقنوا بالهلاك ، فتهربوا مما ارتكبوه من الغدر ، وسألوا الرسول العفو ، فأبى ذلك عليهم وشدد الحصار خمسة وعشرين يوما ، حتى نزلوا على حكمه وسألوا حلفاءهم الأوس أن يتوسطوا في إطلاقهم ، كما توسط الخزرج في إطلاق حلفائهم من بنى قينقاع . فتوائبت الأوس وقالوا : يا رسول الله ! إنهم كانوا موالينا ... فقال لهم رسول الله : أَلَا تَرْضَوْنَ يَامَعْشَرَ

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٧٨

(٢) لما فاض غطفان وأطمعهم في تلك غلة المدينة ثم عدل عن ذلك ورفضه ، توهمت غطفان أن مركزه قد تحسن ، وأنه مقبل على حرب الأحزاب واجلائهم . وبما زاد هذا الوهم تأكد غطفان من عدول بنى قريظة عن مناصرة الأحزاب وعزمها على تقديم سادات قريش وغطفان الى الرسول ليقتلهم .

(٣) سورة الأحزاب .

الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا بلى . قال فذاك الى سعد بن معاذ (١)

فلما جرى بسعد قاموا اليه فقالوا : يا أبا عمرو ! إن رسول الله قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم . فأخذ سعد عهد الله وميثاقه على الفريقين أن الحكم فيهم لما حكم ؛ فأجابوه وأجابهم الرسول : أن نعم ! قال سعد : فاني أحكم بأن تقتل الرجال وتقسّم الأموال وتسي الذراري والنساء . فقال له رسول الله : لقد حكمت فيهم بحكم الله . ثم حُفرت لهم الخنادق وضربت أعناقهم جميعا وكانوا نحواً من سبعائة . ولم يُقتل من نساءهم إلا امرأة واحدة تسمى بُنانة زوجة الحكم القرظي (٢) لقتلها خلاّد بن سويد برحى طرحتها عليه فمات ، فقتلها الرسول في خلاّد .

وقد قسم الرسول أموال بني قريظة وسباياهم بعد أن عزل الخنس (لله وللرسول) ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل .

غزوة بني المصطلق أو المريسيع (سنة ٦هـ) :

بلغ الرسول أن بني المصطلق من خزاعة (من حلفاء بني مُدَلج) قد عولوا على حربه بزعماء الحرث بن أبي ضرار أبي جويرية بنت الحرث زوج الرسول . فلما سمع الرسول بذلك خرج اليهم حتى لقيهم على ماء لهم يقال له المريسيع قرب قديد . وحلت الهزيمة ببني المصطلق وأسر المسلمون كثيراً من نساءهم وإبلهم .

وكان لهذه الغزوة أهمية كبرى في تاريخ الإسلام ، لوقوع النزاع

(١) روى ابن هشام (ج ٣ ص ١٩٠) أن علي بن أبي طالب صاح وهم على حصار بني قريظة : يا كتيبة الايمان . وتقدم هو والزبير بن العوام وقال : والله لا ذوقن ماذا حزة أو لا فتحن حصنهم ، فقالوا : يا محمد ! تنزل على حكم سعد بن معاذ .

(٢) الطبري ج ٣ ص ٥٩

بين المهاجرين والأنصار وقوعا كاد يؤدي إلى انفصام عرى الوحدة بين المسلمين ، وزواج الرسول بامرأة من بني المصطلق وهي جويرة بنت الحرث سيد بني المصطلق ، ثم لوقوع حادث الإفك الذي كدّر حياة عائشة أياما وأرجف به المبطلون ورموها في أعز شيء لديها .

تنازع سنان بن دبر الجهني حليف بني سالم من الأنصار بعد انتهاء موقعة المريسيع مع جهمجاه بن مسعود الغفاري ، فضربه هذا بيده ، فنادى سنان يا للأنصار ! ونادى جهمجاه يا لقريش ! يا لـكـنـانة ! وشهر المهاجرون والأنصار السلاح كل في وجه الآخر وكادوا يقتتلون لولا أن تداركهم الرسول وقال « ما بال دعوى الجاهلية ! دعوا هذه الكلمة فانها فتنة » . وسرعان ما سكنت الفتنة .

وكان عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين يحقد على الرسول ، إذ كان يطمع في سيادة يثرب قبل هجرة الرسول إليها ، وكاد يلبس التاج أو إشارة السيادة . فأحفظه ذلك وعبر عما كان يجيش في نفسه من حقد على الرسول وكراهة للإسلام والمسلمين ، وحضّ قومه على طرد المهاجرين وعود الحال إلى ما كانت عليه قبل الهجرة ؛ فقال أو قد فعلوها ؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا ، والله ما عدونا وجلايب قريش ما قال القائل « سمنّ كلبك يا كلك » . أما والله لئن رجعتنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » . وسمع بذلك الرسول ، وأشار عليه عمر بقتل عبد الله بن أبي ، فنهأ وقال : كيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؟

وكان الرسول عليه السلام سياسياً ماهراً . فقد رأى يبعد نظره أن يشغل جنده ليصر فهم عن التحدث في هذا الأمر . فاذا أخذ منهم التعب ناموا ولم يجدوا فرصة للحديث . حتى إذا ما أخذ الرسول في السير لقيه أسيد بن حضير خياه بتحية النبوة وسأله عن سبب خروجه وقت الظهيرة فأخبره الخبر فقال : يا رسول الله ! أرفق به فوالله لقد

النزاع بين المهاجرين والأنصار

علاج الرسول للموقف

جاءنا الله بك وإن قومَه لينظمون له الخرز ليتوجوه ، فانه ليرى أنك قد استلبته ملكا . وكان من أثر تدخل عبد الله بن عبد الله بن أبي في أمر أبيه والالحاح عليه في الذهاب إلى الرسول أثر في اصلاح ذات البين بينه وبين الرسول .

كان من بين سبايا بني المصطلق جويرية بنت الحرث سيدة القوم ، وكانت قد وقعت من نصيب ثابت بن قيس . فشق ذلك على نفسها واتفقت معه على أن تتحرر بطريق المكاتبه (١) . فلما جاءت الى الرسول تطلب منه العون على الحصول على هذا المال ، رأى أن من الحكمة أن يتألفها بما ينزع من قلبها الحقد على الاسلام . فقدم اليها المال وعرض عليها التزوج منها وتزوجها . وكان الرسول بعيد النظر . فقد كانت بنت سيد قد مات أبوها بسيف الاسلام ، فخشى الرسول أن يجتمع حولها فلول أبيها فتكون بابا من أبواب الشر على المسلمين . وكان من أثر ذلك أن أعقق كل مسلم من كانت بيده من أهل بيتها استعظاما لأن يسترقوا أصهار الرسول . (٢)

زواج الرسول من
جويرية بنت الحرث

كانت عائشة مع الرسول في هذه الغزوة . ولما كانوا بالقرب من المدينة أثناء عودتهم حدثت حادثة الأفك (٣) . وقد وجد دعاة السوء من المنافقين من صدق قولهم من المسلمين ، ولكن الله سبحانه وتعالى قد برأها وجعل احصائها قرآنا يتلى (٤) .

حادثة الافك

(١) المكاتبه هي أن يتفق الرقيق مع مولاه على مبلغ معين من المال في أجل محدد ، يقدمه اليه فيصبح حرا . ويصير للعبد أثناء هذه المدة الحق في المتاجرة وما تستلزمه من تصرفات كالبيع والشراء وغيرهما مما لا يصبغ له مباشرته لولا ابرام هذا العقد . فاذا أدى العبد المال المنفق عليه صار حرا ، واذا عجز عن أدائه في الموعد المحدد عاد كما كان ، ومولاه كل ما جمعه من مال .

(٢) ابن سعد ج ٢ ص ٢٥ ، الطبري ج ٣ ص ٦٣ - ٦٦

(٣) الافك الكذب والافتراء .

(٤) راجع حديث الافك في فتح الباري شرح صحيح البخاري ج ٨ ص ٣٤٣ ، الطبري

ج ٣ ص ٦٧ - ٧١

الهدنة مع قريش (سنة ٥٦ هـ) :

وفي السنة السادسة للهجرة خرج الرسول للعمرة ^(١) في ألف وأربعمائة من المسلمين ^(٢)؛ فوقف القرشيون في طريقه على مقربة من مكة يمنعون من دخولها. فندب الرسول عثمان بن عفان للذهاب إلى قريش لمكانته فيهم، واستطلاع أنبأهم وتعرف السبب في منعهم المسلمين من أن يَطُوفُوا ببیت الله ويُعَظِّمُوهُ. فحجزت قريش عثمان عندها، وشاع بين المسلمين أنه قتل. عندئذ تأهب الرسول لقتال قريش وبايعه من كان معه من المسلمين على حربها. وتسمى هذه البيعة بيعة الرضوان ^(٣). ولما علمت قريش بأمر هذه البيعة أسقط في يدها، وأرسلت البعوث إلى الرسول تُبَارِضُهُ في العدول عن دخول مكة هذا العام. فلما رأت قريش أن تلك البعوث لم تنجح أرسلت إلى الرسول وفدا على رأسه سهيل بن عمرو خطيبهم المفوّء؛ فقال للرسول « يا محمد ! ما كان من حبس عثمان ومن معه، وما كان من قتال من قاتلك، فإنه ليس من رأى عقلائنا، بل شيء قام به السفهاء، فابعث إلينا من أسرت ». فقال الرسول « حتى ترسلوا من عنديكم »؛ فأرسلت قريش عثمان ومن معه وأمر الرسول باطلاق مَنْ في يد المسلمين من أسرى قريش.

بيعة الرضوان

(١) وهي زيارة البيت الحرام في غير موعد الحج.

(٢) تسكد تجمع روايات الطبري على أن عدد المسلمين كان ألفا وأربعمائة. ولم يخالف ذلك إلا رواية واحدة، إذ تقول ان عددهم كان سبعمائة. وقد فصل الطبري اختلاف الروايات في اسلام خالد بن الوليد وهل كان اذ ذاك في جيش المسلمين أو أنه كان لا يزال على الشرك أو أنه كان على خيل المسلمين (ج ٣ ص ٧٢)

(٣) وقد نوه الله بشأن هذه البيعة في قوله تعالى (لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة . فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزير حكما) ، كما عظم شأن هذه البيعة عند المسلمين . فلما ولي عمر الخلافة ، خشى أن يقدس المسلمون الشجرة التي عقدت تحتها هذه البيعة ، فقطعا لئلا يفتن بها الناس . ومن هذه الآية سميت هذه البيعة بيعة الرضوان .

وتم الاتفاق بين الرسول وسهيل على :

- ١ — أن تضع الحرب أوزارها بين الفريقين عشر سنين
- ٢ — أن يرد الرسول من يأتيه من قريش مسلما بدون إذن وليه

- ٣ — لا تلزم قريش برد من يأتي إليها من عند محمد
- ٤ — أن من أحبَّ الدخولَ في عقد قريش وعهدا فله ذلك ؛ ومن أراد أن يدخل في عهد محمد من غير قريش دخل فيه

٥ — أن يرجع الرسول هذا العام من غير عُمرة ، على أن يأتي في العام التالي فيدخل مع أصحابه مكة بعد أن تخرج منها قريش ، ويقيم بها ثلاثة أيام وليس معهم من السلاح إلا السيوف بالقرْب^(١) .

وقد عز على المسلمين أن يعودوا إلى المدينة من غير أن يعتمروا على الأقل ، وقد كانوا واثقين من وعد الله إياهم فتح مكة في رؤيا رآها الرسول . وكاد الشيطان ينزع بين المسلمين في هذه المرة لولا حكمة أم سلمة زوجة الرسول وبعد نظرها . فقد ذكر الطبري أن الرسول — بعد أن فرغ من صلح الحديبية — « قال لأصحابه : قوموا فانحروا ثم حلقوا . فلم يقم منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات . فلما لم يقم منهم أحد ، قام فدخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس ، وما كان من مخالفتهم أمره . فقالت : يا بني الله ! أتحب ذلك ؟ اخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بدتك وتدعو حالك فيحلقك . فقام فخرج ، فلم يكلم أحدا منهم كلمة حتى نحر بدته ودعا حالقه فحلقه . فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما » . (٢)

تذمر المسلمين من
هذه الشروط

كما عز عليهم أن يسلموا برد من يلجأ اليهم من قریش إليها ، على حين أن قریشاً لم تلتزم لهم بمثل ذلك .

ولقد ذاقوا ما في ذلك من ذلة واستسلام عند تطبيق ذلك الشرط لأول مرة ؛ إذ ما لبثوا أن وجدوا أبا جندل بن سهيل بن عمرو قادمًا عليهم يرُسِفُ في أغلاله الحديدية ، ويستغيث بهم من ظلم قریش وعسفها ؛ فلما رآه أبوه (سهيل بن عمرو) التفت إلى الرسول وطلب إليه تنفيذ شروط الصلح ، فقد لَجَّتْ (١) القضية بينه وبين الرسول ؛ فأجابه الرسول إلى ما أراد ورَدَّ أبا جندل إلى قریش وهو يصيح مستنجدًا والرسول يقول له : « يا أبا جندل ! أصبر واحتسب فإن الله عاجلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا . إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحًا وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله لا نخذُرُ به (٢) »

(١) يقصد أن الصلح قد أبرم .

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ١٦٠

وقد وفي الرسول بهذا الشرط الذي شرطه لقریش حتى بعد قدومه إلى المدينة . فقد اتاه أبو بصير عتبة بن أسيد . وكان ممن حبس بمكة . فلما قدم على الرسول كتب فيه أزهر بن عبد عوف بن الحارث بن زهرة ، والآنس بن شريق الثقفي إلى رسول الله ، وبعثا إليه رجلا من بني عامر بن لؤي ومعه مولى لهم ، فقدموا على رسول الله بكتاب الأزهر والآنس ، فقال رسول الله « يا أبا بصير ! إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا . فانطلق إلى قومك » . قال : يا رسول الله ! أتردني إلى المشركين يفتنونني في ديني ؟ قال : يا أبا بصير ! انطلق فإن الله سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا . فانطلق معها . حتى إذا كان بذى الحليفة جلس إلى جدار وجلس معه صاحباه . فقال أبو بصير : اصبرم سيفك هذا يا أخا بني عامر ؟ فقال : نعم ! قال : أنظر إليه ؟ قال : انظر إن شئت . فاستله أبو بصير ثم علاه به حتى قتله وخرج المولى سريعًا حتى أتى رسول الله وهو جالس في المسجد ، فلما رآه الرسول قال ويحك ! مالك ؟ قال : قتل صاحبكم صاحبني . فو الله ما برح حتى طلع أبو بصير متوشحًا بالسيف حتى وقف على رسول الله . فقال : يا رسول الله ! قد وقت ذمتك وأدى الله عنك . أسلمتني بيد القوم وقد امتنعت بديني أن أقتن فيه أو بيعت بي : فقال رسول الله : ويل أمه محش حرب (موقد لافطن بها) لو كان معه رجال . ثم خرج أبو بصير حتى نزل العيص من ناحية ذى المروة على ساحل البحر بطريق قریش

أمر هذا التذمر في نفوس المسلمين

وقد ثارت نفوس المسلمين ، واستزل بعضهم الشيطان وأخذوا يتساءلون فيما بينهم . على أن أحدا لم يجرؤ على مفاتحة الرسول في شأن ذلك الصلح ، حتى قام عمر ، وقد طوعت له جرأته أن يسأل الرسول وقال له : «ألست رسول الله ؟ قال : بلى ! قال : أو لسانا بالمسلمين ؟ قال بلى ! قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى ! قال : فعلام نعطى الدين في ديننا ؟»

غير أن الرسول عاج هذه الفورة بحكمته وسداده ، فأجابه بقوله : «أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني»^(١) . ثم عاتب الشاكين من أصحابه عتاباً خفيفاً وتوجه إلى المدينة . وشرع في استغلال هذه الهدنة لبث الدعوة وتبليغ الرسالة والعمل على تنظيم شؤون المدينة الداخلية . وقد عدا الزهري هذا الصلح فتحاً عظيماً للإسلام إذ يقول : «فما فتتح في الإسلام فتحٌ قبله أعظم منه . . . فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها وأمن الناس كلهم بعضهم بعضاً ، فالتقوا وتفاوضوا في الحديث والمنازعة ، فلم يكلم أحدٌ بالاسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه . فلقد دخل في تينين السنتين في الاسلام مثل ما كان في الاسلام قبل ذلك وأكثر»^(٢) .

موقف اليهود من المسلمين :

نشبت النضال بين اليهود والمسلمين منذ رحل النبي إلى المدينة واتخذها مركزاً للنشر دعوته . وقد رأوا في محمد وفي دينه منافساً جديداً^(٣)

اسباب كراهة اليهود للمسلمين

التي كانوا يأخذون عليها إلى الشام . وبلغ المسامين الذين حبسوا بمكة قول رسول الله لأبي بصير (ويل أمة . . الخ) . فخرجوا إلى أبي بصير باليعص ، فاجتمع إليه منهم قريب من سبعين رجلاً وكانوا قد ضيقوا على قريش لا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه ، ولا يمر بهم غير إلا اقتطعوا ، حتى كتبت قريش إلى الرسول تسأله بأرحامها إلا آواهم فلا حاجة لهم بهم . فأواهم رسول الله فقدموا عليه المدينة . ابن هشام ج ٣ ص ١٦٤—١٦٦

(١) الطبري ج ٣ ص ٧٩ (٢) الطبري ج ٣ ص ٨١

(٣) كان اليهود والنصارى في بلاد العرب يتنازعون النفوذ الأدبي في الجزيرة ، ويتنافسون في كسب احترام العرب وفي الدعاية بينهم كل لدينه .

يوشك أن يقضى على نفوذهم ونفوذ النصارى جميعا وأن ينتزع من الفريقين لواء الزعامة الدينية الذى يتجاذبونه ، فقد كان من صميم العرب ومن أكرم بيوتات قريش ؛ فهو لذلك أقرب الى نفوس العرب الذين يبغضون اليهود ويضيقون ذرعا بافتخارهم عليهم بالعلم وإذلالهم بالتوراة وكتب بنى اسرائيل . لذلك كان أهل المدينة أسرع الى قبول دعوة محمد بن عبد الله والانضواء تحت لواء ذلك النبى العربى الذى كان اليهود يستفتحون به عليهم (١) .

وكان اليهود يكرهون محمدا وينظرون إليه وإلى دعوته بعين الخوف من أول يوم طلع عليهم فى أفق يثرب . ثم ازداد خوفهم منه وظهر حسدهم له عند ما رأوا الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ، فأخذوا يكيدون للإسلام والمسلمين بالدس والارجاف ثم بالمرء والجدل فيما يعلمون وما لا يعلمون . وإذا سئلوا عن شيء مما فى كتبهم حرّفوا الكلم عن مواضعه ، وألبسوا الحق بالباطل ليكسبوا ولاء المشركين بالغض من شأن الاسلام لاسبب سوى كراهيتهم للرسول لما اختصه الله به من الرسالة . وقد نعى الله عليهم ذلك بقوله (يَتَّبِعُوا مَا نَزَّلْنَا بِهِ أَنْفُسُكُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) (٢) . وكانوا يسعون فى دين الله معاجزين لكى يفتنوا الناس عن دينهم ويوهنوا عقائدهم بالشبه والأباطيل . وفى ذلك يقول الله تعالى (وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ

(١) كان اليهود يستصرون على المشركين فى الجاهلية ويقولون اللهم انصرنا بنى آخر الزمان . وإذا سألهم العرب قالوا ان نبيا قد قرب زمانه وسيكون لمن اتبعه العز والنصر الى يوم القيامة ، ويتوعدون العرب باتباعه والاستنصار به عليهم .

(٢) سورة البقرة ٢ : ٩٠

بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ
الْحَقُّ (١)

مصاهرة الرسول لليهود كل ذلك والنبي يُصَابرهم ويصبر عليهم (٢) ويغض الطرف عن نفاق من نافق منهم، وَيُسَوِّى بينهم وبين المسلمين في المصالح ويحترم شعائرهم. وقد وفي لهم بعهودهم مكتفيا بعقاب الأشخاص الذين كانوا يخالفون عهوده ولم يأخذ البرىء منهم بجرم المسىء، كما فعل بكعب بن الأشرف وسَلَّام بن أبي الحقيق. فقد اكتفى بقتلها دون أن يتعرض لجماعة اليهود.

ومع ذلك فقد كان يرفق باليهود إذا نقضوا عهده أو حاربهم فانتصر عليهم؛ فكان لا يعاقبهم إلا بمقدار ما يكف أيديهم عنه؛ وكان يُحَكِّمُ فيهم من يختارونه بأنفسهم (٣)

وصفوة القول أن معاملة الرسول إياهم كانت أيسر وأخف من معاملته قريشا وغيرها.

ولما رأى اليهود جماعة المسلمين تتكاثر والاسلام ينتشر ويفتح الله لقبوله قلوب العرب، وأن جميع مصالح اليهود - القائمة على ارسنقراطية دينية فرضوها على العرب بقولهم إنهم شعب الله المختار وأبناء الله وأحباؤه - أصبحت مهددة باستقرار الأمر لهؤلاء العرب الأميمين،

كيد اليهود للاسلام

(١) سورة البقرة ٢ : ١٠٩

(٢) فقد أمر الله تعالى بالغفر عنهم والصفح حتى يأتي أمر الله . قال تعالى (ود كثير من اهل الكتاب لو يردونكم فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره ان الله على كل شئ قدير) .
(٣) قيل إنه لما أخضع الرسول بنى قينقاع مشى اليه فيهم عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي وجماعة من الخزرج - وكانوا حلفاء بنى قينقاع في الجاهلية فوجههم الرسول لهم - وفي بنى النضير بعد أن قهرهم النبي وأصبحوا في قبضة يده وسألوه أن يحلهم ويكف عن دماهم ، على أن لهم ما حملت الابل من أموالهم فأجابهم الى ما طلبوا وهم الذين دبروا قتله بالقاء حجر عليه . فكان الرجل منهم يهدم بيته ويخلع بابه فيحمله مع ماله قبل أن يخرج . وقد حكم الرسول في بنى قريظة سعد بن معاذ وهو سيد الاوس حلفائهم في الجاهلية والذي اختاروه بأنفسهم .

أيقنوا ألاّ سبيل للمحافظة على هذه المصالح وضمان اطمئنانهم في الجزيرة إلا بالقضاء على محمد وأتباعه .

لذلك ما فتئوا يكيدون للإسلام والمسلمين بكافة الطرق، وينتهزون الفرص لمحاولة قتل الرسول تارة وتآليب سائر العرب على المسلمين تارة أخرى ، وتحزيب الأحزاب ضدهم ثم خيانة عهود المسلمين ونقضها في أخرج الأوقات ، وبمالة الأعداء عليهم ليستأصلوا شأقتهم ويبيدوهم عن آخرهم .

تأهب اليهود للاغارة
على يثرب

فلما فشلت كل هذه المحاولات وأخفق العرب في القضاء على محمد ، جمع اليهود شملهم وتحزّبوا أحزاباً وقاموا بأنفسهم للاغارة على المدينة ليدهموا المسلمين فيها . فسعى بذلك يهود خيبر الى بنى عمهم في تيماء وقدك ووادي القرى . ولا غرو فإن في خير أشراف بنى النضير الذين ساروا إليها بأموالهم ودانت لهم خير وأصبحت بيدهم دفة الأمور فيها (١) . فلما علم الرسول بتأهب اليهود للاغارة على يثرب والقضاء على الاسلام في معقله ، عاجلهم وسار إلى خير معقده هذا الحلف وصاحبة الزعامة فيه ، والرأس المدبرة له المهمة عليه . فمضى عليها ليتفرغ لأداء الرسالة وتبليغ دين الله الى خلقه .

المستشرقون وغزو
اليهود

ولعل فيما أوردناه عن موقف اليهود حيال الرسول وعدائهم لدعوته ومكائدهم التي دبروها ضده ما يدحض أقوال بعض ذوي الأغراض من المستشرقين الذين دفعهم حقدهم على الاسلام إلى القول بأن الغرض الأول من إغارة المسلمين على اليهود إنما هو

(١) سبق أن روينا عن ابن هشام (في غزوة بنى النضير) أن أشراف بنى النضير خرجوا الى خير بما حملت الابل من اموالهم ، ومنهم من سار الى الشام فكان من أشرافهم الذين ساروا الى خير سلام بن أبي الحقيق وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وحبي بن اخطب ، فلما نزلوها دان لهم أهلها .

الحصول على الغنائم . من ذلك ما يقوله مرجوليوث : (١)

« وقد عاش محمد هذه السنين الست بعد هجرته إلى المدينة على التلصص والسلب والنهب . ولكن نهب أهل مكة قد يبرره طرده من بلده ومسقط رأسه وضياع أملاكه . وكذلك بالنسبة إلى القبائل اليهودية في المدينة . فقد كان هناك على أى حال سبب ما - حقيقيا كان أو مصطنعا - يدعو إلى انتقامه منهم . إلا أن خيبر ، التي تبعد عن المدينة كل هذا البعد ، لم يرتكب أهلها في حقهم ولا في حق أتباعه خطأ يعتبر تعديا منهم جميعا - لأن قتل أحدهم رسول محمد لا يصح أن يكون سببا يتذرع به للانتقام »

ولم يطمئن مرجوليوث إلى ما رواه الواقدي من أن الرسول قد وصل إلى علمه أن يهود خيبر يعدون العدة لشن الغارة على المدينة . ثم ينتهى مرجوليوث من ذلك كله إلى أن المسلمين إنما غزوا خيبر للحصول على ما فيها من الغنائم ، وأن الحجة التي تذرعوها بها ، وهي أن أهلها لم يكونوا على الاسلام ، ينطوى تحتها شن الغارة على العالم خارج المدينة ، وإلى أن الرسول قد غير سياسته مع اليهود ومع المشركين حيث يقول : « وهذا يبين لنا ذلك التطور العظيم الذى طرأ على سياسة الرسول منذ أيامه الأولى في المدينة عند ما أعلن معاملة اليهود كمعاملة المسلمين ، وأن يترك الوثنيين لا يتعرض لهم بسوء ، طالما كانوا بعيدين عن إظهار عداوتهم للمسلمين . أما الآن فإن مجرد القول بأن جماعة ما ، مشركة أو يهودية أو غير مسلمة ، يعتبر كافيا لشن الغارة عليها . وهذا يفسر لنا تلك الشهرة التي سيطرت على نفس محمد ، والتي دفعته إلى شن غارات متتابعة ، كما سيطرت على نفس الاسكندر من قبله ونابليون من بعده » .

وهذا يبين لنا السبب الذي حدا بمرجوليوت إلى أن يقول :
« إن استيلاء محمد على خير يبين لنا إلى أي حد قد أصبح الاسلام
خطرا يهدد العالم » (١)

وإننا لنعجب لهذا الأسلوب والمذهب الذي يذهب إليه مرجوليوت مناقشة رأي مرجوليوت
ومن نحائجه في قراءة التاريخ . فإذا حدثه التاريخ بأن الرسول قد أتى
بعين « جاسوس » أقر لهم بأنه بعث إلى خير يعرض عليهم معونة
فدك ونصرتها على أن يجعلوا لهم ثمر خير ! أو قال له إن الذي قبض
على هذا العين إنما هو علي بن أبي طالب الذي ذهب إلى فدك لما علم
الرسول أن لهم جمعا يريدون أن يمدوا يهود خير ، شك مرجوليوت
في صدق التاريخ وأمانته ، لأن صدق التاريخ في هذه الحالة يدحض
دعواه ويصد هجماته على الرسول والمسلمين .

وإذا روى التاريخ بكل غزوة أسبابها الملقبة التي كان يصح أن
تدعو الرسول وتحمله على أنواع من العقاب أقسى مما كان يفعل ،
وروى إلى جانب هذه الغزوات حرص الرسول على الوفاء بعهوده
ودفعه الديات لمن قتلهم أتباعه خطأ ، وعفوه عن كل معتد إذا أتاه
مسلم (٢) - إذا حدثه التاريخ بكل ذلك أصم أذنيه وادعى أن الرسول
قد غير سياسته التي أعلنها في أيامه الأولى بالمدينة .

أما دعواه بأن المسلمين ما هاجموا خير إلا رغبة في الحصول على
أموالها ، فاعل في خروج المسلمين الأولين بمكة عن أموالهم وتحملهم
ألوان الفتنة وآلام العزلة ، ثم الاغتراب والهجرة ، ولعل في إيواء
الأنصار إخوانهم المهاجرين وقسمتهم ثرواتهم عليهم (وَيُؤْتِرُونَ عَلَى

Ibid, pp. 362—263

(١)

(٢) من ذلك عفوه عن وحشي قاتل عمه حمزة ورفاعة بن سمؤال القرظي (ابن هشام ج ٣

ص ٩٦) ، وهند بنت عتبة التي لاكت كبد حمزة ومثلت به ، وعن مالك بن عوف صاحب
هوازن الذي قتل في المسلمين وخدمهم في عمارة الصبح (ابن هشام ج ٣ ص ٣١٠) .

أَنْفُسِهِمْ وَتَوَلَّوْا كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) ، ولعل في الآلام التي تحملوها والفقر والجوع والهول والفرع التي ذاقوا مرارتها في غزوة الأحزاب وفي غيرها — لعل في ذلك كله ما يدحض تلك الضربة التي رمى بها مرجوليوث المسلمين .

غزوة خيبر (١) (سنة ٥٧ هـ) :

لما أراح الله عن المدينة خطر الأحزاب من قريش ومن والاهم ، حول الرسول اهتمامه إلى اليهود ليؤدبهم على نقضهم العهود وتحالفهم مع أعدائه من مشركي مكة وغطفان . فابتدأ ببنى قريظة الذين خذلوه ونقضوا عهده ، ثم أمضى شطرا كبيرا من السنة السادسة في محاربة يهود وادي القرى وفدك ، وأخذ يعد العدة لغزو خيبر التي آوى إليها سادة بني النضير وأشرفهم ، وأخذوا يعقدون المحادثات ويفاضون يهود فدك على نصرتهم ، على أن يكون لهم ثمر خيبر (٢) ؛ كما أرسل زيد بن حارثة في رجب من هذه السنة في غزوة إلى وادي القرى ، فجرح فيها وقتل كل أصحابه ، فنذر أن يعيد الكرة عليهم إذا شفي من جراحه . فعاد إليهم في رمضان من هذه السنة .

فتح خيبر

فلما عاد الرسول من العُمرة في شهر ذي الحجة سنة ٦ ، أقام بالمدينة أياما ، ثم سار إلى خيبر (المحرم سنة ٥٧ هـ) (٣) ، فوصل إلى وادي الرّجيع (٤) في الليل (٥) ، وأناخ بها . فلما أصبح ركب إلى خيبر

(١) وتقع على طريق الشام على مسيرة خمسة أيام من المدينة - راجع هذا اللفظ في معجم البلدان لياقوت . (٢) الطبري ج ٣ ص ٨٣

(٣) كان دليل الرسول حسيل بن نوير الأشجعي (الطبري ج ٣ ص ٩٣)

(٤) وهو غير وادي الرجيع القريب من الطائف الذي يسكنه بنو الرجيع الذين عدوا على المسلمين في غزوة بني الرجيع . قال ياقوت في معجمه : « وهذا غير الأول ، لأن ذلك قرب الطائف . وخبير من ناحية الشام على خمسة أيام من المدينة ، فيكون بين الرجيعين أكثر من خمسة عشرة يوما » (٥) روى الترمذي في جامعه (ص ١٩٨) عن مالك بن أنس عن حميد عن أنس أن

دون أن يحس أهلها ، حتى بلغها والعمال قد خرجوا بمساحيهم ومكاتلهم^(١) . فلما رأوه رجعوا هاربين إلى حصونهم . فلما همت غطفان بنصرة خير وجدوا الرسول قد نزل بوادي الرجيع بينهم وبين خير ليحول دون مساعدتهم إياهم^(٢) ، فرجعت . وأخذ الرسول في مهاجمة الآطام^(٣) ، فاستولى على حصن ناعم^(٤) ثم حصن القموس وهو حصن ابن أبي الحقيق . وقد امتنع على المسلمين حصن الصعب ابن معاذ مدة حتى جهدوا من طول الحصار ونفذ ما عندهم .

وقد جاء إلى الرسول جماعة^(٥) يسألونه بعض القوات ، فلم يجدوا عنده شيئا ، فدعاهم . ثم غدا الجيش في ذلك اليوم ففتح الله عليهم حصن الصَّعْب بن معاذ ، وكان أكثر الحصون طعاما . فتحسن مركز المسلمين وقوا على الحصار والمهاجمة . ثم تداعيت بقية الحصون إلا حصني الوطيح والثلاثاء . فقد اعتصم بهما اليهود ودافعوا عنهما ، حتى قطع النبي عنهما الماء وأيقنوا بالهلاك ، فسألوه أن يسيرهم ويحقن دماءهم ، ففعل . ثم سألوه أن يبقوهم على الأرض يزرعونها ، لأنهم أعلم بها وأعمرها .

رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج إلى خير . أنهاها ليل . وكان إذا جاء قوما بليل لم يفر عليهم حتى يصبح .

(١) المسحاة أداة من أدوات الزراعة لجرف الطين . والمكاتل جمع مكاتل كبير وهو زنبيل يسع خمسة عشر صاعا

(٢) يقول ابن هشام (ج ٣ ص ١٧١) أن غطفان لما سمعت بمزول رسول الله من خير جمعوا له ثم خرجوا ليظهروا يهود عليه ، حتى إذا ساروا منقلة (مرحلة) سمعوا خلفهم في أموالهم وأهلهم حسا ، فظنوا أن القوم قد عاقلوا إليهم (يعني أنهم خشوا أن يكون الرسول قد عدل عن غزو خير إلى غزو غطفان نفسه) فرجعوا إلى أعقابهم ، فأقاموا في أهلهم وأموالهم وخلوا بين رسول الله وبين خير

(٣) الحصون

(٤) وقد قتل محمود بن سبلة عند مهاجمة هذا الحصن حيث ألقى اليهود عليه رحي فقتلته .

(٥) وهم بنو سهم من أسلم . وقد بلغت الحال في جيش المسلمين أن اضطروا إلى أكل الخمر الأهلية ، فنهاهم الرسول عن ذلك ، وأجار لهم لحم الخيل

على أن يكون لهم نصف ما تغله الأرض ويؤتيه النخل - فأجابهم الرسول إلى ذلك وقال لهم : « على إنا إذا شئنا أخرجناكم » .

فلما سمعت فدك بغزو خيبر ، وبما رضى النبي لهم به بعد الحرب صالحوه على مثل ذلك (١) بدون حرب ولا قتال وكذلك صنع يهود يثيما إلا وادى القرى فقد استمسكوا وأبوا حتى هاجهم الرسول واضطروهم إلى التسليم .

غزوة مؤتة (٢) (سنة ٨ هـ) :

لما أرسل الرسول إلى الغساسنة يدعوهم إلى الاسلام قتلوا رسول النبي ؛ فأنفذ إليهم الرسول في السنة الثامنة جيشا عدده ثلاثة آلاف بقيادة مولاه زيد بن حارثة . فلقيته جموع هرقل من الروم والعرب عند قرية مؤتة ؛ فقاتل زيد حتى قتل ، فتولى القيادة بعده عبد الله بن أبي رواحة ثم جعفر بن أبي طالب ، فقتلا . فاختار المسلمون خالد بن الوليد لقيادتهم ، فقاتل قتالا شديدا ومازال يدافع الروم حتى ردهم على أعقابهم على الرغم من كثرة عددهم . ثم عاد بجيش المسلمين إلى المدينة . وقد نزل الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم يخبر من استشهد من القواد في هذه الغزوة ، فصعد المنبر وخطب المسلمين خطبة أخبرهم فيها بقتل زيد ومن خلفه في قيادة الجيش إلى أن قال « ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله خالد بن الوليد ففتح الله عليه » . لذلك سمي خالد سيف الله . وقد قال حسان بن ثابت :

فلا يُبْعِدَنَّ اللهُ قَتْلِي تَتَابَعُوا بِمَوْتِهِمْ ذُو الْجَنَاحَيْنِ جَعْفَرُ
وَزَيْدٌ وَعَبْدُ اللهِ هُمْ خَيْرُ عُصْبَةٍ تَوَاصَوْا وَأَسْبَابُ الْمَنِيَةِ تَنْظُرُ (٣)

(١) وكان فيمن سمعوا في ذلك بحصة بن مسعود وأطعمه الرسول من غنيمة خيبر ثلاثين وسق (حل) شعير وثلاثين وسق تمر .

(٢) بالضم ثم واو مهمزة ساكنة وتاء مشاة من فوقها . وهى قرية من قرى البلقاء في حدود الشام . وكانت تطبع بها السيوف واليها تنسب المشرفة من السيوف .

(٣) أنظر لفظ مؤتة في معجم البلدان لياقوت .

فتح مكة أو غزوة الفتح (سنة ٥٨) :

نقض أهل مكة الهدنة التي عقدت بينهم وبين الرسول في السنة السادسة للهجرة ، فأغاروا على إحدى القبائل المحالفة للمسلمين ؛ فاستجارت هذه القبيلة بالرسول ، فسار إلى مكة في السنة الثامنة من الهجرة في عشرة آلاف من المسلمين .

ولما علم أهل مكة بقدوم هذا الجيش ، خرج قادتهم خاضعين . وكان في مقدمتهم أبوسفیان ، فأكرمه الرسول ، ودخل المسلمون مكة ، وسار رسول الله إلى الكعبة وطاف بها سبع مرات ، ثم أمر بإزالة التماثيل والصور وحطم أصحابه الأصنام وهو يقول (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) . (١)

العوامل التي ساعدت
على فتح مكة

ولا يفوتنا أن نبحث العوامل التي ساعدت على فتح مكة بهذه السهولة ، وما كان من انقياد سادة قريش وأصحاب الرأي فيهم إلى الرسول بعد ما أذاقوه هو والمسلمين كل ألوان التعذيب حتى هاجر من مكة إلى المدينة حيث آواه الأنصار ونصروه على أهلهم . ومن نظر في أمر قريش ومسلكتها مع الرسول عرف أن شيوخها وشبابها كانوا ذوى حماسة شديدة في جهاد الإسلام أول الأمر . وكان انتصار الرسول لا يزيدهم إلا شدة وحماسة ؛ فلما تكرّر هذا الانتصار وعظم أمره في جميع البلاد العربية ، وقسّلت سادات قريش ومات ذوو الحلم فيها ، أخذ الشبان وذوو المطامع يترددون ويتساءلون عن أى الأمرين أوفق لهم : رأوا قوة المسلمين وضعف المشركين ، فكانوا يودون لو انضموا إلى هذه القوة الناشئة فأفادوا واستفادوا . ولكنهم كانوا يخشون اتهام قومهم إياهم وضياع ما كانوا يستمتعون به من الحرية ؛ فمنهم من

(١) سورة الاسراء ١٧ : ٨١

تغلب على هذه الأوهام فذهب الى المدينة وأسلم ، كحالد بن الوليد ، ومنهم من اشتد ترده فاعتزل الطرفين حيناً ، حتى اذا ما وضع الصبح لذي عنين وتبين له أن أمر محمد قد ظهر على قريش ، أسرع فأدرك الفرصة قبل ضياعها وأسلم قبل الفتح كعمرو بن العاص . فقد اعتزل البلاد العربية ، وذهب الى أرض محايدة هي أرض الحبشة ليرقب الأمر ، فرأى ما كان من حسن الصلة بين المدينة والنجاشي وأيقن أن أمر الاسلام سينتهى بالظفر ، وأن سقوط مكة قريب ، وأنه إن أراد أن يدخر لنفسه مكانة بين أقرانه الذين سبقوه الى الاسلام ، فليس له بدٌّ من أن يسلم طائعا قبل أن يُسلم كارها .

ولقد روى عن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه قال : قال عمر ابن الخطاب لعمر بن العاص : « لقد عجبْتُ لك في ذهنك وعقلك كيف لم تكن من المهاجرين الأولين ؟ فقال عمرو : وما أعجبك يا عمر من رجل قلبه بيد غيره لا يستطيع التخلص منه إلا الى ما أراد الذي هو بيده ! فقال عمر : صدقت » .

ولم يكن هذا أمر عمرو وحده ، وإنما كان أمر طائفة كثيرة من الذين أسلموا متأخرين . ولسنا نشك في أن عمرأ حين أسلم ، كان قد وثق بأن أمر الاسلام ليس مقصوراً على بلاد العرب . بل هو متجاوزها الى غيرها ، وأنه قد تنبأ بما سيكون للمسلمين من فتح ^(١) .

كان فتح مكة واستيلاء المسلمين على البيت الحرام (الكعبة) من أكبر العوامل التي ساعدت على نجاح الدعوة الاسلامية ، فقد اعتقدت القبائل العربية التي رفضت الدعوة بادىء ذي بد ، أن المسلمين تلاحظهم عناية إلهية لا قبَل لغيرهم بها ، فسارعوا الى الاسلام ودخلوا فيه أفواجا .

أثر فتح مكة

وبعد أن تم للنبي النصر على أهل مكة أخضع فريقاً من البدو كان يهدد هذه المدينة ، كما أخضع أيضاً مسيحيي نجران وأمراء مَهْرَة و عُمان ، وقبائل اليمن ونجد .^(١) ولم يأت عام ١٠ هـ (٦٣١ م) حتى كانت بلاد العرب جميعها خاضعة له . وبذلك دالت دولة الأئمة واستوصلت شأفة الوثنية من بلاد العرب .

يقول نلذكه « ولو أن القبائل العربية استطاعت أن تعقد فيما بينها محادثات حرية دقيقة ضد محمد للدفاع عن طقوسهم وشعائهم الدينية والذود عن استقلالهم - الأمر الذي كان ذا أهمية في نظرهم - لأصبح جهاد محمد في مناجزتهم جهاداً في غير عدو ؛ إلا أن عجز العربي القح عن أن يجمع شتات القبائل المتفرقة وأن يوحد بين البطون الممزقة للعمل تحت لواء واحد - حتى وإن كان ذلك في سبيل الظفر بغايات سامية وأغراض خطيرة الشأن - قد سمح له أن يخضعهم لدينه القبيلة تلو الأخرى ، وأن ينتصر عليهم بكل الوسائل ، فتارة بالقوة والقهر ، وتارة بالمحادثات الودية والوسائل السلمية .

« وإن الهدايا الثمينة التي كان يتألف بها الرسول قلوب الناشئين في الدين ، وكذلك خاصة القوم وصفوتهم الذين لم يتغلغل الإيمان بعد في قلوبهم كان لها أثر كبير في قلوب العرب ، حتى أصبحوا يدخلون في دين الله أفراداً وجماعات » .^(٢)

ويتبين لنا مما ذكره نلذكه أنه لم يفتن لما كان من اجتماع العرب على حرب الرسول في غزوة الأحزاب . فقد حزبوا الأحزاب ضده ، وأغاروا على المدينة وحاصروها ، وضيقوا على أهلها حتى كادوا يقضون على المسلمين بها ، لولا ما أبداه الرسول من المهارة الحربية

(١) كان من بينهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح وعبد الله بن الزبير أحد شعراء قريش .

(٢) Historians' History of the World, vol. VIII. p.11. (٢)

والسياسية . فقد أمر بحفر الخندق ليحول بين الأحزاب وبين دخول المدينة ، كما أمر نعيم بن مسعود ليأخذل عنه غطفان وبنى قريظة وقريشاً ويوقع بينهم - لما يعلمه من حسن صلته بهم - كما سيأتى تفصيل ذلك فى غزوة الأحزاب .

غزوة مدين (سنة ٨ هـ) :

لم يكذب يمشى على الرسول بمكة خمسة عشر يوماً بعد الفتح حتى سمع بقدوم هوازن وعلى رأسها مالك بن عوف (من بنى نصر) ومعهم ثقيف . وقد حشد مالك خلف الجند النساء والأطفال والأموال لكي يحول بينهم وبين الفرار . فلما أشار عليه ذرير بن الصمة بارجاعهم لئلا يثقلوا الجيش ويعوقوا حركته ، أبى ونزل حنيناً وأوصى رجاله أن يكسروا جفون^(١) سيوفهم إذا لقوا المسلمين وأن يحملوا عليهم حملة رجل واحد .

قدوم هوازن وثقيف
لتحاربة الرسول

فلما سمع الرسول بهم ندب من يتعرف له أمرهم . فلما استيقن من تجمعهم للحرب وعرف ما أعدوه لها من خطة ، رجع إلى الرسول وأخبره بتجهزهم للقتال . فخرج اليهم الرسول ، ومعه عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار الذين فتح الله بهم مكة وألفان من أهلها ، واستعار الرسول من صفوان بن أمية^(٢) مائة درع بما يكفيها من السلاح ثم خرج بالجيش . حتى إذا بلغوا حنيناً فى عمالة الصبح راعهم أخذ المسلمين على غرة انقضاض القبائل من هوازن وثقيف عليهم من شعب الوادى . ففزع المسلمون واختل نظامهم ، ولم تغن عنهم كثرتهم شيئاً وضاعت عليهم الأرض بما رحبت ثم ولوا مدبرين ؛ وأقام الرسول ينادى أين أيها

خروج الرسول للحرب

(١) أغصاد

(٢) وكان لا يزال مشركاً

الناس؟ هلموا إلى! أنا رسول الله محمد بن عبد الله . ولم يبق حوله إلا نفر قليل من المهاجرين والأنصار وأهل بيت الرسول منهم العباس بن عبد المطلب ممسكا بعنان بغلة الرسول وأبو سفيان بن الحارث .

واشتد الحال على المسلمين وعظم البلاء (١) حتى كانوا لا يسمعون نداء الرسول لهم . عند ذلك أمر الرسول العباس بن عبد المطلب — وكان جوهرى الصوت بدينا — أن يصيح فى الناس يامعشر الأنصار يا أصحاب السُّمرة (٢) ! فأجابوه : لبَّيك لبيك ! وسارعوا ناحية الرسول يترا كضون إليه ؛ حتى كان الرجل إذا عجز عن اقتحام السيل إلى الرسول على بعيره نحره وقصد إليه راجلا .

اجتمع حول الرسول نحو المائة من الأنصار الذين أعز الله بهم الإسلام ، فاستقبلوا الأعداء بقلوب مطمئنة وقام العباس ينادى : يا للأنصار ! يا للخزرج ! فتكاثر الناس حوله .

فلما أسفر الصبح وخرج العدو من مكنه التقوا به وجها لوجه ، ثم اجتلد القوم واستحرق القتال . وقال الرسول : «الآن حمى الوطيس» . وقد أهوى على بن أبى طالب إلى صاحب راية المشركين فضرب عرقوبى جملة ووثب أحد الأنصار على الرجل فقتله ، وتمت هزيمة المشركين وتفرقت فلولهم . فذهب مالك بن عوف ببعضهم إلى الطائف ، وذهب آخرون إلى سهل أو طاس ونخلة ، فتبع المسلمون

(١) حتى قال كعدة أو جلة أخو صفوان بن أمية : ألا بطل السحر اليوم . وقد حدثت شبة بن عثمان بن أبى طلحة نفسه بالانتقام من الرسول وأخذ ثأر أبيه الذى قتل يوم أحد . قال فأردت برسول الله صلى الله عليه وسلم لاقتله فأقبل شئ . حتى تغشى فؤادى ، فلم أطلق ذلك فعلت أنه ممنوع منى (ابن هشام ج ٣ ص ٢٧٣)

(٢) وهى الشجرة التى عقدت بيعة الرضوان تحتها . وكان يطلق عليها اسم السمرة أو السدرة ؛ فكان يناديهم بذلك تذكيرا لهم بعهدهم للرسول فى تلك البيعة .

من ذهبوا إلى أوطاس ومن ذهبوا إلى نخلة ، بينما انصرف الرسول من وادي حنين إلى الطائف في إثر مالك بن عوف ليحاصرها ، وقد أمر بحمل السبايا والغنائم إلى الجعرانة ^(١) حتى يعود من حصار الطائف .

سار الرسول إلى الطائف مطاردا فلول ثقيف الذين لجأوا إليها ، ومعهم مالك بن عوف ، حتى إذا دخلوا مدينتهم أغلقوا عليهم أبوابها واعتصموا بالحصون يرمون المسلمين بالنبال من فوقها . وكان الرسول قد عسكر قريبا منهم ، فأمر أصحابه بالتقهقر قليلا حتى لا يستهدفوا لنبل المشركين ، مكتفيا بحصارهم . ولكن ثقيفا صمدت لقتال المسلمين وحصارهم خمسة عشر يوما (أوبضعة وعشرين على رواية أخرى) وظلت تنوشهم بالنبال مطمئنة إلى مناعة أسوارها ووفرة الغذاء والمؤونة فيها ^(٢) ، حتى اضطر الرسول إلى أن ينصب المنجنيق ^(٣) ويرميهم به ، كما سير إليهم جنده في الدبابات ^(٤) والضبور ^(٥) ليتقوا بها المسلمون النبل الموجه إليهم من عل . فلم يلبثوا - وكانوا أهل حذق ومهارة - أن احتالوا

حصار الطائف

استعمال المسلمين
المنجنيق والدبابات
وغيرها

(١) بكسر أوله وسكون العين وتخفيف الراء . وبعضهم يكسر العين ويشدد الراء . وهي ما بين الطائف ومكة . وهي إلى مكة أقرب . وقال أبو العباس القاضى : أفضل العمرة لأهل مكة ومن جاورها من الجعرانة ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتمر منها . أنظر هذا اللفظ في معجم البلدان لياقوت .

(٢) روى ابن سعد (ج ٢ ص ١١٤) أن ثقيفا رموا حصنهم وأدخلوا فيه ما يصلحهم لسنة (٣) قال ابن هشام (ج ٣ ص ٣٠٣) أن أول من رمى في الاسلام بالمنجنيق رسول الله صلى الله عليه وسلم . رمى به أهل الطائف والمنجنيق أداة ترمى بها الحجارة على الأعداء .

(٤) الدبابة أداة من أدوات الحرب يدخل المحاربون في جوفها ويدفعونها إلى جدار الحصن فيقبونه وهم في داخلها يحميمهم سقفا وجوانبها من نبل العدو .

(٥) الضبر ويجمع على ضبور كسهل وسهول : أداة كالديابة تقريبا تصنع من الخشب المغطى بالجلد فيمكن فيها المهاجمون ويفربونها للحصن لقتال أهله وهم فيها . وهي أشبه بالسيارات المدرعة اليوم .

لصدها عنهم بالقاء قطع الحديد المحمية عليها ، فأحرقوها واضطروا
من فيها إلى الخروج منها ، ثم رموهم بالنبل ، فقتلوا منهم رجالا . فلم
يجد الرسول بدا من أن يهددهم باتلاف بساينهم وتحريق كرومهم ،
وهي عزيمة عليهم لما لهما من الشهرة وبعد الصيت في جميع أرجاء جزيرة
العرب ، حتى غدت الطائف بفضل هذه الكروم جنة فيحاء وسط
هذه الصحراء القاحلة . وأخذ المسلمون في تنفيذ أمر الرسول فعز
على ثقيف كرومها وقد رأت الجد من الرسول وأتباعه ؛ فبعثت إليه
من يُخبره « بأنه ليس بالطائف مال أبعد رشاء ولا أشد مؤونة
ولا أبعد عمارة من مال بني الأسود ، وإن محمدا ان قطعه لم يعمر أبدا ..
فليأخذه لنفسه أوليدعه لله والرحم . فان بيننا وبينه من القرابة مالا
يجهل » ^(١) . وأقام الرسول على حصارهم حتى اذا دنا شهر ذى القعدة
(وهو من الأشهر الحرم) فك عنهم الحصار ليرجع اليهم بعد انقضاء
الأشهر الحرم .

عاد الرسول إلى الجعرانة حيث كانت تنتظره أسلاب هوازن
وسبيها . وقد وافاه بالجعرانة وفد هوازن مسلمين تائبين وطلبوا منه
أن يرد عليهم أموالهم ومن سبي منهم ، فخيرهم بين أخذ السبي أو
الأموال ، فأثروا نساءهم وأموالهم على الأموال . فنزل لهم الرسول
عن كل من دخل منهم في ملكه أو ملك بني عبدالمطلب ، وقال لهم :
إذا صليت فقوموا فقولوا : إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين ،
وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا ، فسأعطيك عند ذلك

وعما ينبغي الإشارة إليه بهذه المناسبة ما رواه ابن هشام (ج ٣ ص ٢٩٩) من أن عروة
ابن مسعود وغيلان بن سلمة لم يشهدا وقعة حنين ولا حصار الطائف لأنهما كانا يتعلبان صنعة
الدبابات والمجانيق والضبورة ، مما يدل على مبلغ اهتمام ثقيف بحرب الرسول واعدادها الامدادات
المختلفة لتلك الحرب التي شنتها عليه وهو في مكة ، فكانت وقعة حنين .

واسأل لكم ، ففعلوا . فقال رسول الله : « أما ما كانلى ولبنى عبدالمطلب فهو لكم » ، وقال المهاجرون والأنصار : « وما كان لنا فهو لرسول الله » ، فقال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا ، وقال عيينة ابن حصن : أما أنا وبنو فزارة فلا ، وقال عباس بن مرداس : أما أنا وبنو سليم فلا . فأجابه بنو سليم بأنهم نزلوا عنمن في أيديهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم . (١) فقال عليه الصلاة والسلام لمن احتبس نصيبه من سبي هوازن وضنَّ به : ادفعوها ولكم بكل إنسان ست فرائض من أول شيء أصيبه . فردوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم ، وأنقذ الرسول بحكمته لهوازن كل من أخذ منها . (٢)

ثم أهل^(٣) الرسول بالعمرة من الجعرانة ، فرجع إلى مكة وفرق الغنائم في المؤلفة قلوبهم من سادات قريش وغيرها من قبائل العرب . على أن الأنصار قد تغيرت نفوسهم لذلك بعض الشيء وساورتهم الشكوك ، فظنوا أن الرسول وقد لقي قومه صار في غنى عنهم ؛ فلم يعد يحفل بهم ولا يُعنى بشأنهم كما كان من قبل . فلما بلغ الرسول ذلك أمر سعد بن عبادة أن يجمع له الأنصار ، فجمعهم وخطبهم تلك الخطبة التاريخية التي يتجلى فيها حسن سياسة الرسول وقدرته على جذب النفوس وتأليف القلوب ، ومهارته في إعداد سامعيه وتهيتهم لقبول ما يريد أن يلقيه عليهم والتأثر به إلى ابعـد حد .

تغير نفوس الأنصار

فقد بين للأنصار في عبارة سلسلة أخاذة نعمة الإسلام عليهم ، إذ هداهم بعد الضلالة وألف بين قلوبهم بعد العداوة والبغضاء ،

(١) يلاحظ أن هؤلاء الذين رفضوا كانوا من الذين خرجوا مع رسول الله من مكة في حرب هوازن ، فهم عن أسلموا يوم الفتح وليسوا من المهاجرين ولا الأنصار الذين غالطوا الإيمان قلوبهم وقام الإسلام على أكتافهم

(٢) ابن هشام (ج ٣ ص ٣٠٧ - ٣٠٩)

(٣) أهل الحج أو بالعمرة : إذا أحرم من الميقات (وهو المكان الذى يلبس فيه قاصد مكة الحج أو عمرة لباس الاحرام) ونوى الحج أو العمرة

ثم ذكر لهم بالثناء تصديقهم رسالته وإيواءهم إياه ومؤاساتهم له ، ثم عتب عليهم في كياسة وظرف تطلعهم إلى هذا الفبي الذي أفاء الله عليهم ، ففرقه الرسول في نفر حديثي عهد بالاسلام تطيبيا لنفوسهم عما أصابهم من القتل والهزيمة ، معتمداً على حسن إسلام الأنصار وصدق رغبتهم في نشر هذا الدين وإعلاء كلمة الله ، ثم أكد محبته إياهم وإيثارهم على غيرهم من العرب ، وأخيراً أعلن اليهم أنه منهم ودعا لهم ولأبنائهم وأبناء أبنائهم .

فلا عجب إذا بكى الأنصار بعد هذه الخطبة الرائعة وطابت نفوسهم برضاء رسول الله عليهم وعدوا ذلك غنماً عظيماً .

رواية الطبري

روى الطبري أنه لما اجتمع الأنصار لرسول الله حمد الله وأثنى عليه بالذي هو أهله ثم قال : « يا معشر الأنصار ! ما قلته بلغتنى عنكم وموجدة وجدتموها في أنفسكم ؟ ألم آتكم ضللاً فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله ؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا : بلى ! لله ولرسوله المن والفضل . فقال : ألا تجيبوني يا معشر الأنصار ؟ قالوا : وبماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ولرسوله المن والفضل ! قال : أما والله لو شئتم لقلتم فصدقتم ولصدقتم : أتيتنا مكذباً فصدقناك وخذولاً فنصرناك وطريداً فأويناك وعائلاً فأسيناك . وجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم . أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت أمراً من الأنصار . ولو سلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار . اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار ! فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله قسماً وحظاً . ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرقوا . »

ثم عزم الرسول على العودة إلى المدينة فأقام على مكة عتتاب بن
أسيد^(١) ثم سار إلى المدينة ، فوصل إليها في ذى القعدة سنة ٨ للهجرة .
ظنت ثقيف — وقد رأت جيش المسلمين يتراجع عن الطائف
دون أن ينال منهم شيئاً أو أن يكرههم على التسليم — أنها قد امتنعت
بحصونها على الرسول وأصحابه ، وانتصرت عليهم وهم الذين دانت
لهم جزيرة العرب كلها . فاعتزت ثقيف بهذا النصر وفرحت به ثم
شمخت بأنفها على من جاورها من القبائل ، وعز عليها أن يقوم
عروة بن مسعود فوق عَمَلِيَّة (مكان عال) له ينادى للصلاة ويدعو إلى
دين ذلك النبي الذي يغض من شأن طاعتهم وضمنهم « اللات » ،
فرشقوه بالنبال حتى قتلوه . (٢) عندئذ لجأ ابنه أبو مليح ومعه قارب
ابن الأسود إلى الرسول — وقد أسلما — « يريدان فراق ثقيف
و ألا يجامعاهم على شيء أبدا » . (٣)

اسلام الطائف

قتل عروة وهرب ابنه
بسبب اسلامهما

ولاغرو فقد أصبحت ثقيف أشد على المسلمين من قريش في عهد
نضالها مع الرسول . وقد آوى الرسول هذين اللاجئين ، كما آوى

(١) الطبرى ج ٣ ص ١٣٩

وفي رواية أخرى للطبرى (ج ٣ ص ٣٢) أنه استخلف أبا بكر على أهل مكة وأمره أن
يقيم للناس الحج ويعلم الناس الاسلام ، وأمره أن يؤمن من حج من الناس .

(٢) عند ما قدم الرسول المدينة بعد حصار الطائف وفد عليه عروة بن مسعود مسلماً . وهو
من سادات ثقيف . وكان أثناء حصار الطائف في جرش (من مخاليف اليمن) يتعلم صناعة
الدبابات والضبور التي عزم ثقيف على أن تعدها لمهاجمة الرسول في موقعة حنين . فلما علم
بانصراف الرسول عن الطائف وذهابه إلى المدينة لحق به حتى قيل إنه أدركه قبل أن يصل إلى المدينة .
فلما أسلم استأذن الرسول في العودة إلى الطائف ليدعو قومه إلى الاسلام . فخشي عليه الرسول
عنت أهل الطائف وحذره أن يقتلوه ، فعزم على الذهاب معتمداً على شرف بيته فيهم ورقة شأنه
بينهم وقال للرسول : « أنا أحب إليهم من أبكارهم » . فلما وصل إلى الطائف دعا قومه إلى
الاسلام ، حتى إذا كان الفجر صعد إلى عليّة له ودعا من فوقها إلى الصلاة والايان بالله ، فاجتمعوا
عليه ورموه بالنبل فمات مقتبلاً باستشهاده في سبيل الله وطلب أن يدفن مع من استشهد من المسلمين
في حصار الطائف فدفن معهم .

(٣) ابن هشام ج ٣ ص ٣٥٦

العبيد الذين انضموا إليه عند حصار الطائف وأعتقهم . ولم تدر ثقيف أن الرسول إنما عدل عن حصارها وتركها لحصار أطول وأشد من محاصرة الجند . فقد أصبحت ثقيف منعزلة بوثنيها في الطائف عن سائر العرب حولها الذين أسلموا أو أصبحوا جميعا يناصبونها العداء ويعتبرون أنفسهم في حالة حرب معها لمناواتها للإسلام وتعذيبها من أسلم من أهلها ، كما فعلت مع عروة ومع هؤلاء العبيد .

وقد أحست ثقيف بشدة وطأة هذا النوع من الحصار وثقله عليها . روى ابن هشام ^(١) أن عمرو بن أمية أتى « عبد ياليل » — وكان بينهما شيء من الجفاء — فقال له : « إنه قد نزل بنا أمر ليست معه هجرة . إنه قد كان من أمر هذا الرجل (يعني الرسول) ما قد رأيت . وقد أسلمت العرب كلها ، وليست لكم بحربهم طاقة . فانظروا في أمركم » . عند ذلك ائتمرت ثقيف بينها وقال بعضهم لبعض : « أفلا ترون أنه لا يأمن لكم سرب ولا يخرج منكم أحد الا اقتطع ؟ » . فائتمروا بينهم وأجمعوا على أن يرسلوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا كما أرسلوا عروة . فعرضوا ذلك على عبد ياليل ، فأبى الا أن يكون معه رجال حتى إذا عادوا شغل كل رجل منهم رهطه وحملهم على الالتزام بما التزم به الوفد ، فأجابوه الى ذلك .

قدم وفد ثقيف على الرسول في الشهر الذي عاد فيه من غزوة تبوك (رمضان سنة ٩ هـ) ، وعرضوا على الرسول إسلامهم . وشرطوا عليه أن يعفيهم من الصلاة وأن يترك لهم طاغيتهم « اللات » لا يهدمها ثلاث سنين . فأبى إلا أن يدخلوا في الإسلام من غير قيد ولا شرط ، حتى لقد سألوه أن يتركها سنتين بدلا من ثلاث ثم سنة ثم شهرا فأبى . غير أنه أعفاهم من أن يهدموها بأيديهم ، وأرسل معهم

غضب القبائل المجاورة
لقتل عروة

تفكير ثقيف في مصالحة
الرسول

شروط ثقيف للصلح

تمسك الرسول
بأصول التوحيد

أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة . (١)

وقد أمر الرسول عليهم عثمان بن أبي العاص — وكان أحدتهم سنأ ، ولكنه كان أحرصهم على التفقه في الاسلام وتعلم القرآن . وكتب لهم الرسول كتاباً . (٢) فلما بلغوا الطائف أراد المغيرة أن يقدم أبا سفيان فأبى وقال له : ادخل أنت على قومك . ولما شرع المغيرة في هدم « اللات » قام أهله (بنو مُعْتَب) دونه يحمونه خشية أن يُرمى كما رُمى عروة بن مسعود . وقد خرجت نساء ثقيف حُسراً يبيكين على صنمهم

هدم « اللات »

على أن أهل الطائف الذين حرصوا على وثنياتهم كل هذا الحرص ، والذين دافعوا الرسول عنها بهذه الحماسة ، قد أصبحوا بعد إسلامهم من أشد العرب حرصاً على الاسلام وذوداً عنه ، حتى في محنة الردة حيث أصبح الاسلام مقصوراً على أهل مكة والمدينة والطائف وقبيلة عبد القيس كما سيأتى في الكلام على ردة العرب .

ثبت الطائف على الاسلام

غزوة تبوك (٣) (سنة ٥٩) :

وفي السنة التاسعة للهجرة بلغ الرسول عليه الصلاة والسلام أن

(١) كان المغيرة بن شعبة من بني ثقيف أنفسهم . وكان كما - وصفه النووي في تهذيب الاسماء واللغات (ج ٢ ص ١٠٩ - ١١٠) - موصوفاً بالدهاء والحلم . ولذلك كان لابن سفيان بن حرب حرمة ومكانة عند أهل الطائف . وكان له فيهم قرابة ورحم . وقد فقت إحدى عينيه في حصار الطائف .

(٢) أنظر نص هذا الكتاب في ابن هشام (ج ٣ ص ٣٥٧)

(٣) تقع على بعد اثني عشر فرسخاً من المدينة . وقد عزى الى الرسول أنه قال لعلي بن أبي طالب : « أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هرون من موسى ، الا انه لا نبي بعدي ؟ » . ولهذا الحديث علاقة برحيل الرسول الى تبوك . وقد استخلف علياً على المدينة ، فقتل ذلك على

الروم قد تجتمعوا على حدود فلسطين لقتال المسلمين ، ومعهم بعض القبائل العربية ، فدعا المسلمين إلى الجهاد ، وخرج بال جيش في طريق الشام . فلما وصل إلى تبوك أقام فيها أياما فصالحه أهلها ؛ وجاءت الوفود من أيالة وغيرها وصالحوه على دفع الجزية كما بعث خالد بن الوليد بفريق من الجيش إلى دومة الجندل ، فأسر صاحبها واستولى عليها ، ثم عاد الرسول إلى المدينة — وغزوة تبوك هذه هي آخر غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم .

محنة الوراق :

في السنة العاشرة للهجرة خرج الرسول للحج في أكثر من مائة ألف من المسلمين . وعند جبل عرفات ألقى على المسلمين خطبته الخالدة التي يعتبرها المؤرخون دستور الاسلام . ولاغرو فقد بين فيها أصول الاسلام وقواعده ، ونادى بالمساواة بين الناس لا فرق في ذلك بين العبد الحبشي والشريف القرشي إذ يقول : « أيها الناس ! إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد . كلكم لآدم وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » . ولما ذهب الرسول إلى مكة ليقضى عمرة الحج ، كان في أكثر من مائة ألف من أنصاره المسلمين .

وقد تم القرآن بنزول قوله تعالى (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأَتِمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) (٢)

أهلها ، فجع على الرسول وشكا ذلك إليه ، واعتذر عن العودة إلى المدينة ، فقال له الرسول : « ارجع يا أخى إلى مكانك ، فأنت خليفتي في أهل ودار هجرتي (يعني المدينة) وقومى . أما ترى أن تكون منى بمنزلة هرون من موسى ، إلا أنه لا نبي بعدي ؟ أنظر كتاب « الفاطميون في مصر » للمؤلف ص ٢٣ - ٢٤ .

(١) مكان بين المدينة وفلسطين

(٢) سورة المائدة ٥ :

مرض الرسول ولم يمض على حجة الوداع ثلاثة أشهر حتى مرض الرسول عليه الصلاة والسلام بالحمى .

فلما رأى الانصار اشتداد المرض على الرسول أحاطوا بالمسجد ، فأخبره الفضل بن العباس وعلي بن أبي طالب بذلك ، فخرج متوكئاً على علي ، والعباس والفضل أمامهما . وكان الرسول معسوب الرأس يخط برجليه ، فجلس في أسفل مرقاة من المنبر وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« أيها الناس ! بلغني أنكم تخافون من موت نبيكم . هل تُخلد نبي قبلي من بعث الله فأُخلد فيكم ؟ ألا إني لاحق بربي ، وأنكم لاحقون بي . فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً ، وأوصي المهاجرين فيما بينهم ، فإن الله تعالى يقول (والقصير إنَّ الإنسانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) . (١) وإن الأمور تجري بأذن الله . ولا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله ، فإن الله عز وجل لا يعجل بعجلة أحد . ومن غالب الله غلبه ، ومن خادع الله خدعه . فَبَلَّ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ .

« وأوصيكم بالانصار خيراً - فإنهم الذين تبوءوا الدار والايمان من قبلكم - أن تحسنوا إليهم . ألم يشاطروكم في الثمار ! ألم يوسعوا لكم في الديار ؟ ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة ؟ ألا فمن ولى أن يحكم بين رجلين ، فليقبل من أحسنهم وليتجاوز عن سيئهم ، ألا ولا يستأثروا عليهم ؛ ألا وإني فرطٌ لكم وأنتم لاحقون بي . ألا فإن موعدكم الحوض (٢) . ألا فمن أحب أن يردّه عليّ فليَكفكف لسانه إلا فيما ينبغي .

(١) سورة العصر ١٠٣

(٢) يعني حوض الكوثر الذي يشرب منه المؤمنون يوم القيامة .

وقد انتقل الرسول إلى جوار ربه في يوم الاثنين ١٣ ربيع الأول سنة ١١ هـ (٨ يونية سنة ٦٣٢ م) وهو في الثالثة والستين من عمره بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة على أحسن الوجوه وأكملها. (١)

وقد وقع خبر وفاة الرسول على المسلمين وقع الصاعقة ، حتى إنهم ذهولوا ونسوا منازل من الآيات التي تشير إلى موت الأنبياء كسائر البشر . حتى لقد وقف عمر بن الخطاب رافعاً سيفه مهدداً بالقتل كل من يقول بوفاة النبي وهو يقول « إن رجلاً من المنافقين زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي ، وأنه والله مامات ، ولكنه ذهب كما ذهب موسى . والله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقطع أيدي رجال زعموا أنه مات . »

فلما أقبل أبو بكر نزل على باب المسجد وعمر يكلم الناس فلم يلتفت إلى شيء حتى دخل على الرسول عليه الصلاة والسلام وهو مغطى بثوب ؛ فكشف عنه وقال :

« بأبي أنت وأمي ! طِبْتَ حَيًّا ، وَطِبْتَ مَيِّتًا ! وانقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء من النبوة : فَعُظِّمْتَ عن الصفة ، وَجَلَلْتَ عن البكاء ، وَخَصَّصْتَ حتى صرْتَ مَسَلَةً (٢) ، وَعَمِمْتَ حتى صرْنَا فيك سواء . ولولا أن موتك كان اختياراً منك ، لجدنا لموتك بالنفوس ، ولولا أنك نهيت عن البكاء ، لأنفذنا عليك ماء الشئون (٣) ، فأما ما لا نستطيع تفيته عنا فكمدته وإدناف (٤) يتخالفان

(١) ابن سعد ج ٨ ص ١٢١ س. السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين ص ٥٦

(٢) خص الشيء من باب قد خصوصاً فهو خاص : خلاف عم مثل اختص (وكلا الفعلين يستعمل متعديا ولازما) ، والمعنى أنك يا رسول الله أد صرت بموتك مسلة للناس ، فأنك مع ما اختصصت به من مناقب النبوة قد نزل بك الموت .

(٣) جمع شأن ، وهو مجرى الدمع إلى العين .

(٤) دف المريض كفرح ، وأدنف : نقل ، والشمس : دنت للغروب واصفرت

ولا يَبْرَحان ، اللهم فَأَبْلِغْهُ عِنا السلام ، أذكرنا يا محمد عند ربك ،
ولنكن من بالك ، فلو لا ما خَلَفَتْ من السَّكِينَةِ لم نُقِمْ لِمَا خَلَفَتْ
من الوحشة ، اللهم أبلغ نبيك عنا ، واحفظه فينا ! » .

خطبة أبي بكر في المسلمين
ثم خرج إلى الناس وخطب خطبته الحكيمة : فثاب الناس إلى
رشدهم :

« أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا
محمداً عبده ورسوله ، وأشهد أن الكتاب كما نزل ، وأن الدين كما
شرع ، وأن الحديث كما حدث ، وأن القول كما قال ، وأن الله هو
الحق المبين ... ثم قال : أيها الناس ! من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا
قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، وإن الله قد
تقدم اليكم في أمره . فلا تدعوه جَزَعًا ، وإن الله قد اختار
لنبيه ما عنده على ما عندكم ، وقبضه إلى ثوابه ، وخلف فيكم كتابه ،
وسنة نبيه . فمن أخذ بهما عرف ، ومن فرق بينهما أنكر . » يا أيها
الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم
ولا يفتنكم عن دينكم ، فعاجلوه بالذي تعجزونه ، ولا تستنظروه
فيلحق بكم » (١)

وقد روى عن مالك قال : « بلغني أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم توفي يوم الاثنين ودفن يوم الثلاثاء ، وصلى عليه الناس أفواجا
لا يؤمهم أحد . وقد اختلفوا في مكان دفنه . فقال بعضهم : ندفنه في
مكة مسقط رأسه ، وقال آخرون بالبيع مع أصحابه ، وقال غيرهم ندفنه
في مسجده ، فقال أبو بكر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول : ما دفن نبي إلا مكانه الذي توفي فيه ، فحفر له فيه » (٢)

(١) ابن هشام ج ٣ ٤٦٧ - ٤٦٨ ، الطبري ج ٣ ١٩٧ - ١٩٨ ، زهر الآداب ج ١ ص ٣٥
(٢) تيسير الوصول إلى جامع الأصول ج ٤ ص ١٩٥ ، سيرة ابن هشام (ج ٣ ص ٤٧٦)

صفات الرسول

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم معتدل القامة متوسط الطول ، ليس بالطويل ولا بالقصير ، كثيف الشعر سبط الأطراف ، عريض ما بين الكتفين ، أبيض اللون مشرباً بحمرة ، أكحل العينين أدعجهما : وكان إلى ذلك يعنى بنظافة جسمه وثيابه ويحرص على حسن هندامه . وفى ذلك يقول « النظافة من الإيمان » . وكان حاضر البديهة سريع الجواب فى أدب ووقار ، كما كان كثير الانشراح والتبسط مع أصحابه وأهله . وكان شديد الحياء إلا فى حدود الله ، فإنه كان لا يخشى فى إقامتها لومة لائم . روى عن أبى سعيد الخدرى قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم أشد حياءً من العذراء (١) .

حسن سياسته

وكان الرسول سياسياً حكيماً ذا رأى صائب وفكر ثاقب . وقد بدت مهارته السياسية فى التأليف بين أهل المدينة ، وهم الأوس والخزرج ، كما ظهر ذلك جلياً فى تصرفاته التى كان يصدرها على البديهة ويخرج بها من أشد المآزق حرجاً .

روى ابن هشام (٢) أن الرسول صلى الله عليه وسلم أمر عند ما تفاقمت روح العصيدة بين الأنصار والمهاجرين فى غزوة المريسيع — حتى قال عبد الله بن أُبَيُّ بن سلول : ليخرجن الأعز منها الأذل — بالارتحال وسار فى وقت الظهيرة ، ولم يرح الجيش حتى وصل الى المدينة لىكى لا يترك للرجال فرصة الجدل والانقسام وهم بعيدون عن مدينتهم ، كما رفض ما عرضه عليه عمر من قتل ابن سلول رأس النفاق وسبب هذه الفرقة وترفق بابنه عبد الله ، إذ طلب اليه أن يأذن له بقتل أبيه إذا أراد ، فقال له

(١) صحيح البخارى على هامش ابن حجر العسقلانى ج ٦ ص ٢٧٣

(٢) ج ٣ ص ١٣٥

الرسول : بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا ؛ فكان ابن أبي هذا إذا أحدث حدثاً بعد ذلك عاتبه قومه وعنفوه . وقد قال رسول الله لعمر بن الخطاب يوماً كيف ترى يا عمر ! أما والله لو قتلته يوم قلت لي اقلته لأرعدت له أنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته .

كما ظهر ذلك أيضاً في الانتفاع بحسن صلة نعيم بن مسعود بكل من قريظة وقريش وخطفان في الايقاع بينهم وتخذيْلهم بعضهم عن بعض ، حتى أذن الله وأزال عن المدينة خطراً داهماً .

وكان صلى الله عليه وسلم ذا نفس سمجة تحب الخير وتميل إلى العفو ؛ كثير العطف والود والمجاملة لزوجاته وبناته ، رءوفاً بالفقراء واليتامى من المسلمين مؤثراً لهم عن أولاده .

قال ابن أبي ليلى ^(١) : أخبرنا علي أن فاطمة اشتكت ما تلقى من الرحي ما تطحن ، فبلغها أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بسبي ، فأنته تسأله خادماً فلم توافقه (تجده) فذكرت لعائشة . فجاء النبي فذكرت عائشة له ذلك . فأتانا وقد أخذنا مضاجعنا ، فذهبنالنقوم فقال علي مكانكما حتى وجدت برد قدمه على صدرى ؛ فقال ألا أدلكما على خير مما سألتانى ؟ إذا أخذتما مضاجعكما ، فكبرا الله أربعاً وثلاثين واحمداً ثلاثاً وثلاثين وسبحاً ثلاثاً وثلاثين إن ذلك خير لكما مما سألتماه . وقد ورد في حديث آخر عن علي في هذه القصة وفيه : والله لأعطيكم وأدع أهل الضبفة تطوى بطونهم من الجوع لأجد ما أنفق عليهم ، ولكن أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم . وفي حديث الفضل بن الحسن الضمرى عن ضباعة أو أم الحكم بنت الزبير قالت أصاب النبي صلى الله عليه وسلم سبياً فذهبت أنا وأختي فاطمة نسأله فقال : سبقكما يتامى بدر . وكان عليه الصلاة والسلام قنوعاً زاهداً صبوراً . روى عن أنس قال :

زهد في مال
الله

(١) صحيح البخارى على هامش ابن حجر العسقلانى ج ٦ ص ١٢٢

قال صلى الله عليه وسلم : لقد أخيفت في الله وما يخاف أحد ، ولقد أذيت في الله وما يؤذي أحد . ولقد أتت على ثلاثون من بين يوم وليلة (يعني ثلاثين يوما وليلة متتابعة) ومالي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال . قال الترمذي في شرح الحديث : حين خرج النبي صلى الله عليه وسلم هاربا من مكة ومعه بلال . أي أن ما كان مع بلال من الزاد كان قليلا بحيث يستتره بلال تحت إبطه .

وروى عن علي بن الجعدي عن قال ما عاب النبي صلى الله عليه وسلم طعاما قط إن اشتهاه أكله وإلا تركه . وعن عائشة قالت : إن كنا آل محمد نمكث شهرا مانستوقد نارا إن هو إلا الماء والتمر ! وعنهما أنها قالت ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثما ، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه ، وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها .

ولم يكن أحرص منه على حسن معاملة أصحابه ، حتى لقد كان يكتفي ^١ عن الشخص الذي يريد تنبيهه إلى خطأ لكي لا يحقر بين الأقران . روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه ما لعن مسلما بذكر (أي بصريح اسمه) ، ولا ضرب يده شيئا قط إلا أن يضرب بها في سبيل الله ، ولا سل في شيء قط فمنعه إلا أن يسأل مأثما ، ولا يألو جهدا في أن يضرب لهم المثل وينأى بهم عن مزلق الطمع في مال الله والاستجداء . روى أن حكيم بن حرام قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعطاني ثم سألته ، فأعطاني ثم سألته فأعطاني ثم قال : يا حكيم إن هذا المال خضرة ^٢ جلوة ^(١) من أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بأشراق نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذي يأكل ولا يشبع واليد العليا خير من اليد السفلى .

(١) جلى العروس زوجها وصيفة أو غيرها أعطاه إياها . والجلوة بالكسر هي الشيء المعطى .

وقد كان كريم اليد كثير الاعطاء من سألته حاجة لم يردده الا بها
أو بالجميل من القول .

كرمه

ذكر ابن هشام (١) أن كعب بن زهير بن أبي مسلى وفد عليه بعد
أن هجاء وهجا المسلمين معذرا تائبا، وسأله العفو وأنشده قصيدته
المشهورة « بانت سعاد فقلبي اليوم مقبول » ، فعفا عنه وأجازته (٢)
على شعره كما كان يحيز شعراء المسلمين حسان بن ثابت وكعب بن مالك
وعبد الله بن رَوَاحَة .

ميله للعفو

دعوى عموم الرسالة

أرسل الرسول في السنة السادسة للهجرة الكتب إلى الملوك
والأمراء ؛ فبعث حنيفة الكلبى الخزرجى إلى هرقل امبراطور
الروم ، وبعث عبدالله بن حذافة السهمى إلى كسرى فارس ، وعمر بن
أمية الضمرى إلى النجاشى ، وحاطب بن أبى بلتعة اللخمي إلى المقوقس
عامل هرقل على مصر ، وبعث سليط بن عمرو العامرى إلى هودّة بن
على الحنفى أمير بلاد اليمامة ، وبعث شجاع بن وهب من بنى أسد بن
خزيمة إلى الحارث بن أبى شمر الغنماني ، وبعث العلاء بن الحضرمى
إلى المنذر بن ساوى أخى بنى القيس صاحب البحرين ، وبعث عمرو
ابن العاص إلى جيفر وعبد ابى الجلندى (٣)
ولعل انكار بعض المستشرقين كتب الرسول إلى الملوك والأمراء
خارج جزيرة العرب راجع الى عدم عثورهم على ما يدل على شىء من

رسل النبي الى الملوك
والأمراء

(١) ج ٣ ص ٣٢٠

(٢) ذكر كثير من المصادر العربية أن النبي خلع على كعب بن زهير في ذلك اليوم برده فبقيت
في أهل بيته حتى باعوها لمعاوية بن أبى سفيان بعشرين ألف درهم ، ثم بيعت للنصور العباسى
بأربعين ألف ولا زالت في القسطنطينية إلى اليوم .

(٣) ابن هشام ج ٣ ص ٤١٨ - ٤٢٠ والطبرى ج ٣ ص ٨٤ - ٨٥

ذلك في الوثائق التي خلفها هؤلاء الملوك والأمراء ؛ وهذا لا ينهض دليلاً على صحة هذا الزعم ؛ إذ ليس بعيداً أن تكون الصور الأصلية لتلك الكتب قد فقدت لسبب من الأسباب .

أما مؤرخو العرب فلا يشكون في إرسال هذه الكتب ؛ فقد ذكر ابن هشام ^(١) واليعقوبي ^(٢) والطبري ^(٣) ما ثبت بعوث الرسول إلى جيرانه من الملوك والأمراء وكتبه إليهم يدعوهم فيها إلى الإسلام ؛ وفي ذلك يقول الطبري : « حدثنا ابن حميد قال حدثني ابن اسحاق عن يزيد ابن أبي حبيب المصري أنه وجد كتاباً فيه تسمية من بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ملوك الخائبين ^(٤) وما قال لأصحابه حين بعثهم ؛ فبعث به (أي بالكتاب) إلى ابن شهاب الزهري مع ثقة من أهل بلده فعرفه (أي هذا الكتاب) »

وفي الكتاب أن رسول الله خرج على أصحابه ذات غداة فقال لهم : إني بعثتُ رحمةً وكافةً فأدثوا عني يرحمكم الله . ولا تختلفوا عليّ باختلاف الحواريين على عيسى بن مريم . قالوا يا رسول الله ! وكيف كان اختلافهم ؟ قال دعا إلى مثل ما دعوتكم إليه ؛ فأما من قرَّبَ به فأحبَّ وسَلِمَ ، وأما من بُعدَ به فكَرِهَ وأبَى ، فشكا ذلك منهم عيسى إلى الله عز وجل ، فأصبحوا من ليلتهم تلك وكل رجل منهم يتكلم بلغة القوم الذين بُعِثَ إليهم . فقال عيسى : هذا أمرٌ قد عزم الله لكم عليه ، فامضوا . قال ابن اسحاق : ثم فرَّقَ الرسول صلى الله عليه وسلم بين أصحابه ، فبعث سَلَيْطَ بن عمرو بن العاص . . . الخ ويقال إن الكتاب الذي أرسل إلى هرقل كان كما يلي :

« بسم الله الرحمن الرحيم ! من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل .

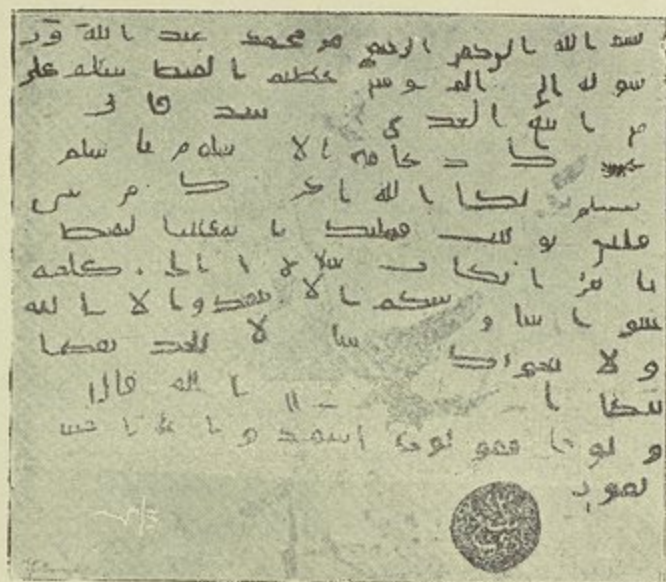
كتاب الرسول
إلى هرقل

(١) ج ٣ ص ٤١٨ - ٤٢٠ (٢) ج ٢ ص ٨٢

(٣) ج ٣ ص ٨٥

(٤) الكفار .

السلام على من اتبع الهدى . أما بعد أَسْلِمَ تَسْلِمٌ وَأَسْلِمَ يُؤْتِكَ اللهُ
أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ . وَإِنْ تَتَوَلَّ فِانْ إِثْمَ الْكَتَّارِينَ (الأريوسيين)
عليك (١) »



كتاب الرسول الى المقوقس

كشفه مسيو إيتين برثليمي . ويعتقد كثير من العلماء أنه الكتاب الأصلي
نقله الأستاذ مرجو ليوث (٢) عن مجلة الهلال (نوفمبر سنة ١٩٠٤)

وهاك أيضا نص كتاب الرسول إلى المقوقس :

بسم الله الرحمن الرحيم ! من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم
القبط . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإني أدعوك بدعاية
الإسلام . فاسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين (يَا أَهْلَ
الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ

كتاب الرسول الى
المقوقس

(١) الطبري ج ٣ ص ٨٧

(٢) D. S. Margoliouth, Muhammed and the Rise of Islam, p. 364.

وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ :
فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ^(١) »

كتاب الرسول إلى
النجاشي

وهاك كتابه صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي :

« بسم الله الرحمن الرحيم ! من محمد رسول الله إلى النجاشي
الأصحم ملك الحبشة . سلام أنت ! فاني أحمد إليك الله الملك القدوس
السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته
ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى فخلق الله من
روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه . وإني أدعوك إلى الله وحده
لا شريك له والموالاتة على طاعته ، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني
فاني رسول الله . وقد بعثت إليك ابن عمي جعفرأ ونفرا معه من
المسلمين ، فاذا جاءك فأقرهم ودع التجبر فاني أدعوك وجنودك
إلى الله ، فقد بلغت نصحت فاقبلوا نصحي ، والسلام على من اتبع
الهدى ^(٢) . »

كتاب الرسول إلى
كسرى

واليك نص كتاب الرسول إلى كسرى فارس :

« بسم الله الرحمن الرحيم ! من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم
فارس . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن
لا إله الا الله ، وأنى رسول الله إلى الناس كافة لئليذ من كان حيا . أسلم
تسلم ، فان أبيت فعليك اسم المجوس ^(٣) . »

أثر الكتب فيمن
أرسل اليهم

ولننظر الآن في أثر هذه الكتب في الملوك والأمراء الذين
أرسلت اليهم ، والذين يمثلون الشعوب التي كانوا يحكمونها . ومن

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم (طبعة دار العاديات الشرقية بالقاهرة) ص ٤٢ . أنظر

أيضا الطبرى ج ٣ ص ٨٧

(٢) الطبرى ج ٣ ص ٨٩

(٣) راجع هذه الكتب في صبح الأعشى للقلقشندي (ج ٦ ص ٢٧٦ - ٣٨٠)

المعلوم أنه لو قبل أحد من هؤلاء الملوك دعوة الرسول ودان بالاسلام ، لا تنتشر هذا الدين بين رعاياه .

على أن التاريخ لم يذكر لنا أن أحدا من الملوك الذين كانوا خارج جزيرة العرب قد دان بالاسلام ، وإن كان بعضهم قد أحسن معاملة الرسل وتجهل في الرد على كتاب الرسول .

فمن الطبيعي أن كسرى — وهو ذلك الملك الذي ورث « الحق الملكي المقدس » عن أجداده من آل ساسان — يأبى أن يكون تابعا للعرب . ومن ثم كان يخشى من هذا الدين على شخصه وسلطانة اللذين كانا موضع قداسة الشعب . هذا إلى ما كان يراه الفرس لأنفسهم من سيادة على عرب اليمن والحيرة وهم لا يقلون في نظرهم عن عرب الحجاز .

كسرى

من ذلك لا نعجب إذا ثارت ثائرة كسرى فمزق كتاب الرسول وأرسل إلى باذان عامله على اليمن :

« ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جليدين فليأتاني به » . فبعث باذان رسولين يحملان كتابا إلى الرسول يأمره فيه أن ينصرف معهما إليه ، فخرجا حتى قدما الطائف فوجدا رجلا من قريش ، فسألاه عن الرسول فقالوا هو بالمدينة . واستبشروا بهما وفرحوا ، وقال بعضهم : أبشروا فقد نصب له كسرى ملك الملوك ، كفيتم الرجل . فخرج الرجلان حتى قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا له : ان كسرى قد بعثنا إليك لتنتقل معنا . فصر فهما الرسول على أن يعودا إليه في الغد . فأتى رسول الله الخبر من السماء « أن الله قد سلط على كسرى ابنه شيرويه فقتله » . فلما قدم الرسولان أخبرهما الرسول هذا الخبر فقالا له : إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا ، أفنكتب هذا عنك ونخبره الملك ؟

قال : نعم ! أخبراه ذلك عنى وقولا له إن دينى وسلطانى سيبلغ ما بلغ ملك كسرى وقولا له إنك إن أسلمت أعطيتك ماتحت يديك وملسكتك على قومك من الأبناء . فعاد الرسولان إلى باذان فقصا عليه ما تنبأ به النبي فقال : والله ما هذا بكلام ملك ، وإنى لأرى الرجل نيا كما يقول . ولننظرن ما قد قال ، فلئن كان هذا حقا فانه لنرى مرسل ، وإن لم يكن فسرى فيه رأينا . فلم يلبث باذان أن قدم عليه كتاب شيرويه : « أما بعد فاني قد قتلت كسرى . ولم أقتله إلا غضبا لفارس لما استحل من قتل أشرافهم . فاذا جاءك كتابى هذا فخذلى الطاعة من قبلك وانظر الرجل الذى كان كسرى كتب فيه إليك (يعنى الرسول عليه الصلاة والسلام) ، فلا تهجه حتى يأتيك أمرى فيه » . فلما انتهى كتاب شيرويه إلى باذان قال : إن هذا الرجل لرسول ، فأسلم وأسلم من كان معه من الفرس ببلاد اليمن (١) »

رأى مرجوليوث
فى هذا الكتاب

ويزعم مرجوليوث (٢) أن عيون الرسول كانت تأتية بالأخبار بسرعة ، ويستبعد عدول رسولى باذان عن تأدية واجبهما على أثر نبوءة الرسول بموت كسرى ، ثم يقول : وإذا كان تاريخ اغتيال كسرى فارس صحيحا (٣) ، فان كل ما يمكن أن نفرضه هو أن هذا الاضطراب الذى انتشر على أثر مقتل كسرى قد كان السبب فى نقل عيون الرسول نبأ هذا الاغتيال اليه . ويزعم مرجوليوث أن هذه الرسالة لم تسلم قط إلى كسرى .

على أنه قد فات مرجوليوث أن الرسول قد أعلن موت كسرى يوم اغتياله رغم بعد الشقة بين الحجاز وفارس ، حتى إن خبر موت

(١) الطبرى ج ٣ ص ٩٠

(٢) D. S. Margoliouth, Mohammed and the Rise of the Islam, p. 368.

(٣) الثلاثاء ١٠ جمادى الآخرة سنة ٧ هـ وذلك بعد استيلاء المسلمين على خير بثلاثة اشهر تقريبا .

كسرى لم يصل إلى بلاد اليمن إلا بعد نبوءة الرسول بمقتله وعود رسول
بإذان إليه ، وانتظار بإذان وصول الأخبار الرسمية من بلاد الفرس .
وأما استبعاد مرجوليوث عدول رسول بإذان عن تنفيذ أمر كسرى
لمجرد تنبؤ الرسول بمقتله فهو غير مقبول ، ولا سيما إذا علمنا أن عقلية
بلاد العرب وما جاورها من بلاد الفرس والروم كانت مهياة لقبول
هذه التنبؤات . ناهيك بما كان من هرقل واشتغاله بعلم النجوم وكتابته
إلى صاحب إيلياء يستطلع رأيه في ظهور نبي آخر الزمان .

هرقل

أما هرقل فإن الرواية العربية تزعم أنه كان راغبا في الإسلام ،
وأنه تحدث في شأن هذا الدين إلى أبي سفيان ونفر معه من قريش
حين وصل إليه كتاب الرسول . وكان الظروف قد هيأتها لاستقبال
كتاب الرسول استقبالا حسنا دعا به إلى جمع رجال الكنيسة
والإفضاء إليهم بما وصل إليه ، حتى إذا نفروا وأنكروا ذلك عليه عدل
عن رأيه وتظاهر بحرصه على المسيحية

ولا غرو فقد كان العالم في ذلك الوقت يتطلع إلى ظهور نبي آخر
الزمان . وقد عنى هرقل نفسه بهذه المسألة عناية خاصة ؛ فقد كتب
إلى صاحب إيلياء - وكان مرجعا في علم النجوم - يخبره بأنه رأى من
علم النجوم أن نبي آخر الزمان قد ظهر ويسأله رأيه في ذلك .

« قال أبوسفيان (١) : خرجنا في نفر من قريش تجاراً إلى الشام ...
ووالله إنا لبغزة إذ هجم علينا صاحب شرطته (شرطة هرقل) ، فقال
أنتم من رهط هذا الرجل الذي بالحجاز (يعنى النبي صلى الله عليه
وسلم) ؟ قلنا : نعم ! قال : انطلقوا بنا إلى الملك . فانطلقنا معه .
فلما انتهينا إليه قال : أيكم أمسُّ به رحماً ؟ قلت : أنا . فقال : ادنه

وقيعة أبي سفيان
بالرسول عندهرقل

(١) صحيح البخارى (طبعة بولاق سنة ١٣١٣ هـ) ٨ ج ١ ص ٨ أنظر أيضا الطبرى . (طبعة
القاهرة) ج ٣ ص ٨٥-٨٧؛ فتح البارى (شرح البخارى) لابن حجر العسقلانى (القاهرة سنة ١٣١٩ هـ)
ج ١ ص ٢٤ - ٣٤ ، عمدة القارى (شرح البخارى للمبني) القاهرة سنة ١٣٠٨ هـ ج ١ ص ٩١

(اقرب) . فأقعدني بين يديه وأقعد أصحابي خلفي ثم قال : إني سأسأله
فإن كذب فردوا عليه . فوالله لو كذبت ماردوا علي . ولكنني كنت
امراً سيداً أتكرم عن الكذب ، وعرفت أن أيسر مافي ذلك إن أنا
كذبت أنه يحفظوا ذلك علي ثم يحدثوا به عني ، فلم أكذبه . فقال :
أخبرني عن هذا الرجل الذي خرج بين أظهركم يدعي ما يدعي . قال :
فجعلت أزهد له شأنه وأصغر له أمره وأقول له : أيها الملك ! ما بهمك
من أمره ، إن شأنه دون ما يبلغك . فجعل لا يلتفت إلى ذلك مني ثم
قال : أنبئني عما سألك عنه من شأنه . قلت : سل عما بدالك . قال :
كيف نسبه فيكم ؟ قلت : محض ، أوسطنا نسباً . قال : فأخبرني هل كان
أحد من أهل بيته يقول مثل ما يقول فهو يتشبه به ؟ قلت : لا . قال :
فهل كان له فيكم ملك فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه
ملكه ؟ قلت : لا . قال : فأخبرني عن أتباعه منكم من هم ؟ قلت :
الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان والنساء ؛ وأما ذوو الأسنان
والشرف من قومه فلم يتبعه منهم أحد . قال : فأخبرني عن تبعه أيحبه
ويلزمه أم يقلبه ويفارقه ؟ (وفي رواية أخرى هل يترد أحد منهم
سخطه لدينه ؟) قلت : ماتبعه رجل ففارقه . قال : هل يغدر ؟ فلم أجد
شيئاً مما سألتني عنه أغمره فيه غيرها . قلت لا ! ونحن منه في هدنة (١)
ولا نأمن غدره . قال : فوالله ما التفت إليها مني ثم كر على الحديث فقال .
سألتك كيف نسبه فيكم فزعمت أنه محض من أوسطكم نسباً ، وكذلك
يأخذ الله النبي إذا أخذه لا يأخذه إلا من أوسط قومه نسباً ، وسألتك
هل كان أحد من أهل بيته يقول بقوله فهو يتشبه به ، فزعمت أن لا ،
وسألتك هل كان له فيكم ملك فاستلبتموه إياه ، فجاء بهذا الحديث
يطلب ملكه فزعمت أن لا . وسألتك عن أتباعه فزعمت أنهم الضعفاء
والمساكين والأحداث والنساء . وكذلك أتباع الأنبياء في كل زمان .

وسألتك عن يتبعه أيحبه ويلزمه أم يقلبه ويفارقه ، فزعمت أن لا يتبعه أحد يفارقه ، وكذلك حلاوة الايمان لا تدخل قلبا فتخرج منه (وفي رواية أخرى وكذلك الايمان حين تخالط بشاشته القلوب) ، وسألتك هل يغدر ، فزعمت أن لا . فلئن كنت صدقتني عنه ليغلبني على ماتحت قدمي هاتين ، ولوددت أني عنده فأغسل قدميه . انطلق لشأنك . قال فقمتم من عنده وأنا أضرب إحدى يدي بالآخرى وأقول : إى عباد الله ! لقد أمر أمر ابن أبي كبشة (يعنى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكان يكنيه كفار قریش بأبيه من الرضاع استخفافا به . وأبو كبشة هذا هو زوج حليلة السعدية التى أرضعت الرسول)

عرض هرقل كتاب
الرسول على أهل
الرأى من دولته

ويحدثنا الطبرى (١) فى إحدى رواياته أن هرقل لما وصل اليه كتاب الرسول وهو بالشام يريد العودة إلى القسطنطينية جمع الروم فقال لهم : «يامعشر الروم ! إني عارضٌ عليكم أموراً فانظروا فيما قد أردتها . قالوا ماهى ؟ . قال : تعلمون والله أن هذا الرجل لنبيٌ مرسل ، إنا نجده فى كتابنا نعرفه بصفته التى وصف لنا . فهلُمَّ فلنَتَّبِعْهُ فَنَسْلَمَ لنا دنيانا وآخرتنا . فقالوا نحن نكون تحت يدى العرب ونحن أعظم مُلْكاً وأكثرهم رجالاً وأفضلهم بلدآ ؟ قال : فهلُمَّ فأعطيه الجزية فى كل سنة أكريرٌ عتَى شوكتُهُ وأستريحُ من حربه بمال أعطيه إياه . قالوا : نحن نعطي العرب الذل والصغار بخراج يأخذونه منا ونحن أكثر الناس عدداً وأعظمهم ملكاً وأمنعهم بلدآ ؟ لا والله لانفعل هذا أبداً . قال : فهلُمَّ فلاصالحه على أن أعطيه أرض سوربة ويدعنى وأرض الشام ، فقالوا له نحن نعطيه أرض سوربة وقد عرفت أنها سرّة الشام ؟ والله لانفعل هذا أبداً : فلها أبوا عليه قال : أما والله لترون أنكم قد ظفرتهم إذا امتنعتم منه فى مدينتكم ، ثم جلس على بغل له فانطلق

حتى إذا أشرف على الدرب استقبل أرض الشام ثم قال : السلام عليكم أرض سورية تسليم الوداع ، ثم ركض حتى دخل القسطنطينية .
من ذلك نرى أن الروايات العربية المختلفة تسكاد تجمع على أن هرقل كان يميل الى قبول الاسلام ؛ وأن أهم الأسباب في رفض الروم لهذا الدين هو أنه دين العرب الذين كان الروم يحتقرونهم ويستصغرون شأنهم ، وأن هرقل كان ضعيفاً أمام اجماع ذوى الرأى من دولته حتى لقد خبرهم بين قبول الدين أولاً ثم عدل رأيه الى مصالحه المسلمين على أن يعطيهم جزءاً من بلاد الشام

مناقشة الرواية
العربية

على أنا لا نستطيع أن نسلم بجميع ما جاء في هذه الرواية العربية ولا سيما إذا علمنا — اعتماداً على المصادر التاريخية التي بأيدينا — أن هرقل كانت تحيط به في ذلك الوقت أخطار خارجية ؛ فإنه — وإن كان قد انتصر على الآفار والضقابة واسترد بلاد سورية ومصر ، وغزا بلاد الجزيرة وانتصر على الفرس في موقعة نينوى سنة ٦٢٧ م ودخل بيجوشه في قلب الدولة الفارسية وهدد عاصمتها المدائن (١) (سنة ٦٢٨ م) ، فقد كانت جيوش خسرو تتقدم في آسيا الصغرى وتهاجم البسفور ، وكادت القسطنطينية تقع في أيديهم .

كما تصف لنا بعض الروايات حال هرقل وما كان يساوره من الأفكار إذ ذاك ، والمخاوف التي كانت تجول بخاطره فترغبه في اعتناق الاسلام ، وأنه كان لا يريد الوقوع في حروب مع عدو جديد بعد أن فرغ من حروبه مع الدولة الفارسية ؛ إذ كان يتوقع خطراً جديداً سوف يدهمه من ناحية هذه الدولة العربية الناشئة .

ومما يدل على أن هرقل كان يصدر في ذلك الأمر عن بواعث

سياسية أكثر منه دينية ، أنه جمع الجيوش الجرارة لحرب هؤلاء العرب في الشام وفلسطين ومصر ، وغضب على المقوقس واستدعاه إلى القسطنطينية حين علم بأنه دخل في صلح مع العرب ، ثم نفاه وأرسل إلى قواد الروم بمصر يوبخهم ويحثهم على مواصلة القتال ضد العرب ؛ وظل كذلك إلى أن مات والعرب يحاصرون حصن بابلين سنة ٦٤١ م (١)

وقد يكون من بين الأسباب التي حملت مؤرخي العرب على الاعتقاد بأن هرقل كان يميل إلى اعتناق الاسلام ما ذكره الطبري (٢) من «أنه قد أجاز دحية الكلبي (سفير الرسول إليه) بمال وكساء كشيء وأن ناساً من جذام بأرض حسمى (٣) قطعوا عليه الطريق ، ولم يتركوا معه شيئاً ، فجاء إلى الرسول قبل أن يدخل بيته ، فبعث رسول الله زيد ابن حارثة في سرية إلى أرض حسمى . ومع تسليمنا باحتمال صدق ما في هذا الخبر من الحوادث ، فلا نستبعد أن منح هرقل وحياءه دحية لا يعدو أن يكون ضرباً من ضروب السياسة أراد أن يتألف به قلوب المسلمين لما كان يخشاه من ظهور أمر الرسول . وليس أدل على صحة ذلك الرأي أنه جمع رجال دولته وعرض عليهم الاسلام ، فلما أبوا ورأى منهم الجد في الخروج عليه إن هو دخل في ذلك الدين عدل عن ذلك وقال لهم : يا معشر الروم ! إني قد عرضت عليكم وعرضت لأنظر كيف صلابتكم على دينكم لهذا الأمر الذي قد حدث . وقد رأيتم منكم الذي أسره به »

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم ج ٢ ص ٦٤ - ٦٦

(٢) ج ٣ ص ٨٧

(٣) أرض يبادية الشام بينها وبين وادي القرى ليلتان . وأهل تبوك يرون جبل حسمى في غربيهم . قال المتنبي : حسمى أرض طيبة تنبت جميع النبات ملوثة جبالاً في كبد السماء متناوذة ملس الجوانب ، إذا أراد الناظر النظر إلى قمة أحدها قتل عنقه - حتى يراها بشدة . ومنها ما لا يقدر أحد أن يراه ولا يصعده ، ولا يكاد القنم يفارقها - أنظر هذا اللفظ في معجم البلدان لياقوت .

المقوقس

وأما المقوقس حاكم مصر من قبل هرقل أمبراطور الروم ، فإنه لم يقل عن هرقل في الاحتفاء بمحاطب بن أبي بلتعة رسول النبي إليه .
فمؤرخو العرب يكادون يجمعون على أنه قد أحسن استقباله وأجابه بقوله : قد كنت أعلم أن نبياً قد بقي ، وقد كنت أظن أن مخرجك الشام — وهناك كانت تخرج الأنبياء من قبله — فأراه قد خرج في العرب في أرض جهنم وبؤس ، والقبط لا تطاوعني في اتباعه ؛ ولا أحب أن أعلم بمجاورتى إياك » (١) . وقد رده بهدية إلى النبي صلى الله عليه وسلم اتفق المؤرخون على أن منها مارية القبطية وأختاً لها وشيئاً من خيرات مصر (٢) . ويمكننا أن نثق بصدق هذه الرواية اعتماداً على ما أجمع عليه المؤرخون من أنه كانت عند الرسول جارية تدعى مارية القبطية وأنها هي التي ولدت له ابنه إبراهيم

وكان من أثر استقبال المقوقس لمحاطب بن أبي بلتعة ، وهذه الهدايا التي كان من بينها مارية القبطية التي أنجبت للرسول ابنه إبراهيم ، أن أتى الرسول على أهل مصر من القبط وأوصى بهم خيراً إذ يقول : « ان الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيراً ، فإن لهم فيكم صهراً وذمة » (٣)

النجاشي

أما النجاشي ، فعلى الرغم من تأكيد الرواية العربية أنه قد أسلم ، (٤)

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ج ٢ ص ٤٢

(٢) تختلف الروايات فيضيف بعضها إلى ذلك كسوة وبغلة بسرجه ، وبعضهم يضيف خصياً . ذكر الطبري أنه كان حارساً ودليلاً واسمه مابور ؛ كما ذكر البعض الآخر أنه كان من بين الهدية طبيب وأن الجوارى كن أربعاً لاثنين .

وبما يؤثر عن الرسول أنه قبل الهدية ورد الطبيب وقال : نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع .

(٣) الطبري ج ٤ ص ٢٢٨ . أورد ابن عبد الحكم (ج ١ ص ٢٠١) رواية تشبه هذه .

(٤) متأثرة بما أبداه من حسن استقبال المهاجرين وإكرام ضيافتهم وامتناعه عن تسليمهم إلى قريش إذ بعثت إليه في طلبهم .

وعلى الرغم من مظاهر حسن الصلة التي نشأت ودامت بينه وبين محمد صلى الله عليه وسلم طيلة حياته ^(١) ، فإن هذا كله لا يحملنا على القول باسلام النجاشي، ولا سيما أن جمهرة المؤرخين وثقاتهم يكادون يجمعون على أن الاسلام لم يظهر في بلاد الحبشة إلا بعد دولة من الزمن. يدل على ذلك ما رواه الطبرى وابن الأثير ^(٢) من أن الحبشة « كانت قد تطرفت طرفا من أطراف الاسلام (أى أغارت على طرف من بلاد المسلمين) في زمن عمر ، فبعث إليهم علقمة بن مجزز المدلجى فى البحر فى نفر من المسلمين فأصيبوا ؛ فجعل عمر على نفسه (أى عزم) ألا يحمل فى البحر أحداً يعنى للغزو » ^(٣)

راى السير توماس
أرنولد فى قيمة هذه
الكتب

يقول السير توماس أرنولد فى كتابه « الدعاية الاسلامية » : على أنه وإن كانت هذه الكتب قد بدت فى نظر بعض من أرسلت إليهم ضربا من الخرق والغرور الداعى إلى السخرية ، فقد برهنت الأيام على أنها إنما صدرت عن يقين ثابت وحماس متقد . وتدل هذه الكتب دلالة واضحة على دعوى عموم الرسالة التى تكررت فى القرآن للحث على الاسلام » ^(٤) . فقد قال تعالى فى سورة (ص) :

(١) حتى لقد روي أن النبي قد نبى النجاشي الى المسلمين مما جعل بعض المؤرخين يذهبون الى أن النجاشي كان مسلما (الطبرى ج ٣ ص ٨٩) وقد أورد ابن هشام (ج ١ ص ٣٠٩) عن عائشة أنها قالت : لما مات النجاشي كان يتحدث أنه لا يزال يرى على قبره نور . وهذا الحديث - لو صح - يبين لنا مبلغ اعجاب المسلمين بالنجاشي
(٢) الطبرى ج ٤ ص ٢٣١ ؛ وابن الأثير ج ٢ ص ٢٤٠

(٣) ذكر ابن سعد (كتاب الطبقات الكبير ج ٢ ص ١١٧) أن هذه الغزوة كانت فى عهد الرسول (شهر ربيع الآخر سنة ٥ هـ) . وسواء صححت روايته أو الرواية التى اتفق عليها كل من الطبرى وابن الأثير ؛ فإن ذلك لا ينقص قيمة هذه الحادثة فى ذلك الاستدلال الذى ذهبنا إليه .

Sir Thomas Arnold, The Preaching of Islam, (٤)
p. 28; Noeldeke, Sketches from Eastern History,
trans. by J. S. Black, p. 73.

(إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ، وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ) (١) وَفِي سُورَةِ
يَسَ (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ
مُبِينٌ ، لِيُذْهِقَ كَرَانَ حَيًّا ، وَيُحَقِّقَ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ) ، (٢)
وَفِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ
لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) (٣)

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) .

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا)
(وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا ، فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي
الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (٤)

(وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا يَمُنُّ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ
مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا) (٥)

(قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَلَا يُحَرِّمُونَ
مَاحَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ، وَقَاتِلِ الْيَهُودَ
عَزِيزُ ابْنُ اللَّهِ وَقَاتِلِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ
يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ،
اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ،
وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا
يُشْرِكُونَ)

(١) سورة ص ٣٨ : ٨٧ - ٨٨

(٢) سورة يس ٣٦ : ٦٩ — ٧٠

(٣) سورة الفرقان ٢٥ : ١

(٤) سورة آل عمران ٣ : ٨٥

(٥) سورة النساء ٤ : ١٢٥

يَشْرِكُونَ ، يُرِيدُونَ أَنْ يُسْطَفِقُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ، وَيَأْتِي اللَّهَ إِلَّا
أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى
وَالدِّينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) . (١)

راى المستشرقين

وينكر بعض المؤرخين أن الاسلام قد قصد به مؤسسه فى بادىء
الامر أن يكون ديناً عالمياً رغم هذه الآيات البينات . ومن بينهم السير
وليم ميور (٢) إذ يقول « إن فكرة عموم الرسالة قد جاءت فيما بعد ،
وإن هذه الفكرة ، على الرغم من كثرة الآيات والأحاديث التى تؤيدها ،
فإن محمدآ نفسه لم يفكر فيها . وعلى فرض أنه قد فكر فيها ، فقد كان
تفكيره تفكيراً غامضاً . فإن عالمه الذى كان يفكر فيه إنما كان بلاد العرب ؛
كما أن هذا الدين الجديد لم يهيماً إلاها ، وأن محمداً لم يوجه دعوته
منذ بعث إلى أن مات إلا للعرب دون غيرهم . وهكذا ترى أن نواة
عالمية الاسلام قد عُرِست ؛ ولكنها إذا كانت قد اختمرت ونمت
بعد ذلك ، فإنا يرجع هذا إلى الظروف والأحوال أكثر منه إلى
الخطط والمناهج » .

وكذلك شك الأمير كيتانى (٣) فى أن يكون النبى قد نخطى
بفكره حدود الجزيرة العربية ليدعو أمم العالم فى ذلك الوقت إلى
هذا الدين .

ومن الغريب أن يشك السير وليم ميور فى صحة دعوى عموم
الرسالة ، وأن يبنى شكه هذا على أن محمداً ما كان يعرف غير الجزيرة ؛

مناقضة راى
المستشرقين

(١) سورة التوبة : ٩ : ٢٨ — ٣٣

(٢) Sir William Muir, The Caliphate, p.p. 43—44

(٣) Gaetani, Annali dell' Islam, vol. v. pp. 323-324

وأنها كانت عالمه الذى لم يفكر فى سواه ، وأن هذا الدين لم يهيمًا إلا لتلك البلاد ، وأن محمدا من أول حياته إلى آخرها لم يوجه دعوته إلا للعرب دون غيرهم . فهل خفيت على ذلك العالم صلة قریش بدول ذلك العهد وما أتاحته لها التجارة من دربة وخبرة بشئون هذه الأمم وأحوالهم ، وأن محمدا بوجه خاص قد سافر غير مرة للتجارة ببلاد الشام ؟ - فقد سافر وهو صبي مع عمه أبى طالب فى تجاراته ، حتى إذا بلغ خديجة ما بلغها عن خبرته وأمانته استأجرته وألقت بمالها بين يديه ؛ فكان من مهارته وحذقه ما جعلها تعرض عليه الزواج منها . ولما تزوج بها استمر يعمل فى هذا المال بالتجارة أيضا . أفبعد ذلك يمكن أن يقال عن محمد إنه كان لا يعرف غير بلاد العرب وهو رجل عصامى لم يكسب مركزه الممتاز فى مكة قبيل البعثة إلا من ذكاء عقله وكفاية مواهبه ؟ وهل يستبعد على محمد الذى خرج من مكة ناجيا بنفسه ونفس صاحبه أن يتخطفها الناس لا ئذا بأهل المدينة الذين آووه ونصروه ، ثم صبر وصابر حتى عاد إلى مكة بعد ثمانى سنين وهو السيد الأمر فيها وفى الجزيرة ، تحوّم حول شخصه مائة ألف من القلوب أو تزيد ومن ورائهم الكثيرون من أرجاء الجزيرة العربية يدينون له بالطاعة يقدم عليه رؤساؤها وأكابرها ؟ هل يبعد على هذا الرجل أن يرثى بناظره إلى ما وراء الجزيرة ليبسط عليها سلطانها إن كان من محبى السلطة والحكم ، أوليفيض عليها من فضل الله الذى غمر الجزيرة وملاها عدلا وأمانا ودعة وحبًا ؟

لو قيل إن الاسكندر المقدونى كان يعمل على تكوين امبراطورية تشمل العالم القديم كله وتجعله يلتف حول هذا الشاب الاغريقى لصدقنا . ولو قيل إن نابليون كان يعمل على تكوين امبراطورية تشمل العالمين القديم والجديد ليجلس على عرشها ذلك الفتى الطليانى لصدقنا .

أما إذا قيل إن محمد بن عبد الله قد فكر في أن يدعو خلق الله المتأخمين لجزيرة العرب والمتصلين بقريش — اتصالا تعيش عليه قريش وينبئ على أساسه كل شيء في البيئة القرشية — فذلك أمر يعز على البحث النزيه والعقل الحر أن يقبله إلا أن يكون تفكير ذلك النبي في هذا الأمر تفكيراً على نحو غامض .

وأما القول بأن هذا الدين « لم يهياً إلا لبلاد العرب » فإن ذلك لن يمنع محمداً من التفكير في تعميم دينه ، لأن هذا التفكير ، سواء تحقق أو لم يتحقق ، إنما يعتمد على اعتقاده أن دينه صالح لذلك . وقد ثبت من القرآن أنه كان يعتقد أن الإسلام قد هيم لكل حالة ، وأن القرآن قد تكفل ببيان كل شيء . إذ يقول الله تعالى لرسوله في غير آية : (وَتَزَيَّنَّا لَكِ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) و (مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) على أننا نلاحظ أن كل ما تمتاز به الحضارة الغربية من قواعد ونظم إنما قد وضع أساسها القرآن ، وهو المعين الذي استمد منه الرسول (محمد) دينه ، سواء أكانوا قد أخذوها عنه أم توصلوا إليها بأنفسهم .

ويؤيد دعوى عموم الرسالة للجنس البشرى ما أثر عن الرسول أنه قال عن بلال إنه أول ثمار الحبشة ، وعن صهيب إنه أول ثمار الروم ، وكذلك قال عن سلمان الذي كان أول من تحول من الفرس والذي كان رقيقاً نصرانياً بالمدينة ، واعتنق هذا الدين الجديد في السنة الأولى للهجرة .

وهكذا صرح الرسول بكل وضوح وجلاء أن الإسلام ليس مقصوراً على الجنس العربي ؛ وذلك قبل أن يدور بخلد العرب أي شيء يتعلق بحياة الفتح والغزو بزمان طويل .

ومما يدل على دعوى عموم هذا الدين لكل العالم هذه الرواية التي نقلناها عن الطبري ^(١) والتي تنص على أن النبي قد أرسل الدعاة لنشر الاسلام بين جميع الأمم .

أثر الاسلام في العرب

المستشرقون والمراسلة :

يعزو بعض المستشرقين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أموراً يشتمل منها الذوق السليم ويبرأ منها النقد النزيه ، من ذلك ما يقوله الأب لامانس (Lammens) ^(٢) من الأقوال اللاذعة التي ملأ بها بطون كتبه ، ولذلك (Nöelcke) الذي يقول « كان النبي لا يتخرج في اختيار الوسائل التي تضمن له النجاح والظفر في الوقت الذي كان فيه خيالاً ولم يكن له سلطان على خياله وعواطفه » . ويقول عن القرآن « وإنا ليضايقنا ويقزّز نفوسنا ذلك الخيال السقيم والعوز في المنطق ، والفقر المدقع في الافكار ، والاضطراب والنبو وعدم الاتساق الذي نراه في القرآن .

رأى نلذكه

« وأما أن العرب كانت تقشعر جلودهم وترتاع نفوسهم لذكر الجنة والنار ، فلا أنهم كانوا ضعيفي الفهم قليلي الادراك لم تشرق عقولهم بعد ، ولم تنبثق مخايل ذكائهم في الوقت الذي كانت تثب على قلوبهم روعة ذلك الوصف وتفعل أفاعيلها في نفوسهم . على أنهم ما كانوا يسمعون إلا لبعض آي قلقة مضطربة في وقت واحد وآن واحد . »

هذا هو رأى بعض مؤرخي الفرنجة في الرسول عليه الصلاة والسلام وفي القرآن الكريم كتاب الله ، الذي لا يأتيه الباطل من بين

مناقشة هذا الرأي

(١) ج ٣ ص ٨٥

P. Lammens, Berceau de l'Islam.

(٢) في كتابه

يديه ولا من خلفه . وهو رأى غير سديد وقول غير رشيد وحكم خاطيء جائر ، أشبه بحكم رجل لم يقرأ القرآن ولم يتفقه معانيه ، ويلبس مافيه من حكم بالغة وأسرار عظيمة ، وقواعد قويمه في التشريع والسياسة ، ونظم عمرانية كان لها جليل الأثر في صلاح حال الانسانية وتقويم ما اعوج منها ، وتعبيد ما التوى على المصلحين قبله وبعده من طرق الاصلاح وجادة الفلاح .

على أن الكثيرين من المنصفين قد صرحوا بأن القرآن وحده ، وما فيه من قواعد العمران وأسس المدنية الحققة ، هو الذي أخرج للعالم تلك المدنية التي لا يزال الأوربيون يستغلون ثمارها بعد أن وضع لهم القرآن نظمها وأسسها .

يريد بعض المستشرقين أن يقلل من أهمية الرسالة ويحكم على الرسول حكماً جائراً يدفعهم إليه التعصب والتحيز وبُغضهم للإسلام ومقتضهم لنيه ، وذلك بتطبيقهم على التاريخ الاسلامي بعض أنماط من النقد المتطرف وطرقه القاسية . ومن هؤلاء الأب اليسوعي لامانس . فعلى الرغم من أنه أحد أولئك الباحثين المحدثين المبرزين ، ومن أوسع الاختصاصيين في تلك الموضوعات إطلاعا ، إلا أنه - مع الأسف الشديد - من أكثرهم تعصباً وتحيزاً . وقد وقف على مدى هذا التحيز الذي دفعه الى توجيه حملاته ضد الاسلام والمسلمين كاتب فرنسي معتدل في حكمه هو ميسو « إميل در منجم » (١) في كتابه « حياة محمد » قال في مقدمته :

شهوة التعصب

وشهد شاهد من أهلها

« إن الأب لامانس يرى مثلاً « أنه حين يوافق حديث من أحاديث الرسول بعض آى من القرآن ، فعنى ذلك في نظر العالم اليسوعي أن

مذاهب لامانس في البحث ومناقشة درمنجم لها

الحديث قد وضع ودُس على محمد اعتمادا على ورود معناه في القرآن وتأيد الكتاب له . ومن ثم لا يعتبره الألب لمانس صحيح الرواية ولا يثق به ولا يعتمد عليه . فحدثني بربك كيف يمكن تدوين التاريخ إذن ؟ إذا كان كلما اتفقت شهادتان واجتمع دليلان ، فبدلا من أن تقوى إحداهما الأخرى وتزكيها فانها تكذبها وتجرحها . قد يمكن أن يكون الحديث قد وضع لشرح بعض النصوص القرآنية ، وقد يكون للحديث غرض معين في تحقيقها ، أو للأخذ بظاهر اللفظ القرآني ؛ ولكن على الرغم من كل ذلك قد يكون ما يذكره الحديث حقاً في كثير من الحالات إن لم يكن صحيحاً في أغلبها ؛ وليس أمام المؤرخ الذي لا يفكر في طرق النقد ، ولا علم له بها وسائل أخرى ممكنة يستطيع أن يعتمد عليها ويتصرف بها سوى نقل الخبر وروايته . فمثلا الحديث الذي يعزو إلى محمد (عليه الصلاة والسلام) حبّ العسل يحتمل أن يكون قد وضع بناء على أن القرآن قد امتدح في العسل خواصه الصحية الشافية ؛ كما يحتمل أن يقال إن محمداً إنما نصح وأوصى بأكل العسل لأنه كان يحبه ويحده صحياً ، وأيضاً لأن العسل في نفسه صحي وجدير بأن يوصى باستعماله . فكيف يستطيع راوي الحديث أن يتصرف في روايته أكثر من أن يسند الحديث الى الرسول ؟ وكيف يستطيع أن يذكر ذلك بدون أن يقاسى شكوك العالم المحدث ؟

ومهما يكن من نقد هؤلاء المستشرقين ، فلا شك أن الرسول قد نهض ببلاد العرب ووجد كلمة رجال قريش وزعمائهم وأولى الرأي فيهم ، ووجه شعورها الديني الغامض بعد أن خلع عليه قالباً عملياً واضحاً نحو دين آخر هو أشد صفاء وأكثر نقاء مما ألفوه في وثنياتهم الأولى . قال فنيلى ^(١) : « قد ينحرف المؤرخ عن موضوعه ليتأمل حياة رجل

راى فنىلى

نال سلطة خارقة على عقول أتباعه وأعمالهم ، ووضعت عبقرية أناس نظام ديني سياسي ما زال يحكم الملايين من البشر من أجناس مختلفة وصفات متباينة . إن نجاح محمد كمشرع بين أقدم الأمم الآسيوية ، وثبات نظمه مدى أجيال طويلة في كل نواحي الهيكل الاجتماعي ، دليل على أن ذلك الرجل الخارق قد كونه مزيج نادر من كفايات ليكورغوس والاسكندر ^(١)

الفرآة بين عمرين :

بعث الرسول صلى الله عليه وسلم على رأس الأربعين من عمره ، واختاره الله تعالى لجواره وله من العمر ثلاث وستون سنة بعد أن بلغ رسالته وأدى مهمته . وقد ظل الوحي يُواتيه طوال تلك المدة بأحكام الله وما شرع لعباده ، ينزل عليه بين حين وآخر بالآية أو الآيات في حلّ ما يعرض له من المشكلات وتذليل ما يعترض مهمته من عقبات ، ينير له الطريق ويرسم الخطط .

مدة نزول الوحي

وكان من بين هذه الحوادث الجسم التي امتلأت بها حياة الرسول وتخللت كفاحه لتبليغ رسالته حادث عظيم فذ ، هو هجرته إلى المدينة والتجاؤه إلى من آمن به من أهلها ليؤوه وأصحابه وليحموا دعوته مما نصبت لها قريش ، تلك الهجرة قد قسمت حياة الرسول إلى عهدين ، تطورت فيهما طرقه في تبليغ الرسالة . فكان الرسول قبل الهجرة يناقش قريشا في المبادئ العامة ويختلف وإياهم في الألوهية وهل أساسها التوحيد أم تعدد المعبودات ؛ ويخوفهم بيوم القيامة ويرهبهم بما فيه من بعث وحساب يتبعه ثواب أو عقاب ، ويطالبهم بانصاف نساءهم وعبيدهم ، ويسوى بين فقيرهم وغنيهم (كلكم لآدم وآدم من تراب) (إنَّ

الهجرة فاصل بين عهدين

الرسول قبل الهجرة

(١) أنظر كتاب مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام للاستاذ محمد عبد الله عنان ص ١١

أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) ويدعوهم إلى أن في أموالهم حقاً معلوماً للسائل والمحروم، مما أثار حق قريش وحفيظتها عليه؛ فأخذته وأصحابه بصنوف التعذيب والتنكيل ليصرفوه عن دعوته ويمنعوه عن الاتصال بالناس حتى تموت الفكرة وتُقبّر في مهدها.

بعد الهجرة

فلما هاجر الرسول إلى المدينة أخذ يفصل ما أجمل في العهد المكي من أمور العبادة ومبادئ الأخلاق، كما وضع النظريات العامة وشرع للمسلمين نظم المعاملات كالبيع والشراء والزواج والطلاق، وحرّم المنكرات كالخمر والزنا والميسر، وقرر الحدود والقصاص.

القرآن في مكة

وصفوة القول أن الرسول أخذ ينظم أمر تلك الجماعة الصغيرة الناشئة التي حاظه أفرادها بقلوبهم وأرواحهم، ويُشرّع لها نظاماً لمعاملاتها، وهو في ذلك كله لا يألو جهداً ولا يدخر وسعاً في بث الدعوة وتبليغ الرسالة. وكان القرآن في ذلك كله ساعده الذي لا يخذله ومدد الله إليه الذي لا يتأخر عنه عند الحاجة؛ فبه ناقش المشركين في مكة في أمهات مسائل الدين وقضاياه الكلية وسفه آلهتهم وعاب نظامهم الاجتماعي.

القرآن في المدينة

كذلك كان القرآن رائد الرسول في المدينة حين كان يناقش اليهود الذين استعانت بهم قريش في الغرض من دعوته، والذين استكثروا على العرب الأُميين أن يبعث الله فيهم رسولا منهم، وهم شعب الله المختار وأبناء الله وأحبائه؛ كما كان مرجعه الوحيد حين كان يحاسب هؤلاء اليهود وغيرهم من أهل الكتاب على ما غيروا وبدلوا في دينهم وكتبهم.

١ - الأمر الربني :

لم يكن للعرب قوانين معروفة؛ فقد كانوا يرجعون إلى رؤسائهم فيما ينشأ بينهم من الخلافات، حتى جاء الإسلام بقانون سماوى هو

القرآن الكريم الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . فنظم المعاملات كما شرع للمسلمين العبادات (١) كالصلاة والصوم والزكاة والحج لتوجههم نحو الخير ولتكون صلة بين العبد وربّه .

اركان الدين

شرعت الصلاة لتكون رمزا لشكر المنعم على بعض آلائه وليتمس بها المسلم العون من الله سبحانه خالق الكون وبارئه ؛ كما شرع الصوم لتقوى به الروح على كبج جماح النفس إذا ما طغت المادة ، لما فيه من كسر حدة الشهوات الجسمية التى تعوق الروح عن السمو اللائق بالانسان .

الصلاة

ولا غرو فإن النفس لا تكاد تقارب السكّال من تلك الرياضة حتى تحسّ بألم الجوع والحرمان ، فتعطف على الفقير والمحروم ، وتتجاوز عن اليسير من المال للعائل والعانى . وهذه هي حكمة مشروعية الزكاة ؛ فاذا اطمأنت نفس المسلم وآمن بما عليه من حق نحو بنى جنسه وبذل هذا الحق عن حب ورضا ، علم أن هذا الحق ليس مقصوراً على المال ؛ بل إنه ثمة أنواع أخرى من التعاون ليست دون المال نفعا . ولما كان الإسلام دين وحدة وتعارف وألفة ، فقد شرع لهم الحج يجتمع فيه القادرون من المسلمين .

الزكاة

الحج

ومن بين أصول الاسلام الايمان بالبعث في يوم القيامة ، حيث يبعث الانسان ويجازى عن عمله (يَوْمَئِذٍ يَصْنَدِرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيَرْوَا

البعث والحساب

(١) شرعت الصلاة والزكاة في مكة . وأما كيفية إقامة الصلاة ومصارف الزكاة ومقاديرها فلم يشرع إلا في المدينة . كما شرع بها الصوم سنة ٢ هـ . وفى ذلك يقول الله تعالى (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم) (سورة البقرة) ، والحج سنة ٦ هـ لقوله تعالى (ووقع على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا) (سورة النساء : ٩٧)

أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (١)

٢ — الآثار الاجتماعية :

حرم الاسلام سفك الدماء ومنع أن يأخذ صاحب الثأر ثأره بنفسه ، بل جعل ذلك إلى الإمام وحده ، وأوصى الامام وحده على القصاص من القاتل . قال تعالى (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (٢)) ، كما حث على العفو ؛ وفي ذلك يقول الله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ : الْحُرُّ بِالْحُرِّ ، وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ ، وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى ، فَمَنْ عَفَى عَنْهُ لهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْهُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاةٍ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ، ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ (٣)) ، كما جعل الدية لولي المقتول خطأ . قال تعالى (وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ .) (٤)

وقد نهى الاسلام عن الربا حتى لا تضيع المروءة بين الناس ويفرق الشره والتكالب على المادة كلمتهم ؛ كما نهى عن أكل أموال الناس بالباطل . قال تعالى (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ) (٥) (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ) (٦)

(١) سورة الزلزلة ٩٩ : ٦ - ٨

(٢) سورة البقرة ٢ : ١٧٩

(٣) سورة البقرة ٢ : ١٧٨

(٤) سورة «نساء» ٤ : ٩١

(٥) سورة البقرة ٢ : ٢٧٥

(٦) سورة البقرة ٢ : ٢٧٨ - ٢٨٠

صيانة النفس

صيانة الاموال

تنظيم المعاملات على
مبادئ قومية

الزواج

ووضع الاسلام الكثير من الأسس والمبادئ العامة التي تنظم المعاملات بين أفراد جماعة المسلمين كالبيع والشراء . وقد عني عناية كبيرة بالأسرة ، فشرع الزواج والطلاق وفرض النفقة للزوجة على زوجها وللأبن على أبيه وللأب على ابنه . وقد سمي عقد الزواج ميثاقا غليظا ؛ كما وصفه بأنه علاقة مودة ورحمة ، وجعل للمرأة على زوجها المهر والنفقة ، ولم يحدد نهايته . ونهى عن الزواج بالمشركات ، وحرم التزوج بالأم والأخت ومن يشبههما . قال تعالى (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّائِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمْ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ ؛ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا) (١) . وأباح الاسلام التزوج بأكثر من واحدة إلى أربع ؛ ولكنه اشترط العدل (فَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ) (٢) ؛ كما بين أن العدل بينهما من أصعب الأمور (وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ) (٣) . كذلك حرص الاسلام على أوامر القرابة من أن تعبت بها الغيرة

المرأة :

يظن بعض علماء الاجتماع أن الاسلام هضم المرأة حقها حيث أعطاهما نصف نصيب الرجل في الميراث ، وجعل الرجل يتزوج بأكثر

(١) سورة النساء : ٤ : ٢٢

(٢) سورة النساء : ٤ : ٣

(٣) سورة النساء : ٤ : ١٢٨

من واحدة إلى أربع ، وجعل الطلاق بيد الرجل ، ومنح الرجل سلطة ليست للمرأة فخرها الكثير من الحقوق التي يتمتع بها الرجل .

مركز المرأة في
غير الاسلام

ويكفي للرد عليهم أن نحيلهم إلى ما كتبه بعض المنصفين . كانت المرأة في العصور القديمة والوسطى عند اليونان والرومان وغيرهم كالمتاع أو كالحیوان : فلم يكن لها حق في التملك عن أى طريق ، ولم يكن لها ميراث أصلا ، كما لم يكن لها حظ من التعليم والتهديب ^(١)

تسوية الاسلام
المرأة بالرجل في
العلم

شہرات النساء
في الاسلام

أما الاسلام فقد أوجب تعلم العلم على كل مسلم ومسلمة ، كما أوجب على أمهات المؤمنين أن يعلنن الناس أبناءهم وبناتهم ذكورهم وأنثاهم (وَإِذْ كُنْتَ مَا تُنْتَلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ) ناهيك بعائشة أم المؤمنين . فقد اشتهرت بالرواية والفقه والفتيا ، والتاريخ والنسب ورواية الشعر ، والطب وعلم النجوم . وقد قال فيها الرسول « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » . وقد اشتركت في الخلاف السياسي وقادت المسلمين يوم الجمل . وأسما بنت أبي بكر وأم عبدالله بن الزبير التي اشتهرت برواية الحديث ^(٢) . وقد ظهر كثير من النساء في الحرب بين علي ومعاوية ؛ فغضن غمارها وقدن الجيوش فيها كأم الخير بنت الحريش البارقية ، والزرقاء بنت عدس بن قيس الهمدانية ، وعكرشة بنت الأطرش ، وأم سنان بنت جُشيمة بن خرشة المذحجية . ^(٣)

حق المرأة
في الزواج

كما سوى الاسلام بين المرأة والرجل في جميع الحقوق تقريبا ؛ فقد أباح للمرأة مادامت من أهل التصرف في مالها أن تتزوج بنفسها ،

(١) حقيقة ان الامية في الجاهلية كانت تعمل الرجل والمرأة على السواء ، وانما المقصود من هذا التعليم والتهديب هو حرمانها من المجالس والاختلاف الى مجالس التهديب والثقافة عند العرب .

(٢) ابن سعد ج ٨ ص ٤٥ ٤٨٦ عمدة القارى ج ١ ص ٣٨ أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الاثير ج ٥ ص ٥٠٤ شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ج ٤ ص ٢٧٩ ، ٢٨١

(٣) صبح الاعشى للقلقشندي ج ١ ص ٢٤٨ - ٢٥٨

وأن توكل غيرها في زواجها دون اعتراض عليها ، كما جعل الشارع للمرأة أن تشترط في عقد الزواج أن يكون أمرها بيدها تطلق نفسها من الرجل متى شئت .

في الميراث

وقد يعترض معترض على قسمة الموارث التي جعلت للمرأة نصف نصيب الرجل ، فيتوهم أن في هذا إجحافا بحقوقها . على أننا نجد لها قد زاد حظها وجل نصيبها إذا عرفنا أن المرأة عالة على الرجل في معظم أدوار حياتها ؛ فيجب عليه شرعا أن ينفق عليها ويأتي إليها بمطالبها ؛ فإذا كلف الشرع القوامين عليها من الرجال أن يقوموا بجميع حاجاتها بالمعروف ، فتقدير الشارع لها حظا من الموارث غاية في الرأفة بها ورعى جانبها والعناية بشأنها ؛ فأين حجب الاسلام على المرأة وأين التضيق عليها مع هذا التسامح ؟ (١)

في الطلاق

وقد أباح الاسلام الطلاق على أنه ضرورة ؛ وقد قال فيه الرسول : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » . كما اتفق فقهاء المسلمين على النهي عنه عند استقامة الزوجين ؛ فمنهم من قال إنه نهى كراهة ، ومنهم من قال إنه نهى تحريم . وقد رأت الحنفية تحريم الطلاق بلا سبب مستدلين بأنه إضرار . وقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن ذلك في قوله « لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ » . وقد كره الرسول أن يطلق زيد زوجته زينب بنت جحش مع أنها كانت تكثر من إيدائه والاستخفاف به ، وطالما كان يقول له « أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ » .

وقد اختلف الفقهاء في الأسباب التي تسوغ الطلاق . قال ابن عابدين : وأما الطلاق فالأصل فيه الحظر أي الحرمة ، والاباحة للحاجة إلى الخلاص عند تباين الاخلاق ووجود البغضاء ؛ فإذا تجرد عن

الحاجة المسيحة له شرعا كان محظورا . قال الله تعالى (فَإِنْ أَطَعْتَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْكُمْ سَبِيلًا) أى لا تطلبوا الفراق .

وقد جعل الاسلام الطلاق بيد الرجل ، لأن الرجل هو المسئول عن الأسرة وتدير معاشها وتربية الأبناء ، ورباط الزوجية هو أساس كل هذا ؛ فمن الخطر أن يوضع فى يد غير مسئولة .

صيانة حقوق
المرأة عند الطلاق

على أن الدين قد عوض المرأة ما عساه أن تخسره من جعل الطلاق بيد الرجل ؛ فوضع الاسلام للرجل قيودا ورسم له خطة من شأنها أن تحول بينه وبين العبث برباط الزوجية والتخلص منه لسبب غير معقول ؛ إذ كلفه أن يدفع للمرأة صداقها ، ومنعه أن يأخذ من ذلك الصداق شيئا عند الفراق ، حتى يكون فى هذه الخسارة المالية وفيما سوف يحتاج إلى بذله للزوجة الجديدة ما قد يحول بينه وبين الطلاق إن كانت له مندوحة (وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ أَحَدَهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا) . وقد نصحه أن يعرض ما بينه وبينها من خلاف على نفر من أهله وأهلها رجاء التوفيق (١) (وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقَ اللَّهُ بَيْنَهُمَا) (٢)

كما أمره باحسان معاملتها ورعايتها وخوفه من الاقدام على فسخ عقدة الزواج أو التفريط فى شأنها تخويفا دينيا وماديا (وَعَاشِرُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُنَّ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا) (٣) . وفى الحديث (٤) (إِنْ أَبْغَضَ الْحَلَالُ عِنْدَ اللَّهِ الطَّلَاقُ) وقد دان مشرعو أوروبا اليوم لما عابوه على الاسلام بالأمس ،

رأى علماء التشريع
الأوروبي فى الطلاق

(١) سورة النساء . ٤ : ٢١

(٢) سورة النساء . ٤ : ٣٥

(٣) سورة النساء . ٤ : ١٩

فشرعوا الطلاق بعد أن ألجأتهم الى تشريعه الحاجة الملحة والضرورة القصوى ، وبعد أن ظهرت لهم حكمته ووجهة نظر الاسلام في تشريعه .
واليك ما يقوله بعض فقهاءهم :

« الطلاق شر . ولكنه شر لا بد منه لصالح المجتمع ، لانه العلاج الوحيد لشر قد يكون أكثر منه بلاء . وتحريم الطلاق - بما فيه من ضرر - هو بمثابة تحريم ممارسة فن الجراحة ، لأن الجراح سوف يضطر الى بتر بعض أعضاء المريض . على أنه ليس ثمة خطر من شرعية الطلاق ، إذ ليس الطلاق هو الذي يفسد الحياة الزوجية ويحل عراها المقدسة ؛ وإنما هو سوء التفاهم بين الزوجين الذي يعوق بناءها ويدك صرحها . والطلاق وحده هو الذي يضع حدا لما عساه ينشأ بين الزوجين من نفور قبل أن يستفحل ويصبح شرا مستطيلا على المجتمع » .

"Le divorce est un mal, mais c'est un mal nécessaire, parcequ' il est le remède d'un mal plus grave. Intredire le divorce parcequ'il est fâcheux, c'est comme si on voulait interdire l'imputation parce que le chirurgien mutule le malade. Ce n'est pas le divorce qui détruit l'institution sainte du mariage, c'est la mesintelligence des épouses et le divorce y met fin." (١)

كما جعل الاسلام للمرأة الحق في المطالبة بالتفريق بينها وبين زوجها إذا وجدت ضرورة تدعوها الى ذلك ، وأجاز لها أن تتفق مع زوجها على أن يكون من حقها فك رباط الزوجية . ولوفاتها كل هذه الفرص

Planiol et Ripert, Traité élémentaire de Droit (١)
Civil (12 ème éd, Paris, 1932), tome I. p. 404.

فإنها تستطيع أن تتفق معه بعد الزواج على الفرقة بشرط أن تعوّضه عما يتعرض له من خسائر في هذا الصدد . قال تعالى : (فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يَفْقِهَ حَدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ) . (١) على أن القرآن قد حذر الرجل من مساومة المرأة وإساءة معاملتها لكي يبرز مالها (وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لَتَذهَبْنَ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ) . (٢)

وأما أن الرجل يصح له التزوج بأكثر من واحدة فيرجع إلى : الزواج بأكثر من واحدة

١ - أن هذا خير طريق للاكثار من النسل إذ كان الرسول يعلم أن المسلمين مكلفون بالجهاد في سبيل الدعوة ؛ فتزوج بعض الرجال بأكثر من امرأة كفيل بأن يعوض على المسلمين ما يفقدونه في جهادهم ويعوض الكثير من النساء عن أزواجهن الذين فقدوا في الحرب ؛ وهو سبيل لتلافي زيادة عدد البنات اللاتي بلغن سن الزواج ولم يجدن الزواج .

٢ - أن المرأة قد تكون عاقراً أو مصابة بمرض ولكن مصلحتهما تقتضى بقاءها معه .

على أن الاسلام وإن كان قد أجاز التزوج بأكثر من واحدة ، فقد أجازته بشرط ليس من اليسير تحقيقه على الوجه الأكمل ، وهو العدل بين الزوجات (فَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ) (٣)

الآداب الاجتماعية :

الاستئذان

كما حث الدين على التمسك بالفضائل والآداب العالية كالاستئذان (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا)

(١) سورة البقرة ٣ : ٢٢٩

(٢) سورة النساء ٤ : ١٩

(٣) سورة النساء ٤ : ٣

وَنُصَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ ، فَإِنْ لَمْ
تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آرْجِعُوا
فَآرْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ (١) والتحية إذ أمر برد التحية بمثلها أو
أحسن منها (وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها) . (٢) وأمر
كلا من الرجال والنساء بغض الطرف (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ
أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَى لَّهُمْ إِنْ اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا
يَصْنَعُونَ) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ
وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى
جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ
أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي
أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَاءِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي
الْإِرْبَةِ (٣) مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ
النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا
إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . (٤)

رد التحية

غض الطرف

إبداء الزينة

العهد والميثاق

وقد اهتم الدين كثيراً بمسألة العهد والميثاق . قال تعالى (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ
اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ
عَلَيْكُمْ كَفِيلًا) (٥) . وقال (إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ
يَنْقُضُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَنْهُمْ هُمْ

(١) سورة النور ٢٤ : ٢٧ - ٢٨

(٢) سورة النساء ٤ : ٨٥

(٣) الأربعة والأرب : بالكسر والضم في العمرة الحاجة والخبث والدهاء والمنكرو والقائلة .

(٤) سورة النور ٢٤ : ٣٠ - ٣١

(٥) سورة النحل ١٦ : ٩١

إلى 'مَدَّيْتَهُمْ إِبْنُ اللَّهِ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ' (١)؛ وجعل القَتِيل من القوم
المعاهدين للمسلمين في درجة المقتول من المسلمين أنفسهم فقال: (وإن
كَانَ مِنْ قَوْمٍ يَتَّبِعُكُمْ وَيَتَّبِعُهُمْ مِيثَاقُ فِدْيَةٍ مُسَلَّمَةٍ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرِ
رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ) (٢) وهذه دية المسلم نفسه .

الرق :

كان الرقيق موضع الاحتقار والمهانة في جميع الأزمان والعصور
وعند كل الأمم والشعوب . فكانوا لا يمتازون عن البهائم في المعاملة ،
حتى إن فلاسفة اليونان - وهم قادة الفكر ورسلا الأخلاق الذين نادوا
بالفضيلة وقالوا بالمساواة والأخوة الانسانية - قد قسموا الجنس البشري
قسمين : حرا بالطبع ، ورقيقا بالطبع ، وقالوا إن الثاني مخلق لإلخدمة
الأول .

على أن الاسلام قد غنى بطائفة الأسرى أيما عناية وحاطها بسياج الأسرى في الاسلام
من عدله ورحمته ، حيث خير الامام بين المِنِّ والاطلاق دون قيد ولا
شرط ، وبين الفداء بالمال أو ضرب الرق على من يديه من الأسرى . قال تعالى
(فَأَذِ الْقَيْمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضْرَبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَفْخَنْتُمُوهُمْ
فَشُدُّوا أَوْتَاقَ مَا مَنَّا بَعْدُوا إِمَاءَ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا) (٣) .
ولم يذكر لنا التاريخ أن إماما من أئمة المسلمين أمر بقتل الأسرى ،
اللهم إلا من كان يخشى خطره على المسلمين كما فعل الرسول حين أمر
بقتل النضر بن الحارث لشدة إيدائه للرسول والمسلمين بهجائهم
والتشبيب بنسائهم بعد أن أمنه قبل ذلك .

(١) سورة التوبة ٩ : ٤

(٢) سورة النساء ٤ : ٩١

(٣) سورة محمد ٤٧ : ٤

والى القارىء ما فعله الاسلام بمن ضرب عليهم الرق من الاسرى ، وهو دين قد سوّى بين الناس على اختلاف اصنافها وأجناسها ، فسوّى بين الأبيض والأسود ، والبدوى والمتحضر ، والحاكم والمحكوم ، والرجال والنساء وسوّى اليهود والنصارى بالمسلمين ماداموا فى سلم معهم أنظر الى المسلمين وهم فى المسجد يؤدون فريضة الصلاة ، أو فى مكة يحجون البيت الحرام ، أو فى المحاكم الشرعية فى صدر الاسلام . أفتجد فيهم من فاضل ومفضل ؟ ولا غرو فقد جعل الله المؤمنين أخوة لا تفاوت بينهم إلا بقدر ما يتفاضلون به من الحق . فلقد قال عليه الصلاة والسلام فى خطبة الوداع : « أيها الناس ! إنما المؤمنون إخوة . إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد . كلكم لآدم وآدم من تراب . إن أكرمكم عند الله أتقاكم . ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى » (١) .

وقد روى عن ابن عباس أن أحد الموالى خطب الى جماعة من بنى ياضة ، وأشار عليهم الرسول بتزويجه فقالوا له : يا رسول الله ! أنزوج بناتنا موالينا ؟ فنزل قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا . إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (٢)

وقد روى فى نزول هذه الآية سبب آخر لا يقل عن هذا السبب فى الدلالة على مبلغ عناية الاسلام بالرقيق . فقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالا بأن يؤذن على ظهر الكعبة . فغضب الحارث بن هشام وعتاب بن أسيد وقالوا : أهذا العبد الأسود يؤذن على ظهر الكعبة ؟

(١) الاسلام دين الفطرة للشيخ عبد العزيز جاويز ص ٧٧ - ٧٨

(٢) سورة الحجرات

أضف الى ذلك ما كان من تأخير الرسول أسامة بن زيد بن حارثة وهو مولى حديث السن ، على جيش المسلمين وفيه وجوه الصحابة ، وتشجيع أبي بكر لأسامة هذا وترجله بجانب فرس أسامة حتى لقد قال له أسامة : يا خليفة رسول الله ! والله لتركبن أو لأنزلن . فقال أبو بكر : والله لا تنزل ، والله لا أركب (١) .

ناهيك بتزويج الرسول زينب بنت جحش ابنة عمته من مولاه زيد ابن حارثة ، ثم تزوج الرسول بها بعد أن كانت زوجة أحد مواله كما تقدم (ص ١٣٥ - ١٣٦)

« على أن الشرع لا يبيح أن يُستَرْقَّ مسلم أصلاً ، ثم إنه لا يبيح بعد ذلك إلا استرقاق أسرى حرب شرعية لم تقم إلا على إعلاء كلمة الله تعالى ، مراعى فيها أن تكون مسبوقة باعتداء غير المسلمين عليهم . . . أما استرقاق غير المحاربين ممن لا كتاب لهم ولا شبهة كعبدة الأوثان ، فقال مالك والشافعي وأحمد في إحدى رواياته إن ذلك لا يجوز مطلقاً » (٢)

وقد حاول الإسلام جهده أن يلغى ذلك النظام ويحول دون انتشاره بشتى الوسائل . فقال فقهاء المسلمين إن كل من أسلم من الأسرى عصم نفسه وماله ، وإن مجرد دخول العدو المحارب دار الإسلام أمان له من السبي .

وصفوة القول أن الإسلام قد وضع من الأصول والنواميس ما كاد يقضى على الاسترقاق ، لولا أن الأمم العربية وغيرها كانت إذ ذاك على ما نعلم من التمسك بهذا النظام . وبدهى أنه لا يمكن الرسول

(١) الطبرى ج ٣ ص ٢١٢

(٢) الإسلام دين الفطرة ص ٧٩

عليه الصلاة والسلام أن يزيل أمراً ألقته النفوس واستولى عليها ذلك الاستيلاء .

على أن الاسلام لم يَنْ في تعبيد الطريق لالغاء الاسترقاق . فسا قىء الرسول يُرَغِب الناس في العتق ، كما جعل الدين أحوالاً يلزم فيها السيد بالاعتاق . فمن ذلك إخبار الرسول أصحابه غير مرة بأن العتق من أجل العبادات وأقربها قبولاً عند الله ، كما جعل كفارة لبعض الخطايا والحنث في بعض الايمان . وفي القرآن غير آية قد جعلت فك الرقاب أولى العبادات التي يتقرب بها المسلم إلى ربه .

عرف الاسترقاق عند اليهود واليونان والرومان ، كما عرف بين قدماء الألمان . وقد أفرط الأخيرون في استخدام الرقيق حتى ضرب بهم المثل في ذلك . وقد وجد عند اليهود منذ نشأتهم نوعان من الاسترقاق : أحدهما استرقاق بعض أفراد منهم لارتكابه خطيئة من الخطايا المحظورة شرعاً أو في دين عليه . والنوع الآخر استرقاق غير اليهود ممن قضى عليهم أن يصيبهم شيء من عسف اليهود وحرورهم التي كانوا يقيمونها بلا مسوغ سوى الشره على السيادة . فكانوا يبيعونهم كما يُباع المتاع ، سواء في ذلك العبيد المستخدمة في المنازل وعبيد الحقول والمزارع ، فانهم كانوا يقضون حياتهم محقرين مستخرين . ثم جاء المسيح عليه السلام فلم يمنع الاسترقاق ، ولم يعمل على إلغائه أو تقليله .

الرق عند اليهود
والمسيحيين

وكان للرومان في الاسترقاق وسائل شتى وأساليب مختلفة . فكانوا يملكون الرقيق إما بحرب أو شراء أو اختطاف . وكان للسيد أن يتصرف في عبده بما شاء ، حتى كان له أن يقتله ^(١)

عند الرومان

وأما مصادر الرق عند العرب في الجاهلية فلا تكاد تختلف عنها

عند العرب
في الجاهلية

عند الأمم الأخرى . فقد كان بجانب أسرى الحرب مصادر أخرى للاسترقاق ، كالخطف والقرصنة في البحار والصحراء إلى أن ظهر الاسلام فأخذ الطريق على جميع تلك الوسائل ، ومنع الاسترقاق إلا عن طريق الحرب المشروعة المنظمة . وإنما أبقى عليه :

أولاً : لحفظ التوازن بين الدولة الإسلامية وبين أعدائها

ثانياً : لحماية الضعفاء من نساء أو كلت الحرب رجالهن . ولو تركن وشأنهن لكن عائلة على المجتمع ومصدراً للشروع .

عناية الاسلام
بالرق

على أن الإسلام ، وإن لم يجد بدا من إباحت الرق ، فإنه لم يترك الأرقاء هملاً . فقد نظم شؤونهم وأخذ بأيديهم في طريق الحرية ، فسوى بين الرقيق ومولاه في الطعام والشراب واللباس والتعليم والتهديب . وبالجملة فقد سواهم بسادتهم في معظم الحقوق المدنية ، اللهم إلا في الولاية (أى الرئاسة) ، كما حضَّ على معاملتهم بالحسنى ، ورغب المسلمين في تحرير من بأيديهم من الأرقاء وحذرهم من إساءة معاملتهم . وقد اعتبر الاسلام الرق عارضاً . ولذا شرع وسائل عدة للنهوض بالأرقاء ومساعدتهم على استرداد حريتهم واستقلالهم . قال تعالى (وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ) (١)

المكاتبة

وقد أجمع فقهاء المسلمين على أن مكاتبة العبد مستحبة . وللامام أحمد بن حنبل في رواية أنها واجبة متى دعا العبد سيده إليها على قدر قيمته أو أكثر ، وأن للعبد الاتجار ليحصل على ما يدفعه لسيده من نجوم (٢) الكتابة ، وأن على سيده أن يتركه يشتغل أين شاء وفيما شاء .

وإذا امتنع المكاتب عن الأداء ومعه ما بقى من المال المتفق عليه ،
فالحنفية تجبره على الأداء حرصاً على تحريره . وإذا لم يكن معه مال -
ولكنه قادر على الكسب - فالمالكية تجبره على الكسب مادام قادراً
عليه . ويشترط الفقهاء أن يراعى في عقد الكتابة حال الرقيق ، كما يرون
أن أقل وعد من السيد ، أو أقل احتمال للوعد بالتحرير ، يجعل التحرير
ضرورياً . (١) . كما رغب الاسلام في إعتاق الرقيق بدون مقابل ابتغاء
وجه الله . قال تعالى (أَلَمْ تَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ
وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ . فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ .
فَكَمْ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِينًا
ذَا مَتْرَبَةٍ) (٢)

التدبير

ولم يترك الاسلام فرصة من فرص التحرير إلا انتهزها ، فسن
طريقة التدبير ، وهي أن يوصى السيد بأن يكون عبده حراً بعد موته .
وقد اتفق الأئمة على أنه لو كان في يد إنسان غلام بالغ عاقل وادعى
عليه أنه عبده فكذب الغلام ، فالقول للغلام مع يمينه أنه حر .
وبتطبيق القاعدة المشهورة « الْبَيِّنَةُ عَلَى الْمُدْعَى » واليمين على من
أنكر ، نجد أن الشرع قد اعتبر أن حرية الانسان هي الاصل وأن
الرقيق أمر عارض ، فكلف من ادعاه بالبينة ، واكتفى ممن أنكره باليمين .
ولا يخفى ما في ذلك من شدة حرص الشارع على تحرير الارقاء ما وجد
إليه سبيلاً . أضف الى ذلك إجماع الفقهاء على أنه إذا التقط شخصان
لقيطاً : فادعى مسلم أنه عبده وادعى كافر أنه ابنه ، فانه يقضى ببنوته
للكافر حتى يكون حراً ، ولا يقضى للمسلم حتى لا يكون رقيقاً !
ومن هذا يتبين لنا مبلغ تقديس الاسلام للحرية .

(١) الاسلام دين الفطرة ص ٨١ (٢) سورة البلد ٩٠ : ٨ - ١٦

وللإسلام - عدا ما ذكرنا - وسائل شتى لتحرير الرقاب . فقد جعل الشارع من مصارف الزكاة عتق الرقاب بأن يعطى الحاكم للرقيق المكاتب ما يستعين به على فك رقبته ، أو أن يشتري الحاكم بمال الصدقة العبيد ويعتقهم .

معاملة المسلمين
للرقيق

عن واصل الأحدب قال سمعت المعرور بن سويد قال : رأيت أبا ذر الغفارى وعليه حلة وعلى غلامه حلة . فسألناه عن ذلك فقال : سَبَّيْتُ رجلا فشكاني إلى النبي صلى الله عليه ؛ فقال لى النبي : أَعَيَّرْتَهُ بأمه ؟ ثم قال : « إخوانكم - خولكم جعلهم الله تحت أيديكم . فمن كان أخوه تحت يده ، فليطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس . ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم . وقال ، عليه الصلاة والسلام « إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه . فإن لم يجلسه معه فليناوله لقمة أو لقميتين أو أكلة أو أكلتين فإنه وَلِىٌّ عِلَاجِهِ (١) »

وعن ابن مسعود الانصارى قال : بينا أنا أضرب غلاما لى إذ سمعت صوتا من خلفى « اعلم يا ابن مسعود » مرتين ، فالتفت ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فألقيت السوط من يدى فقال : والله لله أقدر عليك منك على هذا . وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن الرسول رأى رجلا على دابة وغلامه يسعى خلفه ، فقال : يا عبد الله ! احمله خلفك ، فإنما هو أخوك روحه مثل روحك . فحمله »

ولم تكن العناية بالرقيق مقصورة على الرسول ؛ بل لقد روى أن على بن أبى طالب قال : إني لأستحي أن أستعبد إنسانا يقول ربى الله . ومن أحسن ما روى عن على أنه أعطى غلامه دراهم ليشترى بها ثوبين متفاوتى القيمة ؛ فلما أحضرهما أعطاه أرقهما نسيجا وأغلاهما قيمة

(١) العيني (شرح صحيح البخارى) ج ١٣ ص ٢٧٠ الاحياء للقرائى : باب حقوق الملوک .

وحفظ لنفسه الآخر . وقال له : أنت أحق منى بأجودهما ؛ لأنك شاب وتميل نفسك للتجمل ؛ أما أنا فقد كبرت .

وقد عني الاسلام بنفسية الرقيق عناية خاصة . فقال تعالى يُطِيبُ خاطرهم ويفتح باب الامل في المغفرة وحسن الجزاء : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنَّ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِيكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (١) وقال الرسول « العبد إذا نصحه سيده وأحسن عبادة ربه كان له أجره مرتين » ، حتى إن كثيرا منهم كان يتمنى أن يعيش رقيقا ليكون له أجران . روى أنه لما أعتق أبو رافع بكر قال : كان لي أجران فذهب أحدهما .

وقد وصف فان دنبرغ معاملته الاسلام للرقيق بقوله : « لقد وضع للرقيق في الاسلام قواعد كثيرة تدل على ما كان ينطوى عليه محمد وأتباعه نحوهم من الشعور الانساني النبيل . ففيها تجد من محامد الاسلام ما يناقض كل المناقضة الأساليب التي كانت تتخذها الى عهد قريب شعوب تدعى أنها تمشي في طليعة الحضارة . نعم ! إن الاسلام لم يبلغ الرقيق الذي كان شائعا في العالم ، ولكنه عمل كثيرا على تحسين حاله ، وأبقى حكم الأسير ، ولكنه أمر بالرفق » (٢) . واليك مثال لذلك لما أقبل بالاسرى بعد غزوة بدر الكبرى فرقمهم الرسول على أصحابه وقال : استوصوا بهم خيرا . وقد قال أبو عزيز بن عُمَيْر : كنت في رهط من الانصار حتى أقبلوا بي من بدر ، فكانوا إذا قدموا غداهم أو عشايمهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله إياهم بنا . وكان أبو عزيز هذا صاحب لواء المشركين في بدر .

فان دنبرغ ومعاملة
الرقيق في الاسلام

(١) سورة الانفال ٨ : ٧٠

(٢) الاسلام روح المدنية للشيخ مصطفى الغلاييني ص ٤٢١

٣ - التأثير الأدبي :

رأى العرب في بلاغة القرآن وروعة أسلوبه ما بهرهم واستثار إعجابهم ، فانساقوا إلى تقليده ومحاكاته ^(١) . فشاعت ألفاظه وطرأ في جميع قبائلهم ، وأصبحت معروفة لديهم فيما ينشئون من خطب وأشعار . فكان لهم بذلك لغة عامة وحدت مشاربهم وخلقت فيهم خيالا متجانسا ومثلا عليا متحدة .

يقول الأستاذ محمد بك كرد علي في كتابه « الإسلام والحضارة العربية » ^(٢) « والقرآن أبلغ كتاب للعرب ، ولولاه لما كان لهم أدب ولا شريعة (كتاب فضلت آياته قرآنا عَرَبِيًّا) . عجز فصحاء العرب عن الإتيان بمثله مع أنهم خصوا بالتحدى ^(٣) ، وكان للفصاحة عندهم المقام الأرفع ، فاعترفوا بعد جدال طويل : « أن نظم القرآن على تصرف وجوهه ، واختلاف مذاهبه ، خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه على أساليب الكلام المعتاد » ^(٤) ، جعله

(١) وقد بلغ اقتتان العرب بالقرآن وإعجابهم به أن امتنع بعضهم عن قول الشعر ، كما فعل لبيد بن ربيعة أحد أمحباب المعلقات . فانه قدم على الرسول في وفد من قومه ، وأسلم وحسن إسلامه واستغنى بالقرآن وقرآته عن شعره الذي ينبغ فيه ، حتى لم يصح عنه في أربعين سنة قضاها في الاسلام الا بيت واحد :

ما عاتب الحر الكريم كنفه . والمرء يصلحه المجلس الصالح
وهو في رواية الاغانى : —

الحمد لله اذ لم يأتني أجلى . حتى لبست من الاسلام سربالا
وكان إذا سئل عن شعره تلا سورة من القرآن وقال أبدلني الله خيرا منه . أنظر ترجمة لبيد في طبقات الشعراء لابن سلام والشعر والشعراء لابن قتيبة والاعاني (ج ١٤ ص ٧٤)

Nicholson, Literary History of the Arabs, pp. 119-120

(٢) الاسلام والحضارة العربية ص ٦٧ وما يليها

(٣) تحدى أقرانه إذا باراهم ونازعهم الغلبة وتحدى صاحبه القراءة والصراع لينظر أيهما أقرأ وأصرع

(٤) الأستاذ محمد بك كرد علي عن كتاب إعجاز القرآن للباقلاني

الله كما قال علي بن أبي طالب : رياً لعطش العلماء ، وريباً ، لقلوب الفقهاء ، ومحاج لطرق الصلحاء ، وبرهاناً لمن تكلم به ، وشاهداً لمن خاصم به ، وفالجاباً لمن حاج به ، وعلماً لمن وعى ، وحديثاً لمن روى ، وحكماً لمن قضى .

قال جان جاك روسو في القرن الثامن عشر : « من الناس من يتعلم قليلاً من العربية ثم يقرأ القرآن ويضحك منه ، ولو أنه سمع محمداً يمليه على الناس بتلك اللغة الفصحى الرقيقة ، وذلك الصوت المقنع المطرب المؤثر في شغاف القلوب ، ورآه يؤيد أحكامه بقوة البيان ، لخر ساجداً على الأرض وناداه أيها النبي رسول الله خذ بأيدينا الى مواقف الشرف والفخر ، أو مواقع التهلكة والأخطار ، فنحن من أجلك نود الموت أو الانتصار » . وقال كارلايل (Carlyle) في القرن التاسع عشر : « إن فرط إعجاب المسلمين بالقرآن وقولهم بإعجازه أكبر دليل على تباين الأذواق في الأمم المختلفة . والترجمة تذهب بأكثر جمال الصنعة وحسن الصياغة » . وجاهر كلود فارير في القرن العشرين بأن « آيات القرآن جميلة وتحسن تلاوتها ، فيها نفحة طاهرة عجيبة ، لأنها تأمر بالشجاعة والصدق والأمانة ، وتدعوا الى حماية الضعيف والى عبادة إله واحد » ^(١) .

٤ - الأثر السياسي :

جمع الاسلام قبائل العرب تحت لوائه وألف بين قلوبهم وقضى على العصبية الجاهلية ، فزالت الحزازات القديمة والثرات التي بين القبائل ، فخفضوا لحكم النبي وأوامر القرآن بعد أن كانوا يدينون لرؤساء متفرقين . وبذلك قامت في بلاد العرب حكومة مركزية تحترمة عزيزة الجانب ، فانتظمت أحوالهم الداخلية . وكان حماس العربي للاسلام وولاؤه له لا يقل عن حماسه لوثنيته واستبساله في الذود عنها . ومن ثم

(١) نقلاً عن كتاب الاسلام والحضارة للأستاذ محمد بك كرد علي ص ٦٩

بذل النفس والنفيس في سبيل نشر الدين وحمايته ، حتى دانت قبائل العرب وأصبحت ترى في الاسلام رمز وحدتها وشعار مجدها . وقد حرصهم على الاستئانة في نشر هذا الدين الجديد ماضممه لهم من حسن ثواب الدنيا والآخرة . قال تعالى

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) (١)

وقصارى القول إن الاسلام قد غير خلق العرب ، وساعد على نشر الفضيلة بين ظهرانهم ، حتى ظهر من بينهم رجال كثيرون اشتهروا بالورع والتقوى .

الاعراب

إلا أنه كان هناك فريق سُمُّوا الأعراب عرفوا بالنفاق . وقد وصفهم الله تعالى في قوله (الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرُ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (٢)

بين الجاهلية والاسلام :

راى براون

قال الأستاذ براون : « لم يكن عمل محمد في نشر الاسلام سهلا . فقد كانت السنوات الثمان أو العشر التي قضاها في مكة إلى أن هاجر إلى المدينة سنة ٦٢٢ م (وهي السنة التي اعتبرها المسلمون مبدأ لتاريخهم ولا زالوا على ذلك إلى اليوم) عصر يأس وقنوط ، إذا استثنينا هؤلاء المسلمين الذين عمرَ الايمان قلوبهم ، فلم يحفلوا بالتعذيب ولم يجد اليأس إلى قلوبهم سبيلا ؛ ولم يكن يشق على العرب - وبخاصة بدو الصحراء - أن ينبذوا آلهتهم ويتركوا عاداتهم الموروثة ، لولا أنهم كرهوا هذه التكاليف التي أتى بها الاسلام ، كما شق عليهم ذلك الوعيد

(١) سورة آل عمران ٣ : ١٦٩ - ١٧١

(٢) سورة التوبة ٩ : ٩٨

(٣) يعنى منذ أمو الرسول بالجهر بالدعوة الى عام هجرته

الذى أتى به القرآن . لذلك رفضوا هذه النظم التى أتى بها الاسلام . ولا يزال عربى الصحراء الصميم على بداوته الأولى الى اليوم ، لا يعتقد بشىء ولا يسعى الا وراء المادة . ولم يكن ذكاؤه إلا نشاطا عقليا فى دائرة محدودة . ولم تكن سذاجته وسرعة تصديقه وميله لقبول كل غريب لتدفعه إلى تصديق ما أتى به الدين مما يتصل بالأمور المعنوية . كما أن طبيعته التى فطرت على الاعتزاز بالنفس والثقة بها لم تكن لتشعر بالحاجة إلى إله يخضع له ويفنى فى عبادته . ولم تكن فكرة التوحيد والانصراف عن هذه الآلهة المتعددة إلى إله واحد اكتشافا حديثا انفرد به الاسلام . ومع أن الاسلام كان يطالب العرب الوثنيين بتكاليف مادية وقرابين أقل مما كانوا يقدمونه لأوثانهم ، فإن تلك الأوثان ما كانت لتفرض عليهم تلك الفروض التى أتى بها الاسلام . كما أنهم كانوا لا يلقون إليها بالموودة إلا بقدر ما تصيهم به من خير ، بخلاف الاسلام الذى كان يطالبهم بالخضوع لله تعالى فى السراء والضراء ويأمرهم بالرضا بالقضاء خيره وشره .

ويقول دوزى : وكانوا يغضبون من الآلهة ويجبهونها بحقيقة ما يعتقدون كما كانوا يتحدثونها . « وكانوا يهينون الأعلام (١) ويطرحونها فى غضب وازدراء إذا كانت مشورتها على غير ما تهوى نفوسهم . وكانوا يسبون الأصنام ويرجمونها بالحجارة إذا عاكسهم القدر فظنوه من غضب تلك الآلهة وعدم قبولها قرابينهم . وكانوا يسقطون آلهتهم عن عروشها (٢) ويشبعونها سبابا بالآقل سبب ومع ذلك فلم تكن هذه الحالة (٣) لتحمل العرب على قبول هذا الدين الجديد الذى يفرض عليهم أوامره ونواهيه . حقا إن هذه الآلهة ، وإن لم يكن لها سلطان عليهم ، فقد كانت مألوفة لهم ولم تكن لتضرهم فى شىء ، والعرب وإن لم تكسب من هذه الآلهة خيرا ، فإنها لم تكلف لها شيئا يذكر . يضاف إلى ذلك

(١) الزلم هو القمح وجمعها أعلام . والقداح هى السهام التى كان الجاهليون يستقسمون بها أى يستشيرون فيها فيما همون بالغياح به من سفر أو تجارة أو نحو ذلك . (٢) القواعد التى كانوا يضعون عليها التماثيل أو الأصنام (٣) أى عدم احترامهم لتلك الآلهة على هذه الصورة التى وضعها

أن الاسلام لم يسلم هذه الأوثان ولا الذين يعبدونها وألقوا عبادتها؛ بل ناصبهم العداوة. والواقع أنه كان من بين الأسباب التي ساعدت على انتشار ذلك الدين الجديد الذي ينهى عن عبادة الأوثان أنه لم يصطدم بعبادة لها مركز في قلوب أصحابها»

جولدتزيهر

وقد وازن جولدتزيهر في باب الدين والمروءة (١) بين المثل العليا في الجاهلية والاسلام فقال: إن الشجاعة الشخصية، والكرم الذي لا يحد، والبذخ والاسراف في إقراء الضيف، واختصاص ذوي قرباه بنصره وولائه، وأخذ الثار من غير مारحة ولا شفقة إذا ما اعتدى عليه أو على عشيرته، كانت أظهر الفضائل في الجاهلية. أما في الاسلام فتجد الصبر والاحتمال، وإيثار المصلحة العامة على المصلحة الخاصة شخصية كانت أو قبلية؛ كما نجد عدم الاكتراث بالأموال الدنيوية والأعراض الزائلة، وتجنب الرياء والفخر وكثيرا غيرها مما جاء به الاسلام. وكانت هذه الفضائل جديرة بأن تبعث المسلم على ازدياد هذه المثل العليا للجاهلية (٢)»

بعض المثل الإسلامية

وإن هذه المثل التي جاء بها الاسلام ليتجلى بعضها في القرآن (٣) (لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ).

رأى تلكه

« وإن الأثر الوحيد الجدير بالذكر الذي تركه الاسلام في الحرب

Ignaz Goldziher, Muhammedanische Studien. (١)

Browne, Literary History of the Arabs. vol. (٢)

I, pp. 189—191.

(٣) سورة البقرة ٢: ١٧٧

هو القضاء على الأخذ بالثأر؛ حتى إن كل قبيلة كانت تخضع للإسلام أو تدين له وتعتنقه، تنزل عن حقها في الأخذ بثأر من سفكت دمائهم في الوقائع والحروب، مع أننا كنا نجد العربى في غير تلك الظروف يرى أن ترك الأخذ بالثأر أو دية الدم من أخطأ صفات الذلة والعار. ولكن اتخاذا العرب الرسول زعيما لهم، ذلك الأمر الذى كان شاقا على نفوسهم وصعبا عليها أن يدينوا لواحد منهم، قد هيا ذلك الشعب العربى لقبول تلك الحالة الجديدة، فالآن قناتهم وأسس قيادتهم فآثمروا بأمره، حتى إنه لم يعد هناك وثنى إلا ودافع دفاع المخلصين في الذود عن ذلك الدين الجديد. ومن ثم يتضح لك كيف استطاع عرب ذلك العصر نشر دينهم في جميع الربع والأرجاء» (١)

بعض المثل الجاهلية

واليك قصيدة تأبط شرا (٢) التى تصور لنا تلك المثل الجاهلية وكيف كان ينظر العرب اليها. وعلى الرغم من تشكك علماء الشعر في نسبة هذه القصيدة إلى العصر الجاهلى وحكايتهم عن خلف الأحمر أنها منتحلة، فإن هذا التشكك لا يقلل من قيمتها باعتبارها صورة (٣) للمثل العليا التى كان يتمسك بها عرب الجاهلية. وهذه القصيدة التى نظمها هذا الشاعر على أثر قتل هذيل لعمه وإغارته عليهم ليأخذ بثأره، قد تحدثت فيها بأن دم عمه لن يهدر، وبأنه سيضطلع بهذا العبء، وبأن من ورائه ابن أخت له قوى جدير بأن يشد أزره وأن يحل محله.

Noeldeke, *Historians' History of the World*, (١)
vol. VIII, p. 20

(٢) واسمه ثابت وكنيته أبو زهير من بنى فهر. وإنما لقب بهذا اللقب لأنه تأبط سكتينا ذات يوم، وسئلت أمه عنه فقالت: لا أدري إنه تأبط شرا وخرج. وقيل غير ذلك. ديوان الحماصة لابن تمام مختصر شرح التبريزى (القاهرة سنة ١٣٣٤ هـ سنة ١٩١٦ م ص ٢٩٦ - ٣٠٣)
(٣) نرى أن الحجة التى اعتمد عليها من ادعى انتحال هذا الشعر هي أمور تتعلق باللفظ وطرق التعبير: إذ قال النمرى: وما يدل على أنه مولد قوله (في البيت السادس) جل حتى دق فيه الأجل. فإن الأعرابي لا يكاد يتغفل إلى مثل هذا. أما الحجة الأخرى فهى ملاحظة جغرافية تتعلق باللفظ سلع (وهو جبل أو موضع في الشمال الغربي من المدينة) الذى ورد في البيت الأول أبعد هذا المسكان عن ديار هذيل التى قتل فيها عم تأبط شرا، أى أنهم لم يذكروا أن متحل هذا الشعر قد أخطأ فتمدح بأمر لم تكن بما يتمدح به العرب.

ثم ينتقل من قتل عمه الى وصف ما في هذا الحادث من خسارة فادحة
حلت به ، ثم يستطرد في ذكر مناقب عمه ، ثم يذكر هجوم فتيان
هذيل عليهم ، ويعقب ذلك بوصف قوتهم وقدرتهم على دفعهم ، ثم
يتسلى عن قتلهم عمه بأن عمه كثيرا مانال منهم ، ويصف حياة عمه
في حالتي السلم والحرب :

إِنَّ بِالشَّعْبِ (١) الَّذِي دُونَ سُلْعٍ لِقْتِيلاً دَمُهُ مَا يُطْلُ (٢)
خَلَفَ الْعَبَّاءَ عَلَى وَوَلَّى أَنَا بِالْعَبِّاءِ لَهُ مُسْتَقِلُّ (٣)
وَوَرَاءَ الثَّارِ مِنِّي إِبْنُ أُخْتِ مِصْعٍ (٤) عُقْدَتُهُ مَا تَحَلُّ (٥)
مُطْرِيقِ (٦) يَرَشِّحُ سَمًا كَمَا أَطْـسَرَقَ أَقْعَى يَنْفِثُ التَّمَّ صِلُ (٧)
خَيْرُ مَا نَابَنَا مُصْمَعِلُ (٨) جَلَّ حَتَّى دَقَّ فِيهِ الْأَجَلُ
بَرَزَنِي (٩) الْمَدْهَرُ وَكَانَ عَشُومًا بَابِي جَارُهُ مَا يُبْذَلُ
شَامِسٍ (١٠) فِي الْقَرِّ حَتَّى إِذَا مَا ذَكَتِ الشَّعْرَى (١١) قَبَرْدُ وَظِلُّ
يَابِسُ الْجَنِينِ (١٢) مِنْ غَيْرِ بُؤْسٍ وَنَدَى السَّكْفَيْنِ شَهْمٌ مُسْدِلُ (١٣)
ظَاعِنُ (١٤) بِالْحَزْمِ حَتَّى إِذَا مَا حَلَّ ، حَلَّ الْحَزْمُ حَيْثُ يَحُلُّ
غَيْثُ مَزْنٍ (١٥) غَامِرُ (١٦) حَيْثُ يُجْدِي وَإِذَا يَسْطُو فَلَيْتُ أَبْلُ (١٧)

(١) الشعب الطريق في الجبل (٢) ما يهدر (٣) استقل بالشئ رفعه بالع. حمله (٤) المصع
يكسر الصاد وتسكنها هو الرجل الشديد أو الضارب بالسيف (٥) لا يثنى عن عزمه
(٦) مرخى عينه ينظر الى الارض (٧) الصل الخبيث من الافاعي . ومعنى البيت أن ابن
أخته شجاع في الحرب يطرق أطراق الحية الخبيثة التي تغذف السم (٨) المصمحل الشديد . ومعنى
البيت أن الذي أصابه ونزل به بخبر موته خطب جليل يصغر عنده العظيم من الحوادث (٩) سلبني
والمراد لجفت في هذا الراحل الأبني عن الضيم الذي يجعل جاره عزيزا (١٠) شمس يومنا كنصر
وجلس وكسمع صار ذا شمس ومنه شامس ذو شمس . والمقصود هنا أنه ذو دف بما يفيضه على
حليفه ويكرمه به من طعام ولباس كالشمس تدف. المرقور (١١) نجم وذكت الشعرى وضحت
وبانت في السماء ولا يكون ذلك الا في الصيف في ليلة حرها شديد . ومعنى البيت أنه قد اعد
الضيافته طعاما ولباسا في الشتاء وظلا ظليلا وماء باردا في حر الصيف (١٢) يابس الجنين هو ريل
ضامر وكانوا يمدحون بذلك (١٣) المدل الواثق بنفسه وبعده (١٤) الظعن السفر والانتقال
(١٥) الغيث المطر والمزن جمع مزنة وهي السحابة البيضاء (١٦) غمر الماء كثر . وغمر الشئ
غطاه (١٧) اللبث الايل هو المصمم الماضي على وجهه لا يبالي ما يلقى

مُسْمِلٌ فِي الْحَيِّ (١) أَخَوِي (٢) رَقِلْتُ (٣)

وَإِذَا يَغْزُو تَسْمِعُ (٤) أَزَلْتُ (٥)

وَلَهُ طَعْمَانٍ أَرَى وَشَرَى (٦) وَكِلَا الطَّعْمَيْنِ قَدْ ذَاقَ كُلُّ

رَكْبٍ أَهْوَلَ وَحِيدًا وَلَا يَصْنَعُهُ إِلَّا التَّيْمَانِيُّ الْأَقْلُ (٧)

وَفَتَوُ (٨) هَجَرُوا (٩) ثُمَّ أَسْرَوْا (١٠)

لَيْلَهُمْ حَتَّى إِذَا انْجَابَ (١١) حَلُّوا (١٢)

كُلُّ مَاضٍ (١٣) قَدْ تَرَدَّى (١٤) بِمَاضٍ (١٥)

كَسَنَّا الْبَرْقِ (١٦) إِذَا مَا يُسَلُّ (١٧)

فَادَّرَ كُنَّا الثَّأْرَ مِنْهُمْ وَلَمَّا يَنْجُ مَلْحَحَيْنِ (١٨) إِلَّا الْأَقْلُ

فَاخْتَسَوْا أَنْفَاسَ نَوْمٍ (١٩) فَلَمَّا

هَوَّوْا (٢٠) رُعْتَهُمْ (٢١) فَاشْمَعُوا (٢٢)

فَلَمَّحْنِ قَلْتُ (٢٣) هَذَا لَيْلٌ شَبَاهُ (٢٤)

لَيْمًا كَانَ هَذَا لَيْلًا يَقْلُ (٢٥)

(١) مسبل في الحي: يسبل ثيابه حينما يكون في الحي (٢) الاخوي: من في شفيعه سواد وهو محمود

(٣) الكثير اللحم والواسع الثوب (٤) السمع ولد الذئب (٥) الازل: السريع المشي الخفيف

لحم العجز والفخذين. في القاموس المحيطان (السمع الازل ذئب أرسح يتولد بين الضبع والذئب) والارسح

من الرسح وهو قلة لحم العجز والفخذين (٦) الأرى العسل والشرى الخنظل. ويقصد أنه قد أذاق

الناس في كرمه أطيب الاطعمة كرما كما أنه أذاق أعداءه الصاب والمعلم (٧) السيف المثلج من كثرة

الضرب به (٨) جمع قى على وزن فعول مثل ذكر وذكور (٩) ساروا وقت الهجرة وهي اشتداد

الحر في منتصف النهار (١٠) الاسراء والسرى السير ليلا (١١) انجباب الليل: انقضى (١٢) أقاموا

(١٣) شخص ماض أى ماضى العزيمة (١٤) لبس الرداء والمعنى تقلد السيف أو نحوه

(١٥) السيف الماضى: القاطع (١٦) السنا الضوء (١٧) يلع في الأفق (١٨) من الحين

(١٩) احتسنى الشراب: تناوله متقطعا. ويقصد من احتساء أنفاس النوم وقوعهم في نوم عميق

(٢٠) هوم الرجل: اذا هز رأسه من التماس (٢١) أى فرغتهم من الروع (٢٢) أسرعوا

في السير. والمقصودون في هذا البيت هم أعداؤه (٢٣) فل حد السيف: كمره (٢٤) والشبابة

حد السيف (٢٥) فكثيرا ما كان يغل هذيلًا

وَبِمَا أُبْرَكَ كَهَمَا (١) فِي مُنَاخٍ جَفِيعٍ (٢) يَنْقَبُ فِيهِ الْأَظْلُ (٣)
وَبِمَا صَبَّحَهَا (٤) فِي ذَرَاهَا (٥) مِنْهُ بَعْدَ الْقَتْلِ نَهْبٌ وَشَلٌّ (٦)
صَلَبَتْ (٧) يَمْنَى هَذَا يَلُّ بِخَرْقٍ (٨) لَا يَمَلُّ الشَّرُّ حَتَّى يَمَلُّوا
يُسْهِلُ (٩) الصَّعْدَةَ (١٠) حَتَّى إِذَا مَا نَهَكَتْ كَانَ لَهَا مِنْهُ عِلٌّ (١١)
سَحَلَتْ الْخَمْرُ وَكَانَتْ حَرَامًا وَيَلْأِي (١٢) مَا أَلَمَّتْ (١٣) تَحُلُّ
فَاسِقْنِيهَا يَا سَوَادَ (١٤) بَنَ عَمْرٍو إِنْ جِئْتَنِي بَعْدَ خَالِي تَحُلُّ (١٥)
تَضَحَّكَ الضَّمْعُ لِقَتْلِي هَذَا يَلُّ وَتَرَى الذَّنْبَ لَهَا يَسْتَهْلُ (١٦)
وَعِتَاقُ الطَّيْرِ (١٧) تَعْدُو بَطَانًا (١٨) تَمَخَّطَاهُمْ فَمَا تَسْتَقِلُّ (١٩)

حديث جعفر
ابن أبي طالب
إلى النجاشي

ولنأت بحديث جعفر بن أبي طالب إلى النجاشي حين دبرت
قريش المكائد لإخراج المهاجرين من بلاد الحبشة وإعادتهم
إلى بلدكم ليفتنوهم عن دينهم ، فأرسلوا عمرو بن العاص
وعبد الله بن أبي ربيعة لتحريض النجاشي على إخراجهم من بلاده .
وقد تقدم القول بأن النجاشي بعث في طلب المهاجرين وسألهم عن
حقيقة دينهم ، فتقدم جعفر بن أبي طالب ورد عليه في هذا الحديث

(١) أناخا (٢) الجمع : الأرض الغليظة (٣) ينقب يعني يحفر والأظل هو باطن خف البعير . ومعنى
البيت أنه كثير أما حل هذا يلا على الأرض الصعبة التي تحفر قدم البعير وحملهم الكثير من المشاق (٤) صبحها :
أناها في الصباح (٥) الذرى : الظل . وذرى البيت ساجته (٦) الشل : الإفساد والطرده . أى أنه
أعقب تقتله إياهم بنهب وإفساد في عقر دارهم في وضع النهار (٧) صلى النار : قامى حرارتها
(٨) الخرق : الشجاع (٩) النهل : الشرب أولا . والانتهال إيراد البعير ليشرب لأول مرة
(١٠) الصعدة : القنابة نبتت مستوية (١١) العل : الشرب بعد شرب . أى أنه يسقى رعيه من دم
خصمه مرة وأخرى (١٢) اللأى : البطء (١٣) والالام الزيادة الخفيفة . وقد كان من عادة العرب
أن يحرم الرجل على نفسه عدة أشياء إذا قتل له قاتل حتى يدرك ثأره مثل شرب الخمر وغسل
الرأس . فهو يقول انه قد صار في حل من شرب الخمر بعد أن حرم ذلك على نفسه (١٤) أصلها
ياسواده فرخم وهو قياس في النداء (١٥) مهزول (١٦) يتهلل بالفرح (١٧) عتاق الطير : جوارحها
وكواسرها (١٨) ترجع مملوءة البطن (١٩) تطير أى أنها لا تستطيع الطيران لكثرة ما أكلت من
قتلهم .

الذى يعتبر موازنة طريفة بين 'مثل الجاهلية ومثل الاسلام .
وهالك نصه :

« أيها الملك ! كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسيئ الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف . فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبدُ نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام . . فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا ، وحرّمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحلّ لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث (١) . »

ويقول ابن حزم : وكانت العربُ بلا خلاف قوما لقاحالا يملكهم أحد كربيعة ومضرو وإياد وقضاعة ، أو ملوكا في بلادهم يتوارثون الملك كابر أعن كابر ... فانقادوا كلهم لظهور الحق وآمنوا برسول الله ، وهم آلاف آلاف ، وصاروا إخوة كبنى أب وأم ، وانحل كل من أمكنه الانحلال عن ملكه منهم إلى رسله طوعا بلا خوف غزو ولا إعطاء مال ، ولا بطمع في عز ، بل كلهم أقوى جيشا من جيشه ، وأكثر مالا وسلاحا منه ، وأوسع بلدا من بلده ... وهكذا كانت إسلام جميع العرب ، أولهم كالأوس والخزرج ثم سائرهم قبيلة قبيلة ، لما ثبت عندهم من آياته وبهرهم به

عبارة ابن حزم

من معجزاته ، وما تبعه الأوس والخزرج الا وهو فريد طريد ، قد نابذه قومه حسداً له ؛ إذ كان فقيراً لا مال له ، يتيماً لأب له ولا أخ ولا ابن أخ ولا ولد ، أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، نشأ في بلاد الجهل يرعى غنم قومه بأجرة يتقوت بها ، فعلبه الله تعالى الحكمة دون معلم وعصمه من كل من أراد قتله .

وقال ويلز (١) : « كان الاسلام في أول أمره خالياً من التعقيدات اللاهوتية انثى طالما ارتبكت بها النصرانية ، وأحدثت شقاقاً قضى على الروح النصراني . وليس للاسلام كهنة ، بل له علماء ومعلمون ووعاظ ، وهو حافل بروح الرأفة والسخاء والأخاء ، كما أنه ينطوي على عاطفة النجدة التي تنبت في الصحراء ، ولهذا جاز إلى قلوب عامة الناس دون أن يجد ما يصدده في غرائزهم »

وصفوة القول أن أثر الرسول صلى الله عليه وسلم كان على ما وصفه سير وليام ميور في كتابه « سيرة محمد » : « امتاز محمد بوضوح كلامه ويسر دينه . وقد أتم من الأعمال ما يدهش العقول ، ولم يعهد التاريخ مصلحاً أيقظ النفوس وأحيا الأخلاق ، ورفع شأن الفضيلة في زمن قصير كما فعل محمد » (٢) .

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ج ٢ ص ٨٤ — ٨٥ و ٨٩

(٢) Sir William uir, The Life of Muhammad pp. 523 — 528.

أنظر كتاب الاسلام والحضارة العربية للاستاذ محمد بك كرد علي ص ٦٤

(١) H. G. Wells, Outline of History, vol. II .pp. 240 — 241.

الباب الثالث

الخلفاء الراشدون

أبو بكر الصديق

١١ - ١٣ هـ ٦٣٢ - ٦٣٤ م

هو عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمر بن كعب بن سعد ابن تيم بن مرة التيمي^(١). كان يسمى في الجاهلية عبد الكعبة^(٢)، فسماه الرسول عبد الله. ولُقِّبَ عتيقاً^(٣)، والصديق لأنه بادر إلى تصديق الرسول ولاسيما صبيحة الأسراء. وكنى بأبي بكر لمبادرته إلى الإسلام.

ولد أبو بكر بمكة بعد عام الفيل بعامين وأشهر. وعرف بالخصال الكريمة، واشتهر بالعفة ولم يكن يشرب الخمر^(٤). وكان من سراة مكة في الجاهلية، عالماً بأنساب العرب وأخبارهم. وكانت إليه الأشتاق وهي الديات والمغارم. وكان بزازاً يتاجر في الثياب. وقد بلغ رأس ماله أربعين ألف درهم. وهو أول من أسلم من الرجال. وسرعان ما ترك التجارة بعد إسلامه ليتفرغ إلى شؤون المسلمين. وقد أسلم على يديه كثير من العرب الذين اعتز بهم الإسلام كعثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله.

وكان إيمانه بالرسول شديداً، وكان رفيقه عند ما هاجر إلى المدينة. وقد نزل فيه قوله تعالى (إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ. إِذْ أَخْرَجَهُ

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ج ٤ ص ١٠١ (٢) السيرة الحلبية لزينب دحلان ج ١ ص ١١٠ وقيل عبد اللات وقيل عبد العزى

(٣) قيل إنه كان لا يعيش لأمه ولذا فاستقبلت به البيت وقالت اللهم هذا عتيقك من الموت. وقيل لسبقه إلى الإسلام، أو لأن الرسول بشره بأن الله أعتقه من النار. تيسير الوصول إلى جامع الأصول لأحاديث الرسول لابن الديبع الشيباني ج ٣ ص ٢٦٣

(٤) تاريخ الخلفاء للسيوطي ج ١ ص ٢٢

الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ (١) . ولما استقر الرسول في المدينة كان أبو بكر ساعده الأيمن . وقد خصه الرسول بمزايا لم يخص بها أحداً سواه . وفي ذلك يقول ابن خلدون : « كان يفاوض أصحابه ويشاورهم في مهماته العامة والخاصة ، ويخص مع ذلك أبا بكر بخصوصيات أخرى . فكان العرب الذين عرفوا الدول وأحوالها في كسرى وقيصر والنجاشي يسمون أبا بكر وزيره » (٢) . وصفوة القول أن أبا بكر قاسم الرسول مر العيش وحلوه ، وآلام الحياة وما فيها من انتصار وظفر ، وبقي معه لا ينفك عنه كظله . (٣)

مكاته من نفس
الرسول

صحبته

بيعة أبي بكر :

لم يوص الرسول بزعامه المسلمين لأحد من أصحابه بل ترك مسألة الخلافة شورى بينهم .

اجتماع السقيفة

فلما تطاير نعيه اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة في المدينة ، وأرادوا أن يبايعوا بالخلافة رجلاً منهم ، هو سعد بن عبادة سيد الخزرج . وحضر اليهم نفر من المهاجرين ، وكاد يقوم بين هؤلاء وهؤلاء خلاف شديد ، لولا أن قام بينهم أبو بكر خطيباً ، وأدلى لهم بالحجة على أن هذا الأمر لقريش ، وأن أمر العرب لن يصلح إلا إذا وليته قريش ، وحذر الأنصار إن وليته الأوس أن تنفس عليها

(١) سورة التوبة ٩ : ٤٠

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٦

(٣) روى ابن هشام (ج ٣ ص ٤٦١) والطبري (ج ٣ ص ١٩٢) أنه عند ما قال النبي صلى الله عليه وسلم في آخر خطبة له : « إن عبداً من عباد الله خير الله بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ما عند الله » فهمها أبو بكر وعلم أن رسول الله إنما يريد نفسه ، وأن قد حانت وفاته فبكى وقال : بل قد يدرك بأنفسنا وأبنائنا . فقال : على رسلك يا أبا بكر . أنظروا هذه الأبواب الشوارع اللانظفة في المسجد فسدوها إلا ما كان من بيت أبي بكر . فأتى لأعلم أحداً كان أفضل عندي في الصلوة يبدأ منه .

الخزرج ، وإن وليته الخزرج أن تنفس عليها الأوس . فلما ذكر الأنصار ما كان بينهم في الجاهلية ، وأن الحال توشك أن تعود الى مثل ما كانوا عليه من عداوة ، اطمأنوا الى رأى أبي بكر ، فعرض عليهم مبايعة عمر أو أبي عبيدة بن الجراح . فخشي عمر أن يترك الناس فيختلفوا على أنفسهم ويضيع الأثر الذي أحدثه كلام أبي بكر ، فقام الى أبي بكر وبايعه بالخلافة^(١) وقال له : « ألم يأمر النبي بأن تصلى أنت يا أبا بكر بالمسلمين ؟ فأنت خليفته ونحن نبايعك فنبايع خير من أحب رسول الله منا جميعاً »^(٢) . وقد بايع أبا بكر عمر وأبو عبيدة وسبقهما بشير ابن سعد ، ثم تتابع المهاجرون ، والأنصار يبايعونه^(٣) .

حدث هذا بينما كان علي بن أبي طالب قد انحاز مع الزبير ونفر من بني هاشم الى بيت فاطمة ، وقضى هو وأهل بيت الرسول يوم الثلاثاء في تجهيزه ودفنه ، فوجد في نفسه علي أبي بكر ومن يابعوه متجاهلين مكانته وحقه^(٤) .

ومع أن استخلاف أبي بكر قد تم بطريقة ديمقراطية على نحو ما كان مألوفا لدى قبائل العرب في الجاهلية (Patriarchal State) ، ذلك النظام الذي يقضى بأن تكون السن والفضائل أساساً لاختيار شيخ القبيلة ، فإن امتناع كثيرين من علية العرب ، كالعباس عم النبي ،

(١) ابن هشام ج ٣ ص ٤٦٤ - ٤٧٢

(٢) قال عمر : فارتفعت الأصوات وكثر اللفظ . فلما أشفقت الاختلاف قلت لأبي بكر : أبسط يدك أبايعك . فبسط يده فبايعته وبايعه المهاجرون والأنصار . . وإنا والله ما وجدنا أمراً هو أقوى من مبايعة أبي بكر . خشنا إن فارقتا القوم ولم تكن بيعة ، فاما أن تتابعهم على مالا نرضى ، أو نخالفهم فيكون فساد (الطبري ج ٣ ص ٢٠٠) .

(٣) وتسمى بيعة السقيفة بالبيعة الخاصة لأنه لم يبايعها الا نفر قليل من المسلمين هم الذين حضروا السقيفة . فلما كان الغد جلس أبو بكر على المنبر في المسجد ، وبايعه الناس البيعة الكبرى أو العامة .

(٤) أنظر خطبة علي الطبري ج ٣ ص ٢٠٢ سيرة ابن هشام (ج ٣ ص ١٧٠) والطبري

(ج ٣ ص ٢٠٢)

وطلحة والزبير ، وهم من السابقين الى الاسلام الذين اتحدوا مع عليّ ابن أبي طالب ، ثم ما كان أيضا من عدم إجابة فاطمة الى ما طالبت به من ميراث أبيها - كل هذه الأمور آذنت بانقسام الأمة العربية الى سنيين وشيعيين ^(١) .

على أن عليا قد بايع أبا بكر بعد موت فاطمة ، كما أن عمر أعلن في خطبة له أن عليا تخلف عنهم هو والزبير ومن كان معهما إلى بيت فاطمة ، وأن الظرف كان دقيقا يتطلب حلا حاسما عاجلا ^(٢) .

وقد أعلن أبو بكر سياسته التي عول على انتاجها في هذه الخطبة القصيرة الجامعة التي خطبها في مسجد الرسول على أثر أخذ البيعة العامة له في اليوم التالي لاجتماع السقيفة . وهاك نصها :

سياسة أبي بكر

« أيها الناس ! إني قد وُلِّيتُ عليكم ولست بخيركم . فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني . الصدق أمانة والكذب خيانة . والضعيف فيكم قوىٌ عندي حتى أخذ الحق له إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف عندي حتى أخذ الحق منه إن شاء الله - لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا قوم ضربهم الله بالذل . ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله . فاذا عصيتُ الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم . قوموا إلى صلاتكم يحكم الله » ^(٣) .

(١) سيرة ابن هشام (طبعة اوربا) ج ٢ ص ١٠١٣ « والفاطميون في مصر »

للؤاف ص ٢٣

وقد أثر عن أبي بكر أنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا (الأمر) (الخلافة) فقال لي : يا أبا بكر ! هو لمن يرغب عنه لا لمن يجاحش عليه ، ولن يتضال عنه لا لمن يتفجع اليه ، هو لمن يقال هو لك لا لمن يقول هو لي . صبح الأعشى للقلقشندي (ج ١ ص ٢٤٠)

(٢) أنظر خطبة عمر في سيرة ابن هشام (ج ٣ ص ٤٧٠) والطبري (ج ٣ ص ٢٠٠) .

(٣) ابن هشام (ج ٣ ص ٤٧٣) الطبري (ج ٣ ص ٢٠٣) العقد الفريد

(ج ٢ ص ٣٤٧) وعيون الأخبار لابن قتيبة (ج ٢ ص ٢٣٤)

ردّة العرب :

كانت حكومة الرسول حكومة دينية تعتمد - الى حد كبير - في سلطتها التنفيذية على عقيدة الناس في أن هذا النبي إنما يصدر في أحكامه وتصرفاته عن وحي الله وأمره . قال تعالى (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ عَلَيْهِ شَدِيدُ الْقُوَىٰ) (١) ، كما كان في حكمة الرسول وتسويته بين أبناء القبائل المختلفة وعدم خضوعه لنزعات النفس وميلها إلى إثارة الأهل والعشيرة ، واختصاصهم بالفائدة وتقديهم على الأكفاء من غيرهم ، وفي محو العصية والشعور القبلي ، وإحلاله الوحدة الدينية والقومية الإسلامية محلها - كان في هذا كله ما سهل على العربي طاعته والاذعان له ، وسهل على القبائل المختلفة أن تنضوى تحت لوائه وأن تدين له بالزعامة . بل لقد بلغ من افتتان بعض العرب بشخصية الرسول أنهم ما كانوا يستطيعون أن يصدقوا بموته .

فلما انتقل الرسول إلى جوار ربه وتحققوا من ذلك ، شك فريق منهم في أمر هذا الدين الذي خلفه ، وأوجس غيرهم إن وليت قريش أو غيرها هذا الأمر أن تحيله ملكا عضدا ، فأخذوا يفكرون في موقفهم وينظرون إلى مصيرهم ، فرأوا أن هذا النبي الذي كان يقوم بالسفارة عن الله عز وجل ، ويبلغهم أمره ونهيه ، ويتمتع بالعصمة عن الخطأ والتنزه عن الزلل ، قد فارقه إلى ربه ، وليس ثمة إنسان في العالم يتصف بهذه الصفات التي كانت الضمان الوحيد لمساواة القبائل بعضهم ببعض ، وجعل الناس كأشنان المشط .

فمن المحتمل إذا أن يحكم من يحل محل هذا الرسول هو

اشفاق القبائل من
يخلف الرسول

وأهله وعشيرته في رقاب الناس ومصالحهم . كما لا يبعد أن يعلى هذا المركز (الخلافة) من شأن القبيلة التي ينتمى إليها الخليفة . ويغض من شأن غيرها من القبائل ، فيميل ميزان العدل بين الناس .

ويفسر لنا هذا تسابق هذه القبائل والبطون عند وفاة الرسول على أن يكون هذا الأمر لها دون غيرها . فتكشف ما في الصدور وتجلت النفس العربية والطبيعة القبلية إذ ذاك : فالأنصار يخافون قريشا والمهاجرين إن استأثروا بالأمر دونهم وهم فيما بينهم يتوجسون . ويخشى كل من الأوس والخزرج صاحبه . ولم يكن الحال في مكة بأقل منه في المدينة . فقد دب التنافس في هذا الأمر بين بطون قريش . فلما تم الأمر لأبي بكر وجد عليه بنو هاشم وامتنع علي عن مبايعته أشهرا . وسعى أبو سفيان بن حرب ليوغر صدر علي بن أبي طالب على أبي بكر الذي انتزع الخلافة من بني عبد مناف ^(١) ، وقد سمي عليا والعباس « الأذلان والمستضعفان » وتمثل بقول المتلمس :

إِنَّ الْمَوَانَ جَمَارُ الْأَهْلِ يَعْرِفُهُ وَالْحَرْثُ يَنْكُرُهُ وَالرَّسَلَةُ الْأَجْدُ
وَلَا يُقِيمُ عَلَى ضَيْمٍ يُرَادُ بِهِ إِلَّا الْأَذْلَانِ عَيْرُ الْحَيِّ وَالْوَتْدُ
هَذَا عَلَى الْخُسْفِ مَعَهُ وَسُئِرْمَتُهُ وَذَا يُشَيِّحُ فَلَا يَبْكِي لَهُ أَحَدُ ^(٢)

ولئن كان للمهاجرين من بني هاشم وغيرهم ، وللأنصار أو سبهم وخزرجهم من القرابة لرسول الله ، أو الفضل والسبق في الاسلام ،

(١) روى الطبري (ج ٣ ص ٢٠٢) أن أبا سفيان بن حرب قال لعلي بن أبي طالب بعد أن ولي أبو بكر الخلافة : ما بال هذا الأمر في أقل حى من قريش ؟ والله لئن شئت لأملأها عليه خيلا ورجالا . فقال علي : يا أبا سفيان ! طالما عادت الاسلام وأهله فلم تضره بذلك شيئا . انا وجدنا أبا بكر لما أهلا . وروى أنه قال : والله انى لازى بحاجة لا يطفئها الا دم يا آل عبد مناف . فيما أبو بكر من أموركم ؟ أين المستضعفان ؟ أين الأذلان علي والعباس ؟ وقال : أبا حسن ! ابسط يدك حتى أباعك ، فأبى علي عليه وزجره . أنظر تاريخ يعقوبى

ج ٢ ص ٢٤٠

(٢) شرحه

التنازع على
منصب الخلافة

الأوس والخزرج

قريش

عبد مناف

حجة كل فريق

أو النصر والأيواء لدين الله والذود عنه - لأن كان لهؤلاء أولئك سبب من هذه الأسباب يدلون به ويطمعون من أجله في الخلافة ، فإن القبائل العربية الأخرى لم تجد لنفسها من السابقة في الاسلام ولا من القرابة للرسول ما تعتز به . وقد رأت المهاجرين والأنصار يتنازعون هذا الأمر فيما بينهم ؛ فيقول المهاجرون « منا الأمراء ومنكم الوزراء » ، ويقول الأنصار « بل منا أمير ومنكم أمير » . فبُعثت هذه القبائل وضاع أملها في الخلافة ، فأعلنت العصيان ، ورفض أكثرهم أن يخضعوا لسلطان أبي بكر وامتنعوا عن أداء الزكاة التي ظنوها اتاوة . ولاغرو فقد كان بعضهم يعتقد أنه لن تقوم لقريش قائمة بعد مامات زعيمهم ، ولأنهم كرهوا سيادة قريش التي ظنوا أنها قد سلبتهم حريتهم وأدخلتهم تحت سلطانها بحكم الدين ^(١) . وما زال ديب العصيان ينمو في النفوس ، والتمرد على الحكومة القرشية ينتشر بين القبائل حتى تززع مركز الاسلام وانكشبت أطرافه الى مكة والمدينة والطائف وبنى عبد القيس .

القبائل الأخرى

انقطاع أملها في الخلافة يدفعها الى التمرد

هذا هو الشعور الذي شاع في القبائل التي ارتدت عن الاسلام . أما قريش - وقد آل إليها هذا التراث المجيد - فقد اضطلعت بعبئه وتلقته بما يليق به من العناية والجسد في تحمل مسؤولياته ، ولم ترض في سبيله بفلذات أكبادها وساداتها وأشرافها ، فوجهتهم لمحاربة هذه القبائل ، وبرهنت على أنها زعيمة العرب وأحقهم بهذا الأمر وأقدرهم على الاضطلاع به . يدل على ذلك قول عمر لنفر من الصحابة : « أظن قُلتُم ما أخوفنا على قريش من العرب وأخلفهم ألا يقرؤا بهذا الأمر » ، ثم قال : « فلا تخافوا هذه المنزلة . أنا والله منكم على العرب أخوف »

موقف قريش إزاء المرتدين

اعتماد قريش بنفسها

(١) أنظر تاريخ عمرو بن العاص للولف ص ٣٦ - ٢٧

منى من العرب عليكم . والله لو تدخلون معاشر قريش جحراً لدخلته
العرب في إثرى ، فاتقوا الله فيه » (١)

المقابلة :

وليس غريباً أن تحمل العصية العرب على ركوب هذا الأمر
الصعب والارتداد عن دين الله من أجل حرمانهم من الخلافة . فنحن
نعلم أن العصية كانت من أهم العوامل وأبعدها أثراً في القبائل التي
أسلمت أو حاربت الاسلام في عهد الرسول (٢) ، بل لقد دفعت هذه
العصية بعض القبائل إلى انتحال النبوة ، فتنبأ فيها رجال قبل وفاة
الرسول وبعدها ، وشايعتهم هذه القبائل (٣) . وكان أشد هؤلاء
المتنبئين خطراً مسيلمة الكذاب الذى استفحل خطره وتفاقم شره
لانضمام الرجال (٤) بن عُنْفُوَّة من بنى حَنِيفَةَ إليه وخديعته سجاح
القيمية حتى تزوجته وانضم أتباعها إليه .

أثر العصية

مسيلة الكذاب
وسجاح

(١) الطبرى ج ٣ ص ٢٣١

(٢) فالاموس والخزرج قبلوا الاسلام لانهم سيعتزون به ويستصرونه على اليهود الذين
كانوا يدلون عليهم بدينهم وكتبهم ويهددونهم يقتلهم قتل عاد وارم حيناً يبعث نبى آخر الزمان .
وهؤلاء اليهود — والنصارى أيضاً — أعرضوا عن الاسلام ونفروا منه لانه لم يوح به الى
رجل منهم ، والقبائل الاخرى المشهورة مثل هوازن وثقيف حاربت الاسلام خشية أن يظهر
عليها ويخضعها كما أخضع القبائل الاخرى .

(٣) مما يدل على ذلك ما رواه الطبرى عن بعض بنى حنيفة إذ يقول : أشهد أن مسيلة
كذاب ، ولكن كذاب ربيعة خير من صادق مضر (ج ٣ ص ٢٤٦) وأنه لما مات النبي
صلى الله عليه وسلم قام عيينة بن حصن في غطفان فقال : ما أعرف حدود غطفان منذ انقطع ما بيننا
وبين بنى أسد (كان بين غطفان وأسد وطى حلف في الجاهلية) واتى لمجدد الحلف الذى كان
بيننا في القديم ومتابع طليحة (الذى ادعى النبوة في بنى أسد) ، والله لان تتبع نيا من الحليفيين
أحب البنا من أن تتبع نيا من قريش . وقدمات محمد وبقى طليحة (الطبرى ج ٣ ص ٢٢٠)
(٤) كان الرجال (بالجيم على وزن شداد كما في القاموس المحيط) ومسيلة فيمن وفد من بنى
حنيفة على النبي وأسلم كما أسلموا وقرأ القرآن وتفقه في الدين . فلما ارتد مسيلة في اليمامة بعثه
النبي صلى الله عليه وسلم معلماً لاهلها « وليشغب على مسيلة ، وليشدد من أمر المسلمين »
(الطبرى ج ٣ ص ٢٤٤) ، فتابع مسيلة وشهد له بالاشترك في الرسالة مع محمد . فكان « بهذه
الشهادة أعظم فتنة على بنى مسيلة »

وقد كتب مسيلة إلى الرسول كتابا يدعى فيه مشاركته في الرسالة ويساومه في اقتسام الملك والسيادة في جزيرة العرب . فكتب إليه الرسول « من محمد رسول الله إلى مسيلة الكذاب . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . »

ثم لم يلبث الرسول أن توفي . فلما ولي أبو بكر الخلافة أرسل إليه عكرمة بن أبي جهل ، وألحق به شر حنبل بن حسنة . فتمجّل عكرمة حتى حلت به الهزيمة ^(١) ؛ فوجه إليه أبو بكر خالد بن الوليد على رأس جيش كثيف على مقدمته شرحبيل ، والتحم جيش المسلمين بجيش مسيلة ، واستمات بنو حنيفة في القتال وفي مقدمتهم الرجال حتى كاد يتم النصر لهم لولا أن صدق المسلمون في الجهاد وصبروا في الحرب ، كما دعا خالد مسيلة للبارزة عساه يقتله فيقضى على رأس تلك الفتنة ويخمد جذوتها ؛ ولكن مسيلة لم يستطع صبرا أمام خالد ، فولى هاربا وحمل المسلمون عليه وعلى أصحابه فهزموه ، وأكثر المسلمون القتل في بني حنيفة حتى قتل مسيلة على يد وحشى ^(٢) ورجل من الأنصار ^(٣) .

كذلك ادعى النبوة باليمن الأسود العنسي وتابعه قومه ؛ فاشتد بهم ساعده وغزا بلاد نجران فدانت له ، وكذلك دانت له مذحج التي استخلف عليها عمرو بن معد يكرب ، وعدا على شهر بن باذان صاحب صنعاء فقتله وتزوج امرأته ، وألقى الرعب في قلوب ولاية المسلمين على اليمن . حتى كتبوا للرسول . فكتب إليهم يأمرهم بالقيام على دينهم

(١) muir, pp. 29—35

(٢) قاتل حمزة عم النبي في غزوة أحد كما سبقت الإشارة إلى ذلك

(٣) Muir, the Caliphate, pp. 19—20.

ومناهضة الأسود ، فاثمروا به حتى توصلوا إلى قتله غيلة في الليلة التي مات الرسول في صيدحتها (١) .

ومن ادعى النبوة أيضا طليحة بن خويلد ، وهو كاهن من بني أسد . طليحة بن خويلد
وقد اتبعه قومه ودعوا إليه أحلا فهم من طيء والغوث ومن إليهم .
فلما توفي النبي ظهر أمره وانضمت إليه غطفان ومن حولها فبعث إليهم
أبو بكر عديا ثم خالد بن الوليد ؛ فأسلمت طيء و جديلة وصبرت معه
فزاره وأسد ، حتى إذا استحر القتال وأيقن طليحة بالهلاك فرأى
هاربا إلى الشام . (٢)

وذكر الطبري في روايه له أن طليحة مضى حتى نزل إلى كلب
فأسلم ، ولم يزل مقبلا بينها حتى مات أبو بكر . فلما ولى عمر الخلافة أتاه
فبايعه . (٣)

هذا ، وقد كان بين من التفوا حول هؤلاء المتنبئين عرب لم يؤمنوا
بنبوتهم ، وإنما فكروا في الارتداد وانحازوا إلى هؤلاء المتنبئين
يستنصرون بهم على قريش ليتخلصوا من زعامتها وسيادتها التي فرضتها
عليهم .

وهناك فريق من العرب ارتدوا ولم ينضموا إلى واحد من ادعوا
النبوة ؛ وكان من هؤلاء سكان البحرين الذين ارتدوا بعد وفاة ملكهم
المنذر بن ساوى حتى قيض الله لهم الجارود بن المعلى العبدى ؛ فنصحهم
حتى ثابوا إلى الاسلام ، ولكن وثب عليهم الحطيم بن ضبيعة ومن
اتبعه من بني بكر بن وائل ، فأحاط بالمسلمين وحاصرهم حتى بعث اليهم
أبو بكر العلاء بن الحضرمي لقتال المرتدين ؛ فانضم إليه نفر من مسلمي

(١) انظر الطبري ج ٣ ص ٢١٣ — ٢١٩

(٢) الطبري ج ٣ ص ٢٢٧ — ٢٣٢

(٣) الطبري ج ٣ ص ٢٣٢ — ٢٢٢ Muir, the Caliphate, pp. 20—22

بنى حنيفة ؛ فخارب الحظم ومن معه ولم يستطع أن يقهره حتى بدت له فيه فرصة فاتتهزها ، وذلك أنهم سمعوا في معسكر المشركين ضجة فدرسوا فيهم من يتعرف خبرهم ؛ فعرف أن القوم سكارى ، فهجم عليهم المسلمون وأعملوا فيهم السيوف واستولوا على ما في العسكر. (١) وقد واجه أبو بكر كل هذه الصعاب بما عرف عنه من حزم وعزم وغيره على الدين . فبادر بتسيير الجيوش إلى أهل الردة والمتنبئين ، وعقد اللواء لقتالهم على أحد عشر قائداً (٢) في وقت واحد. وأمر كل قائد بالسير إلى ناحية من نواحي بلاد العرب بعد أن كتب له عهداً يأمره فيه : « بالجد في أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الاسلام إلى أمانى الشيطان » ، وأمره « أن لا يرد المسلمين عن قتال عدوهم » ، وأن « لا يقاتل إلا من كفر بالله ورسوله » ، ثم نصحه « بأن لا يدخل في المسلمين حشواً حتى يعرفهم ويعلم ما هم ، حتى لا يكونوا عيوناً ، ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم » . (٣)

كما أرسل أبو بكر لجميع المرتدين كتاباً يدعوهم فيه إلى الرجوع إلى حظيرة الدين ، ويرد الشبهة التي نشأت عن موت الرسول بأنه بشر يموت كما يموت كل إنسان ، ثم هددهم بالقتل والاحراق وسبي النساء والذراى إذا لم يراجعوا . فلم تمض سنة واحدة حتى تم له النصر .

(١) الطبرى ج ٣ ص ٢٥٤ - ٢٦١ .

(٢) ١ - خالد بن الوليد ووجهته طليحة بن خويلد . فإذا فرغ سار إلى مالك بن نورة بالبطح
٢ - عكرمة بن أبى جهل ووجهته مسيلة الكذاب فى بنى حنيفة - ٣ - المهاجرين أبى أمية ووجهته
الاسود العنسى باليمن ومعونة الأبناء على قيس بن العاص - ٤ - عمرو بن العاص ووجهته قضاة وديعة
والحارث - ٥ - سعيد بن العاص ووجهته الحفطان من مشارف الشام - ٦ - حذيفة بن محسن العلفانى
وأمره بأمر دبا - ٧ - عرجة بن هرثة ووجهته مرة - ٨ - شرحبيل بن حسنة بعثه فى أثر عكرمة بن
أبى جهل على أن يلقى بعمر بن العاص إذا فرغ من بنى حنيفة فى النجاة - ٩ - طريفة بن حاجز
ووجهته بنو سليم ومن معهم من هوازن - ١٠ - سويد بن مقرن ووجهته تهامة باليمن - ١١ -
البلاء بن الحضرمى ووجهته البحر بن (الطبرى ج ٣ ص ٢٢٥) .

(٣) الطبرى ج ٣ ص ٢٢٧

وكانت الغلبة للجيش الاسلامي ، وعلت كلمة الدين من جديد بعد أن أعمل هؤلاء القواد وجنودهم السيف في رقاب أصحاب الفتنة في جميع أرجاء الجزيرة .

يقول السير وليم ميور في كتابه الخلافة عن السبب في نجاح المسلمين في القضاء على الردة واستئصالها من جميع أنحاء الجزيرة العربية : « وإنما يرجع الفضل في تنويع هذه المجهودات بالنصر والظفر إلى تلك الروح القوية التي بثها محمد (صلى الله عليه وسلم) في نفوس أتباعه المخلصين » (٢)

كتاب أبي بكر إلى
المؤمنين

« بسم الله الرحمن الرحيم ! من أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى من بلغه كتابي هذا من عامة وخاصة ، أقام على إسلامه أو رجع عنه .

سلام على من اتبع الهدى ولم يرجع بعد الهدى إلى الضلالة والعمى . فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، نقر بما جاء به ونكفر من أبي ونجاهده . أما بعد ، فإن الله تعالى أرسل محمدا بالحق من عنده إلى خلقه (بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَذَائِعِيًّا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ .) فهدى الله بالحق من أجاب إليه وضرب رسول الله بأذنه من أدبر عنه ، حتى صار إلى الاسلام طوعا وكرها . ثم توفى الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، وقد نفذ لأمر الله ونصح لأمته ، وقضى الذي عليه وكان الله قد بين له ذلك ولأهل الاسلام في الكتاب الذي أنزل فقال (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ) ، وقال (وَمَا جَعَلْنَاهُ لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخَالِدَ أَقْبَانٌ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ) وقال المؤمنين (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ

أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ؟ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا . وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ) . فمن كان إنما يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان إنما يعبد الله وحده لا شريك له ، فإن الله له بالمرصاد حتى يقوم لا يموت ولا تأخذه سنة ولا نوم ، حافظ لأمره منتقم من عدوه يحزيه .

وإني أوصيكم بتقوى الله وحظكم ونصيكم من الله ، وما جاءكم به نبيكم صلى الله عليه وسلم ، وأن تهتدوا بهداه ، وأن تعتصموا بدِين الله . فإن كل من لم يهده الله ضال ، وكل من لم يعافه مُبْتَلًى ، وكل من لم يُعنه الله مخذول . فمن هداه الله كان مهتدياً ومن أضلّه كان ضالاً . قال الله تعالى (مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّمْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا) ولم يقبل منه في الدنيا عمل حتى يقربه ، ولم يقبل منه في الآخرة صرف ولا عدل .

وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقرّ بالاسلام وعمل به اغتراراً بالله وجهالة بأمره وإجابة للشيطان . قال الله تعالى (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ؟ بَلَى لَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا) . وقال (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ) .

وإني بعثت إليكم فلاناً في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين باحسان ، وأمرته أن لا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله . فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحاً قبل منه وأعانه عليه . ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك ، ثم لا يُقَى على أحد منهم قدر عليه ، وأن يُحرّقهم بالنار ويقتلهم كل قتلة ، وأن يسبى النساء والذراري ، ولا يقبل من أحد إلا الاسلام . فمن اتبعه فهو خير له .

ومن تركه ، فلن يعجز الله . وقد أمرتُ رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم ، والداعية الأذان . فاذا أذّن المسلمون فأذّنوا كفوا عنهم ، وإن لم يؤذّنوا عاجلوهم ، وإن أذّنوا سألوهم ما عليهم ؛ فإن أبوا عاجلوهم ، وإن أقرؤا قبل منهم وحملهم على ما ينبغي لهم .^(١)

وقد بعث أبو بكر هذه الكتب مع الرسل الى المرتدين أمام الجنود

عوامل انتصار المسلمين
في حروب الردة

ومما ساعد على انتصار المسلمين في حروب الردة قوة إيمانهم التي بعثت في نفوسهم الشجاعة والاقدام والاستخفاف بردة العرب . يدل ذلك على صحة هذا القول ما رواه المؤرخون عن موقف عمرو بن العاص من قُرّة بن هبيرة من بني عامر إذ نزل به فأكرمه ، ثم خلا به وقال : يا هذا ! إن العرب لا تطيب لكم نفسا بالائتاءة ، فإن أعفيتموها فسمع لكم وطيع ، وإن أبيتكم فلا تجتمع عليكم . فقد أجابه عمرو على الفور جوابا يدل على استهائه بردة العرب فقال : تخوفنا بردة العرب ؟ فوالله لأوطئن عليك الخيل في حفش^(٢) أمك

ولما أتى بقرة بن هبيرة أسيراً إلى أبي بكر رضى الله عنه ، استشهد قرة بعمرو على إسلامه ؛ فأحضر أبو بكر عمرأ فسأله ؛ فأخبره بقول قرة إلى أن وصل الى ذكر الزكاة ؛ فقال قرة : مهلا يا عمرو . فقال : كلا والله لأخبرنه بجميعه ؛ فعفا عنه أبو بكر وقبل إسلامه^(٣) .

المستشرقون وردة
العرب

وقد اتخذ بعض المستشرقين ارتداد بعض القبائل العربية عن الاسلام بعد وفاة الرسول دليلاً على أن الاسلام إنما قام بحدا سيف ، وأن الخوف وحده هو الذي أدخل العرب في هذا الدين . وفي الحق أن العرب الذين

(١) الطبري ج ٣ ص ٢٢٦ - ٢٢٧

(٢) الحفش بكسر فسكون بيت تنفرد فيه النفساء

(٣) الطبري (ج ٣ ص ٢٣١) ابن الاثير (ج ٢ ص ١٧٠ - ١٧١) .

أنظر كتاب عمرو بن العاص للؤلف ص ٣٦ - ٣٨

حاربهم أبو بكر وسموا مرتدين لم يكفروا بالاسلام ولم يرفضوه ، كما قد يتبادر الى الذهن من تسميتهم مرتدين . وإنما كانوا فريقين :

أقسام المرتدين

١ - فريقاً منع الزكاة فقط زاعماً أنها إتاوة تدفع الى الرسول . فاذا

مانعو الزكاة

ما انتقل الرسول الى جوار ربه ، أصبحوا في حل من عدم دفعها الى خليفته . وفي شأن هذا الفريق عارض عمر أبا بكر في حربهم محتجاً بقوله عليه الصلاة والسلام « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله . فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله » . ولكن أبا بكر رأى في امتناع هؤلاء عن دفع الزكاة هدماً لركن من أهم أركان الدين . وقد يجر التهاون فيه الى هدم غيره من الأركان .

والزكاة - كما لا يخفى - كانت هي المصدر الوحيد لخزانة الدولة . وقد كان من رأى أبي بكر أن يأخذ هذا الفريق من المرتدين في غير هوادة حيث قال : « والله لأقاتلنَّ من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال . والله لو منعوني عقلاً^(١) كانوا يؤدونها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها » ، فقال عمر : « فوالله ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبي بكر رضى الله عنه فعرفت أنه الحق » .^(٢) على أن هؤلاء لم يرتدوا عن الاسلام لبغضهم إياه أو كراهتهم له ، وإنما ظنوا أن الاسلام قد انتهى بوفاة الرسول . أضف الى ذلك أنهم لم يخرجوا على عقيدة التوحيد التي هي عماد هذا الدين ، بل زعموا أن الزكاة إنما هي إتاوة يدفعونها للرسول . ومن ثم لم يجدوا مبرراً لدفعها بعد وفاته^(٣) .

(١) العقال الجبل الذي يعقل به البعير الذي كان يؤخذ في الصدقة ، لأن على صاحبها التسليم وإنما يقع القبض بالباط . وقيل أراد ما يساوى عقلاً من حقوق الصدقة اذا أخذ المصدق أعيان الابل . قيل أخذ عقلاً ، واذا أخذ أثمانها قيل أخذ نقداً . وقال الميرد في السكامل ان المصدق اذا أخذ من الصدقة ما فيها ولم يأخذ ثمنها قيل أخذ عقلاً ، واذا أخذ الثمن قيل أخذ نقداً .

(٢) صحيح البخارى (طبعة بولاق) ج ٢ ص ١٠٥

(٣) أنظر تعليق المؤلف على كتاب السيادة العربية والشيعة والامراتيليات في عهد بني أمية ص ٨٧

٢ - وأما الفريق الثاني فقد ارتدوا عن الاسلام ولم يكونوا مسلمين حقا . لأن السواد الأعظم منهم كان من هؤلاء الأعراب الذين مرّدوا على النفاق ولم يمس عليهم من الزمن ما يكفي لأن يؤثر الدين في قلوبهم . ولا غرو فالدين عقيدة ومبدأ يملأ القلب ويؤثران في كل ما يصدر عنه . وقد نعى الله سبحانه وتعالى عليهم هذه الطبيعة الجافية في غير آية من القرآن من ذلك قوله تعالى (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا ، وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ (١) مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ . قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (٢) . وقال تعالى (الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (٣) . وأما معاقبة الاسلام من ارتد عنه بالقتل فذلك أمر اقتضته سياسة الدولة أكثر من الحرص على إسلام هؤلاء ، إذ كان أخوف ما تخافه الدولة الاسلامية من الابقاء على هؤلاء المرتدين أن ينقلبوا عيوناً عليها . وبذلك يصبحون شراً مستطيراً يهدد كيانها . ولا غرو فإن السياسة والدين لا يكاد ينفصل أحدهما عن الآخر عند المسلمين (٤) .

معاقبة من ارتد بالقتل

على أن الاسلام شديد الحيلة في أمر المرتدين ؛ فهو لا يأخذهم

معاملة الاسلام
للمرتدين

(١) لا ينقصكم من أجور أعمالكم

(٢) سورة الحجرات ٤٩ : ١٤ — ١٦ (٣) سورة التوبة ٩ : ٩٨ — ٩٩

(٤) أنظر Nicholson, Literary History of the Arabs, p. 197.

أقوال الأئمة في
المرتدين

في ذلك بالشبه ولا يحكم فيهم بالظنة ، وإنما يميل المرتد ثلاثة أيام
يناقشه خلالها علماء المسلمين وفقهاؤهم فيما التبس عليه من أمر الدين ،
وما عرض له من الشبه في صحته ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة
والى القارىء طائفة من أقوال الأئمة في هذا الموضوع قال أبو
حنيفة : إذا ارتد المسلم عرض عليه الاسلام وأجل ثلاثة أيام لأن
الظاهر أنه دخلت عليه شبهة ارتد لأجلها ، فعلينا إزالة تلك الشبهة ،
أوهو يحتاج إلى التفكير لنبين له الحق فلا يكون ذلك إلا بمهلة ، فإن
استهمل كان على الامام أن يمهل ، ومدة النظر مقدرة بثلاثة أيام في
الشرع كما في الخيار (خيار الشرط وخيار الرؤية في البيوع) فلهذا
يمهل ثلاثة أيام (١)

ويقول بعض فقهاء المالكية مانصه : واستتيب المرتد وجوباً ولو
عبداً أو امرأة ثلاثة أيام لباليها من يوم الثبوت لا من يوم الكفر بلا
جوع ولا عطش بل يطعم ويسقى من ماله وبلا معاقبة وإن لم يتب (٢)
ويقول الامام الشافعى : « يجب استتابة مرتد ذكر أو غيره
لأنه كان محترماً بالاسلام ، وربما عرضت له شبهة فتزال . وقيل يميل
ثلاثة أيام » (٣) .

وقال الامام أحمد بن حنبل : « ومن ارتد عن الاسلام من الرجال
والنساء وهو بالغ عاقل ، دعى اليه ثلاثة أيام » (٤) .
على أنه لا ينبغي أن يكفر مسلم يحتمل عمله أو قوله الكفر وعدمه
إلا اذا كان التكفير بقوله أو بعمله مجتمعا عليه . وقد صرح العلماء بأنه

(١) كتاب المبسوط لشمس الدين السرخسى القاهرة سنة ١٣٢٤هـ ج ١٠ ص ٩٨ - ١٠٠ .

(٢) انظر باب الردة وأحكامها في الشرح الكبير للدردير (طبعة بولاق سنة ١٣١٩هـ) ج ٤

ص ٢٧٠ حاشية الدسوقي ج ٤ ص ٢٦٧ .

(٣) انظر باب الردة في حاشية البحرى على شرح المنهج (طبعة بولاق سنة ١٣٠٩هـ)

(٤) انظر كشف القناع على متن الاقناع (طبعة القاهرة سنة ١٣١٩هـ) ج ٤ ص ١٠٠ - ١٠٥ .

لا يكفر مسلم بقول يحتمل الكفر من تسع وتسعين وجهاً ويحتمل
الآيمان من وجه واحد (١).

من ذلك نرى أن محاربة أبي بكر لمن ارتد من المسلمين بعد وفاة
الرسول لم تكن سوى قمع لثورة داخلية أراد بعض من لم يخالط
الاسلام قلوبهم القضاء عليه وهو لا يزال في مهده . فلم يكن بد إذاً من
أن يقضى أبو بكر على هذه الثورة حتى لا تصدع أركان الوحدة العربية
وتتفرق كلمة المسلمين .

٣ — وأما من دخلوا الاسلام عن اقتناع بصحته وإدراك لسمو
مبادئه ، فلم يرتد منهم أحد . وقد أجمع المؤرخون على أن أهل مكة
والمدينة والطائف ثبتوا على إسلامهم ولم تؤثر فيهم تلك العاصفة التي
عصفت بشبه جزيرة العرب على أثر وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام
وفي عهد أبي بكر غزت الجيوش العربية بلاد الشام وفلسطين
والخيرة وجزءاً من بلاد الفرس . غير أن فتح هذه البلاد لم يتم إلا في
عهد عمر . لذلك نرجى الكلام عليها إلى عهد عمر بن الخطاب .

بدر الفروح

صفات أبي بكر :

كان أبو بكر من رؤساء قريش في الجاهلية وأهل مشاورتهم . وكان
رجلاً مؤلفاً لقومه محبباً سهلاً ؛ وكانت تساق إليه الأشناق . (٢) في
الجاهلية . فكان إذا حمل شيئاً من ذلك فسأل فيه قريشاً مدحوه وأمضوا
حالاته ، فإن احتملها غيره لم يصدقوه . وكان تاجراً ذا خلق ومعروف ،
وكانوا يألفونه لعلبه وتجاربه وحسن مجالسته كما كان أعلم قريش بأنسابها
وما كان منها من خير أو شر .

منزله في الجاهلية

فلما جاء الاسلام آثره الرسول على من سواه ؛ وقد أخلص في الصحبة

تسميته بالصدیق

(١) أنظر باب المرتد في حاشية رد المحتار على الدر المختار لابن عابدين . (طبعة مصر سنة ١٢٧٢ هـ)

ج ص ٢٨٣ - ٢٩٢ . وهذه هي الروح التي أملت على أبي بكر كتابه إلى المرتدين وعهده إلى القواد

(٢) وهي الديات التي يتحملها من يتقرب لذلك من العشيرة

لرسول الله ولم يخالجه شك في كل ما أتى به حتى سماه الرسول بالصاديق . ولقد أجمع أهل السير على أنه لم يتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في مشهد من مشاهد ، وكان فيمن ثبت معه يوم أحد وحنين . (١) ولقد اشتهر في جميع مواقفه بالشجاعة والثبات للخطوب . ولا غرو فقد نهض أبو بكر بآتمام نشر الدعوة وتوحيد كلمة العرب بعد أن تمزق شملهم أوكاد . ناهيك بما فعله مع المرتدين الذين رماهم بجيوش المسلمين لحربهم وخرج بنفسه للقائهم عند ما هاجموا المدينة وأسامة في الشام بجيش المسلمين ؛ حتى لقد ناشده الصحابة ألا يعرض نفسه للخطر ؛ فابى وقال والله لأفعل ولأواسينكم بنفسى (٢) وصبر وصابر حتى آتاه الله سبحانه وتعالى النصر والظفر بهم وأعادهم إلى حظيرة الدين وأعلى شأن الاسلام ، ثم جعل من المسلمين جنداً لبث الدعوة والجهاد في سبيل الله خارج الجزيرة العربية حتى أديل لهم من دولتي الفرس والروم العظيمنتين وفتحوا ما فتحوا من بلادهم حتى قبضه الله .

شجاعته وحسن بلائه
في حروب الردة

وأحاديث الرسول في إكرام أبي بكر والاعتراف بأياديه عنده وفضله على الاسلام كثيرة متواترة .

منزله في نفس
الرسول

روى البخارى عن أبي الدرداء في حديث طويل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله بعثنى اليكم فقلتم كذبت وقال أبو بكر صدقت وواساني بنفسه وماله فهل أتم تاركوا لى صاحبي (هـ رتين) (٣) .

(١) النووى ج ٢ ص ١٨٤ . وقد روى عن عائشة أنها قالت لم أعقل أبوى إلا وهما يدينان الدين ولم يمر عليهما يوم الا يأتيا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفي النهار بكرة وعشيا (النووى : تهذيب الاسماء واللغات ج ٢ ص ١٨٣)

(٢) الطبري ج ٣ ص ٢٢٤

(٣) النووى : تهذيب الاسماء واللغات ج ٢ ص ١٨٦ . وفيه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه ما خلا أبا بكر فان له عندنا يدا يكافئه الله عز وجل بها يوم القيامة . وما نفقني مال أحد قط مانفني مال أبي بكر . ولو كنت متخذاً خليلاً لا اتخذت أبا بكر خليلاً . وان صاحبكم خليل الله (ص ١٨٩)

ولقد كان باذلاً كريم اليد حتى لقد أنفق ثروته التي يقدرها عروة
ابن الزبير بأربعين ألف درهم في سبيل الله تعالى وقال : أخبرني عائشه
أنه مات وما ترك درهما ولا ديناراً^(١) .

إنفاقه في سبيل الله

وقد اشتهر كذلك بالتواضع والزهد مقتدياً في ذلك برسول الله
صلى الله عليه وسلم ؛ حتى كان إذا مُدح يقول : اللهم أنت أعلم بي من
نفسى وأنا أعلم بنفسى منهم . اللهم اجعلنى خيراً مما يظنون واغفر لى
مألاً يعلمون ولا تؤاخذنى بما يقولون .

تواضعه وزهده

وكان رضى الله تعالى عنه معروفاً بين صحابة رسول الله بالعلم
والتفقه في الدين والفصاحة وإصالة الرأى وصدق الفراسة ودقة الفهم .

ذكر النووى عن على بن أبى طالب أنه قال : قَدَّمَ رسول الله
أبا بكر يصلى بالناس وأنا حاضر غير غائب وصحيح غير مريض ولو
شاء أن يقدمنى لقدمنى ؛ فرضينا لدينانا من رضىه الله ورسوله عليه
السلام لديننا^(٢) .

راى على بن أبى طالب
فيه

عمر بن الخطاب

١٣ — ٢٣ هـ ٦٣٤ — ٦٤٤ م

هو عمر بن الخطاب بن نُفَيْل بن عبد العزى بن رباح ؛ ينتهى
نسبه إلى كعب بن لؤى القرشى العدوى^(٢) ، ويجمع نسبته مع الرسول

نسبه

(١) النووى : تهذيب الاسماء واللغات ج ٢ ص ١٨٩ ؛ الاصابة في تمييز الصحابة

ج ٤ ص ١٠٢ .

(٢) النووى : تهذيب الاسماء واللغات ج ٢ ص ١٩١

(٣) وبنو عدى بطن من بطون قريش اشتهروا بالشرف والمجد . وكانت لهم مواقف مشهورة
في الاسلام . ومنهم زيد بن عمرو بن نفيل الذى رفض عبادة الاوثان في الجاهلية والتزم الخنيفة
وابنه سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وغارجه بن حذافة الذى ولى قضاء مصر في
عهد عمرو بن العاص .

في الجـد السابع ، ويـتـمـع مـعـه مـن جـهـة أـمـه (١) في الجـد السـادس .
وكنيته أبو حفص (٢) .

مولده ونشأته

روى الطبرى (٣) أن عمر ولد بمكة قبل حرب الفجار بنحو
أربع سنين . وقد نشأ نشأة عالية ، فكان مثال الفصاحة والبلاغة
والصراحة في الحق . وكان في صغره يرعى الغنم لأبيه . ثم احترف
التجارة وكان يختلف فيها إلى الشام . وكان عمر من الرهط الذين
انتهى إليهم الشرف في الجاهلية . وكانت إليه السفارة ، وذلك أنهم
كانوا إذا وقعت بينهم وبين غيرهم حرب بعثوه سفيراً وكان عمر عزيز
الجانب محترماً بين قومه ، قوى الشكيمة شديد البأس . فلما أسلم
جهر باسلامه لا اعتقاده أنه لم يكن هناك بين القرشيين من يجرؤ على
مناواته . ولا عجب إذا اعتز به الاسلام (٤)

إسلامه

(١) كانت أمه من بني مخزوم . ومنهم الأرقم بن أبي الأرقم الذي كان يجتمع بداره النبي
صلى الله عليه وسلم والمسلمون قبل أن ينتشر الاسلام ، وهشام بن أبي حذيفة وكان من مهاجري
الحبيشة . راجع تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٥٧ - ٥٨

(٢) كناه بذلك الرسول لما رآه فيه من الشدة

(٣) الطبرى ج ٥ ص ١٧ (وروى ابن الأثير في أسد الغابة في معرفة الصحابة) ج ٤ ص ٥٣
أنه ولد بعد الرسول بثلاث عشرة سنة (أي سنة ٥٧١ م) ، وذكر أيضاً أن عمر قال : ولدت بعد
الفجار الأعظم بأربع سنين)

(٤) قد أثر عن الرسول أنه قال : اللهم أعز الاسلام بأحد هذين الرجلين . يعني عمرو بن
هشام وعمربن الخطاب (الطبرى ج ٥ ص ١٧ وابن الأثير أسد الغابة ج ٤ ص ٥٣) . وقد روى ابن الأثير
(أسد الغابة ج ٤ ص ٥٨) عن عبد الله بن مسعود قال : كان اسلام عمر فتحاً ، وكانت هجرته
نصراً ، وكانت امارته رحمة . ولقد رأيتهما نستطيع أن نصلى في البيت . فلما أسلم عمر قاتلهم
حتى تركونا فصلينا . وقد روى عن علي بن أبي طالب . قال : ما عالت أحداً من المهاجرين
هاجر الا تخفياً الا عمر بن الخطاب ، فانه لما هم بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه واتقى في
يديه أسهما ، واختصر عزته ، ومضى قبل الكعبة والملا من قر يش بفنائها ، فطاف بالبيت
سبعاً متمكناً ، ثم أتى المقام نصلي متمكناً ، ثم وقف على الخلق واحدة واحدة ، وقال لهم :
شاهدت الوجوه لا يرغم الله الا هذه المعاطس . من أراد أن تشكله أمه ويؤتم ولده ويرمل زوجته ،
فليلقني وراء هذا الوادي . قال علي : فأتبعه أحد الاقوم من المستضعفين عليهم وأرشدهم ومضى
لوجهه . (أسد الغابة ج ٤ ص ٥٨)

وقد صحب عمر الرسول بعد إسلامه فأحسن صحبته وبالغ في نصرته ، ووقف حياته على المدافعة عنه والذود عن الاسلام ، وكان من أشد الناس على الكفار وشهد معه المشاهد (١) . وكان الرسول يستشير أبا بكر وعمر في كثير من الأمور . وكثيراً ما كان يشير على الرسول بالأمر فينزل القرآن موافقاً لما أشار به . وقد أثر عن الرسول أنه قال : عمر معي وأنا مع عمر ، والحق بعدي مع عمر حيث كان (٢) . وكان أبو بكر يستشير عمر في مهام الأمور ويحيل عليه الفصل في القضايا ، وإن لم يتسم باسم القاضي ، وكان ساعده الأيمن في حروب الردة واليه يرجع الفضل في جمع القرآن وتدوينه على ما سياتي :

بيعة عمر :

لما مرض أبو بكر مرض الموت وأحس بدنو أجله ، خشى إن هو قبض ولم يعهد بالخلافة إلى أحد يجمع شتات المسلمين ويوحد كلمتهم عاد الاختلاف على الخلافة بين المسلمين سيرته الأولى فيتمكن منهم العدو . فرأى يبعد نظره وثاقب رأيه أن يحتاط لهذا الأمر درأً لما عساه ينجم عنه من الأخطار .

نظر أبو بكر في أصحابه ليتخير من بينهم رجلاً يكون شديداً في غير عنف ولينا في غير ضعف ، فوجد أن « من توفرت فيه هذه الصفة من الصحابة أحد رجلين : عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب . إلا أن الأول ربما يريد الأمر فيرى في طريقه عقبة فيدور إليه ، والثاني يرى الاستقامة ولا يبالى بالعقبة تقوم بين يديه . فهو بهذا إلى الشدة أميل منه إلى اللين » (٣) .

(١) شهد عمر مع الرسول بدرًا وأحداً والخندق وبيعة الرضوان وخيبر والفتح وغيرها .

(٢) الطبري ج ٣ ص ١٩٢

(٣) أشهر مشاهير الاسلام ص ١٢٣

استطلاع أنى بكر
رأى الأمة فى عمر

ولما وقع اختيار أنى بكر على عمر جعل يستشير فيه كل من دخل عليه من الصحابة . فسأل عبد الرحمن بن عوف فقال : أخبرنى عن عمر بن الخطاب . فقال : ما تسألنى عن أمر إلا وأنت أعلم به منى . فقال أبو بكر : وإن . فقال عبد الرحمن : هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل . ولكن فيه غلظة . قال أبو بكر : ذلك لأنه يرانى رقيقا ، ولو أفضى الأمر اليه لترك كثيرا مما هو فيه . ثم دعا عثمان فقال : أخبرنى عن عمر ! فقال : أنت أخبرنا به . فقال : على ذلك يا أبا عبد الله ؟ أخبرنى عن عمر فقال : اللهم علمى به أن سريره خير من علانيته وأنه ليس فينا مثله . وسأل أسيد بن حضير فقال أسيد : اللهم أعلمه الخير بعدك ، يرضى للرضا ويستخط للسخط . الذى يسر خير من الذى يعلن . ولن يلى هذا الأمر أحد أقوى عليه منه . واستشار أبو بكر غير هؤلاء سعيد بن زيد صاحب قضاء مصر وغيره من المهاجرين والأنصار فأتوا على عمر .

كتاب العهد

وقد دعا أبو بكر عثمان بن عفان فأملأه كتاب عهده لعمر . وهاك نصه : بسم الله الرحمن الرحيم ! هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة فى الحال التى يؤمن فيها الكافر ويتبقى الفاجر . إني استعملت عليكم عمر بن الخطاب . فإن برّ وعدل فذلك علمى به ورأى فيه . وإن جار وبدل فلا علم لى بالغيب . والخير أردت . ولكل امرئ ما اكتسب (وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ)

خطبة عمر بعد البيعة

ولما ولى عمر الخلافة صعد المنبر فقال : إني قائل كلمات فأمنوا عليهن . فكان أول كلام قاله حين استخلف : « إنما مثل العرب مثل جمل أنف ، اتبع قائده ، فلينظر قائده حيث يقوده . وأما أنا فو رب الكعبة لأحملنهم على الطريق » (١) .

الفتوح الإسلامية

عرفنا كيف أن النبي صلى الله عليه وسلم وضع أساس السياسة الخارجية للعرب ؛ فأرسل الكتب والبعوث إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى توحيد الله والإيمان برسالته وغزا بلاد الروم وحارب الغساسنة الخاضعين للروم على حدود الشام ، لما سخروا من دعوته واعتدوا على رسله وقتلوا أصحابه

عوامل هذه الفتوح

وقد جهز الرسول قبل وفاته حملة لغزو أطراف الشام عقد لواءها

غزوة أسامة

لأسامة بن زيد بن حارثة ؛ غير أن وفاته قد حالت دون انفاذ هذه

الحملة ؛ فلما انتهى الأمر بمبايعة أبي بكر كان أول شيء قام به أن سير

أسامة لغزو الروم ، لأنه رأى في ذلك مناورة حرية وسياسية تشعر

حرب الردة

أعداءهم في الداخل والخارج بقوة الحكومة وثبات مركزها (١) ، ثم

التفت إلى إخماد الفتن والثورات الداخلية . وبما يدل على حسن سياسة

أبي بكر وبعد نظره أنه شغل العرب بالحروب الخارجية ، لأنها كانت

تقي بما أمر به الدين من نشر الإسلام من جهة ولأنها كانت من جهة أخرى

استغلالاً صالحاً لما جبل عليه العربي من حب للنضال . ولو لم يواجه في

هذا السبيل لكان مثار اختلافات وفتن داخلية تقوِّض صرح الدولة

وتفصم عرى وحدتها ، وهي لم يجتمع شتاتها ولم يقر قرارها إلا منذحين .

لذلك فإن أبا بكر ما كاد ينتهي من حروب الردة الطاحنة التي شنها

بدء الفتوح

على العرب المارقين حتى بعث تلك الجيوش وأردفها بالامداد يتلو

بعضها بعضاً لفتح البلاد أمام دين الله وتقويض عروش الظلم والطغيان ؛

فأنفذ خالد بن الوليد إلى الحيرة ودعا المقاتلين من أرجاء الجزيرة العربية

للجهاد في سبيل الله وأنفذهم إلى الشام .

وإن توجيهه أبي بكر الجيوش لغزو دولتي الفرس والروم في وقت

واحد مع ما كان لكل من الدولتين من الملك وبسطة النفوذ ووفرة

الثروة لما يدل على قوة عزيمته ؛ غير أننا لا نعجب إذا عرفنا أن هاتين الدولتين وإن كانتا مضرب الأمثال في الأبهة والعظمة ، إلا أن هذا كله كان أمرا ظاهرا فقط . فقد أضعفهما استبداد الملوك والبذخ والخلافات الدينية والتنافس على الملك على حين ألف الاسلام بين قلوب العرب ، فوجد أبو بكر في الأمة العربية الفتية المولعة بالحرب المتشقة في طعامها ولباسها مع ما عليه رجالها من شدة الايمان والحرص على الاستشهاد في سبيل نصرته الدين ، خير معين للقضاء على هاتين الدولتين .

وقد تمت معظم الفتوح الاسلامية في عهد عمر بن الخطاب ؛ ففتحت فارس وفلسطين والشام ومصر وزادت الدولة العربية في رقعة أملاكها على حساب هاتين الدولتين العظيمتين : الفارسية والرومانية الشرقية أو البيزنطية .

حالة الروم وقت
الفتح العربي

ولقد سهل على العرب فتح ولايات الدولة الرومانية الشرقية ما كان بينها وبين العرب من صلة في الجنس وتقارب في اللغة وصلات في التجارة . أضف إلى ذلك ما كان بين الدولة الرومانية والأمم التي تحت سلطانها من النفور بسبب الانقسامات الدينية ، وزيادة الضرائب زيادة ناه تحتها الأهليون ؛ فرحبوا بحكم العرب ليتخلصوا من الحكم الروماني ومن استبداد الكنيسة البيزنطية .

وقد أخذت الدولة الرومانية في الانحطاط على أثر قيام الفتن والثورات في أواخر عهد جستنيان إلى وفاة هرقل (٥٦٥ — ٦٤١ م) . ومع أن هرقل قد استطاع أن يحول دون توسع الفرس في فتوحاتهم ، واسترد البلاد التي كانوا قد استولوا عليها بمعاهدة سنة ٦٢٨ م ، فإن المسلمين قد اقتطعوا منه أجمل ممتلكاته الشرقية ، وحاصر الآفار القسطنطينية من الشمال ، وجاء معهم البلغار الذين استقروا نهائيا في شبه جزيرة البلقان سنة ٦٧٩ م حيث لا يزالون إلى الآن . وبذلك لم يعد الدانوب الحد الشمالي للإمبراطورية كما كان من قبل .

غارات الآفار
والبلغار

غارات القوط

وكان تقهر البيزنطيين في الغرب أكثر منه في الشرق . فقد قام في أسبانيا القوط الغربيون واستولوا على اشبيلية عنوة سنة ٥٨٢ م ، واضطروا قرطبة إلى التسليم ، واستولى سفينتلا (Swinthilla) على آخر ممتلكات البيزنطيين سنة ٦٢٨ م ، ولم يعد للقوط منازع في كافة أرجاء شبه جزيرة أيبيريا ، وأصبح هوض العرب في الوقت نفسه أعظم الأخطار التي تهدد كيان الامبراطورية واستقلالها .

حالة الفرس

أما الحال في بلاد فارس فكان على العكس من ذلك ؛ فقد كان الفرس أمة مستقلة متجانسة في جنسيتها ولغتها ودينها . ولذلك كانت مقاومة الفرس للعرب مقاومة أمة لأمة أخرى .

ومع ذلك فقد استولى عليهم التواني والتواكل على أثر انتصار هرقل عليهم . وهناك أسباب أخرى أدت إلى القضاء على الامبراطورية الفارسية ، وذلك أنه كان قد انقضى على تأسيس امبراطورية آل ساسان (سنة ٢٢٦ م) على يد أردشير بن بابك أربعة قرون وهو عصر طويل ترعزت فيه أسس الامبراطورية الفارسية واختل نظامها . وقد اقتبس عنها العرب مذهب مانى ^(١) (Manes) ، كما انتقلت اليهم بعض

(١) المانوية نسبة الى مانى . وقد حاولت هذه الطائفة — كما حاول القدامى من الاشراقيين التوفيق بين المسيحية والوثنية في الشرق . وقد أخذت عقائدها وطقوسها عن التوراة وعن الفارسية القديمة Parsisme ثم البوذية . ويقول أنصار هذه الطائفة بالانثينية وهي العقيدة الاساسية لديانة الفرس . ومن ثم يقولون بوجود مصدرين الهيين لهذا العالم ، أحدهما اله الخير ويرمزون له بالنور ، والثاني اله الشر ويرمزون له بالظلمة ، ويسمون الاول اله النور والثاني اله الظلمة ، وهو الاله الذى صدر عنه هذا العالم المادى . وقد ندد عليهم بعض شعراء المسلمين بقوله :
وكم لظلام الليل عندك من بد تخبر أن المانوية تكذب

وقد بلغ من احتقارهم للعادة أن كانوا يزعمون أن الشيطان قد خالق منها . وانتشر المانوية في الشرق ، ولا سيما في بلاد الفرس والهند . وفي بلاد التبت والصين والتركستان حيث ظلت مزدهرة بها حتى القرن الحادى عشر الميلادى ، ثم انتقلت الى الغرب حتى وصلت الى جنوب إيطاليا . وقد دعا القديس أوغسطين Saint Augustin الى هذا المذهب وعمل على نشره زهاء ثمان سنوات . وناوآه كل من فالنتيان Valentin سنة ٣٧٢ ثم تيودوسيوس الاول Thodosius I. سنة ٣٨١ م مناوأة شديدة وأصدرا ضده المراسم الشديدة .
أنظر دائرة معارف لاروس

آثار الفلسفة والعلوم اليونانية على يد النسطوريين أو الأفلاطونيين الذين طردهم جستنيان من أئينا .

وكان للدولة الفارسية علاقات وثيقة مع الامبراطورية الصينية التي كانت متاخمة لها ، ومع الهند حيث انتشرت الديانة البوذية . وقد ساعد اتصالها بهذه الحضارات على تقدمها في العلوم والمعارف

استبداد الساسانيين
بالحكم

وكان من أثر استبداد الساسانيين بالحكم في آخر عهدهم أن كرههم الأهليون وأصبحوا ينظرون اليهم نظرة السخط والاستياء . وبذلك أعرضوا عنهم واتسعت مسافة الخلف بينهم لما شجع هؤلاء الملوك ديانة زرادشتية - وقد كانت من قبل بغیضة لدى الأهليين - وأفسحوا المجال لكتبتها حتى أصبح لهم شيء من السلطة في الدولة ومنحواهم نفوذا عظيما في مجالس الملك ، فادعوا بأن لهم نصيبا كبيرا في سياسة الدولة ، وأخذوا لذلك يضطهدون الأحزاب الدينية المخالفة من يهود ومسيحيين وصابئة ووبوذيين ومانويين . وقد ساعدت هذه الأسباب على ضعف الدولة الفارسية وانحلالها (١)

هكذا كانت حالة فارس من الفساد والتفكك السياسي والضعف المعنوي حين اعتلى عرشها يزدجرد الثالث آخر ملوك آل ساسان الذي اضطربت في عهده أمور الفرس . وكان قد جلس على سرير الملك وعمره إحدى وعشرون سنة ؛ فقوى حينئذ طمع العرب في غزو هذه البلاد ، وساعد على ذلك ما كان الرسول يعدهم به من تملك كنوز الأكايرة (١) .

فتح بلاد العراق وفارس :

كان العرب يرون بلاد الفرس أصعب من بلاد الدولة في عهد أبي بكر

(١) - سيرة ابن هشام ج ٣ ص ١٦٦ . الفخرى ص ٧٤

البيزنطية لما قدمنا من الأسباب ؛ ومن ثم كانوا يتهيئون غزوها ويتجنبونه . وقد وجه أبو بكر جيشا إلى أطراف العراق بقيادة خالد بن الوليد ومعه المثنى بن حارثة ؛ فأخضع القبائل العربية التي كانت تقيم جنوبي نهر الفرات ، وانتصر على الفرس واستولى على الخيرة والانباء . وما لبث العرب أن تقهقروا أمام جيش الفرس السكيف الذي أعده يزديجرد الثالث آخر ملوك آل ساسان بقيادة رؤسهم ، وارتدوا إلى أطراف الصحراء . وظلت الحال على ذلك إلى آخر أيام أبي بكر حيث وجه خالد بن الوليد لمساعدة المسلمين في قتال الروم بالشام وفلسطين .

فلما ولي عمر بن الخطاب الخلافة و زاد الاضطراب في بلاد الفرس ، كتب المثنى بن حارثة إلى عمر بذلك وبحلوس يزديجرد على العرش مع حداثة سنه ، وأغراه بانتهاز هذه الفرصة . وكان عمر قد اطمأن من ناحية الروم بعد هزيمتهم في أجنادين سنة ١٥ هـ ، فوجه همه لغزو بلاد العراق وندب الناس لغزوها وهوّن عليهم فتحها ، وأراد أن يقود الجيش بنفسه . ولكن بعض الصحابة أشاروا عليه بأن يُقيم ويبعث رجلا من كبار الصحابة ويكون هو من ورائه يُمدّه بالأمداد . فلما سمع ذلك عمر صعد المنبر وقال : « أيها الناس ! إني كنت عازماً على الخروج معكم ، وإن ذوى اللب والرأى منكم قد صرفوني عن هذا الرأى ، وأشاروا بأن أقيم وأبعث رجلا من الصحابة يتولى أمر الحرب ^(١) . »

وقد وقع الاختيار على سعد بن أبي وقاص ، فاستحسن عمر هذا الرأى واستقدم سعداً وولاه حرب العراق ^(٢) ، وودّع الجيش . وجعل سعد يتنقل في الأراضى التي بين الحجاز والكوفة ويستمع الأخبار ، ورسّل عمر توافيه وكتبه تأتية يشير عليه فيها بآرائه ويمدّه بالجنود .

(١) الفخرى ج ١ ص ٧٥

Muir : The Caliphate, Rise, Decline and Fall, p. 83. (٢)

موقعة القادسية
١٥ ٩ ٦٣٦ م

ولما قصد سعد القادسية (١) - وكانت باب العراق - التقى برستم في جيش يبلغ ثلاثين ألف مقاتل على حين كان جند العرب يتراوح بين سبعة آلاف وثمانية آلاف ، وكان الفرس يضحكون من بُلّ العرب ويشبهونها بالمغازل (٢) .

وقد ترددت الرسائل بين قائد العرب وقائد الفرس . فكان العربي يأتي إلى باب رستم وهو جالس على سرير الذهب وقد زُيّن مجلسه بالفرش المنسوج بالذهب ، ولبس الفرس التيجان وأقاموا الفيلة حول المسكان ، فيجئ العربي وهو متقلد سيفه فيربط فرسه بالقرب من سرير رستم ؛ فيهم الفرس بمنعه . غير أن رستم كان يستدنيهم ؛ وقد أعجب بهم وبسديد إجاباتهم حتى قال لأصحابه : أنظروا فان هؤلاء لا يخلو أمرهم من أن يكون صدقاً أو كذباً ، فان كانوا كاذبين ، فان قوما يحفظون أسرارهم هذا الحفظ ، ولا يختلفون في شيء ، وقد تعاهدوا على كتمان سرهم هذا التعاهد بحيث لا يظهر أحد منهم سرهم ، لقوّم في غاية الشدة والقوّة ، وإن كانوا صادقين فهؤلاء لا يقف حذاءهم أحد . فصاحوا حوله وقالوا : الله الله أن تترك ما أنت عليه لشيء رأيتك من هؤلاء الكلاب ، بل صمّم على حربهم . فقال رستم : « هو ما أقول لكم ولكني معكم على ما تريدون » (٣) .

انهزام الفرس

فلم ير رستم بدا من المضى في حرب العرب ، واقتتلوا أياماً انعكس الريح في آخرها عليه وعلى جنده حتى أعماهم الغبار ، وقتل رستم وعدد كبير من جنده وهرب الباقون ، وغنمت أموالهم ، ثم تبعهم سعد إلى

(١) القادسية موضع على جادة الكوفة على حافة البادية وحافة سواد العراق ، بينه وبين الكوفة ١٣ فرسخاً . وقد اختاره عمر لاقامة سعد وجنده لقربه من البادية ، حتى لا يقدم الفرس على التوغل فيه لو تقهقر جيش المسلمين أمامهم .

(٢) الفخرى ص ٧٦

(٣) شرحه ص ٧٧

جلولاء (١٧ م ٦٣٨ م) وأوقع بهم وأسرى إحدى بنات كسرى وقتل
عددا كبيرا من الفرس (١)

عند ذلك كتب سعد إلى عمر يبشره بالفتح ، فكتب إليه :
« قف مكانك ولا تتبعهم واقتنع بهذا ، واتخذ للمسلمين دار هجرة ومدينة
يسكنونها ولا تجعل بيني وبينهم بحرا (٢) » (وذلك لأن العرب لم تكن
أمة بحرية) . فاتخذ سعد الكوفة وأسس بها المسجد الجامع واختط
الناس المنازل ومصرها . (٣)

ثم توغل سعد في بلاد العراق واستولى على المدائن (٤) عاصمة
الفرس بعد أن حاصرها شهرين ، وقد غنم العرب منها غنائم كثيرة من
بينها بساط كسرى ، وفر يزدجرد إلى حلوان .

ولم يستطع يزدجرد أن يلم شعث جنده ويستعد لملاقاة العرب من
جديد إلا بعد أربع سنوات : وفي سنة ٢١ هـ جمع كسرى جيشا كشيفا
يربو عدده على ١٥٠.٠٠٠ مقاتل ، وأرسل عمر الأمداد إلى جيش
المسلمين . والتقى الفريقان في نهاوند (٤) ؛ فكتب النصر للعرب رغم
استماتة الفرس في الدفاع عن بلادهم . وقد عرفت هذه الموقعة بفتح
الفتوح لشدها وأهميتها . وما زال العرب يطاردون يزدجرد الثالث
ويستولون على بلاده حتى اضطروا إلى الفرار إلى أقصى الحدود الشرقية .
وما زال أمره يضعف حتى قتل في سنة ٣١ هـ بخراسان (٥) ؛ وكان ذلك
في عهد عثمان بن عفان . وبموت يزدجرد انقرضت دولة آل ساسان
وتحققت دعوة النبي بتمزيق ملك الأكاسرة .

ولا شك أن العرب قد جنوا ثمار هذه الانتصارات على الفرس

(١) الطبرى ج ٤ ص ١٣٢ - ١٤٠

(٢) الفخرى ج ١ ص ٧٨ م الطبرى ج ٤ ص ١٤١

(٣) أى جعلها حاضرة المسلمين في هذه البلاد .

(٤) هى مدينة عظيمة بينها وبين همدان ثلاثة أيام وهى من أقدم بلاد الجبال في فارس

(٥) الفخرى ج ١ ص ٧٥

فضموا إلى بلادهم بلاداً جديدة ، وأثروا وأصبحوا في رغد من العيش ، بعد أن امتلكوا كنوز الفرس . وقد بهرت تلك النفائس والأموال العرب الذين اعتادوا التقشف والبساطة . ويحدثنا صاحب الفخرى^(١) أن بدويا ظفر بحجر من الياقوت يساوي مبلغاً عظيماً ؛ فلم يدر قيمته ، فرآه بعض من يعرف قيمته فاشتراه منه بألف درهم ؛ ثم عرف البدوي بعد ذلك قيمته ولامه أصحابه وقالوا له : هلا طلبت فيه أكثر من ذلك ؟ قال : لو علمت أن وراء الألف عدداً أكثر من الألف لطلبت . وكان في العرب من يأخذ في يده الذهب الأحمر ويقول : « من يأخذ الصفراء ويعطيني البيضاء ؟ » ، بمعنى أنه يرى أن الفضة خير من الذهب .

أثر الفتح العربي في بلاد الفرس :

ترحب الفرس بالعرب لقد رحب الفرس بالعرب محباً في الخلاص من ظلم الحكام أولاً ورغبة في معافاتهم من الخدمة العسكرية ثانياً ، ثم أملاً في تمتعهم بالحرية الدينية آخر الأمر . وذلك لأن الاسلام كان يبيح لغير المسلمين من يهود ومسيحيين وزرادشتيين أن يعتنقوا ما يرضون لأنفسهم من دين على أن يدفعوا للمسلمين الجزية .^(٢)

وقد رحب الفرس وخاصة الجنس السامي بالاسلام وحثوا على اعتناقه ، لما يمتاز به من البساطة والحرية والمساواة ؛ فبادر الناس إلى اعتناق هذا الدين الجديد ، وخاصة الصناع وأصحاب الحرف وأهل الطبقة العاملة ، والزراع الذين كانوا يقع عليهم حيف الطبقات الارستقراطية واستبداد الحكام والكهان بهم في نظام الفرس الاجتماعي

ترحب الفرس بالاسلام

(١) الفخرى ج ١ ص ٧٨

(٢) أبو يوسف : كتاب الخراج ص ٧٣

القديم، ولما في اعتناقهم الاسلام أيضا من تركهم أحرارا ومساواتهم من حيث المذهب الديني. (١)

ولم يكن ارتدادهم عن ديانة زرادشت بالامر الصعب عليهم؛ فقد تبع سقوط الأسرة الساسانية تدهور الكنيسة؛ فلم يكن لرجالها سلطة تفرض مذهبها على الناس.

وفضلا عن هذه العوامل التي كانت سببا في انتشار الاسلام بسرعة مدهشة في بلاد فارس، كان ثمة عامل آخر هو شعور الناس السياسى والوطنى أو القومى نحو العرب على أثر زواج الحسين بن على ابن أبى طالب باحدى بنات يزدجرد (شهر بانو) آخر ملوك الأسرة الساسانية. وقد رأى الفرس فى أولاد الحسين خير خلف لملوكهم الأقدمين؛ وهذا الشعور يفسر لنا تعلق الفرس الشديد بعلى من جهة، كما يفسر لنا انتشار مذهب الشيعة هناك من جهة ثانية. (٢)

حسن معاملة العرب
للفرس

ولم تكن القوة هى السبب فى تحويل الناس إلى الاسلام، بدليل المعاملة الحسنة التى عامل بها العرب من ظل من الفرس على مذهبهم القديم. ولا يزال إلى الآن الجماعات التى تعبد النار فى بعض جهات فارس الذين كان يتمتع أجدادهم منذ الفتح الاسلامى بحرية دينية كبيرة. وكانت معابدهم محترمة. حتى إن أحد القواد المسلمين فى زمن الخليفة المعتصم (٢١٨-٢٢٧ هـ ٨٣٣-٨٤٢) أمر بجلد إمام ومؤذن، لأنهما اشتركا فى هدم أحد معابدهم واستخدام حجارتها فى بناء مسجد مكانه. وفى القرن العاشر الميلادى — أى بعد فتح فارس بثلاثة قرون — وجدت معابد النار فى العراق وفارس وكرمان وسجستان وخراسان

(١) De Gobineau : Religion et Philosophie dans l'Asie Centrale, vol I. pp. 306 — 360.

(٢) مذاهب الشيعة لاحد بك نجاف (مقتطفات من المؤتمر التاسع للمستشرقين ص ٥٠٩ - ٥١١) (لندن سنة ١٨٩٣)

وأذريجان (١) ، وبعبارة أخرى في جميع جهات فارس ؛ إذ لم تخل أية مدينة من مدن فارس من تلك الأمكنة التي تقام فيها شعائر عبادة النار . (٢)

ويتبين لنا من ذلك أن اضمحلال ديانة زرادشت لم يكن مصدره أن الفاتحين المسلمين قد استعانوا بالقوة على حمل الناس على اعتناق الاسلام في السنين الأولى من الحكم العربي ؛ إذ أن في بقاء المذهب القديم وارتداد الناس عنه تدريجياً أكبر دليل على أن اعتناقمهم الاسلام كان بمحض اختيارهم ، وطوعاً لما هداهم إليه التفكير في هذا الدين الجديد والمقارنة بينه وبين غيره من الديانات . وقد تمتع أتباع ديانة زرادشت بالحرية الدينية إلى أواخر عهد الدولة العباسية ، أي إلى أن جاء الفتح المغولي . ومنذ ذلك الوقت ذاق المسلمون من الفرس أشد أنواع البؤس .

وقد بدأت في فارس حول أواسط القرن الثاني للهجرة (الثامن الميلادي) حركة كانت سبباً في انتشار الاسلام هناك بسرعة مذهشة ، وهي ظهور مذهب الاسماعيليين . وليس هذا مكان البحث في تاريخ هذا المذهب أو في مكائته الدينية بين أتباعه ، ولا في العوامل الاجتماعية والسياسية التي ساعدت على ظهوره ، إنما المهم أن نقول إن ظهور هذا المذهب ساعد على انتشار الاسلام ببلاد فارس .

انتشار الاسلام في
فارس في القرن
الثاني للهجرة

هذا ، وقد كان العرب أثناء حكمهم لبلاد الفرس يقومون بحماية أهالي هذه البلاد مقابل مبلغ معين يدفع عن كل فرد قادر على القتال يسمى الجزية أو جزية الرموس . وهي ضريبة شخصية يدفعها أهل الزمة مقابل اعفائهم من خدمة الجيش ، وكانوا يعفون من تلك الجزية

سياسة العرب في
فارس

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٤ ص ٨٦

(٢) الاصلطخري ج ١ ص ١٠٠ - ١١٨ ، ابن حوقل ج ١ ص ١٨٩ - ١٩٠

إذا اعتنقوا الاسلام . وكانت الأرض ملكاً للفاتحين ؛ غير أن هؤلاء كانوا يتركونها للأهل يزرعونها على أن يؤدوا جزءاً من غلتها ضريبة عقارية تسمى الخراج . ويرجع السبب في ترك الأرض في أيدي الأهلين إلى الرغبة في أن يكون كل مسلم جندياً من جنود الاسلام على أهبة الاستعداد لتلبية داعي الجهاد في كل لحظة على أن يمنح عطاء معيناً من بيت مال المسلمين مقابل خدماته (١) .

وكانت الحكومة تقوم ببناء الطرق وحفر الترغ وتوطيد الأن وما إلى ذلك من الأعمال الحكومية . وكان من أثر هذه السياسة أن بادر كثير من الأهلين إلى اعتناق الاسلام ، كما ساعد العرب على التوسع في فتح بلاد المشرق .

فتح الشام وفلسطين :

كان حكام الرومان في آخر أيامهم يعاملون الأهلين بالظلم ويسومونهم العذاب . فتأفف من جورهم أهالي البلاد التي كانت تحت سلطانهم ، ومالوا إلى الخلاص من رقة الذل والاستعباد ، وتغيير الحال التي أصبحوا فيها على أي شكل كان . ولم تكن الروم وقد ضعف أمرهم وكادت تدول دولتهم من القوة بحيث يتمكنون من دفع العرب عن بلادهم ، فخارت نفوسهم وداخلهم شيء من اليأس ، فساعد هذا تلك الأمة الطموحة ، مع ما عليه رجالها من الشجاعة وقوة الايمان وعدم المبالاة بالموت ، على فتح الشام وفلسطين وغيرهما من البلاد .

وقد كانت نيران الانتقام والحقد تأكل قلوب الروم من جراء

حالة بلاد الشام قبل
الفتح

(١) أنظر Sir Thomas Arnold, Preaching of Islam, Chap. VIII. (The Spread of Islam in Persia and Central Asia) (1st ed.), pp. 177-187.

الغارة التي شنها على بلادهم أسامة بن زيد؛ فجمع الامبراطور هرقل جيشا جرارا وعسكر به على مقربة من حدود بلاد العرب وفلسطين. (١)

دعوة العرب لفتح الشام وفلسطين

فدعا أبو بكر المقاتلين من جميع أرجاء جزيرة العرب، فلبوا الدعوة بحمية وحماس شديدين، وسرعان ما أنفذ الجيوش نحو الشمال عقب تجمعهم بالمدينة بعد أن عقد لاربعة من الأمراء وهم:

١ - أبو عبيدة بن الجراح ووجهته حمص ومركز القيادة الجالية.

٢ - عمرو بن العاص ووجهته فلسطين.

٣ - يزيد بن أبي سفيان ووجهته دمشق.

٤ - شريحيل بن حسنة ووجهته وادي الازردن.

وأمرهم أبو بكر أن يعاون بعضهم بعضا وأن يكونوا جميعا تحت إمرة أبي عبيدة، وأن يستقل عمرو بفتح فلسطين، وعليه أن يمدد الجيوش الأخرى إذا دعت الحاجة إلى ذلك (٢).

وعند مسير عمرو بن العاص إلى فلسطين أوصاه أبو بكر وصية بليغة. وقد آثرنا أن نقطف منها بضع شذرات علنا نقف على شيء من أخلاق عمرو وحرص أبي بكر على المسلمين وسلوك الأمراء مع أهالي البلاد التي فتحها العرب.

قال الواقدي: دعا أبو بكر عمرو بن العاص فسلم إليه الراية وقال: قد وُلِّيتُكَ هذا الجيش (يعني أهل مكة والطائف وهوازن وبنى كلاب). فانصرف إلى أهل فلسطين، وكاتب أبا عبيدة وأنجده إذا أرادك، ولا تقطع أمرا إلا بمشورته. اتق الله في شرك وعلايتك،

(١) تاريخ عمرو بن العاص للؤلف ص ٣٩ - ٤٠.

(٢) الطبري ج ٤ ص ٢٨٨ وابن الاثير ج ٢ ص ١٩٥.



واستحيه في خلواتك ، فانه يراك في عملك . وقد رأيت تقدمتي لك على من هم أقدم منك سابقة وأقدم حرمة . فكان من عمال الآخرة وأرد بعملك وجه الله ، واسلك طريق إيلياء حتى تنتهي إلى أرض فلسطين . وإياك أن تكون وانيا عما ندبتك إليه ، وإياك والوهن ، وإياك أن تقول جعلني ابن أبي قحافة في نحر العدو ولا قوة لي به . واعلم يا عمرو أن معك المهاجرين والأنصار من أهل بدر ؛ فأكرمهم واعرف حقهم . ولا تتناول عليهم بسلطانك ، ولا تداخلك نخوة الشيطان فتقول إنما ولاني أبو بكر لاني خيرهم . وإياك وخدائع النفس ؛ وكن كأحدهم وشاورهم فيما تريد من أمرك . والصلاة ثم الصلاة أذن بها إذا دخل وقتها . واحذر من عدوك وأمر أصحابك بالحرس . ولتكن أنت بعد ذلك مطلعا عليهم . وأطل الجلوس بالليل على أصحابك ، وأقم بينهم واجلس معهم . واتق الله إذا لاقيت العدو ، وقدم قبلك طلائعك فيكونوا أمامك .

« وإذا وعظت فأوجز . وأصلح نفسك تصلح لك رعيتك . وإذا رأيت عدوك فاصبر ولا تتأخر ، فيكون ذلك منك خيرا . وألزم أصحابك قراءة القرآن ، وانهم عن ذكر الجاهلية وما كان منها . فان ذلك يورث العداوة بينهم . وأعرض عن زهرة الدنيا حتى تلتقي بمن مضى من سلفك . وكن من الأئمة الممدوحين في القرآن إذ يقول الله تعالى : (وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَامِدِينَ) (١) .

ثم قال لعمرو : امض بارك الله فيك وفيهم . فساروا في تسعة آلاف يريدون أخذ فلسطين . (٢)

(١) سورة الانبياء. ١٧ : ٧٣

(٢) فتوح الشام للواقدي ج ١ ص ٩ - ١٠

ومن أنعم النظر في هذه الوصية التي ترجمها كثير من مؤرخي الفرنج مثل جبون Gibbon وأيرفنج (Irving) ألفاها آية في البلاغة لها من الأهمية في هذا الظرف . يحذره فيها مغبة الوهن ونخوة الشيطان والمطاولة على من معه ، وينصح له أن لا يفرق بينه وبينهم ، فيقيم بينهم ويجلس معهم . وأن يكون مثالا حسنا لمن معه ، فينصلح أمرهم بصلاح أمره . وألا يباشر عملا حربيا إلا بعد أن يخبر قوة عدوه ، ويبث العيون حتى لا يؤخذ على غرة أو يطوح بالمسلمين في مهاوى التهلكة ، ويرغبه في الآخرة ويحذره من الافتتان بالدنيا . ولا ريب أن هذه النصائح الغالية مما يفيد القواد فائدة كبيرة وتؤدي إلى النصر المبين .

عمل عمرو بن العاص بما رسمه له أبو بكر في وصيته التي كانت أشبه شيء بالخطة الحربية ؛ فسار في طريق إيلياء حتى وصل إلى فلسطين ، ونزل « بَعْمَر العَرَبَات » ؛ فلما علم هرقل بكتائب المسلمين أراد أن يشغل كل طائفة منهم بطائفة من جنده الكثير ليضعف بذلك قوتهم . ولما بلغ عمرا أن جيش الروم يزيد على مائة ألف المسلمين ؛ أرسل عبد الله بن عمر بن الخطاب في ألف فارس داهم بهم عشرة آلاف من الروم ، وحمل بنفسه على كبيرهم فقتله . فدخل الفزع والهلع قلوب الأعداد واقتتل الفريقان قتالا أسفر عن انهزام الروم ؛ فولوا الأدبار واستولى المسلمون على ما كان معهم من الأسلاب والغنائم عدا ستمائة أسير . وقتل من المسلمين على مارواه الواقدي سبعة . (١)

ولما أصبح المسلمون أشرف عليهم عشرة صلبان تحت كل صليب عشرة آلاف (٢) ؛ فأقبل عمرو ورتب الجند وجعل في الميمنة الضحاك ،

(١) لم يرو الطبري هذه الموقعة ولعله أكثر احتياطا في رواية الاخبار .

(٢) هذا ما ذكره الواقدي . أما الطبري فقد ذكر أن هذا الجيش كان سبعين ألفا . وذكر « ابن الاثير » أن « هرقل » أرسل الى عمرو تسعين ألفا .

وفى الميسرة سعيد بن خالد ، وعلى الساقة أبا الدرداء ، وثبت هو فى القلب ومعه أهل مكة . وأمر الناس أن يقرءوا القرآن ، وجعل يحببهم فى القتال ويرغبهم فى ثواب الله وجنته وهم كالبنيان المرصوص . فلما شاهدهم رويس (Robis) بطريق الروم انكسرت حميته وأسقط فى يده .

ولما اشتبك الفريقان فى القتال عمد المسلمون إلى الخيلة فى الأعداء ، فجمعوا دوابهم بالأسنة ، وحملوا عليهم حملة منكرة . وكان شعارهم لا إله إلا الله محمد رسول الله . يارب انصر أمة محمد صلى الله عليه وسلم . ولم تزل الحرب تضطرم نارها بين الفريقين إلى الأصيل إذ أتى الله المسلمين بالنصر ، وولى الروم منهزمين والمسلمون فى أعقابهم مسرعين . وكانت خسارة الروم فى هذه الموقعة خمسة عشر ألفا وخسارة المسلمين مائة وثلاثون . وكان من بينهم سعيد بن خالد أخو عمرو بن العاص لأمه ولما تمت لعمرو هزيمة الروم كتب لآبى عبيدة :

« قد وصلت إلى أرض فلسطين ولقينا عساكر الروم مع بطريق يقال له « رويس » فى مائة ألف فارس . فنزّلنا الله علينا بالنصر ، وقتل من الروم خمسة عشر ألف فارس ، وفتح الله على فلسطين بعد أن قتل من المسلمين مائة وثلاثون رجلا . فان احتجت إلى سرتك إليك . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » (١) .

لاندرى من أين جاء الواقدي بهذا الكلام الذى يقول فيه عمرو إنه تم له فتح فلسطين لانتصاره فى هذه الموقعة ، والروم مرابطون فى جميع أرجائها ، وغزة والرملة وبيت المقدس وأجنادين وغيرها لا تزال بأيديهم ، ولم يفتحها إلا بعد اليرموك ودمشق . وكيف تغلب المسلمون على مائة ألف من الروم وزيادة ، على حين لم تزد قوة عمرو عن تسعة آلاف

مناقشة هذه الرواية

مقاتل ؟ أضف الى ما تقدم أن خسارة المسلمين في اليوم الذى سبق الموقعة الكبرى (وكانت سبعة) ، وكذا خسارة الروم في هذه الموقعة قد أغفلت . فكانت خسارة المسلمين مائة وسبعة وثلاثين وخسارة الروم أكثر من خمسة عشر ألفا . وما ذكره الواقدي في هذا الكتاب يناقض ما ذكره الطبرى وابن الاثير وغيرهما من أن عمرو بن العاص حين رأى « هرقل » قد سَيَّر إليهم أربعة جيوش جرارة لسحق جيوش المسلمين الأربعة كاتب أبا بكر ، وشاور قواد الشام عمرأ في أمرهم ؛ فأشار عليهم بالاجتماع ليكون لهم بذلك قوة يدفعون بها العدو - إذ لا يتأتى لهم النصر إلا بالمعونة - ورأى أن يكون اجتماعهم باليرموك ؛ فكتب أبو عبيدة بما كتبوا لعمرو ، فوافاهم كتاب أبى بكر بما رأى عمرو ^(١) .

ومن هنا يعلم أن عمرو بن العاص ، وإن لم يكن قائد المسلمين في حرب الشام فقد عرف له المسلمون أصالة الرأى وبعد النظر فاستشاروه في مهام الأمور . ويكفيه نفراً أن جاء جواب أبى بكر مطابقا كل المطابقة لرأيه . ولا يبعد أن يكون أبو بكر قد علم بما رأى عمرو من كتابه إليه وكذا من كتاب أبى عبيدة فأقره عليه .

وفي الوقت الذى انشغل فيه المسلمون بفتح بلاد الدولة الرومانية في الشام وفلسطين ، توجهت قوة صغيرة لفتح العراق ؛ وبينما كانت انتصارات المسلمين تتوالى في العراق وصلت أنباء الشام بأن أبا عبيدة لم يقو على مدافعة الروم ؛ فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد بأن يسير من العراق لمساعدة جيوش العرب في الشام ، وأن يتولى

(١) الطبرى ج ٤ ص ٩٠٣ ابن الاثير ج ٢ ص ١٩٨

Sir William Muir, The Caliphate pp. 67 — 68;
Washington Irving, Lives of the Successors of
Mohammed, p. 73.

القيادة مكان أبي عبيدة . فولى خالد المشنى بن حارثة الشيباني جند المسلمين وسار على رأس ألف وخمسمائة (١) من أهل الشجاعة والنجدة حتى وصل إلى بصرى وهى مدينة تجارية حصينة ؛ وكان أبو عبيدة قد أنفذ شرحبيل بن حسنة إليها . فلم يقو على هزيمة الروم لأن حامية هذه المدينة صوبت سهامها إلى المسلمين من كل جانب ، ولم ينجمهم إلا حضور خالد بن الوليد الذى استطاع أن يستولى عليها بمعونة واليهارومانوس (Romanus) الذى اعتنق الاسلام وسلم المدينة للمسلمين بعد أن دهم على الدخول اليها من سرداب تحت سورها .

واقعة اليرموك

وقد شجع استيلاء العرب على مدينة بصرى على محاصرة دمشق فى الوقت الذى شنت فيه عمرو بن العاص شمل الجيوش البيزنطية فى فلسطين . ولما سمع عمرو أن الامبراطور قد أرسل أربعة جيوش جرارة لمحاربة جيوش المسلمين الأربعة ، تطورت الحالة وغدا مركز المسلمين من الخطورة والدقة بحيث استشار قوادهم بعضهم بعضاً ؛ فأشار عليهم عمرو بالاجتماع فى مكان واحد يواجهون فيه قوى البيزنطيين ، واختار اليرموك . وقد ذكر أيرفنج (٢) أن الذى أشار على المسلمين بهذا رأى هو خالد بن الوليد ، وهو يخالف ما ذكرناه ، لأن خالد لم يلحق بالمسلمين إلا وهم على اليرموك .

(١) هذا مقاله أيرفنج (Irving) . وفى الطبرى أن جيش خالد كان عشرة آلاف فوز بهم من قراقرى إلى سوى . وما زال يوقع بما يقابل من المدن الى أن اجتمع بقية جيوش المسلمين فى اليرموك . تاريخ ابن الاثير ج ٢ . ص ١٩٨ ، p. 14. Washington Irving. E. Gibbon, The History of the Decline and Fall of the Roman Empire pp. 226.

Sir, William Muir, the Caliphate, pp. 70 — 71.

Washington Irving, Lives of the Successors of (٢) Mohammed p. 68

ماهان

ولما علم بذلك « هرقل » عول على أن يشتبك مع العرب في موقعة فاصلة ، فجيش الجيوش الجرارة تحت قيادة ماهان (Mahan or Bahan) وهو قائد أرمني عرف فيه « هرقل » الشجاعة والاقدام .
 سار « ماهان » في ثمانين ألفا ، ولحق به جبلة بن الأيهم ملك غسان على رأس ستين ألفا من العرب المنتصرة خلا الجنود التي كانت مع قواد الروم الآخرين فأصبح عددهم مائة وأربعين ألفا .
 وقد ذكر الطبري وابن الاثير وغيرهما أن جيش المسلمين لم يتجاوز أربعين ألفا . (١)

أما قول الواقدي (٢) إنه كان مع « ماهان » ومن هم تحت إمرته خمسمائة ألف أو ستمائة ألف أو ألف ألف وستمائة ألف (٦٠٠.٠٠٠) فهو قول مردود ، والمبالغة فيه ظاهرة

جمع العرب جميع قواتهم وعسكروا على مقربة من اليرموك (٣) ؛
 وقد زعم الروم أنها محمية من جميع جهاتها وأنها محصنة تحصينا طيعيا ، وسيروا اليها جيشهم بلا مبالاة بالعرب الذين عبروا النهر من شماله وجعلوا مركزهم بجانب هذا العنق ، وأصبحوا على تمام الأهبة لضرب الروم إذا ما خرجوا من هذا الشرك الذي نصبه لهم القدر . (٤)

Sayed Ameer Aly, p. 48 ; Washington Irving, (١)
 p. 68 ; Sir William Muir p. 71.

(٢) فتوح الشام للواقدي ج ١ ص ١٢٠
 (٣) اليرموك نهر وحيته الطبيعة أسرارها وأغزاها . ينبع من مرتفعات حوران ويصب في الأردن جنوبي بحيرة طبرية بأمال قليلة . وعلى نحو ثلاثين ميلا من التقائه بالأردن يكون في الطرف الشمالي شرعا على شكل نصف دائرة يحيط بسهل متسع صالح لأن يسكن به جيش كبير .
 ووصف هذا النهر رعة منجدة . وعند مضيق هذا الشرح عنق يكون مدخل هذه الأرض المنبسطة التي في الداخل ، وهذه البقعة تسمى « الواقصة » ذات الشهرة العظيمة في الوقائع الإسلامية .

he Caliphate p. 68 ; A Short History of the (٤)
 Saracens, p. 37.

ماهان يطلب الصلح

وكان « هرقل » قد أوصى « ماهان » بمراسلة العرب بشأن الصلح . فأرسل جبلة بن الأيهم إلى أبي عبيدة ، فأبى أبو عبيدة إلا أن يملك المسلمون الشام وفلسطين . وأرسل إلى جبلة رسلاً يؤنبونه لانضمامه إلى الروم وينصحون له أن يرجع إلى الاسلام أو يكف عن قتالهم ويدفع الجزية ، فلم يزد ذلك إلا مكابرة .

قدوم خالد من العراق

ولما قدم خالد بجيشه إلى الشام وجد المسلمين يقاتلون الروم متساندين . فرتب خالد الجيش ، وجعل أبا عبيدة في القلب ، وعلى الميمنة عمرو بن العاص ، وعلى الميسرة يزيد بن أبي سفيان . ثم دارت رحى الحرب بين الفريقين ، واشتركت النساء مع الرجال في القتال لصد هجمات العدو الذي اضطروهم إلى التقهقر عدة مرات (١)

وقد ذكر الواقدي عن عمرو بن العاص في قتال اليرموك أن الروم حملوا على المسلمين حملة شديدة ، فولى صاحب لوائهم منهزماً . فتسابق لأخذه عمرو بن العاص وخالد بن الوليد ، فأخذه عمرو ولم يزل يقاتل به حتى انهزمت الروم وولوا الأدبار .

وبعد هذه الانهزيمات المتواصلة التي لحقت بالروم في الأدغال وعلى رؤوس الجبال ، جاء يوم الواقصة ، وهو اليوم الذي ختم فيه للعرب بالنصر حيث هوى في الواقصة من جنود الروم مائة وعشرون ألفاً (٢)

وكانت خسارة الروم في اليرموك مائة وأربعين ألفاً وخسارة المسلمين ثلاثة آلاف على مارواه السيد أمير على نقلا عن كوسان دي برسيغال (Coussin de Perceval) . وقد تعقب المسلمون الفالة

(١) فتوح الشام للواقدي ١ ص ١٦٥ و تاريخ ابن الاثير ج ٢ ص ٢٠٠ الطبري

ج ٤ ص ٣٢ ، p.75 The Caliphate

(٢) الطبري ج ٤ ص ٣٥ فتوح الشام للواقدي ج ١ ص ١٧٢

وقتلوا «ماهان» ، ثم يمموا شطر دمشق حيث أقاموا على أبوابها شهرا للراحة من عناء الجهاد .

وبينما كان العرب يقاتلون الروم في اليرموك أتاهم نعي أبي بكر وتولية عمر الذي خلع خالدا وولى أبا عبيدة عامر بن الجراح مكانه .

فتح دمشق :

لما علم «هرقل» بانتصار المسلمين في واقعة اليرموك - وقد كان بيت المقدس - رأى أن بقاءه بها خطر عليه : فأسرع بالرحيل إلى حمص ليجعلها مقراً لأعماله الحربية . فخرج أبو عبيدة حتى نزل بمرج الصفر ، وهو يريد اتباع الفالة ولا يدري أين يجتمعون أو يفرقون . فأتاه الخبر بأنهم اجتمعوا بفحل ^(١) وأن المدد قد أتى أهل دمشق من حمص . فهو لا يدري هل يبدأ بدمشق أم بفحل من بلاد الأردن . فكتب إلى عمر وانتظر الجواب وأقام بالثقف . فلما جاء عمر نبأ فتح اليرموك أمر الأمراء على ما استعملهم عليه أبو بكر إلا ما كان من عمرو بن العاص وخالد بن الوليد ؛ فإنه ضم خالدا إلى أبي عبيدة وأمر عمر بمعاونة الناس حتى ينتقل الحرب إلى فلسطين فيتولى القيادة فيها .

ولما جاء عمر كتاب أبي عبيدة يستشيريه فيما ينبغي أن يبدأ به كتب إليه : أما بعد فابعدوا بدمشق فانها حصن الشام ، واشغلوا عنكم أهل فحل بخيل تكون بازائهم ، وأهل فلسطين وأهل حمص ، فان فتحها الله قبل دمشق فذاك الذي نحب ، وإن تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق ، فلينزل بدمشق من يمسك بها ودعوها ، وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تغيروا على فحل ، فان فتح الله عليكم

(١) ذكرها ياقوت في معجمة (ج ٦ ص ٣٤٠) فقال : غل بكسر أوله وسكون ثانيه وآخره لام موضع بالشام كان فيه وقعة للمسلمين مع الروم .

وفاة أبي بكر

مرج الصفر

فانصرف أنت وخالد إلى حمص ، ودع شَرَحِيلَ وَعَمْرًا ، وأخْلَهما بالأرْدُن وفلسطين ، وأمير كل بلد وجند على الناس حتى يخرجوا من إمارته (١) . أرسل أبو عبيدة إلى فُخْل عشرة قواد ؛ فساروا من الثَّقَف حتى نزلوا قريبا من فِجْل ، فلما رأت الروم أن الجنود تريدنهم بثقوا المياه حول فُخْل فوَحلت الأرض وتَألم المسلمون لذلك (٢)

حصار دمشق

وصلت إلى أهل الشام الأنباء المحزنة بأن جيش الروم قد تبدد ، فاستولى الهلع على قلوبهم . إلا أنهم أخذوا يعدون معدات القتال . وبينما كان إعداد هذه المعدات على قدم وساق ، رأى أهل دمشق جيش المسلمين ينساب من بين الأدغال والحدائق كتيبة عقب كتيبة ، وعلى المقدمة عمرو بن العاص في تسعة آلاف فارس ، ومن ورائهم كتائب المسلمين وقوادهم ، وعلى الساقة خالد بن الوليد مع راية العقاب (٣)

فلما وصلت جيوش المسلمين نزل عمرو بن العاص بباب الفراديس ، وشَرَحِيل بن حسنة بباب توما ، وقَيْس بن هُبَيْرَة بباب الفرج ، وأبو عبيدة بباب الجابية ، وبقي خالد بالباب الشرقي .

شدد المسلمون الحصار على أهل دمشق سبعين يوما ، ولم تجدنهم مَنعة حصونهم وما عليها من المنجنقات وغيرها من آلات الدفاع نفعا . وقد منع المسلمون المدد من أن يصل إليهم ، ونفذت المؤن من عندهم ، ففعل صبرهم وانكسرت حميتهم وجنحوا إلى الصلح (٤)

(١) الطبري - ٤ ص ٥٦

(٢) الطبري - ٤ ص ٥٦ - ٥٧

Houart: Histoire des Arabes, Tome I. pp. 234—352 (٣)

Gibbon's Roman Empire, vol. XX. p. 232.

Irving's Successors of Mohammed, pp. 34.

Muir, The Caliphate, p. 100. (٤)

انظر كتاب عمرو بن العاص للمؤلف ص ٤٦ - ٤٧

وقد قيل إنه ولد للبطريريق الذي كان على أهل دمشق مولود ،
فأكل القوم وشربوا ، وغفلوا عن مواقفهم ، ولم يشعر بذلك أحد من
المسلمين إلا ما كان من خالد فانه كان لا ينام هو ومن معه . وقد اتخذ
حبالا كهيئة السلالم فتقدم هو ومن معه من جنده إلى الباب ، ثم إلى
الباب الذي يليه ، ورموا بالحبال الشرف ، وعلى ظهورهم القرب التي
قطعوا بها خندقهم حتى استولوا على السور وفتحوا للمسلمين فأقبلوا
عليهم . ولما شد خالد على من يليه إذا أهل الأبواب التي تلي غيره قد
عرضوا على المسلمين الصلح فأجابوهم . فدخل أهل كل باب بصلح
ما يليهم . ودخل خالد مما يليه عنوة . فالتقى خالد والقواد في وسطها
هذا استعراضا وانتهابا ، وهذا صلحا وتسكينا ، فأجروا ناحية خالد
بمجرى الصلح . (١) وقد اختلف المؤرخون في الوقت الذي فتحت فيه
دمشق . فروى بعضهم أنها فتحت في أواخر سنة ١٣ للهجرة وبعضهم
قال في أوائل المحرم ، وبعضهم قال إنها فتحت في رجب من هذه السنة .

سار المسلمون بعد فتح دمشق إلى فيحل وعليهم شُرْحَبِيل بن
حَسَنَة ، فبعث خالدًا على المقدمة وأبا عبيدة وعمرو بن العاص على
الميمنة والميسرة ، وعلى الخيل ضرار بن الأزور . ولما انتهوا إلى أبي
الأعور قدموه إلى طبرية فحاصرها . ونزلوا على فيحل وكان قد أخلاها
أهلها حين نزل بهم أبو الأعور ، وساروا إلى بيسان . وصارت المياه
والأحوال بينهم وبين الروم .

وقد اُقتل المسلمون والروم قتالا شديدا ، فانهزم الروم وطاردهم
المسلمون إلى الوحل ، ووخزهم بالرمح حتى أصيبوا جميعا وكانوا ثمانين
ألفا (٢) . ولم يفلت منهم إلا الشريد ؛ فانصرف أبو عبيدة وخالد إلى

(١) الطبري ج ٤ ص ٥٧

(٢) معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٣٤٠

حمص ؛ فاستوليا عليها وعلى حماه وقنسرين واللاذقية وحلب .

أما شرحبيل وعمرو بن العاص فقد قصدا بيسان ؛ فحاصرا أهلها أياما وأرغموهم على طلب الصلح والأمان . ولما علم أهل طبرية ما حل بأهل نخل وبيسان صالحوا أبا الأعور وتم بذلك صلح الأردن وكتب إلى عمر بالفتح (١)

بيسان وطبرية

كان على فلسطين في ذلك الوقت وال روماني يدعى «أرطوبون» (٢) . وقد وضع جندا كثيرا بيت المقدس وغزة والرملة بينما عسكر بجنده السكيف بأجنادين (٣) .

ولما رأى عمرو أن القوة التي مع الروم أقوى مما كان يظن ، كتب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يخبره الخبر فقال عمر : قد رمينا أرطوبون الروم بأرطوبون العرب . فانظروا عم تنفرج . وكتب الى القواد أن يسيروا الى قيسارية والرملة وإيلياء كي يشغلوا الروم عن عمرو .

أجنادين

سار عمرو وعلى مقدمته شرحبيل بن حسنة ، وعالج كسر قوة «أرطوبون» فلم يوفق ؛ وقد اقتتل المسلمون والروم قتالا شديدا لا يقل عن قتال اليرموك ؛ فانهزم «أرطوبون» في ثمانين ألفا من الروم وآوى بالقالة إلى إيلياء ، وكان ذلك سنة ١٥ هـ (٦٣٦ م) (٤) .

(١) الطبرى ج ٤ ص ٥٩ ، ابن الاثير ج ٢ ص ٢٠٩ - ٢١١ بتصرف Muir, The Caliphate, p. 105.

(٢) ذكر بطر 215 p. أن لفظ أرطوبون الذى يطلقه مؤرخوا العرب على هذا القائد خطأ والصحيح أريطيون (Arétion)

(٣) ذكرها ياقوت في معجمة (١ ص ١٢٦) فقال : أجنادين بالفتح ثم السكون ونون وألف هو موضع معروف بالشام من نواحي فلسطين . وهى من الرملة من كورة بيت جبرين ، كانت به وقعة بين المسلمين والروم .

(٤) الطبرى ج ٤ ص ٥٧ ، وأشهر مشاهير الاسلام ج ٢ ص ٢٤٦

Muir, The Caliphate, p. 143.

وكان من أثر انتصار عمرو على « الأربطون » أن أذعن لسلطان العرب كل من يافا ونابلس وعسقلان وغزة ، والرملة وعكا ، ويبروت ولدّ والجبلّة . وقد فتحت أبوابها لهم من غير قتال إلا بيت المقدس ^(١) .

فتح بيت المقدس :

لما أتم عمرو بن العاص فتح غزة ولدّ ونابلس وبيت جبرين ، قصد بيت المقدس ، وأخذ يخبر الأربطون بخبرة ودية ويطلب اليه تسليم المدينة ، والأربطون يأبى عليه . وقد أنزلت المنجنيقات التي نصبها الروم على أسوار مدينة بيت المقدس الحسائر الفادحة بالعرب الذين قاسوا الأمرين من شدة البرد ، وقد أتاها الشتاء . وظل المسلمون على حصارهم أربعة أشهر لم ينقطع فيها القتال . وقد عدا المسلمون الاستيلاء

(١) اختلف المؤرخون في السنة التي هزم المسلمون فيها الروم بأجنادين . فذكر بعضهم (كالواقدي وياقوت وجبون وأبرفتج) أن ذلك كان سنة ١٣ هـ عقب فتح بصرى حيث سار العرب لحصار دمشق ، ثم عدلوا عن حصارها ريثما يتم لهم فتح أجنادين . وقد علموا أن هرقل أفغذ اليهم مائة ألف من الروم تحت قيادة وردان وأن موت أبي بكر كان قبيل فتح دمشق سنة ١٣ هـ أيضا . وهو يخاف ما ذكره غيرهم (كالبلادري واليعقوبي والطبري وابن الاثير) من أن واقعة اليرموك لأجنادين هي التي سبقت فتح دمشق : أعني سنة ١٣ هـ وأن واقعة أجنادين كانت سنة ١٥ هـ . على أن المؤرخين من الفرنجة ، ومعهم الواقدي ، قد ذكروا أن العرب اشتبكوا بأجنادين مرتين : مرة قبل فتح دمشق أي سنة ١٣ هـ ومرة أخرى بعد واقعة اليرموك سنة ١٥ هـ .

فإذا أغفلنا واقعة أجنادين الأولى يتيسر لنا بعض التوفيق بين روايات المؤرخين المتناقضة ، وعلى كل حال فليس غرضنا ترتيب الوقائع لأن ذلك ليس من شأننا . وقد يكون التجهيز في ترتيبها راجعا لوقوع بعضها في أوقات واحدة . أنظر كتاب تاريخ عمرو بن العاص للمؤلف ص ٤٨ - ٤٩ على أن رواية الطبري (ج ٤ ص ٤٤) عن ابن اسحق توافق ما ذكره الفرنج وهو أن فتح أجنادين كان سنة ١٣ هـ حيث اجتمع المسلمون مددا لعمرو بن العاص . إلا أن الفرنج والواقدي (ج ١ ص ٣٤) يقولون إن عمرو بن العاص أتى مددا لخالد بن الوليد على أثر كتابته له ولغيره من الأمراء المنفرقين بالشام .

Successors of Mohammed, p.75.

A Short History of the Saracens, p. 39.

عليها دينيا أكثر منه سياسيا ، لأنهم كانوا يعظمون بيت المقدس بعد مكة والمدينة ، لكونها مركز الأرض المقدسة .

حال أهل إيلياء .

ولما كتب أبو عبيدة إلى أهل إيلياء يدعوهم إلى الإيمان بالله وبرسوله أو الدخول في طاعة المسلمين ودفع الجزية (١) ، نظروا في أمرهم فوجدوا أنفسهم في ضنك عظيم وحصار شديد . وقد أيقنوا بانقطاع المدد عنهم واستيلاء المسلمين على أطراف الشام ومدنها العظام وأنهم مأخوذون لا محالة ، وخافوا إذا سلموا المدينة للمسلمين ألا يصالحوهم على ما صولح عليه أهل المدن الأخرى ، لكثرة ما لاقى المسلمون في حربهم من العناء وما بذلوا في قتالهم من الدماء . وقد خافوا على كنيساتهم العظمى أن ينزعها منهم المسلمون ؛ فأخذ الروع بقلوب أهل بيت المقدس ، فرأوا توكيدا للأمان وتوثيقا لعرى العهد أن يباشروا ذلك مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فطلبوا من الأمراء حضوره بنفسه ؛ ولم تكن إلا عشية أو ضحاها حتى ظهر بطريقهم سفرنيوس (Sophronius) على الأسوار طالبا التسليم ، على أن يكون المتولى للصالح عمر بن الخطاب . فكاتبه الأمراء في ذلك ، فرضى عمرو ورحل إلى الجابية وكتب لأهل إيلياء كتابا أشهد فيه قواد المسلمين ، كما كتب إلى سائر كور فلسطين كتابا أورد صورته الطبرى (٢) . وكان فتح إيلياء سنة ١٦ هـ أو أواخر سنة ١٥ هـ (٦٣٥ م) (٣) .

Gibbon's Roman Empire, vol. IX. pp. 249-250 (١)

Irving, Successors of Mohammed, pp. 75-76

(٢) ج ٤ ص ١٦٠

(٣) الطبرى ج ٢ ص ١٥٨ - ١٦٠ ٩ أشهر مشاهير الإسلام ج ٢ ص ٢٤٦

A Short History of the Saracens, pp. 39-40

غير أن عمرو بن العاص ظل مع جيشه بفلسطين ردحاً من الزمن قيسارية (قيصرية) حيث عسكر قسطنطين بجيش كثيف . وقد تغلبت على هذا الأمير عوامل الخوف حين علم بسقوط طبرية في قبضة العرب وهرب والده من أنطاكية ، وتوهم أن عمرو بن العاص اخترق أسوار المدينة ، فانسحل من قصره هو وأسرته خفية ، ورحل إلى القسطنطينية كإر حل أبوه من قبل . ولما أصبح الصباح وعلم الأهليون بهرب أميرهم سلموا عمرو فقبل منهم .

أضمحل بعد ذلك سلطان الروم من البلاد السورية بعد حروب طويلة لاقى المسلمون في غضونهما المشاق والأهوال ، وقاسوا طويلاً من شدة بردها ، وقتل من جندهم عدد غير قليل لاسيما في وقائع اليرموك ودمشق وبيت المقدس وحلب . فكان عدد من قتل في حروب الشام يناهز خمسة وعشرين ألفاً من المسلمين مما جعل ثمن هذه البلاد عليهم غالياً والدماء الغزيرة التي أهدرت في فتحها عزيزة^(١) .

فتح مصر :

لكن نقف على مبلغ السهولة التي تم بها فتح مصر على أيدي العرب ، حالة مصر قبل الفتح يجب أن نتعرف حالة هذه البلاد من الوجهتين الدينية والسياسية .

كانت مصر إحدى الولايات الرومانية . وكانت كغيرها من الحالة الدينية

(١) Butler, The Arab Conquest of Egypt, pp. 166-167

Muir, The Caliphate, pp. 143—144.

Houart : Histoire Générale des Arabes, p. 235.

Muir, The Caliphate, p. 152.

of Mohammed, pp. 105

الولايات تدين بالدين الوثني إلى أن ولد المسيح عليه السلام في عهد
الامبراطور أوغسطس قيصر مؤسس الامبراطورية الرومانية على
أثر انتصاره على جيوش أنطونيوس وكيلوبطرة سنة ٣١ ق. م. فأخذت
تتوالى نقم الآباطرة الرومان على الوثنيين الذين اعتنقوا هذا الدين
الجديد ، وظلوا على ذلك إلى أن اعترف الامبراطور قسطنطين
(٣٠٦ - ٣٣٧ م) بالدين المسيحي ، وجعل المسيحية (٣٢٣ م) على
قدم المساواة مع الأديان الأخرى ، وأعطى المسيحيين بعض
الامتيازات ،^(١) إلى أن جعل الامبراطور تيودوسيوس (٣٧٨ - ٣٩٥ م)
المسيحية الدين الرسمي للدولة سنة ٣٨١ م .

بعد ذلك أخذت تتوالى النقمة على الوثنيين بعد أن كانت تتوالى
على المسيحيين . على أن المسيحيين ما كادوا يتخلصون من الاختلافات
الدينية حتى وقعوا في الاختلافات المذهبية ، ونشأ عن ذلك ما يعرف
بالمذهب الأرثوذكسي والمذهب الكاثوليكي وغيرهما من المذاهب^(٢)

(١) كان ذلك عملاً سياسياً أكثر منه دينياً . وذلك أنه أراد أن يربط أجزاء الامبراطورية
برابطة أدبية قوية تكون أداة للوحدة التي كان ينشدها . ووجد في الدين المسيحي تلك الرابطة
التي كان يريد . يدلنا على صحة هذا ما كان من اتخاذ الخلاف بين أريوس (Arius) الذي
كان يقول إن المسيح أشرف مخلوق ولكنه دون الله ، وأثناسيوس (Athanasius) الذي
كان يرى أنه من مادة الله ، وأنه يساويه في اللاهوت ، وأن العلاقة بينهما أبدية (وهو ما يعبر عنه
بمبدأ التثليث) اتخذ ذلك ذريعة لعقد مجمع نيقية في آسيا الصغرى سنة ٣٢٥ م للتوفيق بين هذه
الآراء . وكان من أثر ذلك أن انقسم المسيحيون إلى أرثوذكس (المستقيمون الرأي أو المتمسكون
بالدين القويم وهم كآهل السنة عندنا) ، وإلى كاثوليك وهم أتباع الكنيسة الجامعة أي كنيسة
رومة ومن أنصار أثناسيوس . من ذلك يقين أن المصريين ما كادوا يتخلصون من اضطهاد الآباطرة
الوثنيين حتى وقعوا في الاختلافات المذهبية التي كان لها أثرها . فإن مسيحي مصر كانوا أرثوذكس
بينما غدا الآباطرة في رومة كاثوليكاً . (J. Grafton Milne, History of
Egypt Under Roman Rule, p. 96.

(٢) لم يكف تيودوسيوس بقبض على زمام الأحكام حتى جعل المسيحية الدين الرسمي للدولة .
ولأن من أثر هذه السياسة أن لاقى الوثنيون في مصر (وفي غيرها) مالا فاه المسيحيون من قبل . على أنه
قد قام خلاف آخر بين المصريين والروم بسبب ظهور مذهبين جديدين :

وكان هذا الاختلاف سبباً في إيقاع البؤس والشقاء بالمصريين .

الحالة السياسية

استولى الرومان على مصر سنة ٣٠ ق . م . فجعل أوغسطس قيصر هذه البلاد مخزناً يمد رومة بحاجتها من الغلال . وبذلك انحطت درجة العلم والعرفان فيها . وقد أغلقت أبواب المناصب العالية أمام المصريين ، كما زادت الضرائب في عهد الرومان زيادة عظيمة حتى شملت — كما يقول المؤرخ « ملن » — (١) الأشخاص والأشياء : فكانت تجبي على الروس والصناعات ، وعلى الماشية والأراضي . ولم تكن مقصورة على أنواع خاصة من البضائع ، بل كانت تجبي من المارة رجالاً ونساء — تجاراً وغير تجار — ومن صنّاع السفن ، ومن زوجات الجنود ، وعلى أثاث المنازل . ولم تقتصر تلك الضرائب على الأحياء بل تعدتها إلى الموتى ؛ فكان لا يسمح بدفن الميت حتى تدفع عنه ضريبة معينة .

وزاد الطين بلة مارُزى به المصريون من الزامهم بإيواء من يمر بهم من الموظفين الملكيين والعسكريين من الرومان وتقديم ما يلزمهم من الحاجيات ، وتوفير أسباب الراحة لهم في حلهم وترحالهم ، كما ألزموا في الأعوام الأخيرة بأن يقوموا بغذاء الجنود . وكانت هذه الأعباء الفادحة سبباً في ضعف المصريين وخمولهم وفي ازدياد سخطهم على الحكم الروماني ، كما كان للاختلافات الدينية نتائج لا يستهان بها . وكان من أثر

اليعقوبي : ويقول أتباعه بامتزاج الطبيعتين الإلهية والبشرية في المسيح ، وذلك بعد التجدد الملكي : ويعتقد أتباعه أن الابن مولود من الآب قبل كل الدهور وأنه غير مخلوق ثم اتحد بالإنسان المأخوذ من مريم ، فصارا واحداً وهو المسيح .

وكان من أثر هذا الخلاف أن عقد مجمع خلقدونية سنة ٤٥١ م في عهد الإمبراطور سرقيان

(٤٥٠ - ٤٥٧ م)

Graftan Milne, History of Egypt Under Roman (١) Rule, pp. 115-125.

تلك الاختلافات استيلاء الفرس على مصر فترة من الزمن ثم فتح العرب لها على يد عمرو بن العاص .^(١)

لذلك لانهجب إذا أصبح المصريون يتطلعون لدولة أخرى تخلصهم من هذه الحالة السيئة وترفع عنهم تلك المظالم . وقد سرهم ماعلوه من استيلاء العرب على الشام كما سرهم ماسمعوه من حسن سيرتهم في البلاد التي فتحوها . لهذا تمنوا أن يكون خلاصهم من ظلم الرومان على يد المسلمين عسى أن تكون سياستهم معهم أفضل من سياسة الرومان . ومن ذلك نرى أن مصر كانت قد فقدت كل شخصية سياسية ، وأصبحت لا تعتمد على نفسها في دفع الظلم عنها وإقامة حكومة وطنية معها ، بل كان كل همها أن تجعل دولة جديدة محل تلك الدولة التي سقطت العذاب الهون وأن تقوم في هذه البلاد مقامها .

والخلاصة أن سوء سيرة الرومان في مصر من الوجهتين الدينية والسياسية وضعف المصريين كانا من أهم الأسباب التي سهلت لعمرو ابن العاص فتح مصر وانتزاعها من يد الرومان بجيشه الصغير .

الفتح :

لما قدم عمر بن الخطاب الجاية سنة ١٨ هـ (٦٣٩ م) من أعمال دمشق أتى إليه عمرو بن العاص ، وكان من القواد الأربعة الذين ندبهم أبو بكر لفتح الشام وفلسطين ، وقال له « إئذن لي في السير إلى مصر »^(٢) ، وذكر له : أنها أكثر الأرض أموالاً ، وأهلها أعجز الناس عن الدفاع عن أنفسهم ، وقال له « إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعوناً لهم » .

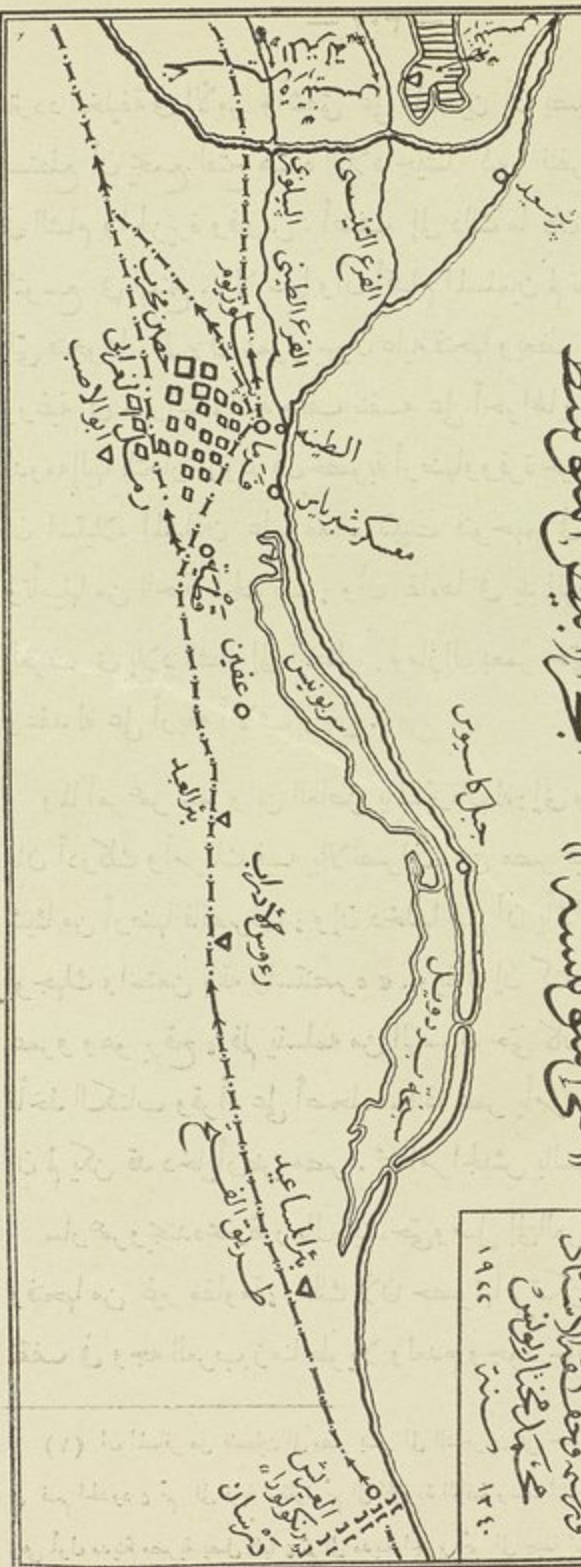
طلب عمر الاذن
بفتح مصر

(١) على أن كل هذه الآلام لم تكن مقصورة على المصريين ، إنما كانت شاملة لجميع أجزاء الامبراطورية ، وهي من الأسباب التي سهلت سقوطها وفتح العرب إياها .

(٢) يقول ابن الاثير (ج ٢ ص ٢٧٧) وابن خلدون (ج ٢ ص ١١٤) إن عمرو بن العاص سار إلى مصر عقب فتح بيت المقدس سنة ٢٠ هـ أو سنة ٢٢ هـ أو سنة ٢٥ هـ . وهو خطأ بدليل التخطئ الظاهر في ذكر السنين .

« هي سوخته »

الجزيرة الهندية
للكوثر حسن الزهرشن
وكتبه وحفظه في سنة
محرم الحرام ١٢٤٠ سنة ١٩٤٤

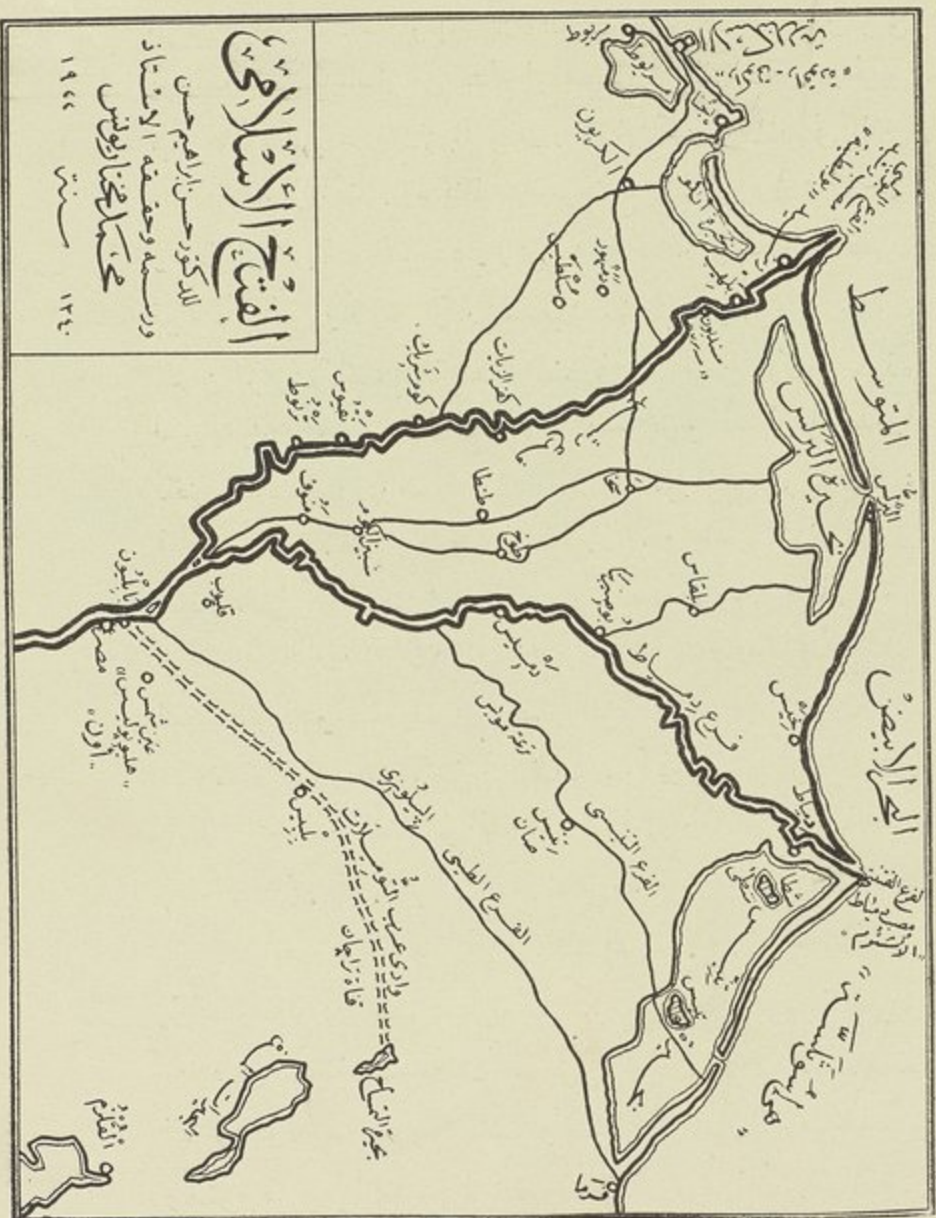


فتردد الخليفة في الأمر وأشفق على المسلمين أن يصيبهم الفشل . ولم يستطع أن يجمع لفتح هذه البلاد جيشاً كبيراً لتفرق جند المسلمين في الشام والجزيرة وفارس . أضف إلى ذلك ما كان يخشاه عمر من التوسع في الفتح ، ولا سيما وأن أقدام المسلمين لم تثبت بعد في البلاد التي فتحوها . فلم يزل عمرو يهون عليه فتحها ويعظم أمرها طمعاً فيها ورغبة في خيراتها ، لأنه وقف بنفسه على أحوالها من الجاهلية عند قدومه إليها للتجارة ، وعرف خصوبة أرضها ووفرة خيراتها ، كما بين لعمر أن استيلاء المسلمين عليها معناه تثبيت فتوحهم في الشام وفلسطين وتأمينها من ناحية الجنوب ، وأن بقاءها في يد الرم يعرض سيادة العرب في بلاد الشام إلى الخطر . وما زال بعمر حتى أذن له بقصدها وعقد له على أربعة آلاف رجل .

ولما أمر عمر عمرو بن العاص بالمسير قال له : إني مرسل إليك كتاباً ، فإن أدركك وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف ، وإن دخلتها قبل أن يأتيك كتابي ، فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره . « ويقال إن كتاب عمر وصل إلى عمرو وهو برفح ، فلم يتسلمه من الرسول حتى كان قرب العريش ، فأخذ الكتاب وقرأه على أصحابه ، فإذا عمر يأمره فيه بالانصراف إن لم يكن قد دخل أرض مصر . ثم أمر الجيش بالسير على بركة الله . سار عمرو وبجندته مخترباً رمال سيناء حتى وصل إلى العريش ^(١) سنة ١٨هـ ، وفتحها من غير مقاومة ، وذلك لأن حصونها لم تكن من المتانة بحيث تقف في وجه العرب زمناً طويلاً ولعدم وجود حامية رومانية بها .

العريش

(١) ان المسافر من فلسطين الى مصر يسير الى الشجرتين على حدود مصر ثم الى العريش في قسم الحدود ، ثم الى قرية البقارة ثم الى الواردة الواقعة وسط التلال الرملية ، ثم الى الفرما وهي أول مدينة مصرية يصل اليها ، ثم الى مدينة الجرب ثم الى جيفة ثم الى الفسطاط .



الطريق الذي سلكه
العرب

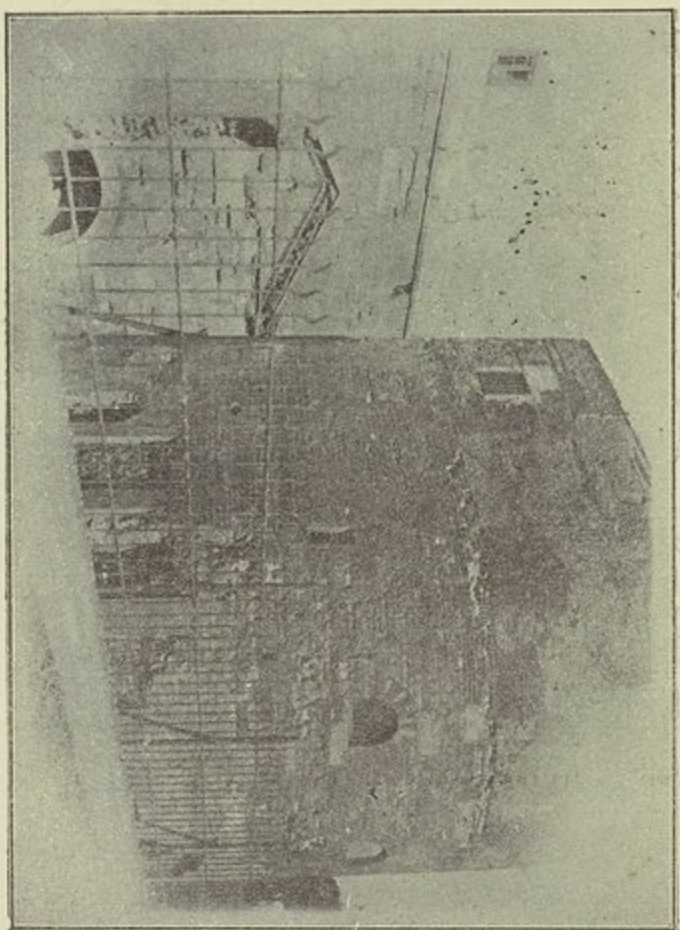
غادر عمرو العريش مخترباً الطريق الذي كان يسلكه المهاجرون والفاثون والتجار والحجاج والسائحون منذ أقدم العصور ؛ وهو طريق إبراهيم عند ماسار إلى بلاد العرب بابنه إسماعيل ، وطريق يوسف عند ماسار من الشام إلى مصر زمن الفراعنة ، وطريق قمبيز ملك فارس حين سار لغزو مصر ، والاسكندر المقدوني الذي مد فتوحاته إلى الهند . ولم يشتبك عمرو مع جند الروم في قتال حتى وصل إلى مدينة « الفرما » ، وهي مدينة قديمة العهد ذات حصون قوية وكنائس وأديرة . وكان لها ميناء على البحر يصل إليها جدول ماء من النيل ؛ وكانت بمثابة مفتاح لمصر في ذلك الزمن . وكانت هذه المدينة منيعة الحصون . ولما فتح الفرس مصر خربوا أسوارها وهدموا بعض كنائسها . وقدرم الرومان مادمه الفرس أثناء غزوتهم لمصر ، فعادت هذه الأسوار منيعة على المغيرين ، واضطر المسلمون إلى حصارها شهراً أو نصف شهر ^(١) صبروا فيه وثبتوا حتى تم لهم فتحها في منتصف يناير سنة ٦٤٠ (أول المحرم سنة ١٩) . ويحدثنا التاريخ بأن القبط كانوا أعواناً للعرب على حصار الفرما .

الفرما

تقدم عمرو حتى وصل إلى بليس ماراً في طريقه بأرض مغطاة بقشور الصدف البيضاء التي استحالت اليوم إلى رمال ، ثم بمدينة مجدل (Migdol) ، وتلى الفرما في الصحراء على مقربة من ساحل البحر إلى الجهة المعروفة بالقنطرة على قناة السويس الحالية ، ثم أخذ في السير إلى الصالحية فوادي الطليحات بقرب التل الكبير وإنما اختار عمرو وهذا الطريق لخلوه من المستنقعات بخلاف الطريق الآخر الذي كان يسلكه معظم الفاتحين . ولما وصل عمرو إلى بليس وجد بها الأرطوبون ^(٢) ، فهزمه عمرو واستولى على المدينة بعد شهر لم ينقطع فيه القتال . ويقال إن ابنة المقوقس

بليس

(١) ذكر ياقوت في معجمه أن القتال ظل شهرين وهو يخالف ما ذكره المقرئ وابن عبد الحكم والسيوطي وابن الأثير وغيرهم من أن النضال دام نحواً من شهر .
(٢) فر الأرطوبون إلى مصر قبيل تسليم بيت المقدس على يد عمر بن الخطاب



حصن بانيون والباب الذي خرج منه المقوقس أثناء الفتح

حاکم مصر من قبل الروم كانت بها حين فتحها المسلمون ، فأرسلها عمرو إلى أبيها معززة مكرمة . وإن صح هذا فقد اكتسب عمرو بهذا العمل محبة القبط وجعل عندهم فكرة حسنة عن حكم المسلمين لهذه البلاد .

سار عمرو بعد استيلائه على بلبيس إلى أم دُنين^(١) حيث نشب القتال بين المسلمين والبيزنطيين وقد تحصنوا في حصن بابليون . ودام القتال عدة أسابيع . ولما أبطأ الفتح على عمرو كفف عن القتال وأرسل إلى عمر يطلب منه المدد ، فأمدّه بأربعة آلاف على رأسهم أربعة من مشاهير الصحابة كل واحد منهم بألف : هم الزبير بن العوام وعُباد بن الصامت ومُسلمة بن مُخلّد والمقداد بن الأسود . وكتب الخليفة لعمرو « قد أمددتك بأربعة آلاف فيهم رجال الواحد منهم بألف رجل »

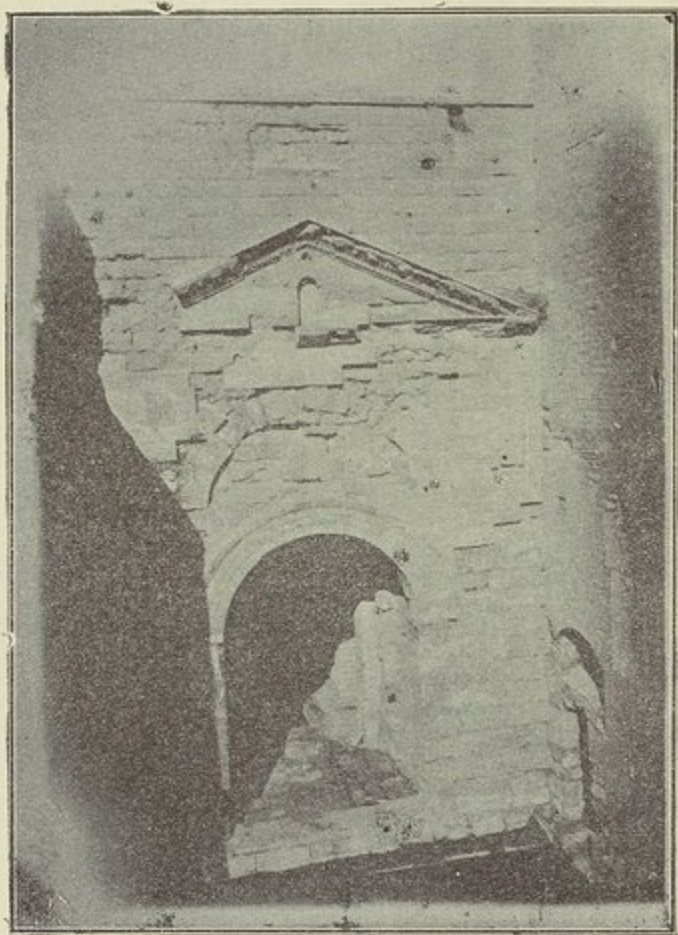
أم دنين

وصل هذا المدد إلى عين شمس ؛ فسار عمرو لملاقاته وتقدم تيودور (Théodore) قائد الروم في عشرين ألفاً . فوضع له عمرو كميناً في الجبل الأحمر^(٢) وآخر على النيل قريباً من أم دنين ، ولما قام ببيعة الجيش . ولما نشب القتال بين الفريقين وحى وطيسه خرج السكين الذي كان في الجبل الأحمر ، وانقض على الروم ، فاقتل نظامهم وخرجوا على أم دنين ، فقابلهم السكين الذي كان بقرب أم دنين ، فأصبحوا بين جيوش العرب الثلاثة . فحلت بهم الهزيمة ولم يبق منهم إلا عدد قليل سار بعضهم في النيل وفر البعض الآخر إلى حصن بابليون^(٣) . وبذلك ثبت قدم عمرو في أم دنين وعين

حصن بابليون

(١) وهو موضع بمصر بين النيل والقاهرة وكان اسمها قبل الفتح تدونباس . ذكر هذا الاسم الروماني بطلر نقلا عن يوحنا أسقف نقيوس . فسمّاها العرب أم دنين ، ثم سميت بعد ذلك المقس وموضعها الآن الجزء الواقع بين حديقة الامز بكية وقسم الازبكية . ويقول بعض المؤرخين انها كانت على النيل في مكان حديقة الازبكية الحالية

(٢) شرق العباسية (٣) ستانلي ليزبول ص ٥٥ بطلر ص ٣٢٠ - ٣٢٣



الباب العمومي! الحصن بابليون
وهو الباب الذي خرج منه المقوقس

شمس التي صارت مركزاً لقيادته الحربية ، ولم يبق أمامه سوى حصن بابلون . فسار اليه وحاصره سنة ٣٠ ، وكان ذلك وقت فيضان النيل . وقد طال أمد الحصار إلى سبعة أشهر وذلك لمناعة أسوار المدينة وعدم وجود المعدات الحربية عند العرب

حصار حصن
بابلون

بعد شهر رأى المقوقس الجند من العرب وصبرهم على القتال وأنهم سوف يقتحمون الحصن بصبرهم وشجاعتهم ، فخرج هو ونفر من قومه ولحقوا بالجزيرة ، وأرسل إلى عمرو يطلب منه الصلح وقال له في كتاب أرسله إليه : « قد جئتم أرضنا وطال مقامكم فيها ، وأنتم عصابة يسيرة . وأخشى أن تغشاكم الروم فتندمون . فابعثوا إلينا رجالاً منكم نسمع من كلامهم ، فاعله أن يأتي الأمر بيننا على ما نحب ونحبون » . وقد أتت رسل المقوقس بهذا الكتاب إلى عمرو ، فأبقاهم عنده يومين حتى خاف عليهم المقوقس . ثم قال لهم عمرو : ليس بيننا وبينكم إلا إحدى خصال ثلاث :

شروط العرب

(١) إما دخلتم في الاسلام فكنتم إخواننا وكان لكم ما لنا وعليكم ما علينا

(٢) وإن أديتم فالجزية عن يد وأنتم صاغرون

(٣) وإما القتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو أحكم الحاكمين

ولما رجع الرسل إلى المقوقس سر بلقائهم وسألهم عن حال المسلمين فأجابوا « رأينا قوماً الموت أحب إليهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفعة ، ليس لأحد منهم في الدنيا رغبة ولا نهمة . جلوسهم على التراب وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف كبيرهم من وضعيهم ولا السيد فيهم من العبد ؛ وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم » .

وصف رسل^٢ المقوقس
العرب

وقد أربح المقوقس هذا الحديث ، فأشار على قومه بطلب الصلح ،

وأرسل إلى المسلمين أن يرسلوا إليه رسلا للمفاوضة في الصلح . فبعث عمرو عشرة رجال فيهم عبادة بن الصامت ، وأمر أن يكون هو المتكلم . ودارت المحادثات بين الطرفين وسلك المقوقس طريق الارهاب المصوغ في قالب النصيحة . وألح على عبادة وأصحابه أن يجيبوه إلى خصلة غير هذه الثلاث ، فرفع عبادة يديه وقال : « لا ورب هذه السماء ، ورب هذه الأرض ، ورب كل شيء . ما لكم عندنا خصلة غيرها . فاختاروا لأنفسكم » . فقال المقوقس لقومه « أطيعوني وأجيبوا القوم إلى خصلة من هذه الثلاث . فوالله ما لكم بهم من طاقة وإن لم يجيبوا اليهم طائعين لتجيبهم إلى ما هو أعظم من هذه كرها » (١)

عرض المقوقس
الأمر على هرقل

كتب المقوقس بذلك كله إلى هرقل ، فرد عليه يوبخه ويحتقر قوة المسلمين وكتب بمثل ذلك إلى قواد الروم الذين مع المقوقس ، فأعادوا الكرة على المسلمين ونبذوا صلحهم . أما المقوقس فلم يعبأ بهرقل بل أعلم عمرو بن العاص أنه لم يخرج عما عاقده عليه وأن القبط موفون له ما صالحهم عليه . وتحدثنا المصادر العربية أن عمرا طلب من المقوقس أن يضمن له الجسور ويقيم لهم الأنازل والضيافة بين الفسطاط والاسكندرية ؛ فقبل وصار القبط أعوانا للمسلمين (٢) . وقد عدم مؤرخو الافرنج هذا العمل خيانة من المقوقس .

فتح الاسكندرية :

كانت الاسكندرية عند استيلاء العرب على مصر قصبة الديار المصرية وثانية حواضر الامبراطورية الرومانية الشرقية (بعد القسطنطينية) وأول مدينة تجارية في العالم . وقد أيقن امبراطور الروم أن سقوط هذه المدينة في أيدي العرب يؤدي حتما إلى زوال سلطانهم

(١) راجع ابن عبد الحكم (ص ٥٩ - ٦٣) المقرئ : خطط (ج ٢ ص ٢٩٠ - ٢٩٣)

(٢) ابن عبد الحكم ص ٦٥ - ٦٧

من مصر . لذلك بادر بارسال الجيوش اليها ، ونشط الروم للدفاع عن المدينة وأغلقوا أبوابها وتحصنوا فيها .

استيلاء عمرو على
الحصون التي بين
الفسطاط والاسكندرية

سار عمرو الى هذه المدينة وفتح في طريقه طرَون^(١) ، ثم نَقْيُوس^(٢) ثم سُلَيطِس^(٣) ، ثم السكريون وهي آخر حلقة في سلسلة الحصون الرومانية التي كانت تمتد من بابلون إلى الاسكندرية . وقد تحصن في حصنها تيودور (Theodore) قائد الحصن الروماني وقاتل المسلمين قتالا شديدا ، ولما دارت الدائرة عليه ولى هو وفلول جيشه الأدبار حتى وصلوا الى الاسكندرية . وكان على المقدمة عبد الله بن عمرو بن العاص ، وحامل اللواء وردان مولى عمرو .

حصار الاسكندرية

وصلت فلول الروم الى الاسكندرية وتحصنوا بها ، وكانت منيعة حصينة . وقد عني بتحسينها الروم والبطالسة من قبلهم ، لتقوى على رد غارات الأعداء وصدهم هجمات الفاتحين . وكانت الأمداد تأتي اليها من الروم . ولم تقل حاميتها عن خمسين ألف جندي مزودين بالمؤن الوفيرة والعدد الكثيرة ، على حين بلغ جند العرب نحو الأثني عشر ألفا . وقد أقام عمرو وجنده يردون غارات الأعداء ويقابلون هجمات الروم نحو من أربعة أشهر . فأقلق هذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فبعث الى عمرو كتابا يلومه فيه هو والمسلمين . فقرأ عمرو الكتاب وعقد لعبادة بن الصامت وولاه قتال الروم ، ففتح الله على يديه الاسكندرية ، وهزم الروم برا وبحرا ؛ وتم هذا الفتح عنوة . ولكن عمرو بن العاص جعل أهلها ذمة على أن يخرج من يخرج ويقيم من

(١) وهي على الشاطئ الغربي لفرع رشيد ؛ وتسمى الآن الطرانة وتقع على مقربة من كفر

داود على خط المائثي في جهة الخطاطبة وكوم حماده

(٢) وتقع على النيل الى الشمال من طرَونط بمديرية البحيرة بجهة النخلة مركز كوم حماده

(٣) وتقع على بعد ستة اميال جنوبي دمنهور في منتصف المسافة بين كوم شريك والسكريون

يقيم باختيارهم؛ شأن العرب من أهالي معظم البلاد التي فتحوها. وإنما فعل عمرو ذلك، وعاملهم معاملة من فتحت بلادهم صالحة ليستجلب محبة الأهالي ورضاهم.

وقد أبرم المقوقس نفسه الصلح مع العرب. ويتلخص شروط الصلح فيما يلي:

- (١) أن يدفع كل من فرضت عليه الجزية دينارين في كل سنة.
- (٢) المهادنة أحد عشر شهرا
- (٣) احتفاظ العرب بمرا كزهم مدة الهدنة، وألا يباشروا أعمالا حربية ضد الاسكندرية. كما أن على الجنود الرومية أن يكفوا عن الأعمال العدائية.
- (٤) ألا يتعرض المسلمون للكنائس بسوء، وألا يتدخلوا في أمور المسيحيين.
- (٥) أن ترحل الحامية التي بها مع ما يملكون من أموال وأمتعة، وأن يدفعوا الجزية عن شهر عند رحلتهم.
- (٦) بقاء اليهود بالأسكندرية
- (٧) ألا يعود أو يحاول استرداد مصر جيش رومي
- (٨) أن يكون لدى المسلمين من الروم ١٥٠ جنديا و ٥٠ ملكيا بمثابة رهينة لتنفيذ المعاهدة. (١)

على أن الروم ظلوا بعد فتح العرب للأسكندرية يتطلعون إلى انتفاض الروم مصر حيث كان لا يزال قوم من المصريين يتطلعون إلى الروم، فكتبوا

(١) راجع فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ٧٢ - ٧٤ و فتوح البلدان للبلاذري ص ٢٨٨ وما يليها و كتاب الولاة للكندي ص ٩ وما يليها و حش المحاضرة للسيوطي ج ١ ص ٥٣ وما يليها و Gibbon, History of the Decline and Fall of the Roman Empire, vol. IX, p. 272 ; Washington Irving, Successors of Muhammad, p. 111.

الى قسطنطين بن هرقل يبينون له ما هم فيه من مذلة وما أرغموا عليه من اداء الجزية، ويذكرون له كذلك قلة حامية الاسكندرية من العرب . فبعث قسطنطين جيشا كبيرا تحت قيادة مانويل ؛ فقتل من بالاسكندرية من حامية العرب وسار الى نقيوس . فسار اليهم عمرو واشتبك مع الروم في القتال، فولوا منهزمين إلى الاسكندرية ، فتبعهم وأعمل السيف فيهم واسترد الاسكندرية . وقتل مانويل في هذه الواقعة . وهدم عمرو سور الاسكندرية وكان قد حلف ليهدمه لو قبض له النصر (١)

أثر الفتح في مصر :

تخفيف الضرائب

لم يشتط العرب في معاملة القبط ، بل عاملوهم بمنتهى اللين ، غيروهم بين الاسلام والبقاء على دينهم . فمن أسلم منهم صار له مال المسلمين من الحقوق وعليه ما عليهم من الواجبات ، ومن بقى على دينه فرضت عليه جزية صغيرة مقدارها ديناران على من بلغ الحلم منهم ، واستثنوا النساء والشيوخ والأطفال . أضف الى ذلك رفع الاضطهاد عنهم ، وعدم تحميلهم ما لا يطيقون . وبهذه الطريقة أتيح لعمر بن العاص تنفيذ أوامره على أهون سبيل . هذا إلى أنه كان دائما يضع مصلحة المصريين نصب عينيه ، ولم يأل جهداً في اكتساب محبتهم ؛ فدانوا له بالطاعة وأحبوا ولايته ؛ فلم ير إحراج القبط لئلا يخرجوا عن طاعته عملاً بالمثل القائل « إذا أردت أن لا تطاع فمر بما لا استطاع » .

إطلاق الحرية الدينية

وقد أطلق لهم العرب الحرية الدينية للقبط . يؤيد ذلك ما فعله عمرو بن العاص بعد استيلائه على حصن بابليون ، إذ كتب بيده عهداً للقبط بحماية كنيسهم ولعن كل من يجرو من المسلمين على إخراجهم منها ، وما كان أيضاً من كتابته أماناً للبطريق بنيامين وردّه إلى

كرسيه بعد أن تغيب عنه زهاء ثلاث عشرة سنة ، فسرّ هذا العمل البطريرق وشكر عمرأ عليه . ومما هو جدير بالذكر أن عمرا أمر باستقبال بنيامين بكل حفاوة عند ما سار إلى الاسكندرية ؛ ولما قدم ولقى عمرا ألقى على مسامعه خطابا بليغاً ضمنه كل ما عنّ له من الاقتراحات التي رآها لازمة لحفظ كيان الكنيسة ؛ فتقبلها عمرو ومنحه السلطة التامة على القبط والسلطان المطلق لادارة شؤون الكنيسة . وقد لاحظ « بطر » أن عودة بنيامين إلى عرش الكنيسة قد كفهاها شر الوقوع في أزمة خطيرة كانت لا محالة مودية بها إلى الاضمحلال والدمار . وإن الخطبة البليغة التي ألقاها باسيلي أسقف نقيوس بدير مقاريوس خير شاهد على أن القبط قد أصبحوا بعد الفتح الاسلامي في غبطة وسرور لتخلصهم من عسف الروم . يدلّك على صحة ما نقول رد بنيامين على باسيلي بقوله : « لقد وجدت في مدينة الاسكندرية زمن النجاة والطمأنينة اللتين كنت أنشدهما بعد الاضطهادات والمظالم التي قام بتمثيلها الظلمة المارقون » . فهذه هي الكلمات التي فاه بها البطريرق . ومنها يتجلى للقارئ مبلغ الطمأنينة التي شعر بها المصريون في عهد عمرو . ومما يؤيد هذا القول وصف « ساويرس » القوم بأنهم كانوا في ذلك اليوم ^(١) كالثيرة إذا أطلقت من قيودها .

المساواة بين المصريين
في الحقوق

ومما يدل أيضا على حسن سياسة العرب في مصر أنهم لم يفرقوا بين الملكية واليعاقبة من المصريين ؛ فلم يتحيزوا لأحد الطرفين ؛ فكانا متساويين أمام القانون ، وأظلوها بعد لهم وحموها بحسن تدبيرهم ، ولم يتبعوا السياسة القائلة « فرق تسد » ، تلك السياسة العقيمة التي ظهر للملأ أنها تؤدي إلى أوخم العواقب . لهذا لا ينسکر علينا أحد إذا قلنا إن العرب قد نالوا من السلطان فوق ما كانوا يتمنون ؛ فدانت لهم البلاد قاصيها ودانيها وأجمعت على محبتهم .

(١) أي اليوم الذي زار فيه بنيامين دير مقاريوس .

يضاف الى ما تقدم أن العرب تركوا للبصريين أرضهم ، وأخذوا على عاتقهم حمايتهم وأمنوهم على أنفسهم ونسأهم وعيالهم ؛ فشعروا براحة كبيرة لم يعهدوها منذ زمن طويل .

. اصلاحات العرب

ولم تقتصر أعمال العرب على ذلك ؛ بل إنهم أعادوا الأمن والنظام إلى البلاد ؛ كما قاموا بالاصلاحات العظيمة ، فنظموا الادارة ونصبوا القضاة ورسموا خطة جباية الخراج ، وعنوا عناية كبرى بالأعمال الخاصة بهندسة الري من كرى الخلجان وبناء مقاييس للنيل ، وإنشاء الأحواض والقناطر والجسور ؛ فأقاموا لذلك العمال لا يفترون عن العمل صيفا وشتاء . وكان من أثر هذه الاصلاحات أن تحسنت حال القبط وازدادت ثروتهم . وينسب اليهم بعض المؤرخين خطأ أو عن سوء قصد إحراق مكتبة الاسكندرية^(١) .

مكتبة الاسكندرية :

المؤرخون والمكتبة

خاض بعض المتأخرين من المؤرخين في مسألة إحراق مكتبة الاسكندرية ؛ فنسبها بعضهم إلى عمرو بن العاص ، وزعم أن عمر بن الخطاب أمره بإحراقها . وناقش هذا الخبر كثير من علماء الفرنجة مثل جبون^(٢) وبطلر^(٣) وسديو^(٤) وجوستاف لي بون^(٥) وغيرهم . ولكنهم لم يحزموا برأى في هذه المسألة ، بل ارتابوا في صحة هذه التهمة التي وجهت إلى عمرو بن العاص بإحراقه هذه المكتبة بأمر الخليفة عمر ،

(١) راجع كتاب عمرو بن العاص للمؤلف ص ١٣٠ - ١٥٣

(٢) Gibbon, vol. IX, pp. 274—276

(٣) Alfred Butler, The Arab Conquest of Egypt, pp. 401—426.

(٤) Sédillot, Histoire générale des Arabes, vol. I. pp. 155—156.

(٥) Justave le Bon, Civilisation Arabe, p. 208.

وقالوا إنها تخالف التقاليد الإسلامية، ولا يؤيدها أحد من المؤرخين المعاصرين للفتح الإسلامي مثل أوتيسا الذي وصف فتح مصر بأسهاب. ولم يرد في تاريخه ولا في تاريخ غيره من معاصريه ذكر البتة لهذه التهمة. كذلك لم يرد لها ذكر في تاريخ الأقدمين كاليعقوبي والبلاذري وابن عبد الحكم والطبري والكندي، ولا في تاريخ من جاء بعدهم وأخذ منهم كالمقريزي وأبي المحاسن والسيوطي وغيرهم. وأول من نسب الحريق إلى عمرو هو عبد اللطيف البغدادي^(١) (+ ٦٢٩ هـ ١٢٣١ م). وجاء بعده ابن القفطي (+ ٦٤٦ هـ ١٢٤٨ م)^(٢) وأبو الفرج الملقب (+ ٦٨٥ هـ ١٢٨٦ م)^(٣). على أنه لا يمكن أن نلقى التبعة على ابن القفطي وأبي الفرج لاحتمال أن يكونا قد أخذاهذه المقالة عن عبد اللطيف البغدادي الذي رمى بهذه التهمة بغير سلطان أتابه. فلم يذكر لنا من أي تاريخ أخذ ولا من أي مصدر استقى، بل ذكرها عرضاً في سياق كلامه عن عمود السوارى. غاية ما هنالك أنه سمع بمكتبة في هذا المكان عفي الزمان على أثرها، فافترض أن الذي

المؤرخون الذين
تكلموا عن حرق
العرب للمكتبة

(١) الافادة والاعتبار ص ٢٨

(٢) هو جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن ابراهيم القفطي وزير حلب المعروف بالقاضي الاكرم. ولد في قفط من بلاد الصعيد سنة ٥٦٥ هـ وتوفي بحلب سنة ٦٤٦ هـ. وقد ألف كتابه اخبار العلماء بأخبار الحكام، (لا يسك سنة ١٣٤٠ هـ ١٩٠٢ م)، ومنه نسخة خطية في دار الكتب الملكية بالقاهرة يرجع تاريخها الى سنة ١١٩٧ هـ.

(٣) أبو الفرج الملقب هو غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون المعروف بابن العبري. ولد سنة ١٢٢٦ م في مدينة ملطية بأرمينية الصغرى. وتعلم في صغره اليونانية والسريانية والعربية، ثم اشتغل بالفلسفة واللاهوت. وقد فر به والده الى انطاكية سنة ١٢٤٣. وعاش أبو الفرج عيشة الزهد والنسك واغترق في مفارقة البرية، ثم شخض الى طرابلس الشام وأتم دراسة البيان والطب، وروى في العشرين من عمره الى أسقفية جوماس من أعمال ملطية. وفي سنة ١٢٦٤ م انتخب (مغريانا) كلمة فارسية معناها المتمر. وهذا المنصب من أكبر المناصب بعد البطريرقية وهو أشبه كبير الاساقفة على جهات ما بين النهرين والعراق العجمي. وقد ألف أبو الفرج أكثر من ثلاثين كتاباً بالعربية والسريانية في الفلسفة وعلم الهيئة والطب والتاريخ والشعر وغيرها من بينها كتاب مختصر الدول. أنظر كتاب عمرو بن العاص للدول ص ١٠٧.

دمرها هو عمرو بن العاص ، وشجعه على ذلك أقوال العامة . فالتبعة
 راقعة على عبد اللطيف البغدادي لاعلى ابن القفطى وأبى الفرج ، إذا
 فرض أن عبد اللطيف هو أول من ذكر هذه المسألة التي لم ترد في
 تواريخ المتقدمين كابن عبد الحكم (+ ٢٥٧ هـ) والبلاذرى (+ ٢٩٠ هـ)
 واليعقوبى (+ ٢٩٢ هـ) والطبرى (+ ٣١٠ هـ) والسكندى
 (+ ٣٥٠ هـ) ، ولا عمن أخذ عنهم من المتأخرين كابن الأثير
 (+ ٦٣٠ هـ) والمقرئى (+ ٨٤٥ هـ) وأبى المحاسن (+ ٨٧٤ هـ)
 والسيوطى (+ ٩١١ هـ) . لذلك طرحت هذه الأقوال جانبا لأنها
 ليست قائمة على أساس متين .

وقد دلل المؤرخون الذين ذهبوا إلى القول بأن إحراق مكتبة
 الإسكندرية كان على يد عمرو بن العاص بأمر الخليفة عمر
 ابن الخطاب :

آراء المؤرخين الذين
 قالوا بحرق العرب
 للمكتبة

١ — بأن المسلمين كانت لهم رغبة عظيمة في محو كل كتاب غير
 القرآن والسنة

٢ — وأنهم أحرقوا مكاتب الفرس عند فتحهم بلادهم كما ذكر
 ذلك حاجى خليفة في كتابه كشف الظنون

٣ — وأن هذه الرواية التي تثبت الحريق لم يروها أبو الفرج
 المتعصب فقط بل رواها أيضا مؤرخان مسلمان هما عبد اللطيف
 البغدادي وابن القفطى

وأن إحراق الكتب كان أمراً معروفا وشائعاً يتشقى به كل مخالف
 من خالفه في رأيه .

وقد ذكروا أن عبد الله بن طاهر أتلف في سنة ٢١٣ هـ كتباً
 فارسية من مؤلفات المجوس ، وحذا حذوه هولاكو التتارى سنة ٦٥٦ هـ
 بالقاء خزائن الكتب في دجلة .

أما الدليل الأول ، فغير مسلم به ، لأن المعروف من أخلاق المسلمين أنهم كانوا يشجعون العلم بدليل ما ذكره أبو الفرج من أن عمرو ابن العاص كان يصغى إلى أقوال يوحنا النحوى ويعجب بها كل الاعجاب ويحله من أجلها من نفسه محل الاحترام والاحلال . ومن المعلوم أن هذه الآراء مسيحية . أضف إلى ذلك أن المسلمين بعد غزوة بدر كانوا يجعلون فداء من لم يجد ما لا يفتدى به نفسه أن يعلم عشرة من صبيان المسلمين ؛ وهذا منتهى التشجيع للعلم .

أما الدليل الثانى ، وهو أنهم أحرقوا مكتبة الفرس عند الفتح ، فلم نر من المؤرخين من ذكره إلا حاجى خليفة . ومثل هذا المؤرخ لا يؤخذ بكلامه ولا يعول عليه فى المسائل التاريخية الهامة ، لأنه كان متأخرا فى الزمن . فقد توفى سنة ١٠٦٧ هـ (١٦٥٧ م) . فلو أن المسلمين أحرقوا هذه المسكاتب لذكر ذلك المؤرخون الذين تقدموا حاجى خليفة .

أما الدليل الثالث ، وهو أن أبا الفرج لم يرو هذه الرواية وحده بل رواها أيضا عبد اللطيف البغدادى وابن القفطى وهما مؤرخان اسلاميان عظيمان ، فيمكن دحضه بما أوردناه فى مناقشة أبى الفرج ، لأنهم عاشوا فى عصر واحد وروايتهم واحدة تقريبا . ولا يبعد أن يكونوا قد أخذوا عن مصدر ضائع معاد للعرب والاسلام .

وأما الدليل الرابع فلا يثبت دعواهم ، لأنه على فرض صحة هذه الرواية فإن عبد الله بن طاهر كان متأخرا (٢١٣ هـ) ، ولا يؤخذ عمله حجة على عمر بن الخطاب المتوفى سنة ٢٣ هـ . هذا إلى أن عبد الله بن طاهر قد أحرق هذه السكتب لأنها من كتب المجوس عباد النار ، وفرق بين السكتب المسيحية والمجوسية فى نظر المسلمين الذين يحترمون أهل السكتاب من النصارى واليهود لاتفاق الجميع على غاية واحدة هى

الاعتراف بالله قادر (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا
وَبَيْنَكُمْ أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا
بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ،
يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَحْجُجُونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أَتَتْهُ التَّوْرَةُ
وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (١).

وقد أسهب المؤرخون في تفنيد رواية أبي الفرج . ومنهم جيون
وبطلر وسديو وغيرهم ، وذكروا ما يدل على أن عمرا وعمر بريئان
بما نسب إليهما .

وهاك رواية أبي الفرج عن كيفية حريق هذه المكتبة على يد
عمرو بن العاص قال :

رواية أبي الفرج

« كان في وقت الفتح رجل اكتسب شهرة عظيمة عند المسلمين
يسمى يوحنا النحوى ، كان قسيساً قبطياً من أهل الاسكندرية ؛ وفي
هذا الزمان اشتهر بين المسلمين يوحنا المعروف عندنا (بغرماطيقوس)
أى النحوى . وكان اسكندريا يعتقد اعتقاد النصارى اليعقوبية ويشيد
عقيدة (ساورى) ، ثم رجع عما يعتقد النصارى في التثليث . فاجتمع
إليه الأساقفة بمصر وسألوه الرجوع عما هو عليه ؛ فلم يرجع فأسقطوه
من منزلته ، وعاش إلى أن فتح عمرو بن العاص مدينة الاسكندرية .
ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم ، فأكرمه عمرو
وسمع من ألفاظه الفلسفية التي لم تكن للعرب بها أنسة ما هاله ففتن به .
وكان عمرو عاقلاً حسن الاستماع صحيح الفكر ، فلازمه وكان
لا يفارقه . ثم قال له يحيى يوماً : إنك قد أحطت بحواصل الاسكندرية
وختمت على كل الأشياء الموجودة بها . فما لك به انتفاع فلا أعارضك
فيه ، وما لا انتفاع لك به فنحن أولى به . فقال له عمرو : وما الذى
تحتاج إليه ؟ قال : كتب الحكمة التي في خزائن الملوكية . فقال له عمرو :

لا يمكننى أن أمر فيها إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .
وكتب إلى عمر وعرفه قول يحيى ، فورد عليه كتاب عمر يقول فيه :
وأما الكتب التى ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ، ففى كتاب
الله عنه غنى ، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله ، فلا حاجة إليه ؛
فتقدم بأعدامها . فشرع عمرو بن العاص فى تفريقها على حمامات
الاسكندرية واحرقها فى مواقدها ؛ فاستنفدت فى ستة أشهر ، فاسمع
ما جرى وأعجب ! » .

وهذا ما يستنتج من أقوال المؤرخين :

١ - إذا تأملنا رواية أبى الفرج نجدها بالخرافة أشبه . فقد ذكر فيها خلاصة أقوال المؤرخين
أن كتب المكتبة كفت أربعة آلاف حمام ستة شهور . وهذا غير معقول
فضلا عن أن عمرا لو قصد تدمير المكتبة لأحرقها فى الحال ولم يتركها
تحت رحمة أصحاب الحمامات ، والا لتمكن يوحنا الذى بنى أبو الفرج
روايته عليه من أخذ ما يلزم من الكتب بثمان بئس .

٢ - ذكر « بطر » أن يوحنا هذا قد مات قبل استيلاء العرب على
الاسكندرية بثلاثين أو أربعين سنة . وإن صح هذا كان معناه دحض
بعض ما جاء بهذه الرواية خاصة يوحنا النحوى . وإذا تنهدم الرواية
والحادثة من أولها الى آخرها .

٣ - إن روايات عبد اللطيف وابن القفطى وأبى الفرج ظهرت
بعد ستة قرون من وقوع هذه الحادثة . فلو سلمنا جدلا بصحتها لما
مر عليها مؤرخان شهيران تقديما عبد اللطيف وأبا الفرج : وهما أوتيسخا
المتوفى سنة ٣٢٨ هـ ويوحنا أسقف نقيوس من غير أن يتعرضا لها ،
وتاريخهما عن مصر من أهم المصادر التى يعتمد عليها ، فضلا عن أنه
لم يذكر هذا الخبر أحد من المتقدمين كابن عبد الحكم والبلاذرى
واليعقوبى والطبرى ، حتى جاء عبد اللطيف وابن القفطى وأبو الفرج فى

القرن السابع للهجرة (الثالث عشر الميلادي) فذكروها . فلو أنها حقيقة لتعرض لها هؤلاء المتقدمون .

٤ - إن هذه المكتبة قد أصابها الحريق مرتين : الأولى سنة ٤٨ ق . م على أثر حرق أسطول يوليوس قيصر . وفي ذلك يقول المؤرخ الروماني بلوتارك Plutarck : « بينما كان الأعداء يستولون على أسطوله اضطرب (يوليوس قيصر) أن يرددهم بالنار فاندلع لهيبها من الخياض وأتلف المكتبة » . وقد ذكر ذلك كثير من المؤرخين . وعلى هذا فالمكتبة الكبرى أحرقت سنة ٤٨ ق . م ، والثانية في عهد القيصر تيودوسيوس (٣٧٨ - ٣٩٥ م) سنة ٣٩١ م .

٥ - إن قول أورازيوس Orasius أنه وجد رفوف المكتبة خالية من الكتب عند زيارته لمدينة الاسكندرية في أوائل القرن الخامس الميلادي يثبت عدم وجود هذه المكتبة قبل استيلاء العرب على الاسكندرية . وعلى ذلك فإن الكتب التي كانت بالمكتبة من عهد البطالسة لم يبق لها أثر منذ أواخر القرن الرابع الميلادي ، أي منذ عهد الامبراطور تيودوسيوس . ومن المعلوم أن حالة مصر قبل الفتح الاسلامي - أي منذ أيام دقلديانوس - كانت (على ماسبق) حالة تأخر في الزراعة والصناعة والعلوم والمعارف والآداب . فمن البعيد اذا أن يهتم الناس باعادة هذه المكتبة الى عهدها الأول .

٦ - إن التعاليم الاسلامية تخالف رواية أبي الفرج (وعبد اللطيف) ، لأنها ترمى الى عدم التعرض للكتب الدينية - اليهودية والنصرانية - وكذا غيرها ، لأنه يجوز أن ينتفع بها المسلمون . ومن هنا يتضح أن هذه الرواية منافية لآخلاق العرب ، وقد عرف عنهم أنهم كانوا لا يتعرضون لما فيه ذكر الله .

٧ - وإذا ثبت أن المسيحيين أحرقوا هيكل سيرايدس ، فمن المعقول أن النيران قد التهمت ما فيه من الكتب فلم تبق عليها ولم تذر .

٨ - وفي غضون القرن الخامس والسادس والسابع الميلادي ،
أى بعد حريق هذه المكتبة ، لم يرد لها ذكر في الآداب . ومن المعلوم
أن حالة مصر قبيل الفتح الاسلامي ، أى منذ أيام دقلديانوس ، كانت
- على ما سبق - حالة تأخر في الزراعة والصناعة والعلوم والمعارف
والآداب . فغير محتمل إذاً أن يهتم الناس باعادة هذه المكتبة الى عهدها
الأول .

٩ - ولو فرضنا أن المكتبة بقيت الى الفتح الاسلامي فلم يكن
هناك ما يمنع من نقلها على يد الرومان الى القسطنطينية أثناء الهدنة . وقد
أجاز لهم عمرو في عهد الصلح أن يحملوا كل ما يقدرون عليه . ولديهم
من الوقت ووسائل النقل ما يمكنهم من نقل مكاتب لا مكتبة واحدة ،
كما أنه لا يعقل أن يحارب العرب العلم مع ما كان من فكهم الأسير
إذا علم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة .

١٠ - وأيضاً فإنه لا يمكن الأخذ برواية أبي الفرج على هذه الصورة
التي تظهر فيها المبالغة والتلفيق لاحتمال أن يكون متعصباً للنصرانية .
وأما عبد اللطيف فإنه ذكر هذه المسألة عرضاً وبدون تحقيق عند
كلامه على عمود السوارى .

فالقول إذاً بأن إحراق مكتبة الاسكندرية كان على يد عمرو بن
العاص بأمر الخليفة عمرو بن الخطاب محض افتراء وتضليل ^(١) .

صفات عمر :

كان عمر رضى الله تعالى عنه شديداً في الحق ؛ فقد كان في أيام
شركه من أشد قريش وأخطرهم على المسلمين ، فلما أسلم كان أشد
المسلمين مجاهرة برأيه ودفاعاً عنه . قال ابن مسعود : « ما عبد الله

(١) من أراد التوسع فليرجع الى كتاب عمرو بن العاص للؤلف ص ١٠٦ - ١١٨

في اسلامه

جهره حتى أسلم عمر (١) « وكان من أقسى المسلمين في التنكيل بالمشركين وإيقاع العقوبة بهم . فقد قال للرسول حين استشاره في أسارى بدر « إدفعهم إلينا يا رسول الله فلنضرب أعناقهم » ، وفيهم أقاربه وأقارب أنى بكر ؛ بل كان فيهم أقارب الرسول وفروع بنى هاشم ؛ وهو يقول للرسول في شأن صلح الحديبية : « أأست رسول الله ؟ وأألسنا مسلمين ؟ أليسوا كفارا ؟ » حتى إذا قال له الرسول : نعم ! قال له : وعلام نعطي الدينية في ديننا ؟

في مشورته لآنى بكر

وقد أشهر عمر سيفه وهدد بالقتل كل من قال إن محمدا قد مات . فلما تمت البيعة لآنى بكر على خلافة رسول الله وجلس عمر منه مجلس المشير كان صارماً في رأيه ، شديداً على من تأخر عن جماعة المسلمين في البيعة ، كذلك أشار على أنى بكر بقتل خالد بن الوليد في مالك بن نويرة حين علم بأن خالدا قد قتله بعد أن ثاب للإسلام واعترف به ؛ وقد أنى عليه ذلك أبو بكر وقال له إنه تأول فأخطأ . قال له عمر : فاعزله . فرفض أبو بكر وقال : ما كنت لأشيم سيفاً سله الله على الكافرين (٢) . فلما ولى عمر الخلافة عزل خالداً عن قيادة الجيش .

في خلافته

وكانت شدة عمر في خلافته من أظهر ما امتاز به ، فكان إذا أمر بشيء أو نهى عنه بدأ ذلك بأهله ؛ فجمعهم وقال لهم : إني نهيت عن كذا وكذا وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير (٣) . وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم فعله إلا ضاعفت عليه العقوبة .

الامة فوق الحكومة

وكان شديداً على ولاته يخشى أن يرهبوا الناس فيذلوا نفوسهم ويعلموهم الجبن ويطبعوهم على الصغار ؛ فكان يفتح صدره لآنى شكايه

(١) ابن حجر : الاصابة في تمييز الصحابة ج ٤ ص ١٧٩

(٢) الطبرى ج ٣ ص ٢٤٣

(٣) يقول الطبرى ج ٥ ص ٢١ يعنى الى اللحن وهو يقصد من ذلك أن الناس اذا رات من

أهل الامير وحاشيته تهاونا في أمر اقتدوا بهم وأمعنوا في الاستهتار به .

في أحد عماله ، فيعلن ذلك لعامة المسلمين في خطبه^(١) ، ويسأل الرعية إذا وفدت عليه في مناسبات الحج أو غيرها عن حال أمرائهم وسيرتهم فيهم^(٢) . وكان لا يولى عاملاً إلا إذا كتب له عهداً وأشهد عليه رهطاً من المهاجرين والأنصار واشترط عليه ألا يركب برذوناً (حماراً) ولا يأكل نقيماً ولا يلبس رقيقاً ولا يتخذ باباً دون حاجات الناس^(٣) .

تفقد أحوال الرعية
بنفسه

والأخبار كثيرة في أنه كان يحوس خلال دور المسلمين ويتفقد أحوال الرعية بنفسه^(٤) ، ويطوف في الأسواق وهو يقرأ القرآن ويقضى بين الناس حيث أدركه الخصوم . بل لقد عزم على الطواف في الولايات الإسلامية للوقوف بنفسه على أحوال الرعية فيها ، ولكن منيته قد حالت بينه وبين ما أراد^(٥) .

(١) روى الطبري أنه خطب الناس يوماً فقال : أيها الناس ! أتى والله ما أرسل إليكم عمالاً ليضربوا أبقاركم (جلودكم) ولا يأخذوا أعشاركم (أموالكم) ؛ ولكن أرسلهم ليعلموكم دينكم وستكم ؛ فمن فعل به شيء سوى ذلك ، فليرفعه إلى فؤا الذي نفس عمر بيده لا قصته منه . فوثب عمرو بن العاص إذاً بعد هذا التصريح الخطير الذي أعلنه عمر على عامة الشعب وجمهوره وقال : أرايتك يا أمير المؤمنين أن كان رجل من أمراء المسلمين على رعية ، فأدب بعض رعيته أنك لتقصه ؟ قال عمر : أي والذي نفس عمر بيده إذا لا قصته . وكيف لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه ؟ ثم بين لعمرو ما يخشاه على الرعية من عنف الأمر وظلم الولاة ، فقال : ألا لا تضربوا المسلمين فتذلهم ولا تجمروهم (أي لا تتركوا الجنود في مواقعهم إزاء العدو أمداً طويلاً) فتفتنهم ، ولا تمنعهم حقوقهم فتكفروهم . (ج ٥ ص ٢٠) . ولن يغيب عن القاري ما فعله عمر بولد عمرو بن العاص وجبلته بن الأيهم حين حكم بالقصاص من كل منهم لواحد من السوق .

(٢) عن الأسود بن أبي يزيد قال : كان الوفد إذا قدموا على عمر رضي الله تعالى عنه سألهم عن أميرهم فيقولون خيراً فيقول : هل يعود مرضاكم ؟ فيقولون : نعم ! فيقول هل يعود العبد ؟ فيقولون : نعم ! فيقول : كيف صنيعه بالضعيف ؟ هل يجلس على بابي ؟ فإن قالوا الحصة منها : لاعزله (الطبري ج ٥ ص ٣٣) .

(٣) (الطبري ج ٥ ص ٢١) .

(٤) (الطبري ج ٥ ص ٢٠) ولذلك وصفه فون كيرمر بأنه كان Policeman

(٥) ذكر الطبري أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال : لئن عشت إن شاء الله لأميرين في الرعية حولاً فاني أعلم أن للناس حوائج تقطع دوني ، أما علمهم فلا يرفعونها إلى ،

محافظة على أموال
المسلمين

وكما كان عمر حريصا على كرامة المسلمين وعزة نفوسهم يحميهم
ويتنصف لهم من عدوان الولاة والأرستقراطيين منهم ، كان كذلك
أحرص الناس على أموال المسلمين ومصالحهم . فكثيرا ما كان يرى
وهو يدهن إبل الصدقة^(١) بالقار أو يطردها ليدخلها حظائرهما في يوم
شديد الحر شديد السموم . وقد قام على بن أبي طالب يوما على رأس
عثمان وهما في الظل يملئ عليه ما يقول عمر ، وقد لفَّ على رأسه بُردا
يتقي به حرارة الشمس ، وجعل يعد الابل ويحصيها ويملي عليهم ذلك
حتى قال على لعثمان : « نَعَتْ بُنتُ شَعِيبٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ (يَأْتِ ابْتِئَاجَهُ
إِنْ خَيْرٍ مِنْ اسْتِأْجَرْتَ الْقَوَى الْأَمِينِ) » ، ثم أشار إلى عمر فقال : « هذا
هو القوى الأمين^(٢) » . روى عن أسلم أنه قال : « إن عمر بعثه
مرة بابل من إبل الصدقة إلى الحمى ، فوضع رحله على ناقه منها ؛ فلما
رأى عمر أنه قد وضع رحله على ناقه من الابل حسنا قال له : لا أم
لك ، عمدت إلى ناقه تغني أهل بيت من المسلمين . فهلا ابن لبون
بوالا أو ناقه شصوصا^(٣) ؟

ولكنه مال المسلمين

وقد استقرضته هند بنت عتبة وزوجة أبي سفيان وأم معاوية
ابن أبي سفيان أربعة آلاف درهم تتجر فيها على أن تضمنها فأعطاها .
فلما عادت شكت الوضيعة^(٤) ، فقال لها عمر : لو كان مالي لتركته ،

وأما هم فلا يصلون إلى ، فأسير إلى الشام فأقيم فيها شهرين ثم أسير إلى الجزيرة فأقيم بها شهرين ، ثم
أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى الكوفة فأقيم
بها شهرين ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين . والله لنعم الحول هذا (ج ٥ ص ٢٣) .

(١) الطبرى ج ٥ ص ٣٣) وابل الصدقة هي ابل كانت مملوكة لبيت المال تربى للتصدق
بليها على فقراء المسلمين

(٢) الطبرى ج ٥ ص ١٨

(٣) الطبرى ج ٥ ص ١٨ . وابن اللون هو الذكر من الابل الذى مضى عليه أكثر من

عام ، والبول كثير البول والشصوص التى لا لبن لها

(٤) وضع فى تجارته (على صيغة المبنى للمجهول) ضعة وضعة — خسر والوضيعة الخسارة .

ولكنه مال المسلمين . وهذه مشورة (صفقة) لم يرغب عنها أبو سفيان .
فبعث إليه خبيسه حتى وافته^(١) .

عدل عمر

وقد بلغ من عدل عمر ان كان يحرص كل الحرص على دفع
أعطيات المسلمين إليهم في مواعيدها لا فرق بين عامة وخاصة ، (٢)
كما كان لا يُعنى أى انسان - مهما كانت منزلته مما يستحقه من العقوبة ،
وأنة ما كانت تؤثر في تصرفاته عواطفه الخاصة ونزعات قلبه . روى
صاحب الفخرى أن عمر بن الخطاب قال لرجل : إني لأحبك . قال :
فتقصني من حق شيئاً ؟ . قال عمر : لا ! قال الرجل : فما يفرح بالحب
بعد هذا إلا النساء . (٣)

تواضعه

وكان عمر متواضعاً رغم هذه الشدة التي عرفت عنه . ذكر هشام
الكعبى أن عمر بن الخطاب كان يحمل ديوان أعطيات خزاعة حتى ينزل
قديداً ، فتأتيه خزاعة في قديد فلا تغيب عنه امرأة بكر ولا ثيب
فيعطيهن في أيديهم ، ثم يروح فينزل عُسفان فيفعل مثل ذلك أيضاً حتى
توفي (٤) . وقد ظهر تواضع عمر في ملبسه ومظهره عند ذهابه إلى الشام
وعند مقابلاته للهرمزان قائد الفرس الذي قصد اليه في المدينة وما كاد
يعرفه لبساطة ملبسه وعدم اعتداده بنفسه .

(١) قد تقدم القول عن حبسه أبا سفيان بن حرب (وهو من سادات قريش وزعمائها)
حتى ردت زوجته هند قرصاً أخذته من بيت مال المسلمين . وكذلك نرى عمر مع احترامه للأتباع
وتابعه لوصية الرسول بهم يقول لساداتها وكبرائها - وقد اجتمعوا في المسجد يناشدون
الاشعار التي قيلت في هجر قريش إبان البعثة - أرغاء كرهاً الا بل ؟ وكذلك لم تمنعه منزلة سعد
ابن عباد فضلته في الاسلام من أن يقول له يوم السقيفة : قتل الله سعد بن عباد انه منافق
(وذلك لانه حاول أنه يأخذ الخلافة لنفسه) فلما بايع المسلمون أبا بكر تخلف عن جماعتهم .

(٢) أثر عنه أنه كان يقول . . . والله لئن بقيت ليأتين الراعى بجبل صنعاء حفله من .
هذا المال (أموال الفقه) وهو في مكانه (الطبرى ج ٥ ص ٢٣)

(٣) الفخرى ص ٣٧

(٤) الطبرى ج ٥ ص ٢٣ .

غضبه لكرامة
المنصب

وكان عمر مع تواضعه هذا يثور غضبه على من يجترى على سلطان الله . أتى عمر يوماً بمال فجعل يقسمه بين الناس فازدحموا عليه ؛ فأقبل سعد بن أبي وقاص يزاحم الناس حتى خلص إليه ، فعلاه عمر بالدرة وقال : إنك أقبلت لانتهاج سلطان الله في الأرض فأجبت أن أعليك أن سلطان الله لن يهابك . (١)

اجتهاده وفتياه

وكان رضى الله تعالى عنه عالماً بالقرآن وتأويله مجتهداً في دين الله ذارأى وفتياً . روى النووى عن ابن عمر أنه سئل من كان يفتى الناس في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو بكر وعمر ، ما أعلم غيرهما (٢)

صراحته مع الرسول

وكان أكثر الصحابة شجاعة وجرأة . فكثيراً ما كان يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ عن التصرفات التي لم يدرك حكمها . (٣) ولم يفارقه رأيه واجتهاده في أى ظرف من حياته وعلى الأخص بعد موت الرسول وانقطاع الوحي الإلهي وحرمانهم من شخص الرسول الذى كان المرجع الأخير في حل المشكلات وتوضيح المبهمات . روى عن عمران بن سودة . قال : « صليتُ الصبح مع عمر فقراً سبجان (أى سورة الاسراء) وسورة معها ، ثم انصرف . وقتت معه فقال : « أحاجة ؟ » . قلت « حاجة » . قال : « فالحق » . فلجحتُ . فلما دخل أذن لى فاذا هو على سرير ليس فوقه شيء ؛ فقلت « نصيحة » . فقال « مرحباً بالناصح غُدُّوا وعشياً » . قلت « عابت أمتك منك أربعاً » ؛ فوضع رأس درته في ذقنه ، ووضع أسفلها على فخذه ثم قال : « هات ! » قلت « ذكروا أنك حرمت العُمرة في أشهر الحج ولم يفعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبو بكر رضى الله تعالى عنه وهي

مرحباً بالناصح

(١) الطبرى ج ٥ ص ٢٤

(٢) تهذيب الأسماء واللغات للنووى ج ٢ ص ١٩٠

(٣) كما سأل رسول الله يوم الحديبية عن السبب في قبول هذا الصالح .

رأيه واجتهاده
في الدين

حلال». قال « هي حلال . لو أنهم اعتصموا في أشهر الحج رأوها
مُجزية من حجهم ، فكانت قاتبة ، قُوبَ عامها فقرع حجهم وهو بهاء
من بهاء الله ، وقد أصبت». قلت « وذكروا أنك حرمت متعة النساء ،
وذكر له أشياء أخرى أتى بها عمر من غير أن يسبقه في ذلك مثل
أو قدوة من عهد الرسول أو أبي بكر ، فأجابه عمر عن كل منها وشرح له
حكمتها والأسباب التي دعت إليها مما طمأن ابن سودة وأزال شبهته (١)
ومما يدل على نفاذ بصيرته وحسن تقديره للأمور ودقة فهمه لنفسية

فهمه لنفسية العرب.

الشَّعب العربي ما قاله لعمران هذا في آخر ذلك الحديث حينما شكّا من
نهره للرعية وعنفه في سياقها ؛ إذ شرع الدرّة ثم مسحها حتى أتى على
آخرها ثم قال : أنا زميل محمد ، فوالله إني لأرتع فأشبع وأسقي
فأروى وأنهر التّفوّت وأزجر العروض وأذُبُ قدرى وأسوق
خطوى وأضمّ العنود وألحق القُطوف وأكثر الزّجر وأقل الضّرب
وأشهر العصي وأدفع باليد . لولا ذلك لأعذرت (٢) . حتى لقد قال
معاوية لما بلغه ذلك الكلام : كان والله عالما برعيته .

وقد وصف الأستاذ نيكلسن عمر بن الخطاب في كتابه « تاريخ
العرب الأدبي » في هذه العبارة : « كان عمر ورعا متقشفا ، لا يخشى
في القيام بواجبه لومة لائم ، ولا يحابي فيه أحدا ، متحمسا للحق الى
حد الصلابة رغم عطفه على الضعفاء ، كما كان قاضيا شديدا النزاهة نحو
غيره وبخاصة نحو نفسه : ولا غرو فقد ولد حاكما بطبيعته ورجلا في
كل خطوة من كل خطوات حياته » (٣)

(١) الطبري ج ٥ ص ٣٢

(٢) يقصد عمر من ذلك أنه يمهّد للرعية جميع وسائل الراحة والعلمانية بالعدل وصيانة
الحقوق ثم يضرب على أيدي المعتدين ويكف المفسدين ، وهو إذا قسا في عقوبة شخص قائما
بفعل ذلك ليزجر غيره عن الوقوع في المعصية ؟ وهو رفيق برعيته يشهر عليهم العصا ليخيفهم حتى
إذا اضطروا الى ضربهم أو دفعهم دفعهم يده .

(٣) Nicholson, Lit. Hist. of the Arabs, p. 189

مفاسات عمر :

مضت خلافة أبي بكر رضى الله تعالى عنه وانشغل الناس فيها بحروب الردة ثم بحروب الفتح التي لم تؤت ثمارها إلا في عهد عمر . وكان الله قد ساق للمسلمين أبا بكر ليتمكنوا في خلافته من هضم ما تلقوه عن الرسول الأمين . ولا غرو فقد استهل أبو بكر خلافته بقوله : « إنما أنا متبع ولست بمبتدع » ، حتى إذا اتسعت رقعة الاسلام من أثر الفتوح وأذنت الحال بالتغيير ، فنعقد من الأمور ما كان بسيطاً وجداً فيها ما لم يسبق له مثال ، ساق الله إليهم عمر بن الخطاب وهو رجل تلك الساعه ؛ إذ لم تمنعه شدة تعلقه بالقرآن (١) ووقوفه عند أوامره ونواهيه واحترامه للرسول وصدقته في صحبته من الاجتهاد برأيه وإنشاء ما تدعو إليه الضرورة وتقتضيه مصلحة الرعية . فوجه عمر همه وأعمل رأيه واستهدى بصيرته في تنظيم شؤون دولته التي ترامت أطرافها ونشر العدل في ربوعها . فأنشأ الدواوين ورتب لها العمال من الفرس والروم والقبط ، وقسم الولايات ومصر الأمصار ، وضرب الدراهم على النمط الفارسي وزاد في بعضها الحمد لله وفي بعضها محمد رسول الله ، ووضع التاريخ الهجرى وأنشأ نظام الحسبة (٢) .

طبيعة أبي بكر
تلائم عهده

عهد عمر يقتضى
الانشاء

تنظيم شؤون الدولة
الاسلامية

(١) أخرج عمرو بن ميمون عن أبيه قال : أتى عمر بن الخطاب رجل ، فقال : يا أمير المؤمنين انالما فتحنا المدائن أصبت كتاباً فيه كلام معجب . قال : أمن كتاب الله ؟ . قال : لا ! فدعا عمر بالدة فجعل يضربه بها ويقول (الرثك آيات الكتاب المبين انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلمكم تعقلون نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين) (سورة يوسف ١٢ : ١ - ٤) ، ثم قال له : إنما أهلك من كان قبلكم أنهم أقبلوا على كتب علمائهم وأساقفتهم وتركوا النوراة والانجيل حتى درس وذهب ما فيها من العلم . (أشهر مشاهير الاسلام لرفيق بك العظيم ص ٤١٤) .

(٢) وهى الاشراف على الأسواق ومراقبة الموازين والمكاييل منعا للغش والمحافظة على الآداب العامة ومراقبة تنظيف الطرق ومالى ذلك من الاعمال التي تقوم بها المجالس البلدية الآن .

وكان عمر أول من عيّن القضاة وأقام دورا للضيافات وأدر عليها
الأرزاق (١)، كما أنه وسّع مسجدي مكة والمدينة .

وفاة عمر قتل عمر بن الخطاب على يد رجل من الموالي اسمه فيرون ويلقب
بأبي لؤلؤة ، وهو غلام للغيرة بن شعبة . قتله بخنجر له رأسان وضربه
ست ضربات احداها تحت سترته وهي التي قتله . وتوفي في شهر
ذي الحجة سنة ٢٣ هـ بعد أن ولي الخلافة عشر سنين وستة أشهر ،
ومات وهو في الثالثة والستين من عمره كما مات النبي وأبو بكر في هذه
السن أيضا . وإن مقتل عمر على يد رجل من الموالي الفرس يبين لنا
مبلغ الاستياء والسخط الذي استولى على نفوس الفرس بعد زوال
سلطانهم ودخولهم في حوزة العرب .

عثمان بن عفان

٢٣ — ٣٥ هـ ٦٤٤ — ٦٥٦ م

نسبه هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن عبد شمس بن أمية بن
عبد مناف بن قصي الأموي القرشي ، وأمه أروى بنت كرز
ابن ربيعة ، وأما البيضاء بنت عبد المطلب عمه رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، وكانت توأمة لعبد الله أبي الرسول .

مولده وصفاته ولد عثمان في السنة الخامسة بعد ميلاد الرسول بخمس سنين (٢) ،
واشتهر بالفقه والحياء والكرم . وكان لين العريكة كثير الاحسان والحلم .

(١) عن ابن سعد اتخذ عمر دار الدقيق فجعل فيها الدقيق والسويق والتمر والزبيب وما يحتاج
اليه يعين به المنقطع ، ووضع فيها بين مكة والمدينة في الطريق ما يصلح من ينقطع به . وفي بعض
الروايات أنه فعل مثل ذلك في الطريق بين الشام والحجاز .

(٢) وقيل أنه ولد بعد عام الفيل بست سنين

« وكان لا يوقظ نائماً من أهل بيته إلا أن يحده يقظان فيدعوه فيناوله وضوءه . وكان يصوم الدهر » (١)

وقد أسلم عثمان على يد أبي بكر ؛ وزوجه الرسول ابنته رُقَيْة . فلما آذى مشركو قريش المسلمين ، كان عثمان من أوائل المهاجرين مع زوجته . فلما علم المهاجرون برضاء قريش عن الرسول عاد عثمان إلى مكة ، وهاجر مع الرسول إلى المدينة ، واشترك في الغزوات إلا غزوة بدر لانشغاله بتمريض زوجته التي ماتت ودفنت في اليوم الذي انتصر فيه المسلمون ، فعده الرسول من البدرين ، ثم زوجه ابنته الثانية أم كلثوم . ولهذا كان يلقب بذي النورين لزوجيه بابنتي الرسول رقية ثم أم كلثوم التي توفيت في أئسنه التاسعة من الهجرة . (٢)

وقد استعان الرسول بعثمان في كثير من أمور المسلمين . فقد كان سفيره لدى قريش . فلما ذاع نبأ قتلهم إياه بايع الرسول أصحابه ببيعة الرضوان . وقد بذل عثمان كثيراً من ماله في سبيل الاسلام . ولا غرو فقد كانت له اليد الطولى في جيش العسرة الى تبوك ، فقد أمد المسلمين بتسعمائة وخمسين بعيراً وخمسين فرساً وألف دينار ، كما اشترى بئر معونة من يهودي بعشرين ألف درهم وتصدق بها على المسلمين ، وحفر بئر رومة . وقد أثر عن الرسول أنه قال : من حفر بئر رومة فله الجنة . (٣)

وكان عثمان من رواة الحديث . يقول ابن حجر : روى عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أبي بكر وعمر ، كما روى عنه أولاده عمر ، وأبان ، وسعيد ، وابن عمه مروان بن الحكم ؛ ومن الصحابة ابن مسعود ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن العباس ، وعبد الله بن الزبير ، وزيد

إسلامه وبلاؤه في الاسلام

بذله المال في سبيل الاسلام

روايته الحديث

(١) الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ج ٤ ص ٢٢٣

كان عثمان يصوم طوال أيام السنة عدا الأيام المكروهة ، وهي أيام العيدين ويوم الشك

في أول رمضان . (٢) الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ج ٤ ص ٢٢٣

(٣) النووى : تهذيب الاسماء واللغات ج ١ ص ٣٢٣ ، صحيح البخارى ج ٤ ص ١٧٨

وقد أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : لكل نبي رفيق . ورفيقي في الجنة عثمان .

ابن ثابت ، وأبو هريرة وغيرهم ؛ ومن التابعين الأحنف بن قيس وسعيد ابن المسيب (١) . وقد ذكر النووي (٢) أنه روى لعثمان عن الرسول مائة حديث وستة وأربعون حديثاً ، اتفق البخاري ومسلم على ثلاثة منها ، وانفرد البخاري بثمانية ومسلم بخمسة .

ولما انتقل الرسول إلى جوار ربه كان عثمان لأبي بكر أميناً وكاتباً يستشير به في مهام الأمور ، ولما قتل عمر كانت أغلبية الشورى في جانبه .

وصفوة القول أن عثمان كان على ما وصف نفسه في هذه الكلمات : « إن الله بعث محمداً بالحق نبياً . وكنت ممن استجاب لله ولرسوله ، وآمنت بما بُعث به ؛ ثم هاجرت الهجرة وصحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونلت صهر رسول الله ، وبايعته . فوالله ما عصيته ولا غششته حتى توفاه الله تعالى ، ثم أبو بكر مثله ثم عمر » .

قصة السورى أوبيعة عثمان :

لما طعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه دخل عليه نفر من الصحابة فقالوا له : « يا أمير المؤمنين لو استخلفت » . قال : « من استخلف ؟ لو كان أبو عبيدة بن الجراح حياً استخلفته . فان سألنى ربى قلت سمعت نبيك يقول إنه أمين هذه الأمة ؛ ولو كان سالم مولى أبى حذيفة حياً استخلفته . فان سألنى ربى قلت سمعت نبيك يقول إن سالماً شديد الحب لله . فقال رجل أدلك عليه ؟ عبد الله بن عمر . فقال عمر : قاتلك الله ، والله ما أردت الله بهذا . لا إرب لنا في أموركم . ما حمدتها لأرغب فيها لأحد من أهل بيتى . بحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر أمة محمد . أما لقد جهدت نفسى وحرمت أهلى . وإن أنج كفافاً لا وزر ولا أجر إني لسعيد » . ثم قال : فان استخلف فقد استخلف

رفض عمر ان
يستخلف

من هو خير مني (يعني أبا بكر) وان أترك فقد ترك من هو خير مني
(يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم). ولن يضيع الله دينه، فخرجوا.
وقد خشي أصحاب رسول الله أن يقضى عمر نحبه دون استخلاف.
فذهبوا إليه مرة أخرى وقالوا: يا أمير المؤمنين لو عهدت عهدا؟ فقال:
عليكم بهؤلاء الرهط الذين مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم
راض وقال فيهم إنهم من أهل الجنة: علي بن أبي طالب، وعثمان بن
عفان، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام
حواري رسول الله وابن عمته، وطلحة بن عبيد الله، وعبد الله بن عمر
على ألا يكون له من الأمر شيء. وأوصى بأن تكون الخلافة للرجل الذي
يقع عليه الاختيار من الفريق الذي في صفه عبد الله بن عمر في حالة تساوى
الأصوات، ثم قال: «فاذا أوليتم واليا فاحسنوا مؤازرته وأعينوه» (١)
ثم دعاهم عمر وقال لهم «إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم.
لا يكون هذا الأمر إلا فيكم. إني لأخاف الناس عليكم اختلافكم فيما
بينكم، فيختلف الناس. فاذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام؛ ولا يأتين اليوم
الرابع إلا وعليكم أمير منكم. ووضع لهم أساس الشورى وبين لهم
ما يجب أن يتبعوه.

العودة الى الشورى
واختاب الخليفة

فلما مات عمر اجتمع هؤلاء النفر في بيت المسور بن مخرمة إلا
طلحة فإنه كان غائبا. ولكن سرعان ما ظهر فيهم التنافس؛ فقال لهم
أبو طلحة الأنصاري «أنا كنت لأن تدفعوها أخوف مني لأن
تنافسوها» (٢)؛ ولكن عبد الرحمن بن عوف أخرج الناس من هذا
المأزق واقترح عليهم اقتراحا يمنع هذا التنافس؛ فقال لهم «أيكم
يخرج نفسه منها ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم؟ فلم يجبه أحد، فقال:
فأنا أخلع منها نفسي». فرضى القوم بذلك وعلى ساكت؛ فقال له

موقف ابن عوف
من المتنافسين

(١) الطبرى ج ٥ ص ٣٥ ابن الاثير ج ٣ ص ٥٧ (٢) الطبرى ج ٥ ص ٦٣

« ما تقول يا أبا الحسن ؟ » ، قال « أعطني موثقاً لتوثرن الحق ولا تتبع الهوى ولا تخص ذا رحم لرحمه ولا تألو الأمة » . فقال « أعطوني موثيقكم على أن تكونوا معي على من بدل وغير وأن ترضوا من اخترت لكم ، على ميثاق الله ألا أخص ذا رحم ولا آلو المسلمين » : فأخذ منهم ميثاقاً وأعطاهم مثله . ومن ثم أخذ عبد الرحمن يستشير الصحابة وأمراء الأجناد وأشرف الناس فيمن يصح أن يختار خليفة من بين هؤلاء . فكان بعضهم يشير بعلي ، وفريق آخر في جانب عثمان ؛ وكذلك استشار أصحابه ؛ فقال لعلي « لو لم يكن لك هذا الأمر فمن ترضى ؟ فقال : عثمان » ، وكذلك فعل مع الزبير وسعد ؛ فقالا : عثمان . ثم سأل عثمان ، فأشار بعلي . ومن هنا نجد أن استحقاق الخلافة انحصر في علي وعثمان ؛ إذ كانا محط أنظار الصحابة وأشرف المسلمين .

استشارته الصحابة
والقواد والأشراف

ولما انتهى الأجل الذي ضربه عمر ؛ جاء عبد الرحمن - بعد أن طاف هذه الليالي يستأنس برأى الناس - وقت صلاة الصبح إلى المسجد حيث اجتمع بقية أصحابه ، وحضر من عداهم من المهاجرين وأهل السابقة والفضل من الأنصار وأمراء الأجناد . ولما ازدحم المسجد بالناس ، قام عبد الرحمن فقال : « أيها الناس ! إن الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الأمصار بأهصارهم ، وقد علموا أميرهم . » وهنا ظهرت بوادر الانقسام بين أنصار علي وعثمان ؛ إذ قام عمار بن ياسر فقال : « ان أردت ألا يختلف الناس فبايع عليا » ، فقال المقداد ابن الأسود « صدق عمار . إن بايعت عليا قلنا سمعنا وأطعنا » . فقال عبد الله بن أبي سرح وقال : « إن أردت الاختلاف فريش فبايع عثمان » . فقال عبد الله بن أبي ربيعة « صدق عبد الله إن بايعت عثمان قلنا سمعنا وأطعنا » ؛ فثمت عمار ابن أبي سرح وقال له : « متى كنت تنصح المسلمين ؟ »

انقسام قريش

فتكلم بنو هاشم وبنو أمية ؛ فقال عمار « أيها الناس ! إن الله عز وجل أكرمنا بنبيه وأعزنا بدينه فإني تصرفون هذا الأمر عن بيت نبيكم ؟ » فقال سعد بن أبي وقاص « يا عبد الرحمن ! افرغ قبل أن يفتن الناس . » فقال عبد الرحمن . « إني قد نظرت وشاورت فلا تجعل أيها الرهط على أنفسكم سيلا » ، ودعا عليا فقال له : « عليك عهد الله وميثاقه لتعلن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفة من بعده » . قال : أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علي وطاقتي ، وسيرة الخليفة من بعده . ثم دعا عثمان وأعاد عليه ما قال لعلي ؛ فقال نعم ! فبايعه ، وبذلك نال عثمان الخلافة ؛ فقال علي لعبد الرحمن « لقد حَبَوْتَهُ حَبْوً دهر ليس هذا أول يوم تظاهرت فيه علينا ؛ فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون . والله ما وابت عثمان إلا ليرد الأمر إليك . والله كل يوم هو في شأن ^(١) » ومن ثم نرى أن التنافس منذ ذلك الوقت ظهر بين عثمان وعلي ، أو بالأحرى بين بني هاشم وبني أمية ، لأن الخلافة انحصرت بينهما تقريرا ؛ إذ أن الناس كانوا لا يعدلون بهما أحداً غيرهما . وقد كاد الأمر يتم لعلي لولا أنه لم يتمشَّ مع عبد الرحمن بن عوف بأن يسير على ماسنه أبو بكر وعمر ، وأراد أن يعمل بمبلغ عليه ، فصرُفت عنه الخلافة إلى عثمان الذي رضى عن طيب خاطر أن يتبع سنة من كان قبله . وكان ذلك في آخر شهر ذي الحجة سنة ٢٣ هـ .

بنو هاشم وبنو أمية

اختير عثمان للخلافة ، فانقسم المسلمون إلى أمويين وهاشميين أو علويين . فقد كان علي هو المقدم في بني هاشم لسبقه في الدين وإخلاصه وتضحيته في سبيل نصره الدين ، ولأنه زوج فاطمة بنت رسول الله . أما العباس عم النبي فإنه لم يتطلع إلى الخلافة ، واكتفى بمساعدة علي . وكان

العباس

(١) الطبري ج ٥ ص ٣٧ ابن الأثير ج ٣ ص ٣٠ - ٣١

من أثر ذلك الانقسام أن ظهرت الأحزاب كالشيعة والخوارج والمرجئة والمعتزلة وغيرها من الأحزاب السياسية والدينية .

وبعد أن بويع عثمان خطب الناس هذه الخطبة :

خطبة عثمان

« إنكم في دار قُلعة (١) ، وفي بقية أعمار ، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه . فلقد آتيتم صبحتم أو أمسيتم . ألا وإن الدنيا طُويت على الغرور . فلا تغرتكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور . واعتبروا بمن مضى ، ثم جدوا ولا تغفلوا فإنه لا يغفل عنكم .

أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها وعمروها ومتعوا طويلاً بها ؟ ألم تلفظهم ؟ ارموا بالدنيا حيث رمى الله ، واطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلاً - والذي هو خير - فقال عز وجل (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح . وكان الله على كل شيء مقتديراً . المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خيرٌ عند ربك ثواباً وخيرٌ أملاً) (٢) . »

وهذه الخطبة لا تبين لنا السياسة التي عول عثمان على انتهاجها في إدارة شئون دولته ، وإنما هي عبارة عن نصائح تتعلق بالدين لا بالسياسة . وكأن عثمان لا يريد أن يلزم نفسه سياسة خاصة يطمئن إليها المسلمون وغيرهم من أهالي الدولة الإسلامية في عهده . وقد يرجع سبب ذلك إلى شيخوخة عثمان ، وما فطر عليه من اللين والتدين والتعلق بآثار السلف . على أن عثمان سرعان ما تدارك هذا النقص ، فأرسل إلى العمال والقواد وعمال الخراج وعامة المسلمين بالأمصار كتباً يحثهم فيها على الأخذ بالمعروف والنهي عن المنكر والعطف على أهل الذمة وجباية

(١) بضم القاف وتسكين اللام أو ضمها أو فتحها . أي دار انقلاع ليست بمستوطن .

(٢) سورة الكهف ١٨ : ٤٥ الطبري ج ٥ ص ٤٣

الخراج بالعدل والانصاف ، ونصح عمال الخراج في هذه الكلمات :
 « أما بعد ! فان الله خلق الخلق بالحق فلا يقبل إلا الحق . خذوا الحق
 واعطوا الحق به . والأمانة الأمانة قوموا عليها ، ولا تكونوا أول من
 يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم . الوفاء الوفاء لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد
 فان الله خصم لمن ظلمهم » .

الفتوح في عهد عثمان :

فتح في عهد عثمان بلاد طبرستان (١) على يد سعيد بن العاص ؛
 وكان في الجيش الحسن والحسين ابنا علي (٢) ، وعبد الله بن العباس
 وعبد الله بن عمر ، وعمر بن العاص ، والزبير بن العوام .

طبرستان

وفي سنة ٣١ هـ انتقض على عثمان أهل خراسان ؛ فأرسل اليهم
 عبد الله بن عامر والي البصرة في جيش كثيف ؛ فاشتبك مع أهالي هذه
 البلاد في مرو وخوارزم وغيرهما ، وفتحها من جديد وصالحه أهالي
 بعض الجهات الأخرى كنيسابور وبلخ ؛ ثم عاد إلى البصرة .

خراسان

كذلك نشط عثمان في الضرب على أيدي الثأرين في سائر الولايات
 الإسلامية ؛ فجعل على الكوفة الوليد بن عقبة وأمه بأربعين ألف
 مقاتل للمحافظة على الثغور (٣) حتى لا يستولى عليها العدو ، وإعادة
 أهلها إلى الطاعة إذا حدثهم أنفسهم بالعصيان . وقد خصص والي
 الكوفة عشرة آلاف من جنده لغزو هذه الثغور مرة في كل سنة (٤)
 وقد انتقضت أذربيجان ومنعت الجزية التي فرضها عليها المسلمون ؛

الثغور

(١) بلاد واسعة على ساحل بحر الخزر المسمى بحر قزوين وبحر طبرستان .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ٣٤٢ .

(٣) ومن هذه الثغور الري وأذربيجان .

(٤) كان يشترك جند الكوفة في هذه الحروب مرة في كل أربع سنين .

فغزاها الوليد وأرغمها على دفع الجزية ؛ ولما خرج أهل أرمينية عن طاعة المسلمين سَيرَ اليهم الوليد جيشا شنت شملهم .

وفي سنة ٣٢ هـ أغزَّ عبد الرحمن بن ربيعة السير في بلاد الخزر (١) حتى وصل إلى بلنجر ، وهي أكبر مدنها وتقع خلف باب الأبواب ؛ ولكن الترك تجمعوا على المسلمين وهزموهم .

أما الشام فكان على ولايتها معاوية بن أبي سفيان منذ أيام عمر ؛ وقد أنشأ معاوية أسطولا حارب البيزنطيين حتى وصل إلى عمورية في آسيا الصغرى كما استولى على جزيرتي قبرص ورودس ؛ وفتح كثيرا من الحصون ، وسار إلى أرمينية حتى وصل إلى قاليقلا (٢) ، فصالحه أهلها ثم استمر في فتوحه حتى وصل إلى تفليس (٣) .

وفي سنة ٥٢٦ هـ فكر عبدالله بن سعد بن أبي سرح في غزو إفريقية ، واستأذن الخليفة عثمان ، فأذن له بعد أن استشار كبار الصحابة ، وأرسل إليه من المدينة جيشا يضم كثيرا من أعيان الصحابة .

سار هذا الجيش إلى إفريقية وانقطعت أخباره عن مركز الخلافة ؛ فأرسل عثمان عبدالله بن الزبير في جماعة ليأتيه بأخبار الجند ، ولما وصل ابن الزبير إلى إفريقية لم ترقه الخطة التي سار عليها ابن أبي سرح في قتال الأعداء ، إذ كان يقاتلهم كل يوم إلى وقت الظهيرة ثم يعود الجيشان إلى معسكرهما في اليوم التالي . وإنما أنكر ابن الزبير على ابن أبي سرح خطته هذه لما رأى فيها من إتاحة الفرصة للعدو للاستعداد ، وأشار عليه بتقسيم جيش المسلمين إلى فرقتين : إحداهما

(١) وهي بلاد الترك خلف باب الأبواب المعروف بالدرند .

(٢) قاليقلا أو كيلكيا أو كيلكيا هي البلاد التي فوق زاوية خليج اسكندرونة وتعرف عند العرب باسم قاليقيا .

(٣) مدينة أرمينية كانت قصبة ناحية جرجان .

تسير لقتال العدو أول النهار ؛ بينما تأخذ الثانية قسطها من الراحة وتستعد لمباغطة العدو عند ما يأوى إلى معسكره ؛ فنزل ابن أبي سرح عن قيادة الجيش لابن الزبير ؛ فتولى الجيش وشرع في تنفيذ خطته . فلما حان الموعد المعهود لانصراف الجيشين استعدت الفرقة التي لم تخرج للحرب أول النهار وهجم بها على العدو الذي أنهكته الحرب في أول النهار . وغشيه في خيامهم ؛ فهزمهم هزيمة منكرة وقتل ملكهم جرير . وبذلك تم النصر للمسلمين . ولولا خطة ابن الزبير وحيلته لما أحرز المسلمون هذا النصر . وقد غنم المسلمون في هذه الحرب مغانم كثيرة ، حتى قيل إن سهم الفارس بلغ ثلاثة آلاف دينار والراجل ألف دينار (١)

عاد ابن الزبير بالغنائم الى المدينة وأخبر عثمان بانتصار المسلمين وماغنموه من ذلك الفتح . فسر بذلك وطلب من ابن الزبير أن يخطب الناس ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ! إني أهيب لك مني لهم . فقام عثمان في الناس خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ! إن الله قد فتح عليكم إفريقية وهذا عبد الله بن الزبير يُخبركم بخبرها إن شاء الله . وكان عبد الله بن الزبير إلى جانب المنبر ، فقام يخطب الناس هذه الخطبة التي رواها لنا ابن عبدربه (٢) :

عود ابن الزبير الى المدينة

« الحمد لله الذي ألف بين قلوبنا وجعلنا متحابين بعد البغضة ، الذي لا يحد نعمائه ولا يزول ملكه . له الحمد كما حمد نفسه وكما هو أهله . انتخب محمدا صلى الله عليه وسلم فاختره بعلمه ، وائتمنه على وحيه ، واختار له من الناس أعوانا قذف في قلوبهم تصديقه ومحبه ، فأمنوا

خطبة ابن الزبير عن فتح إفريقية

(١) ابن الأثير ج ٣ ص ٣٦ - ٣٧ ، البلاذري ص ٢٣٤ ، الكندي ص ١٢

(٢) العقد الفريد ج ٢ ص ٣٧٥ - ٣٧٦ . وقد قيل انه أول من خطب الى

به وعزّروه ووقّروه وجاهدوا في الله حق جهاده ، فاستشهد الله منهم من استشهد على المنهاج الواضح والبيع الرابح ، وبقي منهم من بقي لا تأخذهم في الله لومة لائم. أيها الناس! رحمكم الله! إنا خرجنا للوجه الذي علمتم ؛ فكننا مع وال حافظ حَفِظ وصية أمير المؤمنين ، وكان يسير بنا الأبردين^(١) ويخفف^(٢) بنا في الظواهر ويتخذ الليل جملا يجعل الرحلة من المنزل الجذب ويطيّل اللبث في المنزل الخصب . فلم نزل على أحسن حالة نعرفها من ربنا حتى اتهمنا إلى إفريقية ، فنزلنا منها حيث يسمعون صهيل الخيل ورغاء الابل وقعقة السلاح؛ فأقمنا أياما نجيم^(٣) كُرَاعنا^(٤) ونصلح سلاحنا ، ثم دعوناهم إلى الاسلام والدخول فيه فابعدوا منه . فسألناهم الجزية عن صغار أو الصاح ؛ فكانت هذه أبعد . فأقمنا عليهم ثلاث عشرة ليلة تتأناهم وتختلف رسلنا اليهم . فلما يئس منهم قام خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر فضل الجهاد وما صاحبه اذا صبر واحتسب ، ثم نهضنا الى عدونا وقتلناهم أشد القتال يومنا ذلك وصبر فيه الفريقان ؛ فكانت بيننا وبينهم قتلى كثيرة . واستشهد الله فيهم رجالا من المسلمين ، فبتنا وباتوا وللمسلمين دوى بالقرآن كدوى النحل . وبات المشركون في خمرهم وملاعبهم . فلما أصبحنا أخذنا مصافنا التي كنا عليها بالأمس ، فزحف بعضنا على بعض ؛ فأفرغ الله علينا صبره وأنزل علينا نصره . ففتحناها من آخر النهار ؛ فأصبنا غنائم كثيرة وفيئا واسعا بلغ فيه الخمس خمسائة ألف . فصفق عليها^(٥) مروان بن الحكم . فتركت المسلمين قد قرّت أعينهم وأغناهم النفل ، وأنا رسولهم الى أمير المؤمنين أبشره وإياكم بما فتح الله من البلاد وأذل من الشرك ؛ فاحمدوا الله عباد الله على آلائه وما أحل بأعدائه من بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين . »

ثم وجه ابن أبي سرح همه إلى الجنوب ، فغزا بلاد النوبة من جديد - غزو بلاد النوبة

(١) الغداة والعشى (٢) يقيم بنا (٣) نرجم (٤) السكرع جماعة الخيل (٥) أغلق عليها أبواب الخرائن .

وكان عمرو قد غزاها من قبل - فبلغ دنقلة سنة ٣١ هـ وقاتل أهلها قتالا شديدا ولكنه لم يتمكن من فتحها؛ فهاذن أهلها وعقد معهم صلحا رواه البلاذري^(١) والكندي^(٢) وترجمه لينبول في كتابة تاريخ مصر في العصور الوسطى^(٣)؛ وهو أشبه بمعاهدة اقتصادية بين مصر وبلاد النوبة، اشترط فيها أن تمد مصر بلاد النوبة بالحبوب والعسل على أن ترسل بلاد النوبة إلى مصر الرقيق ..

ومما يدل على شدة القتال بين العرب وأهل النوبة (الأساود) هذا البيت :

لم تر عيني مثل يوم دِمْقُلَة * والخيل تعدو بالدروع مُثْقَلَة

وفي سنة ٣١ هـ نشب القتال بين ابن أبي سرح وبين الروم تحت قيادة ملكهم قسطنطين في البحر الأبيض المتوسط على مقربة من الإسكندرية، وكان النصر للعرب في هذه الحرب. وقد عرفت هذه الموقعة بموقعة السَّوَارَى أو ذات السوارى لكثرة سوارى السفن التي اشتركت في المعركة؛ حتى قيل إنه اشترك فيها ألف سفينة منها مائتان للمسلمين. وقد ساعدت السفن التي استولى عليها العرب في هذه الموقعة على إنشاء أسطول مصرى كان له أثر يذكر في المواقع البحرية التي دارت بين المسلمين والبيزنطيين في أيام الأمويين^(٤)

موقعة السوارى

الفتنة التي أدت إلى قتل عثمان :

كان عثمان في السبعين من عمره حين آلت الخلافة إليه. وكان سهلا

لين عثمان وسهولته

(١) فتوح البلدان ص ٢٤٥ — ٢٤٦

(٢) كتاب الولاة ص ١٢ — ١٣

(٣) Stanley Lane—Poole, History of Egypt in the Middle Ages, pp. 21 — 22.

(٤) أنظر كتاب « الفاطميون في مصر » للؤلاف ص ٢٨، الطبري ج ٥ ص ٧٠-٧١ .

لينا ؛ فلم يكن له حزم أبى بكر وعمر . تلك الصفة التى كان لابد منها لإدارة دولة مترامية الأطراف كالدولة الإسلامية فى ذلك العهد ، وبخاصة فى دور انتقال العرب من معيشة البساطة والزهد إلى معيشة الغنى والاستمتاع بالأموال المتدفقة من البلاد المفتوحة .

ترحيب الناس
بخلافة عثمان

ولقد استروح المسلمون واغتبطوا بخلافة عثمان لما وجدوا فيه من لين وتيسير بعد شدة عمر وتضييقه ؛ فقد سمح لكبار الصحابة بالخروج إلى الأقاليم وامتلاك الضياع فيها ، وترك للأغنياء أمر الزكاة يدفعونها كما يشاءون . كما بدأت الثروات التى تدفقت على المدينة ومكة تفعل فعلها فى نفوس العرب فتغريهم بالاستمتاع بها استمتاعا دفع بعضهم إلى حياة البذخ والترف ؛ فانتشر فى المدينة بعض أنواع من اللهو^(١) فاضطر عثمان إلى الضرب على أيدي أصحابها وكبح جماحهم ونفى بعضهم عن المدينة فتذمروا^(٢) ، وتذمر ذووهم وذوو فريق من

بوادى الاستيلاء فى
أهل المدينة

(١) قال الطبرى ج ٥ ص ١٣٤ : أول منكر ظهر بالمدينة حين فاضت الدنيا (أى كثرت الأموال) وانتهى وسع الناس (أى بلغوا من الثروة والترف الغاية) طيران الحمام (أى تطيره) والرمى على الجلاهقات (جمع جلا هو وهو البندق الذى يرمى به الطير) فاستعمل عايبا عثمان رجلا من بنى ليث سنة ثمان (من خلافته) فقصا (أى قص الحمام) وكسر الجلاهقات .

(٢) روى الطبرى ج ٥ ص ١٣٧ أن عثمان لما عاقب كعب بن ذى الجبنة على لهوه ، غضب ونفر فى الذين نفروا فضرب معهم ثم نفى إلى الشام ، فقال فى ذلك :

لعمري لئن طردتني ما الى التي . طمعت بها من سقطى لسيل

وان اغترابى فى البلاد وجفوتى . وشتى فى ذات الاله قليل

وان دعائى كل يوم وإيلة . عليك بدنيا وندكم أطويل

ولما عاقب ضابى بن الحارث البرجمي بالحبس وظل فيه حتى مات عثمان ، خرج ضابى وهو يقول :

هممت ولم أفعل وكدت وليبقى . تركت على عثمان تبكى حلاله

وقد ذكر الطبرى أيضا أن نفرا اجتمعوا بالكوفة وفيهم الأشتر وزيد بن صوحان وكعب ابن ذى الجبنة وأبو زينب وأبو مروع ... فقالوا : والله لا نرفع رأسا مادام عثمان على الناس . فقال عمير بن ضابى وكميل بن زياد نحن نقتله . فأما عمير فقد رجع عن عزمه ، وأما كميل فانه

الصحابة كعبد الله بن مسعود وأبي ذر وعمار بن ياسر فقد روى السيوطي (١) أن بني هذيل وبني زهرة حنقوا على عثمان لهناة (إساءة) كانت منه إلى صاحبهم عبد الله بن مسعود ، وكذلك غضب بنو غفار وأحلافها لأبي ذر الغفاري، وبني مخزوم الذين حنقوا على عثمان لما صنع بعمّار بن ياسر .

مظاهرة والدعاية
ضد عثمان

ومن ثمّ لا نعجب إذا رأينا هؤلاء يسارعون إلى إجابة دُعاة الثورة على عثمان في الأقاليم . وكان ذوو قريابهم في المدينة وما حولها أول من استاء من سياسة عثمان ؛ كما كانوا أكثر الناس مجاهرة بالتبرم من أعماله ونقدا لسياسته مما اضطر عثمان - وهو صحابي جليل وخليفة المسلمين - إلى تبريرها (٢) أمام جمهور المسلمين . فكان تبريره لبعضها كافيا لبيان صحتها وإخلائه من المسؤولية . ولكن الدعاية السيئة ضده كثيراً ما كانت تتغلب على حججه وأدلته ، وكان تبريره للبعض الآخر ضعيف الحجة (٣) لم يقنع شيوخ الصحابة ولم يخله من لومهم واعتراضهم عليه .

صدى هذه الدعاية
وأثرها

جسر وحاول قتل عثمان لولا أن عثمان لكه ... الخ . وقال مالك بن عبد الله في عثمان وكان من المسييرين :

مضت لابن أروى في كبل ظلامه . عفاها له والمستفيد يلام
ولو علم الفاروق ما أنت صانع . نهي عنك نبياً ليس فيه كلام
(أروى اسم أم عثمان . والفاروق لقب عمر بن الخطاب)

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٠٦

(٢) كان مما عابوه على عثمان أنه حصى الخصى فأجابهم عنه بأن عمر قد اتخذ من قبله ولم يفعل هو إلا أن وسع هذا الخصى لما زادت أبل الصدقة .

وامتنع بعض المسلمين الذين يملكون أرضاً بجوار المسجد النبوي عن تسليمها إليه لوسع بها المسجد ، فأخذها عنوة وقال : قد فعل ذلك عمر من قبلى .

(٣) قال عثمان حينما سئل عن بذخه وترفه وأكله ألين الطعام وشده أسنانه بالذهب ومقارنته ذلك بما كان يصنع عمر : يرحم الله عمر ومن يطيق ما كان عمر يطيق ، وقوله عن الأموال التي كان ينفقها على نفسه والأعوان من أهله وأقربائه على حين كان عمر يستغنى من بيت المال بالكفاف : كان هذا حقاً لعمر وقد تركه وتبرع به للمسلمين وليس على من لا يتبرع بشئ من حقه لوم ولا تثريب . وكذلك كل موقفه من الولاة الذين عينهم من أقربائه ، فاستغاث منهم رعيته فلم يرد عنهم ولم يكفهم .

وقد ذكر الطبرى والدينورى والسيوطى وغيرهم عدة أشياء استحدثها ماخذ على عثمان عثمان فى الدين ، ولم يسبق بها فى عهد الرسول ولا فى عهد أبى بكر وعمر . فهو أول من أقطع القطائع ، وأول من حمى الحمى ، وأول من خفض صوته بالتكبير ، وأول من أمر بالأذان الأول يوم الجمعة ، وأول من قدم الخطبة فى العيد على الصلاة ، وأول من فتوّض إلى الناس إخراج زكاتهم

كان هذا فى داخل المدينة وهى حاضرة الدولة وقلبها النابض ؛ أما فى الولايات فقد وُجد إلى جانب هؤلاء المنفيين المتذمرين من عثمان الحائقين عليه طبقتان من الشعب هما : طبقة الأرستقراطيين أصحاب الثروات الضخمة ، وطبقة المقاتلين المتبرمين من فقرهم وحرمانهم . أوجد الطبقة الأولى عثمان ؛ فقد أباح لأعلام قريش - كما أسلفنا - أن يتملكوا الضياع ويشيدوا القصور فى الولايات الاسلامية المفتوحة الارستقراطية القرشية كالعراق والشام ومصر ، كما سمح لهم أن يستبدلوا بأملا كههم فى الحجاز أملا كما فى تلك الأمصار (١) .

وقد تصدّى المسعودى لذكر نفر من هؤلاء الصحابة الذين رحلوا إلى الولايات واستقروا بها فقال : « وفى أيام عثمان اقتنى جماعة من أصحابه

(١) قال الطبرى (ج ٥ ص ١٣٤) : « كان عمر بن الخطاب قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج فى البلدان الا باذن وأجل . فشكوه فبلغه فقام فقال : ألا اتى قد سنت الاسلام من البعير يبدأ فيكون جذعا ، ثم ثنيا ، ثم رباعيا ، ثم سديسا ، ثم بازلا (الجذع من الابل ما كان فى السنة الخامسة ، والثنى ما كان فى السادسة ، والرابعى (منقوص على وزن ثمانى) من الابل ما كان فى السابعة ، والسديس ما كان فى الثامنة ، والبازل ما كان فى التاسعة) . ألاهل ينتظر بالبازل الا النقصان ؟ ألا فان الاسلام قد بزل ، ألا وان قريشا يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده . ألا فاما وابن الخطاب فلا . اتى قائم دون شعب الحرة أخذ بحلّاقم قريش وحجزها أن يتهاقوا فى النار . فلماولى عثمان الخلافة لم يأخذهم بالذى كان يأخذهم به عمر ، فانساحوا فى البلاد فلما رأوها ورأوا الدنيا ورأهم الناس ، انقطع من لم يكن له طول ولا مزية فى الاسلام . فكان مغموما فى الناس وصاروا أوزاعا اليهم وأملوهم وتقدموا فى ذلك . فقالوا يملكون فنسكون قد عرفناهم وتقدمنا فى التقرب والانقطاع اليهم ، فكان ذلك أول وهن على الاسلام وأول فتنة كانت فى العامة ليس الا ذلك .

الضياع والدور . منهم الزبير بن العوام . بنى داره بالبصرة وهى المعروفة
فى هذا الوقت - وهو ستة اثنى عشر وثلاثين وثلاثمائة - تنزلها التجار وأرباب
الأموال وأصحاب الجهات من البحرين وغيرهم ، وابتقى أيضا دوراً
بمصر والكوفة والاسكندرية . وما ذكر من دوره وضياعه فمعلوم
غير مجهول الى هذه الغاية . وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين ألف
دينار ؛ وخلف الزبير ألف فرس وألف عبد وألف أمة ، وخططا
بحيث ذكرنا من الأمصار .

« وكذلك طلحة بن عبيد الله التيمى ابنتى داره بالكوفة المشهورة
به هذا الوقت المعروفة بالكناس^(١) بدار الطلحين . وكانت غلته من
العراق كل يوم ألف دينار . وقيل أكثر من ذلك . وبناحية سراة^(٢)
أكثر مما ذكرنا . وشيد داره بالمدينة وبنائها بالآجر والجص والساج
« وكذلك عبد الرحمن الزهرى ابنتى داره ووسعها . وكان على
مربطه مائة فرس ، وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم . وبلغ بعد
وفاته ربع ثمن ماله أربعة وثمانون ألفا .

« وابتقى سعد داره بالعقيق فرفع سمكها ووسع فضاءها وجعل
أعلاها شرفات

« وقد ذكر سعيد بن المسيب أن زيد بن ثابت حين مات خلف
من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلف من الأموال
والضياع بقيمة مائة ألف دينار .

(١) بكسر أوله موضع من بلاد غنى . عن أبى عبيد قال جرير :

لمرت الديار كأنها لم تحل . بين الكناس وبين طلع الأعزل

والكناسة بالضم هى محلة بالكوفة قتل فيها زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على .

(٢) السراة سلسلة جبال تمتد من عرفة (قرب مكة) الى صنعاء فى الجنوب . يسكنها قوم

من الازد يقال لهم ازد السراة . وهى جبال التوائية تتخللها أخاديد وتنتب فيها الكروم وقصب
السكر والقرظ .

«وابتني المقداد داره بالمدينة في الموضع المعروف بالجرف ، وجعل أعلاها شرفات ، وجعلها بمحصة الظاهر والباطن

»ومات يعلى بن أمية وخلف خمسمائة ألف دينار وديونا على الناس وعقارات وغير ذلك من التركة ما قيمته مائة ألف دينار .

ثم يقول المسعودي : وهذا باب يتسع ذكره ويكثر وصفه فيمن تملك من الأموال في أيامه (عثمان) . ولم يكن من ذلك في عصر عمر ابن الخطاب ، بل كانت جادة واضحة وطريقة بينة . (١)

وفي ذلك يقول الطبري (٢) : ففي مدينة الكوفة جمعت الأسرات البارزة مبالغ ضخمة مما كانت تدره عليهم الغنائم والأعطيات السنوية ، حتى ان كوفيا رحل الى الحرب ومعه أكثر من ألف جمل لحمل حاشيته ومتاعه

أول وهن دخل الاسلام خرج هؤلاء السادة من المهاجرين والأنصار الى تلك الأقاليم النائية عن الحجاز وأنشأوا لأنفسهم أرستقراطية دينية سداها المال ولحمتها السبق في الاسلام وصحبة الرسول . وإنا لنستطيع من تلك الثروات — التي وصف لنا المسعودي بعضها — أن نتصور عدد من يحيطون بهذه الشخصيات الغنية ذات الزعامة الدينية ويلتفون حولهم معجبين بأخلاقهم ومحامدهم ، مأخوذين بأحاديثهم عن مواقفهم المجيدة وحسن بلائهم في نصرة النبي على أعدائه المشركين ، ومفتونين بما يفيضه عليهم هؤلاء الأغنياء من هبات وأعطيات ، حتى أصبح كل فريق منهم يتمنى أن تصير الخلافة في يد صاحبه

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ١ ص ٤٣٤

(٢) طبعة دى غويه ٢ : ٨٠٦

ومن بين هؤلاء الاشياء والاتباع نفر كان يتمنى أن يلى الخلافة صاحبهم لتكون لهم الخطوة عنده ، فتعظم مكانتهم ويعلو مقامهم . (١) وان اختلاف الوفود - التى أتت من الولايات الاسلامية لخلع عثمان - على من توليه خلفا له - حتى قال أهل البصرة نولى الزبير وقال أهل الكوفة نولى طلحة . . . الخ - أكبر دليل على صحة هذا القول .

تذمر المقاتلة

كما وجد إلى جانب هذه الطبقة طبقة أخرى فقيرة معدمة أنشأها عمال عثمان باستئثارهم بالفيء والغنائم لأنفسهم وخزائن دولتهم وحرمان المقاتلة منها مدعين أن الفيء لله وليس للمحارب إلا أجر قليل يدفع إليه . فلما رأى هؤلاء المحاربون - وُجِدَ منهم من البدو - هذه الثروات الضخمة والأموال الكثيرة يستأثر بها الحكام والقواد من قريش ، ورأوا أنفسهم قد خرجوا من الصحراء يطلبون الغنى والمجد فى ظلال السيوف فاحتكرتهما قريش لنفسها وحرمتهم حتى من الأسلاب التى كانت تُعطى للمحارب فى عهد الرسول ثم فى عهد أبى بكر وعمر ، حقدوا على قريش واعتبروها مغتصبة لحقوقهم ، وتمنوا الخلاص من سيادتها وحكومتها . لذلك لانعجب إذا أعلن المقاتلة من العرب بأن أموال الفيء والغنائم إنما هى لهم وليست للحكومة ، وأن المال مال المسلمين وليس مال الله .

حقدهم على سيادة قريش

(١) روى الطبرى ج ٥ ص ١٣٤ عن محمد وطلحة قالا . . . فلما ولي عثمان لم يأخذ الناس بالذى كان يأخذهم به عمر ، فانساحوا فى البلاد ، فلما رأوها ورأوا الدنيا ورأهم الناس انقطع من لم يكن له طول ولا مزية فى الاسلام ، فكان مغموما وصاروا أوزاعاً اليهم وأملوهم وتقدهوا فى ذلك (أى واندفعوا فى هذا التأميل وبالغوا فيه) فقالوا : يملكون (أى أنهم تمنوا أن يملك صاحبهم ولى الخلافة) فنكون قد عرفناهم وتقدمنا فى التقرب والانقطاع اليهم . فكان ذلك أول وهن دخل على الاسلام وأول فتنة كانت فى العامة . وفى رواية أخرى للطبرى عن محمد وطلحة أيضا قالا : لم تمض سنة من اماره عثمان حتى اتخذ رجال من قريش أموالا فى الأمصار واقطع اليهم الناس وثبتوا سبع سنين ، كل قوم يحبون أن يلى صاحبهم . فاستطالوا عمر عثمان

من هذا كله يتبين أن حال الدولة الإسلامية قد تغيرت تماما في عهد عثمان ، وأن هذا التغير قد أثار روح المعارضة لسياسة الحكومة والاستياء من تصرفاتها وبعث على التمرد عليها في المدينة وفي جميع الأمصار . فكان هذا الجو ملائما تمام الملازمة ومهيئاً لقبول دعوة عبد الله بن سبأ ومن لف لفه والتأثر بها الى أبعد حد .

وقد أذكرى نيران هذه الثورة صحابي قديم اشتهر بالورع والتقوى - وكان من كبار أئمة الحديث - وهو أبو ذر الغفاري ^(١) الذي تحدى سياسة عثمان ومعاوية واليه على الشام بتحريض رجل من أهل صنعاء هو عبد الله ابن سبأ ، وكان يهوديا فأسلم ، ثم أخذ ينتقل في البلاد الإسلامية ؛ فبدأ بالحجاز ثم البصرة فالكوفة والشام ومصر .

وقد وفد ابن سبأ إلى الشام وحرّض أبا ذر على معاوية وقال له : يا أبا ذر ! ألا تعجب الى معاوية يقول المال مال الله ؟ ألا إن كل شيء لله . كأنه يريد أن يحتجنه ^(٢) دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين ^(٣) ، (أى من ديوان العطاء) .

لهذا لا نعجب إذا رأينا أبا ذر يعلن استيائه من سياسة معاوية ، ويحض الأغنياء على الرحمة بالفقراء وعلى الاقلاع عن ادخار الأموال وكنزها ، محتجا بقوله تعالى (وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ، يَوْمَ يُخْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فُتْكُوعَىٰ فِيهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ لَا تُفْسِكُمْ ، فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ) ^(٤) كما لا نعجب أيضا إذا ألفينا الفقراء يلتفون حوله ويسئثون الى الأغنياء

(١) كان أبو ذر من أهل الصفقة (انظر ص ١٢٨) ولا يبعد أن يكون لهذا أثر في

ميوله الاشتراكية (٢) احتجن المال أى ضمه واحتواه

(٣) الطبرى (١ : ٢٨٥٩) (٤) سورة التوبة ٩ : ٢٤

حتى شكوا ذلك الى معاوية . فلما رفع معاوية الأمر إلى عثمان ، أيقن أن الفتنة قد أخرجت خطمها ^(١) وعينها .

وقد بعث عثمان في طلب أبي ذر الذي آلى على نفسه أن يواصل حملاته على هذه السياسة . وكان أبا ذر قد تنبأ بتلك الثورة التي ذهب عثمان ضحيتها ^(٢) . ولما دخل المدينة ووجد المجتمعات تعقد بها للتأمر على عثمان ، نادى في المجتمعين : « بَشْرُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ بَغَارَةٌ شَعَوَاءَ وَحَرْبٌ مَذْكَارٌ » .

تسير أبي ذر إلى
المدينة

وقد أذن عثمان لأبي ذر بالاقامة في الرَبَذَةِ ؛ وهي قرية صغيرة على مقربة من المدينة — أو نفاه إليها على ما ذهب إليه ابن هشام ^(٣) والخوارزمي ^(٤) . ولكنه واصل حملاته العنيفة على سياسة عثمان إلى أن مات سنة ٣١ هـ وهو كاره لها .

نفيه إلى الرَبَذَةِ

(١) الخطم معناه مقدم الانف والقم من الدابة ، والمراد هنا بدأت أوائل الفتنة

(٢) الطبري (١ : ٢٨٥٩)

(٣) سيرة ابن هشام (طبعة أوربا) ٢ : ٩٧١

(٤) رسائل الخوارزمي ص ١٣١ ، ومروج الذهب للمسعودي ج ١ ص ٤٣٨

ذكر المسعودي (مروج الذهب ج ١ ص ٤٣٩) أن علي بن أبي طالب « مضى مع أبي ذر فشيعة ثم ودعه وانصرف . فلما أراد علي الانصراف بكى أبو ذر وقال : رحمكم الله أهل البيت . إذا رأيته يا أبا الحسن وولدك ذكرت بكم رسول الله صلى الله عليه وسلم . فشكا مروان إلى عثمان ما فعل به علي بن أبي طالب . فقال عثمان : يا معشر المسلمين ! من يعذرنى من علي ؟ رد رسولى عما وجهته له ، وفعل كذا وكذا . والله لتعطينه حقه . فلما رجع على استقبله الناس ، فقالوا ان أمير المؤمنين عليك غضبان لتشيعك أبا ذر . فقال علي : غضب الخيل على اللجم ، ثم جاء . فلما كان بالعشي جاء إلى عثمان فقال له : ما حملك على ما صنعت بمروان واجترأت على ورددت رسولى وأمرى ؟ قال :

أما مروان فإنه استقبلنى يردنى فرددته عن ردى ، وأما أمرك فلم أرد . قال عثمان : أو لم يبلغك أنى قد نهيت الناس عن أبي ذر وعن تشييعه ؟ فقال علي : أو كل ما أمرتنا به من شيء يرى طاعة لله والحق في خلافه اتبعنا فيه أمرك ؟ بالله لا نفعل . قال عثمان : أفد مروان ؟ قال : وما أفده ! قال : ضربت بين أذنى راحلته . قال علي : أما راحلتى فهى تلك فإن أراد أن يضربها كما ضربت راحلته فليفعل . وأما أنا فوالله إن شئنى لاشتمتك أنت مثلاً

هذا ، ولقد وجد ابن سبأ - وهو أول من حرض الناس على كره عثمان - الطريق ممهدة أمامه لخلعه . ولسنا نشك في حسن نية أبي ذر ، وما كان من أمر استيائه من عثمان ومن سياسته . فقد كان مصدر استيائه ما كان يعتقده في عثمان من هوادة في الدين وتهاون في أحكامه ، بخلاف ما كان عليه ابن سبأ .

مطاردة الولاة
لابن سبأ

وقد صادفت دعوة ابن سبأ في البصرة مرعى خصيباً ؛ بيد أن عبد الله بن عامر وإلى عثمان طرده من هذه البلاد ، فرحل إلى الكوفة ، حيث ^(١) تفاقم استياء الناس من عثمان وواليه ، ومن قريش الذين استولوا على أرض السواد ^(٢) . واتخذوه بستاناً لهم ، وواصل الثأرون الاجتماعات في منازلهم ، ولعن عثمان جهاراً ، وخاض الناس فيما ارتكب من عظام الأمور ^(٣) .

بما لا أكذب فيه ولا أقول إلا حقاً . قال عثمان : ولم لا يشتكم اذا شتمت ؟ فوالله ما أنت عندى بأفضل منه . فغضب علي بن أبي طالب وقال : ألا تقول هذا القول وبمروان تعدلني ؟ فأنا والله أفضل منك ، وأنى أفضل من أيك ، وأنى أفضل من أمك ، وهذه نبلي قد تثلثنا ، وهم فأقبل بنبلك . فغضب عثمان وأحمر وجهه ، فقام ودخل داره ، وانصرف على فاجتمع إليه أهل بيته ورجال من المهاجرين والانصار . فلما كان من الغد ، واجتمع الناس إلى عثمان ، شكوا اليهم علياً وقال انه يعيبني ويظاھر من يميني - يريد بذلك أباذر وعمار بن ياسر وغيرهما - فدخل الناس بينهما ، وقال له علي : والله ما أردت تشيع أبي ذر إلا لله .

(١) (الطبري ١ : ٢٩٢٢) يقول هذا المؤرخ إن هذا كان بعد ولاية ابن عامر بثلاث سنين وان توليته كانت سنة ٢٩ هـ (١ : ٢٨٢١) ، وعلى ذلك يكون إبعاد ابن سبأ سنة ٣٢ هـ (١ : ٢٩٢٢) .

(٢) موضعان أحدهما نواحي البلقاء ، سميت السواد لسواد حجارتهما والثاني يراد به رستاق العراق وضياعها التي اقتتها المسلمون في عهد عمر بن الخطاب . سمي بذلك لسواده بالزروع والذخيل والأشجار ، لانه حين تآخم جزيرة العرب إلى الاروع فيها ولا شجر ، كانوا اذا خرجوا من أرضهم ظهرت لهم خضرة الزرع والأشجار فيسمونه سواداً كما اذا رأيت شيئاً من بعد قلت ما ذلك السواد ؟ وهم يسمون الأخضر سواداً والسواد أخضر - أنظر هذا اللفظ في معجم البلدان لياقوت .

(٣) الطبري (١ : ٢٩١٦) وما يتبعها من الحوادث سنة ٣٢ هـ .

ثم طرد ابن سبأ من الكوفة أيضاً؛ فقصده الشام، فلم يلق من أهلها ما لقي في البصرة والكوفة، فرحل إلى مصر حيث أخذ ينشر دعوته التي ألبسها لباس الدين. واتصل بالثائرين في البصرة والكوفة، وتبادل معهم الكتب والرسائل^(١)؛ وبعث الدعاة إلى هذه البلاد يدعون لعلّهم؛ واستطاع أن يؤثر في نفوس الناس: فوضع مذهب الرجعة أي رجعة محمد، ثم نشر مذهب الوصاية، بمعنى أن علياً وصي محمد، وأنه خاتم الأوصياء بعد محمد خاتم النبيين. واتهم أبا بكر وعمر وعثمان بالتعدي على حق علي في الخلافة. كما روج بين المسلمين نظرية الحق الإلهي التي أخذها عن الفرس الذين احتلوا قبل الإسلام بلاد اليمن موطنه الأصلي؛ بمعنى أن علياً هو الخليفة بعد النبي، وأنه يستمد الحكم من الله. وبذلك هيا ابن سبأ العقول إلى الاعتقاد بأن عثمان اغتصب الخلافة من علي وصي رسول الله. وأخذ يؤايب الناس على عثمان وعلي ولاته؛ فقال لهم «إن عثمان أخذ الخلافة بغير حق. وهذا علي وصي رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فانهضوا في هذا الأمر فخرته كوه، وابدءوا بالطعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم إلى هذا الأمر (٢)».

ابن سبأ في مصر

تطور دعوته

وقد سهل على ابن سبأ تنفيذ سياسته في مصر اشتداد سخط أهلها على عثمان وعلي عبد الله بن سعد بن أبي سرح عامله على مصر ومن ذوى قرباه. كما ساعد انضمام محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر على إذكاء نيران السخط في مصر ونجاح ابن سبأ في سياسته.

نجاح الدعوة في مصر

ويرجع سبب انضمام محمد بن أبي بكر إلى ما كان من صلة النسب بينه وبين علي بن أبي طالب وابنه الحسين بن علي؛ فقد تزوج علي

محمد بن أبي بكر

(١) الطبري (١: ٢٩٢٢)

(٢) الطبري (١: ٢٩٤٢)

بأسما بنت عُمَيْس أم محمد بن أبي بكر بعد وفاة أبيه ، فكان ابن أبي بكر ربيبا في بيت علي ؛ ولأن الحسين بن علي ومحمد بن أبي بكر كانا زوجين لا يفتي يزدجرد الثالث آخر ملوك بني ساسان من الفرس ، ولأن كتاب مروان بن الحكم قد كتب الى ابن أبي سرح بقتل محمد بن أبي بكر والمثلة به وبمن معه من المهاجرين والأنصار .

ابن أبي حذيفة

وأما مسلك ابن أبي حذيفة العدائي لعثمان فقد ظهر أثره فيما شجر بينه وبين ابن أبي سرح في غزوة السَّواري التي نشبت بين المسلمين والبيزنطيين سنة ٣١ هـ على ما تقدم (١) .

ولما وضعت الحرب أوزارها ، رجع هو ومحمد بن أبي بكر إلى الفسطاط حيث انضموا إلى ابن سبأ (٢) . وقد ذكر المقرئ السبب الذي حدا بابن أبي حذيفة أن يسلك هذا المسلك العدائي نحو عثمان فقال : إن ابن أبي حذيفة تربى في كنف عثمان بعد وفاة أبيه ؛ فلما ولي عثمان الخلافة ، طلب إليه أن يولي بعض أمور المسلمين ؛ فأبى ذلك عليه ، إذ نمي إليه أنه شرب الخمر ، فقال له : « لو كنت رِضاً لوليتك ، ولكنت لست هناك » . (٣)

رسل عثمان الى
الأمصار

وقد أصبحت الحالة في البصرة والكوفة ومصر من الحرج بحيث اضطرت عثمان إلى ندب أربعة من رجاله ليبحثوا عن أسباب هذه القلاقل ويقفوا على حقيقة الحال في الولايات الإسلامية ، فأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة . وأسامة بن زيد إلى البصرة ، وعبد الله

(١) اختلف محمد بن أبي حذيفة مع عبد الله بن سعد بن أبي سرح على التكبير في الصلاة حين صلى ابن أبي سرح العصر بالناس ، فرفع ابن أبي حذيفة صوته بالتكبير ، فنهأ ابن أبي سرح فلم يفته ، ولما أقيمت صلاة المغرب رفع صوته بالتكبير ثانية ، فنهأ ابن أبي سرح وهم بطرده من جيشه . ومن ثم أخذ ابن أبي حذيفة في إثارة الناس على عثمان وعلى ولاته .

(٢) الطبري ج ٥ ص ٧٠ - ٧١ ، ١٣٥ .

(٣) المقفى الكبير للمقرئ ، مكتبة الجامعة بليدن ، مخطوط ١٣٦٦ ، المجلد الاول ،

ابن عمر إلى الشام ، وعمار بن ياسر إلى مصر ، وهو أحد أصحاب رسول الله ومن السابقين إلى الاسلام .

وقد عاد هؤلاء إلى الخليفة إلا عمار بن ياسر ؛ فقد استماله الثأرون في مصر (١) . وساعد على ذلك ما كان بين عثمان وعمار حيث أدبه لقذف حصل بينه وبين عباس بن عتبة بن أبي لهب . وبين لنا انضمام صحابي كبير كعمار إلى أصحاب هذه الدعوة مبلغ السخط الذي أثارته سياسة الضعف واللين التي سار عليها عثمان بن عفان .

تحقيق ابن سبأ
برناجه التهديد

حقق ابن سبأ ما كان يرمى إليه من تأليب الولايات الاسلامية على عثمان وولاته وقد بلغت دعوته الغاية منها . وليس أدل على صحة هذا القول من انضمام كثيرين من أصحاب النفوذ والجاه إلى صفوفه من أمثال محمد بن أبي حذيفة ، ومحمد بن أبي بكر ، وعمار بن ياسر .

دور العمل

ولا غرو فقد قام ابن أبي حذيفة بتنفيذ الخطة التي رسمها ابن سبأ . فكتب أهل مصر أشياعهم من أهل البصرة والكوفة واتفقوا على الشخوص إلى المدينة (٢) ؛ وهو ما يمكن تسميته بدور العمل . وخرج كل منهم في ستمائة رجل ، وتوافوا خارج المدينة حيث اختلفوا فيمن يولونه الخلافة بعد عثمان ، فقال أهل البصرة إلى الزبير ، وأهل الكوفة إلى طلحة ، ورغب أهل مصر — وعلى رأسهم ابن سبأ — في علي بن أبي طالب ؛ وعمل كل فريق على أن يتم الأمر له ولمن وقع اختياره عليه دون غيره (٣) .

جهود عثمان لتلافي
الانفجار

وقد أجاب عثمان وفد مصر إلى مطالبه ، ففَقَلَ راجعا . وبيناهم في الطريق رأوا راكبا يتعرض لهم تارة ويفارقهم أخرى ؛ ففَقَشَوْه

(١) الطبري ١ : ٢٩٤٣ و ٢٩٤٤ .

(٢) الطبري (١ : ٢٩٥٠) .

(٣) الطبري ١ : ٢٩٥٥ .

فإذا هو يحمل كتابا عن لسان عثمان وعليه خاتمه إلى عامله على مصر يأمره فيه أن يستأصل شأفة هذا النفر قتلا وتصليبا ؛ فعادوا إلى المدينة ودخلوا على عثمان ؛ فأغلظ الأيمان على أنه ما كتب ولا أمر بكتابة هذا الكتاب ولا علم له به . فطلبوا إليه أن يسلم اليهم مروان بن الحكم ؛ إذ قام عندهم الدليل على أنه هو الذى بعث بهذا الكتاب ، فأبى عثمان . فحاصروه اثنى عشر يوما ؛ فقام فريق من الصحابة يدافعون عنه ، فنشدهم الله أن يكفوا حتى لا يندلع لسان الفتنة ويتفاقم خطرهما .

ولما وجد الثوار أن موسم الحج قد انتهى ، وأن المدد الذى طلبه عثمان من الولايات الاسلامية أوشك أن يباغتهم ، جدوا فى أمرهم واقتحموا عليه الدار بعد أن دار القتال بينهم وبين من تصدى للدفاع عنه كـ محمد بن أبى بكر والحسن والحسين ابنى على وعبد الله بن الزبير (١) . وقد قتله الغافقى بجديدة كانت معه ؛ وجاء غيره ليضربه بسيفه فأكبت عليه زوجته نائلة وتلقت السيف عنه بيدها ؛ فقطع إصبعها . ثم ضربوا عنقه وانتهبوا بيته وبيت المال (٢) . وكان ذلك فى الثامن عشر من ذى الحجة سنة ٣٥ هـ (٦٥٥ م) . وتولى على بن أبى طالب الخلافة (فى الخامس والعشرين من هذا الشهر ؛ فكان ذلك أول فصول هذه المأساة وما أعقبها من تحزب العرب أحزابا ، مما أضعف الاسلام وزاد كلمة المسلمين تفريقا .

(١) روى النووى (ج ١ ص ٤٢٤) أن عثمان لما حوضر اشرف على المنابر وقال لهم : أنشدكم بالله ولا أنشدوا إلا بحسب النبى صلى الله عليه وسلم . ألسنتم تعلمون أن رسول الله قال : من جهز جيش العسرة فله الجنة فجزته ؟ ألسنتم تعلمون أن رسول الله قال : من حفر بئر رومة فله الجنة فحفرتها ؟

(٢) الاصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ج ٤ ص ٢٢٤ .

كان عثمان فى الثمانين من عمره على ما ذكره ابن حجر وفى الثمانية والثمانين أو التسعين على ما ذكره النووى (تهذيب الاسماء واللغات ص ١ ج ١ ص ٢٢٢)

الطبرى ج ٥ ص ١٣٠ — ١٣٢ . العقد الفريد ج ٢ ص ٢١٦ . المسعودى : مروج

الذهب ج ١ ص ٣٠٦ — ٣٠٧

ويظهر لنا أن أهل المدينة قد تواكلوا في الدفاع عن عثمان ، إذ يبعد كل البعد أن يعجزوا عن نصرته وصد تلك الفئة الباغية ، وهم الذين مروا على الحروب وبرهنوا في مواقفهم مع رسول الله وأبي بكر وعمر عن شجاعة نادرة واستبسال في الدفاع لا يزال مضرب الأمثال . فلو أنهم نشطوا للدود عن عثمان لما تمكن الثوار مع قلة عددهم من قتله والاستبداد بالأمر والتحكم في المدينة ومن بها .

ولاشك أن كثيرا من علية القوم في المدينة قد نعموا على عثمان بإشاره بنى أمية على غيرهم من جلة الصحابة . فنفضوا أيديهم من تلك الفتنة لما بلغ الهياج أشده ولم يجد نصائحهم نفعا . فظلو يشاهدون تمثيل هذه الرواية المحزنة على بعد ، ظنا أن عثمان يخلع نفسه إذا اشتد عليه التضييق (١) وقد رمى الأستاذ نيكلسون (٢) عليا بالهواذة في نصره عثمان وقعوده دون حمايته . على أننا لا نستطيع أن نأخذ بهذا الرأي . فقد ذكر الطبري أن علياً كلم طلحة حين حصر عثمان في أن يدخل عليه الروايا وغضب لذلك غضباً شديداً حتى دخلت الروايا على عثمان (٣) . وقد روى ابن قتيبة أن عثمان خرج إلى المسجد فإذا هو بعلي وهو شاك معصوب الرأس فقال عثمان : والله يا أبا الحسن ما أدري . أشتهي موتك أم أشتهي حياتك . فوالله إن موتاً ما أحب أن أبقى بعدك لغيرك لأنني لا أجد منك خلفاً .

(١) لما استعرت نار الفتنة وتفاقم شرها استشار عثمان عمرو بن العاص فقال : ما ترى يا عمرو ؟ قال : أرى أنك قد لنت لهم وتراخيت عنهم وزدتهم على ما كان يصنع عمر . فأرى أن تلزم طريقة صاحبك ، فتشتد في موضع الشدة وتلين في موضع اللين . وإن الشدة تنبغى لمن لا يألو الناس شراً ، واللين لمن لا يخلف الناس بالنصح ، وقد فرشتهما جميعاً اللين . وقد أقبل عثمان على عمرو بن العاص يوماً فقال : ما رأيك (في الفتنة) ؟ قال : أرى أنك ركبت الناس بمثل بنى أمية ، فقلت وقالوا وزغت وزاغوا . فاعتدل أو اعتزل ، فإن أبيت فاعتزم عزماً وأمض قدماً . أنظر كتاب عمرو بن العاص للمؤلف ص ١٥٦ و ١٥٧ .

Lit. Hist. of the Arabs, p. 191

(٢)

(٣) الطبري ج ٥ ص ١١٣

وقال صاحب الفخرى ^(١) : « وما زال على عليه السلام من أكبر المساعدين لعثمان الذابين عنه . وما زال عثمان يلجأ اليه في دفع الناس عنه فيقوم عليه السلام في دفعهم عنه القيام المحمود . وفي آخر الأمر لما حوَّص عثمان أرسل اليه عليه السلام ابنه الحسن عليه السلام لنصرة عثمان رضي الله عنه . فقال إن الحسن عليه السلام استقتل مع عثمان . فكان عثمان يسأله أو يكف فيقسم عليه وهو يبذل نفسه في نصرته » .

وقد وصف الأستاذ نيكلسون ^(٢) أثر الفتنة التي أدت إلى قتل عثمان فقال : « لقد مزقت الحروب الأهلية التي تلت هذه الفتنة وحدة الاسلام شر ممزق ، ولم يندمل بعد الجرح الذي أحدثته هذه الحروب »

عثمان ونروين المصحف :

القرآن في عهد
الرسول

نزل القرآن مُنَجِّمًا ^(٣) في بضع وعشرين سنة . فكانت تنزل الآيات أو الآيات كلما دعت الحاجة . وكان بعض الصحابة يكتبون ما ينزل من الآيات من تلقاء أنفسهم أو بأمر الرسول على سعف النخل والرقاع وقطع الأديم وعظام ألواح الشاة والابل وأضلاعها وغيرها .

فلما انتقل الرسول الى جوار ربه وقامت حروب الردة وقتل فيها أكثر القراء من الصحابة ، وبخاصة في يوم اليمامة حيث قتل منهم زهاء سبعين ^(٤) ، هال هذا الأمرُ عمر بن الخطاب ، وكان مستشار أبي بكر وساعده الأيمن . فذهب الى أبي بكر وقال له : إن القتل قد كثر واستحرق بقراء القرآن يوم اليمامة . وإني أخشى أن يستحرق القتل بالقراء

(١) الفخرى في الآداب السلطانية ص ٩٤

(٢) Nicholson, Lit. Hist, of the Arabs, p. 190

(٣) يقال نجم المال تنجيما اذا أدام نجوما أى على أفساط

(٤) وقد قيل إنه قتل مثل هذا العمل في غزوة بدر معونة في عهد الرسول

فيذهب من القرآن كثير ، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن . فأمر أبو بكر زيد بن ثابت فجُمعهُ من الرقاع والعسب وصدور الرجال^(١) . وقد ضم أبو بكر الى زيد بن ثابت سالماً مولى أبي حذيفة ليعاونه في جمع القرآن على أن يقوم زيد بتدوينه .

وكان زيد بن ثابت شاباً عرف برجاحة العقل وحسن السيرة ، وكان يكتب الوحي للرسول . ولا ريب أن هذا العمل الجليل كان في حد ذاته مجهوداً شاقاً يتطلب الكثير من الأناة والصبر . وقد عبر زيد عن خطورة هذا العمل في هذه الكلمات التي تبين لنا كيف قام به وأتمه : « فوالله لو كلفوني ثقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ منه .. فتبعت القرآن أجمعه من العسب والمخاف ومن صدور الرجال » . وقال أبو بكر لعمر ولزيد : اقعدا على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على كتاب الله فاكتباه . قال صاحب تاريخ القرآن^(٢) : والأقرب الى الظن أن الشاهدين إنما كانا يشهدان بأن ما أتوا به كان مما عرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم عام وفاته العرصة الأخيرة^(٣) وكتب بين يديه . ولذلك قال زيد بن ثابت : حتى وجدت آخر سورة براءة (التوبة) مع أبي خزيمة بن ثابت لم أجدهما مع غيره^(٤) ولولا ذلك لما صحَّ معنى عدم وجدانهم هذه الآية لأن زيدا

(٢) ابن الأثير ج ٣ ص ٤٦

(١) أبو عبدالله الزنجاني : (تاريخ القرآن) طبع لجنة التأليف والترجمة سنة ١٩٣٥ ص ٤٢
(٢) جمع القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم في آخر سنة من حياته . ولكن لم يضم بعضه الى بعض : وإنما علمهم النبي ترتيب آياته والناسخ منها والمنسوخ . وقد عقد المؤلف وصلاً في كتابه تاريخ القرآن ذكر فيه من جمعوا القرآن على عهد النبي (وفيه ذكر محمد بن اسحق في الفهرست ان الجماع للقرآن على عهد النبي هم علي بن أبي طالب ، وسعد بن عبيد بن النعمان ، وأبو الدرداء عويمر بن زيد ، ومعاذ بن جبل بن أوس ، وأبو زيد ثابت بن زيد ، وأبي بن كعب بن قيس)
(٣) هاتان الآيتان هما (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم . فان تولوا فقل حسبى الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) سورة التوبة ٩ : ١٢٩ - ١٣٠

كان جمع قد القرآن وحفظه وأخذه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل قول أبي خزيمة ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم جعل شهادته شهادة رجلين .

وكان هذا الجمع عبارة عن جمع الآيات المكتوبة في الأكتاف والعُسْب واللِّخَاف ، ونسخها في الأديم وهو الجلد المدبوغ : قال ابن حجر في رواية عمادة بن غزية إن زيد بن ثابت قال : فأمرني أبو بكر فكتبته في قطع الأديم .

وقد حفظت هذه الصحف عند أبي بكر ثم عند عمر حتى مات ، أسباب تدوين القرآن في عهد عثمان
فحفظت عند ابنته حفصة بنت عمر . وقد لاحظ حذيفة بن اليمان قائد عثمان في غزو أذريجان اختلاف المسلمين في قراءة القرآن فأشار على عثمان بتدوين مصحف يقرؤه المسلمون . قال ابن الأثير : « فلما عاد حذيفة قال لسعيد بن العاص : لقد رأيت في سفرتي هذه أمرا . لئن ترك الناس ليختلفن في القرآن ثم لا يقومون عليه أبدا . قال : وما ذاك ؟ قال : رأيت أناسا من أهل حمص يزعمون أن قراءتهم خير من قراءة غيرهم ، وأنهم أخذوا القرآن عن المقداد (بن الأسود) ، ورأيت أهل دمشق يقولون إن قراءتهم خير من قراءة غيرهم ، ورأيت أهل الكوفة يقولون مثل ذلك ، وأنهم قرءوا على ابن مسعود ، وأهل البصرة يقولون مثل ذلك وأنهم قرءوا على أبي موسى ويسمون مصحفه « لباب القلوب » . فلما وصلوا إلى الكوفة أخبر حذيفة الناس بذلك وحذرهم ما يخاف ، فوافقه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكثير من التابعين ، وقال له أصحاب ابن مسعود : ما تنكر ؟ ألسنا نقرؤه على قراءة ابن مسعود ؟ فغضب حذيفة ومن وافقه ، وقالوا : إنما أنتم أعراب ، فاسكتوا فانكم على خطأ . وقال حذيفة : والله لئن عشت لآتين أمير المؤمنين ولاشيرن عليه أن يحول بين الناس وبين ذلك . فأغلظ له ابن مسعود ، فغضب سعيد وقام ، وتفرق الناس ، وغضب حذيفة وسار إلى عثمان فأخبره .

«بالذى رأى وقال : أنا النذير العريان فأدركوا الأمة . فجمع عثمان
والصحابه وأخبرهم الخبر فأعظموه ورأوا جميعا ما رأى حذيفة ، فأرسل
عثمان الى حفصة بنت عمر أن ارسلى إلينا بالصحف ننسخها . وكانت
هذه الصحف هي التي كتبت في أيام أبى بكر .»

جمع القرآن في مصحف
واحد

فلا عجب إذا لاقت هذه الفكرة قبولا في نفس عثمان ، فعول
على نسخ المصحف تلافيا لما قد يجر اليه التهاون في هذا الأمر الخطير
من العواقب السيئة . وسرعان ما أرسلت حفصة بنت عمر إلى عثمان
الصحف لتنسخ منها عدة نسخ لإرسالها إلى الأمصار . وقد قام بهذا
العمل زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ،
وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وأمرهم عثمان بأن يكتبوا
ما يختلفون فيه بلسان قريش .

عبارة أبى عمرو عثمان
الدانى

وقد أشار أبو عمرو عثمان بن سعيد الدانى (٤٤٤ هـ) الى سبب اختيار
زيد بن ثابت لهذا العمل الجليل في كتابه « المقنع » في رسم مصاحف
الأمصار الذى نشره حديثا مع كتاب النقط برتل : « فان قيل فلم خص
زيد (بن ثابت) بأمر المصاحف ، وقد كان في الصحابة من هو أكبر منه
كأبن مسعود وأبى موسى الأشعرى وغيرهما من متقدمى الصحابة ، قلت
إنما كان ذلك لأشياء كانت فيه ، ومناقب اجتمعت له ، لم تجتمع لغيره ،
منها أنه كتب الوحي للنبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه جمع القرآن كله على عهد
رسول الله ، وأن قراءته كانت على آخر عرصة عرضها النبي على جبريل
عليهما السلام ، وهذه الأشياء توجب تقديمه لذلك وتخصيصه به ،
لامتناع اجتماعهما في غيره ، وان كان كل واحد من الصحابة رضوان
الله عليهم له فضله وسابقته ، فلذلك قدمه أبو بكر لكتابة المصاحف

وخصه بها دون غيره ، من سائر المهاجرين والأنصار ؛ ثم سلك عثمان رضي الله عنه طريق أبي بكر في ذلك إذ لم يسعه (لم يستطع) غيره ، وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد قال اقتدوا باللذين من بعدي : أبي بكر وعمر . فؤلاه ذلك أيضا وجعل معه النفر من القرشيين ليكون القرآن مجموعا على لغتهم ، ويكون مافيه من لغات ووجوه على مذهبيهم ، دون ما لا يصح من اللغات ولا يثبت من القراءات . . . » (١)

توزيع المصحف على
الامصار

وقد أمر عثمان باحراق المصاحف الأخرى ، فعاب عليه ذلك بعض ذوى الأغراض السيئة وبخاصة أهل الكوفة . يقول ابن الأثير : فلما نسخوا المصحف ردها عثمان إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف وحرق ماسوى ذلك ، وأمر أن يعتمدوا عليها ويدعوا ماسوى ذلك . فكل الناس عرف فضل هذا الفعل إلا ما كان من أهل الكوفة . فإن المصحف لما قدم عليهم فرح به أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وإن أصحاب عبد الله (بن مسعود) ومن وافقهم امتنعوا من ذلك وعابوا الناس ، فقام فيهم ابن مسعود وقال : ولا كل ذلك فانكم والله قد سبقتم سبقا بينا ؛ فاربعوا على ظلمكم . ولما قدم على الكوفة قام إليه رجل فعاب عثمان بجمع الناس على المصحف ، فصاح وقال : اسكت ! فعن ملامنا فعل ذلك . فلو وليت منه ماولى عثمان لسلكت سبيله . » (٢)

رأينا في جمع عثمان

يتبين لنا بما تقدم أن القصد من التدوين الأول إنما هو جمع القرآن وحفظه من الضياع ، كما كان التدوين الثانى يرمى الى غرض واحد ، هو جمع الناس على وجه واحد فى قراءة القرآن خشية ما قد يقع بينهم

(١) راجع مقالة الاستاذ محمد بك كرد على فى مجلة الرسالة عدد ١٠٨ فى ٢٩ يولية سنة ١٩٣٥

(٢) ابن الأثير ج ٣ ص ٤٦

من الخلاف الذى مصدره التحريف الذى يفتح الباب على مصراعيه للزيادة والنقصان والتحريف فى كلام الله سبحانه ، ولا سيما أن العرب قد أخذوا يختلطون مع أهالى البلاد المفتوحة الذين اختلفت لغاتهم وتباينت لهجاتهم . وعندنا أن عثمان قد أحسن كل الاحسان الى المسلمين ، وأن عمله هذا يستحق الثناء والتقدير لا اللوم والتعنيف . ولا يفوتنا أن أثر عمر بن الخطاب فى حفظ القرآن لا يقل عن أثر عثمان ، إذ لو لم يتدارك هذا الأمر بحكمته وبعد نظره لنال القرآن من التبديل والتحريف أكثر مما ناله غيره من الكتب السماوية الأخرى فيضيع اعجازه ويتلاشى بياؤه .

وصفة القول أن الله سبحانه ، شاء ألا تعبت بالقرآن يد التحريف والتبديل فقال فى كتابه العزيز (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (١) وقال : (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) (٢)

صفات عثمان :

كان عثمان تقيا ورعا يصوم الدهر ويحج بيت الله كل عام . روى ابن حجر فى الاصابة أن رسول الله قال : لكل نبي رفيق ورفيق فى الجنة عثمان . وعن عائشة أنها قالت لما بلغها قتل عثمان : « قتلوه وإنه لا وصلهم للرحم وأنتقام للرب ، ثم هو أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد الستة الذين توفى رسول الله وهو عنهم راض » (٣) .

(١) سورة الحجر ١٥ : ١٩

(٢) أنظر ما كتبه السير وليام ميور عن جمع القرآن فى كتابه « سيرة محمد »

Muir, The Life of Muhammad, pp. XIV—XXIV.

(٣) ج ٤ ص ٢٢٣ - ٢٢٤

وكان طيب النفس ، نقي السريرة ، ذا حلم ورفق بالناس ، متواضعا .
 روى الطبري أنه كان يأتيه وهو في المسجد السَّقاءان فيفصل بينهما ^(١) حيث أدركاه ، كما كان كريما كثير البذل . وفي ذلك يقول المسعودي ^(٢) :
 كان عثمان في نهاية الجود والكرم والسماحة والبذل في القريب والبعيد ،
 فسلك عماله وكثير من أهل عصره طريقته وتأسوا (اقتدوا به) في
 فعله . « وهو الذي جهز جيش العسرة بالمال والابل والأفراس ،
 واشترى بئر رومة ، وزاد في مسجد الرسول وعوض الناس عن
 أرضهم التي أدخلها في المسجد من ماله الخاص .

وكان عثمان غنيا ^(٣) ، ينعم بما ينعم به الأغنياء ، فيسكن في داره التي
 بناها بالمدينة بالحجر والكلس وجعل أبوابها من السَّاج والعرعر ^(٤) ؛
 واقتنى الأموال والجنان والعيون بالمدينة وغيرها . وإذا حج ضرب
 له الفسطاط بمني ؛ وكان يأكل ألين الطعام وأطيب أصنافه ^(٥) ؛ كما روى
 أنه كان يشد أسنانه بالذهب ، ويلبس أنحر الثياب .

وكان يحب التوسعة على الناس ؛ فلم يقصد في بذل أعطياتهم ولم

(١) الطبري ج ٥ ص ١٣٣

(٢) مروج الذهب ج ١ ص ٤٣٣

(٣) ذكر المسعودي عن عبد الله بن عتبة أن عثمان يوم قتل ، كان عند غارته من المال
 خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم . وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرها ١٠٠٦٠٠٠
 دينار ، وخلف خيلا كثيرا وإبلا (مروج الذهب ج ١ ص ٤٣٣)

(٤) العرعر هو شجر السرو

(٥) روى الطبري عن عمرو بن أمية الضمري . قال : واني كنت أتعشى مع عثمان
 خزيرا (شبه عصيدة بالحم) من طبخ (مطبوخ) من أجود ما رأيت فيها بطون الغنم وأدمها
 اللبنة والسمن . وعن عبد الله بن عامر قال : كنت أفطر مع عثمان في رمضان ؛ فكان يأتينا
 بطعام هو ألين من طعام عمر ، قد رأيت على مائدة عثمان الدرملك الجيد (نوع من الدقيق)
 وصغار الضأن كل ليلة . كما روى أن عثمان أول من نخل له الدقيق (الطبري ج ٥ ص ٣٦١)

يقتصر على إعطائهم الكفاف من العيش ، كما كان يفعل عمر خشية الفتنة ، ولم يرض عثمان أن يأخذ الناس بأكثر مما فرضه الله تعالى عليهم ؛ فلم يحجر على كبار الصحابة ، ولم يمنعهم من الخروج إلى الولايات ، فالتف الناس حولهم وافتنوا بهم كما افتن هؤلاء الصحابة بما رأوه من ألوان النعم ومظاهر الحضارة في البلاد التي خرجوا إليها ؛ وهذا ما كان يخشاه عمر حين منعهم من الخروج إلى الولايات .

اقامة الحدود

ولم يحمل عثمان ولاته على التقشف والبعد عن مواطن التهمة والريبة كما كان عمر ، إذ كان يأخذ على الوالي عهداً ألا يلبس رقيقاً ولا يأكل نقياً ولا يتخذ دون حاجات الناس حجاباً .

غير أن ذلك التسهيل من عثمان لم يكن عن تهاون في حقوق الله وإغضاء عن حرمانه ؛ فكثيراً ما كان يحث الناس على التمسك بالدين وياخذهم بالمحافظة عليه ، ويضرب على أيدي المستهترين حتى كرهوه « واستطالوا عمره » (حكمه) ؛ فمن ذلك أنه عين رجلاً من بني ليث وكلفه مراقبة من يطّيرون الحمام ويرمون على الجلاهقات حتى قضى عليها . وأرسل طائفاً بالعصا يمنع الذين اعتادوا السكر ؛ فاشتد في مهمته وجلد كل من وقع في يده . وهدّد عثمان بالنفي عن المدينة كل من عكف على البدع وخطب الناس خطبة حشهم فيها على العدو عن تلك الأحداث حتى لا يكونوا قدوة سيئة لغيرهم من أهل الأمصار الأخرى ، ثم حظر عليهم التوسّط أو الاستشفاع عنده لمن يوقع عليه عقوبة من العقوبات ، ونفذ هذه السياسة ، ولم يعف عن واحد ممن كانوا يقتربون هذه الآثام ؛ فضج الناس من الجلد والتنفى .

وقد اتبع عثمان سياسة عمر في الاستفسار عن الولاة من الوفود وسؤال الرعية عن أمرائها ؛ غير أن ذلك أدى الى عكس ما كان يروم ، إذ كثرت الدس على هؤلاء الولاة واتخذ المغرضون من ذلك سبيلاً

للحظ من شأن الولاة ، كما كان بعض الولاة يدس الى الخليفة من يمدحونه عنده (١) .

ومما يؤخذ على عثمان أنه كان سريع التأثر بأحاديث الناس ، زمامه بيد أقاربه ولا سيما مروان بن الحكم .

وقد وصف السيد أمير علي عثمان بن عفان رضى الله عنه فقال :
وصف السيد أمير علي لعثمان

« كان عثمان شيخاً كبيراً ضعيف الارادة ؛ ومن ثم لم يستطع الاضطلاع بأعباء الحكم رغم نزاهته وفضائله الكثيرة » . (٢)

« Osman, though virtuous and honest, was very old and feeble in character and quite unequal to the task of government. »

علي بن أبي طالب

٣٥ - ٤٠ هـ ٦٥٦ - ٦٦١ م

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب القرشي الهاشمي ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف . وقد أسلمت وهاجرت مع الرسول ؛ وكانت من السابقات الى الاسلام (٣) . ولد بمكة قبل الهجرة بأحدى وعشرين سنة . وكان أبوه كثير العيال . فلما أصاب مكة جذب سأل الرسول عمه العباس أن يخفف عن أبي طالب مشقة العيش بأن يعول عنه بعض ولده . وذهب الرسول والعباس الى أبي طالب وعرضا عليه المساعدة فقبل ، فضم

(١) الطبري ج ٥ ص ١٣٤

(٢) Ameer Ali, A Short History of the Saracens, p.46

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١ ص ٥

العباس جعفر ا إليه وضم الرسول علياً . ولما بعث الرسول آمن به علي^١ وهو في الثالثة عشرة من العمر ، فكان أول من أسلم من الصبيان .

إسلامه

وقد بات في موضع الرسول في الليلة التي هاجر فيها من مكة الى المدينة (١) ، ثم هاجر بعد أن أدى الودائع التي كانت عند الرسول لأهلها .

هجرته

وقد زوجه الرسول ابنته فاطمة في السنة الثانية للهجرة فأعقب منها الحسن والحسين (٢) ، وحضر الغزوات كلها عدا غزوة تبوك ، فان الرسول خلفه على المدينة . وقد اتخذ الرسول كاتباً له .

اثره في الاسلام

ولما توفي عليه الصلاة والسلام اشتغل علي^٣ بتجهيزه ودفنه ، واشترك معه العباس بن عبد المطلب والفضل وقثم بن العباس ، وأسامة بن

مركزه في عهد الخلفاء
الذين سبقوه

زيد (٣) . وكان علي يرى أنه أحق المسلمين بالخلافة بعده ، لما له من السابقة في الاسلام ، ولأنه أقرب الناس إلى الرسول نسباً وصهرآ . فلما آلت الخلافة الى أبي بكر لم يبايعه علي أول الأمر .

وكان أبو بكر يستشيريه في مهام الأمور . وكان عمر لا يعمل عملاً الا بمشورته لما يعهده فيه من الفقه والذكاء والدين . وبعد مقتل عمر دخل على الشورى ، وكان يظن أن الخلافة ستؤول اليه ، فلما آلت الى عثمان بايعه علي ولازمه . وكان يستشيريه في كثير من الأمور في صدر خلافته . ولكن استبطن عثمان لذوى قريبه قد أفسد عليه آراءه . فظن الناس أن العلاقة قد توترت بينهما . (٤)

لم يكن انتخاب علي بن أبي طالب على الصورة التي تم بها انتخاب من سبقه من الخلفاء . فقد انتخب أبو بكر عن رضا من الصحابة الذين

بيعة علي

(١) ابن أبي الحديد ج ٣ ص ٢٥٦ — ٢٥٨

(٢) الطبري ج ٣ ص ١٤٣ (٣) الطبري ج ٢ ص ٢٦٢

(٤) الطبري ج ٣ ص ٢٠٤ وابن أبي الحديد ج ٣ ص ١٩٢

اجتمعوا بالمدينة وإن كانوا قد اختلفوا بعض الاختلاف في بادى الأمر . وبعد وفاة أبى بكر لم يكن ثمة اختلاف في رأى لأنه كان قد عهد إلى عمر ، فرأى المسلمون وجوب طاعته ؛ ولما توفى عمر انتخب عثمان بمقتضى قانون الشورى الذى سنه عمر .

أما عند موت عثمان فقد مال بعض الثوار إلى تولية على وعلى رأسهم ابن سبأ . وكان أكثر الصحابة متفرقين فى الأمصار ، ولم يكن بالمدينة منهم سوى عدد قليل وعلى رأسهم طلحة والزبير ؛ وقد تردد بعض الصحابة فى بيعه على كسعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمر ، وتحلف بعض الأنصار كحسان بن ثابت ومسلمة بن مخلد ، وأبى سعيد الخدرى عن المبايعة إذ كانوا يميلون إلى عثمان ، وهرب البعض إلى الشام كالمغيرة بن شعبة . وعلى ذلك فقد تمت بيعه على بالأغلبية على الرغم من تحلف بعض الصحابة الذين كانوا بالمدينة عن بيعته ، وعلى الرغم من تحلف بنى أمية ولحاق بعضهم بالشام ولحاق البعض الآخر بمكة . (١)

بادر على لما عرف عنه من الشدة فى الحق وعدم الهوادة فيه بعزل الولاية الجائرين الذين ولاهم عثمان والذين كانوا مشار الفتنه وسبب خروج الثوار عليه ، ولم يصغ لنصيحة بعض الصحابة له بابقائهم حتى تهدأ الحالة وتستقر الأمور فى نصابها ؛ كما استفتح ولايته باسترداد الاقطاعات التى كان عثمان قد منحها لبعض بطانته والمقرين من أهل بيته إلى بيت المال . واتبع فى توزيع الأرزاق القواعد التى سنّها عمر رضى الله عنه . (٢)

(١) قال صاحب العقد الفريد (ج ٣ ص ٩٣) : لما قتل عثمان بن عفان أقبل الناس يهرعون الى على بن أبى طالب ، فتراكت عليه الجماعة فى البيعة فقال : ليس ذلك الحكم ، إنما ذلك لأهل بدر . ابن طلحة والزبير وسعد ؟ فأقبلوا فبايعوا . ثم بايعه المهاجرون والأنصار ، ثم بايعه الناس . وذلك يوم الجمعة لثلاث عشرة خلت من ذى الحجة سنة خمس وعشرين . وكانت أول من بايعه طلحة م مروج الذهب (ج ٢ ص ٢) ، الطبرى ج ٥ ص ١٥٢-١٥٣ . الاخبار الطوال للدينورى ص ١٤٢ .

(٢) الاخبار الطوال للدينورى ص ١٤٠ .

كانت لعثمان قطائع أقطعها الناس ولم يكن ذلك من رأى على فقال بعد أن ولي الخلافة « والله لو وجدته (من أخذ) قد تزوج به (بالمال الذي أخذه) وملك به الاماء لرددته فان في العدل سعة ، ومن ضاق عليه العدل فان الجور عليه أضيق » . وقد أحفظ هذا التصرف من على قلوب أولئك الولاة الذين أثروا في عهد عثمان على حساب بيت مال المسلمين وزاد في حنقهم عليه . وقد تخلى الكثيرون من العمال عما يلونه من أمر المسلمين بمجرد عزل على لهم . أما معاوية بن أبي سفيان الذي مكنته ثروة بلاد الشام من تكوين حزب قوى من المرتزقة الذين انضموا إليه طمعا فيما كان يفيضه عليهم من الارزاق وما كان يسبغه عليهم من الاعطيات ، فقد أبى الاذعان لا أمر على ونشر لواء الثورة والعصيان .

موقفه الجمل وعواملها :

وقد استرسل المسلمون في الفرقة والخضام وفتحوا باب الفتنة على مصراعيه ، ففشبت بينهم الحروب الأهلية وسفكت دماء الأبرياء من المسلمين ، وتدخل الأشرار في أمور الخلافة وتستروا بستار الدين ليلبغوا مآربهم السياسية وغاياتهم الدنيوية .

موقف على من طلحة والزبير وعائشة

نصح على بن أبي طالب للقوم الذين قاموا للمطالبة بدم عثمان أن يترثوا حتى إذا ما هدأت النفوس وعاد الأمن إلى نصابه أجرى الحق مجراه وتمكن من إنزال العقاب بقتلة عثمان . إلا أن نصائحه لم تأت بباطل : فقد ساء عائشة قتل عثمان وانضم إليها سائر بني أمية ثم طلحة والزبير (١) .

(١) كان الزبير يطمع في ولاية العراق ، وطلحة في ولاية اليمن . فلما أرسل على الولاة ، ولم يكن لها حظ في الولاية نقما عليه وتكلم في شأنه ، وندما على بيعتهما وعزما على الخروج ، فاستأذنا عليا في الخروج الى مكة لاداء العمرة ، ولكنه لم يخف عليه أمرهما ، فقال لها : والله ما العمرة تريدان ؟ (الامامة والسياسة لابن قتيبة ج ١ ص ٤٦)

قال الطبري « خرجت عائشة رضي الله تعالى عنها نحو المدينة من مكة بعد مقتل عثمان ، فلقبها رجل من أخوالها ؛ فقالت ما وراءك ؟ قال : قتل عثمان واجتمع الناس على عليٍّ والأمر أمر الغوغاء ؛ فقالت : ما أظن ذلك تاماً ردوني . فانصرفت راجعة إلى مكة حتى إذا دخلتها أتاها عبد الله بن عامر الحضرمي (وكان أمير عثمان عليها) فقال : ماردك يا أم المؤمنين ؟ قالت : ردني أن عثمان قتل مظلوماً وأن الأمر لا يستقيم ولهذا الغوغاء أمر ، فاطلبوا بدم عثمان تعزوا الاسلام ؛ فكان أول من أجابها عبد الله بن عامر الحضرمي . وذلك أول ما تكلمت بنو أمية بالحجاز ورفعوا رءوسهم وقام معهم سعيد بن العاص والوليد ابن عقبة وسائر بني أمية . وقد قدم عليهم عبد الله بن عامر من البصرة ويعلى بن أمية من اليمن وطلحة والزبير من المدينة . واجتمع ملاًهم بعد نظر طويل في أمرهم على البصرة ، وقالت : أيها الناس ! إن هذا حدث عظيم وأمر منكر ، فانهضوا فيه إلى إخوانكم من أهل البصرة ، فأنكروه ، فقد كفاكم أهل الشام ما عندهم لعل الله عز وجل يدرك لعثمان والمسلمين بثأرهم . (١) »

موافق حفصة
بنت عمر

وقد عازمت حفصة بنت عمر وزوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخروج مع عائشة ولكن أخاها عبد الله بن عمر ثناها عن عزمها ؛ ولم يكن من رأى أم سلمة زوج الرسول أن تمضي عائشة في هذا الطريق ؛ فأرسلت إليها كتاباً طويلاً تطلب إليها العدول

وهذا بين لنا أن خروج طلحة والزبير للطلب بدم عثمان إنما كان للمطالبة بالخلافة . فقد قيل إن مروان بن الحكم قال لها بعد خروجهما : علي أباك أسلم بالامرة وأؤذن بالصلاة ؟ فقال عبد الله ابن الزبير علي أبي (يعني أباه الزبير) وقال محمد بن طلحة : علي أبي طلحة . وكان هوى عائشة مع ابن أختها عبد الله بن الزبير . فقد أرسلت إلى مروان تقول له : أريد أن تفرق أمرنا ؟ فليصل بالناس ابن أختي ، تريد عبد الله بن الزبير .

أم سلمة وخروج عائشة عن الخروج وتقول لها : « من أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم إلى عائشة أم المؤمنين . فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو . أما بعد فقد هتكت سدة^(١) بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمتة حجاب مضروب على حرمة ؛ قد جمع القرآن ذبولك^(٢) فلا تسحبها^(٣) وسكر خفارتك^(٤) فلا تبذلها . والله من وراء هذه الأمة . لو علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن النساء يحتملن الجهاد عهد إليك ، أما علمت أنه قد نهاك عن الفراطة^(٥) في الدين ؟ فإن عمود الدين لا يثبت بالنساء إن مال ، ولا يرأب بهن إن انصدع . جهاد النساء غض الأطراف وضم الذبول وقصر المؤادة ، ما كنت قائمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لو عارضك^(٦) ببعض هذه الفلوات^(٧) ناصية^(٨) قعودا من منهل إلى منهل ؟ وغدا تردين على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأقسم لو قيل لي يأم سلمة ادخلي الجنة لاستحييت أن ألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم هاتكة حجاباً ضربه على . فاجعليه سترك وقاعة البيت حصنك فإنك أنصح ماتكونين لهذه الأمة ماقعدت عن نصرتهم . ولو أني حدثتك بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لنهشت نهش الرقشاء^(٩) المطرقة والسلام . »

ورد عائشة على أم سلمة فردت عائشة عليها ألا مناص من المضي فيما اعزمته من المطالبة

(١) السدة : باب الدار

(٢) تشير الى قوله تعالى لنساء النبي (وقرن في بيوتكن)

(٣) فلا تنسربها أى فلا تخرجي من دارك .

(٤) سكر : حبس ، والخفارة شدة الحياء ؛ أى وصان حياك .

(٥) الفراطة : الافراط أو مجاوزة الحد .

(٦) عارضك : قابلك أو التقى بك

(٧) جمع فلاة وهي الصحراء الواسعة .

(٨) نص البعير أو الفرس استخرج ما أقصى ماعنده من السير - والقعود الناقصة .

(٩) الرقشاء من الحيات المنقطعة بسواد وبياض .

بدم عثمان . وإليك كتابها : « من عائشة أم المؤمنين إلى أم سلمة . سلام عليك ؛ فاني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو . أما بعد ؛ فما أقبلي لو عظك وأعرفني لحق نصيحتك ، وما أنا بمعتمة بعد تعريج . ولنعم المطلع مطلع فرقت فيه بين فئتين متشاجرتين من المسلمين ، فان أقعد فعن غير حرج وإن أمض فإلى مالا غنى بي عن الازدياد منه والسلام . (١) »

محاولة طلحة والزبير
استمالة زعماء البصرة

وقد عمل طلحة والزبير على استمالة زعماء البصرة (٢) ، فكتبنا الى كعب بن سور ، والاحنف بن قيس ، والمنذر بن ربيعة . وإليك كتابهما الى المنذر : « أما بعد فان أباك كان رئيسا في الجاهلية وسيدا في الاسلام ، وانك في أيك بمنزلة المصلي (٣) من السابق يقال لحق أو كاد . وقد قتل عثمان من أنت خير وجه منه ، وغضب له من هو خير منك والسلام » . فرد عليهما المنذر : « أما بعد فانه لم يلحقني بأهل الخير إلا أن أكون خيرا من أهل الشر . وانما أوجب حق عثمان اليوم حقه أمس . وقد كان بيني أظهركم نخذلقوه . ومتى استنبطتم هذا العلم وبدا لكم هذا الرأي ؟ » (٤)

محاولتهما استمالة
عبد الله بن عمر

وقد عمل طلحة والزبير على استمالة عبد الله بن عمر ، فأتياه فقالا : يا أبا عبد الرحمن ! إن أمنا عائشة خففت لهذا الأمر رجاء الاصلاح بين الناس . فاشخص معنا فان لك بها أسوة . فان بايعنا الناس فأنت أحق بها فقال : أيها الشيخان ! أتريدان أن تخرجانى من بيعتي ثم تلقيانى بين

(١) أنظر الكتائب في العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣ ص ٩٦ - ٩٧

(٢) هم كعب بن سور سيد النين ، والمنذر بن ربيعة سيد ربيعة ، والاحنف بن قيس سيد مضر .

(٣) المصلي الذي يتلو السابق . يقال صلى الفرس اذا جاء مصليا ، وهو الذي يتلو السابق لأن رأسه عند صلاه أى مغرز ذنبه .

(٤) الامامة والسياسة لابن قتيبة ج ١ ص ١٠١ - ١٠٢

مخالب ابن أبي طالب ؟ إن الناس إنما يخدعون بالدينار والدرهم ، وإني قد تركت هذا الأمر عياناً في عافية أنا لها . ثم عاود طلحة والزبير عبد الله ابن عمر عليه يعدل عن رأيه الأول ، فلم يكن منه الا التمسك به ، إذ كان يرى في القعود النجاة والخير ، كما كان يرى في انزواء عائشة المحافظة على كرامتها والاشفاق على المسلمين من أن تتفرق كلمتهم وتذهب ريحهم . إذ يقول لطلحة والزبير « واعلما أن بيت عائشة خير لها من هو دجها ، وأتما ، المدينة خير لسكنا من البصرة ، والذل خير لسكنا من السيف . ولن يقاتل عليا الا من كان خيرا منه . وأما الشورى فقد والله كانت ، فقدّم وأخرتما ، ولن يردها إلا أولئك الذين حكموا فيها . فاكفياني أنفسكما » (١) .

راى ابن عمر في
هذا الخروج

لم يصغ طلحة والزبير لنصح الناصحين ولم يرعيا حرمة لوحدة المسلمين التي كادت تتمزق شر ممزق . بل لم يكن لنصيحة أم سلمة أى أثر في نفس عائشة . وسرعان ما خرج طلحة والزبير وعائشة الى البصرة في ستمائة رجل . فلما وصلوا الى « ماء الحوآب » (٢) نبحتهم كلابه . فسألت عائشة محمد بن طلحة : أى ماء هذا ؟ قال : هذا ماء الحوآب . فقالت ما أراني إلا راجعة . قال : ولم ؟ قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لنسائه : كأني باحدا كن قد نبحتها كلاب الحوآب . وإياك أن تكوني أنت يا حميراء . فقال لها محمد بن طلحة : تقدّمى رحمك الله ودعى هذا القول وأتى عبد الله بن الزبير ، فحلف لها بالله أنها غادرت (أى ماء الحوآب) أول الليل . وأتاها ببينة من الاعراب فشهدوا بذلك فزعموا أنها أول شهادة زور شهد بها في الإسلام .

مسير عائشة الى
البصرة

(١) الامامة والسياسة ج ١ ص ١٠٢ — ١٠٣

(٢) الحوآب موضع في طريق البصرة — أنظر هذا اللفظ في معجم البلدان لباقوت -

استأنف الجيش السير الى البصرة . وقد عرض لهم سعيد بن العاص
والمغيرة بن شعبة في الطريق ونصحا لهم بالرجوع ونصحا الجند فقالا
لهم : ان كنتم قد خرجتم مع أمكم فارجعوا بها خيرا لكم ، وإن كنتم
غضبتهم لعثمان فرؤساؤكم قتلوا عثمان ، (يريدان طلحة والزبير) وإن
كنتم نقمتم على علي شيئا فينبوا ما نقمتم عليه . أنشدكم الله فتنتين في
عام واحد فلم يسمع أحد نصيحتهما ولم تؤبه عائشة لقولهما (١) .

ولما علم عثمان بن حنيف والى البصرة بقدوم الجيش ندب أبا
الاسود الدؤلى عمران الخصين ليستطلعا سبب قدومه . فقالت لها
عائشة : « إن الغوغاء من أهل الأمصار ونزاع أهل القبائل غزوا حرم
رسول الله وأحدثوا فيه الأحداث ، وآووا فيه المحدثين ، واستوجبوا
فيه لعنة الله ولعنة رسوله مع ما نالوا من قتل امام المسلمين بلا ترة
ولا غدر ، واستحلوا الدم الحرام فسفكوه ، والشهر الحرام واتهبوا
المسال الحرام ، ومزقوا الأعراض والجلود ، وأقاموا في دار قوم
كانوا كارهين لمقامهم ضارين مضرين ، غير نافرين ولا متقين ، لا يقدر
على امتناع ولا يأمنون . فخرجت في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء
القوم وما فيه الناس وراونا وما ينبغي لهم أن يأتوا في إصلاح هذا » .
فنصح لهم عمران وأبو الاسود وهدداهم بالحرب فلم يسمعوا لهم .

مسير علي بن أبي
طالب

سار علي بن أبي طالب نحو البصرة ، والتقى الجيشان في مكان يقال
له الخريجة (٢) في منتصف جمادى الآخرة سنة ٣٦ هـ ، « ودعا علي
الزبير الى الاجتماع به فاجتمع به فذكره علي وقال له : أتذكر يوم

(١) الامامة والسياسة لابن قتيبة ج ١ ص ١٠٥ — ١٠٦

(٢) سميت بذلك فيما ذكره الزجاجي لان المرزبان كان قد ابقى به قصرا وخرب بعده .
فلما نزل المسلمون بالبصرة ابتوا عنده ، وسموه الخريجة . أنظر هذا اللفظ في معجم البلدان لياقوت .

مررت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني غنم فنظر الى فضحكك وضحكك الى فقلت لا يدع ابن أبي طالب زهوه ، فقال لك رسول الله : ولتقاتلنه وأنت ظالم له ؟ فقال الزبير : اللهم نعم . ولو ذكرته ماسرت مسيرى هذا . فقل إنه اعتزل القتال ، وقيل عدل عن القتال فلما عيَّره ولده عبد الله وقال له : خفت من رايات ابن أبي طالب . قال الزبير : إني حلفت ألا أقاتله . فقال له ابنه : كفّر عن يمينك ، فعتق غلامه مكحولاً وقاتل . ونشب القتال وعائشة راكبة في هودجها على جمل يسمى عسكرياً واقتتل الناس حوله سبعة أيام ، حتى صار كالقنفذ من الشباب ، وثبتت عائشة وحماها مروان بن الحكم في نفر من قيس وكنانة وبني أسد وظل مروان كلها وثب رجل إلى الجمل ضربه بالسيف وقطع يده حتى قطع نحو عشرين يداً ، وأناه رجل من خلفه وضربه وضرب عرقوب الجمل . وتمت الهزيمة على أصحاب عائشة وطلحة والزبير ، وأسرت عائشة ومروان بن الحكم وقُتل طلحة رماه مروان بن الحكم بسهم فقتله ، لما كان يهيمه بالاعانة على قتل عثمان . وفر الزبير ، إلى المدينة وبقيت عائشة في هودجها الى الليل ، وأدخلها أخوها محمد بن أبي بكر إلى البصرة . ثم إن علياً سأل عائشة أترتحلي الى المدينة ؟ قالت أترحل . فجبرها على بما احتاجت إليه ، وسير معها أولاده مسيرة يوم ، وشيعها الناس . وقيل إنه كانت عدة القتلى يوم الجمل من الفريقين عشرة آلاف . (١)

انتصر على بن أبي طالب في موقعة الجمل ، وقتل طلحة والزبير وأسرت عائشة . وانه ليدهشنا أن يقابل على اساءة عائشة اليه بالعمو فيحسن اليها كل الأحسان ويجهزها بما تحتاجه في سفرها ويزورها في البيت الذي نزلت فيه ، ويوفد أولاده يشيعونها ، ويودعها بنفسه (٢) . لذلك

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ١٠٣ — ١٠٤

(٢) أبو الفداء ج ١ ص ١٧٣ - ١٧٤ ، والامامة والسياسة لابن قتيبة ج ١ ص ١٢٥ - ١٣٠

لا نعجب إذا قالت عائشة يوم رحيلها وسط مشيعيها : « إنه والله ما كان بيني وبين علي في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها، وإنه عندي — علي معتبتي — من الاختيار » (١). قال علي : « أيها الناس ! صدقت والله وبرت ، وإنه ما كان بيني وبينها إلا ذلك . وإنها لزوجة نبيكم صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة (٢) » .

وكان خروج عائشة من البصرة يوم السبت غرة رجب سنة ٣٦ هـ . لذلك نرى أنه لا مبرر لعمل طلحة والزبير وعائشة مادام للامة إمام ينفذ الاحكام و يقيم الحدود . ولا سيما وقد وعدهم علي بن أبي طالب بالنظر في أمر عثمان والبحث عن قاتليه والقصاص منهم عند ما تستقر الامور وتهدأ عاصفة تلك الفتنة الشعواء . على أننا نرى من جهة أخرى أن مجرد قبول علي في جيشه أعوان ابن سبأ الذين قتلوا عثمان في الوقت الذي يطالب الناس فيه بدمه كاف لأن تحوم الظنون حوله وتبرر اتهامه بالاشتراك في دمه .

وعلى أثر انتصار علي في موقعة الجمل انحصر النزاع بين حزبين اثنين :

(١) حزب عثمان وعلي رأسه معاوية بن أبي سفيان أعظم قرابة عثمان شأنًا والمطالب بدمه .

(٢) حزب علي بن أبي طالب رابع الخلفاء الراشدين ورأس بني هاشم الذين كان العداء بينهم وبين بني أمية قديما منذ الجاهلية ولم يزدده ظهور الاسلام الا شدة وعنفًا ؛ فبنو حرب لم ينسوا ما كان من حمزة وما كان من علي ؛ كما أن بني هاشم لم ينسوا ما كان من هناد يوم أحد .

(١) الفخرى ص ٨٣ - ٨٥ . لهذا القول علاقة بمحادثة الافك التي أشرنا اليها في غزوة

بني المصطلق . ص ١٦٤

(٢) ابن سعد ج ٣ ص ٢٠ ، ٥٦

رأينا في خروج طلحة
والزبير وعائشة

الأحزاب بعد موقعة
الجمل

وقد صوّرت أم الخير بنت الحرّيش البارقيّة الخلاف بين علي ومعاوية وذكرت أسبابه في تلك الخطبة التي ألقاها يوم صفين «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ» ! إن الله قد أوضح الحق ، وأبان الدليل ونور السبيل ، ورفع العلم ، فلم يدعكم في عمياء مبهمة ولا سوداء مُذهِمة . فإلى أين تريدون رحمكم الله ؟ أفرارا عن أمير المؤمنين أم فرارا من الزحف ؟ أو رغبة عن الاسلام أم ارتدادا عن الحق ؟ أما سمعتم الله عز وجل يقول (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ) (١) ؟ قد عيل الصبر وضعف اليقين وانتشرت الرغبة ، ويديك ياربني أزمة القلوب ؛ فاجمع الكلمة على التقوى وألف القلوب على الهدى . هلموا رحمكم الله إلى الامام العادل والوصي الوفي والصديق الاكبر . إنها إحنٌ بذرية وأحقاد جاهلية وضغائن أُحذية وثب بها معاوية حين الغفلة ليدرك بها ثارات بني عبد شمس . . . والله أيها الناس لولا أن تبطل الحقوق وتعطل الحدود ويظهر الظالمون وتقوى كلمة الشيطان لما اخترنا ورود المنايا على خفض العيش وطيبه ، فإلى أين تريدون رحمكم الله عن ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوج ابنته وأبي ابنائه ؟ (تعني الحسن والحسين) خلق من طينته وتفرع عن نبوته وخصه بسرّه ، وجعله باب مدينته ، وأعلم بحبه المسلمين وأبان بيفضه المنافقين (٢) ، فلم يزل كذلك يؤيده الله بمعونه ويمضى على حسن استقامته لا يعرج لراحة اللذات ، وهو مقلّق الهام ومكسر الأصنام ، اذ صلى والناس مشركون ، وأطاع والناس مرتابون ؛ فلم يزل

(١) سورة محمد ٤٧ : ٣١

(٢) تشير إلى حديث النبي صلى الله عليه وسلم (أنا مدينة العلم وعلي بابها) وإلى قوله عليه الصلاة والسلام أنه لا يحب عليا الا المؤمن ولا يفضيه الا منافق . رواهما الثوري وابن حجر في ترجمة علي

كذلك حتى قتل مبارزى بدر وأقنى أهل أحد وفرق جمع هوازن . فيالها وقائع زرعت في قلوب قوم نفاقا وردة وشقاقا . وقد اجتهدت في القول وبالغت في النصيحة ، وبالله التوفيق . والسلام عليكم ورحمة الله . » (١)

موقعة صفين :

بادر على لما عرف عنه من شدة في الحق بعزل الولاة الذين ولاهم عثمان والذين كانوا مثار الفتنة وخروج الثوار عليه . وقد أذعن جميع الولاة لأمر على وانصرفوا عما كانوا يلونونه من الولايات .

اسبابها

أما معاوية بن أبي سفيان الذي مكنته ثروة بلاد الشام من تكوين حزب قوى من المرتزقة الذين انضموا إليه طمعا فيما كان يفيضه عليهم من الأرزاق ويسبغه عليهم من الأعطيات . فقد أبى الأذعان لأمر على وشق عصا الطاعة عليه واتهمه بدم عثمان لأنه آوى قتلاته في جيشه . وقد أصر معاوية على أن يقاتل عليا بجند الشام بعد أن أوغر صدورهم عليه لايوائه قتلة عثمان في جيشه . فلما بلغ عليا أن معاوية قد استعد للقتال ومعه أهل الشام توجه إلى الكوفة بعد انتصاره في موقعة الجمل ، ووجه جرير بن عبدالله البجلي إلى معاوية يدعوه إلى بيعته والدخول في طاعته ، وزوده بكتاب يعلمه فيه اجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته ، ونكث طلحة والزبير وما كان من أمرهما ، فمأطله معاوية واستنظره ، وكتب إلى عمرو بن العاص : « أما بعد فإنه كان من أمر على وطلحة والزبير ما قد بلغك ؛ فقد قدم على جرير بن عبدالله فيبيعة على ، وحسبت نفسي عليك حتى تأتيني ، فأقدم على بركة الله تعالى (٢) .

ابن العاص
واستشارة معاوية عمر

(١) تشير الى حديث النبي صلى الله عليه وسلم (أنا مدينة العلم وعلى بابها) والى قوله عليه الصلاة والسلام انه لا يحب عليا الا مؤمن ولا ينفقه الا منافق . رواهما النووى وابن حجر في ترجمة على

(٢) اليعقوبى ج ١ ص ٣١٥

ولما قدم عمرو على معاوية أشار عليه أن يلزم علياً دم عثمان وأن يحاربه بجند الشام إذا أبي (١).

رجع جرير إلى علي بن أبي طالب وأخبره بحال معاوية ، وأنه قد أصر على أن يقاتله بجند الشام الذين بكوا حين وضع لهم معاوية على المنبر قيص عثمان الذي قتل فيه مخضباً بدمه وأصبع زوجته نائلة معلقة فيه . وكتب بالخبر إلى الأجناد فآلوا على أنفسهم أن لا يهدأ بالهم حتى ياخذوا بثأر عثمان ، وأجمعوا على قتال علي اعتقاداً منهم أنه قعد عن نصرته عثمان وآوى قتلته .

النفا الجيشين

سار علي من الكوفة إلى صفين في تسعين ألفاً لخمس بقين من شوال سنة ٣٦ هـ ؛ وسار معاوية من الشام في خمسة وثمانين ألفاً (٢) ، وعسكر في موضع سهل على الفرات ؛ وبات على وجيشه في البر عطاشاً لأنه حيل بينهم وبين الماء .

ولكن علياً أرسل من أجلى رجال معاوية عن الماء ؛ فأرسل إليه معاوية يستأذنه في وروده ، فأذن له . وبعد يومين من نزول علي في هذا الموضع بعث إلى معاوية يدعوهُ إلى توحيد الكلمة والدخول في جماعة المسلمين . وطالت المراسلات بينهما ؛ فاتفقا على المودعة إلى آخر المحرم سنة ٣٧ هـ ؛ ثم دارت رحى الحرب بينهما من جديد (٣) .

الرسال بين علي ومعاوية

ومن اطلع على ما كان من أمر رسل علي ومعاوية ، لا يسعه إلا أن يحكم بأن عدم التوفيق كان راجعاً لقلّة خبرة هؤلاء الرسل بالسياسة وشدة ميلهم إلى الحرب بما أفسد القلوب وزاد الفرقة (٤) بين المسلمين . ويظهر

(١) هذا ما ذكره الطبري ، وهو يخالف ما ذكره البيهقي من أن عمراً أشار على معاوية ألا يذكر عثمان لأن معاوية خذله . وأما عمرو فقد تركه عياناً وذهب إلى فلسطين .

(٢) على ما رواه المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ١٧

(٣) الامامة والسياسة لابن قتيبة ج ١ ص ١٧٢ . مروج الذهب للمسعودي (ج ٢ ص ١٤ — ١٥)

(٤) الطبري (ج ٥ ص ٣٤٣)

من رواية الطبري أن رسل عليّ إلى معاوية لم يكونوا ليصلحوا رسل صلح . فقد كانت فيهم غطرسة وشدة ، وكان رسل معاوية يسيئون الرد عليهم ، مما وسع مسافة الخلف بين الفريقين .

وفي اليوم الأول من صفر سنة ٣٧ هـ عاد القتال بين عليّ ومعاوية سيرته الأولى . فكان يخرج قائد من هنا وقائد من هناك للبارزة حتى إذا مضت سبعة أيام قال عليّ لجنده : حتى متى لاتناهض هؤلاء القوم بجمعنا ؟ فباتوا يصلحون أمرهم . وفي ذلك يقول الشاعر :

أصبحت الأمة في أمر عجب والأمر بمجموع غدا لمن غلب
فقلت قولاً صادقاً غير كذب إن غدا تهلك أعلام العرب

اشتعلت نار الحرب بين الفريقين أياما متوالية . فلما قتل عمار استاء أصحاب عليّ لمقتله ، فزحفوا على جند معاوية حتى أشرفوا على الفتح . فدعا معاوية بفرسه ونادى أهل الشام : الله الله في الحرمات والنساء والبنات ؛ وقال : هلمّ محبباً تلك يا ابن العاص فقد هلكنا . غير أن عمرو بن العاص قد استطاع بما أوتيته من فنون الدهاء أن يفرّق بين جند عليّ فانقسموا على أنفسهم . فقد قال عمرو لجنده : « أيها الناس ! من كان معه مصحف فليرفعه على رمح » . فرفعوا المصاحف ؛ وقال قائلهم « هذا كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم » . فلما رأى أهل العراق المصاحف مرفوعة قالوا : « نجيب إلى كتاب الله » ^(١) . وقد أراد عمرو بحيلته هذه أن يكسر من حدة جند عليّ وحيثهم . وكانوا قاب قوسين أو أدنى من الانتصار . وأن يفرق بينهم ويفتّ في عضدهم فيكفوا عن قتالهم .

ولما رغب أهل العراق في المهادنة نصح لهم عليّ ألا يعترفوا بقول

رغبة أهل العراق
في المهادنة

(١) المسعودي : مروج الذهب (ج ٢ ص ٢٠ — ٢٢) ٩ تاريخ البعقوبي (ج ١

معاوية وأصحابه ، وقال لهم : إن ذلك لم يكن إلا خديعة أرادوا بها أن يفرقوا كلمتهم ويقضوا على وحدتهم . فأبوا وطلبوا منه أن يبعث إلى الأشتر ليرك القتال ؛ فأرسل إليه ، فقال الأشتر للرسول : « ليس هذه الساعة التي ينبغي أن تزيلني فيها عن موضعي . قد رجوت أن يفتح لي فيها فلا تعجزلني » . فرجع الرسول بالخبر فما انتهى إليه حتى ارتفع الضجيج وعلت الأصوات بين جند الأشتر . فقال له القوم : « والله ما نراك إلا أمرته أن يقاتل . إبعث إليه فليأتك ، وإلا والله اعتزلناك » . فقال على للرسول « ويحك ! قل للأشتر أن يقبل فإن الفتنة قد وقعت » . فلم يسعه إلا المجيء وترك ساحة القتال .

التحكيم :

أرسل على الأشعث بن قيس إلى معاوية يستطلع رأيه . فقال له معاوية : « نرجع نحن وأتم إلى ما أمر الله في كتابه ، تبعثون منكم رجلاً ترضونه ونبعث منا رجلاً . ثم نأخذ عليهما أن يعملوا بما في كتاب الله » .

ثم رجع الأشعث إلى على فأخبره برأى معاوية ، فقال الناس : رضينا وقبلنا . فاختار أهل الشام عمرو بن العاص . وقال أهل العراق قد رضينا أبا موسى الأشعري . فقال على « قد عصيتموني أول الأمر فلا تعصوني الآن » ، وبين لهم تخوفه من أبي موسى لأنه كان يخذل الناس عنه ؛ فأبوا إلا إياه ؛ فأذعن على كره منه .^(١)

اجتمع عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري بدومة الجندل (٢)

عقد التحكيم

(١) أنظر البيهقي (ج ١ ص ٢١٨ — ١٢١٩) والمسعودي (ج ٢ ص ٢٠ — ٢٢)

والامامة والسياسة لابن قتيبة (ج ١ ص ٢٨٧) الطبري ج ٦ ص ٣٠

(٢) دومة الجندل بضم الدال وفتحها تبعد عن دمشق بسبعة مراحل وتقع على الطريق من

دمشق إلى المدينة .

حيث كتبنا عقد التحكيم في شهر صفر سنة ٣٧ ؛ وإلى القارى. صورة الكتاب نقلا عن الطبرى (١) :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما تقاضى عليه على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان ، قاضى على بن أبى أهل الكوفة ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين ، وقاضى معاوية على أهل الشام ومن معهم من المؤمنين والمسلمين ، إنا نزل عند حكم الله عز وجل وكتابه ، ولا يجمع بيننا غيره ، وإن كتاب الله عز وجل بيننا من فاتحته إلى خاتمته نحيي ما أحيا ونميت ما أمات ، فما وجد الحكمان فى كتاب الله عز وجل ، وهما أبو موسى الأشعرى عبد الله بن قيس ، وعمر بن العاص القرشى عملا به ، وما لم يجدا فى كتاب الله عز وجل فالسنة الجامعة غير المفرقة : وأخذ الحكمان من على ومعاوية ومن الجندين من العهود والمواثيق والثقة من الناس ، أنهما آمان على أنفسهما وأهلهما ، والأمة لها أنصار على الذى يتقاضيان عليه . وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كليهما عهد الله وميثاقه أنا على ما فى هذه الصحيفة ، وأن قد وجبت قضيتهما على المؤمنين ؛ فإن الأمن والاستقامة ووضع السلاح بينهم أينما ساروا على أنفسهم وأهلهم وأمواهم وشاهدتهم وغائبهم . وعلى عبد الله بن قيس وعمر بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة ولا يرادها فى حرب ولا فرقة حتى يعصيا ، وأجل القضاء إلى رمضان ، وإن أحبا أن يؤخرا ذلك أخره على تراض منهما ، وإن توفى أحد الحكمان فإن أمير الشيعة يختار مكانه ولا يألوا من أهل المعدلة والقسّط ، وأن مكان قضيتهما الذى يتقاضيان فيه مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام ، وإن رضيا وأحبا فلا يحضرهما فيه إلا من أرادا ، ويأخذ الحكمان من

أرادا من الشهود ، ثم يكتبان شهادتهما على مافى هذه الصحيفة ، وهم أنصار على من ترك مافى هذه الصحيفة وأراد فيه إلحاداً وظلماً . اللهم إنا نستنصرك على من ترك ما فى هذه الصحيفة ! » .

اجتماع الحكمين

لما حان وقت اجتماع الحكمين بعث على بن أبى طالب أربعائة رجل عليهم شريح بن هانئ الحارثى وعبد الله بن العباس يصلح بهم ويلى أمورهم ، وأبو موسى الأشعرى معهم ؛ وبعث معاوية بن أبى سفيان عمرو بن العاص فى أربعائة من أهل الشام فتوافوا بدومة الجندل . وقد ذكر المسعودى (١) أنه لما دنا وفد على من موضع الاجتماع قال عبد الله بن العباس لأبى موسى : « إن علينا لم يرض بك حكماً لفضل غيرك . والمتقدمون عليك كثيرون ، وإن الناس أبوا غيرك . وإنى لأظن ذلك لشرياد بهم ، وقد ضم داهية العرب معك ، إن نسيت فلا تنس أن علينا بايعه الذين بايعوا أبابكر وعمر وعثمان ، وليس فيه خصلة تباعده من الخلافة ؛ وليس فى معاوية خصلة تقربه من الخلافة . ووصى معاويةُ عمرأ فقال : يا أبا عبد الله ! إن أهل العراق قدأ كرهوا علينا على أبى موسى وأنا وأهل الشام راضون بك ، وقد ضم إليك رجل طويل اللسان قصير الرأى ؛ فأخذ الجد ولا تأمقه برأيك كله » . ووافى عمرأ سعد بن أبى وقاص ، وعبد الله بن عمر ، والمغيرة بن شعبة وغيرهم من جلة الصحابة الذين تخلفوا عن مبايعة على . ولم يغمسوا أيديهم فى الفتنة . ويتبين لنا مما ذكره المسعودى :

رأى المسعودى فى الحكمين

- ١ - أن علينا أكره على اختيار أبى موسى ، فلم يثق به لأنه فارقه وخذّل الناس عنه . أما معاوية وأهل الشام فكانوا راضين بعمره .
- ٢ - وأن أبابكر موسى لم يكن بالرجل الذى يقف أمام عمرو داهية

العرب هذا الموقف الذى يحتاج الى الحنكة فى السياسة وابتكار ضروب المكر والدهاء ، أكثر مما يحتاج الى استقصاء مسائل الدين .

ومع هذا لم يكن ما قاله عبد الله بن العباس لأبى موسى من شأنه أن يرضيه ولا أن يبعثه على الاخلاص والشدة فى نصرة على (١).

اجتمع الحكماء فى شهر رمضان سنة ٣٧ هـ ؛ وفى هذا اليوم المشهود تجلى دهاء عمرو بأجلى مظاهره . إذ استدرج أباً موسى حتى خلع علياً على حين ثبت عمرو موكله معاوية بن أبى سفيان . قال المسعودى : (٢) قال عمرو : يا أباً موسى ! رأيت أول ما نقضى به من الحق أن نقضى لأهل الوفاء بوفائهم وعلى أهل الغدر بغدرهم ؛ فحمد الله أبو موسى وأثنى عليه وذكر الحدث الذى حلّ بالاسلام والخلاف الواقع بأهله ، ثم قال : يا عمرو ! هلم الى أمر يجمع الله فيه الألفة ويمل الشعث ويصلح ذات البين . فجزاء عمرو خيراً وقال : إن للكلام أولاً وآخرأ ، ومتى تنازعنا الكلام خطباً لم نبلغ آخره حتى ننسى أوله ، فاجعل ما كان من كلام تنصّاد عليه فى كتاب يصير إليه أمرنا . فقال أبو موسى : فاكتب . فدعا عمرو بصحيفة وكاتب . فتقدم اليه ليبدأ به أولاً دون أبى موسى لما أراد من المكربه ؛ ثم قال له بحضرة الجماعة : اكتب فانك شاهد علينا ولا تكتب شيئاً يأمر بك به أحدنا حتى يستأمر الآخر فيه ؛ فاذا أمر بك فاكتب ، واذا نهاك فاتته حتى يجتمع رأينا . اكتب . . . !

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما تقاضى عليه عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص ، تقاضيا على أنهما يشهدان أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . ثم قال عمرو نشهد أن أباً

(١) أنظر تاريخ عمرو بن العاص للؤلؤ ص ١٦٦ — ١٧٨

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٥

بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عمل بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قبضه الله إليه ، وقد أدى الحق الذى عليه . قال أبو موسى : أكتب ! ثم قال فى عمر مثل ذلك . ثم قال عمرو : أكتب ! وأن عثمان وَلِيَّ هذا الأمر بعد عمر على إجماع من المسلمين وشورى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى منهم ، وأنه كان مؤمناً . فقال أبو موسى : ليس هذا والله مما قعدنا له . قال عمرو : والله لا بد من أن يكون مؤمناً أو كافراً . قال أبو موسى : أكتب . قال عمرو : فظالماً قُتِلَ أو مظلوماً ؟ قال أبو موسى : بل قتل مظلوماً . قال عمرو : أفليس قد جعل الله لولى المظلوم سلطاناً يطلب بدمه ؟ قال أبو موسى : نعم ! قال عمرو : فهل تعلم لعثمان ولياً أولى من معاوية ؟ قال أبو موسى : لا . قال عمرو : أفليس لمعاوية أن يطلب قاتله حيثما كان حتى يقتله أو يعجز عنه ؟ قال أبو موسى : بلى ! فقال عمرو للسكران : أكتب ! وأمره أبو موسى فكتب . قال عمرو : فإننا نقيم البيئة على أن علياً قتل عثمان . قال أبو موسى : هذا أمر حدث فى الاسلام وإنما اجتمعنا لله ، فلم إلى أمر يُصلح الله به أمة محمد . قال عمرو : وما هو ؟ . قال أبو موسى : قد علمت أن أهل العراق لا يحبون معاوية أبداً وأن أهل الشام لا يحبون علياً أبداً ؛ فهل نخلعهما جميعاً ونستخلف عبد الله بن عمر ؟ فعمد عمرو إلى ما قاله أبو موسى فصوّبه ، وعدّد له جماعة وأبو موسى بأى ذلك إلا ابن عمر . فأخذ عمرو الصحيفة وطواها بعد أن ختمها جميعاً .

نظرة فى عقد التحكيم

ويتبين لنا مما كتب بتلك الصحيفة مبلغ تفوق عمرو بن العاص على أبى موسى الأشعرى فى الدهاء والسياسة . ولا غرو فقد استدرجه حتى أقر له بأن عثمان قتل مظلوماً ، وأن لمعاوية الحق فى أن يطلب بدمه المسفوك ؛ حتى إن المطلع على هذه الصحيفة ليشك فى

على أكثر من معاوية . وهكذا تمكن عمرو من تنفيذ غرضه والوصول إلى غايته وهو خلع علي بن أبي طالب وتثبيت معاوية بن أبي سفيان على الرغم من تشبث أبي موسى بخلع معاوية واستخلاف علي وعبد الله بن عمر دون غيره من الصحابة

قال الطبري ^(١) : قال عمرو لأبي موسى : (بعد أن عدد أسماء كثيرين من الصحابة لتولية الخلافة) : ما رأيك ؟ قال : رأي أن نخلع هذين الرجلين ونجعل الأمر شوري بين المسلمين فيختارون لأنفسهم من أحبوا . فقال له عمرو : إن الرأي ما رأيت وقال : يا أبا موسى أعلمهم بأن رأينا قد اجتمع واتفق . فتكلم أبو موسى : إن رأي ورأي عمرو قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله عز وجل به أمر هذه الأمة . فقال عمرو : صدق ، تقدم يا أبا موسى فتكلم ! فتقدم أبو موسى ثم قال : أيها الناس ! إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها ولم نشعها من أمر قد أجمع رأي ورأي عليه ، وهو أن نخلع علياً ومعاوية فتستقبل هذه الأمة هذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم ، وإنني قد خلعت علياً ومعاوية . فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً . ثم أقبل عمرو بن العاص فقام مقامه فحمد الله وأثنى عليه . وقال : إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبي معاوية ، فإنه ولي عثمان بن عفان رضي الله عنه والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه فتنازبا ، وركب أبو موسى راحلته ولحق بمكة ؛ ثم انصرف أهل الشام إلى معاوية وسلموا عليه بالخلافة . ^(٢)

(١) ج ٦ ص ٣٩

(٢) روى الطبري (ج ٦ ص ٣٩) أن عبد الله بن العباس قال لأبي موسى حين أراد عمرو أن يتقدمه : ويحك أني والله لا أظن عمرا قد خدعك إن كنتما قد اتفقتما على أمر فقدمه ليتكلم بذلك الأمر قبلك ثم تكلم أنت بعده . فان عمرا رجل غادر ، ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضى فيما بينك وبينه . فإذا قت في الناس خالفك .

ونحن نشك في هذا ونميل إلى ماقاله المسعودي (١) أنه لم يكن بين الحكمين غير ما كتب في الصحيفة ، وقرار أبي موسى بأن عثمان قتل مظلوماً وغير ذلك ، وأنهما لم يخطبا ، وإنما كتبنا صحيفة فيها خلع عليّ ومعاوية وأن يولى المسلمون من أحبوا .

على أن المؤرخين يظلمون أبا موسى حين يرمونه بالغفلة وقصور الرأي . وأما نحن فنعتقد أن الرجل قد اختير عن أهل العراق فنصح لهم وصادف أن خالف رأيه رأي عليّ وبني هاشم ؛ فكان هذا مصدر سخط بعض المسلمين عليه . ولا شك أن رأي أبي موسى كان رأي طائفة عظيمة من معاصريه .

ولم يكن ماقام به عمرو بن العاص من مبايعته معاوية كافياً وحده لتثبيت ملك صاحبه ؛ بل كانت هناك أمور جديرة بالذكر فيها :

١ - إضطراب حالة جند عليّ بن أبي طالب الذي أراد معاودة الكرة على معاوية وبخاصة بعد موقعة صفين وانشقاق الخوارج عليه .
الثاني : اتحاد جند معاوية والتفافهم حوله وتفانيهم في نصرته .
ولا غرو فقد عمل منذ ولى بلاد الشام في عهد عمر على استعمارها باتباعه وذوى قرباه وجذب الأنصار حوله بالعطايا والمنح .

وإن الناظر في أمر التحكيم يجد أنه لم يكن قائماً على أساس ، إذ لم يكن من وراء الحكمين قوة من المسلمين تستطيع تنفيذ حكمها . فقد اتفق الحكماء على خلع عليّ ومعاوية ، وأن يستقبل المسلمون أمرهم من جديد فيولون عليهم من يختارونه للخلافة ، ودونا ذلك في صحيفة ختم عليها جميعاً . بيد أننا نرى أن الفريقين لم يدعنا لهذا الحكم ، مع أن الحكمين قد فوض اليهما الفصل في هذا الخلاف .

وكل ما كان للتحكيم من أثر هو أنه أعطى الفرصة لجند الشام

(١) مروج الذهب (ج ٢ ص ٢٧)

بالاستئثار بالأمر بعد أن دب الشقاق بين جند علي . ويكاد يشبه موقف الحكّامين في هذا النزاع موقف عصبة الأمم في الخلاف القائم بين إيطاليا والحبشة الآن . فقد عقدت عصبة الأمم أكثر من جلسة وأصدرت أكثر من قرار ، ولم يكن لها من القوة ما يمكنها من احترام قراراتها .

ولما علم عليّ بهذه الخدعة أراد أن يحكم السيف بينه وبين معاوية ، وأخذ يستعد لقتاله من جديد . فلما تكامل جيشه واعتزم المسير إلى الشام ، جاءت الأخبار أن الخوارج ساروا نحو « المدائن » .

ظهور الخوارج :

انتهت موقعة صفين على النحو الذي تقدم ، وانصرف عليّ من صفين وعاد معاوية إلى دمشق . ولكن شتان بين رجوع أهل الشام وأهل العراق . عاد أهل الشام متفقين الكلمة ، ورجع أهل العراق وقد وقع الخلاف بينهم ودب الانقسام إلى صفوفهم . يقول الطبري (١) « خرجوا إلى صفين مع عليّ وهم متواديون أحباء فرجعوا متباغضين أعداء ، ما برحوا من عسكرهم بصفين حتى فشا فيهم التحكيم . ولقد أقبلوا يتدافعون الطريق كله ويتشائمون ويتضاربون بالسياط ؛ يقول الخوارج : يا أعداء الله أوهنتم في أمر الله عز وجل وحكمتم ، وقال الآخرون فارقتم إمامنا وفرقتم جماعتنا » . فلما دخل على الكوفة لم يدخلوا معه حتى أتوا حرورا (٢) ، فنزل بها منهم اثنا عشر ألفا ونادى

(١) ج ٦ ص ٣٥

(٢) هي قرية بظاهر الكوفة تبعد عنها بميلين . نزل بها الخوارج الذين اعتزلوا عليا ، فنسبوا إليها وسموا حرورية (أوخوارج) . انظر لفظ حرورا في معجم البلدان لياقوت ، والفرق بين الفرق للبغدادى ص ٥٧ .

مناديهـم : « إن أمير القتال شـبـث بن ربيعـى وأمير الصلاة عبد الله بن
الـكـوآء اليـشـكـرى ، والأمر شورى بعد الفتح ، والبيعة لله عز
وجل ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » .

وهكذا نجد أن الذين كانوا بالأمس ينادون لتحكيم قد انشقوا
على عليّ لأنه قبله ، وأخذوا يلومونه على ذلك ويلومون أنفسهم
لأنخذاعهم بتلك الخدعة وهم قاب قوسين من النصر أو أدنى .

ويتضح مما تقدم أن الخوارج إنما خرجوا على عليّ وانشقوا عليه
مع أنهم كانوا بالأمس من حـزبه وأعوانه ، لأنهم كانوا يعتقدون أن عليا
إمام بويـع بيعة صحيحة ، فلا معنى لقبول التحكيم مع جماعة خرجوا
عليه ، بل كان الأجدر به أن يمضى فى حربهم حتى يدخلوا فيما دخل فيه
عامة الناس أو يقتلوا عن آخرهم .

راى الخوارج فى
بيعة عليّ

أخذ عليّ فى مفاوضتهم حتى يرجعوا عن رأيهم ، فأرسل اليهم

عبد الله بن عباس ، فناقشهم واقتنع كثير منهم بحجته فرجعوا عن
رأيهم وامتنع آخرون فخرج اليهم عليّ بنفسه ثم سألهـم « ما أخرجكم
علينا ؟ » قالوا : حكومتكم يوم صفين . فقال : « أنشدكم الله ألسـت
قد نهيتكم عن قبول التحكيم فرددتم عليّ رأيي ، ولما أيتـم إلا ذلك ،
اشترطنا على الحكمين أن يحكما بما فى القرآن ، فان حكما بحكم
القرآن فليس لنا أن نخالف حكما يحكم بما فى القرآن وإن أيا فنحن من
حكمهما براء ؟ » قالوا له : « نخبرنا . أترأى عدلا تحكيم الرجال فى
الدماء ؟ » فقال : « إن لم نحكم الرجال ، وإنما حكمنا القرآن . وهذا
القرآن إنما هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق إنما يتكلم به الرجال » .
قالوا : فخيرنا عن الأجل لم جعلته فيما بينك وبينهم ؟ قال : ليعلم الجاهل
ويثبت العالم ، ولعل الله عز وجل يصلح فى هذه الهدنة هذه الأمة ،
ادخلوا مصركم ! » ، فدخلوا إلى أن ينتهى الحكمان من حكمهما (١) .

مفاوضة عليّ للخوارج

هؤلاء هم نواة الخوارج الذين كان لهم شأن كبير في تاريخ الاسلام، وهذا مبدأ ظهورهم . ومن ثم أصبحنا أمام ثلاثة أحزاب بعد أن كنا تجاه حزينين اثنين : حزب عليّ وحزب معاوية أو ان شئت فقل : حزب الشيعة وحزب الأمويين .

وإن الناظر الى هذا الحزب الجديد - حزب الخوارج - يرى أنهم كانوا من حزب الشيعة أنصار عليّ ، ولكنهم انشقوا على هذا الحزب من أجل التحكيم .

مناقشة بعض آراء
الخوارج

ولكن أمر هذا الحزب الجديد يدعو الى العجب والحيرة ؛ فان هؤلاء لم يبنوا خروجهم على أمر معقول يبرر انشقاقهم ، لأنهم هم الذين أشاروا بهذا التحكيم ؛ وإن علياً لم يقبله إلا بعد أن أكرهوه على قبوله . فكيف إذا يسوغون لأنفسهم أن يخرجوا على ما أبرموه ؟ وأما قولهم إن علياً بقبوله التحكيم قد شك في خلافته ؛ فهذا أمر غير صحيح لأن صاحب الحق كثيراً ما يتأكد أن الحق له ، فاذا رأى من خصمه إنكاراً لهذا الحق وتمسكاً بوجهة نظره ؛ فانه لا طريق أمامه إلا أن يرفع الأمر لقاض أو لمحكمين حسماً للنزاع .

وصفوة القول أن هذه الفئة الجديدة قد بنت أمرها على مقدمات لم تتضح بعد ، فزادوا كلمة المسلمين تفريقاً وخدعوا بما ظهر لهم أنه الصواب ، كما قال لهم عليّ حين رددوا قولتهم المشهورة « لا حكم إلا لله » « كلمة حق يراد بها باطل » .

يوم النهروان :

لم يستطع عليّ أن يجارى هؤلاء القوم في رأيهم ، وهو أنه أخطأ أو كفر على الرغم مما أبدوه من الاستعداد للعودة إلى صفوفه ، وقولهم بأن ليس عليه من حرج إذا ما أجابهم إلى ما طلبوه ؛ مع أنه كان يعتبر رجوع هذه الطائفة إلى صفوفه من شأنه أن يزيده قوة أمام

مناوئيه ؛ فقد رأى في إجابة طلبهم إقرارا بكفره على الرغم من أنه كان يعتقد أنه إنما يعمل للمصلحة العامة ابتغاء مرضاة الله .

اجتمع الخوارج من أهل البصرة والكوفة وقصدوا إلى النهروان واستخلفوا عليهم رجلا منهم هو عبد الله بن وهب الراسبي ^(١) ، وأخذوا يقتلون كل من لم يشاطرهم عقيدتهم ويعترف بخليفتهم ويلعن عثمان وعلياً . قال الفخرى « وقد صدرت منهم أمور متناقضة تدل على أنهم كانوا يخططون خبط عشواء ^(٢) . من ذلك أن رطبة سقطت من نخلة فتناولها رجل ووضعها في فمه ؛ فقالوا له : أكلتها غصبا وأخذتها بلائمن ؛ فألقاها . ومنها أن خنزيراً لبعض أهل القرى مرَّ بهم فضربه أحدهم بسيفه فعقره ؛ فقالوا : هـذا فسادٌ في الأرض ؛ فمضى الرجل إلى صاحب الخنزير وأرضاه . ومنها أنهم كانوا يقتلون النفس التي حرَّم الله إلا بالحق ، فقتلوا عبد الله بن خبَّاب ، وهو من كبار الصحابة ، وقتلوا كثيراً من النساء وعثوا في الأرض فساداً . فلما بلغ علياً أمرهم - وكان قد خطب في الكوفة وندبهم إلى قتال أهل الشام وإعادة الحرب سيرتها الأولى - قالوا : يا أمير المؤمنين ! أين نمضي وندع هؤلاء الخوارج يخلفوننا في عيالنا وأموالنا ؟ سربنا إليهم ؛ فإذا فرغنا من قتالهم ، رجعنا إلى قتال أعدائنا من أهل الشام . فسار على بالناس إلى الخوارج ؛ فلقاهم على النهروان وأبادهم ؛ فكأنما قيل لهم : « موتوا فماتوا » ^(٣) .

(١) Brünnow, Dei Charischiten unter den ersten

Omayyaden, p. 18.

(٢) نرى أن هذا ليس من التناقض في شيء وإنما هو أقرب إلى أن يكون غلواً في تطبيق مذهبهم .

(٣) الفخرى ص ٩٠ - ٩١ ، والطبري ج ٦ ص ٤٦ وما بعدها

Browne, Lit. Hist. of Persia, vol. 1. pp. 222—223

لما التقى على والخوارج بالنهروان ولوا هاربيين إلى ناحية الجسر ؛
 فظن الناس أنهم قد عبروه ؛ فقالوا لعلی : یا أمیر المؤمنین ! انهم قد
 عبروا الجسر فالقهم قبل أن یبعدوا . فقال علی : ما عبروا وان مصارعهم
 دون الجسر ، والله لا یقتل منكم عشرة ولا یبقی منهم عشرة ؛ فشك
 الناس فی قوله . فلما أشرفوا علی الجسر رأوهم لم یعبروا ؛ ففكر
 أصحاب علی وقالوا له : هو كما قلت یا أمیر المؤمنین . قال : نعم .
 والله ما کذبت ولا کُذبت . فلما انتهت الوقعة وسكنت الحرب ،
 أحصى القتلى من أصحاب علی ؛ فكانوا سبعة . وأما الخوارج فذهبت
 طائفة منهم قبل أن تنشب الحرب وقالوا : والله ما ندري علی أى شیء
 نقاتل علی بن أبی طالب ، سنأخذ ناحية حتى ننظر الى ماذا یؤول
 الأمر ؛ وأما الباقون فقتلوا ، وقاتلوا فهلكوا جميعهم . فلما فرغ علی من
 هزيمة الخوارج ، رجع الى الكوفة وندب الناس الى قتال أهل الشام ،
 فشقاقوا ؛ ولما وعظهم وحثهم علی الجهاد ؛ قالوا : یا أمیر المؤمنین !
 کلت سیوفنا وفینت نبالننا ومَلَلْنَا من الحرب ، فأمهلنا نصلح أمورنا
 وتتوجه ، وكان قد عسكر ظاهر الكوفة ، فأمهلهم وأمرهم أن یوطنوا
 نفوسهم علی الحرب ونهاهم عن الرجوع الى أهلهم حتى یعودوا من
 الشام ؛ فصاروا یتسللون ویدخلون الكوفة حتى خلا المعسكر منهم ؛
 فلم یجد علی منهم أذنا مصغية وكان ذلك سنة ثمان وثلاثین من الهجرة (١) .
 وینما كان علی یلقى الشدائد علی ید أصحابه الذی تثاقلوا عنه
 وتسلبوا من جيشه ، كان معاوية قد تمکن من الاستیلاء علی مصر سنة
 ٣٨ هـ علی ید عمرو بن العاص (٢) ؛ فأقره والیا علیها وأعطاه إياها

الدعوة الى حرب
معاوية

تثاقل المحاربين
عن علی

استیلاء معاوية
علی مصر

(١) الفخری : ص ٩١ — ٩٢

(٢) الطبری ج ٦ ص ٥٨ — ٦٠

على أن يدفع للجند عطاءهم وما بقي فله . واستقرت ولاية مصر لعمر و
ابن العاص من جديد وأصبح له السلطان المطلق في إدارة شئونها .

نشاطه للاستيلاء
على غيرها

ولم يكتف معاوية بذلك ؛ بل أخذ يجهز الحملات إلى أطراف
البلاد التي تحت سلطان على لغزوها . وقد أدرك أصحاب على هذا
الخطر ، عند ما ذهب معاوية إلى بيت المقدس وصار يدعو إلى نفسه
بالخلافة ؛ فما كان منهم إلا أن انضموا إلى على وكونوا جيشاً بلغ
أربعين ألف مقاتل . ولم يكد هذا الجيش يتحرك لقتال معاوية حتى
طعن علياً عبدالرحمن بن ملجم أحد الخوارج بسيف مسموم ، فتوفي في
١٧ رمضان سنة ٤٠ هـ . وذلك أن ثلاثة من الخوارج أجمعوا أمرهم
على قتل على ومعاوية وعمر وبن العاص جميعاً في يوم واحد لترتاح
الامة الاسلامية من تلك الحروب التي شنها من أجل الخلافة . فأما
ابن ملجم فقد قتل علياً (١) كرم الله وجهه . وبوفاته انتهى عهد الخلفاء
الراشدين ، ولم يفز الذي ندب نفسه لقتل معاوية . أما ما كان من أمر
عمر وبن بكر الذي عزم على قتل عمر وبن العاص ؛ فإنه جلس له في
الليلة المعهودة ؛ فلم يخرج عمر وبن العاص لمرض ألم به وندب خارجة
ابن حذافة قاضي مصر أن يصلي بالناس . وبينما هو في الصلاة ضربه
الخارجي بالسيف فقتله يظنه عمراً ؛ فلما علم أن المقتول غير عمر و
قال : أردت عمراً و اراد الله خارجة ؛ فذهبت مثلاً . ولما وقف
الرجل بين يدي عمر وبن بكر ؛ فقيل له : أجزعاً من الموت مع هذا
الاقدام ؛ فقال : لا والله ، ولكن غمماً أن يفوز صاحبى بقتل على
ومعاوية ولا أفوز أنا بقتل عمر و (٢) «

قتل على غيلة

(١) وقد زاد الطبري أن الرجل عند ما ذهب إلى الكوفة لقتل على ، كان مقيماً بين إخوانه
الخوارج ولم يعلمهم بعزمه مما يدل على أن هذا العمل كان تديراً شخصياً مقصوداً على هذا الرجل وزميليه .
(٢) وقد روى السيوطي في تاريخ الخلفاء ص ١١٨ رواية أخرى في قتل على هي أن ابن
ملجم لما قتل علياً لأنه أغرم بامرأة خارجية اسمها قطام وأمهرها ثلاثة آلاف درهم وأن يقدم

صفات على :

اتصف على بن أبي طالب بالخصال الحميدة منذ نعومة أظفاره .
وليس هذا يبعد عليه ؛ إذ نشأ في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم
فتأدب بآدابه العالية وتخلق بصفاته الكريمة ؛ وكان أول من أسلم من
الصبيان كما تقدم . وقد أحله الرسول من نفسه المحل اللائق به ؛ فعهد
إليه بكثير من أمور المسلمين فأبلى فيها بلاء حسنا وأخلص في نصرة
الاسلام ، فعلا أمره ونبه ذكره واشتهر بالشجاعة والبطولة . ولا أدل
على ذلك من تعرضه للخطر ليلة هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ،
إذ لبس ثوب النبي وبات في فراشه مع عليه بعزم المشركين على قتل
الرسول في تلك الليلة ، واختيار النبي صلى الله عليه وسلم إياه في غزو
خير للهجوم على الأعداء (على ما ذكرناه في صفحة ١٩٨) إذ قال :
لأعطين الراية غدا لرجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ،
فيفتح الله عليه . فلما أصبح الناس دعا عليا ووجهه إلى فتح خيبر .
كما اشتهر بالمروءة والوفاء واحترام العهود والحرص على مال المسلمين .
يدل على ذلك ما ذكره الطبري ^(١) والفخري من أن أبا رافع خازن
بيت المال في عهد على قال : دخل على يوما وقد زينت ابنته ، فرأى
عليها ثلوة من بيت المال قد كان عرفها فقال : من أين لها هذه ؟ لله
على أن أقطع يدها . فلما رأيتُ جده في ذلك قلت : أنا يا أمير المؤمنين
زينت بها ابنة أخي . ومن أين كانت تقدر عليها لو لم أعطاها ؟ فسكت .
أضف الى ذلك ما ذكره الفخري من أن عقيل بن أبي طالب أخا على

شجاعته

حرصه وتشدده في
أموال المسلمين

لها رأس على بن أبي طالب . وفي ذلك يقول الفرزدق :

فلم أر مهرا سافه ذو سباحة • كهر قطام بين غير معجم
ثلاثة آلاف وعيد وقينة • وضرب على بالحسام المصمم
فلا مهر أغلى من على وان غلا • ولا فتك الادون فتك ابن ملجم

(١) الطبري ج ٦ ص ٩٠

من أبيه وأمه طلب من بيت المال شيئاً لم يكن له بحق فمنعه على وقال :
يا أخى ! ليس لك فى هذا المال غير ما أعطيتك . ولكن اصبر حتى
يجىء مالى وأعطيك ما تريد . فلم يرض عقيلاً هذا الجواب ففارق
عليها وقصد معاوية بالشام (١) . وكان على لا يعطى ولديه الحسن
والحسين أكثر من حقهما . هذا وقد كان يرجع إليه فى كثير من
مسائل الدين وتفسير القرآن ورواية الحديث ومسائل الميراث
والمشكل من القضايا . روى أن عمر كان يتعوذ من معضلة ليس لها
أبو حسن (٢)

علمه بمسائل الدين
وتفسير القرآن
كفايته فى القضاء

وكان على يقول : سلونى سلونى عن كتاب الله تعالى فوالله مامن
آية إلا وأنا أعلم أنزلت بليل أم نهار فى سهل أم فى جبل .

وكان على مضرب الأمثال فى الفصاحة ، يلقى القول فيأخذ بمجامع
القلوب ويخطب الخطبة فيثير النفوس ويحمسها للحرب ، كما كان أشعر
الخلفاء الراشدين . أخرج السيوطى عن الشعبي قال : كان أبو بكر
يقول الشعر وكان عمر يقول الشعر ، وكان عثمان يقول الشعر ، وكان
على أشعر الثلاثة (٣) .

بلاغته

« كان على يعوزه حزم الحاكم ودهاؤه ، رغم ما كان يمتاز به من
الفضائل الكثيرة . فقد كان نشيطاً ، ذكياً ، بعيد النظر ، بطلاً فى
الحرب ، مشيراً ، حكيماً ، وفياً ، شريفاً الخصومة . نبغ فى الشعر
والبلاغة . وقد اشتهرت أشعاره وخطبه فى الشرق الإسلامى ، على

وصف نيكلسون
لعلى بن أبى طالب

(١) القفرى ص ٨١

(٢) أبو حسن كنية على بن أبى طالب

(٣) الخلفاء للسيوطى ص ١٢٢

الرغم من أن الكثير منها مدسوس عليه . ويمكن مقارنته بمونت روز
(Montrose)^(١) وبيارد (Bayard)^(٢) من حيث الشجاعة والنجدة ،
وكانت تنقصه الحنكة السياسية وعدم التردد في اختيار الوسائل أيا
كانت لتثبيت مركزه . ومن ثم تغلب عليه منافسوه الذين عرفوا أول
الامر أن الحرب خدعة ، والذين كانوا لا يتورعون عن ارتكاب أى
جرم يبلغ بهم الغاية ويكفل لهم النصر » .^(٣)

(١) اشتهر جيمس جراهام مونتروز James Graham Montrose
(١٦١٢ — ١٦٥٠ م) بالبطولة والشجاعة في الثورات التي قامت في اسكتلندة سنة ١٦٢٧ م
(٢) كان Pierre Terrail Bayard من مشهورى قواد فرنسا . ولد بمدينة
جرينوبل سنة ١٤٧٣ م وأحرز النصر والظفر في جميع الحروب التي وقعت في عهد شارل الخامس
ولويس الثاني عشر وفرنسوا الاول . وقد أثارت شجاعته وكرمه إعجاب الناس حتى الكثيرين
من أعدائه أنفسهم .

(٣) Nicholson, Lit. Hist. of the Arabs, p. 191.

الباب الرابع
الدولة الأموية

معاوية ابن أبي سفيان

٤٠ — ٦٠ هـ ٦٦٠ — ٦٨٠ م

نسبه ينتسب معاوية بن أبي سفيان بن حرب ^(١) مؤسس الدولة الأموية التي دان لها المسلمون زهاء ثمانين سنة (٤٠ — ١٢٢ هـ) إلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي . وكان أمية هذا من سادات قريش في الجاهلية ؛ وكان في الشرف والرفعة كما كان عمه هاشم بن عبد مناف . لهذا لانهجب إذا تنافس هذان البطنان رياسة قريش مما أدى إلى قيام العداء بينهما في الجاهلية والاسلام وكان أمية تاجراً كثير المال والعيال ؛ فكان له عشرة من الأولاد امتازوا بالشرف والسيادة ، منهم حرب ، وسفيان ، وأبو سفيان . وكان حرب بن أمية قائد قريش يوم الفجار ، كما قاد أبو سفيان قريشاً في حروبها ضد النبي . وهو صاحب العير القادمة من الشام إلى مكة التي وقعت من أجلها موقعة بدر الكبرى . وكان رئيس الجيش النافر وقتئذ لحماية قريش عتبة بن ربيعة بن عبد شمس جد معاوية لأمه . فكان أبوه صاحب العير وجده صاحب النفير . وبهما يضرب المثل فيقال للخامل « لاني العير ولا في النفير » ^(٢)

مولده واسلامه ولد معاوية بمكة قبل الهجرة بخمس عشرة سنة ، وأسلم يوم فتح مكة هو وأبوه وأخوه يزيد وأمه هند ، وله من العمر ثلاث وعشرون سنة ، واتخذته الرسول كاتباً للوحي . — ولما فتحت مكة في السنة الثامنة من الهجرة أراد أبو سفيان أن يمنع الأذى والمذلة عن قومه ،

(١) وأمه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن قصي . وهي أم اخيه عتبة . وأما يزيد ابن أبي سفيان ومحمد بن أبي سفيان وحظلة بن أبي سفيان وعمرو بن أبي سفيان فن أمهات أخرى .

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١ ص ١١٠

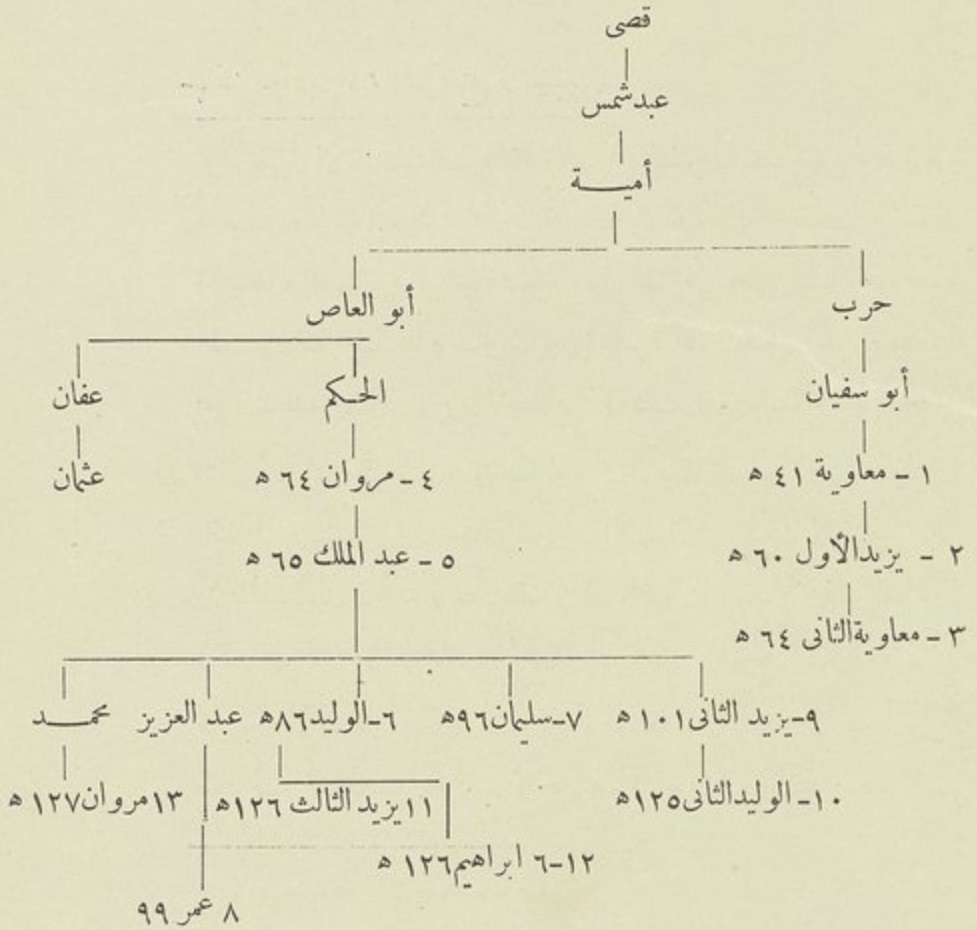
شرف أبي سفيان
في الاسلام

وأنهى العباس ذلك إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأمر مناديا
ينادى بمكة : من أغمد سيفه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ،
ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن . وبذلك سوى الرسول بين بيت أبي
سفيان وبيت الله ، وهو شرف عظيم لم ينله أحد مثله . فليس من عجب
إذا أسلم كثير منهم وأخذوا يعملون على نشر الاسلام ومد فتوحه ؛
فأبلوا في حرب الردة بلاء حسنا ، وسار بعضهم إلى الشام ، فاستهز
أمرهم وعظم ذكركم . ومنهم يزيد بن أبي سفيان الذي ولاء
أبو بكر قيادة أحد الجيوش الأربعة التي أنفذها لفتح الشام ، وولاه
عمر دمشق ، كما ولى أخاه معاوية ماولياها من البلاد الشامية . فلما
مات يزيد أضاف عمر إلى معاوية ما كان لأخيه ؛ ولما ولى عثمان
الخليفة ولاء الشام كلها ، وظل على ذلك حتى قتل عثمان فاستقل معاوية
بالشام . ولما بويع على بالمدينة امتنع معاوية من المبايعة له متهما إياه
بالهوادة في أمر عثمان وإيوائه قتلته في جيشه وعدم القصاص منهم ،
وبايعة أهل الشام على المطالبة بدم عثمان ومحاربة على ، مما أحدث
الخلاف وانشقاق بين أهل العراق وأهل الشام ، أو بعبارة أخرى بين
المسلمين كافة . وقصارى القول أن بيت عبد شمس انتقل من سيادة
في الجاهلية إلى سيادة في الاسلام .

معاوية في الشام

خليفة الحسن بن علي نال معاوية الخلافة بحد السيف تارة وبالمكيدة والسياسة تارة
أخرى . فقد دعا المسلمون إلى الحسن بن علي بعد قتل أبيه واستخلفوه ؛
إلا أن خلافته لم تثبت أمام قوة معاوية وما كان من رواج الاشاعة
بانهمام جيوشه أمام جند الشام مما أدى إلى تخلي أهل العراق عنه ؛ فلم يجد
بدأ من النزول عن الخلافة حقناً لدماء المسلمين . على أن الدافع الحقيقي
الذي حدا بالحسن إلى النزول ، إنما يرجع - على ماذهب إليه اليعقوبي -

البيت الأموي



في تاريخه (١) إلى أنه أصبح لاقبل له بمعاوية وجنده؛ فعقد معه صلحاً
نزل له فيه عن حقه في الخلافة، على أن يكون الأمر بعد وفاة معاوية
شورى بين المسلمين يولون عليهم من أحبوا. وبذلك أصبح معاوية
صاحب السلطان المطلق في كافة الولايات الإسلامية.

وفي الخامس والعشرين من ربيع الثاني سنة ٤١ هـ (٢) دخل معاوية
معاوية خليفة

(١) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٢٥٤

(٢) أنظر هامش ٥ ص ٣١ من كتاب الفاطميين للمؤلف.

الكوفة (١) حيث أخذت له البيعة بحضور الحسن والحسين ، ورحل الحسن بعد ذلك الى المدينة ولزم منزله حتى مات (٢) .

سياسة معاوية ازاء الخوارج والشيعة :

يقول الأستاذ نيكلسن (٣) : اعتبر المسلمون انتصار بني أمية وعلى رأسهم معاوية انتصاراً للأرستقراطية الوثنية التي ناصبت الرسول وأصحابه العدا ، والتي جاهدتها رسول الله حتى قضى عليها وصبر معه المسلمون على جهادها ومقاومتها حتى نصرهم الله ، ففقدوا عليها وأقاموا على أنقاضها دعائم الدين الاسلامي ، ذلك الدين السامع الذي جعل الناس سواسية في السراء والضراء وأزال سيادة رهط كانوا يحتقرون الفقراء ويستذلون الضعفاء ويتزنون الأموال . لذلك لا ندهش إذا كره المسلمون بني أمية وخطرستهم وكبريائهم وإبائهم للأحقاد القديمة ، ونزوعهم للروح الجاهلية ولاسيما وأن جمهور المسلمين كانوا يرون أن من بين الأمويين رجالاً كثيرين لم يعتنقوا الاسلام إلا سعيّاً وراء مصالحهم الشخصية ، وأنهم لاحق لهم في الخلافة . ولاغرو فقد كانت

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦

(٢) اختلف المؤرخون في سبب وفاة الحسن وتاريخ موته ؛ فذهب بعضهم الى أنه مات حتف أنفه بعد أربعين يوماً من وصوله الى المدينة ، وقد ذكر صاحب كتاب البدء والتاريخ أن الحسن توفي سنة ٤٩ من الهجرة ، كما روى لنا أن المؤرخين قد اختلفوا في سبب موته ، فقال : زعم قوم أنه زج ظهر قدمه في الطواف بزج مسموم (الزج : الحديد التي في أسفل الرح) . وقال آخرون ان معاوية بن أبي سفيان دس الى جمعة بنت الاشعث بن قيس بأن تسم الحسن ويزوجها يزيد فسمته وقتلته ؛ فقال لها معاوية : ان يزيد منا بمكان وكيف يصلح له من لا يصلح لابن رسول الله ، وعوضها عنه مائة ألف درهم (كتاب البدء والتاريخ المنسوب الى أبي زيد أحمد ابن سهل البلخي وهو المطهر بن طاهر المقدسي ج ٦ ص ٥ طبعة باريس سنة ١٩١٩)

(٣) Nicholson : Lit. Hist. of the Arabs, p. 193.

سياسة بني أمية ترمى الى جعل الخلافة مُلكاً كسروياً ؛ وليس أدل على ذلك من قول معاوية « أنا أول الملوك » (١) .

المسلمون عند تولية
معاوية الخلافة

وكانت الأمة الإسلامية عند تولي معاوية ثلاثة أحزاب :

١ - شيعة بني أمية من أهل الشام وغيرها من سائر الأمصار الإسلامية وخاصة مصر ؛ وكانوا يرون الخلافة في قريش وأن أهل البيت الأموي أولاهم بها .

٢ - شيعة علي بن أبي طالب ؛ وكانوا ببلاد العراق وقليل منهم بمصر ؛ وهؤلاء يرون الخلافة في قريش أيضاً وأن أحق الناس بها علي ابن أبي طالب وأولاده من بعده .

٣ - الخوارج وهم أعداء الفريقين يستحلون دماءهم ويرونهم خارجين على الدين ؛ وقد كان هؤلاء الخوارج يمثلون الديمقراطية الإسلامية ؛ إذ كانوا يرون أن الخلافة حق لكل مسلم ما دام كفؤاً لا فرق في ذلك بين قرشي وغير قرشي .

كان لكل من هذه الأحزاب أتباع وأشباع يدينون برأيه في الخلافة . ومنها الديمقراطي كحزب الخوارج ، وغير الديمقراطي كبقية الأحزاب الأخرى . وعلى هذا أخذ كل حزب يناضل بقية الأحزاب ليصل إلى غايته . وقد اشتد النزاع بينها جميعاً وجرد كل فريق السيف على الآخرين عسى أن ينزع الخلافة ويستخلصها لنفسه . وقد استمر الكفاح والجلاد بين الأمويين والهاشميين حتى تغلب الآخرون في النهاية وقامت دوله بني العباس .

(١) تاريخ يعقوبى ج ٢ ص ٢٧٦ .

يروون عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ان أول دينكم بد نبوة ورحمة ثم يكون خلافة ورحمة ، ثم يكون ملكاً وجبرية ، وأنه قال : الخلافة ثلاثون عاماً ثم يكون بعد ذلك الملك . قال العلماء : لم يكن في الثلاثين بعده صلى الله عليه وسلم الا الخلفاء الأربعة وأيام الحسن (السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٦ - ٧)

ولنبداً الآن بالكلام عن حزب الخوارج والشيعة في عهد معاوية ، لأن حزب الزبيريين لم يظهر في ميدان السياسة ظهوراً جديداً إلا في أواخر عهد معاوية بعد أن مكث طوال حياته لا يحرك ساكناً . وإنما عوّل على الظهور إذا ما تهيأت له الفرصة . وكان معاوية يعرف ذلك عن عبد الله بن الزبير ويخاف أن ينزع الخلافة من ابنه يزيد ، فأشار إلى ذلك في وصيته لابنه وحذره منه كما سيأتى .

الخوارج :

كان الخوارج أشد هذه الأحزاب خطراً ؛ إذ كان من الصعب ردّهم إلى جماعة المسلمين بالحجة والاقناع . ولا عجب فقد كانوا يرون من لم يشاطرهم رأيهم من المسلمين كفاراً دماً وهم وأموالهم حلال ؛ ولذلك لم يكن بدّ لمعاوية من أن يسلك معهم سبيل القمع والشدّة ليأمن شرهم ويقتلع ما يبذرونه من بذور التفرقة التي كادت تودى بالآمة إلى الضعف والانحلال .

وكان معاوية أبغض إلى الخوارج من على ، لما كانوا يعتقدونه فيه من العبث بأموال المسلمين ، ولاتخاذ القصور والحرس والحجاب وما إلى ذلك من مظاهر الملك التي أخذها عن البلاط البيزنطى . أضف إلى ذلك أنه لم ينل الخلافة عن إجماع من المسلمين ورضى منهم .

فلما استتب الأمر لمعاوية سنة ٤١ هـ عوّل الخوارج على قتاله ؛ وكان على رأسهم فروة بن نوفل الأشجعى الذى اعتزل عليا والحسن فى خمسمائة من الخوارج بشهرزور (١) ؛ فلما بايع الحسن معاوية قال فروة لأصحابه : جاء الآن ما لاشك فيه ، فسيروا إلى معاوية فجاهدوه . فخرج هو وأصحابه إلى الكوفة حيث كان معاوية ؛ فأرسل اليهم جيشاً من أهل الشام ؛ فلما هزمه الخوارج ؛ قال معاوية لأهل الكوفة « لا

النضال بين معاوية
والخوارج

(١) إقليم واسع فى الجبال بين ارسيل وهمدان ببلاد القرس وأهلها من الاكراد لهم بطش
وشدة (أنظر معجم البلدان لياقوت)

أمان لكم والله عندى حتى تكفوا بوائقكم ؛ فخرج أهل الكوفة إلى الخوارج يقاتلونهم ؛ فقالت لهم الخوارج « ويلكم ما تبغون ؟ أليس معاوية عدونا وعدوكم ؟ دعونا نقاتله ، فإن أصبناه كنا قد كفيناكم عدوكم وإن أصابنا كنتم قد كُفيتُمونا ؛ فأبى أهل الكوفة إلا القتال حتى يغلّبهم (١) .

لم يكن انهزام هذا الفريق ليشي الخوارج عن عزمهم ولا ليثبط همهم في الدفاع عما يعتقدون أنه الحق . فسرعان ما قام فريق آخر بزعامة حيّان بن ظبيان السلمي وتذاكروا إخوانهم بالنهروان وما لاقوه في سبيل الدفاع عن مبادئهم .

تفاقم شر الخوارج
بعد قتل علي

وكان حيّان من الذين قاتلوا عليا يوم النهروان ، وقد عفا عنه على عند ما أصابه جرح في هذه الموقعة ؛ فلما برى خرج هو وجماعة من الخوارج إلى الرى وأقاموا بها حتى بلغهم قتل علي . فحث حيّان من معه من الخوارج على المسير إلى الكوفة ومناجزة أعدائهم في هذه الخطبة : « ... فأنصرفوا بنار حكم الله إلى مصرنا فلأنت إخواننا فلندعهم إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإلى جهاد الأحزاب . فانه لا عذر لنا في القعود ، وولاتنا ظلمة وسنة الهدى متروكة ، وثأرنا الذين قتلوا إخواننا في المجالس آمنون » . وقد كان لهذه الخطبة أثرها . فقد سار الخوارج إلى الكوفة ودخلوها ، وكان من حسن حظهم أن كان عليها المغيرة بن شعبة ، وكان حسن السيرة يكره اراقة الدماء ؛ ولم يتدخل في شئون الخوارج الذين اجتمعوا في ذلك الوقت في دار حيّان حيث ولوا أمرهم المستورد بن علفة التميمي ، واتفقوا على أن يكون خروجهم في غرة شعبان سنة ٤٣ هـ (٢) هـ .

(١) الطبرى ج ٦ ص ٩٥

(٢) الطبرى ج ٦ ص ١٠٠

المغيرة يتعقب
الخوارج

على أن أحلام الخوارج لم تتحقق حين شمر المغيرة عن ساعد الجدد للتنكيل بهم واستئصال شأقتهم بما عرف عنه من الدهاء والمكر . ولا غرو فقد كان ثالث ثلاثة اشتهروا بين العرب بالدهاء : وهم عمرو ابن العاص ومعاوية بن أبي سفيان والمغيرة هذا الذي كان يقول فيه الناس لو كان الدهاء له ثمانية أبواب استطاع المغيرة أن يخرج منها كلها . فلما علم المغيرة بأمرهم شدد في طلبهم وحوّل على القضاء عليهم قبل أن يشتد خطرهم ؛ فقبض على جماعة منهم من بينهم حيان بن ضبيان ومعاذ بن جوين الطائي وأودعهم السجن (١) ، وضيق على اخوانهم حتى غادروا الكوفة وأخذوا ينتقلون في البلاد لا يلوون على شيء . ثم ساروا الى الصراة (قرب بغداد) ومنها إلى بهر سير (٢) . ولما علم المغيرة بمسيرهم جمع لقتالهم جيشا من الشيعة يربو على الثلاثة آلاف ، وأمر عليه معقل بن قيس الرياحي (٣) من كبار الشيعة ، فأدرك الخوارج بالمذار (٤) ثم بدلهما يا ، وهي قرية من قرى استان بهر سير إلى جانب دجلة كانت لخدمة بن العجلان الأزدي على مقربة من ساباط ، حيث قتلهم عن آخرهم .

ولما وجد معاوية تفاقم خطر الخوارج في العراق ولى زياد بن أبيه (٥)

تولية زياد بن أبيه
البصرة

(١) الطبرى ج ٦ ص ١٠٤

(٢) بفتح الباء وضم الهاء وفتح الراء وكسر السين . من نواحي سواد بغداد قرب المدائن

(٣) الطبرى ج ٦ ص ١٠٨ - ١١٨

(٤) بالفتح وآخره راء . فصبه ميسان بين واسط والبصرة ، بينهما وبين البصرة أربعة أيام .

(٥) كان زياد واليا من قبل على بن أبي طالب على بلاد فارس ، فلما قتل على اعتصم في ولايته

فبعث اليه معاوية : المغيرة ، فما زال يزياد حتى ثناه عن رأيه ، وأرسل اليه معاوية كتاب الامان . فسار اليه وسله مابقى عنده من أموال فارس ، واستلحقه معاوية بأبي سفيان الذي اعترف ببنوته في حياته على ما قبل . وشهد بذلك نفر من الناس ، وإن كان البعض ينكر صحة هذا النسب ، ومنهم عائشة أم المؤمنين ، ولهذا يقال له زياد بن حمية نسبة الى أمه وزياد بن أبيه لجهلهم اسم أبيه ، وبعضهم يلحقه بأبي سفيان ومنهم معاوية . . وغريب أن يلحقه معاوية بأبيه مع ما في هذا الامر من العار والخزي ، وإنما هي السياسة تفعل ما تشاء .

البصرة سنة ٤٥ هـ ؛ فقدم البصرة في ربيع الأول من هذه السنة ،
والرذيلة فاشية بين أهلها ؛ فخطبهم خطبته المشهورة بالبراء ، لأنه
لم يحمد الله فيها ، ولمّا أودع فيها من روائع الكلم وبديع الحكم .
وفيها أبان سياسته التي عول على السير عليها في حكم هذه البلاد ، وهي
سياسة حزم وعزم كان من جرائها أن توطدت أركان ملك معاوية في
هذه البلاد واستتب الأمن والطمأنينة في ربوعها ، واستطاع بذلك أن
يضرب على أيدي الخوارج ؛ ذلك أنه أخذهم بالقوة وأوقع في قلوبهم
الرعب فانقادوا له . وحذا حذوه المغيرة في الكوفة ، وبذلك أمن معاوية
جانب أهل العراق .

وفي سنة ٥١ هـ أضاف معاوية لزياد ولاية الكوفة بعد موت
واليها المغيرة بن شعبة ؛ فلما وصل اليها خطب أهلها فخصب وهو على
المنبر ؛ فأغلق أبواب المسجد واستحلف الناس على ذلك . فمن حلف
خلى سبيله ، ومن لم يحلف حبسه ؛ فأودع في السجن ثلاثين رجلا
قطعت أيديهم . وكان زياد يقيم بالبصرة ستة أشهر ، وبالكوفة
سنة أشهر .

وقد ضعفت شوكة الخوارج بعد المستورد بن علفقة بفضل
ما أبداه زياد بن أبيه من الشدة والقسوة في معاملتهم ؛ فلم تقم لهم قائمة
مدة ولايته على العراق ؛ فلم يحدثوا حدثا ولم يفارقوا الجماعة حتى ولى
البصرة عبيد الله بن زياد فظنوه سهلا لنا ؛ فتمحروا سنة ٥٨ هـ .
على أن ابن زياد قد قتل منهم جماعة صبرا ، منهم عروة بن أديّة .
ويحدثنا الطبري أن ابن زياد خرج في رهان له ؛ فلما جلس ينظر
الخیل اجتمع الناس وفيهم عروة ؛ فأقبل على ابن زياد وقال له « خمس
كن في الأمم قبلنا فقد صرن فينا . (أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ

الخوارج في عهد
ولاية زياد بن أبيه

وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ تَعْلَسُكُمْ تَخْلُدُونَ . وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ
جَبَّارِينَ^(١) . فلما سمع ابن زياد ذلك ترك رهبانه وأضمر لعروة الشر ،
فهرب عروة . غير أن ابن زياد تمكن من القبض عليه وقتله ؛ فغضب
لقتله أخوه أبو بلال مرداس بن أدية ، وخرج إلى الأهواز في
أربعين رجلا من الخوارج ، فبعث اليهم ابن زياد ألفي رجل على رأسهم
ابن حصن التيمي فهزمت الخوارج ؛ فقال شاعرهم :

أألفاً مؤمن منكم زَعَمْتُمْ * ويقتلهم بأسك أربعونا ؟

كذبتُم ليس ذاك كما زَعَمْتُمْ * ولكن الخوارج مؤمنونا

هي الفئة القليلة قد عَمِلْتُمْ * على الفئة الكثيرة يُنْصَرُونَا^(٢)

على أن ما أصابه أبو بلال لم يأت بطائل ؛ فقد عوّل ابن زياد على
استئصال شأفته وشأفة من معه ؛ فأرسل إليه ثلاثة آلاف أوقعوا به
وقتلوه وكثيراً من أصحابه سنة ٦١ هـ .

الصبيحة :

خمدت روح التشيع في نفوس أهل الكوفة وانضوا تحت لواء
معاوية الذي أصبح صاحب السلطان على أثر نزول الحسن له عن
الخلافة ومغادرته الكوفة الى المدينة ؛ بيد أن السياسة التي سار عليها
معاوية من سب علي بن أبي طالب وأهل بيته على المنابر قد أثارت
حقن الشيعيين . ذلك أن معاوية لما ولى المغيرة بن شعبة على الكوفة
أمره بلعن علي ، فأخذ المغيرة يلعن علياً كلما قام خطيباً . وبينما هو
يخطب ذات مرة سب علياً ومدح عثمان ؛ فقام حُجْر بن عدي وقال
له : « إن من تذمون وتعبرون لأحق بالفضل ؛ وإن من تزكون

(١) سورة الشعراء ٢٦ : ١٢٨ - ١٣٠

(٢) الطبري ج ٦ ص ١٧٤

وتطرون أولى بالذم (١) . فقال له المغيرة « ويحك يا حجر ! اتق السلطان وغضبه وسطوته ، فان غضب السلطان أحيانا مما يهلك أمثالك » .

وقد ظل حجر على سياسته العدائية ضد سلطان بني أمية حتى مات المغيرة وولى الكوفة بعده زياد بن أبيه ؛ فاتبع سنة من كان قبله في سب على ؛ فزاد هذا في حق حجر ومن معه ، وأخذوا يعقدون الاجتماعات لسب معاوية . فلما نمت أخبار هذه الاجتماعات إلى زياد ، غادر البصرة إلى الكوفة وأمر رئيس شرطته أن يأتي بحجر ؛ فلما ذهب إليه سبه أصحاب حجر ومنعوه من أن يصل إليه ؛ فجمع زياد أهل الكوفة وقال لهم : « تشجئون (٢) بيد وتأسون بأخرى ؟ أبدانكم معي وقلوبكم مع حجر الأحمق . هذا والله من رجسكم . والله لتظهرن لي براءتكم أو لا تبينكم بقوم أقيم بهم أودكم » . فقالوا : « معاذ الله أن يكون لنا رأى إلا طاعتك وما فيه رضاك » . ثم أمر زياد صاحب شرطته مرة أخرى أن يقبض على حجر ويحضره إليه ؛ فتم له ذلك . ولم يلبث زياد أن أرسل حجراً وأصحابه إلى معاوية (٣) ، فقتل منهم ثمانية وعفا عن ستة تبرءوا من علي بن أبي طالب (سنة ٥١ هـ) .

وبذلك ركبت ريح الشيعة وأصبح التشيع أمراً نظرياً . ولا غرو فقد كان بعضهم ينقصهم الحماس والاخلاص للبدأ الذي كانوا يعتنقونه ، ولم يكونوا كالخوارج في شجاعتهم وإخلاصهم لمبادئهم التي كانوا يضحون في سبيلها بأنفسهم

وقد ظلت نفوس الشيعة منطوية على حب علي وآل بيته ؛ غير

(١) الطبرى ج ٦ ص ١٤٢

(٢) من الشج وهو المرح

(٣) الطبرى ج ٦ ص ١٥٠

أن سياسة الشدة التي اتبعها معهم زياد بن أبيه لم تمكنهم من أن يعلنوا حب على والتشيع له .

الفقرح في عهد معاوية :

غزا عبد الله بن سوار الذي كان أميراً على ثغر السند القيقان (١) مرتين قتل في ثانيتهما ، وغزا المهلب بن أبي صفرة هذه الجهات ، ووصل إلى لاهور (٢) . وكانت همة المسلمين موجهة نحو الشمال والغرب حيث الدولة الرومانية الشرقية التي كانت تغير على البلاد الاسلامية لما بينها من الجوار ؛ فرتب معاوية الغزو إليها برا وبحرا . وقد بلغ أسطول الشام في عهد معاوية ١٧٠٠ سفينة افتتح بها عدة جهات منها جزيرة قبرص ، وجزيرة رودس ، وبعض الجزائر اليونانية ؛ أما في البر فقد رتب الشواتي والصوائف (٣) .

السند

قبرص ورودس

وفي سنة ٤٨ هـ جهز معاوية جيشا لفتح القسطنطينية برا وبحرا ، وكان على الجيش سفيان بن عوف ؛ وقد خرج معه عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير وأبو أيوب الأنصاري ، وأمر معاوية ابنه يزيد على الجيش ؛ فساروا حتى بلغوا القسطنطينية ؛ فاقتتل المسلمون والروم . ولم يستطع جيش العرب فتح القسطنطينية لمتانة أسوارها ومنعة موقعها وفتك النار الاغريقية بسفن المسلمين . وفي أثناء الحصار قتل أبو أيوب الأنصاري ؛ فدفن خارج القسطنطينية قريبا من سورها . ثم اضطر المسلمون للعودة إلى الشام بعد أن فقدوا كثيرا من جنودهم وسفنهم .

محاولة فتح القسطنطينية

وفي سنة ٥٠ هـ أرسل معاوية إلى عقبة بن نافع الذي كان مقيما

افريقية

(١) من بلاد السند مما يلي خراسان

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ٤٣٨ — ٤٣٩

(٣) الجيوش التي كانت تغزو هذه البلاد في الشتاء والصيف

ببرقة وزويلة منذ أيام عمرو بن العاص عشرة آلاف جندي ؛ فدخل إفريقيا وتمكن من فتحها وأسلم على يديه كثير من البربر ؛ وقد عمل العرب على إدخالهم ضمن جيوشهم . وبذلك تسنى لهم أن يجذبوهم إلى اعتناق الاسلام حتى اتصل ببلاد السودان كما يقول ياقوت . وقد كون البربر نواة الجيوش التي آتت فتح بلاد المغرب تحت قيادة قواد من العرب ، بل ومن البربر أيضا . وبذلك أصبح عقبة بن نافع والياً على إفريقية بعد أن كانت ولايتها تابعة لولاية مصر .

وقد رأى عقبة على أثر انتصاره على البربر أن يتخذ مدينة يكون بها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ليأمنوا ثورة أهل البلاد ؛ فقصده موضع القيروان ^(١) وأمر ببناء المدينة ؛ فبنيت كما بنى بها المسجد الجامع . ولم يلبث عقبة أن عزل وولى مكانه أبو المهاجر مولى مسلمة بن مخلد الذي ولاه معاوية مصر وإفريقية ^(٢)

ولاية العهد ليزيد :

كان المغيرة بن شعبة أول من أشار على معاوية بولاية العهد لابنه يزيد ، وذلك أن معاوية أراد في سنة ٥٦ هـ أن يعزل المغيرة عن الكوفة ويستعمل عليها سعيد بن العاص ؛ فبلغ الخبر المغيرة . فذهب إلى الشام وقابل يزيد بن معاوية وقال له : « إنه قد ذهب أعيان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وآله وكبراء قريش وذوو أسنانهم . وإنما بقي أبناؤهم وأنت من أفضلهم وأحسنهم رأياً وأعلمهم بالسنة والسياسة ، ولا أدري ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة . قال : أو ترى ذلك يتم ؟ قال : نعم ! »

(١) هي مدينة مصرت في الاسلام أيام معاوية .

(٢) أنظر كتاب البلدان لليقوتى (طبعة دي غويه) ص ٣٤٧ — ٣٤٨ م معجم البلدان

لياقوت ج ٧ ص ١٩٣ — ١٩٤ م كتاب الولاة للسكندى ص ٣٦

ترجيب معاوية
بالفسكرة

ولما اختمرت الفسكرة عند يزيد أعلم أباه بها ؛ فأحضر معاوية
المغيرة وسأله عن هذا الأمر وما قاله يزيد ؛ فقال له : ما يقول يزيد ؟
فقال يا أمير المؤمنين قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف
بعد عثمان وفي يزيد منك خلف ، فاعقد له ، فان حدث بك حادث
كان كهفًا للناس وخلفًا منك ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة . قال :
ومن لى بهذا ؟ قال : أكفئك أهل الكوفة ويكفيك زياد أهل
البصرة ، وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك . » (١)

رد معاوية المغيرة إلى الكوفة وعدل عن عزله وطلب منه أن
يمهد لهذا الأمر ؛ فعاد إلى الكوفة وحبب إلى الناس هذا الأمر ، فبايع
أنصار الأمويين ليزيد . وأوفد المغيرة عشرة منهم إلى معاوية فزينوا
له البيعة ليزيد وطلبوا منه أن يعهد اليه ؛ وبذلك قوى عزم معاوية
على البيعة ليزيد ؛ فأرسل إلى زياد بن أبيه ؛ فنصح لمعاوية أن يترث
في هذا الأمر لعدم توافر شروط الخلافة في يزيد وقال : « ويزيد
صاحب رسالة وتهاون مع ماقد أولع به من الصيد . » وعاد الرسول
إلى دمشق وأخبر يزيد برأى زياد فيه ؛ فكف عن كثير مما كان يصنع .
وكتب زياد إلى معاوية يشير عليه بالتأني في هذا الأمر ؛ فعمل معاوية
بمشورة زياد .

استطلاع رأى زياد
ابن أبيه

فلما مات زياد أرسل معاوية إلى مروان بن الحكم عامله على
المدينة يقول « إني قد كبرت سني ودق عظمي وخشيت الاختلاف
على الأمة من بعدى . وقد رأيت أن أنتخير لهم من يقوم بعدى ،
وكرهت أن أقطع أمرًا دون مشورة من عندك . فاعرض ذلك عليهم
وأعلمني بالذي يردون عليك . » (٢)

استطلاع رأى أهل
المدينة

(١) ابن الاثير ج ٣ ص ٢١٤

(٢) ابن الاثير ج ٣ ص ٢١٥

عرض مروان الأمر على الناس فوافقوا ؛ فأخبر معاوية بموافقتهم .
 ثم أرسل معاوية إلى مروان كتاباً يعزم فيه على البيعة لابنه يزيد ،
 فقرأه على الناس في المسجد ؛ فهاج القوم وماجوا . فقال عبد الرحمن
 ابن أبي بكر : « ما الخيار أردت الأمانة محمد ولكنكم تريدون أن تجعلوها
 هرقلية ، كلما مات هرقل قام هرقل » ، وقام الحسين بن علي فأنكر
 ذلك ، وفعل مثله عبد الله بن الزبير . (١)

ومن ثم ظهر حزب المعارضة الذي أنكر البيعة ليزيد ، وعلى رأسه
 عبد الرحمن بن أبي بكر ، والحسين بن علي ، وعبد الله بن الزبير ؛ على
 أن معاوية لم يأبه لهذه المعارضة وكتب إلى عماله أن يمهّدوا لبيعة يزيد
 في الأمصار وأن يرسلوا إليه الوفود بدمشق لإعلان رضاهم عن تلك
 البيعة . وقد تكلم في هذه الوفود الضحاك بن قيس الفهري ودعا لبيعة
 يزيد ، وتحققت سياسة معاوية . فأعلن البيعة لابنه بعد ما خطبهم معاوية
 والضحاك بن قيس وغيرهما في تعظيم الاسلام وحرمة الخلافة ،
 وفضل يزيد وعلمه بالسياسة وما يترتب على مبايعته من جمع كلمة
 المسلمين .

ويظهر أن كثيراً من هؤلاء القوم لم يرضوا عن هذه السياسة ؛ فقد
 أنبرى له رجل عرف بالصراحة ، لا يخشى في الحق لومة لائم هو
 الأحنف بن قيس فقال : « نخافكم إن صدقنا ، ونخاف الله إن كذبنا .
 وأنت يا أمير المؤمنين أعلم بيزيد في ليله ونهاره ، وسره وعلايته ،
 ومدخله ومخرجه . فان كنت تعلمه الله تعالى وللأمة رضا فلا تشاور
 فيه ، وإن كنت تعلم فيه غير ذلك فلا تزوده الدنيا وأنت صائر إلى
 الآخرة ، وإنما علينا أن نقول سمعنا وأطعنا » (٢)

(١) ابن الأثير ج ٣ ص ٢١٦

(٢) ابن الأثير ج ٣ ص ٢١٦

على أن معاوية قد استعمل كل أنواع الخيل والدهاء ، وكان « يعطى المقارب ويدارى المباعد ويلطف به حتى استوثق له أكثر الناس » ، وبايعوا ابنه يزيد . فلما تمت بيعة أهل الشام والعراق ، ذهب إلى المدينة لأخذ البيعة لابنه ؛ فقابلته الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر ؛ فأساء وفادتهم . ثم دخل على عائشة أم المؤمنين فشكاهم إليها وهدد بقتلهم إن لم يحييوه إلى بيعة يزيد ؛ فنصحت له أن يرفق بهم ويحسن معاملتهم ؛ فقبل النصيحة . ثم عاد معاوية إلى المدينة ولقي عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير والحسين بن علي وأغدق عليهم الهبات ، وتكلم معهم في شأن البيعة ، فقال ابن الزبير : « نخيرك بين ثلاث خصال . قال : أعرضن . قال : تصنع كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو كما صنع أبو بكر أو كما صنع عمر . قال معاوية : ما صنعوا ؟ قال : قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يستخلف أحداً فارتضى الناس أبا بكر . قال : ليس فيكم مثل أبي بكر وأخاف الاختلاف . قالوا : صدقت ، فاصنع كما صنع أبو بكر فإنه عهد إلى رجل من قاصية قريش ليس من بني أبيه فاستخلفه ، وإن شئت فاصنع كما صنع عمر ، جعل الأمر شورى في ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا من بني أبيه . قال معاوية : هل عندك غير هذا . قال : لا . ثم قال : فأتتم ؟ قالوا : قولنا قوله . قال : فإني قد أحببت أن أتقدم إليكم أنه قد أعذر من أنذر ، إني كنت أخطب منكم ، فيقوم إلى القائم منكم فيكذبني على رموس الناس ، فأحمل ذلك وأصفح . وإني قائم بمقاله ، فأقسم بالله لن رد عليّ أحدكم كلمة في مقامى هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه ، فلا يبقين رجل إلا على نفسه ؛ ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم ، فقال : أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ومع كل واحد سيف ؛ فان ذهب رجل منهم يرد عليّ

مسير معاوية إلى
المدينة

راى ابن الزبير

الاكراه على البيعة
لبن يزيد

كلمة تصديق أو تكذيب ، فليضرباه بسيفهما . ثم خرج وخرجوا معه حتى رقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يبتز أمر دونهم ولا يقضى إلا عن مشورتهم ، وإنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد ، فبايعوا على اسم الله . فبايع الناس ؛ وكانوا يتربصون بيعة هؤلاء النفر . ثم انصرف إلى المدينة ، فلقى الناس أولئك النفر ، فقالوا لهم : زعمتم أنكم لا تبايعون ، فلم رضيتم وأعطيتهم وبايعتم ؟ قالوا : والله ما فعلنا . فقالوا : ما منعكم أن تردوا على الرجل ؟ قالوا : كادنا وخفنا القتل . (١)

أخذ البيعة ليزيد

هكذا بايع الناس يزيد عدا هؤلاء النفر ؛ فقسا معاوية عليهم هذه قسوة شديدة ، وخالف شروط الخلافة ، وانتقل بها من خلافة إسلامية شورية إلى ملكية وراثية .

وفاة معاوية

لما مرض معاوية المرض الذي مات منه سنة ٦٠ هـ أوصى إلى ابنه يزيد وصية تدل على سداد رأيه وخبرته بالأمور ومعرفته بالرجال . واليك هذه الوصية : « أنظر إلى أهل الحجاز منهم أصلك وعترتك ، فمن أتاك منهم فاكرمه ، ومن قعد عنك فتعاهده . وانظر أهل العراق فان سألوك عزل عامل في كل يوم ، فاعزله ؛ فان عزل عامل واحد أهون من سل مائة ألف سيف لا تدرى على من تكون الدائرة . ثم انظر إلى أهل الشام ، فاجعلهم الشعار دون الدثار ، فان رابك من عدوك ريب فارمه بهم . ثم اردد أهل الشام إلى بلدهم ولا يقيموا في غيره ، فيتأدبوا بغير أدبهم . لست أخاف عليك إلا ثلاثة : الحسين ابن علي ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر . فأما الحسين بن علي فأرجو أن يكفيسكه الله فانه قتل أباه وخذل أخاه . وأما ابن الزبير فانه خب (٢) ضب ، فان ظفرت به فقطعه إربا إربا . وأما ابن عمر فانه

وصية معاوية ليزيد

(١) ابن الأثير ج ٣ ص ٢١٧ - ٢١٨ (٢) الحب بالفتح والكسر هو الرجل الخداع

رجل قد قرقره الورع نخل بينه وبين آخرته يخل بينك وبين دنياك» (١)

أخلاق معاوية وصفاته :

كان معاوية داهية من دهاة العرب ومن أوفرهم حظاً في السياسة .
 وفي ذلك يقول صاحب الفخرى (٢) : كان معاوية عاقلاً في دُنياه ، لبيباً عالماً ، حليماً ، مَلِكاً قوياً ، جَمِيدَ السياسة حسن التدبير لأمور الدنيا ، عاقلاً حكيماً ، فصيحاً ، بليغاً يحلم في موضع الحلم ويشتدُّ في موضع الشدة إلا أن الحلم كان أغلب عليه ، وكان كريماً باذلاً للمال محباً للرياسة مشغولاً بها ، كان يُفضل على أشرف رعيته كثيراً . فلا يزال أشرف قريش - مثل عبد الله بن العباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله ابن جعفر الطيار وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر وأبان بن عثمان بن عفان وناس من آل أبي طالب رضى الله عنهم - يقدون عليه بدمشق فيكرم مشواهم ويُحسن قراهم ويقضى حوائجهم ، ولا يزالون يحدِّثونه أغاظ الحديث ويحبِّهونه أقبح الجبِّه وهو يُداعبهم تارة ويتغافل عنهم أخرى ، ولا يعيدهم إلا بالجوائز السنِّية والصلوات الجمَّة . قال يوماً لقيس بن سعد بن عبادة رضى الله عنه وهو رجل من الأنصار « يا قيس والله ما كنت أودَّ أن تنكشف الحروب التي كانت بيني وبين عليّ عليه السلام وأنت حيّ » ، فقال قيس « والله إنى كنت أكره أن تنكشف تلك الحروب وأنت أمير المؤمنين » ؛ فلم يقل له شيئاً . وهذا من أجمل ما كانوا يخاطبونه به .

وقد وصف لنا معاوية الأستاذ نيكلسن « Nicholson » في كتابه

راى نيكلسون

(١) العقد الفريد لابن عبدربه ج ٣ ص ١٣١ - ١٣٢

وأما رواية هشام عن عوانه ، فليس فيها عبد الرحمن بن أبي بكر وكذلك العقد الفريد (ج ٣ ص ١٣٢) . والرواية الصحيحة هي الحالية من ابن أبي بكر لانه مات قبل وفاة معاوية

(٢) ص ٩٩ - ١٠٠

تاريخ العرب الأدبي في تلك العبارة : « كان معاوية سياسياً مكنكاً لا يقل في مضمار السياسة عن ريشيليو » Richelieu . فقد مكنته معرفته التامة بالطباع البشرية من أن يجذب إليه الرجال ذوي الآراء المعتدلة في جميع الأحزاب المعارضة له »

« Mu'awiya was a crafty diplomatist; he had been well compared to Richelieu, whose profound knowledge of human nature enabled him to gain over men of moderate opinions in all the parties opposed to him » (١)

وقد آتت هذه الصفات أكلها طوال خلافته . فيها استطاع أن يكبح جماح المسلمين عامة والخوارج خاصة وأن يسوس الأمة العربية سياسة تدل على الحكمة وحسن التدبير . وبذلك أصبح — على ما ذهب إليه صاحب الفخرى — خليفة العالم وخضع له من أبناء المهاجرين والأنصار كل من يعتقد أنه أولى بالخلافة (٢)

وليس أدل على مامتاز به معاوية من بالحلم من ذلك الحوار الذي دار بينه وبين الدارمية : فقد روى القلقشندي (٣) أن معاوية حج فسأل عن امرأة من بني كنانة كانت تنزل الحجون يقال لها الدارمية ، وكانت سوداء كثيرة اللحم ، فأخبر بسلامتها فجاء بها ، فقال ما حالك يا ابنة حام ؟ قالت لست لحام أدعى ، إن عبثني أنا امرأة من بني كنانة . قال : صدقت أتدريين لم أرسلت إليك ؟ قالت : لا أعلم الغيب إلا الله . قال : بعثت إليك لأسألك عـلام أحببت عليا وأبغضتيني ، وواليتيه وعاديتيني ؟ قالت : أو تعفيني يا أمير المؤمنين ؟

Nicholson, Literary History of the Arabs, p.195 (١)

(٢) الفخرى : الآداب السلطانية ص ١٠٠

(٣) صبح الاعشى ج ١ ص ٢٥٩ - ٢٦٠

قال لا أعفيك . قالت أما إذا أبيت ، فاني أحببت عليا على عذله في
الرعية وقسمه بالسوية ، وأبغضتك على قتالك من هو أولى بالامر
منك ، وطلبك ماليس لك بحق ، وواليت عليا على ما عقد له من
من الولاية ، وعلى حبة المساكين ، وإعظامه لأهل الدين ، وعاديتك
على سفكك الدماء ، وجورك في القضاء ، وحكمك بالهوى . قال
ولذلك انتفخ بطنك ، وعظم ثدياك ... قالت يا هذا بهند كانت
تضرب الأمثال لابن . قال : يا هذه اربعي ، فإني لم نقل إلا خيرا . إنه
إذا انتفخ بطن المرأة تم خلق ولدها ، وإذا عظم ثدياها تروى رضيعها .
قال لها فهل رأيت عليا ؟ قالت : لقد كنت رأيته . قال : كيف كنت
رأيتيه ؟ قالت : رأيته لم يفتنه الملك الذي فتنك ، ولم تشغله النعمة التي
شغلتك . قال لها : فهل سمعت لكلامه ؟ قالت : نعم ! والله كان يجلو
القلوب من العمى ، كما يجلو الزيت القطست من الصدا . قال : صدقت
فهل لك من حاجة ؟ قالت : وتفعل إذا سألتك ؟ قال : نعم . قالت :
تعطيني مائة ناقة حمراء فيها فحلها وراعيها . قال تصنعين بها ماذا ؟
قالت أغدسي بالبانها الصغار ، وأستحيي بها الكبار ، وأصلح بها بين
العشائر . قال : فان أعطيتك ذلك فهل أحل عندك محل علي ؟
قالت : ماء ولا كصداء . ومرعى ولا كالسعدان ، وقى ولا كاللاك ،
ياسبحان الله أودونه ، فأنشأ معاوية يقول :

إذا لم أعد بالحلم مني إليكم فمن ذا الذي بعدي يؤمل للحلم ؟
أخذها هنيئاً واذكري فعل ماجد جزاك على حرب العداوة بالسلم
ثم قال : أما والله لو كان عليا ما أعطاك منها شيئا . قالت والله
ولا وبرة واحدة من مال المسلمين .

وقد ذكر المسعودي شيئا عن حياة معاوية الخاصة وشغفه
بالعلم فقال : « كان من أخلاق معاوية أنه كان يؤذن في اليوم واليلة
رأى المسعودي

خمس مرات . كان إذا صلى الفجر جلس للقاص حتى يفرغ من قصصه ، ثم يدخل فيؤتي بمصحفه فيقرأ أجزائه ثم يدخل الى منزله فيأمر وينهى ، ثم يصلى أربع ركعات . ثم يخرج الى مجلسه فيأذن لخاصة الخاصة فيحدثهم ويحدثونه ، ويدخل عليه وزراؤه فيكلمونه فيما يريدون من يومهم الى العشى . ثم يؤتى بالغداء الأصغر : وهو فضلة عشاءه من جدى بارد أو فرخ أو ما يشبهه ، ثم يتحدث طويلا . ثم يدخل منزله لما أراد ، ثم يخرج فيقول يا غلام أخرج الكرسي فيخرج الى المسجد فيوضع ، فيسند ظهره الى المقصورة ويجلس على الكرسي . ويقوم الأحداث فيتقدم اليه الضعيف والاعراب والصبي والمرأة ومن لا أحد له . فيقول ظلمت فيقول أعزوه ، ويقول عدى على فيقول ابعثوا معه ، ويقول صنع بي ، فيقول انظروا في أمره ، حتى إذا لم يبق أحد دخل فجلس على السرير ، ثم يقول ائذنوا للناس على قدر منازلهم ، ولا يشغلني أحد عن رد السلام . فيقال كيف أصبح أمير المؤمنين أطل الله بقاءه ؟ فيقول بنعمة من الله . فإذا استووا جلوساً قال ياهؤلاء إنما سميتم أشرافا لانكم شرفتم من دونكم بهذا المجلس . ارفعوا الينا حوائج من لا يصل اليها فيقوم الرجل ، فيقول استشهد فلان فيقول افرضوا لولده ، ويقول آخر غاب فلان عن أهله فيقول تعاهدوهم اعطوهم اقضوا حوائجهم اخدموهم . ثم يؤتى بالغداء ويحضر الكاتب ، فيقوم عند رأسه ، ويقدم الرجل فيقول له اجلس على المائدة ، فيجلس ، فيمديده فيأكل لقمتين أو ثلاثاً والكاتب يقرأ كتابه ، فيأمر فيه أمراً ، فيقال يا عبد الله أعقب . فيقوم ويتقدم آخر حتى يأتي على أصحاب الحوائج كلهم . وربما قدم عليه من أصحاب الحوائج أربعون أو نحوهم على قدر الغداء . ثم يرفع الغداء ويقول للناس أجزوا فينصرفون ؛ فيدخل منزله ، فلا يطمع فيه طامع حتى ينادى بالظهر ، فيخرج فيصلى ، ثم يدخل فيصلى أربع

ركعات ، ثم يجلس فيأذن لخاصة الخاصة . فإذا كان الوقت وقت شتاء
أتاهم بزاد الحاج من الأخبصة اليابسة والخشكناج ، والأقراص المعجونة
باللبن والسكر من دقيق السميد ، والكعك المنضد والفواكه اليابسة .
وإن كان وقت صيف أتاهم بالفواكه الرطبة ؛ ويدخل اليه وزراؤه
فيؤامرونه فيما احتاجوا اليه بقية يومهم . ويجلس إلى العصر ثم يخرج ،
فيصلي العصر ثم يدخل منزله ، فلا يطمع فيه طامع . حتى إذا كان في
آخر أوقات العصر ، خرج فجلس على سريره ويؤذن للناس على منازلهم ،
فيؤتى بالعشاء فيفرغ منه مقدار ما ينادى بالمغرب ولا ينادى له بأصحاب
الحوائج ، ثم يرفع العشاء وينادى بالمغرب ، فيخرج فيصليها ثم يصلي
بعدها أربع ركعات يقرأ في كل ركعة خمسين آية يجهر تارة ويخافت
أخرى ، ثم يدخل منزله فلا يطمع فيه طامع حتى ينادى بالعشاء
الآخرة ، فيخرج فيصلي ثم يؤذن للخاصة وخاصة الخاصة والوزراء
والحاشية فيؤامره الوزراء فيما أرادو صدراً من ليلتهم . ويستمر إلى
ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها ، وسياستها لرعيها
وسائر ملوك الأمم ، وحروبها ومكايدها وسياستها لرعيها وغير ذلك
من أخبار الأمم السالفة . ثم تأتبه الطرف الغربية من عند نساءه من
الخلوى وغيرها من المآكل اللطيفة ، ثم يدخل فينام ثلث الليل ثم
يقوم فيقعد ، فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب
والمكايده ، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون ، وقد وكلوا بحفظها
وقراءتها ، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار
 وأنواع السياسات ، ثم يخرج فيصلي الصبح ثم يعود فيفعل ما وصفنا
في كل يوم «

شفقه بالعلم

يزيد بن معاوية

٦٠ - ٦٣ هـ ٦٨٠ - ٦٨٣ م

ولد يزيد من امرأة بدوية ، تزوج بها معاوية قبل توليته الخلافة .
غير أنها لم تحتمل المعيشة في دمشق فردها معاوية إلى أهلها ؛ فنشأ يزيد
على ما عودته عليه أمه من معيشة البدو وحب الله وعدم مراعاة
القوانين . وكان فصيحاً كريماً وشاعراً مقلقاً ، حتى قالوا « بدى الشعر
بملك وختم بملك » يعنون امرأ القيس ويزيد

لما مات معاوية بايع الناس يزيد بالخلافة . وقد قعد عن بيعته
الحسين بن علي ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن العباس ، وعبد الله
ابن عمر . فسكتب يزيد إلى الوليد بن عتبة وإلى علي المدينة أن يأخذ له
البيعة من هؤلاء النفر ، فبايعه عبد الله بن العباس ، وعبد الله بن عمر .
أما عبد الله بن الزبير فإنه أتى وفرّاً إلى مكة واستعاذ بالبيت ؛ وأخذ
يعمل على الدعوة لنفسه ؛ ولكنه وجد في الحسين بن علي منافساً قوياً ،
فلم يجرؤ على مناوئته (١)

ولما طلب إلى المدينة من الحسين بن علي أن يبايع يزيد بالخلافة
قال : « أما البيعة فإن مثلي لا يعطى بيعته سرا ولا أراك تجتزئ بها مني
سرادون أن نظهرها على رؤوس الناس علانية ... فاذا خرجت إلى الناس
فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا مع الناس فكان أمراً واحداً » ، فقال له
الوليد - وكان يحب العافية - فانصرف على اسم الله .

خروج الحسين بن علي :

وعلى أثر هذه المقابلة توجه الحسين إلى مكة وكاتب الشيعة بالكوفة ،
فاجتمعوا وأرسلوا إليه كتاباً جاء فيه « ... أما بعد فالحمد لله الذي قسم

(١) الدينوري ص ٢٣٠ ؛ والطبري ج ٦ ص ١٨٩

ظهر عدوك الجبار العنيد الذي اعتدى على هذه الأمة . فانتزعها حقوقها
واغتصبها أمورها وغلبها على فيئها ، وتأمر عليها على غير رضى منها ،
ثم قتل خيارها واستبقى أشرارها ، فبعد له كما بعدت ثمود . إنه ليس
علينا إمام ، فاقدم علينا لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى ، فان النعمان
ابن بشير في قصر الامارة ، ولسنا نجتمع معه في جمعة ولا نخرج معه إلى
عيد . ولو قد بلغنا مخرجك أخرجناه من الكوفة وألحقناه بالشام » . ثم
اتبعوا هذا الكتاب بكتب أخرى ذكروا فيها أسماء الشيعة الذين
حضرُوا الاجتماع ، وطلبوا منه في هذه الكتب المبادرة بالذهاب إلى
الكوفة ^(١) .

خروجه الى الكوفة

فلما وصلت اليه هذه الكتب أرسل اليهم ابن عمه مسلم بن عقيل
ليتبين حقيقة الأمر ، ويخبره بما يراه من أمرهم ؛ فسار مسلم إلى
الكوفة حيث التف حوله كثير من الشيعة وبايعوه على النصر ،
فاغتر بما شاهده منهم وأرسل إلى الحسين يستحثه في القدوم إلى
الكوفة .

قتل مسلم بن عقيل

وفي هذه الاثناء عزل يزيد النعمان بن بشير عن الكوفة لضعفه
عن قمع الفتنة ، وولى مكانه عبيد الله بن زياد ؛ فأخذ الشيعة بالشدة ،
حتى تفرق كثير منهم عن مسلم بن عقيل . فلما رأى مسلم تفرق أهل الكوفة
عنه استجار بهاني بن عروة المرادي فقتلهما عبيد الله بن زياد جميعا .
وفي ذلك يقول الفرزدق :

وَإِنْ كُنْتَ لَا تَذَرِينَ مَا الْمَوْتُ فَانْظُرِي

إِلَى هَانِيٍّ فِي السُّوقِ وَابْنَ عَقِيلٍ

(١) الامامة والسياسة ج ٢ ص ٣ - ٤

وقد قيل إن الحسين تسلم نحواً من مائة وخمسين كتاباً من مختلف الجماعات . وكان ذلك في
شهر ذي الحجة سنة ٦٠ هـ (٦٠ م) . أنظر كتاب « الفاطميون في مصر » للدولف ص ٣٢
نقلاً عن مخطوط رقم ١٩٧٩ ورقة ١٢ (ب) مخطوط رقم ١٦٤٧ ورقة ١٤٥ بمكتبة الجامعة بليدن

إِلَى بَطَلٍ قَدْ هَمَّ السَّيْفُ وَجْهَهُ

وَأَخْرَى يَهْوَى مِنْ طِمَارٍ قَتِيلٍ (١)

أما الحسين فإنه لم يعتبر بما فعله أهل الكوفة مع أبيه وأخيه من قبل ؛ بل ولم يصغ إلى قول الفرزدق الشاعر حين سأله عن أهل الكوفة ، وكان الحسين في طريقه إليها : « خَلَفْتُ قُلُوبَ النَّاسِ مَعَكَ وَسُوفَهُمْ مَعَ بَنِي أُمِّةٍ عَلَيْكَ » (٢) ، ولم يأبه بنصيحة عبدالله بن العباس عندما علم بعزمه على المسير إلى الكوفة ، إذ قال له « أُنْسِرْ إِلَى قَوْمٍ قَدْ قَتَلُوا أَمِيرَهُمْ وَضَبَطُوا بِلَادَهُمْ وَنَفَوْا عَدُوَّهُمْ ؟ فَإِنْ كَانُوا قَدْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَسِرْ إِلَيْهِمْ ، وَإِنْ كَانُوا دَعَوْكَ إِلَيْهِمْ ، وَأَمِيرٌ عَلَيْهِمْ قَاهِرٌ لَهُمْ وَعَمَالُهُ تَجِبِي بِلَادَهُمْ ، فَانْهَمِ إِنْمَا دَعَاكَ لِلْحَرْبِ وَالْقِتَالِ ، وَلَا آمَنَ عَلَيْكَ أَنْ يَغْرُوكَ وَيَكْذِبُوكَ وَيَخَالِفُوكَ وَيَخْذُلُوكَ ، وَأَنْ يَسْتَنْفِرُوا إِلَيْكَ فَيَكُونُوا أَشَدَّ النَّاسِ عَلَيْكَ » . فقال له الحسين « إِنِّي أَسْتَخِيرُ اللَّهَ وَأَنْظُرُ » (٣)

لم يلتفت الحسين إلى نصيح الناصحين ، فسار إلى الكوفة ، على رأس فئة قليلة لم يتجاوز عددها الثمانين رجلا . ولم يعلم بقتل مسلم بن عقيل وخذلان الشيعة له

فلما دنا الحسين من الكوفة وعلم بقتل مسلم بن عقيل وخذلان أهلها له ، قابله الحر بن يزيد التيمي وقال له : « ارْجِعْ فَإِنِّي لَمْ أَدَعْ لَكَ خَلْفِي خَيْرًا أَرْجُوهُ ؛ وَمَنْ شِمَ دَاخِلَ الْحُسَيْنِ الشُّكَّ وَهَمَّ بِالرَّجُوعِ ، غَيْرَ أَنَّ إِخْوَةَ مُسْلِمِ بْنِ عَقِيلٍ صَمَّمُوا عَلَى أَنْ يَأْخُذُوا بِثَأْرِ أَخِيهِمْ أَوْ يَقْتُلُوا دُونَهُ ، فَنَزَلَ الْحُسَيْنُ عَلَى رَأْيِهِمْ وَسَارَ حَتَّى لَقِيَهِ خَيْلُ ابْنِ زِيَادٍ ، فَعَدَلَ

(١) الفخرى ص ١٠٧

(٢) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٦٥

(٣) الطبري ج ٦ ص ٢١٦

إلى كربلاء (١). وهناك نشب القتال بين الفريقين فى العاشر من المحرم سنة ٦١ هـ ، فأوقع بهم العدو وأبادهم عن آخرهم . يقول صاحب الفخرى (٢) : « ثم قتل الحسين عليه السلام قتلة شنيعة . ولقد ظهر منه عليه السلام من الصبر والاحتساب والشجاعة والورع والخبرة التامة بآداب الحرب والبلاغة ، ومن أهله وأصحابه رضى الله عنهم من النصر له والمواساة بالنفس وكراهية الحياة بعده ، والمقاتلة ، بين يديه عن بصيرة مالم يشاهد مثله . ووقع النهب والسبي فى عسكره وذرائه عليهم السلام ، ثم حمل النساء ورأسه صلوات الله عليه إلى يزيد بن معاوية بدمشق فرد نساءه إلى المدينة »

وكان لمقتل الحسين فى أرض كربلاء التى أصبحت ملطخة بدمائه وأثر مقتله أثر كبير فى إذكاء نار التشيع فى نفوس الشيعة وتوحيد صفوفهم ، وكانوا قبل ذلك متفرقي الكلمة مشتتى الأهواء ؛ اذ كان التشيع قبل مقتله رأياً سياسياً نظرياً لم يصل إلى قلوب الشيعة . فلما قتل الحسين امتزج التشيع بدمائهم وتغلغل فى أعماق قلوبهم وأصبح عقيدة راسخة فى نفوسهم .

وعلى أثر مقتل الحسين انتشر التشيع بين الفرس الذين تربطهم به رابطة المصاهرة ، اذ كانوا يرونه أحق بالخلافة ثم أولاده من بعده ، لأنهم يجمعون بين أشرف دم عربى وأنقى دم فارسى . لذلك لانعجب إذا أخذ شعور العداء منذ ذلك الوقت يثور بركانه لأوهى الأسباب . يؤيد هذا ما كان من عبد الله بن عفيف الأزدى . فانه لما قتل الحسين وصعد ابن زياد المنبر وخطب خطبته التى جاء فيها « الحمد لله الذى

(١) الطبرى ج ٦ ص ٢٢٠

فى طرف الصحراء عند الكوفة

(٢) الفخرى ص ١٠٧

أظهر الحق وأهله ونصر أمير المؤمنين يزيد وحزبه ، وقتل الكذاب بن الكذاب وشيعته » ، قام عبد الله بن عفيف وأخذ يفند قوله بهذه الكلمات المملوءة حنقا المفعمة سخطا على بنى أمية وولاتهم « ياعدو الله ! إن الكذاب أنت وأبوك والذى ولاك وأبوه . تقتل أولاد النبيين وتقوم على المنبر مقام الصديقين (١) » ؟

وقد وصف صاحب الفخرى (٢) موقعة كربلاء فقال : « هذه قضية لا أحب بسط القول فيها استعظاما لها واستفظاعا . فانها قضية لم يجر في الاسلام أعظم فحشا منها . ولعمري إن قتل أمير المؤمنين عليه السلام هو الطامة الكبرى . ولكن هذه القضية جرى فيها من القتل الشنيع والسبى أو التمثيل ما تقشعر له الجلود . واكتفيت أيضا عن بسط القول فيها بشهرتها فانها أشهر الطامات . فلعن الله كل من باشرها وأمر بها ورضى بشئ منها ، ولا تقبل الله منه صرفا ولا عدلا ، وجعله من (الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)

ولنأت الآن برأى مؤرخ شرقى مسلم عن هذه الموقعة وما كان لها من الأثر في نفوس الشيعة خاصة والمسلمين عامة ، وهو السيد أمير على قال : « لقد ألفت مذبحة كربلاء الفزع والهلوع في جميع البلاد الاسلامية ، كما اذكت نفوس أهل بلاد الفرس ذلك الحماس الوطنى الذى ساعد بنى العباس على ثل عرش الأمويين وإسقاط دولتهم . » (٣) وقد علق الأستاذ براون (٤) على موقعة كربلاء بقوله :

(١) الفاطميون في مصر للمؤلف ص ٣٣ نقلا عن مخطوط رقم ١٦٤٧ ورقة ١٨٠ (١) البدين

(٢) الآداب السلطانية ص ١٠٦

(٣) Sayed Ameer, Ali, A Short History of the Saracens, p. 87.

(٤) Lit. Hist. of Persia, vol. I. p. 226.

« إن فريق الشيعة أو حزب علي كان — على ما رأينا — ينقصه الحماس وبذل النفس . بيد أن هذا كله قد تبدل منذ ذلك الحين ، وغدت ذكرى أرض كربلاء المملوطة بدم ابن بنت النبي مع ما قاساه من شدة العطش ، وإحاطته بجثث ذوى قرباه ، كل ذلك غدا منذ هذا الوقت كافياً لأن يثير — حتى عند أكثر الناس فتوراً وتراخياً — العواطف التي بلغت الصميم ، والأحزان التي تملك النفوس . وأصبحت هذه الروح لا تتألى بالآلام والأخطار ، بل ولا بالموت »

عبارة نيكلسون

ويجدر بنا أن نقبس أيضاً ما ذكره الأستاذ نيكلسون^(١) : « يعتبر جميع المؤرخين الاسلاميين الذين يكادون يجمعون — بعد استثناء القليل النادر منهم — على بغض الأمويين والعداء لهم ويعتبرون الحسين بن علي شهيداً في الوقت الذي يعتبرون فيه يزيد بن معاوية سفاكاً ؛ بينما يرى جمهرة المؤرخين المحدثين رأى السير ولیم ميور الذي يذهب إلى أن الحسين « بانسياقه إلى تدبير الخيانة سعياً وراء العرش قد ارتكب جريمة هددت كيان المجتمع وتطلبت من أولى الأمر (في الدولة الأموية) التعجيل بقمعها » . وكان هذا بطبيعة الحال وجهة نظر الفريق الذي كان بيده النفوذ والسلطان . وعلى القارىء بعد هذا أن يكون لنفسه رأيه الخاص في هذه المسألة ؛ وهو إلى أى حد يبرر وجهة نظر الأمويين ما ارتكبه في تلك الموقعة من شدة وقسوة . أما في نظر المسلمين الذين اعتادوا الاحتكام إلى الدين في جميع الأمور ، ولا سيما في مسألة مثل هذه تعتبر بحق من أعضل مسائل التاريخ الاسلامي وأعقدها ؛ فإن علاقة الأمويين بالدين ومقدار تمسكهم به أو انحرافهم عنه — كل ذلك كفيل بالفصل في تلك المسألة . فقد كان الأمويون في نظر المسلمين طغاة مستبدين لا انتهاكهم قوانين الاسلام وشرائعه وامتهانهم لمثله العليا

ووطئها بأقدامهم . وإذ كانوا كذلك ، فلا يحل لهم أن يقتلوا المؤمنين الذين امتشقوا الحسام ضد الغاصيين لسلطانهم . وأما حكم التاريخ في هذا الموضوع - إذا ما تصدينا لبحثه وتمحيصه - فلن يعدو أن يكون حكم الدين ضد الملوكية أو قضاء الحكومة الدينية ضد الامبراطورية العربية ؛ وعلى هذا الأساس يحكم التاريخ بحق بإدانة الأمويين . على أنه يحمل بنا أن نذكر أن انفصال الدين عن الحكومة لا وجود له في نظر المسلمين . »

ويحذر بنا أن نقتبس أيضاً ما ذكره الأستاذ نيكلسن في هذا الصدد : « لقد اتخذ بنو أمية من يوم كربلاء سبباً كافياً يدعوهم إلى أن يندموا على ما فرطت أيديهم ، إذ أن هذا اليوم وحد صفوف الشيعة ، فصاحوا صيحة واحدة : الاخذ بثأر الحسين ؛ هذا النداء الذي دوى في كل مكان ، وعلى الأخص عند الموالي من الفرس الذين تاقوا إلى الخلاص من نير العرب »

هذه العبارات تصف حال الأمة العربية وصفاً دقيقاً في ذلك الوقت ، حتى إن العداء بين الأمويين والعلويين غداً شديد الخطر بعد قتل الحسين وقتل نفر من ذوى قرباه (١)

واقعة الحرة (زوالجمة سنة ٦٣ هـ) :

لم تنته مصائب يزيد عند حد كارثة كربلاء ؛ فقد نهبت المدينة المنورة في عهده . ويرجع ذلك إلى ما كان من كراهة أهل هذه المدينة حكم يزيد وخلعهم إياه وطردهم عامله وتضييقهم على من كان بها من بنى أمية ؛ (٢) فبعث إليهم يزيد مسلم بن عقبة المُرِّي وكان من جبابرة العرب ودهاتهم ؛ وقد طعن في السن . فسار إليها وهو مريض وحاصرها من جهة الحرة

(١) Nicholson Lit. Hist. of the Arabs, pp. 197-198.

(٢) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٣٠٤ وما يليها

وهو موضع بظاهر المدينة ، وما زال حتى فتحها ، ثم أباحها ثلاثة أيام ، وأسرف هو وجنوده في القتل والنهب والسلب ؛ فسمى مسرفاً لذلك^(١)

عبارة السيد أمير على

ويصف لنا سيد أمير على في كتابه موجز تاريخ العرب تلك الموقعة وصفاً دقيقاً ، كما يذكر لنا ما فقدته المسلمون فيها من خيرة رجالهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار الذين نصره في ساعة العسرة وأوقات الشدة فيقول : « ولما وصلت الأخبار إلى يزيد بخروج أهل المدينة عليه وخلعهم إياه وطردهم عامله ، جن جنونه وثار ثائرتة . فأرسل إليهم من فوره جيشاً كبيراً من المرتزقة ، ومن أنصار بني أمية من أهل الشام تحت قيادة مسلم بن عقبة المعروف في تاريخ العرب بالمسرف " The accursed murderer " . وقد تقابل أهل المدينة مع جند الشام بمكان يقال له الحرة ، حيث وقعت بين الفريقين معركة حامية غلب فيها المسلمون وهزموا هزيمة منكراً على الرغم مما أظهره من الشجاعة والاستبسال في القتال وقد استشهد في تلك المعركة التي كانت وبالاً على الإسلام والمسلمين من نواح عدة زهرة أهل المدينة من الفرسان ومن خيرة أصحاب الرسول . وهكذا أباح الأمويون المدينة ودنسوها ؛ ذلك البلد الذي آوى الرسول مدة حياته ، والذي كان مهبط رسالته كما قال أهلها الذين آووا الرسول وبذلوا أنفسهم دونه في ساعة العسرة أقسى ألوان العذاب

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٩٢ في الفخرى ص ١٠٨

يقال إن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم خاف فأخذ سيفه وخرج إلى كهف هناك ليدخل إليه ويمتصم به . فقبضه بعض أهل الشام ، فخافه أبو سعيد وذل سيفه عليه ليروعه ، فسل الآخر سيفه ؛ فلما وصل إلى أبي سعيد قال له : (لن يسقط إلى يديك لتقتلني ما أنا بياسط يدي إليك لا فلاك) (سورة المائدة ٥ : ٢٨) فقال له الشامي : من أنت ؟ قال : أنا أبو سعيد . قال : صاحب رسول الله ؟ قال : نعم ! ففضى وتركه ،

الفخرى ص ١٠٨

وأشد أنواع الفظائع ؛ هذه الفظائع التي لم يكن لها مثيل في التاريخ سوى تلك التي ارتكبها كنستبل Constable الفرنسي ومايماثلها من ضروب الوحشية التي قام بها اللوثيريون من أنصار جورج فرنديسبرج Georges Frundsbergh عند حصار رومة .

ولا غرو فقد حول جند الشام المسجد الجامع إلى اصطبل لخيولهم ، وهدموا الحرم والأماكن المقدسة لسلب ما فيها من أثاث ومتاع . وهكذا شاء القدر أن تنصرف الوثنية ولو مرة ضد الاسلام ، تلك الوثنية التي كان ثأرها ورد فعلها ضد الاسلام في تلك المرة ، على ما يقوله مؤرخ أوربي ، قاسيا مؤلما . وهكذا رد الأمويون إلى الاسلام ما أظهره نحوهم من رحمة ورفق ساعة انتصاره عليهم ! وأما خيرة أهل المدينة ، فمنهم من قتل ومنهم من فر لينجو بحياته إلى بعض الأقطار النائية . وأما القليل منهم ممن ظل بالمدينة . فقد أصبحوا أسبانيا وعبيداً لين يدين معاوية ؛ ومن أبى منهم ذلك كان يكوى بالنار على رقبة ليوسم بتلك السمة المخزية ؛ ولم ينج من تلك الفضيحة وذلك العار سوى علي بن الحسين زين العابدين وعلي بن عبد الله بن العباس . وأما دور العلم والمباني العامة التي بنيت في عهد الخلفاء الراشدين فتنها ما أغلق ومنها ما تهدم . ولم تستعد المدينة ما كان لها من حضارة ومجد . وهكذا كانت تبدو تحت حكم الأمويين كأنها مدينة لا ماضى لها أو مدينة ذات ماض مجهول حتى إن المنصور ثاني الخلفاء العباسيين حين زارها احتاج إلى مرشد ليهديه إلى الأماكن التي كان يعيش فيها السابقون من أبطال المسلمين من رجال ونساء (١) .

غزوة الكعبة « المحرم سنة ٦٤ هـ » :

أمر يزيد قائد مسلم بن عقبة بطل الحرة بالمسير إلى مكة بعد فراغه من إخضاع أهل المدينة ، وردهم إلى الطاعة . فتوجه مسلم إليها - وكان عبد الله بن الزبير قد دعا إلى نفسه فيها - وتبعه أهلها . وقد مات مسلم في الطريق ، فتولى قيادة الجند الحَصِين بن نُمَيْر وكان يزيد قد أوصى بتوليته إذا مات مسلم ، فسار بالجيش إلى مكة وحصرها ؛ فخرج إليه ابن الزبير في أتباعه ، ودارت رحى القتال بين الفريقين ، وإذا هم في ذلك ورد عليهم نعي يزيد . فرأى الحصين بن نُمَيْر قائد الأمويين في مكة أن يأخذ البيعة لابن الزبير إذا انتقل إلى الشام : فأبى ابن الزبير لأنه أراد أن يعيد إلى بلاد الحجاز مجدها ويجعلها مركز الخلافة . فرجع الحصين هو وأتباعه ورفعوا الحصار عن مكة بعد أن ألحقوا بالكعبة الخسائر الفادحة . (١)

وقد علق فان فلوتن على حصار الأمويين للمدينة وغزو الكعبة راي فان فلوتن بقوله : « كان السواد الأعظم من العرب يرى في حزب بنى أمية حزب الدين والنظام ، كما أن عددا كبيرا من المسلمين كان لا يرى في الاستيلاء على المدينتين المقدستين الاضرورة دعا إليها موقف أهل الحجاز العدائي دون أن يرى في ذلك أى انتهاك لحرمتيهما (٢) .

معاوية الثاني

٦٣٣ هـ ٦٨٠ م

كان معاوية صديا ضعيفا ، ليس له من الأهمية ما يستحق الذكر ،

(١) ابن الأثير ج ٤ ص ٥٥

(٢) السيادة العربية والشيعة والامرائليات في عهد بنى أمية ترجمة المؤلف ص ٦٩ - ٧٠ أنظر أيضا الايات ١٧ ، ٣٠ ومايليها من قصيدة أبي صخر الهذلي . ديوان هذيل (طبعة

إذ لم يزد عهده على أربعين يوما ؛ فلم يتمتع بالملك لمرضه ، ولم يكن بد من انزوائه في داره . ذكر لنا صاحب الفخرى (١) أنه فكر في ترشيح رجل للخلافة كما فعل أبو بكر مع عمر ؛ فلم يجد الرجل الذي يصلح لها ؛ فاقتدى بعمر بن الخطاب في اختيار ستة ينتخب الخليفة من بينهم فلم يفلح . فترك الأمر شورى للناس يولون أمرهم من يشاءون ، وقال لهم : « فأتتم أولى بأمركم فاختروا له من أحببتم » فقالوا : ولأخاك خالدا ؛ فقال : والله ما ذقت حلاوة خلافتكم فلا أتقلد وزرها ثم صعد المنبر وقال : « أيها الناس ! إن جدى معاوية نازع الأمر أهله ومن هو أحق به منه لقربته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على بن أبي طالب ، وركب بكم ما تعلمون حتى أتته منيئة ؛ فصار في قبره رهينا بذنوبه وأسيرا بخطاياهم . ثم قلد أبي الأمر فكان غير أهل لذلك ، وركب هواه وأخلفه الأمل وقصر عنه الأجل ، وصار في قبره رهينا بذنوبه ، وأسيرا بجرائمه ؛ ثم بكى حتى جرت دموعه على خديه وقال : « إن من أعظم الأمور علينا علما بسوء مضرعه وبئس منقلبته ، وقد قتل عترته رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأباح الحرم وخرَّب الكعبة . وما أنا بالمتقلد ولا بالمتحمل تبعاتكم فشأنكم وأمركم . والله لئن كانت الدنيا خيرا فلقد نلنا منها حظا ، ولئن كانت شرا فكفى ذرية أبي سفيان ما أصابوا منها ؛ ألا فليُصل بالناس حسان بن مالك ، وشاوروا في خلافتكم رحمكم الله » . ثم دخل منزله وتعيَّب حتى مات في سنته بعد أيام . (٢)

(١) الآداب السلطانية ص ١٠٩

(٢) النجوم الزاهرة لأبي الحسن ج ١ ص ١٦٤

مروان بن الحكم

٦٤ — ٦٥ ٦٨٣ — ٦٨٥ م

سيرته قبل
الخلافة

كان مروان من ذوى الرأى والفصاحة والشجاعة ، وكان ساعد عثمان وكاتبه ومدبر أمره . وكان كثير التلاوة للقرآن . وقد روى الديار بكري « أن مروان كان من رجال قريش وكان من أقرأ الناس للقرآن » (١) . وقد روى عن كثير من الصحابة كعثمان بن عفان وعمر ابن الخطاب وزيد بن ثابت .

ومما يؤخذ عليه اتهامه بالكتاب المكذوب على عثمان ، وإن لم يقيم الدليل بعد على ذلك ، وحمله عثمان على مخالفة الصحابة . وإلى مروان يرجع الفضل فى ضبط المقاييس والموازن حتى لا يقع الغبن فى البيع والشراء .

وقد اعتزل مروان السياسة بعد موقعة الجمل وباع عليا وأقام بالمدينة ، وظل على ذلك حتى آلت الخلافة الى معاوية ، فولاه المدينة مرتين . ولما مات معاوية قرب يزيد مروان اليه وأكرمه فظل بالشام إلى أن ولى الخلافة بعد معاوية بن يزيد وشد أزره عبيد الله بن زياد وعمر بن سعيد بعد أن كاد يبايع لابن الزبير (٢)

الحروب الأهلية :

ولما مات معاوية هاج أعرب الشام وكانوا عصب الدولة وقوتها بفضل اتحادهم وتماسكهم . غير أن هذه الوحدة مالبت أن تفككت أوصالها حين مال كلب إلى بنى أمية ، وأصبح قيس ضلعهم مع عبد الله ابن الزبير . وانقسم كلب أنفسهم : فقال فريق منهم إلى خالد بن يزيد

العصية فى الجيش

(١) الخيس فى أنف نفيس ج ٢ ص ٣٠٧

(٢) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير ج ٥ ص ٢٦

ابن معاوية وهو - وان كان صغيرا إلا أنه كان فصيحاً بليغاً ضرب
في الكيمياء بسهم - ومال فريق آخر إلى مروان بن الحكم بن العاص
ابن أمية لسنه وشيخوخته .

من ذلك نرى أن النزاع قد احتدم بين عرب الشام بسبب
المنافسة بين أفراد البيت الأموي؛ اذ أصبح كل منهم يطمح إلى
الخلافة ويرى نفسه أحق بها دون سواه .

وقد استمر النزاع بين أنصار بنى أمية حتى عقدوا مؤتمرا بالجالية،
بايعوا فيه مروان بن الحكم بالخلافة (ذى القعدة سنة ٦٤ هـ) (١) ثم خالد
ابن يزيد ثم عمرو بن سعيد بن العاص من بعده . وبهذه الطريقة
أرضوا الذين يتطلعون إلى الخلافة . ومن ثم اتحدت كلمة اليمنية من كلب
وأما قيس فاتها اجتمعت بزعامه الضحاك بن قيس الفهري بمرج
راهط وبايعت عبد الله بن الزبير؛ فأنحصرت الخلافة بينه وبين مروان .

وقد سار مروان إلى الضحاك وهزمه في موقعة مرج راهط (المحرم
سنة ٦٥ هـ) . وبذلك انتصر العنصر اليمني على المضري (٢)

وقد أذكت هذه الموقعة نار العصبية من جديد، ليس في الشام
فقط، بل في سائر الولايات الإسلامية وخاصة خراسان . فظهر
العداء بين اليمنية والمضرية في صورة نزاع متواصل بين عرب الشمال
وعرب الجنوب، وامتد لهيب العصبية إلى أقاصى البلاد التي وصلت
إليها الفتوح العربية فيما شنه هؤلاء وأولئك من حروب أهلية ومعارك
دموية .

وقد تابع مروان بن الحكم نشاطه بعد هذه الموقعة؛ فجرد جيشا
بقيادته إلى مصر لطرد عبد الرحمن بن جحدم عامل عبد الله بن الزبير؛
وسار ابنه عبد العزيز في جيش إلى أيلة (عند العقبة) ونشط ابن

(١) وانتقل بذلك الملك من الفرع السفيفاني إلى الفرع المرواني .

(٢) الطبرى ج ٧ ص ٣٤ - ٣٩

جحدم لحربه، وأشار عليه بعض رجاله بأن يحفر خندقاً (١)؛ فتم حفره في شهر واحد. وفي ذلك يقول ابن أبي زمزمة الشاعر :

وما الجد إلا مثل جد ابن جحدم وما العزم إلا عزمه يوم خندق
ثلاثون ألفاً قد أثاروا ترابه وخدشوه في شهر حديث مصدق

وبعث ابن جحدم الجيوش والمراكب لحرب مروان وابنه عبد العزيز؛ فانهزمت جيوش والي ابن الزبير، ولم ينفعه خندقه، ودخل مروان عين شمس ثم الفسطاط في أول جمادى الأولى سنة ٦٥ هـ، وبني الدار البيضاء لتكون مقراً له، وبايعه الناس إلا نفرًا ظلوا على تمسكهم ببيعة ابن الزبير فضرب أعناقهم (٢)، وكانوا ثمانين رجلاً من المعافر، وقتل أيضاً سيد لحم (الأكدر بن حمام بن عامر ابن صعب) فأتى زهاء ثلاثين ألفاً من لحم وهم مدججون بالسلاح، ووقفوا بباب مروان ثائرين، فتوسط بعضهم في الصلح وانصرف الثائرون، وتصادف أن توفي عبد الله بن عمرو بن العاص في اليوم الذي قتل فيه الأكدار (١٥ جمادى الآخرة سنة ٦٥)؛ فلم يستطع القوم أن يخرجوا بجنازته لتألب الجند على مروان، فدفن في داره. (٣)

ثم عاد مروان إلى الشام حيث أعد حملتين سير إحداهما إلى الحجاز حيث دعا عبد الله بن الزبير إلى نفسه بالخلافة والأخرى إلى العراق. فهزمت الأولى؛ وأما الثانية فإنها لم تقم بشيء يذكر في حياة مروان؛ فقد عاجلته المنية سنة ٦٥ هـ بعد أن عهد بالخلافة لابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز.

حلاته الى الحجاز
والعراق

(١) موقعه الآن بجهة القرافة.

(٢) الكندي ص ٤٠ - ٤٥، المقرئ بخط ج ٢ ص ٣٢٧ - ٣٢٨

(٣) الكندي ص ٤٥ - ٤٦

تقدم القول بأن أنصار الأمويين اتفقوا في مؤتمر الجابية على مبايعة مروان بن الحكم بالخلافة ، على أن يخلفه خالد بن يزيد بن معاوية ، ثم سعيد بن العاص من بعده . غير أن مروان نقض ذلك العهد وبايع ابنه عبد الملك ثم عبد العزيز ، وأخذ يحقر من شأن خالد ليصرف أهل الشام عنه . وقد دخل خالد بن يزيد على مروان يوماً؛ فشتمه مروان ووصفه بالحق فجعل خالد بن يزيد ودخل على أمه - وكانت قد تزوجت من مروان بعد وفاة أبيه - وأخبرها بما حدث ؛ فقالت له « لا يعرفنَّ ذلك منك واسكت فياني أكفيك (١) » . ولما نام عندها مروان وضعت على وجهه وسادة ولم ترفعها حتى مات . وعند ما علم بذلك ابنه عبد الملك أراد أن يقتلها ، فأشير عليه بالعدول عن رأيه حتى لا يتحدث الناس أن امرأة قتلت أباه فيلحق به العار .

عبد الملك بن مروان

٦٥ - ٨٦ هـ ٦٨٥ - ٧٠٥ م

هو عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف . وأمّه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية (٢) ، فيجتمع نسبه من جهة أبيه وأمّه في أبي العاص . وكان يضرب بأمه المثل في الخصال الحميدة والصفات الكريمة ، وفيها يقول عبيد الله بن قيس الرقيات ممدوحا عبد الملك :

أَنْتَ ابْنُ عَائِشَةَ الَّتِي فَضَّلْتَ أَرْوَمَ نِسَائِهَا
لَمْ تَلْتَقِ لِدَانِهَا وَمَضَتْ عَلَى غُلُوبِهَا
وَلَدْتَ أَغَرَ مُبَارَكَا كَالشَّمْسِ وَسَطَ سَمَائِهَا

(١) الطبري ج ٧ ص ٨٣

(٢) الطبري ج ٨ ص ٥٧

عبد الملك قبل ان
يلى الخلافة

ولد عبد الملك بالمدينة سنة ٢٦ هـ في خلافة عثمان بن عفان (١). وقد نشأ نشأة عالية فعرف بالشجاعة والنجدة. وكان فصيحاً بليغاً، صريحاً في الحق لا يخشى فيه لومة لائم. وقد حفظ الكتاب الكريم ووقف على أسراره.

روى ابن سعد (٢) أن أهل المدينة قالوا: قد حفظ عبد الملك عن عثمان، وسمع من أبي هريرة وأبي سعيد الخدري وجابر بن عبد الله وغيرهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولا غرو فقد أصبح فقيهاً وعالمياً مشغوفاً بالعلم. وكان فقيهاً أدبياً ضرب في الأدب والشعر بسهم وافر.

كادت الأمة العربية عند وفاة مروان بن الحكم تمزقها العvisية القبلية التي دأب النبي صلى الله عليه وسلم على إخمادها حتى أشرفت الدولة الأموية على الزوال زوالاً لا رجوع بعده؛ لولا أن أتاح الله لهذه الدولة عبد الملك بن مروان الذي يعتبر بحق المؤسس الثاني للدولة الأموية، لما امتاز به من راحة العقل والقدرة على تصريف الأمور، فانتشلها من هذه الفوضى التي وصلت إليها، وأقام صروح مجدها على أسس لم يسبقه إليها من جاء قبله من الخلفاء.

أخذ عبد الملك في مبدأ عهده يشن الغارة على أعدائه؛ ولم يمض سبع سنين حتى استقامت له الأمور وهدأت الأحوال وساد السلام في البقية الباقية من عهده وعهد من جاء بعده من أولاده. وكان أشد أعداء عبد الملك خطراً عبد الله بن الزبير والمختار بن أبي عبيد.

وقد روى لنا المسعودي (٣): أن عبد الملك سار في سنة ٦٦ هـ على رأس الجنود الشامية لقتال المختار بالكوفة. وبينما هو في الطريق

عبد الملك المؤسس
الثاني للدولة الأموية

حالة الدولة الأموية
في أول عهده

(١) ابن سعد ج ٥ ص ١٧٥، الطبري ج ٨ ص ٥٧، ابن الأثير ج ٤ ص ١٩٨.

(٢) كتاب الطبقات الكبير ج ٥ ص ١٧٣.

(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ١١٣.

أتاه في إحدى الليالي خبر مقتل عبيد الله بن زياد وانهزام جنده ، و أتاه في تلك الليلة أيضا مقتل القائد الذي أرسله لحرب ابن الزبير بالمدينة ، ثم جاءه خبر دخول جند ابن الزبير أرض فلسطين ولحاق أخيه مصعب بهم ، ثم جاءه خبر مسير إمبراطور الروم ونزوله المصيصية (١) في طريقه إلى الشام ، ثم جاءه أن عبيد دمشق وأوباشها خرجوا على أهلها ، وأن المسجونين فيها فتحو السجن وخرجوا منه ، وأن خيل الأعراب أغارت على حمص وبعليك وغيرهما - إلى آخر ما هنالك من أخبار السوء التي تذهب بعقل الحليم وتبعث في النفس اليأس والقنوط .

كان عبد الملك - على الرغم من كل هذا - رابط الجأش شديد الإيمان بكفائه ومقدرته « فلم يُر عبد الملك في ليلة قبلها أشد ضحكا ، ولا أحسن وجها ولا أبسط لسانا ، ولا أثبت جنانا من تلك الليلة تجلدا وسياسة للبلوك (٢) » . ولنتظر الآن كيف تغلب على هذه الصعاب :

بينما قبل أن شعور العداء اشتد بعد مقتل الحسين وازداد سخط سائر المسلمين وحنقهم على بني أمية وولاتهم . وفي عهد مروان بن الحكم غلى مرجل هذا العداء وتحركت الشيعة بالكوفة سنة ٦٥ هـ ؛ فتلاقوا وندموا على ما فرطوا في حق الحسين وخذلوا إياه وعدم إغااثهم له حتى قتل بينهم ، وتابوا بما فعلوا ؛ فسموا التوابين . ثم تحالفوا على بذل نفوسهم وأموالهم في الأخذ بثأره ومقاتلة قتلته ، وإقرار الحق في نصابه بتنصيب رجل من أهل البيت ، وأمروا عليهم رجلا منهم اسمه سُلَيْمَان بن صُرْد . ثم دعوا الناس للأخذ بثأر الحسين ، ونظموا القصائد في رثائه والتحريض على القتال . من ذلك قول عبد الله بن الأحرر :

عوامل انتصار
عبد الملك

التوابين

(١) بالفتح ثم الكسر والتشديد ويا . ساكنة من تغور الشام بين انطاكية وبلاد الروم يقرب طرسوس

(٢) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ١١٣

صَحَّوْتُ وَقَدْ صَحَّوْا الصَّبِيَّ وَالْعَوَادِيَا
 وَقُلْتُ لِأَصْحَابِي أَجِيبُوا الْمُنَادِيَا
 وَقُولُوا لَهُ إِذْ قَامَ يَدْعُو إِلَى الْهُدَى
 وَقَبْلَ الدَّعَا لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ دَاعِيَا
 أَلَا وَانْعَ خَيْرَ النَّاسِ جَدًّا وَوَالِدًا
 حُسَيْنًا لِأَهْلِ الدِّينِ إِنْ كُنْتَ نَاعِيَا
 وَأُضْحِي حُسَيْنٍ لِلرَّمَاكِ دَرِيَّةً
 وَغُودِرَ مَسْلُوبًا لَدَى الطَّفِّ ثَاوِيَا
 فَيَا لَيْتَنِي إِذْ ذَاكَ كُنْتُ شَهِيدُهُ
 فَضَارَبْتُ عَنْهُ الشَّائِئِينَ الْأَعَادِيَا
 سَقَى اللَّهُ قَبْرًا ضَمَّنَ الْمَجْدَ وَالتَّقَى
 بِغَرِيَّةِ الطَّفِّ الْعَمَامِ الْعَوَادِيَا
 فَيَا أُمَّةً تَاهَتْ وَضَلَّتْ سَفَاهَةً

أَنِيبُوا فَأَرْضُوا الْوَاحِدَ الْمُتَعَالِيَا (١)

اجتمع التوابون وساروا بكامل عدتهم حتى وصلوا إلى عين الوردة
 في ربيع الآخر سنة ٦٥ هـ، حيث اشتبكوا بعبيد الله بن زياد الذي
 أرسله مروان بن الحكم للاستيلاء على العراق وأقره عبد الملك بن مروان،
 ولحق بالشيعة كثيرون من أهل البصرة والمدائن؛ ولما تلاقي الجيشان
 انهزم الشيعة بعد أن أبوا بلاء حسنا وقتل رئيسهم سليمان بن صرد
 وفر المنهزمون إلى بلادهم (٢).

موقعة عين الوردة

المختار بن أبي عبيد :

ظهر المختار بن أبي عبيد الثقفي في ميدان السياسة سنة ٦٦ هـ، وكان

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ١ ص ١١٠ — ١١١

(٢) ابن الأثير ج ٤ ص ٧٣ — ٧٩

ذا أطماع كبيرة تقلب كثيرا في الأحزاب ، واتصل أخيرا بعبد الله بن الزبير وأراد أن يكون وزيراً له . ولكن ابن الزبير كان قليل الثقة به . نظراً لما أبداه من التقلب : فقد كان أموياً ثم زبيرياً . ولما لم يجد من ابن الزبير ما كان يؤمل رجع إلى السكوفة وانضم إلى الشيعة ، واستغل ثورة التوابين لنيل أغراضه ومراميه ضد ابن الزبير والأمويين ، واستتر وراء ابن الحنفية وادعى أنه أمينه ووزيره ، وذلك لتنفيذ أغراضه والوصول إلى الخلافة . وبذلك وقف في وجه كل من ابن الزبير وعبد الملك ابن مروان ؛ فانضوت الشيعة تحت زعامته وساعده على ذلك امتناع ابن الحنفية عن الدخول في الدعوة التي قام بها ابن الزبير في مكة .

المختار والسكيبانية (١)

قد فت إباء ابن الحنفية عن الدخول فيما قام به عبد الله بن الزبير في عضد هذه الدعوة ، وهياً للمختار فرصة سانحة لتكوين حزب شيعي

عقائد الكيسانية

(١) تنسب الطائفة الكيسانية على رواية الطبري (طبعة دي غويه ١ : ٢٣٩٣) ، والبغدادى (الفرق بين الفرق ص ٢٧) ، والشهرستاني (الملل والنحل ج ١ ص ١٩٦) إلى كيسان مولى على بن أبي طالب الذي قتل في موقعة صفين سنة ٣٧ هـ . وتنسب هذه الطائفة ، على ما أورده المسعودي (مروج الذهب ، طبعة بولاق ج ٢ ص ٧٩) وابن عبد ربه (العقد الفريد ج ١ ص ٢٦٩) إلى المختار بن أبي عبيد . ولكن كلام المسعودي لا يعتمد عليه غير جازم بذلك إذ يقول : « أو هو غير المختار » .

على أننا نجد كثيراً من المؤرخين يفرقون بين كيسان والمختار ، فيقول ابن حزم : (الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ٤ ص ٩٤) أن هناك شخصين مختلفين ، هما المختار بن أبي عبيد وكيسان أبو عمرة . ويقول الشهرستاني (ج ١ ص ١٩٦) أن هناك طائفتين مختلفتين ، هما الكيسانية والمختارية : الأولى تنسب إلى كيسان مولى على ، والثانية إلى المختار بن أبي عبيد (راجع كتاب فرق الشيعة للتوبختي ص ٢١) .

وذكر الطبري (٢ : ١٧١) في مكان آخر ، أن أبا عمرة كيسان مولى بجيلة هو رئيس شرطة المختار بن أبي عبيد . ووافق على هذا أحمد بن يحيى المرتضى (كتاب غايات الأفكار ، مكتبة المتحف البريطاني ، مخطوط ٣٧٧٢ ورقة ١٣٧ ب) . على أن ابن المرتضى لدين الله لم يحزم بذلك

جديد ، هو حزب الكيسانية . بيد أن المجهودات التي بذلها المختار لم تلق

حيث قال كما قال الطبري (٢ : ١٣٩٣) : ويقال ان لفظ كيسان يطلق على مولى على بن أبي طالب . وقد يؤخذ بما ذكره الطبري لولا ما جاء في رواياته من تناقض وتضارب ، مما يجعل الاهتداء الى أصل الطائفة الكيسانية من الصعوبة بمكان . على أن هذا الاهتداء يمكن الوصول اليه من مصدرين آخرين : هما كتاب الطبقات لابن سعد (+ ٢٣٠ هـ و ٨٤٤ م) (ج ٥ ص ٧٧) وكتاب الاختيار الطوال للدينوري (+ ٢٨٢ أو ٢٩٠ هـ و ٨٩٥ أو ٩٠٣ م) (طبعة ليدن (ص ٢٩٦ — ٢٩٧) .

فقد أتى ابن سعد باسم أبي عمرة كيسان ضمن أسماء غيره من الرجال الذين شهدوا بأن ابن الحنفية سمح للمختار بأن يثب الدعوة باسمه (ابن الحنفية) ، وان كان هذا القول مشكوكا فيه لانه غير ثابت تاريخيا بأن ابن الحنفية مالا المختار بن أبي عبيد ، بل عرف أنه بايع يزيد بن معاوية لانه لم يكن يثق بأهل الكوفة .

وقد روى الدينوري عن الشعبي في سياق كلامه على المختار عبارة تدل صراحة على أن المختار وكيسان شخصان مختلفان . والشعبي هذا من أكابر محدثي والفقهاء ، وهو مشهور بالورع وصدق القول ونجوى النقل . قال الدينوري : « وكان على الكوفة يومئذ من قبل عبد الله بن الزبير ، عبد الله بن مطيع ، فأرسل ابن مطيع الى المختار يقول :

ما هذه الجماعات التي تغدو وتروح اليك ؟ فقال : المختار مريض يعاد . فلم يزل كذلك حتى قال له نصحاءه : عليك بابراهيم بن الاشتر فاستلمه ، فانه متى شاعلك على أمر ظفرت به فوضيت حاجتك . فأرسل المختار الى جماعة من أصحابه ، فدخلوا عليه ويده صحيفة مخنومة بالرصاص ، فقال الشعبي : وكنت فيمن دخل عليه فرأيت الرصاص يلوح ، فظننت أنه انما ختم من الليل ، فقال لنا : انطلقوا بنا حتى نأتي ابراهيم بن الاشتر . قال فضينا معه ، وكنت أنا وزيد بن أنس الازدي ، وأحمد بن سبط ، وعبد الله بن كامل ، وأبو عمرة كيسان مولى بجيلة الذي يقول الناس قد جاوره أبو عمرة ، وكان من بعد ذلك على شرط المختار » .

وقد حاول فريدليندر (Friedlaender) في تعليقه على « شنع الشيعة على ماجا . في كتاب ابن حزم » (Heterodoxies of the Shi'ites in the Presentation of Ibn Hazm) المنشور في مجلة الجمعية الامريكية الشرقية في العدد التاسع والعشرين (Journal of the American Oriental Society, vol. XXIX, pp. 29-30) الاهتداء الى أصل الكيسانية . وعلى الرغم من أن هذا الكاتب أخذ عن غير « الملل والنحل » لابن حزم ، فانه قال ان « ما ذكره ابن حزم عن هذه المسألة ، هو بلا شك القول الصحيح حقا من بين أقوال المؤرخين على اختلافهم » .

على أن ابن حزم (ج ٤ ص ١٧٩) انما قال ان الكيسانية هم أنصار المختار بن أبي عبيد . وهذا لا يستلزم أن الكيسانية هم المختارية ، لانه لا توجد ثمة صلة بين لفظ المختار ولفظ الكيسانية . وعليه فانه من المحتمل كثيرا أن يكون لفظ الكيسانية نسبة الى كيسان مولى بجيلة ورئيس حرس المختار ، وبعدها أن يكون نسبة الى كيسان مولى على ، لانه مات قبل قيام الكيسانية بنحو ثلاثين

عطف ابن الحنفية وتأيدته ، لأنه لم يكن يشق بأهل الكوفة الذين خذلوا أباه وأخويه من قبل (١)

بين السبئية
والكيسانية

قامت ثورة المختار بن أبي عبيد في خلافة عبد الملك بن مروان . وقد قارن فان فلو تن (Van Vloten) بين مذهب السبئية ومذهب الكيسانية فقال : « يظهر أن عقيدة السبئية قد بُنيت على الرأى القديم القائل بتجسد اللاهوتية . وزاد هذا المؤرخ على ما تقدم أن السبئية يختلفون عن الحزب الشيعى الآخر ، وهو حزب الكيسانية الذى ظهر فى بادى أمره بالكوفة تحت زعامة المختار (٢) حين ثار بالكوفة . وعلى الرغم من

سنة . يضاف الى ما تقدم أن ابن حزم (ج ٤ ص ٩٤) قد ميز بجلاء ووضوح بين لفظي المختار وكيسان عند الاشارة الى الطائفة الكيسانية في سياق كلامه على الامام الثانى عشر فقال : وكان رئيسهم المختار بن أبى عبيد ، وكيسان أبو عمرة وغيرهما يذهبون الى أن الامام بعد الحسين هو أخوه محمد المعروف بابن الحنفية . وعليه فان ما أورده ابن سعد والدينورى — لابن حزم أو غيره — هو القول الصحيح .

أنظر كتاب « الفاطميون في مصر » للدؤلف ص ٣٤ — ٣٥

(١) ذكر المقرئى في كتابه « المفقى الكبير » (لندن ، مخطوط ١٣٦٦ ، المجلد الثانى ، ورقة ١٢٨) ان فريقا من أهل الشام ، وعلى رأسهم مسلم بن عقبة المرى ، ساروا الى الحجاز لقتال أنصار ابن الزبير ، وأن فريقا آخر ممن شايعوا ابن الزبير فى الكوفة وعلى رأسهم عبد الله ابن مطيع عامل ابن الزبير على الكوفة وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، جاؤا الى محمد بن الحنفية فقالوا له : اخرج معنا نقاتل يزيد ، فقال : على ماذا أقاتله ولم أخلعه ؟ قالوا : انه كفر . . . وشرب الخمر . فقال لهم : ألا تتقون الله ؟ هل رآه أحد منكم يفعل ما تذكرون ، وقد صحبته أكثر مما صحبتموه فأرأيت به سوءا ؟ قالوا : انه لم يكن يطلعك على فعله . قال : أفأطعكم أتم عليه ؟ تخافوا أن يثبط قوده الناس عن الخروج ، فعرضوا عليه أن يبايعوه اذ كره أن يبايع ابن الزبير ، فقال لست أقاتل تابعا أو متبوعا . قالوا : فقد قاتلت مع أيك . قال : وأين مثل أبى اليوم ؟ فأخرجوه كارهيا ومعه بنوه مسلحين ، لحمل أهل الشام عليه ، فضارب بنوه دونه ، فقتل ابنه القاسم محمد ، وضرب أبو هاشم قاتل أخيه فقتله ، ثم خرج ابن الحنفية الى مكة من فوره .

(٢) كان المختار بن أبى عبيد ممن بايعوا ابن الزبير ، وقد أوفده ابن الزبير الى الكوفة ليثبت الدعوة باسم الطالبيين . على أن المختار لم يلبث ان خلع طاعة ابن الزبير ودعا لابن الحنفية .

أنظر « مروج الذهب » للمسعودى (ج ٢ ص ٥٥ — ٧٧) . وقد ذكر الشهرستانى (ج ٢ ص ١٢) أن الكيسانية بنوا معتقداتهم على معتقدات المجوس المزدكية (ظهرت هذه الطائفة

عقيدتهم الأصلية ، وهى القول بامامة محمد بن الحنفية بعد على آبيه ، فان الكيسانية يغالون فى اعتقادهم باحاطة الأئمة بالعلوم الالهية ، فتذهب الى أن محمد بن الحنفية هو الامام ، ويعتقدون أنه قد أحاط بالعلوم كلها (١) ، وأن أخويه الحسن والحسين قد عهدا اليه بالاسرار ، وبعلم التأويل والباطن (٢). وقد انتهى اعتقاد الكيسانية بوجوب انفراد الامام بتأويل الشريعة الى القول بضرورة طاعته ، إذ أن طاعته لم تكن إلا طاعة للقانون الالهى (وهذا ما يميزهم عن غيرهم من المعتدلين من الشيعة)

ويعتقد الكيسانية فى البداء ، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى يغير ما أراد ؛ وفى تناسخ الأرواح ، وهو خروج الروح من جسد وحلولها

فى بلاد الفرس قبل ظهور الاسلام (فى القرن الخامس الميلادى) ، والبراهمة فى الهند ، والفلاسفة القدماء والصائين .

(١) أنظر كتاب فان فلوتن Van Vloten : Recherches sur la Domination Arabe, le Chitisme, etc, p. 41 والشيعة ترجمة المؤلف ص ٧٩ - ٨٠) مقتبسا من كتاب Mokhtar تأليف Van Gelder (ص ٨٢ وما يتبعها) . لقد قيل ان ابن الحنفية تبرأ من هذا الاعتقاد ، وحذا حذوه غيره من الأئمة . وقد أصاب فان فلوتن فى تعليقه على ذلك بقوله : وهنا يتساءل المرء : بأى مظهر من مظاهر الترحاب قابل الأئمة هذه المعتقدات المغرقة فى الغلو ، التى كانت اشخاصهم السبب فى ظهورها ؟

ولاغرو فان عليا أنكر على السبئية هذه الصفات التى نسبوها اليه ، ورمى فى النار من دعوه إلهيا ، ونفى عبد الله بن سبأ الى المدائن . ثم جاء ابنه محمد بن الحنفية ، فشارك أباه فى عواطفه وآرائه الدينية ، فتبرأ ممن اعتقدوا فى احاطته بعلم التأويل والباطن . بذلك على صحة هذا القول ما ذكره ابن سعد فى كتابه « الطبقات الكبير » (ج ٥ ص ٧٧) أن ابن الحنفية لما علم باعتقاد الطائفة الكيسانية أن آل على يلمون بجميع العلوم قال : « والله ماورثنا من رسول الله الامامين هذين اللوحين (يعنى القرآن) ، ثم قال : اللهم حلا ، وهذه الصحيفة فى ذؤابة سبى . وهذا التصريح من ابن الحنفية يدل دلالة واضحة على أن آل على لم يختصوا بهيرات شئ عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنهم لم يرثوا منه الا ماورثه عامة المسلمين .

(٢) البغدادى : الفرق بين الفرق (ص ٣٦) ، والشهرستانى : الملل والنحل (ج ٢

في جسد آخر ؛ وفي الرجعة ، أى رجعة محمد بن الحنفية ؛ كما يعتقدون أيضا بنوة علي والحسن والحسين وابن الحنفية . على أنهم يختلفون في أن ابن الحنفية ورث الامامة عن علي مباشرة ، أو عن طريق أخويه الحسن والحسين . ويقول الثوبختي : (١)

« وفرقة قالت بامامة محمد بن الحنفية ، لأنه كان صاحب راية أبيه يوم البصرة دون أخويه ، وادعى (المختار) أن محمد بن الحنفية أمره بذلك وأنه الامام بعد أبيه ... وكان يقول إن محمد بن الحنفية وصى علي ابن أبي طالب ، وأنه الامام وأن المختار قيمه وعامله

فكرة الرجعة عند
الكيسانية

أما عن الرجعة فقد أنكر جماعة من الكيسانية موت ابن الحنفية ؛ واستفزتهم الاخبار التي ذاعت عن موته ، فاعتقدوا أنه يقيم في جبل رضوى (على مسيرة سبعة أيام من المدينة) (٢) ، وأن عودته ستكون من هذا المكان . وقد نظم كثير عزة والسيد الحميري في هذا الاعتقاد أشعارا كثيرة حتى غدا هذا النوع من الشعر يعرف بالشعر الكيساني . وفي ذلك يقول كثير عزة المتوفى سنة ١٠٥ هـ (٧٢٣ م) :

أَلَا إِنَّ الْأَيَّمَةَ مِنْ قَرْنَيْهِ وَلَا تَلْقَ الْحَقَّ أَرْبَعَةُ سَوَاهِ
عَلِيٍّ وَالثَّلَاثَةَ مِنْ بَنِيهِ هُمْ الْأَسْبَاطُ لَيْسَ بِهِمْ خَفَاءُ
فَسَبَّطٌ سَبَّطُ إِيْمَانٍ وَبِرٍ وَسَبَّطٌ غَيْبَتُهُ كَرَّ بَلَاءُ
وَسَبَّطٌ لَا يَذُوقُ الْمَوْتَ حَتَّى يَقُودَ الْخَيْلَ يَتَّبِعُهَا اللَّوَاهُ
تَغَيَّبَ لَا يُرَى عَنْهُمْ زَمَانَا بِرَضْوَى عِنْدَهُ عَسَلٌ وَمَاءُ
ويقول السيد الحميري المتوفى سنة ١٧٣ هـ (٧٨٩ — ٧٩٠ م) ،
وكان كيسانيا :

سَيْنِينَ وَأَشْهُرًا وَيُرَى بِرَضْوَى بِشُعْبٍ بَيْنَ أَنْمَارٍ وَأَسْدِ

(١) كتاب فرق الشيعة ص ٢٠ — ٢١

(٢) هو جبل قرب ينبع منيف ذوشعاب وأودية وبه أشجار ومياه كثيرة حتى يرى من ينبع

أخضر اللون . أنظر لفظ رضوى في معجم البلدان لياقوت .

مَقِيمٌ بَيْنَ آرَامٍ وَعَيْنٍ وَحَقَّانِ تَرَوْحُ خِلَالَ رُبْدٍ
تُرَاعِيهَا السَّبَاعُ وَلَيْسَ مِنْهَا مُسْلَقِينَ مُفْتَرِسًا بِحَسَدٍ
أَمِنَ بِهِ الرَّدَى فَرَتَعَنَ طَوْرًا بِلَا خَوْفٍ لَدَى مَرْعَى وَوَرْدٍ
وإن هذه الآيات لتمثل عقيدة السيد الحميري في محمد بن الحنفية ،
من أنه قام بشعب من شعاب رضوى سنين وأشهرًا كثيرة ، ومن حوله
الأنهار والآساد ، والظباء وبقر الوحش ، وأنواع الشاء ، من غير أن
يعدو أسد عليها بظفر أو بناب ، لاحترامها له وتقديسها إياه
ويقول السيد الحميري أيضاً :

أَلَا حَتَّى الْمَقِيمِ شِعْبِ رَضْوَى
وَأَهْدٍ لَهُ يَمْنَزِلُهُ السَّلَامَا
أَضْرَ بِمَعَشَرِ وَالْوَلَكِ مِينَا
وَتَحْمُوكَ الْخَلِيفَةَ وَالْإِمَامَا
وَعَادُوا فِيكَ أَهْلَ الْأَرْضِ طُرَا
مُقَامُكَ عَنْهُمْ سَبْعِينَ عَامَا
لَقَدْ أُمْسَى بِمُورِقِ شِعْبِ رَضْوَى
يُرَاجِعُهُ الْمَلَائِكَةُ الْكَلَامَا
وَمَا ذَاقَ ابْنُ خَوَالَةَ طَعْمَ مَوْتٍ
وَلَا وَارَتْ لَهُ أَرْضٌ عِظَامَا
وَإِنَّ لَهُ بِهِ لَمَقِيلَ صِدْقٍ
وَأُنْدِيَّةَ تَحْدَثُهُ كِرَامَا (١)

ويقول الشهرستاني « إن جميع الكيسانية يعتقدون أن الدين طاعة
رجل ، وأن طاعتهم لذلك الرجل تبطل ضرورة التمسك بقواعد الاسلام
(كالصلاة والصوم والحج وهكذا) » (٢)

معتقدات الكيسانية

(١) النونختي : كتاب فرق الشيعة ص ٢٧

(٢) الشهرستاني (ج ١ ص ١٩٦) .

وقد تكلم فان فلوتن (١) عن الامام حسب معتقدات السبئية
والكيسانية فقال : إن السبئية ، وإن كانوا يعتبرون إمامهم شخصاً مقدساً
بطبيعته ، فان الكيسانية يبذلون له الطاعة باعتباره رجلاً رفيع المنزل ،
محيطاً بعلوم ما وراء الطبيعة »

(Si les Sabâia considéraient leur imâm comme
un être divin par sa nature, les Kaisânia lui prêtaient
obéissance comme à un homme supérieur, possédant
des connaissances surnaturelles)

هذا موجز عما بثه المختار بن أبي عبيد في نفوس الشيعة الكيسانية
من عقائد وبدع لا يخفى على القارئ بطلانها وبعدها عن تعاليم الدين
الاسلامي .

أما ما كان من أعمال المختار الحربية ؛ فانه بعد ما انضمت إليه فلول
جيش التوابين والموالي الذين تعلقوا بحب آل البيت ؛ وثب على عامل
الكوفة من قبل ابن الزبير فطرده . ولما أتيحت له الفرصة أرسل
إلى الكوفة جيشاً بقيادة ابراهيم بن الأشتر لقتال ابن زياد وللأخذ
بثأر الحسين بعد أن عجز التوابون عن أن يثأروا له منه .

سار ابراهيم حتى لقي ابن زياد ومن معه من أهل الشام على نهر
الخازر (٢) ؛ فدارت الدائرة على ابن زياد وقتل هو وكثير من أشرف
أهل الشام (٣) وحملت رأسه إلى المختار ، فبعث بها إلى ابن الزبير بمكة .
وكان من أثر انتصار المختار على ابن زياد أن ازداد تعلق الشيعة به
والتف حوله كثير منهم .

ولما استفحل أمر المختار عمل ابن الزبير على الايقاع به ؛ فأرسل
إليه جيشاً بقيادة أخيه مُصعب بعد أن ولاه العراق . وقد عمل مصعب

(١) السيادة العربية والشيعة والامراييات في عهد بني أمية ترجمة المؤلف ص ٨٢

(٢) بفتح الزاي وكسرها وبعدها راء . وهو نهر بين إربل والموصل ثم بين الزاب الأعلى

والموصل ويصب في دجلة . (٣) المسعودي : مروج الذهب (ج ٢ ص ١١٤)

على استخلاصها من المختار ، ف وقعت بينهما موقعة بالقرب من الكوفة سنة ٦٧ هـ كان النصر فيها حليف مصعب بعد أن قتل المختار وسبعة آلاف من أتباعه ممن طالبوا بدم الحسين . وبذلك استولى مصعب ابن الزبير على الكوفة .

موقف عبد الملك
من هذا النزاع

ظل عبد الملك في الشام يرقب الحوادث ، فترك ابن الزبير يقاتل الشيعة والخوارج دون أن يتعرض لهم . ولا شك في أنه كان يرمى بسياسته إلى إضعاف قوة ابن الزبير ؛ فلم يكد مصعب بن الزبير يفرغ من قتال المختار حتى خرج إليه عبد الملك بن مروان بعد أن هادن امبراطور الروم حين أغار على المصيصة سنة ٧٠ هـ حتى لا يتنهز فرصة انشغاله بقتال ابن الزبير فيوغل في بلاد الشام ، وقد بعث إليه عبد الملك الأموال والهدايا وصالحه على أن يؤدي إليه نحو خمسين ألف دينار في كل عام ؛ غير أنه عاد فقطعها عند ما انقضت سحب الصعاب التي كانت تحيط به .

ولما وثق عبد الملك من أن الروم سوف لا يغيرون على بلاده أثناء محاربته ابن الزبير ، سار من الشام إلى العراق محاذيا نهر الفرات . وقد انتهز عمرو بن سعيد بن العاص فرصة اشتغال الخليفة بحرب ابن الزبير في العراق وشق عصا طاعته ودعا إلى بيعته ؛ فلم يكن بد من رجوع عبد الملك إلى دمشق ، وما زال بعمره حتى نساها عن رأيه بعد أن مناه بولاية العهد (١) .

خروج عمرو بن
سعيد بن العاص

وقد عرف عمرو بن سعيد بالفصاحة والبلاغة والشهامة والاقدام . وكان يرى أحقيته بالخلافة دون عبد الملك ؛ فكتب إليه عبد الملك : « إنك لتطمع نفسك بالخلافة ولست لها بأهل . فرد عليه يهدده ويتوعده في ذلك الكتاب الذي ينم عن الازدراء والاستهتار : استدراك النعم

تاب عمرو بن سعيد
إلى عبد الملك

(١) البعقوني ج ٢ ص ٣٠٤ المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٩٨٢ ابن الأثير ج ٤ ص ٥٨

إياك أفادني البغي ، ورائحة الغدرة أورثتك الغفلة . زَجَرَتْ عَمَّا
وَأَفَقَّتْ عَلَيْهِ ، وَنَدَبَتْ إِلَى مَا تَرَكْتَ سَبِيلَهُ . وَلَوْ كَانَ ضَعْفَ الْأَسْبَابِ
يُؤَيِّسُ الْمَطَالِبَ ، مَا انْتَقَلَ سُلْطَانٌ وَلَا ذُلُّ عَزِيزٍ . وَعَنْ قَرِيبٍ يَتَبَيَّنُ
مَنْ صَرِيحُ بَغْيٍ وَأَسِيرُ غَفْلَةٍ » (١)

من هذا يتبين ان وعد عبد الملك لعمر بن بولاية العهد لم يكن
الإحيلة دبرها عبد الملك للقضاء عليه . فقد أرسل إلى عمرو أن يحضر ،
فحضر عمرو وهو مطمئن بما أعطاه من الأمان . بيد أن هذا لم يلتفت
إلى ما قطعته على نفسه من العهود والمواثيق ، وأمر رجاله بضرب
عنقه ، ورمى رأسه إلى أصحابه ففترقوا . (٢)

وبذلك قضى عبد الملك على ما بذره عمرو بن سعيد من بذور
الشقاق والانقسام في البيت الأموي . وقد عيب عليه غدرة بعمر بن
وكان أول غدرة حصل في الاسلام .

مسير عبد الملك إلى
العراق

ولما تم لعبد الملك القضاء على فتنة عمرو بن سعيد سار إلى العراق ،
فحاصر زُفَرَ بْنَ الْحَارِثِ رَعِيمَ الْقَيْسِيَّةِ ، فِي قَرْيَسَاءَ (٣) يَدْعُو إِلَى
عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزَّيْبِرِ ، ثُمَّ نَزَلَ عَلَى إِمَامَتِهِ وَبَايَعَهُ بَعْدَ أَنْ تَصَالَحَا عَلَى
وَضْعِ الدِّمَاءِ وَالْأَمْوَالِ . (٤)

انضواء القيسية واليمينية
تحت لواء عبد الملك

وبذلك انتهى النزاع بين القيسية واليمينية ، وانضوا جميعاً تحت
لواء عبد الملك . على أن نار العداء لم تخمد بل كمنّت في النفوس ؛
وطالما كانت تظهر كلما سنحت الفرصة .

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ١١٦ — ١١٧

(٢) الطبري ج ٧ ص ١٧٥ - ١٨٠

(٣) بالفتح ثم السكون وقاف أخرى وباء ساكنة وسين مكسورة وباء أخرى وألف
معدودة . بلد على مصب نهر الخابور في الفرات قرب رجة مالك بن طوق على ستة فراسخ .

(٤) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ١١٨ . ابن الأثير ج ٢ ص ١٤١ — ١٤٢

حزب الزبيريين

نشأة حزب الزبيريين

يرى كثير من المؤرخين أن نشأة هذا الحزب ترجع الى الوقت الذى دعا فيه عبد الله بن الزبير الى نفسه بمكة سنة ٦٣ هـ . على أننا نرى أن نواة هذا الحزب قد ظهرت على أثر الفتنة التى أدت الى قتل عثمان وخروج طلحة والزبير وعائشة على بنى طالب .

فقد اتخذ عبد الله بن الزبير من تأمير عثمان له على داره سبيبا كافيا لأحقية بالخلافة ؛ لأن استخلاف عثمان له دون أصحابه الذين كانوا معه يدل على كفاءته ومقدرته على القيام بمهام الأمور . وقد استند فى ذلك على تأمير الرسول أبا بكر للصلاة وهو فى مرضه الأخير مما عده المسلمون كافيا لاسناد الخلافة اليه . وفى ذلك يقول صاحب العقد الفريد (١) « كان عثمان استخلف عبد الله بن الزبير

عبد الله بن الزبير
فى عهد عثمان

على الدار يوم الدار ، فبذلك ادعى ابن الزبير الخلافة » . فلاعجب إذا صار ابن الزبير يتحين الفرص من ذلك الوقت للسعى وراء الخلافة أما فى عهد على فقد كان عبد الله بن الزبير يرى أحقية بالخلافة .

فى عهد على

وقد عمل على تحقيق أغراضه ، فأوقع بين معاوية وبين على الذى وقف على ما تنطوى عليه أغراضه ؛ فخاطب أباه الزبير فى شأن ابنه عبد الله وقال له « لقد كنا نعدك من بنى عبد المطلب حتى بلغ ابنك ابن السوء ففرق بيننا (٢) » ، كما عمل ابن الزبير على تقوية حزب الزبير وطلحة وعائشة طمعا فى الخلافة . ولا غرو فقد كان يد هذا الحزب ولسانه الناطق ، وكان لا يألو جهدا فى جمع كلمته . وكان ربيبا فى بيت خالته عائشة أم المؤمنين ، وكانت تسعى لتحويل الخلافة إليه . وقد قيل إنه لما سار مروان بن الحكم إلى طلحة والزبير وقال لهما على أيكما

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ١٦٠

(٢) ابن الاثير ج ٣ ص ٢٠٢

أسلم بالأمرة وأؤذن بالصلاة ، أرسلت إليه عائشة رسولا يقول له « فليصل بالناس ابن أختي (١) » تريد عبد الله بن الزبير .

وقد بينا قبل كيف ثنى عبد الله بن الزبير عزم خالته عائشة عن العودة إلى المدينة حتى نبحتها كلاب الحوآب ، وكيف ألح على أبيه الزبير بالعدول عن رأيه حين هم بالانصراف والعودة إلى المدينة ، ورماه بالجنون حتى كفر عن يمينه وخاض غمار الحرب (٢) .

على أننا لا نعلم أن ابن الزبير قد عارض معاوية قبل توليته يزيد العهد أو خالفه في شيء ، بل بالعكس نراه جنديا من جنود معاوية يشترك مع الجيوش في محاربة الأعداء . فكان في الجيش الذي سار لغزو القسطنطينية سنة ٥٠ هـ بقيادة يزيد بن معاوية . ولا ريب أن معاوية كان يلح في ابن الزبير ناحية المعارضة ، فكان يترضاه ويتودد إليه ويحسن وفادته ويغدق عليه العطايا والمنح . وطالما كان يقول له : « مرحباً بابن عمه رسول الله وابن حوارى رسول الله ويأمر له بمائة ألف » . وليس ذلك بعيدا على معاوية الذي عرف بالمكر والدها .

ومهما يكن من شيء فقد كمن ابن الزبير في عقر داره طوال عهد معاوية تقريبا . ولعل هزيمة حزب طلحة والزبير وعائشة في موقعة الجمل كان لها أثر في انزواء ابن الزبير وعدم معارضته . على أنه لم يظل على هذه الحال من الجمود والاستكانة طويلا . فانه لما علم بولاية العهد ليزيد هب من سباته وقاد حزب المعارضة الذي وقف في وجه معاوية ، وعمل على إحباط مساعيه في توليته العهد لابنه يزيد .

تطورت دعوة ابن الزبير بعد موت معاوية بن أبي سفيان . فقد خلا له الجو بعد مقتل الحسين بن علي - على ما تقدم - فدعا إلى نفسه سنة ٦٣ هـ ، وصادفت دعوته نجاحا عظيما في بلاد العرب والعراق .

(١) ابن الاثير ج ٤ ص ٨٨

(٢) ابن الاثير ج ٣ ص ١٠٢

على أن امتناع محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب عن مبايعة ابن الزبير — وكان قد بايع يزيد بن معاوية — قد فتت في عضد ابن الزبير وساعد على ظهور حزب الكيسانية بزعامه المختار بن أبي عبيد الذي قام في الكوفة بعد قتل الحسين .

وعلى الرغم من ذلك كله فقد ظهر حزب الزبيريين واستطاع أن يعكر صفو الأمويين مدة من الزمن . وكانت هناك عوامل عدة ساعدت على إثارة المسلمين على بني أمية وأتاحت الفرصة لظهور هذا الحزب . وكان من بين هذه العوامل :

العوامل التي ساعدت على ظهور حزب الزبيريين

١ — تحول الخلافة من طريق الشورى والانتخاب إلى التعيين والوراثة ، ومن الحكم الجمهوري إلى الحكم المملكي ، ذلك النظام الذي جرى عليه الأكاورة والقياصرة ، وما أذاعه أعداء الأمويين عن صفات يزيد الخلقية مما أحط من قدره وباعد بينه وبين أحييته بالخلافة في نظر المسلمين .

٢ — الحوادث الجسام التي وقعت في عهد يزيد من مقتل الحسين ابن علي ، وغزو مكة والمدينة . فقد اتخذ عبد الله بن الزبير من هذه الحوادث وسيلة لإثارة شعور المسلمين على بني أمية والدعوة لنفسه بالخلافة في الحجاز .

٣ — معاملة ولاية بني أمية أهالي الولايات بالقسوة والعنف حتى كرهوا حكم الأمويين وانضموا إلى أعدائهم .

٤ — هذا إلى ما عرف عن عبد الله بن الزبير من الصلاح والتقوى والتمسك بالدين فاكتسب محبة المسلمين وظفر بتأييدهم .

وسرعان ما ظهر أمر ابن الزبير بمكة . وقد روى الطبري عن هشام عن أبي مخنف في خطبة لعبد الله بن الزبير أنه قال عن أهل العراق بعد مقتل الحسين «... إنهم دعوا حُسَيْنًا لينصروه ويولوه عليهم . فلما قدم عليهم ثاروا إليه وقالوا له : إما أن تضع يدك في أيدينا فنبعث

بيعة ابن الزبير

رواية الطبري

بك الى ابن زياد بن سُمَيَّةَ سلماً فيمضي فيك حكمه ، وإما أن تحارب . فرأى والله أنه هو وأصحابه قليل في كثير ، وإن كان الله عز وجل لم يطلع على الغيب أحداً أنه مقتول . ولكنه اختار الميتة الكريمة على الحياة الذميمة . فرحم الله حسيناً وأخزى قاتل حسين . لعمرى لقد كان من خلافهم إياه وعصيانهم ما كان في مثله واعظاً وناه عنه . ولكنه ماحمٌ نازل (ما قدر يكون) . وإذا أراد الله أمراً لن يُدفع . أبعد الحسين نظمناً إلى هؤلاء القوم ونصدق قولهم ونقبل لهم عهداً ؟ لا ! ولا نراهم لذلك أهلاً . أما والله لقد قتلوه طويلاً بالليل قيامه ، كثيراً في النهار صيامه ، أحق بما هم فيه منهم ، وأولى به في الدين والفضل . أما والله ما كان يبدل بالقرآن الغناء ، ولا بالبكاء من خشية الله الحداء ، ولا بالصيام شرب الحرام ، ولا بالمجالس في حلق الذكر الرقص في تطلاب الصيد (يعرض يزيد) . فسوف يلقون غياً . « . فثار إليه أصحابه فقالوا أيها الرجل ! أظهر بيعتك فإنه لم يبق أحد إذ هلك حسين ينازعك هذا الأمر (وقد كان يبايع الناس سرا ويظهر أنه عائد بالبيت) . فقال لهم : لا تعجلوا ! وعمر بن سعيد ابن العاص يومئذ عامل مكة ، وقد كان أشد شيء عليه وعلى أصحابه ؛ وكان مع شدته عليهم يدارى ويرفق . فلما استقر عند يزيد بن معاوية ما قد جمع ابن الزبير من الجموع بمكة ، أعطى الله عهداً ليوثقه في سلسلة . فبعث بسلسلة من فضة ، فربها البريد على مروان بن الحكم بالمدينة ، فأخبر ما قدم له بالسلسلة ، وبالسلسلة التي معه . فقال مروان :

خُذْنَهَا فَلَيْسَتْ لِلزَّبِيرِ بِخُطَّةٍ وفيها مقالٌ لا مَرَى مُتَضَعَفٍ

ثم مضى من عنده حتى قدم على ابن الزبير ، فأتى ابن الزبير فأخبره بممر البريد على مروان وتمثل مروان بهذا البيت . فقال ابن الزبير : لا والله لأكون أنا ذلك المتضعف ؛ ورد ذلك البريد رداً رقيقاً . وعلا أمر

ابن الزبير بمكة وكاتبه أهل المدينة . وقال الناس : أما إذ هلك الحسين عليه السلام ، فليس أحد ينازع ابن الزبير » . (١)

انتصار الدعوة
لابن الزبير

بهذا استطاع ابن الزبير أن يزكي نار الفتنة في المدينة ضد ولاية يزيد حتى ثار أهلها سنة ٦٣ هـ وطرّدوا عامل يزيد . وقد بينا ما ترتب على هذا من حصار مسلم بن عقبة المري لها من ناحية الحرة وفتحها وابعثها ، وما تلا ذلك من حصار الحصين بن نمير مكة حيث دعا ابن الزبير إلى نفسه ، ووقوع القتال بينهما وحرق الكعبة . ثم توفي يزيد بن معاوية وانقسم الأمويون على أنفسهم وكادت تضع الخلافة من أيديهم ، واتسع نطاق الدعوة لابن الزبير بعد موت معاوية الثاني في الحجاز والعراق واليمن ومصر ، كما انضم بعض أهل الشام إليه : فقد انضم إليه أهل مكة والمدينة عدا عبد الله بن العباس ومحمد بن الحنفية ، إذ كانا يعتقدان أن بني هاشم أحق بالخلافة ، ودعا إلى ابن الزبير سلمة بن حنظلة التيمي في البصرة (٢) ، كما دخل أهل الكوفة في طاعته . وسرعان ما دخل في طاعته أهل العراق بعد أن نقضوا بيعة عبيد الله بن زياد الذي أقام نفسه نائب خليفة بعد موت يزيد وبايعوه بيعة مؤقتة .

أما في بلاد الشام فإن دعوة ابن الزبير لم تظهر إلا بعد موت معاوية بن يزيد حيث انقسم أهل هذه البلاد إلى أمويين وزبيريين . يقول صاحب العقد الفريد (٣) : « فلما مات معاوية بن يزيد بايع أهل الشام كلهم ابن الزبير إلا أهل الأزد » . وبايع أهل مصر أيضاً ابن الزبير ، واستخلف ابن الزبير الضحاك بن قيس الفهري على أهل الشام . سار عبد الملك لقتال مصعب بن الزبير بعد أن صالح القيسيين .

هجرة مصعب
إلى ابن الزبير

(١) الطبري ج ٦ ص ٢٧٣ - ٢٧٤

أنظر أيضاً الأخبار الطوال للدينوري ص ٢٦٠ ، وابن الأثير ج ٤ ص ٤٣

(٢) الطبري ج ٧ ص ٢٠ ، ابن الأثير ج ٤ ص ٥٦٤

(٣) العقد الفريد ج ٣ ص ١٤٥

فلما علم مصعب بمسيره إلى الكوفة أخذ يستعد لملاقاته . ولم يستطع جند مصعب الوقوف أمام جند عبد الملك ، لأن جزءاً كبيراً من جيشه — وعلى رأسه المهلب بن أبي صفرة — قد أنهكته محاربة الخوارج . أضف إلى ذلك سخط الشيعة عليه لقتله المختار بن أبي عبيد

استألة عبد الملك جند مصعب إليه

وقد راسل عبد الملك قواد مصعب وأعيان الكوفة ومناهم بمختلف الأمانى حتى أفسدهم عليه إلا إبراهيم بن الأشتر . فقد أعطى كتاب عبد الملك إليه لمصعب . وفي ذلك يقول ابن قتيبة ^(١) : « فكلهم أخفى الأمر عن مصعب إلا إبراهيم بن الأشتر ؛ فانه لما جاءه كتاب عبد الملك أخذه وأعطاه لمصعب فوجده يُمنّيه بولاية العراق ، وأخبره خبر القواد وأنها أخفوا كتب عبد الملك ، وطلب من مصعب أن يقتلهم حتى لا يفسدوا الجيش ؛ فأبى مصعب ثم رجا منه حبسهم حتى يتبين الأمر ؛ فأبى ذلك عليه أيضاً . »

من ذلك نرى أن مصعب بن الزبير لم يتمتع باخلاص جنده ، مما أتاح لعبد الملك فرصة مراسلة قواده واستمالتهم إليه بالأمانى ، كما نرى أيضاً قصر نظر مصعب الذى سمح لهؤلاء الساخطين عليه بالبقاء فى جيشه وعدم أخذه برأى إبراهيم بن الأشتر بعد أن أدلى إليه بالحقيقة . وقد كان لهذه السياسة أثرها ، فتفرق أصحاب مصعب عنه وترك فى

عدد قليل . وعلى مقربة من باخمرا ^(٢) نشب القتال بين الفريقين فقتل مصعب بعد أن أبلى بلاءً حسناً وهزم من كانوا معه ، ودخل عبد الملك الكوفة فبايعه أهلها سنة ٧١ هـ ، وولى على البصرة والكوفة عمالاً من قبله ^(٣) . وبذلك صفا لعبد الملك الجو فى العراق ، ولم يبق فى يد عبد الله بن

(١) الامامة والسياسة ج ٢ ص ٢٠

(٢) تقع بين الكوفة وواسط . وهى أقرب الى الكوفة منها الى واسط ، وتبعد عن الأولى بسبعة عشر فرسخاً . راجع معجم البلدان لياقوت .

(٣) الطبرى ج ٧ ص ١٨٧ — ١٨٨

الزبير إلا بلاد الحجاز المجدة . فلما توطدت سلطته في العراق أعد جيشا
كشيفا بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي للقضاء على ابن الزبير .

عاصرة الحجاج بن
يوسف مكة

خرج الحجاج إلى الطائف ، ومنها إلى المدينة حيث انضم إليه عاملها
ومن معه من الجند . ثم سار إلى مكة وحاصرها وضرب الكعبة
بالمجانيق ^(١) ، وأرغم أهلها على طلب الأمان ؛ فانضم بعض أتباع ابن
الزبير وغيرهم من ذوى قرباه إلى الحجاج ؛ وبقى عبد الله بن الزبير في
عدد قليل من أنصاره . ولما أيقن أنه مقتول لا محالة ، دخل على أمه
أسماء بنت أبي بكر فقال : يا أماه ! قد خذلني الناس حتى ولدي وأهلي ،
ولم يبق معي إلا اليسير ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة . والقوم
يعطونني ما أردت من الدنيا ! فما رأيك ؟ فقالت « أنت أعلم بنفسك .
إن كنت تعلم أنك على حق ، وإليه تدعو فامض له ، فقد قتل عليه
أصحابك ، ولا تمكن من رقبته غلمان بني أمية يلعبون بها . وإن
كنت أردت الدنيا فبئس العبد أنت ، أهلكك نفسك ومن قتل معك .
وإن قلت كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت ، فهذا ليس فعل
الأحرار ولا أهل الدين . كم خلدوك في الدنيا ؟ القتل أحسن . فقال :
يا أماه ! أخاف إن قتلني أهل الشام أن يمثلوا بي ويصلبوني » .
فقالت : يا بني ! إن الشاة لا تتألم بالسليخ بعد ذبحها . فامض على
بصيرتك واستعن بالله . فقبل رأسها وقال هذا رأيي ؛ فظفقت أمه
تدعو له وتشجعه (٢) »

تهامة المرأة العربية

خرج عبد الله بن الزبير بعد ذلك وقاتل أهل الشام قتالا شديدا ،
وأظهر شجاعة نادرة حتى حمل عليه العدو وقتلوه في جمادى الآخرة .
سنة ٧٣ هـ .

قتل عبد الله بن الزبير

(١) لم يرد عبد الملك بن مروان أن يحط من شأن الكعبة . وإنما اضطرت إلى قتال ابن الزبير
لحدث ما حدث عن غير قصد . وذلك أن الحجاج لما نصب المجانيق على الكعبة جعل هدفه الزيادة
التي زادها ابن الزبير في الكعبة ، إذ كان الأمويون يعتبرون ذلك بدعا في الدين

(٢) ابن الأثير ج ٤ ص ١٤٧ — ١٤٨

أسياب الضمير لمرزب الزبيريين :

اتخذ عبد الله بن الزبير مقر حكومته في الحجاز الذي أصبح بعد أن انصرفت عنه العناصر السياسية الى الشام والعراق مأوى الطبقة الارستقراطية التي انصرفت عن النزاع السياسي الذي كانت تضطرب به العراق وتموج به دمشق ، ومالت الى عيشة اللهو والمجون لما تدفق عليها من الثروة . لذلك لم تلق دعوة ابن الزبير نجاحا في تلك البلاد . ويظهر أن ابن الزبير كان متأثرا بهذه الفكرة القومية ، وهي إعادة النفوذ والسيطرة الى بلاد الحجاز كما كان في عهد النبي وأبي بكر وعمر وعثمان ، حتى إنه لم يسر الى بلاد الشام حيث دعاه الحصين بن نمير ليبايع له بعد وفاة يزيد بن معاوية ، فأبى ابن الزبير أن يغادر الحجاز . أضف الى ذلك أن عبد الله بن الزبير قد توالى في نشر الدعوة توالى في نشر دعوته لنفسه ، فظل بالحجاز وترك أمرها الى أنصاره كالضحاك بن قيس ، وزفر بن الحارث ، وأخيه مصعب ، على حين كانت السياسة الحكيمة تقضى عليه بأن يتولى ذلك بنفسه في الولايات الإسلامية كبلاد العراق ومصر وغيرهما .

على أنه كان لظهور الشيعة والخوارج وقيامها في وجه ابن الزبير أثر كبير في قتله . فقد توزعت قوته ، فانشغل فريق من رجاله المخنكين بقتال حزب الخوارج ، وتعقب فريق آخر المختار ، وحارب فريق ثالث بني أمية . ولو أن هذه الفرق قد تجمعت ضد بني أمية ، لما تمكن الأمويون من القضاء على الزبيريين .

أضف الى ذلك ما اشتهر عن عبد الله بن الزبير من البخل . وقد ذكر لنا صاحب العقد الفريد (١) أن مصعب بن الزبير لما قتل المختار ابن أبي عبيد الثقفي وفد على أخيه عبد الله ومعه وجوه أهل العراق ، فقال : يا أمير المؤمنين ! جئتك بوجوه أهل العراق لم أدع لهم نظيرا

انصراف اهل الحجاز
عن النزاع السياسي

قيام الشيعة والخوارج
في وجه ابن الزبير

سجية البخل

لتعطيهم من هذا المال . فقال له : جئتني بعبيد أهل العراق لأعطيهم من مال الله . والله لا فعلت . أما خلفاء بني أمية فقد كانوا على العكس من ذلك . فقد اجتذبوا الناس اليهم بالأموال الضخمة والعطايا . والناس عبيد الدرهم والدينار كما يقولون .

عدم اهتمامهم
بالدعاية لأنفسهم

ولا عجب إذا تفوق الأمويون على الزيريين في ناحية الدعاية واجتذاب الناس اليهم ، حتى كثر الشعراء الذين لهجوا بمحامد الأمويين وبثوا الدعاية لدولتهم رغبة في الحصول على أموالهم وأعطياتهم التي كانوا يبذلونها في سخاء . وكانوا يفيضون على الشعراء وعلى القبائل التي ينتمى إليها هؤلاء الشعراء ، على حين أنا لانجد في جانب الزيريين أكثر من شاعر واحد أخلص لهم ودام على ولائه لهم حتى بعد سقوط حزبهم . وهذا الشاعر هو عبيد الله بن قيس الرقيات ^(١) الذي يقول عنه الدكتور طه حسين في كتابه حديث الأربعة : « كان صاحبنا من أنصار عبد الله بن الزبير ، وكان مغاليا في نصر الزيريين يحبهم أشد الحب (٢) ويبغض خصومهم من بني أمية بغضا شديدا جاهد معهم

(١) هو عبيد الله بن قيس (والرقيات جمع رقية) . سمي ابن قيس الرقيات لأنه شبيب ثلاث نسوة كان اسم كل منهن رقية . وهو شاعر فرسي يؤثر العصيدة القرشية ويختص منها بحزب الزيريين الذين اتصل بهم ومدحهم ودافع عنهم حتى قتل مصعب بن الزبير ثم أخوه عبد الله واختفى حزبهم من ميدان السياسة . (٢) مدح عبد الله بن الزبير فقال :
وابن أسلم خير من مسح الركن فعلا وخيرهم بنيانا
واذ قيل من هجان قریش ؟ كنت أنت الفتى وأنت الهجانا
ديوان قيس الرقيات . ورقة ٢٧ (مخطوط رقم ٥١١ دار الكتب الملكية) امرأة هجان كريمة . وقال في مصعب بن الزبير :

أما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلما
ملكه ملك قوة ليس فيه جبروت ولا به كبريا
يتقى الله في الأمور وقد أذ لمح من كان همه الانتقام

ويقول :

لمصعب عند جد القو ل أكثرها وأطيبها
وأفضاها بألوية يسد الفج متقبها
بنصر الله يعلوها ويمر بها ويغلبها
ويذكها بكفيه إذا ما لاح كوكبها

بسيفه ولسانه أشد جهاد ، ومدحهم أحسن مدح ، حتى إن عبد الملك بعد أن عفا عنه لم يستطع أن يغفر له حسن قوله في مصعب بن الزبير . وقد خرج مع مصعب هذا في العراق على عبد الملك ، ولزمه حتى أحس مصعب أنه مقتول ، فأذن له في أن ينصرف وجباه مالا كثيرا . ولكن الشاعر أقسم لا يريم حتى يعرف سبيل مصعب . فما زال معه حتى قتل ، ثم فر فبلغ الكوفة فلجأ الى أول دار لقيته « (١)

كما يصف الدكتور طه حسين اندفاع هذا الشاعر في ذلك النضال السياسى ومناصرة الزبيريين وإخلاصه لهم فيقول : « خطرت له السياسة وخلبت عقله ففرق فيها الى رأسه ، واحتمل من آلامها وأثقالها شيئا كثيرا جدا . وأثر ذلك في شعره وفي حياته تأثيرا ظاهرا غلب على كل شىء من الأشياء التى يمكن أن تعمل في حياة الشعراء (٢) . انظر الى ابن قيس يخاطب عبد الله بن الزبير وقد خرج اليه وافدا :

أَنْتَ ابْنُ مُعْتَلِجِ الْبِطَاحِ كُنْدِيهَا فَكُنْدَاهَا
فَالْبَيْتِ ذِي الْأَرْكَانِ فَاَلْمُسْتَقَرِّ مِنْ بَطْحَاهَا
فَمَحَلِّ أَعْلَاهَا إِلَى عَرَفَاتِهَا فَحَيْرَاتِهَا
مِنْ سِرِّهَا فِيهَا وَمَعْدَنِ بَرِّهَا وَوَفَاتِهَا
أَوْ فِي قَرْيَتِهَا بِالْعَلَا فِي حُكْمِهَا وَقَضَائِهَا
وَلَا أَنْتَ أَعْلَمُهَا بِهَا وَأَصَحُّهَا مِنْ دَائِهَا
وَأَتَمُّهَا نَسَبًا إِذَا نُسِبَتْ إِلَى آبَائِهَا
وَلَدَتْ أَغْرَ مُبَارَكًا كَالْبَدْرِ وَسَطَ سَمَائِهَا
إِنَّ الْبَلَادَ سِوَى بِلَادِكَ ضَاقَ عَرْضُ فُضَائِهَا

وقال في نصرة مصعب :

على بيعة الاسلام بايعن مصعبا كرايس من خيل وجعا ضباركا
نفيت بنصر الله عنهم عدوهم فأصبحت تحمى حوضهم برماحكا
تداركت منهم عشرة نهكت بهم عدوهم والله أول كذلك

ورقة رقم ٢٨ من المخطوط (١) كتاب حديث الأرباع ج ٢ ص ٨٧

(٢) شرحه ص ٨٢

فاجتمعَ بَنِيَّ إِلَى بَنِيكَ فَأَنْتَ خَيْرُ رَعَاءِهَا
نَشْهَدُكَ مِنَّا مَشْهَدًا ضَنْكًا عَلَى أَعْدَائِهَا
نَحْنُ الْقَوَارِسُ مِنْ قَرِينٍ شِيءٌ يَوْمَ جَدِّ لِقَائِهَا
ويقول في موقعة الحرة :

إِنَّ الْخَوَادِثَ بِالْمَدِينَةِ قَدْ أَوْجَعَتْنِي وَفَرَعَنَ مَرَرَتِي
وَجَبَبَتْنِي جَبَّ السَّخَامِ وَلَمْ يَشْرُ كُنْ رِيْشًا فِي مَنَا كَبِيَّةٍ
وَنَعَى أَسَامَةَ لِي وَإِخْوَتَهُ فَضَلِلْتُ دُسْتُكَ دَسَا مَعِيَّةٍ
كَأَشَارِبِ الدُّشُونِ قَطْرُهُ سَمَلَ الزَّقَاقِ تَفِيضُ عَبْرَتِيَّةٍ
كَيْفَ الرِّقَادُ وَكَلَّمَا هَجَعَتْ عَيْنِي أَلَمْ خَالِ إِخْوَتِيَّةٍ
وَاللَّهِ أَتْرَحُ فِي مَقْدَمَةٍ أَهْدَى الْجِيُوشِ عَلَى شِكْمِيَّةٍ
حَتَّى أَفْجَعَهُمْ بِإِخْوَتِهِمْ وَأُسُوقَ نِسْوَتِهِمْ بِنِسْوَتِيَّةٍ (١)

ويقول عن قتل مصعب بن الزبير وقعود مضر عن نصرته ضد
ربيعة التي ما قتلتها لتنصر بني أمية فحسب ، بل لتدرك ثاراتها الجاهلية
قبل مضر .

إِنَّ الرِّزْيَةَ يَوْمَ مَسَدٍ كَيْنَ وَالْمَصِيبَةَ وَالْفَجِيْعَةَ
بَابِنِ الْخَوَارِي الَّذِي لَمْ يَعُدَّهُ أَهْلُ الْوَقِيْعَةِ
غَدَرَتْ بِهِ مُضَرُّ الْعَرَا قِ وَأُمَكْنَتَ مِنْهُ رَيْبَةُ
فَأَصْبَتِ وَتَرَكَ يَارِيْبَهُ حَ وَكُنْتُ سَامِعَةً مُطْبِعُهُ
يَا تَهْفَ لَوْ كَانَتْ لَهُ بِالطَّفِّ يَوْمَ الطَّفِّ شَيْعَةُ
أَوْ لَمْ يَخُونُوا عَهْدَهُمْ أَهْلُ الْعِرَاقِ بَنُو الْاَسْكِكَةِ
لَوْ جَدُّهُمْ حَيْنَ يَغْدُ ضَبُّ لَا يُعْرَجُ بِالْمُضْيِغَةِ (٢)

ويقول أيضا في قتل مصعب وفي دعوة قريش إلى توحيد صفوفها :
لَقَدْ أَوْزَتْ الْمِصْرَيْنِ خِزْيَاوْدَاةً قَتِيلٌ بَدِيرُ الْجَاثِلِقِ مُقِيمٌ
فَمَا نَصَحَتْ لَكَ بِكَرْبَنُ وَائِلٍ وَلَا صَبَرَتْ عِنْدَ اللِّقَاءِ تَمِيمُ

(١) حديث الأثر بعاء للدكتور طه حسين ج ٢ ص ٨٩

(٢) السكامل للبهرد (طبعة أوروبا) ص ١٥٣

ولو كان بكرياً تعطف حوله كتائب يعلى حميها ويدوم
لكنه ضاع الزمام ولم يكن بها مضري يوم ذاك كريم
جزى الله كوفياً هناك ملامه وبصريهم إن المليم مليم
وإن بني العلات أخلوا ظهورنا وتحن صريح بينهم وصميم
فإن نفن لا يبقوا أو أئتك بعدنا لذي حرمة في المسلمين حريم (١)

وما يذكر لهذا الشاعر أنه مع انفراده في صف الزيريين وكثرة الشعراء المواليين لبني أمية قد استطاع أن يغيط بني أمية، وأن يسلك إلى إغضابهم طريقاً ابتدعه وسبق إليه الشعراء. وذلك أنه كان - كما يقول الدكتور طه حسين - «... يتغزل حيناً آخر لا للهو ولا لوصف حب صادق، بل ليعبث بخصومه السياسيين؛ إذ يذكر نساءهم بما يحسن وبما لا يحسن..... وبلغ من هذا الغزل الهجائي ما لم يبلغه أحد من شعراء العصر الأموي. فلم يكن يكتفي بالنسيب المألوف يذكر فيه المرأة التي يريد أن يهجو أهلها كما كان يفعل العرجي، وإنما كان يتخيل القصص والأخبار فيقصها في شعره مسرفاً في تفصيلها إسرافاً شديداً... كان يخاصم بني أمية. فتغزل بأم البنين امرأة الوليد بن عبد الملك وبنت عبد العزيز بن مروان، يريد من غير شك أن يغيط عبد الملك وابنه الوليد وأخاه عبد العزيز وغيرهم من رجالات بني أمية. « وقد نقل الدكتور في آخر حديثه قصيدة لابن قيس « ذكر فيها أم البنين ذكراً مفصلاً تفصيلاً من شأنه أن يؤذى ويسىء. ولكن احتاط لنفسه ولأم البنين، فرغم أن هذه القصة الطويلة المفصلة إنما وقعت له في المنام » ليصون كرامة أم البنين وليبقى على نفسه أن يقع تحت طائلة العقاب، ثم تخلص بعد هذا كله إلى مدح مصعب وهي القصيدة التي مطلعها:

ألا هزأت بنا قُرْشٌ يمة يهتز مؤكبها (٢)

(١) الطبري (طبعة دي غويه) ٢ : ٨١٢

(٢) حديث الأرياء ج ٢ ص ٩٠ وفيها يقول :

إلى أم البنين متى يقرها مقرها

والحق أن عميد الله بن قيس قد وصل من هذا الغزل الهجائي الى كل ما كان يريد ، فاحفظ بني أمية عليه حتى هدروا دمه وتوعدوا من آواه ، فلم يستطع أن ينال منهم بعد الاحتيال والشفاعة من أم البنين وعبد الله بن جعفر لدى عبد الملك . لم ينل إلا الأمان وحرّم العطاء من بيت مال المسلمين ولم يقبل منه شعره في بني أمية (١)

لذلك لا نعجب إذا انصرف الناس عن ابن الزبير وكتابوا عبد الملك بن مروان وغدروا بمصعب . وقد عرف فيه عبد الملك هذا الخبل ، فتنبأ له بأفول نجمه وأنه سوف لا يسود . وقد قال عبد الملك لمصعب عند ما طلب منه أن ينضم اليه ويترك أخاه : « والله إن فيه ثلاث خصال لا يسود بها أبدا : عجبٌ قد ملأه ، واستغناء برأيه ، وبخل التزمه . فلا يسود رجل فيه تلك الخصال . »

هذا الى اخراج عبد الله بن الزبير بني أمية من المدينة بدون مبرر وتحامله على بني هاشم وحطه من شأنهم ، وهدمه الكعبة لاصلاحها ، فاتخذ الحجاج بن يوسف من ذلك وسيلة لاثارة الناس على ابن الزبير (٢) وبذلك سقط حزب الزبيريين بعد أن بسط سلطانه على كثير من

الولايات تسع سنين (٦٤ - ٧٣ هـ) ، ولم تقم له قائمة بعد ذلك .

وإن لهزيمة ابن الزبير مغزاها السياسي . فانها ليست هزيمة شخص أو حزب ، ولكنها هزيمة ذلك الاقليم الذي كان مبعث النهضة ، والذي حمل لواءها مدة من الزمن . وكانت تلك المحاولة آخر المحاولات التي بذلها الحجاز لاسترداد نفوذه الأدبي والسياسي .

أنتى في المنام فقلت هذا حين أعقبها

شربت بريقها حتى نهلت وبت أشربها

فمكثت ليلة في النوم نسمرها وتلعبها

فايقظنا مناد في صلاة الصبح يرقبها

وفيها : لمصعب عند جد الفول ل أكثرها وأطيبها

(١) أنظر ترجمة ابن قيس الرقيات في الاغانى ج ٥ ص ٧٣ — ١٠٠ (طبعة دار

الكتب الملكية)

(٢) تاريخ البعقوني ج ٢ ص ٣٠٤ — ٣١١

الحجاج بن يوسف والعراق

صفا الجو لعبد الملك في الشام وفلسطين والعراق بعد ما وقع بها من حوادث كادت تودى بالدولة الأموية إلى الزوال ، لولا مأوتيه عبد الملك من رباطة جأش وكفاءة نادرة . حتى إذا ماتم له القضاء على منافسة عبد الله بن الزبير سنة ٧٣ هـ ندب الحجاج بن يوسف لاختضاع بلاد المشرق .

تولى الحجاج بن يوسف بلاد الحجاز بعد مقتل عبد الله بن الزبير تولية الحجاج بن يوسف بلاد العراق

سنة ٧٣ هـ وبقي بها إلى سنة ٧٥ هـ حيث ولاه عبد الملك العراق ، فسار إليها في جيش من أهل الشام . ولما بلغ القادسية أمر الجيش بالاستراحة ، وسار هو في اثني عشر راكباً إلى الكوفة ، فدخلها وصعد المنبر متلثماً . ولما غصّ الجامع بأهله كشف اللثام عن وجهه وخطبهم خطبته المشهورة في ميدان الأدب والتاريخ ، وكلها إطناب واستهتار بأهل العراق ، وتوعد لهم لما كان منهم من شق عصا الطاعة على بني أمية :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني
يا أهل الكوفة ! إني لأرى رءوساً قد أينعت وحان قطافها ،
وإني لصاحبها . وكأني أنظر إلى الدماء بين العمام واللقى . . . الخ .
أما بقية الخطبة فلا تختلف في معناها ولهجتها عما تقدم .

ولما فرغ الحجاج من خطبته لم يفه أحد من كان بالمسجد ، وفيهم أهل الشرف والرياسة ، بكلمة يعترض فيها على قوارص كلمه وشديد زهوه بنفسه ، أو يظهر استياءه لما لحق أهل بلده من مذلة وما حاق بهم من مهانة . وبعد هذه المقدمة الطويلة المفزعة أمر الحجاج غلامه بأن يقرأ على الناس كتاب عبد الملك فقرأه : « بسم الله الرحمن الرحيم ! من عبد الملك أمير المؤمنين إلى من بالكوفة من المسلمين سلام عليكم » .

غير أن أحدا من الحاضرين لم يرد سلام الخليفة ؛ فأمر الحجاج غلامه بالكف ، وأخذ يشحن الناس ويتهدهم ويتوعدهم ، فقال « والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب أو لتستقيمن » ؛ ثم أمر غلامه فأعاد الكرة . فلما قرأ سلام الخليفة قال الحاضرون : « على أمير المؤمنين السلام » (١)

ومن هذه الخطبة تبين السياسة التي رسمها الحجاج للسير عليها مع أهل العراق ؛ وهى سياسة حزم ممزوج بالظلم والجبروت . ولا غرو فقد أخذ الناس بغير هوادة وقتلهم على الريبة والظنة .

ولما فرغ الحجاج من أهل الكوفة ، سار إلى البصرة وخطب الناس فيها خطبة لا تختلف في معناها ومرماها عن خطبته في الكوفة . ومن ثم عمل على معاونة المهلب بن أبي صفرة في حرب الخوارج . وهنا يجب أن نرجع قليلا إلى الورا لنترى ما كان من أمر حزب الخوارج مع عبدالله بن الزبير ، ثم مع عبد الملك بن مروان :

الخوارج :

انضمامهم إلى عبدالله
ابن الزبير بالحجاز

لما اشتد ابن زياد على الخوارج في العراق وسد في وجوههم كل طريق ، اجتمعوا وتذاكروا ملاقوه من الإيذاء على يد الأمويين ؛ فقال لهم نافع بن الأزرق « إن الله قد أنزل عليكم الكتاب وفرض عليكم الجهاد واحتج عليكم . وقد جرد أهل الظلم فيكم السيوف . فاخرجوا بنا إلى هذا الذى قد ثار بمكة (٢) . فان كان على رأينا جاهدنا معه ، وإن يكن على غير رأينا دافعناه عن البيت » . ثم سار الخوارج إلى مكة حيث لحقوا بابن الزبير ؛ فعول على اجتذابهم نحوه ، واتخذ

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٢٥ ، ١٣٢ - ١٣٣ ٩ الطبرى ج ٧ ص ٢١٠

(٢) كان عبد الله بن الزبير في ذلك الوقت قد قام يدعو إلى نفسه ، فسير إليه يزيد بن معاوية

جيشا لقتاله .

من قدومهم عليه وانضمامهم إليه فرصة سانحة للوصول إلى غايته .
وسرعان ما أخبرهم أنه يرى رأيهم ؛ فقاتلوا معه أهل الشام حتى
مات يزيد .

ولما وضعت الحرب أوزارها اجتمعوا وقالوا « إن الذي صنعتم
أمس ليس رأيا ناجعا . تقاتلون مع رجل لا تدرون لعلمه ليس على
مثل رأيكم » ؛ ثم اتفق الخوارج على أن يأتوا ابن الزبير ويسألوه عن
رأيه في عثمان وعلى وما أحدثه كل منهما . فلما كاشفوه بذلك قال لهم
أشهدكم ومن حضرني أني ولي لابن عفان وعدو أعدائه . ولما تبين
الخوارج أن ابن الزبير ليس على رأيهم رحلوا من مكة ؛ فأقبل نافع
ابن الأزرق الحنظلي وعبد الله بن الصقار السعدي وعبد الله بن إباح
وحنظلة بن بيهس حتى أتوا البصرة . وانطلق أبوطالوت من بني بكر
ابن وائل وأبو فديك وعطية بن الأسود يشكرى إلى اليمامة (١) .

وعند ما دخل نافع بن الأزرق وأتباعه البصرة ، اجتمع هو
وأصحابه يتذاكرون الجهاد ، ثم خرجوا وكسروا باب السجن
وأخرجوا من فيه من الخوارج الذين حبسهم ابن زياد . وساعدهم
على ذلك خروج أهل البصرة على ابن زياد وضعف نفوذه على أثر
قيام ابن الزبير بعد موت يزيد .

ولما استفحل أمر نافع تجرد أهل البصرة لقتاله ، فلحق بالاهواز
(شوال سنة ٦٤ هـ) (٢) حيث اقتتل الفريقان ؛ فقتل نافع وقتل مسلم
ابن عبيس قائد الأمويين . فأمر كل منهما عليه قائدا من قبله ، فلحق
بسابقه . وهكذا أصبحت الحرب سجالات بين الأمويين والخوارج حتى
حلت الهزيمة بأهل البصرة في جمادى الآخرة سنة ٦٥ هـ

(١) ابن الأثير ج ٤ ص ٨٠

(٢) لحق نافع بالاهواز واستولى عليها وجي خراجها فكثرت أتباعه وانتشر عمله في
السواد حتى أوقع الفرع في قلوب أهل البصرة .

تفرق الخوارج عن
عبد الله بن الزبير

الخوارج بالبصرة

ازدياد نفوذ نافع
في السواد

توليته المهلب بن أبي
صفرة حرب الخوارج

ولما بلغ خبر الهزيمة أهل البصرة ورأوا أن خطر الخوارج قد اشتد، طلبوا إلى الأحنف بن قيس أن يتولى حربهم، فأشار عليهم بالمهلب بن أبي صفرة لما يعلمه فيه من الشجاعة وحسن الرأي والتدبير والمعرفة بالحرب. فعرض أهل البصرة على المهلب أن يكفيهم شر الخوارج؛ فقبل على أن تكون له ولاية ماغلب عليه، وأن يعطى من بيت المال ما يقوى به هو ومن معه على محاربتهم، وأن ينتخب من وجوه الناس وفرسانهم وذوى الشرف من أحب؛ فأجابوه إلى ماطلب. (١)

ودارت رحى القتال بين الخوارج وبين أهل البصرة بقيادة المهلب ابن أبي صفرة والأحنف بن قيس، فدارت الدائرة على الخوارج وقتل زعيمهم؛ فأنحازوا إلى نواحي كرمان وأصفهان. ولم يزل المهلب يطارد الخوارج حتى تولى مصعب بن الزبير العراق، فولاه الجزيرة وولى على حرب الخوارج عمر بن عبيد الله بن معمر؛ فخارهم مدة حتى أجالهم إلى أصفهان. حيث جمع الخوارج شملهم؛ وأتوا سابور فسار إليهم قائد ابن الزبير وهزمهم، غير أنه لم يكن في حزم المهلب؛ ففقوى أمر الخوارج وعاثوا في الأرض فسادا وقتلوا الأطفال والنساء وجبوا الخراج. ولم ير أهل العراق بدا من أن يطلبوا إلى مصعب رجوع المهلب إلى قتالهم. وسرعان ما تلاقى المهلب مع الخوارج وعلى رأسهم قطرى بن الفجاءة، واقتتل الفريقان ثمانية أشهر صمد فيها المهلب لقتالهم. (٢)

قطرى بن الفجاءة

على أن قتل مصعب ابن الزبير وعود النفوذ لعبد الملك بن مروان في العراق قد هيا الفرصة لظهور الخوارج من جديد. ذلك أن عبد الملك لما ولى خالد بن عبد الله بن أسيد بلاد انعراق، صرف

ظهور الخوارج من
جد يد

(١) ابن الاثير ج ٤ ص ٨١

(٢) ابن الاثير ج ٤ ص ١١٨ — ١٢٠

المهلب عن حرب الخوارج وأرسل أخاه عبيد العزيز بن عبد الله لحربهم ؛ فهزمه الخوارج هزيمة منكرة وأسروا امرأته .

على أن سياسة هذا الوالي لم ترق عبد الملك ؛ فكتب إليه يقبح رأيه ويؤنبه على إبعاده المهلب ، الذي عرف بقوة الشكيمة وشدة البأس ، والذي حنكته الحروب حتى أوقع بالخوارج غير مرة ، ويأمره بإسناد حربهم إليه وقال له : « قبح الله رأيك حين تبعث أخاك أعرابيا من أهل مكة على القتال وتدع المهلب يجبي الخراج ، وهو الميمون النقيبة المقاسي للحرب ابنها وابن أبنائها . أرسل إلى المهلب يستقبلهم . وقد بعثت إلى بشر بالكوفة ليمدك بجيش ؛ ولا تعمل في عدوك رأيا حتى يحضره المهلب والسلام » . وكان ذلك سنة ٧٢ هـ . ومن ثم أصبحت الحرب سجالا بين المهلب والأزارقة من الخوارج ؛ فكانت تواتيه الأمداد من الكوفة .

وعلى الرغم من ذلك كله فقد استفحل خطر الخوارج فأبلوا في استفحال خطر الخوارج كثير من المعارك ، لماشتهر به ولاية العراق من الضعف ووهن العزيمة . لذلك لم ير عبد الملك بدا من تولية الحجاج بن يوسف على العراق - كما أشرنا - فأخذ أهلها بالشدة حتى تهافتوا على المهلب ، وصار يرسل إليه البعوث فقوى أمره . وبذلك تمكن من أن يطرد الخوارج إلى كرمان . وأقام هو بفارس ، ثم تبعهم إلى بجيرفت (١) حيث قاتلهم أكثر من سنة صبر فيها على قتالهم حتى دب الشقاق بين الخوارج ، وذلك أن رجلا منهم يقال له المُعْطَر قتل أحد أصحابه من ذوى البأس والنجدة فطلبوا من قطرى أن يملكهم منه ليقْتَصُوا

قيام الشقاق بين
الخوارج

(١) بكسر الجيم وفتح الراء وسكون اللام بعدها ثاء مثناة فوقية . وهي مدينة كبيرة من أشهر مدن كرمان وأوسمها . بها خيرات ونخل وفواكه ، ويتخللها نهر ، وحرها شديد . أنظر هذا اللفظ في معجم البلدان لياقوت .

منه لصاحبهم فقال لهم : ما أرى أن أفعل . رجل تأول فأخطأ في التأويل ما أرى أن تقتلوه وهو من ذى الفضل منكم والسابقة فيكم . وقد قيل إن المهلب أرسل رجلاً نصرانياً إلى جيشهم وأمره أن يسجد لقطرى ففعل ؛ فقال الخوارج لقطرى « إن هذا قد اتخذك إلها » ووثبوا على النصراني فقتلوه . وسواء أكان السبب في اختلافهم هذا أم ذاك ، فقد اختلفوا وتفرقوا ، فبقى فريق مع قطرى وانحاز فريق آخر إلى عبد ربه الكبير ، ووقع القتال بين الفريقين ومكشوا على ذلك شهراً حتى ضعفوا . وتركهم المهلب على حالهم لا يحركهم ثم ارتحل قطرى إلى طبرستان ، وأقام عبد ربه بكرمان ، فحاصره المهلب بجيرفت وقضى عليه واستولى على ماني عسكره سنة ٧٧ هـ (١)

ولما علم الحجاج بمسير قطرى ومن معه إلى طبرستان أرسل إليهم جيشاً عظيماً قاتلهم بها حتى قضى عليهم وقتل قطرى . ومن ذلك الوقت ضعفت شوكة الأزارقة (٢) .

وقد حارب الحجاج أيضاً الصفرية من الخوارج وعلى رأسهم صالح ابن مسرح التميمي من بني امرئ القيس بن عبد مناة . وكان صالح عابداً فقيهاً ، له أصحاب يقرئهم القرآن ويعلمهم الفقه . وكان يقيم في بلاد الموصل والجزيرة ويتردد على الكوفة . فلما علم به الحجاج شدد في طلبه فهرب إلى الموصل حيث عزم على الخروج ، وحث أصحابه على التضحية وبذل النفس في طاعة الله « وقاتل أولئك الكفار » . وانضم إليه شبيب بن يزيد بن نعيم الشيباني في جماعة من أتباعه (صفر سنة ٧٦ هـ) . وبينما هم في طريقهم إلى الموصل صادفوا دواباً لمحمد بن مروان عامل الجزيرة ، فأخذوها وحملوا عليها أصحابهم وهزموا الجيش الأموي

الصفرية

(١) ابن الأثير ج ٤ ص ١٨٢

(٢) ابن الأثير ج ٤ ص ١٨٣

في حران - وكان يبلغ مائة ألف - هزيمة منكرة وغنموا مامعه من سلاح ومال ، وأوقعوا بالأمويين في كثير من المعارك .

أسباب انتصارات
الخوارج

وعلى الرغم من قلة عدد الخوارج وقتل صالح بن مسرح ، فإننا نراهم يهزمون جند الأمويين على كثرتهم .

فقد ذكر ابن خلكان (١) أن قطري بن الفجاءة خرج في بعض حروبه وهو على فرس أعجف ويده عمود خشب ؛ فدعا إلى المبارزة فخرج إليه رجل من الأعداء . فحسر قطري عن وجهه ؛ فلما رآه الرجل ولى هاربا ؛ فقال له قطري : إلى أين ؟ . فقال الرجل : لا يستحي الإنسان أن يفر منك .

وليس غريبا أن يولى مثل هذا الرجل أمام قطري وهو الذي يقول :-

أقول لها وقد طارت شعاعاً من الأبطال ويحك لن تُراعى
فإنك لو سألت بقاء يوم على الأجل الذي لك لم تطاعى
فصبراً في مجال الموت صبراً فما تيلُ الخلود بمُستطاع
ولا ثوبُ الحياة ثوب عزٍ فيطوى عن أخى الخنوع اليراع
سبيل الموت غاية كل حى وداعيه لأهل الأرض داعى
ومن لا يُعْبِطَ يسأم ويهزم وتسليمه المنون إلى انقطاع
وما لله خير في حياة إذا عد من سقط المتاع (٢)

ولا غرو فقد بلغ من جرأة شبيب وعدم اكتراثه بجيوش الحجاج أن دخل الكوفة وطاف فيها وقتل كثيرا ممن كانوا في مساجدها ، وأدخل الفزع والهلع في قلوب أهلها حتى أغلقوا بيوتهم .

ولما رأى الحجاج ضعف أهل الكوفة عن مقاومة الخوارج وثاقل أهل العراق عن حربهم ، سأل عبد الملك أن يمدّه بجيش من أهل الشام ؛ فبعث إليه ستة آلاف حمل عليهم شبيب أكثر من ثلاثين

(١) وفیات الاعيان ج ١ ص ٤٣٠

(٢) شرحه

حملة ؛ فصمدوا حتى اضطروا الخوارج إلى عبور جسر على دُجَيْلٍ فهوت بشييب رجل فرسه فغرق في النهر ؛ فحمل أهل الشام على بقية أصحابه وأفنؤهم على بكرة أبيهم (١). واستراح الحجاج من خطر هؤلاء الخوارج . وقد طويت بموت شييب صحيفة من صفحات الفروسية النادرة .

ويعتبر هذا العصر أشد عصور الخوارج قوة . ولا غرو فقد كان مليئاً بالحروب المتتابعة التي أضرموا نارها في كل مكان ، وأظهر وافيها شجاعة نادرة واستبسالاً ممتازاً ، ولا سيما منذ أن فارق بعضهم الزبير بمكة ، وأغار بعضهم - كالأزارقة والنجدية والصقرية - على بلاد الدولة الأموية في عهد عبد الملك بن مروان الذي يرجع إليه الفضل في إضعاف أمرهم وفلّ شوكتهم . ولو أنهم اتحدوا وكونوا جبهة واحدة لكان لهم شأن غير هذا .

فرق الخوارج ونعاليهم :

يحسن بنا بعد أن تكلمنا عن مناوأة الخوارج لعبد الملك وقضائه عليهم ، أن نأتى بكلمة عن فرقهم ومبادئهم :
كان الخوارج أول الأمر حزبا سياسياً لا يعدو بحثه الخلافة وما يتعلق بها ؛ وكانوا يقولون بصحة خلافة أبي بكر وعمر وعثمان في سنيه الأولى وعلى إلى أن حكم الحكّمين .

ويمثل الخوارج أو الجمهوريون (كما يسميهم فان فلوتن) (٢) المبادئ الديمقراطية المتطرفة . ويمكن تلخيص نظريتهم في الخلافة في أنها : حق لكل عربي حرٍّ ، وأنه إذا ما اختير الخليفة لا يصح له أن ينزل عنها . وإذا جار الخليفة استحلوا عزله أو قتله إذا قضت الضرورة بذلك (٣) .

نظريتهم في الخلافة

(١) كتاب السيادة العربية ترجمة المؤلف س ٦٩

(٢) شرحه ص ٦٩ ٩ . Browne, Lit. Hist. of Persia, p. 220.

(٣) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ١١٠ — ١١١

وقد أدخل الخوارج بعض التعديل على الشرط الأول ، فشرطوا الإسلام والعدل بدل العروبة والحرية ، ولا سيما حين انضم إلى صفوفهم الكثيرون من المسلمين من غير العرب . لذلك جعلوا حق الخلافة شائعاً بين جميع المسلمين للأحرار والارقاء على السواء . وقد خالفوا بهذا الرأي نظرية الشيعة التي تقول بانحصار الخلافة في آل بيت النبي .

وقد انضم إلى الخوارج وغذى صفوفهم أولئك العرب الخالص من كان يتكون الخوارج من رجال الصحراء ، وبخاصة بعض القبائل العربية ذات الخطر والشأن ، مثل قبيلة تميم وأبطال القادسية ورؤساء الجند الذين انضم إليهم أولئك المتطرفون في الإسلام من أهل الصيام والصلاة كما سماهم بذلك الشهرستاني . وقد رأوا أن جماعة المسلمين قد أصبحت في خطر من جراء المطامع الشخصية ، وأن مصالحهم قد أصبحت خاضعة وتابعة لمصلحة بعض الأحزاب تعبت بها كما تشاء .

وانضم إليهم أيضاً بعض القراء من جند على ، ولا سيما بعد ما رأوا من فشل الحكيم في حكمهما وخيبة الأمل في حقن دماء المسلمين وإعادةهم إلى الوئام .

أفكار الخوارج
الدينية

كانت صبغة الخوارج منذ نشأتهم صبغة سياسية محضة على عكس ماذهب إليه الأستاذ نيكلسون في كتابه تاريخ العرب الأدبي (١) ؛ وقد ظلت كذلك حتى خلافة عبد الملك بن مروان حيث مزجوا تعاليمهم السياسية بالأبحاث الدينية ؛ فقالوا إن العمل بأوامر الدين من صلاة

(١) يرى الأستاذ نيكلسون أن الدافع الأصلي للخوارج على تلك الحركة وتركهم جند على إنما هو دافع ديني رغم ما كان يشوبه من المظهر السياسي .

(Nicholson : Lit. Hist. of the Arabs, p. 210.)

وقد نقل هذا الرأي عن الأستاذ فلموزن في كتابه الأحزاب السياسية والدينية في الصدر الأول للإسلام

وصيام وصدق وعدل جزء من الايمان ، وليس الايمان الاعتقاد بالله
ورسالة محمد فحسب ؛ فمن اعتقد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله
ثم لم يعمل بما يفرضه الدين وارتكب الكبائر فهو كافر . وهكذا كانت
أفكار الخوارج في الدين لا تقل شدة عن أفكارهم في السياسة . فقد
صبغت روح تعصبهم السياسى وجهات نظرهم الدينية أيضا ؛ فكانوا أشداء
في الدين غير متسامحين لا تعرف المرونة ولا اليسر إلى نفوسهم سيلا .
ومما امتازوا به شدة تمسكهم بالقرآن واتباع أحكامه وتنفيذ
أوامره ؛ وكان خوفهم من عذاب الله يوم القيامة يثير في نفوسهم
التحمس للحق وشدة التمسك به والاثمار بأوامر الله واجتناب نواهيه ،
حتى ليصفهم الشهرستاني لذلك بأنهم « أهل صيام وصلاة » ؛ إلا أنهم
قد غلوا في أفكارهم حتى عدوا مرتكب الكبيرة - بل مرتكب الصغيرة
أيضا - كافرا ، وخرجوا على أئمتهم للهفوة الصغيرة يرتكبونها . ويتشدد
كثير منهم في النظر إلى مخالفهم من المسلمين فعدوهم كفارا ، بل كانوا
يعاملونهم بما هو أقي من معاملة الكفار . يحكون أن واصل بن
عطاء - رأس المعتزلة - وقع في أيديهم ، فادعى أنه مشرك مستجير ، ورأى
أن هذا ينجيه منهم أكثر مما تنجيه دعواه أنه مسلم مخالف لهم ^(١)

معاملتهم لمخالفهم
في المذهب الدينى

وقد اشتدوا في معاملة المخالفين لهم ، حتى كان كثير منهم
لا يرحمون المرأة ولا الطفل الرضيع ولا الشيخ الفانى . وهكذا كانوا
لا يتورعون عن ارتكاب أشد الأمور وحشية وقسوة ، رغم ما كان
من ظهورهم بمظهر العبياد والزهاد ، وتورعهم عن تافه الأشياء ،
وتحرجهم في صغائر الأمور أشد التحرج ، ويأتون أفضع المنكرات
وأكبر الكبائر ، كأنهم لا يدينون بالله ولا يعرفون شفقة ولا رحمة ، وهم
مع ذلك لا يعجزون عن الاتيان بالآيات البينات من كتاب الله

وأحاديث الرسول يستدلون بها على تبرير عملهم على الرغم من أن فريقاً منهم قد شذ عنها ؛ ففهموا من قولهم « لاحكم إلا الله » أن المراد لا حكومة - أى لا حاجة إلى إمام - بدليل ما قاله على بن أبى طالب حين سمعهم يقولون هذه العبارة « كلمة حق يراد بها باطل » . نعم إنه لاحكم إلا الله . ولكن هؤلاء يقولون لا إمرة إلا الله ، وإنه « لا بد للناس من أمير بر أو فاجر يعمل في إمرته المؤمن ويستمتع فيها الكافر ويبلغ الله فيها الأجل ، ويجمع به الفناء ، ويقا تل به العدو ، وتأمين به السبل ، ويؤخذ به للضعيف من القوى »

وصفوة القول أن نظرية الخوارج الأساسية في الخلافة تكاد تكون مشتركة بين جمهورهم على الأقل

فرق الخوارج :

وقد تفرق الخوارج إلى عشرين فرقة ، كل منها تخالف الأخرى في تعاليمها كلها أو بعضها . والآن نتكلم عن أشهر هذه الفرق ، وما كان لها من تعاليم .

الآزارقة : وهم أصحاب نافع بن الأزرق المسكنى بأبى راشد ، وكان من أكبر فقهاءهم . ولم تكن من الخوارج قط فرقة أكثر عدداً منهم ولا أشد شوكة . وقد كفر هو وأصحابه على بن أبى طالب وجميع المسلمين ؛ وقال نافع إنه لا يحل لأصحابه المؤمنين أن يجيبوا أحداً من غيرهم إذا دعاهم للصلاة ، ولا أن يأكلوا من ذبائحهم ولا أن يتزوجوا منهم . وهم في نظره مثل كفار العرب وعبداء الأوثان . وقال عن بلادهم إنها دار حرب . ويحل قتلهم وقتل أطفالهم ونسائهم (١) . وكان لا يجيز الثقة في قول ولا في عمل ، لأن الله تعالى يقول (إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً) . وكان يستحل الغدر بمن خالفه ويكفر القعدة

(١) لانهم كانوا يعتقدون أن أطفال مخالفيهم مشركون وأنهم مخلدون في النار .

تفرق
في
الآزارقة

من كانوا على رأيه عن القتال مع قدرتهم عليه ، أو عن الهجرة اليهم .
وأوجب امتحان من ينضمون اليهم (١) . وهم يكفرون أيضا مرتكب
الكبيرة مستدلين بكفر ابليس الذي يقولون عنه إنه لم يرتكب إلا
كبيرة واحدة حيث أمر بالسجود فأبى وقال : (أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي
مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ) . وزاد نافع على ذلك أن أسقط حد
الرَّجْم عن الزاني المحصن (٢) ، وأسقط الحد كذلك عمن قذف الرجل
المحصن ، ولكنه أقامه على من قذف المحصنات من النساء ، وحكم بقطع
يد السارق في القليل والكثير .

النجدية

وقد كفرهم المسلمون بهذه البدع التي استحدثوها (٣)
النجدية : وهم أتباع نَجْدَةَ بن عامر الحنفي . ومن تعاليمه التي انفرد بها
أن المخطئ بعد أن يجتهد معذور ، وأن الدين أمران : معرفة الله ومعرفة
رسوله ، وتحريم دماء المسلمين وتحريم غصب أموالهم والاقرار
بما جاء من عند الله (٤) جملة . وما عدا ذلك فالناس معذورون بجهله إلى
أن تقوم عليهم الحجة . ومن أداه اجتهاده إلى استحلال حرام أو
تحريم حلال فهو معذور . ومن خاف العذاب على المجتهد المخطئ قبل
قيام الحجة عليه فهو كافر ، وعظم جريمة الكذب (٥) على الزنا
وأسقط حد شرب الخمر (٦) ، وأجاز التقيّة واحتج بقوله تعالى
إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ، وقوله تعالى (وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ
آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ) ، كما قال إن القعود عن القتال جائز ،

(١) كانوا يدفعون اليه واحدا من أسرى مخالفهم ويأمرونه بقتله . فان قتله صدقوه وإن لم

يقتله قالوا هذا منافق ومشارك وقتلوه (الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٦٣)

(٢) لأنه لم يرد نص عليه في القرآن (الشهر ستاني ١٦٤)

(٣) الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٦٢ - ٦٦ ، والممل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ١٦٣ - ١٦٥

(٤) الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٦٨

(٥) حتى قال من نظر نظرة صغيرة أو كذب كذبة صغيرة وأصر عليها فهو مشرك . ومن

زنى وسرق وشرب الخمر غير مصر عليه فهو مسلم إذا كان من موافقيه (الفرق بين الفرق ص ٦٨)

(٦) الفرق بين الفرق ص ٦٨ . ولكن الشهرستاني يحكى أنه غلظ على الناس تقليدا شديدا

(ج ١ ص ٦٦)

والجهاد إذا أمكن كان أفضل . واستدل بقوله تعالى (وَفَضَّلَ اللَّهُ
الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا) ، واستحل دماء أهل الذمة
وأموالهم ، وحكم بالبراءة ممن حرّمها ، وأجاز عدم إقامة إمام وإنما على
الناس أن ينصف بعضهم بعضًا فيما بينهم . فإن رأوا أن ذلك لا يتم إلا
بإمام يحملهم عليه فأقاموه جاز (١)

البيهسية

البيهسية : وهم أصحاب أبي يونس بن جابر . ومن تعاليمه أنه لا يسلم
أحد حتى يقر بمعرفة الله . ومعرفة رسوله ومعرفة ما جاء به النبي صلى الله عليه
وسلم ، والولاية لأوليائه الله . وكان يكفر الواقفية (٢) ، لأنه يعتبر أن من
ضمن الأشياء التي جاء بها النبي والتي تجب معرفتها ، المحرمات التي جاء
الوعيد والتهديد لمن فعلها ؛ فهذه يجب على المسلمين معرفتها بعينها وتفسيرها
والاحتراز عنها . ويقول إن هناك أشياء أخرى لا يجب على المسلم أن
يعرفها إلا باسمها ولا يضره الجهل بتفسيرها . وكان يقول إن الإيمان
هو العلم بالقلب دون القول والعمل . أما مخالفوهم فهم كأعداء رسول
الله صلى الله عليه وسلم تحل الإقامة معهم كما فعل المسلمون في إقامتهم .

الاباضية

الاباضية : وهم أتباع عبد الله بن إباح التيمي . ويختلفون عن
غيرهم من فرق الخوارج في أنهم لم يغلوا في الحكم على مخالفهم (٣) ؛
بل قالوا إنه يحل الزواج منهم ، ويتوارث الخارجى وغيره . وهم إلى
المسالمة أميل حتى قالوا إنه لا يحل قتال غير الخوارج غيلة ولا سبيهم
إلا بعد الدعوة وإقامة الحجّة وإعلان القتال . فاذا قاتلوهم وغنموا
أموالهم لم يستحلوا منها غير السلاح والخيل . أما الذهب والفضة
أو غيرهما فانهم يردونه إلى أعدائهم ، وكانوا يرون أن بلاد مخالفهم
من المسلمين هي ديار توحيد إلا معسكر السلطان (يقصدون)

(١) الشهرستاني ج ١ ص ١٦٨ — ١٦٩

(٢) وهم الذين يقولون أنا نقف فيمن اقترف فعل الحرام وهو لا يعلم أحلال أم حرام

(٣) ولعل هذا يرجع إلى طبيعة ظروف نشأتهم . فان صاحبهم عبد الله بن إباح لم يخرج

إلا في أيام مروان بن محمد بعد أن قضى الامويون على الخوارج أو كادوا ، وبعد أن ينس الاحزاب
تقريباً وتحول نضالهم حول الحكم الى آراء ومذاهب عليّة بحتة تقريباً .

منها حاكم بنى أمية أو غيره من الأمراء الجائرين) ، فانه دار بغى . كما قالوا إن مرتكب الكبيرة من أهل القبلة مُوحد لا مؤمن ، فهو كافر ككفر نعمة لا كفر ملة (١) ، وإن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى إحداثاً وإبداعاً ومكتسبة للعبد حقيقة لا مجازاً ؛ ولم يعتبروا أوامر الله ونواهيه موجهة إلى المؤمن فحسب ، بل إن الكافر مطالب بها أيضاً . وليس في القرآن تخصيص الأمر أو النهي بواحد منهما ؛ وهم جماعة متفرون في مذاهبهم (٢)

الصفريّة

الصفريّة : وهم أصحاب زياد بن الأصفر . وهو لا يكفر الذين قعدوا عن القتال ماداموا متفقيين في الدين والاعتقاد . وقال إن النقية جائزة في القول دون العمل ، ولم يحكم بقتل أطفال المشركين ولا بتكفيرهم أو تخليدهم في النار ؛ وفرّق بين الكبائر التي يلزم فيها الحد والتي لا حد عليها (٣) ؛ فلم يكفر مرتكب الأولى (٤) ، إنما كفر مرتكب الثانية (٥)

(١) أى أنه مؤمن بالله ويوحّدانيته بالرسول ، ولكنه مقصر في شكر نعمة الله عليه فهو كافر فضل الله عليه وجاحد له والا لما ارتكب ما نهاه عنه الله .

(٢) هم أربع فرق : الحفصية والحارثية واليزيدية وأصحاب طاعة لاراد بها الله (أى من يرون أن النفاق والرياء في طاعة الله لا يكفر) . غير أنهم أجمعوا على أمور منها ما ذكرناه ، ومنها القول بإمامة عبد الله بن اباض ، وبأن كفر هذه الامة أو كفار أهل القبلة (ويعنون مخالفيهم من المسلمين) ليسوا مشركين وليسوا مؤمنين ، ولكنهم كفار (أى كفروا بنعمة الله وجحدوها ولو أنهم مؤمنون بألوهيته) وأجازوا شهادة هؤلاء عليهم في القضايا (الفرق بين الفرق ص ٨٢ — ٨٣)

(٣) لعظم قدرها وفضاعة الجريمة فيها حتى لا يكفر عن الانسان سيئتها أى عقوبة في الدنيا ومثلوا لهذا النوع من الكبائر بترك الصلاة

(٤) وقالوا لا يصح أن يسمى الا باسم الحد الذى يوقع عليه ؛ فإذا سرق أو قذف قيل انه سارق أو قاذف ؛ ولا يصح ان يسمى كافراً أو مشركاً

(٥) روى الشهرستاني أن زياداً (امامهم) قال : الشرك شركان : شرك هو طاعة الشيطان وشرك هو عبادة الاوثان ، والكفر كفران : كفر بالنعمة . وكفر بانكار الربوبية . والبرائة برأتان : برائة من أهل الحدود (من يرتكبون جريمة السرقة أو جريمة الزنا أو القذف ...) . وهى سنة وبرائة من أهل الجحود وهى فريضة (ج ١ ص ١٨٤ — ١٨٥) . وقد ذكر البغدادي اصنافاً ثلاثة من الصفريّة وقال انهم جميعاً يقولون بموالاته عبد الله بن وهب الراسبي . وجرقوص بن زهير وأتباعهما من المحكمة الاولين ، ويقولون من بعدهم هؤلاء . بإمامة ابي بلال مرداس

هؤلاء هم أشهر فرق الخوارج . وإن الناظر إلى مبادئهم ليجد أنهم قد اشتطوا جميعاً في الحكم على مخالفيهم ، حتى ساووا بينهم وبين الكفار عبدة الاوثان . فلا عجب إذا اشتطوا في حربهم وبذلوا نفوسهم في سبيل الذود عن مبادئهم . وقد ضربوا المثل في الشجاعة النادرة والبطولة الفذة ، وشغلوا - كما رأينا - الحزب الأموي وغيره مدة غير قليلة من الزمن حتى كلفوا الأمة الاسلامية ثمناً غالياً من الأرواح والأموال .

يرى الأستاذ نيكلسون (١) أن الخوارج كانوا المثل الأعلى في الدفاع عن العقيدة والاستماتة في سبيل الانتصار للبدا رغم ما كان من اعتسافهم في ذلك المبدأ واشتطاطهم في تلك العقيدة مما عاد بالفشل عليهم وقد لانت قناتهم قليلاً وابتدأ الاعتدال والتسامح يدب إلى نفوسهم ويسود في أفكارهم ، حين وجدوا أنفسهم أمام خطر دائم كاد ينتهي بإبادتهم وإستئصال شأفتهم .

كما يرى أنه لم تكن لهم مآرب شخصية يرمون إلى تحقيقها من وراء حركتهم هذه ، كما كان لغيرهم من الأحزاب السياسية الأخرى من شيعة وأمويين وزبيريين .

الخارجي الذي خرج أيام يزيد بن معاوية ، ثم بامامة عمران بن حطان الذي رثى بلالا لما صلب . وكان عمران هذا ناسكاً شاعراً شديداً في مذهب الصفرية ، وبلغ من خبثه في غزوة على كرم الله وجهه أنه رثى عبد الرحمن بن ملجم وقال في ضربه علياً :

ياضربة من منيب ما اراد بها الا ليلغ قردي العرش رضوانا
اني لا ذكره يوماً فأحسبه أوفى البرية عند الله ميزانا
فأجابه العلويون بقول شاعرهم :

ياضربة من كفور ما استفاد بها الا الجدار بما يصلبه نيرانا
اني لا لعنه دينا والعن من يرجو له أبداً عفواً وغفرانا
وذلك ابن ملجم أشقى الناس كلهم أخفهم عند رب الناس ميزانا

رأينا في مبادئ
الخوارج

الخوارج في نظر
نيكلسون

ولقد صدق الأستاذ نيكسون فيما ذهب إليه . وليس أدل على زهد هؤلاء الخوارج في حطام الدنيا وزينتها مما ذكره الطبرى عن شبيب الخارجي وقد انتهى الى إحدى المدن ؛ فندب من أصحابه من يأتيه برأس عاملها . فساروا حتى أتوا دار العامل ونادوا : أجيئوا الأمير ؛ فقالوا : أى الأمراء ؟ قالوا : أمير خرج من قبل الحجاج يريد هذا الفاسق شبيباً ، فاغتر العامل بذلك وخرج اليهم ، فضربوا عنقه ، وقبضوا على ما كان فى دار الامارة من مال ولحقوا بشبيب . فلما انتهوا اليه قال : ما الذى أتيتمونا به ؟ . قالوا جئناك برأس الفاسق وما وجدنا من مال ، والمال على دابة فى بدره ؛ فقال شبيب . أتيتمونا بفتنة للمسلمين . هلم الحربة يا غلام ، فخرق بها البدر وأمر فتخس بالدابة والمال يتناثر من بدره حتى وردت الصراة ؛ فقال إن بقى شيء فاقدفه فى الماء . (١)

خروج ابن الأشعث :

وقد تفاقم خطر المشرق حين خلع ابن الأشعث طاعة الحجاج ثم طاعة عبد الملك ، وانقاد اليه أهل كرمان والرى « والجبال » . وما لبث أن دخل البصرة والكوفة ، وقوى أمره فاستنجد الحجاج بعبد الملك وألح عليه فى إرسال المدد . يدلك على ذلك قوله فى ختام كتابه الى الخليفة « واغوثاه ! يا لله ! » ثلاث مرات . فأمدّه عبد الملك بالجيش .

موقعة دير الجماجم « التقي الحجاج وابن الأشعث بالموضع المعروف بدير الجماجم ، وكانت الحرب سجالات بين الفريقين ، ف وقعت بينهم أكثر من ثمانين واقعة دارت الدائرة بعدها على ابن الأشعث ، فهرب الى بلاد الهند ،

فاحتال الحجاج في قتله وأتى إليه برأسه في الكوفة . وأسرف الحجاج في قتل أسرى دير الجماجم ، وفي إعطاء الأموال لمن نصره على عدوه .

وهكذا أخضع الحجاج بلاد العراق وما والاها من بلاد المشرق لسلطان عبد الملك بن مروان الذي توطدت دعائم ملكه وانتشر الأمن في بلاده بفضل يقظته ودأبه على العمل لخير رعاياه . فقد كان يميل إلى إقرار العدل ، ويكره تخطي حدود الاعتدال في عقوبته . يدل ذلك على ذلك ما دار بينه وبين الحجاج من مكاتبات حين بلغه إصراره في قتل أسرى دير الجماجم ، وإعطائه الأموال لرجاله ، إذ كتب إليه ذلك الكتاب الشديد اللهجة على الرغم مما أصابه هذا الرجل من البلاء في سبيل تثبيت دعائم ملكه :

« أما بعد فقد بلغ أمير المؤمنين سرفك في الدماء ، وتبذيرك في الأموال . ولا يحتمل أمير المؤمنين هاتين الخصلتين لأحد من الناس ؛ وقد حكم عليك أمير المؤمنين في الدماء والخطى الدية ، وفي العمدة القود^(١) ، وفي الأموال ردها إلى مواضعها ثم العمل فيها برأيه . فإنما أمير المؤمنين أمين الله ، وسيان عنده منع حق وإعطاء باطل . فإن كنت أردت الناس له فما أغناهم عنك ، وإن كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم . وسيأتيك من أمير المؤمنين أمران لين وشدة ؛ فلا يؤنسك إلا الطاعة ، ولا يوحشك إلا المعصية ، وظن بأمر المؤمنين كل شيء إلا احتمالك على الخطأ ، وإذا أعطاك الظفر على قوم ، فلا تقتلن جانحا ولا أسيرا . وكتب في أسفل كتابه أياتا نكتطف منها :

(١) القود : القصاص

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَطْلُبْ أُمُوراً كَرِهْتَهَا وَتَطْلُبُ رِضَائِي بِالَّذِي أَنْتَ طَالِبُهُ
وَتَحْضِي الْمَنَى يَخْشَاهُ مِثْلِي هَارِباً إِلَى اللَّهِ مِنْهُ ضَيْعُ الدَّرْ (١) حَالِبُهُ
فَإِنْ تَرَى مِنِّي غَفْلَةً قُرْشِمَةً فَيَا رَبِّمَا قَدْ غُصُّ بِالْمَاءِ شَارِبُهُ
وَإِنْ تَرَى مِنِّي وَثْبَةً أُمُويَّةً فَهَذَا ، وَهَذَا كُلُّ ذَا أَنَا صَاحِبُهُ
فَلَا تَلْمَنِي وَالْحَوَادِثُ جَمَّةٌ فَانْكَ مُجْزِي (٢) بِمَا أَنْتَ كَتَّاسِبُهُ (٣)

وصل إلى الحجاج كتاب عبد الملك ، وكان كتاب رجل لا تأخذه
لومة لائم في الحق والعدل ، وإيثار صالح شعبه واكتساب محبتهم .
وقد رد عليه الحجاج بهذا الكتاب الرقيق يررفيه تصرفه : « أما بعد !
فقد أتاني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه سرفي في الدماء ، وتبذيري
في الأموال . ولعمري ما بلغت في عقوبتي أهل المعصية ما هم أهلها ،
وما قضيت حق أهل الطاعة بما استحقوه . فان كان قتل أولئك العصاة
سرفاً ، وإعطائي أولئك المطيعين تبذيراً ، فليس على أمير المؤمنين
ماسلف ، وليلد لي فيه حداً أنتهى إليه إن شاء الله تعالى ولا قوة إلا بالله .
ووالله ما على من عقل ولا قود ما أصبت القوم خطأ فأفديه ولا أعطيهم
إلا لك ، ولا قتلت إلا فيك . وأما ما أنا منتظره من أمريك فألنيهما عده
وأعظمهما محنة فقد عبات للعدة الجلاذ ، وللمحنة الصبر ؛ وكتب في
أسفل كتابه هذه الآيات

إِذَا أَنَا لَمْ أَتَّبِعْ رِضَاكَ وَاتَّقَى أَذَلِكَ فَيَسْأَلُنِي لِأَنْزُولِ كَوَاكِبُهُ
وَمَا لِأَمْرِي بَعْدَ الْخُلَيْفَةِ جُنَّةٌ تَقِيهِ مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي هُوَ كَاسِبُهُ
أَسْأَلُهُ مَنْ سَأَلْتِ مَنْ ذِي قَرَابَةٍ وَمَنْ لَمْ تَسْأَلِيهِ فَا نِي مُحَارِبُهُ
إِذَا فَارَقَ الْحِجَّاجُ مِنْكَ خَطِيئَةً فَقَامَتْ عَلَيْهِ فِي الصَّبَاحِ نَوَادِبُهُ
إِذَا أَنَا لَمْ أَذِنِ الشَّفِيقَ لِنُصْحِهِ وَأَقْصَى الَّذِي تَسْرِي إِلَى عِقَابِهِ

(١) توالى نزول اللبن (٢) مجازي

(٣) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ١٣٥ — ١٣٦

فَمَنْ ذَا الَّذِي يَرْجُو نَوَالِي وَيَتَّقِي مُصَاوَلَتِي وَالذَّهْرُ جَمٌّ تَوَائِبُهُ
فَقِيفَ بِي عَلَى حَدِّ الرِّضَا لَا أَجُوزُهُ مَدَى الذَّهْرِ حَتَّى يَرْجِعَ الدَّرُّ حَالَهُ
وَالْأَمْرَ فِدْعَنِي وَالْأُمُورَ فَإِنِّي شَفِيقٌ رَفِيقٌ أَحْكَمْتَنِي تَجَارِبُهُ (١)
ويتبين لنا من كتاب عبد الملك للحجاج مبلغ بغضه للظلم والتعسف

سياسة الحجاج إزاء الموالي في العراق :

يقول « فان فلوتن » : كان يرى الحجاج أن تعود بلاد العراق -
مهد المعارضة التي قام بها الموالي - معقلا للجيش العربي كما كانت من
قبل . وهكذا اضطر الموالي الذين كانوا يتطلعون إلى مساواتهم مساواة
تامة باخوانهم في الدين من العرب ، للعودة إلى أرضهم ودفعهم الجزية
كما كانوا يدفعونها من قبل .

وقد بين لنا فون كريم (٢) كيف استطاع الحجاج أن يرغم هؤلاء
الجدد في الاسلام على دفع الضريبة التي كان يدفعها الكفار ، ثم تلك
المقاومة العنيفة التي قاوموها بها وانضمامهم إلى صفوف عبد الرحمن
ابن الأشعث الذي أشعل نار الثورة على بني أمية ، كما ذكر لنا طرفا من
شدة الحجاج في قمع تلك الثورة .

وقد روى لنا مؤرخو العرب نتائج تلك السياسة القاسية التي كان
الغرض منها العودة بنظام الضرائب إلى ما كان عليه من قبل . فقد
أجمع هؤلاء على القول بأن بلاد العراق كانت بعد الحجاج أسوأ البلاد
حالا (٣) . من ذلك ما ذكره اليعقوبي (٤) : « وكان (الحجاج) أول من

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ١٣٥ — ١٣٦

(٢) Von Kremer, Kulturgeschichte des Orients, trans. by Khuda Bukhsh, p. 203.

(٣) ويمكن المقارنة بين هذه الأرقام وبين الأرقام التي نقلها لنا ابن خردادبة (طبعة
دى غوييه) ص ١١ . فإن هذه المبالغ وإن كانت صحيحة فيما يتعلق بالسواد فقط - فإن
الأرقام التي نقلها ابن خردادبة تكشف لنا عن حالة البلاد بعد الحجاج . ومع ذلك فإني لا
أعطي أهمية كبيرة على تلك المبالغ بقدر ما أعلق على الملاحظات التي أبدتها المؤرخون عنها .

(٤) (طبعة هوتسمان ج ٢ ص ٣٤٨ وما يليها)

أخذ بالقذف والظنة وقتل بهما الرجال . وانكسر الخراج في أيامه فلم يحمل كثير شيء ، ولم يحمل الحجاج من جميع العراق إلا خمسة وعشرين ألف ألف درهم . وكان خراجها في عهد معاوية ١٢٠ مليوناً من الدراهم .

كذلك مارواه الطبري (١) من « أن يزيد بن المهلب نظر ، لما ولاه سليمان (بن عبد الملك) ماولاه من أمر العراق ، في أمر نفسه فقال : إن العراق قد أخرجها الحجاج ، وأنا اليوم رجاء أهل العراق . ومتى قدمتها وأخذت الناس بالخراج وعذبتهم عليه ، صرت مثل الحجاج أدخل على الناس وأعيد عليهم تلك السجون التي عافاهم الله منها » . (٢) هذا ، ويجدر بنا أن نذكر أن الحجاج ، وإن كان قد قسا في معاملة الموالى خاصة وأهل العراق عامة ، فإنه كان مخلصاً في خدمته بني أمية ؛ وقد تفانى في خدمتها زهاء عشرين سنة حتى مات في عهد الوليد بن عبد الملك ؛ ولم يترك وراءه غير القرآن وسلاحه وبضع مئتين من العملة الفضية .

صفات عبد الملك :

وصف الشعبي عبد الملك بن مروان في هذه الكلمات : ما جالست أحداً إلا وجدت لي الفضل عليه إلا عبد الملك بن مروان . فاني ما ذا كرتة حديثاً إلا وزادني فيه ، ولا شعراً إلا وزادني فيه » (٣) . وكان عبد الملك فصيحاً . وقد قيل له : لقد أسرع اليك الشيب . قال : شيبني صعود المنابر والخوف من اللحن » . وقيل له يا أمير المؤمنين عجل اليك الشيب ، فقال : وكيف لا وأنا أعرض عقلي على الناس كل جمعة » (٤)

نصاحته

(١) ١٣٠٦ : ٢

(٢) أنظر كتاب السيادة العربية ترجمة المؤلف ص ٤٢ — ٤٣

(٣) ابن سعد ج ١ ص ١٦٦ تاريخ الخلفاء للسيوطي ج ١ ص ٨٤

(٤) تاريخ الخلفاء للسيوطي ج ١ ص ٨٥

وقد اشتهر عبد الملك بالحزم واصالة الرأي . قال العيني (١) : كان يقال معاوية أحلم وعبد الملك أحزم . وقال صاحب العقد : ومن هذا يتبين لنا فضل عبد الملك واصالة رأيه والتفاف الناس حوله .
وقد تولى عبد الملك القضاء والفتيا في المدينة بعد زيد بن ثابت سنة ٤٢ . (٢) وولاه أبوه هجر فاقام فيها العدل ونظم أمورها ، وفي سنة ٦٥ ولى الخلافة بعد أبيه مروان بن الحكم

وقد روى صاحب العقد (٣) أن عبد الملك بن مروان خطب الناس يوما فقال : أيها الناس ! إني والله ما أنا بالخليفة المستضعف - يريد عثمان ابن عفان - ولا بالخليفة المداهن - يريد معاوية - ولا بالخليفة المأمون - يريد يزيد بن معاوية . فمن قال برأسه كذا قلنا بسيفنا كذا ثم نزل . وخطب أيضا على المنبر : أيها الناس ! إن الله حدد حدودا وفرض فروضا ، فما زلتم تزدادون في الذنب تزداد في العقوبة حتى اجتمعنا نحن وأتم عند السيف ثم نزل «

ويتبين لنا مقدار ما اتصف به عبد الملك من الآداب الاجتماعية فيما ذكره المسعودي (٤) من أن بعض جلسائه قال له يوما : أريد الخلوة بك ، فلما خلا به قال له عبد الملك : بشرط ثلاث خصال : لا تظر نفسى عندك فأنا أعلم بهامتك ، ولا تغترب عندي أحدا فلست أسمع منك ، ولا تكذبني فلا رأى لمكذب . قال : أتأذن في الانصراف ؟ قال : إذا شئت .

(١) عقد الجمان مجلد ٤ ص ١١

(٢) كتاب البدء والتاريخ لابن زيد البلخي ج ٦ ص ٢٧

(٣) ج ٢ ص ٢٨٨

(٤) مروج الذهب ج ٢ ص ١٢٦

الوليد بن عبد الملك

٨٦ - ٩٦ هـ ٧٠٥ - ٧١٥ م

لما مات عبد الملك بن مروان سنة ٨٦ هـ خلفه ابنه الوليد . وقد ظل في الخلافة عشر سنين . وكان عهده عهد فتوح ويسر ورخاء ؛ فالتسعت في أيامه رقعة الدولة الأموية شرقا وغربا ، كما خفف أعباء الحياة على جمهور المسلمين ، وذلك بعطفه على الفقراء والمعوزين ، واهتمامه بأحوال رعيته وسهره على مصالحهم ، وعمله على تخفيف آلام مرضاهم ، وتخصيصه إعطيات للجدومين لمنعمهم عن سؤال الناس ، كما أعطى كل مقعد خادما يهتم بأمره ، وكل ضرير قائدا يسهر على راحته .

وكان الوليد لحانا ، فقال له أبوه « إنه لا يلي العرب إلا من يحسن كلامهم ؛ فدخل الوليد بيتا وأخذ معه جماعة من علماء النحو وأقام مدة يشتغل فيه ، فخرج أجمل مما كان يوم دخوله . فلما بلغ ذلك أباه عبد الملك قال : قد أعذر . (١)

الفتوحات في عهد الوليد

تمكن الوليد بفضل السلام التي انتشرت ألويته بين ربوع بلاده من إعادة عهد الفتوحات التي تمت في عهد من سبقه من الخلفاء ؛ فالتسعت رقعة أملاكه في المشرق والمغرب .

وقد اشتهر في عهد الوليد ثلاثة من القواد كان لهم أثر عظيم في هذه الفتوحات : وهم قتيبة بن مسلم الباهلي ، ومحمد بن القاسم بن محمد الثقفي ، وموسى بن نصير .

قتيبة بن مسلم
فتح بلاد
ماوراء النهر

فأما قتيبة بن مسلم فقد ولاة الحجاج على خراسان سنة ٨٦ هـ. فخرج قتيبة إلى بلخ — وكانت أول جهة هاجمها (١) — فتلقاتها دهاقينها وعظماؤها وساروا معه، ولما عبر النهر قابله ملك الصغانيان وأهداه كثيراً من الهدايا وسلم إليه بلاده.

وفي سنة ٨٧ غزا قتيبة ييكند (٢) حيث أغار على الصفد وقتلهم قتالا شديداً؛ فانهزموا وتفرقوا ثم طلبوا من قتيبة الصلح، فصالحهم وولى عليهم والياً من قبله. غير أن أهل ييكند انتهزوا فرصة غياب قتيبة وغدروا بعامله وقتلوه، فرجع إليهم قتيبة بن مسلم وفتح المدينة عنوة، وغنم منها مغانم كثيرة ثم عاد إلى مرو.

وفي ربيع سنة ٨٨ هـ استخلف قتيبة على مرو أخاه بشار بن مسلم وواصل فتوحاته؛ فكان النصر حليفه في بلاد كرمينية (٣)؛ ثم سار إلى بخارى فلقى في فتحها عناء كبيراً، ولكنه تمكن من فتحها فاضطر أهلها إلى مصالحته.

وفي سنة ٩٣ هـ فتح قتيبة مدائن خوارزم صلحا، ثم غزا سمرقند ففتحها بعد قتال شديد واستخلف عليها عبد الله بن مسلم، ثم رجع إلى مرو (٤). وفي العام التالي توجه إلى فرغانة (٥) وسار حتى بلغ خجندة (٦)؛ فاشتبك

(١) Muir, The Caliphate, Rise, Decline and Fall, p.439

(٢) بكسر الباء وفتح الكاف وسكون التون. وهي بلدة بين بخارى وجيحون على مرحلة من بخارى. وقد خربت قبل أيام ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ أنظر هذا اللفظ في معجم البلدان ياقوت.

(٣) بفتح الكاف وسكون الراء وكسر الميم بعدها ياء مثناة من تحت ساكنة فنون مكسورة وياء أخرى مفتوحة غير مشددة وهي بلدة من نواحي الصفد تقع بين سمرقند وبخارى؛ وبينها وبين بخارى ١٨ فرسخاً (معجم البلدان ياقوت).

(٤) فتوح البلدان للبلاذري ص ٤٢٧، الطبري ج ٨ ص ٨٩.

(٥) إقليم متاخم لبلاد تركستان ومن مدنه خجندة.

(٦) هي مدينة مشهورة على نهر سيحون بينها وبين سمرقند عشرة أيام شرقاً.

مع أهلها في حرب طاحنة أحرز فيها نصراً مبيناً (١) ، ثم انصرف إلى كاشان (٢) ففتحها وعاد إلى مرو . وفي أثناء إقامته بها أتاه كتاب الوليد ابن عبد الملك وفيه « قد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجدك في جهاد أعداء المسلمين . وأمير المؤمنين رافعك وصانع بك كالذي يجب لك . فاتمم مغازيك وانتظر ثواب ربك ولا تغيب عن أمير المؤمنين كتبك حتى كأني أنظر إلى بلادك والثغر الذي أنت به (٣) »

لم يكتف قتيبة بما فتحه من البلاد في إقليم ماوراء النهر ، بل سار في سنة ٩٦ هـ إلى حدود الصين على رأس جيش كثيف . وبينما هو في طريقه إليها جاءه نبأ وفاة الوليد بن عبد الملك ؛ فلم يعقه ذلك عن الغزو ، وواصل سيره حتى قرب من الصين . فأرسل إلى ملكها وفدا برئاسة هبيرة بن المشمرج الكلبي . وبعد أن دارت بينهم وبينه عدة مراسلات قال ملك الصين موجهاً كلامه إليهم « انصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له ينصرف ، فإني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه . وإلا أبعث عليكم من يهلككم ويهلكه » . فقال له هُبَيْرَة « كيف يكون قليل الأصحاب من من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون ؟ وكيف يكون حريصاً من خلف الدنيا قادراً عليها وغزاًك ؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتل فلسنا نكرهه ولا نخافه » . فأجابه ملك الصين « فما الذي يرضى صاحبك ؟ » فقال له هبيرة « إنه قد حلف ألا ينصرف حتى يطاء أرضكم ويختم ملوككم ويعطى الجزية » . فقال الملك « فإنا نخرجه من يمينه . نبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فيطوئه ، ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم ، ونبعث إليه بجزية يرضاه (٤) » .

(١) الطبري ج ٨ ص ٩١

(٢) عاصمة فرغانة

(٣) الطبري ج ٨ ص ٩٦

(٤) الطبري ج ٨ ص ١٠٠ — ١٠١

ثم دعا بصحاف من ذهب فيها تراب، وبعث بحريروذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم ثم أجاز الوفد، فساروا حتى قدموا على قتيبة، فقبل الجزية وختم الغلمان وردهم ووطئ التراب ثم عاد إلى مرو.

من هذا يتبين مقدار ما وصل إليه هذا القائد العظيم في فتوحاته، وذلك بفضل شجاعته وسياسته مع جنده. إلا أنه على الرغم من ذلك لم ينل رضا سليمان بن عبد الملك، وانتهت حياته على أسوأ ما يكون كما سنبينه بعد.

انتشار الاسلام
في بلاد ما وراء
النهر

لما وصل قتيبة بن مسلم إلى سمرقند وجد كثيراً من الأصنام. وكان عبّاد هذه الأصنام يعتقدون أن كل من اعتدى عليها مات لساعته؛ فأمر قتيبة بإحراق جميع هذه الأصنام. وكان من أثر ذلك أن اعتنق الاسلام عدد كبير من عبيتها (١). على أن بعضهم قد ارتد عن الاسلام على أثر انسحاب جنود المسلمين من بينهم إلى أن فتح قتيبة مدينة بخارى للمرة الرابعة، فأرغم أهلها على اعتناق الاسلام. وقذلق الذين أسلموا من أهالي هذه البلاد مقاومة عنيفة من مواطنيهم، حتى اضطر كل مسلم أن يحمل سلاحاً أنى سار ليحافظ به على حياته، ولم يحسر المسلمون على الظهور بالمساجد أو الأماكن العامة إلا بتلك الأسلحة. ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل كثر عدد الجواسيس لمعرفة العائدين إلى الاسلام.

وقد بذل الفاتحون جهداً كبيراً لجذب الناس إلى الدين الاسلامي، وشجعوهم بمكافآت مالية لحضور صلاة الجمعة، وسمحوا بقراءة القرآن باللغة الفارسية بدلاً من اللغة العربية حتى تكون معانيه قريبة إلى نفوسهم.

(١) البلاذري: فتوح البلدان ص ٤٠٧

محمد بن القاسم وفتح
بلاد السند

أما محمد بن القاسم فإنه سار إلى بلاد السند سنة ٨٩ هـ بعد أن جهزه الحجاج بكل ما يحتاج إليه ؛ فنزل بشجر الديبل^(١) ، وظل يحاصره حتى تمكن من الاستيلاء عليه^(٢) . ثم اتجه إلى بيرون فاستقبله أهلها استقبالا حسنا ، وأخذ في مواصلة الفتح والتوسع حتى بلغ مهران^(٣) ، حيث التقى بذاهر ملك السند فاقتتلا قتالا شديدا . وانتهى الأمر بقتل ذاهر وهزيمة اتباعه^(٤) .

على أن هذا لم يكن كل ما قام به محمد بن القاسم من الفتوحات . فقد تابع فتوحاته حتى وصل إلى مولتان^(٥) فقاتله أهلها ، فانتصر عليهم وغنم منهم مغانم كثيرة . وفي ذلك الوقت بلغته وفاة الحجاج ، فرجع عن المولتان واستمر في الفتح حتى دانت له جميع بلاد السند . ولما مات الوليد سنة ٩٦ هـ وتولى سليمان بن عبد الملك الخلافة ، استدعى محمد بن القاسم وولى على هذه البلاد يزيد بن أبي كبشة السكسكي^(٦)

(١) مدينة على الساحل الغربي للهند تعرف الآن باسم كراتشي

(٢) فتوح البلدان للبلاذري ص ٤٤٢ — ٤٤٣

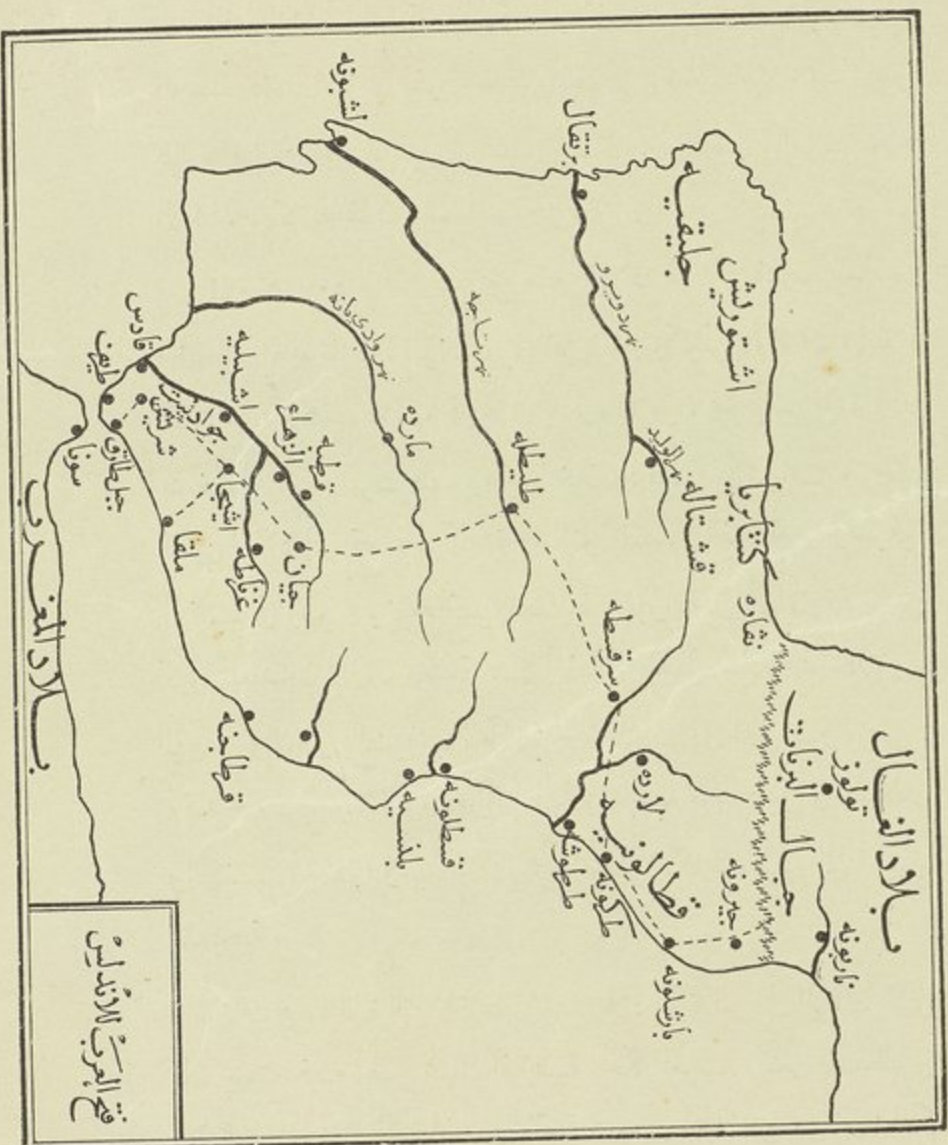
(٣) وهو نهر السند

(٤) Muir, the Caliphate, Rise, Decline and Fall, p.353

(٥) أو مولتان مركز مشهور للحجاج من الهنود يقع في جنوب بلاد البنجاب

قال ياقوت في معجمه : « وبها صنم يعظمه الهند ونحج إليه من أقصى بلدانها ، ويتقرب إلى الصنم في كل عام بمال عظيم يتفق على بيت الصنم والمتعكفين عليه منهم . وسمى المولتان بهذا الصنم . وقد ألبس جميع بدنه جلدا يشبه السخيتان الأحمر ، لابين من جثته شيء إلا عيناه . وعيناه جوهرتان . وعلى رأسه أكليل ذهب ، وهو مترع على ذلك السرير ، وقد مد ذراعيه على ركبتيه . وعلى المولتان حصن منيع وهي خصبة . وإنما سمي المولتان فرج بيت الذهب ، لأنها فتحت في أول الاسلام . وكان بالمولتان ضيق وقحط ، فوجدوا فيها ذبا كثيرا ، فأتوهوا به » . انظر هذا اللفظ في معجم البلدان لياقوت .

(٦) فتوح البلدان للبلاذري ص ٤٤٥



الفنوج في الاندلس

ظلت بلاد أسبانيا تحت حكم الرومان الى أن أغارت عليها قبائل
الوندال Vandals في القرن الخامس الميلادي . ومن ذلك الوقت أطلق

حالة الاندلس قبل
الفتح الاسلامي

على هذه البلاد فاندلوسيا أى بلد الوندال ؛ ويسمىها العرب بلاد
الاندلس ، كما يطلقون عليها اسم الجزيرة .

وفي سنة ٥٠٧ م أغارت على هذه البلاد قبائل القوط الغربيين
Visigoths وطردهوا الوندال الى افريقية ، وكونوا دولة لهم في بلاد
الاندلس . وكانت دولتهم قوية في بادىء الامر ؛ غير أنهم مالبثوا أن
ضعف أمرهم وسرت فيهم روح التخاذل ؛ فقسم الأشراف ورجال
الدين البلاد إلى اقطاعات كبيرة وسكنوا القصور الفخمة ، وصرفوا
أوقاتهم في اللهو ، وتركوا الصناعة والزراعة في يد الارقاء الذين
كانوا يعيشون في ذل وضعة ؛ كما أثقلوا كاهل الطبقة الوسطى من
الزراع والتجار بالضرائب ، فألت حالة الشعب إلى الخراب والبؤس .
وقد حاول اليهود الثورة مرارا لما نزل بهم من الضيق والعسف ،
ولكنهم أخفقوا ونهبت ديارهم واضطر الكثير منهم إلى اعتناق
المسيحية .

تلك هى الحالة التى كان عليها أهل بلاد الاندلس فى الوقت الذى
كان يتمتع فيه أهل شمال إفريقيا بحكم العرب وينعم بعدلهم .
فلا عجب إذا تبنى الأسبان ، وبخاصة اليهود ، الخلاص من نير الحكم
القوطى الجائر .

وقد حاول العرب فى العقد الثانى من القرن السابع الميلادى غزو اسبانيا
من ناحية افريقية ، فأغاروا على السواحل الأسبانية فى عهد الامبراطور

محاولة العرب
غزو أسبانيا

القوطى فبما Vamba (٦٧٢ — ٦٨٠ م) . وقد خلفه فى الحكم إرفنج Erving . وفى عهده وضع تشريع خاص لاضطهاد اليهود . ثم تولى الأمر من بعده إجيسا Egica ؛ وفى أيامه دبر يهود أسبانيا (سنة ٦٩٤ م) مؤامرة واسعة النطاق (١) لقلب النظام السياسى فى أسبانيا بمعاونة العرب الذين استولوا على افريقية الشمالية . ولما اكتشفت هذه المؤامرة شرعت عدة قوانين ترمى إلى حملهم على التنصر واستعباد من لم يعتنق منهم المسيحية ؛ غير أن هذه السياسة كانت بعيدة عن الصواب فأنتجت ثمرا مرارا .

كل هذا جعل العرب يتطلعون لفتح أسبانيا التى كانوا يتحينون الفرص لغزوها من قبل . وفى هذه الأثناء كان موسى بن نصير قد تمكن من فتح بلاد المغرب عدا مدينة سبتة الحصينة التى كانت فى يد الكونت جوليان Julian حاكمها من قبيل القوط . وقد حدث فى نهاية سنة ٧٠٩ م . أن عزل الامبراطور Witica الذى يسميه العرب « غَيْطَشَة » ، وكان قد تولى عرش أسبانيا بعد إجيسا Egica ؛ فتولى مكانه أخिला Achila فى أوائل سنة ٧١٠ م ، ثم عزل فى ربيع هذه السنة على يد نبلاء القوط ورجال الكهنوت الذين ولوا مكانه رودريك Roderic (٢) قائد الجيش القوطى ، وهو آخر أباطرة الدولة القوطية فى أسبانيا . وقد ظهر فى عهده حزب قوى بزعامة أخिला Achila حاول استرجاع العرش إليه ، وحزب آخر ناصر الملك .

وقد تحالف الكونت جوليان مع حزب أخिला للتخلص من

تغلب موسى بن
نصير على بلاد
المغرب

Bradley, the Goths, pp. 350 — 355 (١)

Dozy, Moslems in Spain, p. 231. (٢)

رودريك بسبب العداء الذي كان بينهما (١). ثم استعان بموسى بن نصير على التخلص من رودريك ؛ فرحب موسى بهذه الفكرة واستشار الوليد بن عبد الملك ، فتردد أولا ثم أذن له أن يغزوها - ولكن في حيلة - كما تحدثنا بذلك المصادر العربية ، كما أمره أن يرتاد الطريق أولا حتى يتأكد من أن جوليان لم يرد التغيرير بالمسلمين . فأرسل موسى « طريف بن مالك » على رأس خمسمائة مقاتل سنة ٩١ هـ (٧١٠ م) ؛ فغزا بعض الثغور الجنوبية في بلاد الأندلس بمساعدة جوليان وعاد بالغنائم . وقد شجع هذا موسى بن نصير فأعد جيشا مكونا من سبعة آلاف مقاتل معظمهم من البربر ، وولى قيادته مولاة طارق بن زياد حاكم طنجة .

عبر طارق البحر سنة ٩٢ هـ في سفن جوليان ونزل باقليم البحيرة في جنوب أسبانيا ؛ وكان الامبراطور رودريك مشغولا بقمع ثورة قام بها ضده أخيلا وحزبه في الشمال . ولما عرف بغارة العرب على أسبانيا أدرك خطرهما ، وأسرع الى الجنوب لانتقاذ بلاده ، وجمع جيشا كبيرا بلغ عدده زهاء مائة ألف مقاتل . ولولا ما كان ينقصه من النظام والاختلاص ، لقضى على جيش طارق .

عبور طارق البحر

ولما رأى طارق كثرة عدد العدو طلب المدد من موسى ؛ فأمدته بخمسة آلاف . والتقى طارق بجيش رودريك على ضفاف وادي نهر بكة (٢) « Wady Bekka » (سنة ٩١ هـ ٩ يولييه سنة ٧١١ م) ؛ وهناك أخذ طارق وجنده يحملون على العدو حتى تم له النصر . وبما ساعد على هذا الانتصار انضمام ابني غيطشة وأنصارهما الى العرب أثناء المعركة ، كما استطاع جوليان أن يستميل اليه كثيرا من جند رودريك وأن ييذر بينهم بذور الشقاق والتفرق .

انتصار طارق على
ضفاف وادي بكة

Bradley, the Goths, p. 358.

(١)

Dozy, Moslems in Spain, p. 232.

(٢)

أشيلية وقرطبة
وطليطلة

وعلى أثر انتصار طارق في هذه الموقعة أخذ ينحرف على مدن أسبانيا ، فاستولى على أشيلية Seville ، وقرطبة Cordova وطليطلة Toledo التي أخلاها القوط ، ولم يجد فيها إلا اليهود وبعض رجال الدين . وقد ترك لهم طارق الحرية في إقامة شعائرهم الدينية .

ولما علم موسى بن نصير بما ناله طارق من النصر في موقعة وادي بكة ، دبت إلى نفسه الغيرة وأراد أن يكون له شرف فتح بلاد الأندلس ، وأن يكون له نصيب من الغنائم . فأخذ يعد جيشاً كبيراً لاتمام فتح بلاد الأندلس ، وكتب إلى طارق يأمره بالبقاء حيث هو حتى يلحق به . ولكن طارقاً لم يذعن لهذا الأمر ؛ لأنه رأى بعد استشارة رؤساء جيشه أن وقف القتال يعرض المسلمين للخطر ويعطى للقوط فرصة لجمع كلتهم ولم شعثهم ، فواصل فتوحه حتى وصل إلى طليطلة كما تقدم .

لحاق موسى بن
نصير بطارق

أما موسى بن نصير فإنه خرج بجيشه سنة ٩٣ هـ (يونيو ٧١٢) (١) ففتح أشيلية بعد أن حاصرها شهراً — وكانت قد ثارت — ثم سار إلى ماردة (Merida) واستولى عليها ، ثم واصل السير حتى لقي طارقاً فأنبهه على مخالفته أمره ، وطالبه بالاموال والنفائس التي غنمها ثم سجنه .

غير أن طارقاً استطاع وهو في سجنه أن يثبت شكواه إلى الخليفة الوليد ؛ فكتب هذا إلى موسى يأمره بتخليه سبيله ورده إلى عمله ، ثم سار موسى وطارق لفتح شمال بلاد الأندلس ؛ ففتحوا أقاليم أرغونة (Aragon) وقشتالة (Castile) وكتالونيا ؛ واستولوا على أرغونة وقشتالة وكتالونيا سرقة وسرقة ، ثم سارا حتى بلغا جبال البرانس . فتم بذلك

فمنح شبه الجزيرة عدا الأقاليم الجبلية في الشمال الغربي التي التجأ إليها
أشراف القوط وكبرائهم

محاولة جبل البحر
الابيض بحيرة عربية

ولم تقف أطماع موسى عند جبال البرانس ، بل عزم على مواصلة
الفتوح في جنوبي بلاد فرنسا الحالية على أن يتجه شرقاً حتى يصل الى
القسطنطينية التي عجز العرب عن فتحها ، وبذلك يجعل البحر الابيض
المتوسط بحيرة عربية . ولما بلغ الوليد ذلك أمره بالكف عن التوسع
واستدعاه هو وطارقا ، لأنه لم يرد أن يعرض المسلمين للخطر ، ولما
عودة موسى الى دمشق كان يخشاه من ازدياد نفوذ موسى واستقلاله بتلك البلاد إذا ماتم له
فتحها . فرحل موسى إلى دمشق وقبل وصوله إليها مرض الوليد مرض
الموت ؛ فطلب سليمان بن عبد الملك (ولي العهد) إلى موسى أن يبطل
السير الى دمشق حتى يموت الوليد - وذلك طمعا في الحصول على الغنائم
والتحف التي كان يحملها موسى - غير أن موسى لم يعمل بهذا الرأي ؛
فخقد عليه سليمان كما سيأتي .

تولية عبد العزيز بن
موسى بلاد الاندلس

وقبل رحيل موسى الى دمشق أقام ابنه عبد العزيز والياً على بلاد
الاندلس . فنظم الحكومة وكون مجلساً خاصاً لاستنباط الأحكام
الشرعية التي تتفق وحالة السكان ، وعنى بالزراعة وتنظيم الطرق ، ورفع
عن الاسبانين مظالم القوط ، تخفف الضرائب التي أثقلت كاهلهم وسأوى
فيها بين طبقات الأمة من غير تفرقة في الدين والجنس ، كما أمن الأهاليين
على دينهم وأموالهم وأنفسهم وحريتهم ، وشجع العرب على الاختلاط
والتصاهر معهم ، وتزوج هو بأرملة رودريك التي بقيت على دينها .

وكان من أثر مغالاة عبد العزيز بن موسى في إرضاء المسيحيين أن
نقم عليه بعض أعدائه ووشوا به عند الخليفة سليمان بن عبد الملك ؛
فدبر الخليفة قتله لذلك ، ولما كان يخافه من خروجه عليه انتقاماً لأبيه .
وبعد قتل عبد العزيز بن موسى أقام الجند قائدهم أيوب بن حبيب

(ابن أخت موسى بن نصير) واليا على بلاد الأندلس ؛ فأخذ يطوف البلاد وينشر لواء العدل في أرجائها ، واتخذ قرطبة عاصمة لولايته . غير أن مدة ولايته لم تطل ، فقد عزل لعدم موافقة والى إفريقية على تعيينه ، إذ كان لهذا الوالى حق تعيين الأمراء على بلاد الأندلس .

هروب العرب فيما وراء البرانس :

لم يتم لموسى بن نصير تحقيق فكرته الجريئة التى كانت ترمى إلى فتح جنوب أوربا ، فلم تتعد فتوح العرب جبال البرانس ، إلى أن ولى بلاد الأندلس السمع بن مالك الخولاني (١٠٠ - ١٠٢ هـ) ، جدد عهد الفتوح واخترق جبال البرانس ، وزحف على مقاطعتى سبتانيا وبروفانس ، ثم أغار على أكتانيا (١) Aquitaine وحاصر تولوز (طُلُوشة) ؛ فقابله يودو Eudo دوق أكتانيا بجيش كبير . ونشبت بين الفريقين موقعة عظيمة قتل فيها السمع وأكثر رجاله ، فتولى عبد الرحمن الغافقى قيادة الجند ، فانسحب بفلول الجيش إلى مدينة نربونة Narbonne .

وفى سنة ١٠٤ هـ تولى على بلاد الأندلس عنبسة بن سحيم الكلبي ، فعاد إلى غزو بلاد غالة واستولى على سبتانيا ووصل إلى حوض الرون ، وتوغل في إقليم برغندية حتى بلغ مدينة ليون واستولى عليها . ولكنه قتل أثناء عودته ، فاضطر العرب إلى التقهقر ثانية إلى نربونة سنة ١٠٧ هـ . ووقف تيار الفتح أربع سنوات بسبب قيام الاضطرابات الداخلية في بلاد الأندلس ، إلى أن تولى حكم البلاد عبد الرحمن الغافقى سنة ١١١ هـ في عهد هشام بن عبد الملك ، فوطد النظام في أنحاء البلاد ، وأصلح الخلل الذى أصاب الادارة والجيش ، ثم تفرغ للقتال في بلاد غالة ، فخرج في ثمانية آلاف مقاتل واستولى على دوقية اكتانيا .

(١) مقاطعة مستقلة في جنوب اللوار

ولاية السمع بن مالك

حصار تولوز

ولاية عنبسة بن سحيم الكلبي

استيلاؤه على ليون

تولية عبد الرحمن الغافقى

استعان دوق اكيثانيا بالفرنجة ؛ فجمع شارل مارتل جيشا ضخما لقي العرب بالقرب من پواتيه Poitiers ، ودارت بينهم المعركة المشهورة بموقعة تور (Tours) . وكانت الغنائم التي غنمها جند المسلمين في اكيثانيا من السكثرة بحيث خشى عبد الرحمن أن تشغل الجند وتعطل حركات الجيش . وبعد مناوشات دامت ثمانية أيام دارت رحى القتال إلى أن غابت الشمس . وفي اليوم التالي هجم المسلمون على الأعداء ، وكاد النصر يتم لهم لولا ما أشيع في صفوفهم من أن ما خلفوه من الغنائم قد نهبه العدو . فهرول الجند لحمايتها ووقع الاضطراب في صفوفهم ، وأصيب عبد الرحمن بسهم أودى بحياته ، فتفرقت كلمة المسلمين ، واختلف رؤساء الجند فيما بينهم واضطروا إلى الانسحاب في ظلام الليل دون أن يشعر بهم المسيحيون . ولم يتعقب شارل مارتل فالول جيش المسلمين خشية أن يكون انسحابهم تدييرا للايقاع به .

أثر هذه الموقعة

وتعتبر موقعة تور من المواقع الحاسمة في التاريخ ، إذ لو تم النصر للعرب لوقعت أوروبا في يدهم وانتشر فيها الاسلام . ولم يحاول العرب الاستيلاء على بلاد الفرنجة بعد هذه الموقعة ؛ بل بدأوا يتراجعون تدريجيا إلى بلاد الأندلس ، حتى لم يبق لهم فيما وراء البرانس إلا مقاطعة سبتمانيا . ولم تكن حروبهم بعد ذلك إلا غارات لا أهمية لها .

أثر فتح الاندلس :

غير الفتح الاسلامي حال بلاد الأندلس بوجه عام من سىء إلى حسن ؛ فقد افترق الاسبان فرقتين ربحت احدهما وخسرت الأخرى . ذلك لأن السياسة اقتضت أن يعامل فريق منهم معاملة خاصة اعترافا لهم بما قدموه من مساعدة للعرب في أثناء الفتح .

من ذلك ما كوفي به جولييان من إعادته حاكماً على سبته ورد أملاك
أبناء غيطشة إليهم (١)

هذا إلى أن الاسبانين لم يكونوا على قدم المساواة ؛ بل كانت هناك
حواجز اجتماعية تجعلهم طبقات متفاوتة وهي :

١ — طبقة الأشراف ورجال الكنيسة .

٢ — اليهود .

٣ — العبيد ورقيق الأرض .

طبة الاشراف : أما طبقة الأشراف ورجال الكنيسة فلم تستفد من هذا الفتح ؛
ففر كثير من نبلأ الاسبان إلى الشمال . وكذلك كان شأن رجال
الكنيسة ؛ فهاجر كثير منهم إلى الجهات الشمالية التي لم يصل إليها
العرب . وكان طبعياً أن تصير أموال الفارين وأراضيهم إلى الفاتحين .
وعلى الجملة فهذه الطبقة لم تستفد من هذا الفتح شيئاً ، بل كان عليها
شراً وهو أن بعد أن كانت تروح وتغدو بين أنواع الترف .

طبة اليهود : وأما اليهود فقد نظروا إلى العرب باعتبارهم شعباً فاتحاً يشاركهم في
جنسهم السامي ورأوا فيه المنقذ لهم من الاضطهاد ؛ فوضعوا أنفسهم
تحت إمرة العرب الفاتحين ؛ فكانوا لهم عيوناً وجواسيس . من ذلك
أنهم دلوهم على طرق المقاومة في حروبهم وكشفوا لهم عن طبيعة
الأرض ؛ فاطمأن إليهم العرب وسمحوا لهم بحرية التجارة التي كانت
محرومة عليهم قبل الفتح وكذلك حرية الملكية . وبهذا أخذت الفئة
اليهودية تنتعش وتقوى . ولا أدل على ذلك من أن التاريخ
الاسباني قد سجل لنا أسماء الكثيرين منهم بين أعلام أسبانيا الإسلامية
ضربوا بسهم وافر في العلوم والآداب والطب والفلسفة . وما ذلك
إلا من تنسهم ريح الحرية في كنف العرب الفاتحين .

طبقة العبيد ورقيق
الأرض

كذلك أفاد الفتح طبقة العبيد ورقيق الأرض التي رحبت بالعرب،
لاعتقادهم أنهم سوف يخلصونهم من تلك القيود التي وضعهم فيها
أسيادهم القوط . ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل اعتنق كثير منهم
الاسلام ، ونالوا في عهد العرب بعض الحقوق المدنية التي كانوا محرومين
منها . من ذلك أنهم أصبحوا يزرعون بعض الأراضي لحسابهم الخاص
على أن يؤدوا عنها خراجا للدولة .

هذا وقد وجهت الحكومة العربية همها إلى توطيد أركان السلم في ربوع
إسبانيا ، ولم تعمل على إرغام أهالي البلاد على الدخول في الاسلام ، كما
أنها أبقت لهم قوانينهم وشرائعهم ؛ فأقبل الإسبان على حكم العرب
دون تدمير لما شاهدوا فيه من التسامح العظيم الذي كانوا ينشدونه .

سليمان بن عبد الملك

(٩٦ — ٩٩ هـ ٧١٥ — ٧١٧)

تكلمنا فيما تقدم عن اتساع رقعة أملاك الدولة الاموية في الشرق
والغرب في عهد الوليد . أما في عهد سليمان ، فلم يكن هناك من فتح غير
بلاد جرجان وطبرستان على يد يزيد بن المهلب أمير بلاد المشرق ،
وكذا محاصرة القسطنطينية .

كان الوليد قد شرع في إرسال حملة إلى القسطنطينية للاستيلاء عليها ؛
لكنه توفي قبل قيام هذه الحملة . فلما ولي أخوه سليمان الخلافة ، وجه هذه
الحملة ورابط في مرج دابق (١) شمال الشام ؛ وكان على الدولة البيزنطية
الامبراطور انستاسيوس الثاني . Anastasias II ، فدافع عن حاضرة
ملكه بكل ما أوتي من قوة ، وأرسل حملة إلى الثغور الشامية لتحول

حملة القسطنطينية

(١) هو مرج عند قرية دابق بكمز الباء أو فتحها . ودابق قرية بينها وبين حلب أربعة
فراسخ . والمرج مشب نزه كان ينزله بنو مروان إذا غزوا الصائفة إلى ثغر المصيصة . وبه
قبر سليمان بن عبد الملك . أنظر معجم البلدان لياقوت .

دون وصول الاقوات والمؤن إلى جند المسلمين، ولكنها عادت بالفشل. وقد انضم إلى جيش المسلمين في آسيا الصغرى رجل من البيزنطيين كان يطمع في الملك، ويدعى Leo the Isurians، اتحد مع مسلمة بن عبد الملك بن مروان أمير هذه الحملة. ومن ثم أخذ جند المسلمين يستولون على بلاد آسيا الصغرى مدينة تلو مدينة حتى عبروا البحر ووصلوا إلى أسوار القسطنطينية، وتبعهم الأسطول الاسلامي من الثغور الشامية والمصرية، فاشتراك في حصار حاضرة البيزنطيين. غير أن ليو هذا خرج على صفوف المسلمين وأعلن نفسه امبراطورا بدلامن انستاسياس الذي كان مكروهاً عند الأهلين. وقد اشتد حصار المسلمين للبدنية من البحر؛ وهاجمها أسطولهم، فعمل ليو على استدراج سفن المسلمين. ففتكت بها النار الاغريقية ونفدت أقواتهم، فتحملوا آلام الجوع والمرض، حتى قُي أكثرهم بعد أن دمرت أكثر سفنهم وعادت الحملة تجر ذيل الفشل، كما فشلت الحملة التي سبقتها في عهد معاوية.

وقد دب الترف والبذخ في البلاط أيام سليمان بن عبد الملك، وحالة البلاط وتسرب اليه الفساد، فأكثر من الخصيان في القصر. وقد تعدت هذه الرذائل إلى الولاية والأمراء. ولا غرو فالناس عل دين ملوكهم.

هذا إلى ما كان من تحزبه وانتصاره لبعض الولاة، وعمله على النيل من البعض الآخر. ومن هؤلاء محمد بن القاسم في الهند، وقتيبة ابن مسلم فيما وراء النهر، وموسى بن نصير في الأندلس، وأسرة الحجاج في العراق.

وكان سليمان بن عبد الملك يبغض الحجاج وأهله وولاته، حتى إن الحجاج كان يخشى أن يموت الوليد قبله فيقع في يد سليمان، وذلك لما كان من إجابة الحجاج الوليد إلى ما اعتزمه من عزل سليمان من ولاية العهد وتولية ابنه عبدالعزیز. فلما ولي سليمان الخلافة ولي يزيد بن

تكميله بولاة
أخيه الوليد

الحجاج

أبي كبشة السكسكى السند فأخذ محمد بن القاسم (ابن أخت الحجاج) وقيده وحمله إلى العراق ؛ فبكى أهل السند على محمد (١) . ولما وصل إلى العراق حبسه في واسط ، ثم عذبه صالح بن عبدالرحمن ثم قتله (٢) . وبذلك انتهت حياة هذا القائد إرضاء لأهواء الخليفة الذى تناسى مقامه به من عظيم الأعمال . وكان سليمان بن عبد الملك يحقد على قتيبة بن مسلم أيضا ، لأنه كان ممن وافق الوليد على عزله من ولاية العهد . وأما موسى بن نصير فقد تعجل بالذهاب إلى الخليفة الوليد ومعه الأموال والغنائم ، ولم يترث كما طلب منه سليمان حتى يموت الوليد وتؤول إليه هذه الأموال والغنائم فيستولى عليها لنفسه . ومن ذلك نرى أن سليمان كان مدفوعا في هذه الأمور كلها بعوامل شخصية ليس غير . ومن ثم لم يكن سبيل إلى نبوغ القواد وإخلاص قلوبهم لأمرائهم بعد أن رأوا أن نتيجة أعمالهم إنما كانت وبالا عليهم وشرا مستطيرا على حياتهم .

قتيبة بن مسلم

موسى بن نصير

وفاة سليمان

ولم يعمر سليمان في الخلافة أكثر من سنتين . وقد اشتهر بالفصاحة والبلاغة بعكس أخيه الوليد ؛ وكان فوق ذلك نهما بمجالسة الطعام والنساء . وقد قيل عن وفاته إنه لبس يوما حلة وعمامة خضرا ونظر في المرأة وقال : أنا الملك الفتى ؛ فنظرت إليه جارية من جواريه وقالت : أنت نعم المتاع لو كنت تبقى غير أن لابقاء للإنسان ليس فيما علمته فيك عيبٌ كان في الناس غير أنك فأن ولم يمض أسبوع واحد على ذلك حتى مات (٣) .

(١) Ameer Ali, A Short History of the Saracens, p. 122.

(٢) الطبرى ج ٢ ص ١٠٣

(٣) الفخرى ص ١١٦

عمر بن عبد العزيز

٩٩ - ١٠١ هـ ٧١٧ - ٧٢٠ م

لما مرض سليمان بن عبد الملك مرضه الذى مات فيه ، عزم على مبايعة بعض أبنائه ، فنهاه سالم السدي أحد خاصته ، وأشار عليه بأن يختار رجلاً صالحاً ؛ فاستشاره فى عمر بن عبد العزيز ، فأثنى عليه . فكتب سليمان عهده ، وختمه بدير سمعان من أعمال حمص (١) ، ودعا أهل بيته وقال لهم : « بايعتُ لمن عهدتُ إليه فى هذا الكتاب » ، ولم يعلمهم به ، فبايعوا . ولما مات سليمان جمعهم ذلك الرجل الذى أشار بمبايعة عمر بن عبد العزيز ، وكتب موت سليمان عنهم وقال لهم : بايعوا مرة أخرى ! فبايعوا . ولما رأى أنه قد أحكم الأمر أعلمهم بموت سليمان (٢) فبايعوه ، ولم يتخلف إلا سعيد وهشام ابنا عبد الملك .

وقد ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة فى شهر صفر سنة ٩٩ هـ فى اليوم الذى مات فيه سليمان بن عبد الملك ، وظل فيها سنتين وخمسة أشهر وخمسة أيام إلى أن توفى فى شهر رجب سنة ١٠١ هـ .

عمر بن عبد العزيز
فى نظر التاريخ

كان البون شاسعاً بين عمر بن عبد العزيز ، وبين غيره من خلفاء بنى أمية ، حتى اعتبر بعض المسلمين حكمه « غرة فى جبين ذلك القرن الذى امتلأ بالزيف عن الدين ، وتلطح بالاستبداد وسفك الدماء » (٣) ويعتبر المسلمون خلافته كخلافة عمر بن الخطاب فى عدله وزهده . ولا عجب فى ذلك ، فقد كانت أمه بنت عاصم بن عمر بن الخطاب .

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٦٧

(٢) الفخرى ص ١١٧

(٣) Nicholson, Lit. Hist. of the Arabs, p. 209.

ولما ولى عمر الخلافة جاءه سالم الشدّي — وكان من خاصته — فقال له عمر : أسرك ما وليت أم أساءك ؟ فقال : سرني للناس وسأمنى لك .

قال عمر : إني أخاف أن أكون أو بقت نفسي قال الشدّي : ما أحسن حالك إن كنت تخاف . إني أخاف عليك ألا تخاف .

قال عمر : عظمي !

فقال الشدّي : أبونا آدم أخرج من الجنة بخطيئة واحدة .

ولم يكن للشعراء والخطباء في عهد عمر بن عبد العزيز نصيب في بلاطه الذي امتلأ بأهل التقوى والزهد من المسلمين ؛ وقد وصفه المسعودي (١) فقال : « كان عمر في نهاية النسك والتواضع ، صرف عمال من كان قبله من بني أمية ، واستعمل أصلح من قدر عليه ، فسلك عماله طريقته وترك لعن على عليه السلام على المنابر » . ولم تحل الاعتبارات السياسية بينه وبين إقامة العدل ، ولقد بلغ من زهده أنه كان يؤثر المصلحة العامة على مصلحته الخاصة .

اصلاحات عمر :

قام عمر ببعض الاصلاحات ، ولكنها كانت في مصلحة الاسلام أكثر منها في مصلحة بيت المال . فقد رفع الجزية عن أسلم من أهل الذمة ، وخفف الضرائب عن عامة المسلمين ، وبخاصة عن الموالى من الفرس . ومن السهل جداً أن تتنبأ بنتائج تلك السياسة الجديدة التي كان من أثرها أن ازداد اعتناق الناس للاسلام ، بينما نقص إيراد بيت المال نقصاً محسوساً . ولتحاشي ذلك

دفع الجزية عن
اسلم

(١) المسعودي : مروج الذهب ٢ ص ١٦٧ — ١٦٨ . وأوبقت بمعنى أهلك

الخطر اشترط بعض الولاة الختان وحفظ شيء من القرآن . على أن ذلك لم يجد نفعاً . ومن ثم كان لزاماً العود إلى فرض الجزية كما كانت من قبل أوضاع ثمار ما فتحه المسلمون من البلاد . ويظهر أن عمر بن عبد العزيز قد فطن إلى أبعد النتائج التي قد تجر إليها تلك السياسة . لذلك لم يتقهقر أمامها .

وقد رأى بعض ولاته ، عندما نقصت جزية الروم على أثر دخول الناس في الاسلام ، رفع الجزية عن أسلم ، فأبت عليه شدة إيمانه وحرصه على دخول الناس في الاسلام أن يجيب هؤلاء الولاة إلى ما طلبوه . يدل ذلك جواب عمر على كتاب واليه على مصر الذي شكاه إليه أن الاسلام أضرب بالجزية واستأذن في أن يفرضها على من أسلم . وهو جواب يدل على ورعه وصدق إيمانه حيث يقول له : « فضع الجزية عن أسلم قبج الله رأيك ! فإن الله إنما بعث محمداً صلى الله عليه وسلم هادياً ولم يبعثه جايئاً . ولعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم في الاسلام على يديه » .

فلا عجب إذا نبشت قبور الخلفاء الأمويين بعد قيام الدولة العباسية إلا قبر عمر بن عبد العزيز . ويذكر لنا المسعودي المتوفى سنة ٣٤٦ هـ أن قبر عمر بن عبد العزيز كان في أيامه معظمًا يغشاه الكثير من الناس .

سياسة عمر بن عبد العزيز إزاء الخوارج :

لم يحرك الخوارج ساكناً في عهد الوليد بن عبد الملك وعهد أخيه سليمان . فلما كان عهد عمر بن عبد العزيز خرج رجل من الخوارج من بني يشكر يدعى شوذب ، التف حوله جماعة ممن كانوا يرون رأيه . ولكن عمر ، بما جبل عليه من الأخلاق الفاضلة وحبه للسلم وجمع

الكلمة ، لم يشأ أن يأخذ الخوارج بالشدة والقسوة ، بل أراد أن يعاملهم باللين وأن يقارعههم بالحجة ؛ فأرسل إلى شوذب كتابا يقول له فيه : « بلغني أنك خرجت غضباً لله ولنبيه . ولست أولى بذلك مني . فهل اناظرك ؛ فان كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس ، وإن كان في يدك نظرنا في أمرنا » . ولم يكن من شوذب إلا أن كتب إلى عمر : « قد أنصفت ، وقد أرسلت إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك » .

وكان عمر بن عبد العزيز يرمى بهذا العمل الى إزالة الخلاف بين الفريقين عن طريق الاقتناع بالحجة والبرهان . ولم ير - بما عرف عنه من كرهه لإيافة دماء المسلمين - إلا أن يسلك سبيل اللين . وقد آتت سياسة عمر أكلها ؛ فقد شهد أحد هذين الخارجين المتناظرين بأن عمر على حق . وقد ذكر المسعودي ^(١) أن أحد هذين الرسولين قال لعمر : « ما سمعتُ كالיום قط حجة أئين وأقرب مأخذا من حجتك . أما أنا فأشهد أنك على الحق وأنا برىء ممن برىء منك » . فقال عمر للرسول الآخر « فأنت ما تقول » ؟ قال « ما أحسن ما قلت وأئين ما وصفت ! ولكنني لا أفتات على المسلمين بأمر حتى أعرض عليهم قولك فأنظر ما حجتهم » ؛ ثم مضى أحد الرسولين الى شوذب وأتباعه ليعلمهم نتيجة المناظرة . ولكن لم يلبث عمر أن عاجلته منيته (٢٥ رجب سنة ١٠١ هـ)

هذا وقد نصب الخوارج أنفسهم في بلاد العراق والجزيرة منذ خلافة عمر بن عبد العزيز حماة للضعفاء والمضطهدين وحربا على المستبدين والطاغين (٢) . لذلك لانعجب إذا مد هؤلاء الخوارج البربر

الخوارج في العراق
والجزيرة

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ١٣٠ - ١٣٦

(٢) الطبري (طبعة دى غويه) ٢ : ٦١٣٤

من أهل إفريقية المتذمرين من حكم الأمويين بالأسلحة التي استعانوا بها على قتال ولاتهم في تلك البلاد (١)

يزيد بن عبد الملك

١٠١ - ١٠٥ هـ ٧٢٠ - ٧٢٤ م

تولى يزيد بن عبد الملك الخلافة في اليوم الذي توفي فيه عمر بن عبد العزيز ، وذلك في شهر رجب سنة ١٠١ هـ ، وبقى في الخلافة إلى أن مات في شهر شعبان سنة ١٠٥ . وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان .

وعلى أثر توليته الخلافة أعلن شوذب الخارجي الحرب على الأمويين . وقد هزمهم في عدة وقائع إلى أن ولي مسلمة بن عبد الملك الكوفة من قبل يزيد ، فأرسل إلى شوذب سعيد بن عمرو الحريشي في جيش كثيف ؛ فدارت الدائرة على شوذب ومن معه من الخوارج ؛ ولم يفلت منهم إلا القليل . وكان ذلك سنة ١٠١ هـ (٢)

وفي أيامه خرج يزيد بن المهلب بن أبي صفرة . وقد فر من سجن عمر بن عبد العزيز ؛ فسار إلى البصرة وأسر إليها ، ثم واصل السير إلى الكوفة ؛ فانضم إليه الأزدي كما انحاز إليه أهله وخاصته ، فعظم أمره واشتدت شوكته ، فبعث إليه يزيد أخاه مسلمة وابن أخيه العباس بن الوليد في جيش عظيم . فلما التقى الجيشان اقتتلوا قتالا شديدا ؛ فولى أصحاب يزيد عنه ، فقتل في المعركة . (٣)

وقد اشتهر يزيد بن عبد الملك باللهو والخلاعة والتشبيب بالنساء . قيل أنه شغف بجاريتين إحداهما تسمى سلامة والأخرى حُبابة ؛ وقد غنت حُبابة يوما ليزيد :

(١) الطبري ١ : ٢٨١٥

كتاب السيادة العربية ترجمة المؤلف ص ٧٢ — ٧٣

(٢) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ١٣٥ — ١٣٦

بين التراقي (١) واللهاء حرارة ما تظمنين ولا تسوغ فتبرد

فطرب يزيد ثم قال : أريد أن أطير ! فقالت له حبابة : على من تدع الأمة وتدعنا ؟ قال : عليك ؛ وقبّل يدها . فخرج بعض خدمه وهو يقول : سَخِنتَ عينك فما أسخفك !

فانظر إلى هذا وإلى أبيه عبد الملك حين خرج إلى قتال مصعب بن الزبير وصدته زوجته عاتكة فلم يلتفت إليها واستشهد بقول كثير عزة :

إذا ما أرادَ الغزو لم يثنَ همُّه حَصَانُ (٢) عليها دُرٌّ نَظَمَ يَزينُها
نَهْمُهُ فلما لم ترَ النّهْيَ نافعاً بكت فبكى مما شجاها قَطينُها (٣)

وقد ذكر المسعودي (٤) أن أبا حمزة الخارجي كان إذا ذكر بني مروان وعابهم ذكر يزيد بن عبد الملك فقال : أقعد حُبابة عن يمينه وسلامة عن يساره ، ثم قال : أريد أن أطير ؛ فطار إلى لعنة الله وأليم عذابه .

ولما اعتلت حُبابة أقام يزيد أياما لا يظهر للناس . فلما ماتت مكث معها أياما لا يدفنها جزعا عليها . فقال له بعض خاصته : إن الناس يتحدثون بجزعك وإن الخلافة تجل عن ذلك ؛ فدفنها وأقام بعدها أياما قلائل ومات .

وفي أيام يزيد ظهر النفور بينه وبين أخيه هشام لما كان من سوء سيرة يزيد . ولما بلغه أن أخاه هشاما ينتقصه ويتمنى موته ويعيب عليه لهُوه كتب إليه : أما بعد ! فقد بلغني استئثارك حياتي واستبطاؤك موتي . ولعمري إنك بعدى لواهي الجناح أجذم الكف . وما استوجبت

(١) موضع القلب (٢) امرأة تحصن زوجها لفدة جالها فلا ينظر الى غيرها

(٣) القطين : من يسكن مع الانسان والمراد بها هنا الزوج

(٤) مروج الذهب ج ٢ ص ١٧٥ ، الفخرى ص ١١٨ — ١١٩

منك ما بلغني عنك». فأجابه هشام: أما بعد! فإن أمير المؤمنين متى فرغ سمعه لقول أهل الشنان (١) وأعداء النعم، يوشك أن يقدح ذلك في فساد ذات الدين وتقطع الأرحام. وأمير المؤمنين بفضله، وما جعله الله أهلاً له، أولى أن يتعهد ذنوب أهل الذنوب. فأما أنا فمعاذ الله أن أستقبل حياتك أو استبطي وفاتك؛ فكتب إليه يزيد: نحن مغتفرون ما كان منك، ومكذبون ما بلغنا عنك. فاحفظ وصية عبد الملك أبانا وقوله لنا في ترك التباعى والتخاذل، وما أمر به من صلاح ذات الدين واجتماع الأهواء، فهو خير لك وأملك بك. وإني لا أكتب إليك وأعلم أنك كما قال الأول:

سَتَقْطَعُ فِي الدُّنْيَا إِذَا مَا قَطَعْتَنِي يَمِينُكَ فَاَنْظُرْ أَيْ كَفٌّ تَبَدَّلَ
وإن أنت لم تُنْصَفْ أَخَاكَ وَجَدْتَهُ عَلَى طَرَفِ الْهَجْرَانِ إِنْ كَانَ يَعْقِلُ
فلما أتى الكتاب هشاماً ارتحل إليه، فلم يزل في جواره مخافة أهل البغي والسعاية حتى مات يزيد (٢).

هشام بن عبد الملك

١٠٥ — ١٢٥ هـ ٧٢٤ — ٧٤٣ م

ولى هشام بن عبد الملك الخلافة في شهر شعبان سنة ١٠٥ هـ في اليوم الذى مات فيه أخوه يزيد، وبقي في الخلافة إلى أن توفى بالرُصافة من أرض قنسرين في شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥ هـ، بعد أن مكث في الخلافة تسع عشرة سنة وسبعة أشهر وأياماً.

خروج زيد بن
على زين العابدين

وفي أيامه خرج زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على. وكان يحدث نفسه بالخلافة ويرى أنه أهل لها، حتى كانت أيام هشام بن

(١) الكراهة والبغض

(٢) المسعودى: مروج الذهب ج ٢ ص ٧٩

عبد الملك . وقد ذكر المسعودي (١) أن زيدا دخل على هشام ، فلم يحفل به هو ولا رجال بلاطه ، فجلس حيث انتهى به مجلسه فقال يا أمير المؤمنين ! ليس أحد يكبر عن تقوى الله ، ولا يصغر دون تقوى الله . فاتهره هشام وقال له : أنت الذي تنازعك نفسك في الخلافة وأنت ابن أمة ؟ وقد اتهمه هشام بوديعة لخالد بن عبد الله القسري أمير الكوفة من قبل ، فبعث به إلى يوسف بن عمر أمير الكوفة في ذلك الوقت ، فاستحلفه ؛ فحلف أنه ليس عنده مال لخالد ، فحلف سبيله (٢) . فلما خرج زيد عائدا إلى المدينة تبعه أهل الكوفة وحرصوه على الخروج ، وتبعه منهم زهاء خمسة عشر ألفا ، وقيل أربعون ألفا (٣) . ولما ظهر أمره حاربه يوسف بن عمر ، فتفرق أصحاب زيد عنه وخذلوه ، وحارب في نفر قليل ، فأصابه سهم في جنبه فمات من ساعته ، ودفنه أصحابه في ساقية وأجروا الماء على قبره خوفا أن يمثل به . وقد دل يوسف عليه بعض العبيد ، فنبش القبر وأخرج جثة زيد وصلبها ، ثم أحرقها وذر رمادها في الفرات . (٤)

الزيدية

والى زيد تنسب جماعة الزيدية من فرق الشيعة . وقد تفرعت من الزيدية جماعة الرافضة .

وسبب تسميتهم بالرافضة أن زيدا لما اشتبك مع يوسف بن عمر الثقفي والى العراق من قبل هشام بن عبد الملك قالوا له : « إنا ننصرك على أعدائك بعد أن نخبرنا برأيك في أنى بكر وعمر اللذين ظلما جدك على بن أبى طالب » . فقال زيد : « إنى لا أقول فيهما إلا خيرا ، وما سمعت أبى يقول فيهما إلا خيرا . وإنما خرجت على بنى أمية لأنهم

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ١٨١

(٢) الفخرى ص ١١٩ — ٣٢٠

(٣) الفاطميون في مصر للؤلوف ص ٤٣ — ٤٤

(٤) الفاطميون في مصر للؤلوف ص ٤٣ — ٤٤

قتلوا جدى الحسين وأغاروا على المدينة يوم الحرة ، ثم رموا بيت الله بحجر المنجنيق والنار ؛ ففارقوه عند ذلك حتى قال لهم : رفضتمونى . وقد بحث فريدلندر أصل هذا اللفظ بحثاً مسهباً فى مجلة الجمعية الأمريكية الشرقية فى المجلد التاسع والعشرين فقال : من المرجح كثيراً أن يكون شيوع إطلاق هذا اللفظ على الشيعة إنما هو نتيجة العداء الشديد لهم ويطلقه بعض الكتاب على جميع فرق الشيعة بلا استثناء . (١)

ويريد فريدلندر أن يقول : إن هذا اللفظ جرى فى العرف العام بجرى الذم ؛ فانهم إذا أرادوا أن يحتقروا شخصاً ويصفوه بأقبح أوصاف الذم يقولون « رافضى » . ولا يزال هذا اللفظ جارياً على ألسنة العامة بعد تحريفه إلى « رفضى » ، حتى كان هذا اللقب فى بعض الأحيان يطلق على كل من يبدى ميلاً لآل البيت ؛ ومن ذلك قول الشاعر :

إن كان رفضاً حُبُّ آل محمد فليشهد الشَّقْلان أنى رافضٍ

انقسم الزيدية بعد موت زيد إلى طوائف عدة : فظل فريق منهم على ولائه لزيد ، وبايعوا ابنه يحيى وقتلوا معه فى خراسان سنة ١٢٥هـ (٧٤٣م) . إلا أن أمره آل إلى ما آل إليه أمر أبيه من قبل ، إذ أصابته نشابة فمات ، وحز رأسه وصلب ، ثم أحرق حتى صار رماداً تذروه الرياح . (٢)

Journal of the American Oriental Society, vol. (١)
XXIX, pp. 137—159

(٢) الفاطميون فى مصر للؤلف ص ٤٣ — ٤٤

كانت الزيدية ثمانى فرق : الأولى : الجارودية وهم أصحاب أبى الجارود زياد بن المنذر العبدى ، وذهبوا إلى أن الإمامة مقصورة فى ولد الحسن والحسين دون غيرهما ، الثانية : المرثدية ، الثالثة : الأبرقية ، الرابعة : اليعقوبية وهم أصحاب يعقوب بن على الكوفى ، الخامسة : العقبية ، السادسة : الأبترية وهم أصحاب كثير الأبتز والحسن بن صالح بن جنى ، السابعة : الجريرية وهم أصحاب سليمان بن جرير ، الثامنة : اليمانية وهم أصحاب محمد بن اليمان الكوفى . وقد غلا هؤلاء فى المذهب وفرعوا مذاهب على ما سلف من أصولهم — مروج الذهب للسعودى ج ٢ ص ١٨٣ ، كتاب فرق الشيعة لآبى الحسن النوبختى ص ١٩ ، ٤٩ ، ٥٠ — ٥١

سياسة هشام إزاء الموالي :

بادر الخلفاء بعد موت عمر بن عبد العزيز إلى فرض ضرائب فادحة لسد ذلك النقص الذي جرت به سياسة عمر إزاء الموالي وإعفاؤهم من الجزية . فقد فاجأ هشام بن عبد الملك الموالي بضريبة خراجية لا قبل لهم باحتمالها ؛ فثار على بنى أمية الحارث بن سريج ، وحارب الأمويين لما كانت تثقل به كاهل الأهليين من الضرائب . وكان يزعم أنه المهدي الذي بعثه الله لتخليص المضطهدين والأخذ بناصر المظلومين . وكان له أنصار من العرب (من مضر واليمن) والفرس . وسرعان ما استولى على المدن الواقعة على شواطئ نهر سيحون .

ولما تولى أسد بن عبد الله القسري هذه البلاد بعد عاصم بن عبد الله استرد من الحارث البلاد التي استولى عليها من الأمويين ، واضطره إلى الانسحاب إلى طخارستان ومنها إلى بلاد ما وراء النهر حيث انضم إلى الأتراك ضد العرب .

تولية أسد بن
عبد الله القسري

وفي سنة ١٢٠ هـ ولي هشام بن عبد الملك نصر بن سيار بلاد خراسان ؛ وكان نصر أكثر الموالين للعرش الأموي كفاءة . لذلك استطاع أن يوطد دعائم السلم في بلاد ما وراء النهر سنة ١٢٣ هـ (١)

تولية نصر بن سيار

المزجئة :

تكلمنا قبل عن طائفتين من أقدم الطوائف الإسلامية وهما : الخوارج أو الجمهوريون ، والشيعة أو المليكيون . وسنتكلم الآن عن طائفة أخرى لا يقل أثرها في اتجاه السياسة الإسلامية عن هاتين

الطائفتين، وهى طائفة المرجئة التى ظهرت فى دمشق عاصمة الأمويين تحت تأثير بعض العوامل المسيحية خلال النصف الثانى من القرن الأول الهجرى (٧١٤ - ٧٤٨ م).

وقد سميت المرجئة بهذا الاسم من الارجاء أو التأجيل؛ لأنهم يرجئون الحكم على العصاة من المسلمين إلى يوم البعث (١)، كما يتخرجون عن إدانة أى مسلم مهما كانت الذنوب التى اقترفها.

على أن فان فلو تن Van Vloten يرى أن تسمية المرجئة إنما ترجع إلى بعض آى القرآن، وأنها مأخوذة من قوله تعالى (وَآخِرُونَ مُرْجُونَ لَآ مَرِئَةٍ لِّلَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ). وعلى ذلك تكون تسمية المرجئة مشتقة من أرجأ بمعنى بعث الرجاء والأمل (٢)، وذلك لأنهم كانوا يقولون إنه لا تضر مع الايمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة.

كانت العقيدة الأساسية عند المرجئة عدم تكفير أى انسان أيا كان، مادام قد اعتنق الاسلام ونطق بالشهادتين مهما ارتكب من المعاصى، تاركين الفصل فى أمره لله وحده.

وقد غلا جهم بن صفوان أحد رموس المرجئة؛ فزعم أن الايمان عقد بالقلب، وإن أعلن الكفر بلسانه بلا تقية، وعبد الأوثان أو لزم اليهودية أو النصرانية (٣) فى دار الاسلام وعبد الصليب، وأعلن التشليث فى دار الاسلام ومات على ذلك. فهو مؤمن كامل الايمان عند

(١) أنظر Lane's Arabic-English Lexicon, vol. I. p. 1033.

(٢) أنظر Nicholson, Literary History of the Arabs,

p. 221.

Van Vloten, Irdjâ (Z. D. M. 45. p. 161 seq)

(٣) ابن حزم (طبعة القاهرة سنة ١٣٢٠) ج ٤ ص ٢٠٤

الله عز وجل ، ولئى الله عز وجل من أهل الجنة « وعلى ذلك فقد ذهب
جهم الى القول بأن الاسلام الصحيح والايمان الحق شىء واحد . وكان
من الطبيعى أن تدفع مثل هذه العقيدة أصحابها الى احتقار الفرائض
العملية للاسلام (١) ، ووضعهم واجبات المرء نحو من يحيط به من الناس ،
فوق أداء الفروض التى جاء بها القرآن على الوجه الاكمل .

وهؤلاء هم فى الحقيقة كتلة المسلمين التى رضىت حكم بنى أمية ،
مخالفين فى ذلك الشيعة والخوارج . ومع ذلك فانهم يتفقون فى العقيدة الى
جد مامع طائفة المحافظين وهم أهل السنة ، وان كانوا - كما يرى فون كريمر -
قد ألانوا من شدة عقائد هؤلاء السنيين ، باعتقادهم « أنه لا يخلد مسلم
مؤمن فى النار » (٢) . وعلى العموم فهم يضعون العقيدة فوق العمل .

وكانت آراؤهم تتفق تماما مع آراء رجال البلاط الاموى ومن يلود
به ، بحيث لا يستطيع أحد من الشيعة أو الخوارج أن يعيش بينهم ،
فى الوقت الذى تمكن فيه المسيحيون وغيرهم من غير المسلمين أن
ينالوا الخطوة لديهم وأن يشغلوا المناصب العالية ، حتى كان من الصعب
اعتبار تلك الطائفة من المسيحيين أكثر من خدام ضرورة وأغراض
يدورون مع الزمن أننى دار ويميلون مع الرياح كيفادارت . وكانوا
فى ذلك أشبه بقسيس برى (Bray) (٣)

Zeitschrift, A. D. M. G. II. p. 170. (١)

لئن صح هذا فان الدولة الاموية باتباعها هذا النظام قد بعدت البعد كله عما دعا اليه الاسلام
من المساواة بين جميع المسلمين فى جميع الحقوق السياسية والمدنية ، لافرق فى ذلك بين عربى
ومجعى . يؤيد ذلك قوله تعالى : (انما المؤمنون إخوة) سورة الحجرات آية ١٠ ، وقوله تعالى
(وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) سورة الحجرات آية ١٣ .

Gesch d. Herrsch. Ideen, p. 25. (٢)

(٣) قسيس Bray اسم لقسيس كان مضرب المثل فى التغلب . فقد اشتهر مذهبه حسب
تغير الاحوال . وبذلك استطاع أن يعيش فى عهد شارل الثانى وجيمس الثانى ووليم الثالث
والملك آن وجورج الاول ، وذلك بتقلبه وتغييره مذهب الزمن الذى كان يعيش فيه . أنظر

لفظ Bray فى Cassel's Encyclopaedia

انظر Browne, Lit. Hist. of Persia, vol. II. pp. 280—281

وبزوال الدولة الأموية أقل نجم طائفة المرجئة ، ولم تصبح بعد
حزبا مستقلا . ومع ذلك فقد ظهر من بينهم أبو حنيفة صاحب المذهب
المشهور الذي لا يزال باقيا إلى اليوم ^(١)

ويقول فون كريم ^(٢) « وما يؤسف له كثيرا أنه ليس لدينا
غير القليل من الأخبار الصحيحة عن هذه الطائفة . فقد ظلوا طيلة
ذلك العصر ، وذاقوا حلوه ومره . وقد ضاعت جميع المصادر التاريخية
العربية عن عهد الأمويين ، حتى إن أقدم المصادر التاريخية التي وصلت
إلينا إنما ترجع إلى عهد العباسيين . ومن ثم كان لزاما علينا أن نستق
معلوماتنا عن المرجئة من تلك الشذرات المبعثرة في مؤلفات كتاب
العرب في ذلك العصر الثاني »

ومن اشتهر من شعراء بني أمية بالقول بالارجاء ثابت قطنه . وكان
في صحبة يزيد بن المهلب . وله قصيدة في الارجاء تعد وثيقة تاريخية
قيمة في توضيح مذهبهم ؛ وقد رواها صاحب الأغاني ومنها :

يَاهِنْدُ فَاسْتَمِعِي لِي إِنَّ سِيرَتَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ لَمْ نُشْرِكْ بِهِ أَحَدًا
نَزَجِي الْأُمُورَ إِذَا كَانَتْ مُشَبَّهَةً وَنَصْدِقُ الْقَوْلَ فِيمَنْ جَارَ أَوْ عَنَدًا
الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْإِسْلَامِ كُلُّهُمْ وَالْمُشْرِكُونَ اسْتَوَوْا فِي دِينِهِمْ قَدَدًا
وَلَا أَرَى أَنْ ذَنْبًا بَالِغٌ أَحَدًا إِمَّا النَّاسِ شِرْكَاءَ إِذَا مَا وَحَدُوا الصِّمْدَا
لَا نَسْفِكُ الدَّمَ إِلَّا أَنْ يُرَادَ بِنَا سَفَكُ الدَّمِاءِ طَرِيقًا وَاحِدًا جَدَدًا
مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ لَهُ أَجْرَ التَّقَى إِذَا وَفَى الْحِسَابَ غَدَا
وَمَا قَضَى اللَّهُ مِنْ أَمْرٍ فَلَيْسَ لَهُ رَدٌّ وَمَا يَقْضِ مِنْ شَيْءٍ يَكُنْ رَشَدًا
كُلُّ الْخَوَارِجِ مُخْطِئٌ فِي مَقَاتِلِهِ وَلَوْ تَعَبَّدَ فِيهَا قَالَ وَاجْتَهَدَا

أَمَّا عَلَىٰ وَعُثْمَانُ فَاتَّهَمَا عَبْدَانِ لَمْ يُشْرِكَا بِاللَّهِ مِنْهُ عَبْدًا
وَكَانَ بَيْنَهُمَا شَغَبٌ وَقَدْ شَهِدَا شَقَّ الْعَصَا وَبَعَيْنِ اللَّهِ مَا شَهِدَا
يَجْزِي عَلَيْنَا وَعُثْمَانَا بِسَعْيِهِمَا وَلَسْتُ أَذْرِي بِحَقِّ آيَةٍ وَرَدَا
اللَّهُ يَعْلَمُ مَاذَا يَخْضُرَانِ بِهِ وَكُلُّ عَبْدٍ سَيَلْقَى اللَّهَ مُنْقَرِدًا (١)

أَمِيرُ هِشَام:

كان هشام غزير العقل ، حليماً عفيفاً ، اشتهر بالتدبير وحسن السياسة ، حتى قيل إن السواس من بني أمية ثلاثة : « معاوية وعبد الملك وهشام » . وقد ذكر المسعودي أن المنصور العباسي كان يقتدي بهشام في أكثر أموره ، وفي سياسته وتدييره لشئون الدولة .

ومن اصلاحاته اهتمامه بتعمير الأرض وتقوية الثغور ، وحفر القنوات والبرك في طريق مكة ، وغير ذلك من الآثار التي أتى عليها داود بن علي بعد أن قامت الدولة العباسية . وفي أيامه ظهرت صناعة الخز والقטיפه . وكان هشام كلفاً بالخليل ؛ وهو أول من أقام لها الحلبات من الخلفاء ، كما عني بعدد الحرب ولايتها .

اصلاحاته

ومما يؤخذ عليه إمعانه في الانتقام من العلويين والتنكيل بهم كلما أمكنته الفرصة من ذلك . ناهيك بما فعله يزيد ويحيى . هذا إلى ما عرف عنه من الغلاظة وخشونة الطبع وشدة البخل . ومما يدل على بخله أن رجلاً أهدى إليه طائرين فأعجب بهما . فقال له الرجل : أين جائزتي يا أمير المؤمنين ؟ فقال له هشام : وما جائزة طائرين ؟ قال ماشاء أمير المؤمنين . قال : خذ أحدهما . فقصد الرجل لأحسهما فأخذه . فقال له وتختار أيضاً ؟ قال : نعم ! والله أختار ، فقال : دعه وأمر له بدريهمات . وقد دخل هشام بستاناً له ، ومعه ندماءؤه فطافوا به ، وبه كل

إمعانه في الانتقام من العلويين

الثمار ؛ فجعلوا يأكلون ويقولون : بارك الله لأمير المؤمنين . فقال هشام : وكيف يبارك لي فيه وأنتم تأكلونه ؟ ثم نادى حارسه فقال له : اقلع شجره ، واغرس فيه زيتونا حتى لا يأكل منه أحد شيئا (١) .

الوليد بن يزيد بن عبد الملك

١٢٥ هـ ٧٤٣ م

بويح الوليد بن يزيد في شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥ هـ في اليوم الذي توفي فيه هشام ، وبقي في الخلافة سنة وشهرين وأياما إلى أن قتل بقرية من قرى دمشق في شهر جمادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ .

شعره

وقد اشتهر الوليد باللهو والخلاعة والمجون ؛ وكان شاعرا محسنا له أشعار حسنة في العتاب والغزل ووصف الخمر . فمن جيد شعره ما كتبه إلى هشام بن عبد الملك ، وقد عزم على خلعه لما رآه من استهتاره وعكوفه على الخلاعة والمجون :

كفرتَ يدا من منعم لو شكرتها جزاك بها الرحمن ذو الفضل والمن
رأيتك تبني جاهدا في قطيعتي ولو كنت ذا حزم لهدمت ما تبني
أراك على الباقيين تبني ضغينة فيا ويحهم إن مت من شر ما تبني
كأنى بهم يوما وأكثر قولهم ألا ليت أنا حين ياليت لا يغني

وقد بلغ من استهتار الوليد بالمعاصي أن قال له أخوه هشام يوما : والله لا أدرى إن كنت على الإسلام أم لا . ومما يحكى عن الوليد أنه استفتح فالأ في المصحف فخرج (واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد) ؛ فألقاه وجعله هدفا ، وأخذ يرشقه بسهامه وهو يقول :

تهددني بجبار عنيد نعم أنا ذاك جبار عنيد

إذا ما جئمت ربك يوم بعث فقل يارب خرّفتي الوليدُ
 فلم يلبث بعد هذا طويلا حتى قتل . وكان السبب في قتله أنه كان
 قبل أن يلي الخلافة - على ما ذكرنا - من سوء السيرة وانتهاك حرّيات
 الله عز وجل . فلها أفضت إليه الخلافة لم يزد إلا انتهاكا في اللذات
 واستهتارا بالمعاصي ، وإغضاب أكابر أهل بيته والاساءة إليهم .
 فاجتمعوا عليه مع غيرهم من رجالات دولته وهجموا عليه . فلها أحس
 بهم دخول داره وفتح المصحف وقال : يومٌ كيوم عثمان بن عفان ؛
 ثم تقدم إليه يزيد بن الوليد وقتله . (١)

يزيد و ابراهيم ابنا الوليد بن عبد الملك

١٢٦ — ١٢٧ هـ ٧٤٤ — ٧٤٥ م

اضطراب جبل بنى اميه
 ولى يزيد بن الوليد الخلافة بدمشق في جمادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ .
 وتوفي في ذى الحجة من هذه السنة بعد أن بقى في الخلافة خمسة أشهر ؛
 وقام بالأمر من بعده أخوه ابراهيم بن الوليد ، فلم يمكث في الخلافة أكثر
 من شهرين .

ميل يزيد الى تعاليم
 المعتزلة
 وكان يزيد بن الوليد أحول ، يظهر التنسك ، وقد سمي الناقص لانه
 نقص أرزاق بعض الجند ، وخاصة جند الحجاز . وكان يميل إلى
 تعاليم المعتزلة .

المعتزلة :

تكلّمنا قبل عن الشيعة والخوارج والمرجئة من حيث أثرها في
 تاريخ الاسلام السياسى . والآن نتكلم عن طائفة رابعة لا يقل أثرها

(١) الفخرى في الاداب السلطانية ص ١٢١ — ١٢٢

المسمودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٨٥ — ١٨٩

عن تلك الطوائف الثلاث في اتجاه السياسة الإسلامية وهي القدرية أو المعتزلة .

نشأة المعتزلة :

يقول البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق : « حدث في أيام الحسن البصري خلاف واصل بن عطاء الغزال في القدر وفي المنزلة بين المنزلتين ، وانضم إليه عمرو بن عبيد بن باب في بدعته ، فطرداهما الحسن عن مجلسه فاعتزلا عن سارية من سوارى مسجد البصرة . فقليل لهما ولأتباعهما معتزلة لاعتزالهم قول الأمة في دعواها أن الفاسق من أمة الاسلام لا مؤمن ولا كافر^(١) . »

ويقول الأستاذ براون^(٢) عن نشأة المعتزلة : « وكل ما اتصل بنا بوجه عام عن نشأة المعتزلة وتسميتهم بهذا الاسم هو أن واصل بن عطاء الغزال الفارسي الذي كان من تلاميذ حسن البصري الفقيه المشهور ، قد اختلف مع استاذه في مسألة المؤمن العاصي الذي ارتكب ذنباً كبيراً ؛ هل لا يزال يسمى مؤمناً أم لا ؟ . ويقول واصل إن مثل هذا الشخص لا يمكن أن يسمى مؤمناً أو كافراً ، بل يجب أن يوضع في منزلة وسط بين المنزلتين . وقد انتحى واصل ناحية بعيدة من المسجد وأخذ يشرح رأيه لزملائه من التلاميذ الذين اتبعوه . فكان حسن البصري يقول للذين التفوا حوله بان واصل قد « اعتزل عنا » . ومن ثم أطلق خصوم واصل عليه وعلى أتباعه اسم « المعتزلة »

ويظهر من هذه المعلومات التي وصلت إلينا أن مولد تلك الطائفة ومهداها كان بلاد العراق ، وهي بابل القديمة — حيث تقابل الجنسان

(١) ص ١٥

Browne, Lit. Hist. of Persia, p. 281

(٢)

السامى والفارسى واختلطتا — التى أصبحت بعد قليل كعبة العلم ، ثم غدت بعد قليل أيضاً مقر الحكومة فى عهد العباسيين » (١)

« Cette antique Babylonie, où la race sémitique et la race perse se rencontraient et se mélangeaient, et qui devint bientôt le centre de la science, puis, peu de temps après, sous les Abbâsides, le siège du gouvernement. »

ويرى فون كريم (٢) أن الاعتزال قد نما وانتشر فى دمشق تحت تأثير رجال الدين من البيزنطيين ، وبخاصة يحيى الدهشقى وتلميذه تيودور أبوقره (Abucarra). أما ذلك الاسم الآخر الأكثر وضوحاً وهو — القدريّة — (٣) الذى عُرف به أهل هذه الطائفة ، فإنه يرجع إلى مذهبهم القائل بحرية إرادة الإنسان . وإلى ذلك الحديث المكذوب على النبي صلى الله عليه وسلم وهو « القدريّة مجوس هذه الأمة » ، وذلك لأنهم — كما يقول Steiner — يبررون وجود الشر . فقد وضعوا قاعدة أخرى ، هى إرادة الإنسان ضد إرادة الله (. وهو ما عزاها اليهم خصومهم ، حتى إننا لنجد الشاعر الصوفى الفارسى محمود الشبستارى يشير فى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى إلى ذلك الحديث فى كتابه المشهور عن التصوف المسمى « جُلُشْنى راز » (٤) بما يأتى : « كل رجل لا يعتقد بالقضاء والقدر فهو مجوسى (أى من عباد النار) ، كما قرر ذلك الرسول فى سنته » .

ويرى فون كريم إن معبد الجنى (٨٠٥ ٦٩٩م) يدين بمذهب

Dozy, Histoire de l'Islamisme, p. 201 (١)

Streifzüge, pp. 7—9 (٢)

(٣) أنظر Steiner, Mu'taziliten, pp. 26—28 لمعرفة المعانى المختلفة لكلمة « قدر »

(٤) طبعة Wüstenfeld ١ : ٥٣٨ (ص ٢٢ ، ٢٤)

حرية الارادة في دمشق في آخر القرن السابع الميلادي وإنه تلقاه عن فارسي يسمى سنْبُويَه (Sinbūya) الذي قتله عبد الملك بن مروان . وفي رواية أخرى الحجاج بن يوسف ^(١)

تتكون عقيدة المعتزلة من خمسة أصول : التوحيد ، والعدل ، والوعيد ، والقول بالمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

أما القول بالتوحيد ، وهو الأصل الأول ، فقد ذهب المعتزلة من بصريين وبغداديين وغيرهم أن الله عز وجل لا كالأشياء وأنه ليس بجسم ولا عَرَض ، ولا عنصر ولا جزء ولا جوهر ، بل هو الخالق للجسم والعرض والعنصر والجزء والجوهر ؛ وأن شيئاً من الخواص لا يدركه في الدنيا ولا في الآخرة . وأنه لا يحصره المكان ولا تحويه الأقطار ، بل هو الذي لم يزل ولا زمان ولا مكان ، ولا نهاية ولا حد . وأنه الخالق للأشياء المبدع لها لا من شيء ، وأنه القديم ، وأن ماسواه محدث

وأما القول بالعدل ، وهو الأصل الثاني ، فعناه أن الله لا يحب الفساد ولا يخلق أفعال العباد ، بل يفعلون ما أمروا به ونهوا عنه بالقدرة التي جعلها الله لهم وركبها فيهم ، وأنه لم يأمر إلا بما أراد ، ولم ينه إلا عما كره ، وأنه ولي كل حسنة أمر بها ، برىء من كل سيئة نهى عنها . لم يكلفهم ما لا يطيقونه ، ولا أراد منهم ما لا يقدرُونَ عليه . وأن أحداً لا يقدر على قبض ولا بسط إلا بقدرة الله التي أعطاهم إياها . وهو المالك لها دونهم يُفنيها إذا شاء ويُبقيها إذا شاء . ولو شاء لجبر الخلق على طاعته ومنعهم اضطرارياً عن معصيته ، ولما كان

(١) راجع Browne, Lit. Hist of Persia, vol. II. pp. 279—281.

على ذلك قادراً . غير أنه لا يفعل ، إذ كان في ذلك رفعٌ للحنة وإزالة للبلوى .

وَأما القول بالوعيد ، وهو الأصل الثالث ، فهو أن الله لا يغفر لمرتكب الكبائر إلا بالتوبة ، وأنه لصديق في وعده ووعيده ، لا مبدل لسلطاته .

وَأما القول بالمنزلة بين المنزلتين ، وهو الأصل الرابع ، فهو أن الفاسق المرتكب للكبائر ليس بمؤمن ولا كافر ، بل يسمى فاسقاً على حسب ماورد التوفيق بتسميته ، وأجمع أهل الصلاة على فسوقه .
وَأما القول بوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو الأصل الخامس ، فهو أن ما ذكر على سائر المؤمنين واجب على حسب استطاعتهم في ذلك بالسيف فما دونه ، وإن كان كالجهاد . ولا فرق بين مجاهدة الكافر والفاسق (١) .

ويقول المعتزلة أيضاً بسلطة العقل وقدرته على معرفة الحسن والقبيح ولولم يرد بهما شرع ، وأن للشيء صفة فيه جعلته حسناً أو قبيحاً . ويشبه هذا المذهب من بعض الوجوه المذهب الذي ساد في أوروبا في عصر النهضة وهو مذهب العقلين Rationalistes . ومن ثم سماهم الاستاذ نيكلسون بذلك الاسم في كتابه تاريخ العرب الأدبي (٢) .

يقول الأستاذ براون في كتابه « تاريخ الفرس الأدبي » (٣) :
القدرية هم أشياخ حرية الإرادة أو المعتزلة (المنشقين) التي يقول عنها الدكتور شتينر (Steiner) بأن فكرتهم الأصلية هي « إقامة البرهان العقلي والحجج الفكرية على عكس تعاليم أهل السنة . وقد سموا أنفسهم

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ١٩٠ — ١٩١

(٢) Nicholson, Lit. Hist. of the Arabs, p. 224

(٣) Browne, Lit. Hist. of Persia, p. 281

« أهل العدل والتوحيد » أو « أنصار العدل الإلهي والتوحيد الإلهي » (١).
وأما من حيث العدل الإلهي ، فلأن عقيدة أهل السنة في القضاء
والقدر تنتهي بأن الله يعاقب الإنسان على ذنوب لا مناص له من
ارتكابها ؛ لأنها مقدرة عليه من سلطان لا قبل له بمقاومته . وبذلك
جعلت المولى سبحانه وتعالى مستبدا لارحمة عنده . وأما من حيث
التوحيد الإلهي فانهم يقولون ان أهل السنة الذين يذهبون إلى أن
القرآن قديم ومساو لله في الوجود ، والذين يعتقدون بان الصفات
الإلهية منفصلة أو يمكن انفصالها عن الذات الإلهية ، فهذا في الحقيقة
قول بالتعدد أو الإلشراك

آراء المعتزلة
السياسية

ابتدأت المعتزلة منذ نشأتها طائفة دينية لا دخل لها في السياسة
على عكس ما كان عليه الخوارج والشيعة والمرجئة ؛ إلا أنها لم تلبث
أن خاضت غمار السياسة فتكلمت في الإمامة وشرط الإمام . يقول
المسعودي (٢) : « يذهب المعتزلة إلى أن الإمامة اختيار من الأمة ؛
وذلك أن الله عز وجل لم ينص على رجل بعينه ، وإن اختيار ذلك
مفوض إلى الأمة تختار رجلا منها ينفذ فيها أحكامه سواء كان قريشا
أو غيره من أهل ملة الاسلام وأهل العدالة والإيمان . ولم يراعوا في
ذلك النسب ولا غيره . وواجب على أهل كل عصر أن يفعلوا ذلك .
والذي ذهب إلى أن الإمامة قد تجوز في قريش وغيرهم من الناس هو

(١) معنى كونهم أنصار العدل أنهم يقولون بحرية الإرادة وأن الإنسان مختار في أفعاله .
ولذلك كان من العدل أن يكون مسئولاً عن نتائج عمله ، بخلاف ما ذهب إليه أهل السنة من قولهم
أنه لا يقع في ملك الله إلا ما يريد . وهذا في ظاهره القول بالجبر . ومن ثم كان من الظلم —
على ما ذهب إليه المعتزلة — أن يعاقب الإنسان على عمل ساقه إليه القدر الإلهي . والكلام على
ذلك مستفيض في كتب التوحيد . وأما معنى أنهم أهل التوحيد ، فانهم ذهبوا إلى نفي صفات
المعاني والمعنوية ، لأنهم يرون القول بها تعدداً للقدماء ، وهذا يناقض القول بالتوحيد . وذلك
خلافاً لما ذهب إليه أهل السنة من إثبات تلك الصفات . وهذا قول بالتعدد في نظر المعتزلة .

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ١٩١ — ١٩٢

المعتزلة بأسرها وجماعة من الزيدية مثل الحسن بن صالح بن جنى .
ويوافق من ذكرنا على هذا القول جميع الخوارج من الاباضية وغيرهم
إلا النجدات من فرق الخوارج ؛ فزعموا أن الامامة غير واجب
نصبها . ووافقهم على هذا القول أناس من المعتزلة ممن تقدم وتأخر ؛ إلا
أنهم قالوا إن عدلت الأئمة ولم يكن فيها فاسق لم يحتج إلى إمام . وذهب
من قال بهذا القول إلى دلائل ذكروها ، منها قول عمر بن الخطاب رضى
الله عنه : لو أن سالما حى مادخلنى فيه الظنون ، وذلك حين فوض
الأمر إلى أهل الشورى . فلو لم يعلم عمر أن الامامة جائزة فى سائر
المؤمنين لم يطلق هذا القول ولم يتأسف على موت سالم مولى أبى حذيفة .
وقد صح بذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم أخبار كثيرة منها قوله :
اسمعوا وأطيعوا ولو لعبد أجدع . وقد قال عز وجل (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ)
عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) «

علاقة المعتزلة بالشيعة

وإلى القارىء طرفا مما كتبه جولىزهر عن علاقة المعتزلة بالشيعة :
« وما تجب ملاحظته أن طوائف الشيعة رغم تشعبها قد سادت فيها
مبادئ المعتزلة فى كثير من المسائل ، ولا سيما ما لم يتأثر منها بعقيدة الامام
أو المهدي . فقد استطاع فقهاء الشيعة وعلماء التوحيد منهم أن يستفيدوا
من أفكار المعتزلة ويستخدموها لتدعيم عقائدهم ومذاهبهم الخاصة . يبين
لنا ذلك أجلى بيان أن الشيعة قد آثروا أن يسموا أنفسهم أهل العدل ؛
وهذا — كما رأينا — هو نفس التسمية التى تسمى بها المعتزلة .

ويظهر التشابه بين المعتزلة والشيعة فيما يدعيه الشيعة أن عليا والأئمة
من آل بيته هم أول من قالوا بحرية الارادة ، وأن المعتزلة لم يزيدوا فى
ذلك شيئا أكثر من شرحهم تلك العقيدة التى وضع أساسها الأئمة من
بيت على .

ومن أجل ذلك نرى فى كتبهم التى كتبوها فى علم الكلام تلك
الظاهرة الغريبة ، وهى أنهم كانوا يطلقون لقب الأئمة على فقهاء المعتزلة

حين يعرضون لشرح عقائدهم ، ذلك اللقب الذى كانت تطلقه الشيعة على فقائهم ، والذى أخذوه عن على رضى الله عنه ، وهو المؤسس الأول لذلك المذهب فى رأيهم .

ويبين لنا بشكل أوضح الرابطة بين عقيدة الشيعة الرئيسية ومذهب الاعتزال ما نلاحظه من تأثير الشيعة بمبادئ المعتزلة فى عقيدتهم: ان الامام المنتظر سوف يظهر لنشر العدل والتوحيد . وهذا هو بعينه عقيدة المعتزلة . والزيدية أكثر شبيهاً بالمعتزلة فى ذلك من الامامية ، إذ تتفق مع المعتزلة فضلاً عن ذلك فى كثير من النقاط والتفاصيل . ولا يزال الاعتزال ظاهراً فى أدب الشيعة حتى اليوم ؛ ومن ثم كان من الخطأ البين — سواء من وجهة التاريخ الدينى أو من حيث التاريخ الأدبى — أن نظن أن انتصار مذهب الأشاعرة المؤزر على مذهب المعتزلة قد قضى عليه القضاء الأخير وأنه لم يبق له وجود بعد ذلك . وقد بلغ من شدة التشابه بين المعتزلة والشيعة أن اختلط الأمر على المؤرخين ، فلم يميزوا بين كتب الشيعة وكتب المعتزلة فى التوحيد ، وذلك لانقسامها الى قسمين رئيسيين :

١ - قسم يحتوى على الفصول التى تبحث فى التوحيد .

٢ - والقسم الآخر يتضمن البحوث المتعلقة بالعدل .

على أن كتب الشيعة لم تخل من ذكر نظرية الامام وعصمته ، وهى العلاقة الوحيدة التى كان يميز بها المؤرخون تلك الكتب عن المعتزلة ويعرفونها بها .

على أنه يحمل بنا ألا نهمل القول بأن النظام — وهو من كبار أئمة المعتزلة — كان يوافق الشيعة فيما يتعلق بتلك النقاط الأخيرة (وهى نظرية الامام وعصمته) . وبما هو جدير بالملاحظة أن معظم البراهين التى استدلل بها الشيعيون على نظرية الامامة قد قامت على أسس من مذهب

الاعتزال البحت . فالقول بضرورة وجود إمام في كل عصر ، ووجوب عصمة ذلك الامام عن الخطأ يتفق تماما مع رأى المعتزلة وقولهم بوجوب ارسال الرسل بما أن الله حكيم وعادل . ومن ثم يقول الشيعة : « إن الله يحب عليه أن يبعث للناس في كل عصر مرشدا وهاديا معصوما من الخطأ . وهكذا نرى الشيعة تقيم قواعدها الرئيسية على نظريات عقائد المعتزلة (١) »

تتفق المعتزلة مع الخوارج في القول بأن الامامة تجوز في قریش وفي غيرهم من الناس ، كما تتفق معهم أيضاً في القول بعدم ضرورة نصب إمام للمسلمين ، كما يفهم ذلك من قول الخوارج « لا حكم إلا لله » . إلا أن المعتزلة لا تجيز هذا إلا في حالة واحدة وهي : أن يكون جميع المسلمين عدولا ليس بينهم فاسق . ولا غرو فطالما اتخذ الخوارج مبادئ الاعتزال ذريعة للخروج على بنى أمية وإثارة الفتن والاضطرابات ، ولا سيما في افريقية وبلاد المغرب ، تلك المبادئ التي كانت تتفق في كثير من المسائل - وبخاصة فيما يتعلق منها بالعقيدة الأساسية - مع مول الخوارج (٢) .

علاقة المعتزلة
بالخوارج

وفي عهد يزيد بن الوليد ابتداء حبل بنى أمية في الاضطراب . ولما مات بويع أخوه ابراهيم بيعة لم تأت بطائل ؛ فكان ناس يسلمون عليه بالخلافة ، وناس بالامارة ، وناس ربما لا يسلمون عليه بواحدة منهما . ولم يلبث طويلا حتى سار إليه مروان بن محمد بن مروان وخلعه . وهرب ابراهيم من دمشق فظفر به مروان فقتله وصلبه وقتل من ماله ، ومن بينهم

اضطراب حبل
بنى أمية

Goldziher, Le Dogme et la Loi de l'Islame, (١)

(tans. by Dr. Félix Arin), pp. 188—189.

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٩١

Goldziher, Le Dogme et la Loi de l'Islam, p.

189.

عبد العزيز بن الحجاج ويزيد بن خالد القسري. عند ذلك اشتعلت نار العصية بين النزارية أو المضرية ، وبين القحطانية ، وتحزبت القبائل وثارَت العصية في البدو والحضر ، وتعصب مروان بن محمد لنزار على اليمن ، وانصرف اليمن عنه ومالوا الى الدعوة العباسية . (١)

مروان بن محمد

١٢٧ — ١٣٢ هـ ٧٤٤ — ٧٤٩ م

بويغ مروان بدمشق في شهر صفر سنة ١٢٧ هـ ؛ وبقي في الخلافة إلى أن قتل في المحرم سنة ١٣٢ هـ بعد أن مكث بها خمس سنين وثلاثة أشهر . وكان يلقب بالحمار « لأنه كان لا يحف له لبد في محاربة الخارجين عليه ، فكان يصل السير بالسير ويصبر على مكاره الحرب . ولقب الجعدي نسبة الى مؤدبه الجعد بن درهم » (٢) . وكان يكنى أبا عبد الملك (٣) . وقد اشتهر بالشجاعة والدهاء والمكر .

قيام الفتن

ولما ولى الخلافة ثارت الفتن والقلاقل ؛ فذشطت الشيعة في بث دعوتها التي أجهزت على البيت الأموي ، وظهرت عقيدة المهدي التي كان لها أثر كبير في سقوط الدولة الأموية

وقد تفاقم في عهد مروان شر الخوارج واشتد أمر أبي مسلم . فقد اتهم الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي فرصة انقسام حزب بني أمية على نفسه عقب قتل الوليد بن يزيد وإذكاه نار العصية بين القبائل ، فخرج على بني أمية وانضم إليه الخوارج . وقد زاد الحالة سوءاً عزل مروان

(١) الفخرى ص ١٢٣ هـ المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ١٩٣

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٦٩ هـ والفخرى ص ١٢٣

(٣) الطبري ج ٩ ص ١٢٧ هـ والمسعودي ج ٢ ص ١٩٧

ابن محمد عبد الله بن عمر بن عبد العزيز عن العراق وتوليته النضر بن سعيد الحريشي ؛ فامتنع عبد الله بالخيرة ، فسار إليه النضر وانضمت قيس الى عبد الله بن عمر بن عبد العزيز وطالبوا مروان بدم الوليد - وكانت أمه من قيس - كما انضمت إليه اليمية لاشتراكهم في قتل الوليد.

فلما رأى الضحاك ذلك الخلاف زحف على الكوفة سنة ١٢٧ هـ ؛ فانضم اليه عبد الله بن عمر وسليمان بن هشام . وهكذا ظهر الانقسام بين أفراد البيت الأموي ظهوراً بيناً ، وأخذ بعضهم ينضم إلى الثائرين ليكيد للفريق الآخر .

وقد اشتد خطر الضحاك في الكوفة وبلغ أنصاره زهاء مائة ألف ، وغدا يهدد سلامة الدولة الأموية . وسرعان ما غادر الكوفة إلى الموصل ثم إلى نصيبين . فكتب مروان إلى ابنه عبد الله أن يسير إليه ، فحاصره في نصيبين ؛ ولحق به مروان وقضى عليه وهزم أتباعه عند ماردين سنة ١٢٨ هـ (١)

على أن قتل الضحاك لم يضع حداً لثورات الخوارج في العراق . فقد ظهر زعيم جديد هو أبو حمزة الخارجي ؛ وكان يفد إلى مكة كل سنة لتأليب الناس على مروان وحشهم على قتاله ؛ فتبعه كثير منهم . وبلغ من اشتداد أمره أنه جاء إلى عبد الله بن يحيى المعروف بطالب الحق (سنة ١٢٨ هـ) وقال له : « اسمع كلاماً حسناً . إنى أراك تدعو إلى حق ؛ فانطلق معي فاني رجل مطاع في قومي » . فخرج معه حتى أتيا حضرموت فبايعه أبو حمزة على الخلافة ودعا إلى قتال مروان وآله . (٢)

وفي سنة ١٢٩ هـ خرج أبو حمزة إلى مكة في سبعائة رجل من

(١) ابن الأثير ج ٥ ص ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٤١

(٢) ابن الأثير ج ٥ ص ١٤١

قبل عبدالله بن يحيى ، ففرع الناس حين رأوهم . وكان على مكة والمدينة عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك ، فراسلهم وطلب منهم الهدنة حتى ينتهى موسم الحج .

فلما انتهى الحج سار عبد الواحد إلى المدينة ، وزاد أهلها في أعطياتهم ، وأمر عليهم عبدالعزيز بن عبد الله بن عمرو بن عثمان (١) ، فخرج لقتال أبي حمزة . فلما كان بالعقيق جامته رسل أبي حمزة يقولون « إننا والله مالنا بقتالكم حاجة . دعونا نمضى الى عدونا » ، فأبى ذلك عليهم وأصر على الحرب وسار حتى نزل قديدا ، فأعمل فيهم أصحاب أبي حمزة السيف وقتلوا منهم عددا كبيرا .

دخول أبي حمزة
المدينة

ولما اتصل نبأ هذه الهزيمة بعبد الواحد هرب إلى الشام ؛ فدخل أبو حمزة الخارجى المدينة فى صفر سنة ١٣٠ هـ ، وأحسن السيرة فى أهلها ؛ وأقام بها ثلاثة أشهر . ثم سار إلى الشام ، فأرسل إليه مروان بن محمد أربعة آلاف مقاتل بقيادة عبد الملك بن محمد بن عطية السعدى ؛ فالتقوا مع الخوارج فى وادى القرى حيث تقاىل الجيشان ، فقتل أبو حمزة وكثير من أصحابه . ثم سار عبد الملك إلى المدينة ثم إلى اليمن ، وهزم عبد الله بن يحيى المعروف بطالب الحق الذى نصبه أبو حمزة خليفة ، وقتله وكثيرا من أتباعه سنة ١٣٠ هـ (٢) .

وبذلك قضى مروان بن محمد على أبي حمزة وأتباعه ، كما قضى على الخوارج الذين ظهروا قبله . وكانت ثورة أبي حمزة آخر ثورات الخوارج فى عهد بنى أمية بعد أن حاولوا قلب نظام الحكم فيها فلم يفلحوا . ويرجع إلى مروان الفضل فى القضاء على هذا الحزب . فإنه لم يشغله

(١) ابن الأثير ج ٥ ص ١٥٧

(٢) ابن الأثير ج ٥ ص ١٥٨ ، والطبرى ج ٩ ص ١١٠

تفكك عرى مملكته عن الضرب على أيدي الخوارج الذين عاثوا في الأرض ردحا من الزمن .

وكان من بين الخارجين على مروان عبد الله بن معاوية بن عبد الله ابن جعفر بن أبي طالب الذي ادعى الخلافة ونصره أهل الكوفة وبايعوه . وقد سار عبد الله إلى المدائن وعبر دجلة واستولى على حلوان ، ثم توجه إلى بلاد العجم ، فاستولى على همدان وأصفهان والري ، وبقي على ذلك مدة . ولما قويت شوكمته سار إليه أبو مسلم سنة ١٢٨ هـ وقتله .

المولون

اشتد أمر أبي مسلم بعد أن أوقع بين النزارية واليمينية في خراسان ؛ وتمكن من هزيمة نصر بن سيار أمير هذه البلاد . ولما استولى عليها سار إلى العراق ودخل الكوفة وكان بها بنو العباس - وقد فروا من حران بعد مقتل إبراهيم الإمام - وسلم على أبي العباس السفاح بالخلافة ؛ فندب أبو العباس عمه عبد الله بن علي لقتال مروان بن محمد ، فلقيه بالزاب (أحد فروع دجلة) . وكان مع مروان مائة وعشرون ألفا ؛ فوقع به عبد الله ؛ فعبر دجلة ومضى إلى الموصل ، فقطع أهلها الجسر ومنعوه العبور . فسار إلى حران ، فدمشق ، فحصر ؛ فتبعه عبد الله بن علي وقتله في بوسير بالفيوم . وانقضت بذلك الدولة الأموية وقامت على انقاضها الدولة العباسية (١)

اشتداد أمر أبي مسلم

أسباب سقوط الدولة الأموية :

١١ — جعل ولاية العهد لاثنتين :

كان من بين الأسباب التي أثرت في اضمحلال البيت الأموي وذهاب ريحه ولاية العهد لاثنتين يلي أحدهما الآخر . فقد بذر هذا بذور الشقاق والمنافسة بين أفراد ذلك البيت وأورث بينهم الحقد والبغضاء . ولا غرو فإنه لم يكديتم الأمر لأولهما حتى يعمل على إقصاء الثاني من ولاية العهد وإحلال أحد بنيه مكانه ، مما أوغر صدور بعضهم على بعض . ولم يقتصر هذا النزاع بين أفراد هذا البيت بل تعداهم إلى القواد والعمال . فإنه لم يكديتم الأمر لثانيهما حتى كان ينكل بمن ظاهر خصمه من القواد والعمال وساعده على إقصائه من ولاية العهد .

مروان
و أول من سنَّ هذه السنة مروان بن الحسك ؛ فقد ولي عهده ابنه عبد الملك ثم عبد العزيز ، ولم يأبه بما كان في مؤتمر الجالية وما أجمعوا عليه حينذاك من البيعة بعده لخالد بن يزيد وعمر بن سعيد . وكان من أثر ذلك خروج عمرو بن سعيد بن العاص على عبد الملك وقضاء الأخير عليه .

عبد الملك
وقد اتبع عبد الملك سنة أبيه مروان ، فقد أراد خلع أخيه عبد العزيز عن ولاية العهد وتولية ابنه الوليد ثم سليمان ، لولا أن حالت وفاة عبد العزيز دون ما كانت تحدثه به نفسه من خلعه . أجل ! لم يمنعه ذلك من ارتكاب تلك الغلطة التي أورثت البغض والعداوة بين الأخوين ، بل وتعدتهما إلى القواد والعمال . فإنه لما ولي الوليد بن عبد الملك الخلافة عمل على خلع أخيه سليمان من ولاية العهد وجعلها لابنه عبد العزيز ، وكتب

إلى العمال بذلك . فأجابه الحجاج بن يوسف الثقفي والى العراق ^(١) ،
وقيبة بن مسلم عامل خراسان ، ومحمد بن القاسم والى السند . وأجزل
الوليد العطاء للشعراء للإشادة بفضل عبد العزيز . ولم يكن الوليد من
وراء ذلك سوى الكراهة والبغضاء بينه وبين أخيه . فلما ولي سليمان
الخليفة بعد وفاة أخيه الوليد انتقم ممن كان لهم ضلع فى خلعه . وهكذا
تطورت المنافسة بين أفراد البيت المالك تطورا غريباً وأضحى خطراً
على الدولة . فقد كان الخليفة ينتقم من القواد والعمال لمجرد اتهامهم
بمالة الخليفة السابق على خلعه .

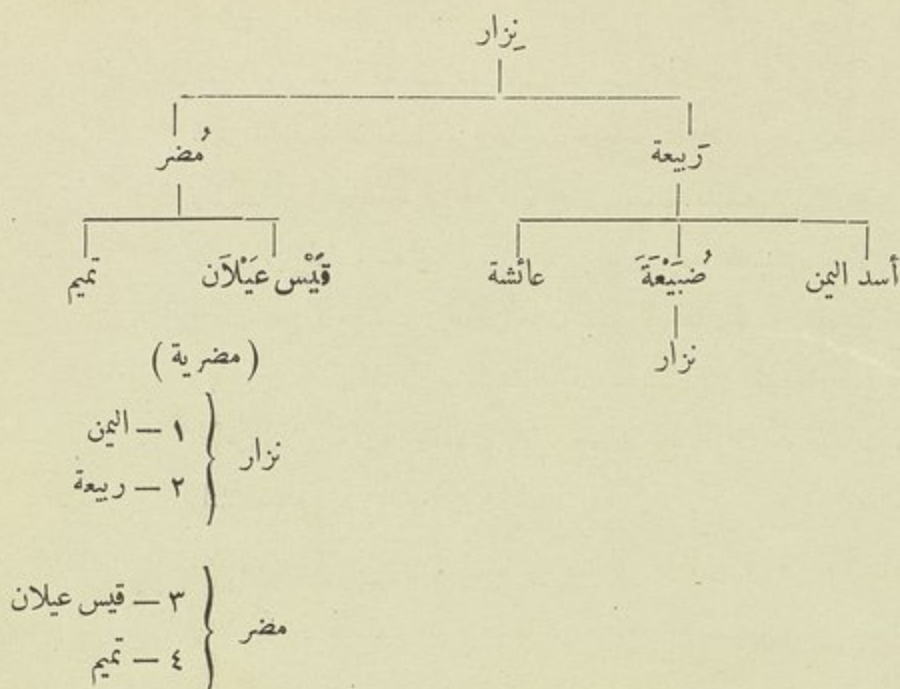
سليمان

هكذا بدأ سليمان عهده بالانتقام من كبار القواد وخيرة العمال
والتشقى منهم . وكان من حسن حظ الحجاج أن مات قبل الوليد . على
أن ذلك لم يصرف سليمان عن الانتقام من أهل بيته ، فقد أمر يزيد
ابن المهلب — وهو عدو الحجاج اللدود — وصالح بن عبد الرحمن أن
يذيقا آل الحجاج أشد صنوف العذاب . كذلك انتقم سليمان من محمد
ابن القاسم ذلك القائد العظيم الذى بسط نفوذ الدولة على الهندو السند .
وكذلك كان نصيب قتيبة بن مسلم .

٢ - ظهور روح العصية:

بعثت روح العصية بين القبائل العربية عقب وفاة يزيد بن معاوية .
غير أنها لم تكن من القوة والشدة بحيث تؤثر فى انحلال الحزب
الأموى ؛ فقد ظل حافظاً لكيانه كحزب سياسى يناضل خصومه من
الأحزاب الأخرى إلى أن كانت خلافة عمر بن عبد العزيز التى تعتبر
فترة انتقال بين حال القوة والتماسك وحال الضعف والتفكك الذى
اعتري ذلك الحزب . فقد كان عمر صالحاً عادلاً قضى فترة خلافته فى

بعد وفاة يزيد
ابن معاوية



إصلاح ما أفسده من سبقه من خلفاء بني أمية حتى نال رضا جميع العناصر الثورية، فلم يتعصب لقبيلة دون أخرى، ولم يول واليا إلا لكفاءته وعدالته سواء كان من كلب أو من قيس؛ فسكنت في عهده العواصف التي كانت تنتاب الدولة وتكاد أن تذهب بريحتها.

فلما توفي عمر بن عبد العزيز خلفه يزيد بن عبد الملك، فاستقبل يزيد بخلافته فتنة كان لها أسوأ الأثر في حزب بني أمية، وتعتبر في الحقيقة نضالا بين عرب الشمال وعرب الجنوب أو بين مضر واليمن. ولما كان الخليفة من عرب الشمال فإنه لم يتورع عن خوض غمار هذه الفتنة، وتعرف هذه الفتنة بفتنة يزيد بن المهلب الذي فر من سجن عمر بن عبد العزيز وخرج يريد البصرة خوفا من يزيد بن عبد الملك.

وقد اختلف المؤرخون في سبب العداوة بين يزيد بن عبد الملك وبين يزيد بن عبد الملك ويزيد بن المهلب

وزيد بن المهلب . فالطبرى (١) وابن الأثير (٢) يذكران أن السبب هو أن يزيد بن المهلب قد تولى تعذيب آل الحجاج أصهار يزيد بن عبد الملك ، إذ كان متزوجا أم الحجاج ابنة محمد بن يوسف الثقفى . وكانت أم الحجاج بمن أخذهم يزيد بن المهلب فشفع فيها زوجها ؛ فلم يقبل ابن المهلب شفاعته . فقال له يزيد بن عبد الملك . « أما والله لئن وليتُ من الأمر شيئا لأقطعن منك عضوا » ، فقال له ابن المهلب : « وأنا والله لئن كان ذلك لأرمينك بمائة ألف سيف » . ويظهر لنا أن ما ذكره الطبرى وابن الأثير معقول ، ويرجح فى نظرنا أن يكون ذلك سبب تلك العداوة بين الرجاين .

وقد ذكر ابن الأثير سببا لا يقل عن الأول فى قوته ووجاهته ، وهو أن ابن المهلب خرج يوما من الحمام أيام سليمان بن عبد الملك وقد تضمخ بالغالية ، فرى يزيد بن عبد الملك وهو إلى جانب عمر بن عبد العزيز . فقال يزيد « قبح الله الدنيا لوددت أن مثقال الغالية بألف دينار فلا ينالها إلا كل شريف » . فسمع قوله ابن المهلب فقال له « بل وددت أن الغالية لا تكون إلا فى جهة الاسد فلا ينالها إلا مثلى » . فقال له يزيد لئن وليت يوما لاقتلنك » ، فقال له ابن المهلب : « والله لئن وليت هذا الأمر وأنا حى لا ضربن وجهك بخمسين ألف سيف »

فرأى ابن المهلب من السجن - كما تقدم - ولحق بالبصرة حيث انضم إليه أهل بيته وكثير من يمنية العراق ؛ فغلب على البصرة وما جاورها ، واشتد خطره وأصبح يهدد كيان الدولة ، وأضحى جيشه يربو على مائة ألف مقاتل . فأرسل إليه يزيد بن عبد الملك جيشا عظيما بقيادة أخيه مسلمة . فتقابل الجيشان عند قرية يقال لها العقر بجوار البصرة . واستمر

قتل ابن المهلب

القتال بين الفريقين ثمانية أيام ، مُقتل في خلالها كثير من الجند وانتهت الحرب بقتل يزيد بن المهلب .

كانت هذه الفتنة سبباً في القضاء على أفراد بيت المهلب بن أبي صفرة . فقد قتل بعضهم في الحرب على حين حمل البعض الآخر بالأغلال الى يزيد بن عبد الملك ؛ فلم تأخذه الشفقة ولم يلتفت الى شفاعه كُشِيرَ عزة فيهم إذ أنشده

حَكِيمٌ إِذَا مَانَالَ عَاقِبَ مَجْمَلَا أَشَدَّ الْعِقَابِ أَوْ عَقَلَا مِثْرَبِ
فَعَقُوا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَحَسْبَهُ فَمَا تَأْتِيهِ مِنْ صَالِحٍ لَكَ يَكْتَسِبُ (١)

فأجابه إجابة تم عن الحقد والعداوة « هيهات يا أباصخر لا سبيل الى ذلك » ، وأمر بهم فقتلوا جميعاً .

هذا وقد درجت أسرة المهلب بن أبي صفرة في خدمة بني أمية ، فأبلى رئيسها المهلب ابن صفرة وأبناؤه في حرب الأزارقة بلاء حسناً . كما حارب أهل خراسان والخزرو الترك . وخفله أبناؤه ، فكانوا مثله في النبل والفضل ؛ فدحهم الشعراء وتغنى بفضلهم الركبان ، وقصدهم الشعراء وذووا والحاجات ، فأجزلوهم العطاء ووصلوهم بالصلات الجمّة ؛ فعظم أمرهم وبعصيتهم ونبه شأنهم ، فكانوا غرة في جبين الدولة الأموية . وكانوا كالبرامكة في دولة بني العباس ، كما كانوا معقل اليمنيين لأنهم السبب في رفعتهم . لذلك لاندesh إذا انحاز إليهم العنصر اليمني في تلك الفتنة . وكان القضاء عليهم سبباً في اشعال نار العصية في قلوب ذلك العنصر وحقده على الدولة . وقد أصبح العنصر اليمني منذ ذلك الوقت خطراً يهدد كيان حزب بني أمية . وقد زج الخليفة - لسوء الحظ - بنفسه في تلك العصية التي عادت سيرتها الأولى يوم مرج راهط . وقد

أثريت المهلب
في الدولة الأموية

سخط اليمنية على
البيت الأموي

أخذ الخلفاء يعملون على توسيع مسافة الخلف بين هذين العنصرين اللذين كانا عصب دولتهم ومصدر قوتهم . فتراهم ينضمون إلى القيسية حيناً وإلى اليمنية حيناً آخر .

كان طبيعياً بعد هذه الحادثة أن يأخذ يزيد جانب القيسيين ، فولى أخاه مسلمة الذي قضى على ثورة ابن المهلب على المشرق ، ثم ولى عمر ابن هيرة وهو قيسى . وقد اضطبغت الدولة كلها بالصبغة القيسية المضرية ، وأصبح العنصر اليمني ضعيفاً لا يملك من الأمر شيئاً .

انتصار يزيد للقيسية

ولما توفى يزيد وتولى هشام بن عبد الملك الخلافة رأى أن القيسية قد اشتد أمرها وعلت قوتها ، فخاف من ارتفاع شأنها وازدياد نفوذها على الدولة ، فعمل على التخلص منهم والانحياز إلى اليمنية كي يعيد التوازن بين العنصرين اليمني والقيسي ، فعزل العمال المضريين وولى مكانهم بعض اليمنيين : فولى خالد بن عبد الله القسرى على العراق وولى أخاه أسداً على خراسان . وبذلك أخذ العنصر اليمني يعلو شأنه ويستعيد قوته بعد أن ضعف أمره بعد القضاء على المهلب ، بينما أخذ العنصر الآخر في الاضمحلال . وقد تعصب خالد وأخوه أسد لعنصرهم فأخذوا ينتقمون من المضريين ^(١) .

هشام بن عبد الملك
انحيازه إلى اليمنية

على أن هشاماً لم يتبع سياسة ثابتة بازاء القبائل المختلفة . فانه بعد أن انحاز إلى جانب اليمنيين حتى رجحت كفتهم العنصر الآخر تحول عنهم وانضم إلى المضريين وولى منهم العمال : فولى يوسف بن عمر الثقفي العراق ونصر بن سيار خراسان ، وكذلك فعل في الأندلس . ولم يكتف بذلك ، بل أطلق يده في تعذيب خالد بن عبد الله القسرى زعيم اليمنية

انضمامه إلى المضرية

مقتل خالد القسرى
زعيم اليمينية

وكان مقتل خالد بن عبد الله من أقوى الأسباب التي عجلت بسقوط حزب بنى أمية . فإن اليمينية ، الذين لم ينسوا للدولة قضاءها على آل المهلب ، قد فوجئوا بمقتل زعيمهم خالد بن عبد الله القسرى لانتهاكه بمالاة العلويين واغداقه الأموال عليهم حتى خرج زيد بن علي زين العابدين ، كما اتهم أيضا بالزندقة والاحاد ، فعادت القلاقل سيرتها الاولى وعمل اليمينية على التخلص من سيادة الأمويين .

كان خالد بن عبد الله أمير العراق من قبل هشام بن عبد الملك . وقد مكث خمس عشرة سنة على أمور تلك البلاد . ولكن هشاما كان متقلبا في أحواله كما تقدم .

وبعد أن قتل خالد لزم الوليد بن يزيد بن عبد الملك جانب المضريين - لأن أمه كانت منهم - وأقصى العنصر اليميني ؛ فأثار هذا العمل عواامل السخط والغضب في نفوس اليمينية على الوليد ، لأن عمله كان بمثابة تحد لهم ؛ إذ قتل زعيمهم وأقصاهم عن الأعمال . فلا عجب إذا عمل اليمينيون على التخلص من الوليد انتقاما منه لما ارتكبه ضدهم وأملا في أن تعود لهم السيطرة في الدولة ؛ فأخذوا يجمعون شملهم ويدبرون المسكائد لقتله ، كما أخذ شعراؤهم يلهمون شعورهم ويستفزونهم برائع القول للانتقام من الوليد . وكان من حسن حظهم أن عامة الناس كرهوا الوليد فانتهمز اليمينيون هذه الفرصة ، وثاروا ضده ، وانضم اليهم يزيد بن الوليد ابن عبد الملك ، وكان يظهر التنسك والتواضع ؛ فوثبوا على الوليد وقتلوه في جمادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ ^(١) وبايعوا يزيد بن الوليد بن عبد الملك من بعده . وكان قتله نتيجة للمنافسة التي اشتدت بين أفراد البيت الأموى والعصية التي أشعل ناراها حلفاء بنى أمية بسوء تصرفهم وانحيازهم لفريق دون آخر .

(١) ابن الاثير ج ٥ ص ١١٥

يزيد بن الوليد

لم يضع قتل الوليد وقيام يزيد بن الوليد بأمر الخلافة حداً للشقاق الذي قام ، سواء أكان بين أفراد البيت الأموي أم بين العنصرين اليميني والمضري ؛ بل كان ذلك سبباً حافزاً لاشتداد النزاع . فانه لم يكذب يزيد يعتلي عرش الخلافة حتى أخذ بسيرة خلفائه ، فانضم إلى اليمينين ولزم جانبهم ، وأخذ يولي العمال منهم لأنهم هم الذين ساعدوه على نيل الخلافة وأطلق اليمينيون يدهم في تعذيب المضريين ، فأثار ذلك ثأرتهم فأشعلوا نار الثورة في حمص ، وانضم اليهم يزيد بن خالد بن يزيد بن معاوية وغيره من البيت الأموي ؛ كما ثاروا في فلسطين بزعامة يزيد بن سليمان ، بن عبد الملك ، وحذا أهل الأردن حذوهم بزعامة محمد بن عبد الملك . غير أن يزيد بن الوليد استطاع بمساعدة اليمينين أن يتغلب على هؤلاء جميعاً ، فأخضعهم وعمد إلى زعمائهم من أهل بيته وزجهم في أعماق السجون . (١) من هذا يتبين مبلغ الاختلاف في البيت الأموي ، اذ أصبح كل منهم يكيد للآخر ، وتقطعت بينهم أسباب المودة وأصبح لكل شخص منهم شيعه تؤيده عسى أن تصل به إلى عرش الخلافة فيغدق عليهم العطاء ، فانقسموا على أنفسهم وصاروا فرقا مما أودى بدولتهم لم يلبث يزيد أن عاجلته المنية سنة ١٢٦ هـ بعد أن حكم ستة أشهر ؛ فولى الخلافة بعده أخوه إبراهيم . وكان يزيد قد عهد له بالخلافة . غير أن الحال قد تغير وفقدت الخلافة ما كان لها من الهيبة في نفوس المسلمين ؛ فلم يلق إبراهيم من الاحترام الذي كان لمن سبقه من الخلفاء . فكان الناس تارة يسلمون عليه بالخلافة ، وطورا بالامارة ، وتارة لا يسلمون عليه بواحدة منها ، وظل على هذه الحال إلى أن جاء مروان بن محمد عامل الجزيرة وأرمينية فخلعه منها . (٢)

(١) ابن الأثير ج ٥ ص ١١٧ - ١١٨

(٢) ابن الأثير ج ٥ ص ١٢٥

سار مروان بجنوده من الجزيرة وأقبل يريد الشام مطالباً بدم الوليد ابن يزيد ، كما تظاهر بعزمه على إرجاع الخلافة إلى أبيه . وسرعان ما انضمت إليه القيسية ليؤكدوا لليمنية التي تولت قتل الوليد ؛ فأخذ إبراهيم يحشد الجيوش لقتال مروان بقيادة بعض القواد من أهل بيته ومن اليمنيين . ولكن مروان كان قائداً شجاعاً حنكته الحروب مع الحزب والترك ، فاستطاع بحزمه أن يتغلب على جنود إبراهيم ؛ فهزمهم شر هزيمة ودخل الشام ، ففر إبراهيم هو وكثير من أنصاره .

وكان مروان يريد أن تكون الخلافة في ولد الوليد . ولكن اليمنيين عمدوا إلى ابني الوليد فقتلوهما في السجن خوفاً من أن يلبيا الخلافة فيقتصمان منهم . فلما قتلا شهد محمد السفياقي بأنهما جعلاً للخلافة بعدهما لمروان (١) ، ثم قال السفياقي لمروان : ابسط يدك أبايعك . فبايعه وتبعه أهل الشام . وبذلك أصبح مروان خليفة المسلمين (سنة ٥١٢٧ هـ) . وقد ثارت روح العصية في جميع أنحاء الدولة في الوقت الذي تقوض فيه بناء البيت الأموي وأشرف على الزوال .

على أن مروان قد سار سيرة سلفه ؛ فتعصب للقيسية وولى منهم العمال . فثارت اليمنية وأحدثوا القلاقل والاضطراب ، لأن مروان كان يطالبهم بدم الوليد الذي قتلوه انتقاماً لخالد بن عبد الله القسري . فانتقض أهل حمص بزعامة ثابت بن نعيم ، وانضم إليهم أهل تدمر برياسة الأصمغ ابن ذؤالة الكلبي . غير أن مروان استطاع أن يتغلب عليهم ويهزمهم شر هزيمة (٢)

ثورة يزيد بن خالد القسري

كما ثار يزيد بن خالد القسري بدمشق وانضمت إليه اليمنية ، فأرسل إليه مروان جيشاً هزمهم وقتل يزيد ؛ فخلصت دمشق له . وحذت اليمنية حذوهم في فلسطين فأرسل إليهم مروان جيشاً قضى عليهم . (٣)

لم يكد الأمر يستتب لمروان في الشام حتى خرج عليه بها سليمان ابن هشام بن عبد الملك ، ودعا أهلها الى خلع مروان ؛ فانضمت اليه اليمنية . فسار إليه مروان بنفسه وهزمه بعد حروب طويلة ؛ وفر سليمان الى العراق والتحق بالخوارج ليكيد لمروان ، كما انضم اليهم عبد الله بن عمر بن عبد العزيز .

هذه هي حال العصبية في الشام . وقد ساعد على قيام الثورة فيها أن أكثر أهلها كانوا من العنصر اليمني . وربما كان ذلك هو السبب في أن مروان لم يتخذها مقر ملكه . وانتقل إلى الجزيرة اذ كان أكثر من فيها من القيسية الذين كانوا عماد دولته .

وأما العراق فان الحالة فيه لم تكن أحسن منها في الشام ؛ فقد اشتعلت نار العصبية في هذه البلاد حتى ظهر الضحالك بن قيس الخارجي ، فاستولى عليه كما استولى فريق من الخوارج على اليمن والحجاز بقيادة المختار بن أبي عوف (١)

العصبية في العراق

وهكذا أصبحت البلاد كلها مرتعاً للفتن والاضطراب . وقد شغل اخمد هذه الفتن مروان عن أن يتنبه إلى خراسان وما يجري فيها من بث الدعوة العباسية التي اشتد أمرها وعظم خطرها ؛ فلم يلبث أن باغته الرايات السوداء من خراسان ، فطارده وقضت على جيشه ، ففر إلى مصر حيث أدركه عبدالله بن علي العباسي ثم أخوه الذي قتله صالح سنة ١٣٢ هـ . ويعتبر القضاء على بني أمية قضاء على العرب . إذ كان الأمويون يعتمدون على العرب دون سواهم .

٣ — انغماس بعض الخلفاء في البزخ والترف :

كان لانصراف بعض خلفاء بني أمية إلى حياة البزخ والترف أثر

(١) ابن الاثير ج ٥ ص ١٣٥

كبير في سقوط دولتهم. فقد أخذوا ذلك عن البلاط البيزنطي فشغلهم
عن تدبير أمور الدولة. فقد اشتهر يزيد بن معاوية بحبه للهو. ويقول
المسعودي في كتابه مروج الذهب (١): كان يزيد صاحب طرب
وجوارح وكلاب وفهود ومنادمة على الشراب.

أما يزيد بن عبد الملك فلم يكن أحسن حالا من يزيد بن معاوية.
ويصف لنا صاحب كتاب البدء والتاريخ يزيد الثاني بقوله « وكان
يزيد صاحب لهو وقصف وشغف بحبابة. واشتهر بذكرها، ثم عزم
على الرشد والتشبه بعمر بن عبد العزيز؛ فخشيت حبابة على حظها منه،
فسألت الأحوص أن يعمل لها أبياتا تزين له اللهو والطرب فقال:
ألا لا تله اليوم أن يتبدلا فقد غلب المحزون أن يتجلدا
ركبت الصبي جهدي فمن شاء لا مني ومن شاء آبى في البلاد وأسعدا
فلما غنته بهذه الأبيات أقبل يرددها وعاد الى ما كان عليه من
الشغف بها (٢)

كذلك اشتهر ابنه الوليد بالجنون واللهو. وكان شاعرا محسنا له
أشعار كثيرة في العتاب والغزل (٣)

الوليد بن يزيد بن
عبد الملك

٤ — تعصب الأمويين للعرب :

كانت الدولة الأموية دولة عربية لحما ودما. ومن ثم تعصب
الأمويون للعرب والعربية، وبدءوا ينظرون الى الموالى نظرة الاحتقار
والازدراء، مما أيقظ الفتنة بين المسلمين وبعث روح الشعوية في الاسلام.
وكان منشأ تلك الحركة اعتقاد العرب أنهم أفضل الأمم، وأن لغتهم

الشعوية

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٩٤

(٢) كنات البدء والتاريخ المنسوب الى أبي زيد أحمد بن سهل البلخي وهو لمظهر بن طاهر

المقدسي (طبعة باريس) ج ٦ ص ٤٨ — ٤٩

(٣) الطبري ج ٨ ص ٢٨٨ — ٢٨٩

أرقى اللغات . وإذا نظرنا إلى حركة الشعوبية هذه ألفيناها حربا سلمية اشتبكت فيها الألسنة والأقلام اشتباكا لا يقل أثرا عن اشتباك الألسنة والرماح . وترجع هذه الحركة - على ما يظهر - إلى الوقت الذي دخل فيه العرب بلاد الفرس وغيرها من بلاد الأماجم . ولما جاء الأمويون حملوا لواء تلك الحركة طيلة خلافتهم ، وانحازوا للعرب ولم يساؤوا بينهم وبين الموالي . فاجتمع هؤلاء أمرهم ، وثاروا على الأمويين في عهد عبد الملك بن مروان ، فأرسل إليهم الحجاج بن يوسف الثقفي لتتسكيل بهم . (١)

ولما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة أمر عماله بوضع الجزية عن أسلم ، سواء كان عربيا أو غير عربي وخاصة الموالي من الفرس . وقد نجحت سياسته في حياته ؛ ولكن سرعان ما عادت الحالة أسوأ مما كانت عليه في عهد من أتى بعده من الخلفاء

فلا عجب أن أثارت هذه المعاملة حقن الموالي وسخطهم على الأمويين وأخذوا يتلمسون الفرص للإيقاع بهم ، فانضموا إلى المختار ، ثم إلى الخوارج ، واشتركوا في فتنة عبد الرحمن بن الأشعث ، كما ثاروا مع يزيد بن المهلب يريدون بذلك القضاء على هذه الدولة . فلما نشط دعاة بني العباس انضموا إلى الدعوة العباسية ، فاعتنقوا مذهب التشيع وجدوا في نشر الدعاية لبني العباس عسى أن ينالوا بذلك شيئا من حقوقهم المضمومة .

وقد فطن الأئمة من العباسيين إلى بغض الموالي لبني أمية ودولتهم فعولوا عليهم في نجاح دعوتهم .

٥ - الحركات السياسية والدينية في عهد بني أمية وأثرها في سقوط

دولتهم :

كانت معارضة الأحزاب لبني أمية أولا وبالذات معارضة سياسية بحته ؛ فقد كان اعتلاء معاوية كرسى الخلافة انتصارا للشام على بلاد العراق . وبذلك أصبحت دمشق حاضرة الامبراطورية الاسلامية بدلا من الكوفة . ومن ثم كانت أقوى الثورات وأشدّها خطراً على الأمويين - على ما يقول الاستاذ فلهوزن Wellhausen - (١) في بلاد العراق أكثر منها في أى جهة أخرى من الولايات الاسلامية ، حيث كانت تذكى نارها جمهرة المسلمين من العرب لما كان من تحول السلطان عن أهالى هذه البلاد إلى بلاد الشام .

وقد اتخذ ذلك الشعور العدائى لبني أمية شكلا دينيا وغدا جزءاً من الدعوة الاسلامية الكبرى . لذلك لانعجب إذا سقطت الدولة الأموية لما كان يعوزها من تلك العصية الدينية

وكان من بين الأحزاب التى كانت حرباً على حكم بني أمية ودولتهم :

حزب النقاة

حزب النقاة من المسلمين ممن ليسوا شيعة أو خوارج . ومن بينهم الفقهاء والقراء والصحابه وأعقابهم الذين كانوا يبغضون تلك الحكومة الملكية . وقد أثار الكثيرون منهم نار الثورة على تلك الحكومة لبغضهم بني أمية .

الخوارج

الخوارج : وقد وجه الخلفاء الأمويون همهم لانخماد الثورات التى أثارها عليهم تلك الطائفة مما استنفد قواهم وشغلهم عن التفرغ لشئون الدولة ، وأدى الى انحلالها .

(١) Nicholson, Lit. Hist. of the Arabs, p.207

نقلا عن Wellhausen. Das. Arabische Reich und sein

Sturz, p. 38.

الشيعية : ويرون وجوب الخلافة لعلي ثم أولاده من بعده بمقتضى الحق الإلهي كما تقدم . وكان لترويج الشيعة عقيدة المهدي المنتظر بين المسلمين أثر كبير في سقوط العرش الأموي .

عقيدة المهدي :

يقول فان فلوتن « إن الاعتقاد بظهور المهدي وانتظاره لم يقتصر بآدى الأمر على آل البيت وحدهم ، بل بدأ ذلك الاعتقاد يذاع وينتشر بين المسلمين على حسب ازدياد نفوذ الشيعة وانتشاره ^(١) . وقد انتشرت فكرة المهدي المنتظر لدى أهل السنة حتى تحت ذكر غيره من المهديين ممن كان يُتنبأ بهم ، مثل السفيناني والقحطاني وغيرهما . ولا شك أن التنبؤ بهؤلاء وانتظارهم لم يتلاش تماماً من نفوس المسلمين ، وإنما صار هؤلاء بالنسبة إلى المهدي المنتظر كالرجال بالنسبة إلى عيسى بن مريم . لذلك كان من المعقول أن يظهر عليهم ذلك المهدي ويهزمهم هزيمة حاسمة وينتصر عليهم انتصاراً ميبئاً . » ^(٢)

كان البون شاسعاً بين تلك السعادة التي كان ينشدها الناس على يد المهدي المنتظر وتلك الآلام التي كانوا يعانونها في ذلك الحين حيث الحروب الأهلية التي أذكى ناراها انقسام خلفاء بني أمية على أنفسهم ، والتي كانت تلهب ناراها تلك الأحن والأحقاد القديمة بين مضر وقحطان ، تلك الحروب التي خربت بلاد الشام حيث اندلع لهيبها أول الأمر ، ثم تطاير شظاها إلى غيرها من الولايات الإسلامية . وقد ساد الاضطراب في كل أنحاء الدولة الأموية واستولى على العرب من جديد الميل إلى الحرب والكفاح . فرفع الشيعة والخوارج

(١) ذكر بعض المؤرخين أن الناس كانوا يلقبون كلا من موسى بن طلحة وعمر بن عبد العزيز بالمهدي .

(٢) السيادة العربية (ترجمة المؤلف) ص ١٢١ - ١٢٢

رءوسهم . وظلت الحاميات السورية وحدها على ولائها للعرش الأموي على حين أن كان المرابطون من الجنود العربية يشايعون أعداء الحكومة، حتى كادت تلك الفتن تأتي على ذلك التراث الذي خلفه النبي صلى الله عليه وسلم وتودى بذلك الإصلاح الذي قام به كل من أبي بكر وعمر . وهكذا كان ذلك العصر عصراً محزوناً ملأ قلوب التقاة من المسلمين تشاؤماً بالمستقبل . وقد وصف لنا هذه الحالة السيئة الحارث بن عبد الله الجعدي الشاعر في هذه الأبيات :

الحارث الجعدي
الشاعر يصف سوء
حالة الدولة

أَبَيْتُ أَرْعَى الشُّجُومَ مُرْتَفِعًا (١) إِذَا اسْتَقَلَّتْ تَجْرِي أَوَائِلُهَا
مِنْ فِتْنَةٍ أَصْبَحَتْ مُجِلَّةً (٢) قَدْ عَمَّ أَهْلَ الصَّلَاةِ شَامِلُهَا
مَنْ يَخْرُسَانِ وَالْعِرَاقِ وَمَنْ بِالشَّامِ كُلِّ شَجَاهُ (٣) شَاغِلُهَا
فَالنَّاسُ مِنْهُمْ فِي لَوْنٍ مُظْلِمَةٍ دَهْمَاءُ مُلْتَجَةِ (٤) غَيَا طُلُهَا (٥)
يُمْسِي السَّيْفِيهِ الَّذِي يُعَنَفُ بِالْجَهْلِ سَوَاءٍ فِيهَا وَعَا قُلُهَا
وَالنَّاسُ فِي كُرْبَةٍ يَكَادُ لَهَا تَنْسِيذُ أَوْلَادَهَا حَوَائِلُهَا
يَغْدُونَ مِنْهَا فِي كُلِّ مُبْهَمَةٍ عَمِيَاءُ تَمْنَى (٦) لَهُمْ غَوَائِلُهَا
لَا يَنْظُرُ النَّاسُ فِي عَوَائِلِهَا إِلَّا التِّي لَا يَمِينُ قَائِلُهَا
كَرَّ غَوَةَ الْبَكْرِ (٧) أَوْ كَصِيحَةِ جُدٍّ لِي طَرَقَتْ حَوَلَهَا قَوَائِلُهَا
جَاءَ فِينَا أَرْزَى (٨) يَوْجُهَا فِيهَا خُطُوبُ خُمُرٍ زَلَا زِلُهَا (٩)

عباس بن الوليد
يصف حرج الدولة
الأموية

كذلك تصف لنا هذه الأبيات التي نظمها عباس بن الوليد حرج الدولة الأموية وما وصل إليه الخلفاء الأمويون من يأس وقنوط :

(١) المرتفع الواقف الثابت . والمراد منها السهر .

(٢) مجللة : شاملة . وما بعدها يفسرها

(٣) شجاه : حزنه وطربه .

(٤) ، (٥) المتلجة من العيون الشديدة السواد . والنفيطة (يفتح الغين والطاء) الفطلة المتراكمة

(٦) تمنى بمعنى تقدر . (٧) البكر ولد الناقة . (٨) بمعنى عاب

(٩) الطبرى ٢ : ١٨٥٧

إِنِّي أَعِذُّكُمْ بِاللَّهِ مِنْ فِتْنٍ مِثْلَ الْجِبَالِ تَسَامَى ثُمَّ تَنْدَفِعُ
إِنَّ الْبَرِيَّةَ قَدْ مَلَتْ سَيِّئَاتِكُمْ فَاسْتَمْسِكُوا بِعُمُودِ الدِّينِ وَارْتَدِعُوا
لَا تُلْحِمَنَّ (١) ذِيئَابَ النَّاسِ أَنْفُسَكُمْ

إِنَّ الذِّيَّابَ إِذَا مَا أُلْحِمَتْ رَتَعُوا
لَا تَبْقُرَنَّ بَأَيْدِيكُمْ بُطُونَكُمْ فَمَنْ لَا حَسْرَةَ تُغْنِي وَلَا جَزَعَ (٢)

يقول فان فلوتن (٣) : هل كان الناس يعتقدون إزاء تلك الحالة السيئة
بقرب ظهور المهدي (المخلص) ؟ كل ذلك ممكن ؛ بل من المحتمل جداً
أن هذا الأمل كان العزاء الوحيد للثقة من المسلمين (أهل السنة) .
ومع ذلك فلا ندهش إذا رأينا نبوءة أخرى تشغل الأذهان في ذلك
الحين . لذلك كان من الضروري ظهور رجل يهدم كل قديم ويأتي
عليه ليعبد السبيل لذلك المهدي المنتظر . وهكذا ظهرت بجانب تلك
النبوءات القديمة نبوءة أخرى هي نبوءة الرجل ذي الأعلام السود (٤)

(١) لا تطعموا (٢) شرحه ٢ : ١٧٨٨

(٣) السيادة العربية (ترجمة المؤلف) ص ١٢٣ — ١٢٤

(٤) كان البياض شعار الأمويين إلى ذلك الحين ، فانخذ العباسيون السواد شعاراً لهم
حدادا على الشهداء من آل البيت (De Sacy, Chrestomathie Arabe, 2 è ed. I. 48 Suiv. II. 26. Suiv, Weil. Geschichte
der Khalifen, II. 216. n. 3.)

على أنه لا يبعد أن يكون الأمويون قد اتخذوا البياض شعاراً لهم بعد أن قامت الدولة العباسية ،
وبعد أن اتخذ الخلفاء العباسيون السواد شعاراً لهم (مقدمة ابن خلدون ج ٢ ص ٤٤) .
وقد اقتبس فون كريمر عبارة عن الأغانى (ج ٦ ص ١٤١) مؤداها أن الخليفة الوليد كان
يصلى في « ثياب بيض نظاف من ثياب الخلافة » وأن الأمويين كان شعارهم البياض . وعلى
الرغم من أن البياض هو رمز النظافة — على ما يظهر — فلدنيامن النصوص التاريخية ما يدل
على أن الأمويين لم يقتصرُوا على الثياب البيض . فقد كانت العمامة السوداء شعارهم الرسمي .
وأما أن السواد كان شعاراً للحزن والحداد فقد يكون ذلك صحيحاً بالنسبة إلى الملابس السوداء
(الملابس الرسمية في عهد العباسيين) ، لاسيما وأن الروايات التاريخية تؤيد ذلك

أما الألوية السوداء فلم تكن يوماً ما شارة للحداد . فقد اتخذ الحارث بن سريج اللواء الاسود
شعاراً له حين ثار على بني أمية سنة ١١٦ هـ ، وكذا بهلول الخارجي سنة ١١٩ هـ ، ثم أبو حمزة

الذى يخرج من المشرق ويزيل عرش بنى أمية (أنظر الكامل للبرد ص ٥٨٥ والطبرى ٢ : ١٩٢٩ وما يليها) .

على أن دعوته هذه لم تصادف شيئاً من النجاح . فقد ظلت الحكومة ، أوبالأحرى العرب اليمنية ، صاحبة النصر والظفر . بيد أن ذلك الأمل الذى كان الحارث أول من بعثه فى النفوس لم يخب بعد ، كما كان العامل الوحيد الذى جذب إلى الدعوة العباسية جميع هؤلاء الذين كانوا يشاطرون الحارث ميوله وآراءه السياسية . وليس بعيداً أن يكون الحارث بن سريج قد اعتمد فى دعوته هذه على هذا الحديث المشهور الذى رواه أبو داود « يخرج رجل من وراء النهر يقال له الحارث حراث على مقدمته رجل يقال له منصور يوطىء أو يمكن لآل محمد ، كما مكنت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجب على كل

الخارجى أيضاً : ١٢٨ (الطبرى ٢ : ١٥٧ ، ١٦٢٤ ، ١٩٨١ ابن الأثير ج ٥ ص ٢٨٥ صحيح مسلم ج ٢ ص ١٥٧) . على أن أحداً من هؤلاء لم يكن فى حداد على أحد من آل البيت . ونستطيع أن تبين السر الحقيقى فى اتخاذ اللواء الاسود من قصيدة الشاعر التى وجهها إلى الحارث بن سريج فى سنة ١١٧ هـ ، والتى نكتفى منها بهذا البيت :

ولا فارقوا الرايات سوداً على أهل الضلالة والتعدى

ومن هنا يتبين لنا أن هناك علاقة بين الالوية السود ومعاربة الضلالة (والمراد بها الضلالة على حسب ما فى القرآن) والعنوان (والمراد به الخروج على القانون الإلهى) . وهذا يبين لنا معنى هذه المسألة التى أشار إليها هماكر (Hamaker) وهى أن الالوية المذكورة تمثل لواء الرسول الذى كان يحمله فى حروبه مع الكفار ذلك اللواء الذى انفقت جميع المصادر على أنه كان أسود (كتاب الخراج لآبى يوسف ص ١١٩ فتوح البلدان للبلاذرى ص ١١٢ البغوي ج ٢ ص ١٥١)

ولهذا كان الخوارج ينفثون الالوية السود فى حروبهم مع الامويين كما كان يفعل ابن سريج . وكان هذا اللواء الاسود يذكّرهم بعهد الرسول ، ذلك العهد الذى كانوا يعتبرونه المثل الأعلى للكمال .

ومن ثم كان لزاماً على من يبشر بالمهدى الامام الحق ، أو بعبارة أدق الامام الذى يزول على يديه سلطان بنى أمية ، أن يتخذ تلك الالوية السود شعاراً له . وفى سنة ١٢٨ هـ أدعى الحارث بن سريج أنه ذلك المهدى المنتظر (الطبرى ٢ : ١٩١٩)

نصره . ولم يلبث هذا الحديث أن أصبح نبوءة من تلك النبوءات التي وردت في كتب التسيكن (١)

وقد وصف لنا المسعودي سبب سقوط الدولة الأموية قال : « سئل بعض شيوخ بني أمية ومحصليها عقيب زوال الملك عنهم إلى بني العباس : ما كان سبب زوال ملككم ؟ قال : انا شغلنا ببلداتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا . فظلمنا رعيتنا فيئسوا من إنصافنا وتمنوا الراحة منا ، وتحومل على أهل خراجنا فتخلوا غنا ، وخربت ضياعنا فخلت بيوت أموالنا ، ووثقنا بوزرائنا فأثروا مرافقهم على منافعنا وامضوا أمورنا دوننا أخفوا علمها عنا . وتأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا ، واستدعاهم أعادينا فتظافروا معهم على حربنا ، وطلبنا أعداؤنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا . وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكتنا » (٢)

عبارة المسعودي عن
سبب سقوط الدولة
الأموية

انتقال الخلافة إلى العباسيين

دامت الخلافة الأموية بعد وفاة الوليد بن عبد الملك (٩٦ هـ) ستاً وثلاثين سنة أصبحت فيها على شفا جرف هار ؛ إذ بدأ دعاة بني هاشم من ولد العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم يعملون في الخفاء لنشر الدعوة العباسية . وبما ساعد على نجاح هذه الدعوة عوامل الضعف التي تغلغت إذ ذاك في جسم الدولة الأموية

كيف انتقل مو الخبر من آل علي إلى بني العباس ؟

أثار قتل الحسين حماسة المسلمين ، فتوحدت صفوف الشيعة وعملوا على الأخذ بثأره ، وزادت الدعوة لآل علي قوة واشتد العداء بين الأمويين

(١) كتاب السنن لأبي داود ج ٢ ص ١٣٥

(٢) مروج الذهب للمسعودي ج ٢ ص ١٩٤

والعلويين عن ذى قبل ؛ وقامت الثورات في وجه الأمويين في العراق وخراسان ومصر .

على أن الأمويين ، وان استطاعوا القضاء على ثورات العلويين ، فقد زاد ذلك في سخط المسلمين - وبخاصة الموالي من الفرس الذين تاقوا إلى الخلاص من نير العرب - لبنى أمية لما ارتكبوه من وسائل الشدة والعنف في جميع تلك الثورات ، وعطفوا على بنى هاشم ولا سيما حين قتل يزيد ثم ابنه يحيى .

تأثر الولايات
الاسلامية بالديانات
الأخرى

وقد تأثر أهل الولايات الاسلامية في الشرق بالديانات التي كانت قبل الاسلام ، وبخاصة في بلاد الفرس حيث كانوا يعبدون الملوك ؛ فاعتقدوا بامامة آل البيت ولقبوهم بالمهديين (جمع مهدي ومعناه الهادي إلى الطريق المستقيم) ، وظهر الاعتقاد بأنه ليس ثمة صلاح لهذه الأمة إلا على يد أحد الأئمة من آل البيت . وقد ظهر بين الشيعة طائفة من الغلاة اعتقدوا بقداسة آل البيت ؛ وكان العراق مهد الدعوة الهاشمية . وقد حدثت حادثة في تاريخ الشيعة هي انتقال حق الخلافة من بيت علي إلى بيت العباس على يد أبي هاشم بن محمد بن الحنفية ، وهو ما يمكن أن نطلق عليه « ميراث الكيسانية » .

وفي سنة ٩٨ هـ (٧١٦ م) استدعى سليمان بن عبد الملك أبا هاشم عميد الشيعة الكيسانية إلى دمشق حيث أكرم وفادته . بيد أن هذا الخليفة دبر موته - على ما قيل - لما رآه من ذلافة لسانه وفكاهته وشخصيته الجذابة ؛ فخاف أن يدعو إلى نفسه ويحد من مواهبه أكبر معين على نجاحه ؛ ففس له من قعد له على طريق الحيلة بلبن مسموم ، وتلطف له حتى سقاه منه وهو في طريقه إلى إقليم الشراة ، حيث كان يقيم محمد

ابن علي بن عبد الله بن العباس في الحميمة ، وهي قرية صغيرة إلى الجنوب من البحر الميت على مقربة من العقبة .

وفاة أبي هاشم

وقد قيل إن أبا هاشم لما أحس بدنوا أجله ، عرج على محمد بن علي العباسي وأفضى إليه بالدعوة وأسرارها ، وأمه بكاتب يسلمها إلى داعي دعائه في الكوفة وغيره من الدعاة ، ونزل له عن حقه في الإمامة ، وأوصى بأن تكون من بعده لابنه إبراهيم بن محمد الملقب بالامام ، وأن يبدأ بث الدعوة عند تمام المائة سنة للهجرة (٨١٧ م) . ولقد أورد لنا المقرئ في مخطوطه « المقفى الكبير » أن أبا هاشم قال لمحمد بن علي عند ما أفضى إليه بسر الدعوة : « هذا أمر أنت أول من يقوم به ، ولولئك آخره » . (١) وبهذا تحول حق الإمامة من بيت علي إلى بيت العباس بمقتضى وصية أبي هاشم .

على أن أبا الحسن النوبختي قد أورد لنا في كتابه فرق الشيعة عبارة يستدل منها أن رجلا من آل علي قد ادعى أن أبا هاشم قد بايعه ، وأن العلويين والعباسيين اختصموا إلى رجل قضى لمحمد بن علي . قال النوبختي : « وفرقة قالت : أوصى أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية إلى عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب . الخارج بالكوفة . . . وهو يومئذ غلام صغير ، فدفع الوصية إلى صالح بن مدرك وأمره أن يحفظها حتى يبلغ عبد الله بن معاوية فيدفعها إليه . فلما بلغ دفعها إليه . فهو الامام وهو العالم بكل شيء ، حتى غلوا فيه وقالوا إن الله عز وجل نور ، وهو في عبد الله بن معاوية . وهؤلاء أصحاب عبد الله بن الحارث . فهم يسمون الحارثية . وكان ابن الحارث هذا من أهل المدائن . فهم كلهم غلاة يقولون : من عرف

(١) الفاطميون في مصر للدولف ص ٣٨ — ٤١

(٢) المسعودي : كتاب التنبيه والاشراف (طبعة دي غويه) ج ٨ ص ٣٣٨

الامام فليصنع ماشاء... وفرقة قالت: أوصى عبد الله بن محمد بن الحنفية الى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، لانه مات عنده بأرض الشراة بالشام، وأنه دفع اليه الوصية الى أبيه علي ابن عبد الله بن العباس، وذلك أن محمد بن علي كان صغيرا عند وفاة أبي هاشم، وأمره أن يدفعها اليه إذا بلغ. فلما بلغ دفعها اليه. فهو الامام، وهو الله عز وجل، وهو العالم بكل شيء. فمن عرفه فليصنع ماشاء. واختصم أصحاب عبد الله بن معاوية وأصحاب محمد بن علي في وصية أبي هاشم، فرفضوا برجل منهم يكنى أبا رباح - وكان من رؤسائهم وعلمائهم - فشهد أن أبا هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية أوصى الى محمد بن علي ابن العباس. فراجع جل أصحاب عبد الله بن معاوية إلى القول بإمامة محمد بن علي. (١)

محمد بن علي العباسي
يقوم بالدعوة

وقد أجمع المؤرخون على أنه عند تمام المائة سنة للهجرة، قام الامام محمد بن علي بتنفيذ وصية أبي هاشم، فأرسل إلى الدعاة يكشف لهم عن السياسة التي ينبغي أن يسيروا عليها. وهنا نتساءل: ما الذي حدا بأبي هاشم إلى أن يحول الخلافة إلى بني عمه، ويترك بني أبيه من العلويين مع كثرتهم وعلو شرفهم؟

وإذا فرضنا أنه ترك أبناء أبيه لأنه لم يكن حوله حينذاك أحد منهم، فلماذا لم يوص إلى أحد من بني أبيه، ويسلم وصيته إلى أحد أولاد عمه ليوصلها إليه؟ ولعل ذلك لما كان هناك من اختلاف بين مبادئ الكيسانية شيعة أبي هاشم، والامامية شيعة أولاد فاطمة.

اختيار خراسان
لنشر الدعوة

ولقد أدرك الامام شعور أهالي الولايات الاسلامية المختلفة

وميولهم ، كما نتبين ذلك من وصفه الدقيق في إحدى خطبه للأهواء والميول التي كانت سائدة بين أهالي الولايات في ذلك الحين :

« أما الكوفة وسوادها فشيعة على ، وأما البصرة فعثمانية تدين بالكف ، وأما الجزيرة فحرورية صادقة ، وأعراب كأعلاج ، ومسلمون في أخلاق النصارى ؛ وأما أهل الشام فلا يعرفون غير معاوية وطاعة بنى أمية ، وعداوة راسخة وجهل متراكم . وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهم أبوبكر وعمر . ولكن عليكم بخراسان ، فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر ، وهناك صدور سليمة ، وقلوب فارغة ، لم تنقسمها الأهواء ، ولم تنوزعها النحل ، ولم يقدح فيها فساد . وهم جند لهم أبدان وأجسام ، ومناكب وكواهل وهامات ، ولحى وشوارب وأصوات هائلة ، ولغات نفمة نخرج من أجسام منكرة . وبعد فاني أتفألم إلى المشرق ، وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق . » (١)

ويتبين لنا أيضا من تلك الخطبة أنه كان من بين الأسباب التي حملت محمد بن على على اختيار خراسان هو ما يعلمه من أن قلوب أهلها لم تتأثر بعد بالاختلافات الدينية . على أن هناك سببا آخر قد يكون أبعد أثرا ، وإن لم يعلق عليه الامام أهمية كبيرة في خطبته : ذلك هو تألم الخراسانيين من بنى أمية . ولقد صدق فان فلوتن إذ يقول تعليقا على خطبة الامام : ولكن هناك أمرا آخر - وإن لم يدل عليه كلام الامام - قد جعل اختيار خراسان بوجه خاص اختيارا موقفا ، ذلك هو أن الخراسانيين الأقوياء الأشداء كانوا يقاسون أسوأ صنوف الاستبداد من نير الأمويين . ولا شك في أن هذا الأمر قد سهل على العباسيين القيام بنشر دعوتهم . (٢)

(١) أحسن المقدسى : التقاسيم في معرفة الأقاليم (طبعة دى غوبه) ج ٣ ص ٢٩٣ — ٢٩٤

(٢) فان فلوتن كتاب السيادة العربية والشيعة ترجمة المؤلف ص ٩٣-٩٤

أنفذ محمد بن علي دعائه من الحيمة : فوجه ميسرة إلى العراق ،
وكذلك وجه ثلاثة من الدعاة أحدهم أبو عكرمة السراج ^(١) ، وعهد
إليهم بنشر الدعوة في خراسان لمحمد بن علي بن عبد الله بن العباس
وآل بيته . وهناك أخذ هؤلاء الدعاة ينشرون الدعوة للعباسيين تحت
طلي الخفاء ، وظاهر أمرهم التجارة أو الحج .

واختار أبو عكرمة من الدعاة سبعين رجلا ، من بينهم اثنا عشر
نقيبا ؛ فشمّر السكل عن ساعد الجد في بث الدعوة لبني العباس ، ولم
ييالوا بما لا قوه من ضرب و صلب وقتل وتشريد . وفي سنة
١٠٥ هـ (٧٢٣ م) مات ميسرة ، خلفه رجل ذو بأس وجاه هو
بُكَيْر بن ماهان ^(٢)

وإنه وإن كان هناك من الأدلة ما يثبت صحة قول الإمام بأن
قلوب الخراسانيين لم تزعزعها الاختلافات الدينية ، فإنه ينبغي ألا يعزب
عن البال وجود فريق يميل إلى العلويين بنوع خاص . ولا غرو فقد
هددت جهود غالب ، وهو داع علوي متطرف ، نجاح الدعوة لبني
العباس ، وأدت إلى تغيير يذكّر في نص تلك الدعوة .

ذلك أنه لما وصلت أخبار غالب إلى مسامع الامام ، بعث هذا
إلى خراسان سنة ١٠٦ هـ (٧٢٤ م) بزياد أبي محمد مولى بني حمدان ،
وأوصاه أن يتجنب غالبا ما استطاع . فلما سمع غالب بوصول زياد
أتاه في مرو ، وقامت بين الرجلين مناظرة عدائية : هذا يدتصر لبیت
العباس ، وذاك لبیت علي .

لذلك لانعجب اذا دعا الدعاة بعد ذلك الحين الى الرضا من آل

(١) الطبري (طبعة دي غويه) ٢ : ١٣٥٨ — ١٣٨٨

(٢) الدينوري : الاخبار الطوال ص ٣٣٦ . الطبري ٢ : ١٣٦٧

محمد ، وذلك لما كان يراه العباسيون من شمول هذا اللفظ لأولاد علي والعباس . أضف الى ذلك ما كان فيه من عدم تعيين المدعو اليه حتى لا يقتله الأمويون كما فعلوا بآبراهيم الإمام ، ولم يكن يعلم بشخص المدعو له إلا النقباء وخاصة الدعاة ؛ وبذلك تسنى للعباسيين أن يوجهوا الدعوة اليهم تحت طي السكتان (١) .

وقد قدر للعباسيين الفوز من وراء هذه المجهودات التي بذلها دعائهم ، والتي أدت إلى انضمام كثيرين من ذوى الرأى والجاه اليهم ، مثل سليمان بن كثير ، وأبى مسلم الخراسانى . حتى إذا مامت الامام محمد ابن على سنة ١٢٥ هـ كانت الدعوة العباسية قد قطعت شوطا عظيما في سبيل النجاح . وفي عهد ابنه وخلفه إبراهيم دارت رحى الحرب بين الفريقين ، بمعنى أن النزاع بين بنى أمية وبنى العباس دخل في طور جديد ، هو دور العمل ، وذلك في سنة ١٢٧ هـ :

ولما تسلم أبو مسلم الخراسانى مقاليد الدعوة العباسية في خراسان سنة ١٢٨ هـ ، عمل على تفريق كلمة العرب في هذه البلاد . فأرسل نصر ابن سيار إلى مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية يكشف له عن قوة أبى مسلم وضعف جند خراسان ويستمدده ، وختم كتابه بهذه الآيات

أَرَى بَيْنَ الرَّمَادِ وَمِضْ جَمْرٍ فَأَحْجِ بِأَنْ يَكُونَ لَهُ ضَرَامُ
فَإِنَّ التَّارَ بِالْعُودَيْنِ تُنْذِرُ وَإِنَّ الْحَرْبَ أَوَّلُهَا الْكَلَامُ
فَقُلْتُ مِنَ التَّعَجُّبِ لَيْتَ شِعْرِي أَأَيْقَظُ أُمِّيَّةً أَمْ نِيَامُ

فأجابه مروان بقوله : يرى الشاهد ما لا يراه الغائب ، وأمره بأن يحفظ ناحيته بمجده .

انضمام أبى مسلم
الى الدعوة

فلما ورد عليه الخطاب قال لأصحابه : أما صاحبكم (يعنى مروان)

فلا نصر عنده . كتب بعد ذلك نصر إلى يزيد بن عمر بن هبيرة وإلى العراق كتابا يطلب فيه المعونة والمدد ، وختمه بهذه الآيات :
أبلغ يزيد ، وخير القول أصدقُه وقد تبينت أن لا خير في الكذب
أن خراسان أرضٌ قد رأيتُ بها بيضا لو افرخ قد حُدَّتْ بالعجب
فراخُ عامين إلا أنها كبرت لما يطرن وقد سُربلن بالزغب
فإن يطرن ولم يُحتملْ لهنَّ بها يُنامينَ إيرانَ حربٍ أيما هلب
فرد عليه يزيد بما لم يشفِ علة ؛ فيأس نصر من النصر وقال :
« لا غلبة إلا بكثرة وليس عندي رجل » (١)

قيام الدولة العباسية

في الخامس عشر من شهر رمضان سنة ١٢٩ هـ ، نشر أبو مسلم الخراساني الذي تولى أمر الدعوة العباسية بعد سليمان بن كثير ، اللواء الأسرد على ربوع سفيدنج ، وهي قرية صغيرة من ضواحي مرو ؛ وقد كتب عليه (أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَأْتِمُهُمْ طَائِفُوا) (٢)
وقد ضم أبو مسلم الخراساني إلى لقبه « صاحب الألوية السود » لقباً آخر ليس بأقل أهمية من ذلك ، لما يدل عليه من شرف الانتساب إلى بيت النبي صلى الله عليه وسلم .

ولم تسكن الحالة في خراسان لتساعد على انتشار الثورة بمثل هذه السرعة . نعم ! كان الموالي من سكان القرى يفدون من كل جانب وراء الدعوة العباسيين ، كما ثار المسودة في جميع أنحاء بلاد خراسان : في آسا ، وبلخ ، وهراة ، ومرو رود ، وفي الجملة في كل ناحيه قامت فيها الدعوة لبني العباس . ولكن بُعد الشقة بين هذه النواحي قد حال دون

(١) الطبري ٢ : ١٩٧٣ — ١٩٧٤ المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ١٤٥ — ١٤٦

أنظر كتاب « الفاطميون في مصر » للؤلّف ص ٣٨ — ٤٣

(٢) سورة الحج آية ٣٩ .

توحيد وجهة التأثيرين . أضعف إلى ذلك أن العرب - حتى من خرج منهم على الحكومة الأموية وشق عصا طاعتها - قد أبوا أن يشتركوا أول الأمر مع أولئك الموالى ممن لا نسب لهم . ولا غرو فقد كانوا يعتبرونهم أعداء ألداء للإسلام ؛ كما كان يقول عنهم نصر بن سيار أنهم أمواتٌ في نظر العرب احتقارا لهم وسخرية بهم .

أسباب قوة المسودة وترجع قوة المسودة إلى حماسهم الشديد وإخلاصهم للدعوة لآل البيت ، إذ كانوا يعتبرونها رمز أمانهم السياسية . وكان صفوة جنس أبي مسلم من الكفّية أو أهل الكف ، وهم الذين كانوا يأخذون أرزاقهم من القمح بالكفة (الحفنة)

أبو مسلم يحول دون اتحاد العرب المنقسمين بخراسان
أما العرب فكانت تعوزهم العاطفة الوطنية ؛ وقد حاولوا غير مرة أن يتحدوا ضد هذا العدو المشترك لولا أن حال أبو مسلم بدسائسه دون ذلك . ولا غرو فقد كان كلٌّ لا يعنيه سوى مصلحته الخاصة أو بالأحرى مصلحة قبيلته . وأما الإخلاص للعرش الأموي فلم يعن به أحد ، حتى إن اليمانية من أهل مرو - إذا صح لنا أن نأخذ بما ذكره اليعقوبي - قد انضموا إلى الشيعة واعتنقوا مبادئهم . ولم يبق على ولأته للبيت الأموي في ذلك العصر الممتلئ بالأنانية والخيانة والغدر إلا نصر ابن سيار . وقد ذكرنا أنه ألح بدون جدوى في طلب المدد من الخليفة . ولا غرو فقد كان مروان الثاني في حاجة شديدة إلى آخر جندي من جنوده ؛ ولذلك رد عليه الخليفة بقوله : « احفظ ناحيتك بجهدك » ، فدهش نصر وقال « أيقاظ أمية أم نيام ؟ »

وقد عرف أبو مسلم بما أوتيته من الدهاء والمهارة الحربية ، كيف يستفيد من ذلك الانقسام الذي ساد في هذه البلاد ؛ فبذر بذور الشقاق بين جنود بني أمية . وبذلك استطاع أن يربط بجنده سبعة أشهر بظاهر مدينة مرو ، استمال خلالها اليمانيين وضمهم إلى صفوفه ، وتمكن

من الاستيلاء على خراسان دون أن يعرض جيشه الصغير للهزيمة . ولم يكذب له النفوذ في هذه البلاد حتى عمل على التخلص من شيوخ القبائل الذين كانوا ينازعونه السيادة ، فقتلهم عن آخرهم .

عندئذ عمت الثورة وانتهت بزوال الدولة الأموية . وإلى القارىء .
 ما ذكره أبو حنيفة الدينورى (١) عنه يتبين منه حال الأمة العربية في ذلك الحين قال : « وانجفل الناس على أبى مسلم : من هراة ، وجوشنج ، ومروالروز ، والطالقان ، ومرو ، ونسا ، وأبيورد ، وطوس ، وسرخس ، وبلخ ، والصاغنيان ، وطخارستان ، وختلان ، وكش ، ونسف ، فتوافوا جميعاً مسودى الثياب ، وقد سودوا أنصاف الخشب التى كانت معهم وسموها كافر كوبات (٢) ، وأقبلوا فرساناً وحملاً يسوقون حميرهم ويزجرونها هراً مروان ، يسمونها لمروان بن محمد ، وكانوا زهاء مائة ألف رجل »
 يقول فان فلوتن « (٣) : ولن نعرض هنا لوصف تلك الدولة الأموية في ساعات احتضارها ، ولا لتلك الانتصارات المتتابعة للجيوش الخراسانية . على أننا قد ندهش لتلك الهزائم التى أنزلتها جند العباسيين بأمر القواد من الأمويين ، لو لم نعلم أن مقاومة تلك الأمة المحتضرة لم تصدر عن وطنية صادقة أو قوة معنوية صحيحة ، تلك القوة التى طالما يثيرها اليأس فى قلوب الجند فى ساعتهم الأخيرة ، ولا عن أية عاطفة قوامها الشعور بوجود نظام ثابت . فضلاً عن أن الظفر الذى أحرزته الجيوش العباسية - ذلك الظفر الذى لم يكن إلا قضاء من الله باستئصال شأفة أولئك الأمويين وزوال دولتهم - قد أضعف ما بقى لديهم من الاستماتة فى الدفاع عن دولتهم . »

(١) الاخبار الطوال ص ٣٦٠

(٢) الاغانى ج ٥ ص ١٢٣

(٣) السيادة العربية والشيعية (ترجمة المؤلف) ص ١٢٩ — ١٣٠

هذه هي حال بني أمية في ذلك الحين وما كان يستولى على نفوسهم من يأس وقنوط .

انكشاف الامر :

ظل أمر العباسيين سرّاً لا يعلمه إلا النقباء من شيعتهم ، حتى وقع في يد مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية خطاب من إبراهيم الإمام الى أبي مسلم الخراساني يأمره فيه بقتل كل من يتكلم بالعربية بخراسان . فأدى هذا الحادث الى القبض على الإمام وسجنه وقتله ؛ فتولى أمر الدعوة أبو سلمة الخلال خليفة بكير بن ماهان وصهره . وبعد ذلك بسنتين أو يزيد حلت الهزيمة بابن هبيرة قائد الأمويين بظاهر الكوفة ، وأرغم على السير إلى واسط . فجاء أبو سلمة ونزل بجنده بمدينة الكوفة في أوائل سنة ١٣٢ هـ من غير أن يلقى مقاومة تذكر . وكان أبو العباس وأخوه أبو جعفر وغيرهما من العباسيين مختفين في هذه المدينة ، وقد هربوا إليها بعد قتل إبراهيم الإمام فاهتم بأمرهم أبو سلمة ، لكنه أبقاهم على ذلك عدة أسابيع ، فأثار هذا الأمر عوامل الريبة والشك في نفوس أشياعهم فأخرجوهم من مكمنهم (عن رضا من أبي سلمة طبعاً) ، وبايعوا أبا العباس ، لأن أمه كانت عربية - وكانت أم المنصور أم ولد - ولأنه أثر عن إبراهيم الإمام أنه أوصى إلى أخيه أبي العباس عند القبض عليه . هذا ويقول بعض المؤرخين إن أبا سلمة قصد إبقاء بني العباس على عزلتهم حتى تنجلي الحال في واسط التي كان يحتلها ابن هبيرة بجند كثيف من الأمويين ؛ ويقول البعض الآخر إن أبا سلمة أراد تحويل الامر إلى العلويين بعد أن سبر حال العباسيين

وفي أواخر سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) رفرफ العلم الأسو وهو

شعار العباسيين فوق حصون دمشق ، بعد أن دالت فيها دولة
الأمويين (١) .

ولما صارت الخلافة إلى السفاح ولي عمه عبد الله بن علي لمقاتلة
الخليفة الأموي (مروان الثاني) فتبعه حتى أوصله إلى الموصل ، فهزم
مروان وفر إلى حران ومنها رحل إلى دمشق وفلسطين وسار في طريقه
حتى أتى الفسطاط ؛ فكتب العباس إلى عمه بتولية صالح بن علي أمر
تتبع مروان وقتله ، فسار حتى لحقه في قرية «بوصير» . وهناك قتل
مروان واحتز رأسه ، وأرسل إلى السفاح في الكوفة فمسجد شكراً لله
على أخذه الثأر لأخيه إبراهيم الإمام . وانتهى بذلك سلطان بني أمية
وتأسست الدولة العباسية على يد أبي العباس السفاح .

الباب الخامس

الحضارة العربية

في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين

النظم الإسلامية

النظام السياسي : المختصرة :

« الخلافة لغة مصدر خلف . يقال « خلفه خلافة » ، كان خليفته وبقى بعده . والخليفة السلطان الأعظم والجمع خلائف وخلفاء (١) » .
فالخلافة في الأصل موضوعة لكون الشخص خلفاً لأحد ؛ ومن ثم سمي من يخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في اجراء الأحكام الشرعية خليفة ؛ ويسمى أيضاً إماماً . فأما تسميته إماماً فتشبيهاً بإمام الصلاة في اتباعه والاقتداء به ، ولهذا يقال الإمامة الكبرى . وأما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبي في أمته ؛ فيقال : خليفة باطلاق ، وخليفة رسول الله . واختلف في تسميته خليفة الله ؛ فأجازه بعضهم اقتباساً من الخلافة العامة التي للآدميين في قوله تعالى (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) ، وقوله (جَعَلَكُمْ خُلَافَافٍ فِي الْأَرْضِ) ومنع الجمهور منه . وقد نهى أبو بكر عنه لما دُعي به ، وقال : « لست خليفة الله ، ولكني خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، ولأن الاستخلاف إنما هو في حق الغائب ، وأما الحاضر فلا (٢) .

أما الخلافة في الاصطلاح : فهي رياسة عامة في أمور الدين والدنيا نيابة عن النبي صلى الله عليه وسلم . يقول ابن خلدون في ذلك : « والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الآخروية والدينية الراجعة إليها ، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع الى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به (٣) »

(١) القاموس المحيط

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٦٦

(٣) شرحه ص ١٦٦

وان منزلة الخليفة من الأمة كمنزلة الرسول صلى الله عليه وسلم من المؤمنين ، له عليهم الولاية العامة والطاعة التامة ، وله حق القيام على دينهم ؛ فيقيم فيهم حدوده ، وينفذ شرائعه . وله بالأولى حق القيام على شؤون دنياهم أيضا ، بيده وحده زمام الأمة . فكل ولاية مستمدة منه ، وكل خطة دينية أو دنيوية فهي متفرعة عن منصبه . فهو الحاكم الزمى وهو الحاكم الروحى ؛ وهذا بخلاف مانجده فى الغرب فى العصور الوسطى .

جمع الخليفة بين
السلطتين الزمنية
والدينية ✓

وقد ذكر السير توماس أرنولد فى كتابه « الخلافة » ^(١) أوجه الشبه والاختلاف بين هذين النظامين اللذين قاما خلال العصور الوسطى : وهما الخلافة فى الشرق والامبراطورية الرومانية المقدسة فى الغرب فقال : إن كلا النظامين يستند على قوة الدين : فكلاهما دين عالمى يعمل على ضم العالم تحت لوائه . بيد أن الامبراطورية المقدسة لم تكن مستحدثة الوجود ، بل كانت استمراراً لامبراطورية وثنية سابقة ، حتى إن الامبراطور شرلمان تلقب بألقاب الأباطرة الوثنيين ، كما نجد فى الغرب حاكمين أحدهما زمنى وهو الامبراطور ، والآخر روحى وهو البابا . أما الخلافة فانها لم تقم على نظام سياسى سابق ، بل هى نظام مستحدث وليد الظروف والأحوال التى نشأت على أثر ظهور الاسلام وبسط سيادة العرب على بلاد فارس ومعظم بلاد الدولة الرومانية الشرقية . والخليفة حاكم سياسى ، بمعنى أنه حاكم واحد يجمع بين السلطتين الزمنية والروحية ، ولا تتعدى وظيفته الدينية المحافظة على الدين . ويستطيع

الخلافة والبابوية

The Caliphate, pp. 9—18 (١)

Henry Osborn Taylor, The Mediaeval Mind, vol. II, p. 303

Goldziher, Muhammedanische Studien, vol. II. p. 19 seq.

باعتباره حامى الدين أن يعلن الحرب على الكفار ، ويعاقب الخارجين على الدين، ويؤم الناس فى الصلاة، ويلقى خطبة الجمعة ؛ بخلاف البابا فإنه يعتبر قسيساً أعظم يستطيع أن يغفر خطايا المذنبين وهو المرجع الأعلى فى الأمور الدينية .

شروط الخلافة

والخلافة ضربان : اختيارية وقهرية . فالاختيارية (١) هى التى تكون نتيجة انتخاب الأمة ويبحثها برضاها ويشترط فيمن يكون مستحقاً لها أن يكون جامعاً للصفات المطلوبة والشروط اللازمة لها . وهى - كما ذكر الماوردى وغيره - أربعة : العلم ، العدالة ، والكفاية ، وسلامة الحواس والأعضاء مما يؤثر فى رأى والعمل . واختلف فى شرط خامس هو النسب القرشى . والقهرية هى التى نالها صاحبها بالغلب والقوة ويرى الفقهاء انعقادها ولزوم الطاعة لصاحبها .

أما العلم فالمراد به العلم المؤدى الى الاجتهاد فى النوازل والأحكام . وأما العدالة فالمراد بها ههنا أن يكون الخليفة صاحب استقامة فى السيرة والسلوك ، وأن يكون متجنباً للمعاصى . يقول ابن خلدون فى ذلك : « ولا خلاف فى انتفاء العدالة فيه بفسق الجوارح من ارتكاب المحظورات وأمثالها . وفى انتفائها بالبدع الاعتقادية خلاف (٢) »

والمراد بالكفاية ، أن يكون الخليفة قادراً على إقامة الحدود ، بصيراً بالحروب ، كفيلاً بحمل الناس عليها ، صاحب رأى وتدير .

أما قرشية النسب ، فالمراد بها أن يكون الخليفة من قبيلة قريش ، بدليل إجماع كثير من الصحابة يوم السقيفة (٣) على ذلك ، واحتجاج قريش على الأنصار لما هموا يومئذ ببيعة سعد بن عباد

(١) تحرير الأحكام فى تدير أهل الاسلام ليدر الدين بن جماعة المنشور بمجلة Islamica الألمانية العدد الرابع لسنة ١٩٣٤ (الأحكام السلطانية ص ٤ مقدمة ابن خلدون ص ١٥٢)

(٢) ص ١٥٢ شرحه

(٣) هى ظلة كانت بالقرب من دار سعد بن عباد يجتمعون فيها : وكانت له الرئاسة

بقوله صلى الله عليه وسلم : « الأئمة من قريش ، وبأن النبي صلى الله عليه وسلم أوصانا بأن نحسن إلى محسنكم وتتجاوز عن مسيئكم ، ولو كانت الامارة فيكم لم تكن الوصية بكم . فحاجوا الأنصار حتى عدلوا عما هموا به من بيعة سعد . وثبت في الصحيح أيضا : « لا يزال هذا الأمر في هذا الحى من قريش » ، كما أثر عن النبي أنه قال : « الملك في قريش والقضاء في الأنصار والأذان في الحبشة » ، كما قال « الخلافة في قريش والحكم في الأنصار والدعوة في الحبشة » . على أن أكثر هذه الأحاديث مبثورة أو مدسوسة على الرسول . فقد ذكر السيوطي (١) أن الرسول قال « الأئمة من قريش ما حكموا فعدلوا ، ووعدوا فوفوا ، واسترحوا فرحموا » ، مما يدل على أن الإمامة في قريش إذا استوفوا هذه الشروط . على أن هناك أيضا من الأحاديث النبوية ما يبيح إطلاق الخلافة إطلاقا وعدم قصرها على قريش . فقد أثر عن الرسول أنه قال : « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة »

ابن خلدون والشيعة ولا يتفق ابن خلدون (٢) مع ما ذهب إليه الشيعة (٣) من أن الخلافة ركن من أركان الدين ، وأن تعيين الإمام واجب بدون الرجوع إلى الأئمة ، كما لا يسلم برأى الخوارج وهم الجمهوريون الذين كانوا يقولون باختيار الخليفة أنى كانت الطبقة التي ينتمون إليها . فيرى وجوب استناد الخلافة على العصية ، ويقول : إذا كان المسلمون قد خصوا

الخلافة والعصية

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٥٣ - ١٥٤

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٦

(٣) يقول عبد الغنى سنى بك في كتابه « الخلافة وسلطة الأمة » ، (ص ٢٠) إن الخوارج وأكثر علماء المعتزلة لا يسلمون بهذه النظرية وهي أن الخليفة من قريش ، ويقولون إنه لا دخل للنسب في أمر يعود على الأمة كـالخلافة . ويظهر لنا أنه أخذ هذا الرأي عن السعوى (مروج الذهب ج ٢ ص ١٩١ - ١٩٢) . وقد أفضنا الكلام عن ذلك فيما كتبناه في هذا الكتاب (ص ٥١٥ - ٥١٦) عن رأى المعتزلة في الإمامة وموافقهم الخوارج في هذا رأى .

قريباً بالخلافة ، فما ذلك إلا لأنها هي التي تستطيع سَوْق الناس
بعضا الغلب ، ولا تستطيع قبيلةٌ أخرى أن تفعل هذا ، تعترف لهم
العرب بالتقدم ولا ينكرون عليهم الرياسة فيهم . « ولكن مادام
القرشيون قد عجزوا عن حماية الدين وقيادة الأمة الإسلامية ، فيجب
أن تسند الخلافة إلى من يستطيع القيام بهذه المهمة . ويرى ابن خلدون
أن الخلافة الأولى مَثَلٌ أعلى ، وأنها قد تطورت وتحولت عما كانت
عليه في صدر الإسلام ، وأنه لم يكن بأس أن يختار المسلمون الخليفة
من أصحاب العصية أيا كانت جنسيتهم ، وذلك تمشياً مع مبدأ المساواة
الذي أقره الإسلام .

واليك ما يقوله ابن خلدون (١) في ذلك :

« إن الأحكام الشرعية كلها لا بد لها من مقاصد وحكم تشتمل عليها
وتشرع لأجلها . ونحن إذا بحثنا عن الحكمة في اشتراط النسب القرشي
ومقصد الشارع منه ، لم يقتصر فيه على التبرك بوصلة النبي صلى الله عليه
وسلم كما هو في المشهور ، وإن كانت تلك الوصلة موجودة والتبرك
بها حاصلًا . لكن التبرك ليس من المقاصد الشرعية كما علمت . فلا بد
إذن من المصاحبة في اشتراط النسب وهي المقصودة من مشروعيتها . وإذا
سبرنا وقسمنا ، لم نجد لها إلا اعتبار العصية التي تكون بها الحماية والمطالبة ،
ويرتفع الخلاف والفرقة بوجودها لصاحب المنصب ؛ فتسكن إليه الملة
وأهلها ، وينتظم حبل الالفة فيها ؛ وذلك أن قريباً كانوا عصبة مضر
وأصلهم وأهل الغلب منهم . وكان لهم على سائر مضر العزة بالكثرة
والعصية والشرف ؛ فكان سائر العرب يعترفون لهم بذلك ويستكينون
لغلبهم . فلو جعل الأمر في سواهم لتوقع افتراق الكلمة بمخالفتهم
وعدم انقيادها ، ولا يقدرون على دفعهم من قبائل مضر أن يرددهم عن

الخلاف ولا يحملهم على الكره؛ فتتفرق الجماعة وتختلف الكلمة. والشارع محذر من ذلك، حريص على اتفاقهم ورفع النزاع والشقاق بينهم لتحصل اللحمة والعصية وتحسن الحماية، بخلاف ما إذا كان الأمر في قریش لأنهم قادرون على سوق الناس بعصا الغلب إلى ما يراود منهم. فلا يخشى من أحد خلاف عليهم ولا فرقة، لأنهم كفيلون حينئذ يدفعونها ومنع الناس منها، فاشتراط نسبهم القرشي في هذا المنصب - وهم أهل العصية القوية - ليكون أبلغ في انتظام الملة واتفاق الكلمة. وإذا انتظمت كلمتهم انتظمت بانتظامها كلمة مضر أجمع، فأذن لهم سائر العرب، وانقادت الأمم سواهم إلى إحكام الملة، ووطأت جنودهم قاصية البلاد، كما وقع في أيام الفتوحات واستمر بعدها في الدولتين إلى أن اضمحل أمر الخلافة وتلاشت عصية العرب. ويعلم ما كان لقریش من الكثرة والتغلب على بطون مضر من مارس أخبار العرب وسيرهم وتفطن لذلك في أحوالهم»

طريقة انتخاب الخليفة :

انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى جوار ربه ولم يوص بالخلافة إلى أحد من ذوى قرباه أو غيرهم من الصحابة، بل ترك الأمر شورى للمسلمين من بعده. وبذلك أصبح للمسلمين الحرية في أن يختاروا من نظم الحكم ما يلائمهم. أحوالهم ويتمشى مع تطور حياتهم. وكل ما أثر عن الرسول في ذلك قوله «الأئمة من قریش» وقوله «اسمعوا وأطيعوا وإن تأمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زينة». وقد يكون ترك الرسول الأمر للمسلمين لما يعرفه من طبيعة النزاع (١)

Sir Thomas Arnold, the Caliphate, p. 190. (١)

Lammens, Le «Triumvirat» Abou Obaida. Mélanges de la Faculté Orientale, Beyrouth, tome iv. p. 113.

بين القبائل العربية التي كانت حديثة عهد بالاسلام ، فرأى أن يسيروا في هذا الأمر على ما يحبون ، وخاصة لأن الطبيعة العربية لا تعرف التوارث في الحياة السياسية ، إذ لم يكن هناك توارث في اختيار شيخ القبيلة » ، فرأى أن الأمر سيجرى على ما يلائم طبيعة العرب .

ولم ير المسلمون بداً من إقامة خليفة للنبي يقوم بنشر الدين ويدبر شئون المسلمين ، كما كانت الحال بالنسبة إلى شيخ القبيلة ، مع مراعاة ذلك الفارق الذي جدّ بظهور الاسلام وإدماج القبائل كلها تحت إمرة زعيم واحد . ولم يضع القرآن - وهو دستور الاسلام - نظاماً خاصاً للحكم ، بل اقتصر على وضع المبادئ العامة .

قام النزاع بين المسلمين على الخلافة على أثر وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وقبل دفنه . وذهب أهل المدينة في الخلافة ثلاثة مذاهب : فمنهم من كان يرى حصر الخلافة في قریش لأن العرب لا تدين إلا لها ، ولأن المهاجرين كانوا أول من آمن بالرسول وصبر على أذى المشركين من أهل مكة . أضف إلى ذلك أنهم قومه وعشيرته ؛ لذلك كانوا أولى بالخلافة من غيرهم (١) ؛ ومنهم من يرى قصرها على آل بيت النبي وجعلها في القرابة القريبة من الرسول . وكان أولى الناس بهذا الأمر العباس عم النبي (ويمتاز بأنه العاصب الوحيد للرسول) وابنا عمه علي وعقيل ، لولا قوله عليه الصلاة والسلام « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة » . على أن العباس لم يكن من السابقين إلى الاسلام ؛ فقد حضر غزوة بدر مع المشركين ، ولم يسلم إلا أخيراً . ويمتاز عليّ بسبقه إلى الاسلام ، وشهوده مشاهد الرسول ، وزواجه بابنته فاطمة .

ومنهم من كان يرى اختيار الخليفة من الأنصار الذين آووا الرسول ونصروه على عدوه حتى خضعت له جزيرة العرب ؛ وتوفى الرسول وهو عنهم راض .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٧٠

اجتمع الانصار في سقيفة بني ساعدة ورشحوا للأمر سعد بن عبادة ، وهو سيد الخزرج . فسمع بذلك بعض المهاجرين ، فمَجَّل إليهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح . وقام بين المهاجرين والانصار نقاش طويل (١) ، وأدلى كل فريق منهم بالحجة على أن هذا الامر له دون غيره . وقد انتهى هذا النقاش بأن بويع أبو بكر بالخلافة بفضل ما أوتيته عمر من المهارة والشجاعة (وتعرف هذه البيعة بالبيعة الخاصة) ، وأقر عامة المسلمين هذه البيعة في مجلس عام بمسجد الرسول (وتعرف بالبيعة العامة)

انتخاب أبي بكر

ويقول السير توماس أرنولد في كتابه الخلافة « : وقد لوحظ في انتخابه أبي بكر ما يلاحظ في انتخاب شيخ القبيلة العربية ، لانه انتخاب يتفق والروح العربية (٢) » . ويزعم بعضهم أنه انتخاب غير منظم ، إذ لم يتخذ المسلمون مكانا يجتمعون فيه ، ولم يؤذن الناس به من قبل ؛ إلا أن حرص الصحابة وكرهتهم أن يظلوا بعض يوم وليس لهم إمام يجمع كلمتهم هو الذي حملهم على المبادرة الى الاجتماع في سقيفتهم » . وكذلك كان حرص عمر في مبادرته ببيعة الخليفة .

رأى السير توماس
أرنولد في هذا
الانتخاب

نعم ! إنه قد أثر عن عمر أنه قال : « إنه بلغني أن قائلًا منكم يقول : لو قد مات أمير المؤمنين بايعت فلانا ، فلا يغرنَّ امرأ أن يقول : إن بيعة أبي بكر كانت فلتة . فقد كانت كذلك ، غير أن الله وقي شرها ، وليس منكم من تقطع اليه الاعناق مثل أبي بكر » (٣)

رأينا في هذه
البيعة

إن بيعة أبي بكر في نظرنا تتمشى مع نظام الشورى ، إذ قد حصل اجتماع يضم أصحاب رسول الله ، تبادلوا فيه الآراء وأقيمت

رأينا في هذا
الانتخاب

(١) الطبري (٣ ص ٢٠٧ - ٢١٠) وابن الأثير ج ٢ ص ١٢١ - ٢٢٤

(٢) The Caliphate, Sir Thomas Arnold, p. 20

(٣) الطبري ج ٢ ص ٢٠٠

الحجج ورجحت حجة على حجة . ونحن لانستطيع أن نتفق مع الذين يطعنون في هذا الانتخاب بقولهم إنه لم يعلن أن اجتماعا سيعقد للانتخاب ، وأنه لم يحضره اكثرية المهاجرين . فقد حضر هذا الاجتماع أكثر الصحابة بقطع النظر عن كونهم أنصاراً أو مهاجرين أو من هؤلاء . وهؤلاء . ويظهر أن الذين عابوا هذا الانتخاب - وبخاصة المحدثين من المؤرخين - أرادوا أن يقيسوا ما حدث منذ ألف وثلاثمائة وخمسين عاما بما يحدث الآن ، وهو قياس مع الفارق .

انتخاب عمر
ولى أبو بكر الخلافة وظل فيها عامين ونيفا . وقبل موته عين عمر خلفاً له (١) . وهنا أيضا تمشى الشورى وعدم التوريث مع الطبيعة العربية . وقد جعلت هذه السنة التى سنها أبو بكر الحرية للخليفة فى انتخاب من يخلفه من غير قيد ولا شرط . وهذه الطريقة تخلو من المخاطر ، إذ قد يخطئ الخليفة أو يحسن الظن بمن لا يحقق ظنه . فليس كل خليفة كأبى بكر ولا كل ولى عهد كعمر . ولا يستطيع أحد أن يطمئن إلى حسن نتيجة مثل هذه الطريقة لما فيها من احتمال الخطأ فى الاختيار على الأقل (٢) .

انتخاب عثمان
وقد تكون الطريقة فى رأينا صالحة ، لو وجدت البيئة الصالحة لها . ويزعم بعض المؤرخين أن هذه الطريقة ناقصة أيضا ، لأنها ضيقّت دائرة الناخبين إلى حد بعيد فجعلتهم ستة وأهملت جمهور المسلمين .

انتخاب على
انتخب عثمان ثم قامت الفتنة التى أدت إلى قتله وانتخب على ، واو أن انتخابه لم يكن عاما . فقد كان شوريا ، إذ لم يكن انتخابه وراثيا .

Sir Tomas Arnold, the Caliphate p. 20 (١)

Sir Tomas Arnold, The Caliphate, p. 21 (٢)

Caetani, Annali dell'Islam, vol, v. p. 48

(٣٦)

انتخاب الخلفاء
الراشدين

ونرى أن انتخاب الخلفاء الراشدين ، وإن كان انتخاباً غير منظم ، فقد كان في بيعتهم فكرة الشورى التي تتماشى مع الروح العربية ، وتبعد كل البعد عن النظام الوارثي . فإن قيل إنه لم يبين في الطريقة الأولى الذين يصح أن يرشحوا لهذا الأمر حتى يتخير الناس واحدا منهم ، فالجواب أن الأنصار رشحوا سعدا ورشح أبو بكر أبا عبيدة وعمر ، وسارع عمر إلى بيعته أبي بكر فبايعه الحاضرون ، ثم أقر هذه البيعة عامة المسلمين .

وكذلك الطريقة الثانية صحيحة . وإن قيل إنه ليس فيها ضمان لاختيار من يحبه الناس غالبا ويكون قادرا على حمايتهم ، وإنها أشبه بولاية العهد أو التعيين ، فنستطيع الرد على ذلك بأن أبا بكر لم يستبد برأيه ولم يرغم جماعة المسلمين على قبول خلافة عمر ، بل استشار الصحابة فيه فأجمعوا على حسن هذا الاختيار .

أما الثالثة فهي أقرب إلى الشورى من الثانية ، إذ قد تعدد المرشحون للخلافة . وكان للجمعيين بمسجد المدينة من الصحابة وغيرهم أثر كبير في توجيه الانتخاب وحصر الخلافة في واحد من اثنين : وهما عثمان وعلى . وكذلك بيعته على فقد بايعه أهل المدينة فصار خليفة بهذه المبايعة . وإن لم يبايعه جمهور المسلمين فقد بايعته الأكثرية . وأما قول من يقول إنه لم يبايعه إلا أهل المدينة ولم يؤخذ في ذلك رأى غيرهم من المسلمين في الخواضر الإسلامية ، فيمكن الرد على ذلك بأن مذهب مالك برمته مبنى على رأى أهل المدينة .

على أن انتقال السلطة إلى معاوية بن أبي سفيان قد غير نظام الشورى الذي كان أساس انتخاب الخلفاء الراشدين ، وتحولت الخلافة إلى ملك آل إلى صاحبه بقوة السيف والسياسة والمكائد . ولما ولى معاوية ابنه يزيد العهد ظهر نظام التوريث . وعلى هذا النظام سار

العباسيون (١) فحرموا المسلمين من هذا الحق الطبيعي - وهو الشورى - التي ألفها العرب والتي جاء بها القرآن وأيدها الأحاديث النبوية ، وغلوا في ذلك حتى أصبحوا يولون عهدهم اثنين - بل ثلاثا - على أنه ينبغي ألا يعزب عن أذهاننا أثر البيئة في تطور نظام البيعة . إذ أنه لما كانت المدينة حاضرة الدولة العربية في عهد الخلفاء الراشدين كانت السيادة والنفوذ للعنصر العربي . وقام ذلك النظام الذي يتفق وطبيعة العرب كما أسلفنا . فلما أصبحت دمشق حاضرة الدولة العربية تأثر العرب بالبيئة التي عاشوا فيها ، وغدا نظام الخلافة أشبه شيء بالنظام الملكي أو القيصري (٢) . ومن ثم زادت الصفة الزمنية في الخلافة .

ولما قامت الدولة العباسية على أكثاف الفرس تأثرت الخلافة بنظام الحكم عند آل ساسان من ملوك الفرس الذين كانوا موضع قداسة الشعب ، والذين كانوا يعتقدون أن حقهم في الملك مستمد من الله ، وأن لهم وحدهم حق حمل التاج الفارسي . لذلك ازدادت الصفة الروحية في الخلافة لاعتقاد الفرس بنظرية الحق الملكي المقدس the Divine Right of kings وغدا البلاط العباسي أشبه ببلاط الأكرسة ، فصار الخليفة شخصا مقدسا ، وأصبح ظل الله في الأرض ، وأخذ الناس يقبلون الأرض بين يديه .

كان أبو بكر يلقب بلقب خليفة رسول الله ، إذ كان يقوم مقام الرسول في حكم الدولة الإسلامية والمحافظة على الدين . وكان عمر يلقب بلقب خليفة خليفة رسول الله . ومنعا لتكرار لفظ خليفة بالنسبة إلى من

Sir Thomas Arnold, the Caliphate, p. 22 (١)

Sir Thomas Arnold, the Caliphate, pp. 24—25 (١)

يتولى أمور المسلمين من الخلفاء بعد أبي بكر ، أمر عمر أن يستبدل هذا اللفظ بعبارة « أمير المؤمنين »^(١) . فكان عمر أول من تلقب بهذا اللقب الذى كان يتمشى مع عهد الفتوح ، لما فى هذا اللفظ من معنى السلطتين الحرية والادارية . أما لفظ الامام فانه تتمثل فيه الصفة الدينية من حيث الامامة فى الصلاة التى ترتبط ارتباطا وثيقا بالدين . ولذا نرى الشيعة يستعملون هذا اللفظ لانهم يعتقدون أن الأفراد البيت العلوى الذين يرون أحقيتهم بالخلافة قوة إلهية مقدسة ، كما يعتقدون فى المهدي أى الهادى إلى الطريق المستقيم . وقد ورد لفظ إمام فى القرآن بمعنى الزعيم أو الدليل^(٢) أو الرئيس ، كما فى سورة الانبياء^(٣) (وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ) . وكان النبي يؤم الناس فى الصلاة باعتباره زعيما للمسلمين . ولسنا نجهل أن النبي فى مرضه الأخير قد ندب أبا بكر ليصلى بالناس بدلا منه . ولاغرو فقد كانت إمامة المسلمين فى الصلاة من أهم الأدلة التى استند اليها السنيون فى أحقية أبي بكر بالخلافة بعد النبي دون غيره من المسلمين . وقد أخذ الخلفاء بعد النبي يحافظون على وظيفة الامامة فى الصلاة لما تدل عليه من صفة الزعامة ، حتى لقد أصبحت الامامة فى الصلاة من أهم أعمال الولاية فى الأمصار الاسلامية .

وصفوة القول أن الخلفاء الأول كانوا يلقبون بألقاب ثلاثة :
الخليفة ، أمير المؤمنين ، الامام

يقول السير توماس أرنولد فى كتابه « الخلافة »^(٤) . إن الفقهاء صلة الخلافة بالدين

(١) الفاطميون فى مصر للدولف ص ١٣٢

Sir Thomas Arnold, the Caliphate, pp. 29—33 (٢)

(٣) ٧٣ : ٢١

Sir Thomas Arnold, the Caliphate, p. 42, (٤)

لما أخذوا يبحثون على سند لاستعمال الألقاب التي أشرنا إليها ، لم يوفقوا التوفيق كله ؛ فلم يظفروا بلفظ « إمام » بالمعنى الذى أرادوه . وعلى الرغم من أنهم قد ظفروا بلفظ « خليفة » ، فإن ذلك اللفظ لم يرد فى القرآن بالمعنى المقصود فى الاسلام . وقد بحث فقهاء المسلمين عن سند فى القرآن يبنون عليه نظريتهم فى الخلافة ، كما رجع رجال الدين المسيحى الى الانجيل للاهتمام الى الأغراض البابوية والامبراطورية . ومع أن لفظ خليفة قد ورد فى القرآن فإننا لانستطيع مع ذلك أن نستدل منه على وجود نظام سياسى لحكم المسلمين . ومن ذلك ماورد فى سورة (ص) ٣٨ : ٣٦ (يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) وفى سورة البقرة (١)

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ) ؟ والمقصود هنا آدم وكذلك استند الفقهاء على السنة . ويرى السير توماس أرنولد أن كثيراً من الأحاديث قد دس على النبي صلى الله عليه وسلم لتبرير ذلك النظام ، وأن فقهاء المسلمين يستندون على الحديث فى تأييد النظرية القائلة بأن الأئمة من قریش :

بدأ الفقهاء يبحثون مسألة الخلافة نظرياً فى عصر انحلال الدولة العباسية ، فلم يعد للخليفة العباسى من الأثر شىء سوى سلطته الدينية للأسباب التى أشرنا إليها . وفى طليعة هؤلاء الفقهاء أبو الحسن على الماوردى الذى ولد فى عهد الطائع ومات فى عهد القائم (سنة ٤٥٠ هـ ١٠٨٥ م) . على أننا — مع ذلك — نرى الماوردى يبحث الخلافة

بحثاً نظرياً لا يتفق وهذه الحوادث التي وقعت في عصره وقبل عصره
فإنهم يقول إن مركز الخليفة انتخابي ، كما نراه لا يتورع عن أن
يضع شروطاً لا بد من توافرها فيمن يرشح لهذا المنصب الخطير ،^(١)
ثم يسرد لنا تاريخ البيعة منذ أيام أبي بكر ، ويدلى بالحجة على أن
بيعة كل من الخلفاء الراشدين صحيحة شرعاً بمعنى أنه لا تتنفي منها صفة
الانتخاب^(٢) . ثم يسرد لنا الماوردي الشروط التي يجب مراعاتها في
أهل الإمامة وواجبات الخليفة الدينية والادارية والقضائية والحربية^(٣) .
ولا شك أن الماوردي يتجاهل في هذا البحث النظري حقيقة ما وصلت
اليه الخلافة في عهده .

البيروني والخلافة

على أن فقيها آخر من المعاصرين للماوردي ، وهو أبو الريحان
البيروني (٤٤١ هـ) ، قد أعلن في صراحة حقيقة الموقف ، وقال
إنه لم يبق للخليفة من الأمر شيء اللهم إلا ما كان متعلقاً بالدين
وحراسته ؛ كما تناول موضوع الخلافة كاتب متأخر عن الماوردي
والبيروني وهو « نظامي عروضي » ، فشرح مركز النبي ووظيفته ،
وذهب إلى ضرورة قيام من يخلفه بعد وفاته للمحافظة على الشريعة .
وهذا القائل يجب أن يكون خير المجتمع حتى يستقيم له الأمر . ويضيف
هذا الكاتب إلى ماتقدم أن الخليفة لا يستطيع أن ينشر نفوذه ولا
أن يدير دولته إدارة حازمة لا تساع رقعتها . ولا بد إذاً من أن يكون
له نواب يمثلونه في الولايات النائية^(٤) ؛ وكل من هؤلاء يكون ملسكاً

نظامي العروضي
والخلافة

(١) كتاب الأحكام السلطانية ص ٤ — ٦

(٢) الأحكام السلطانية ص ٨ — ١٢

(٣) شرحه ص ١٣ — ٢٠

(٤) هذا يذكرنا بذلك النظام الذي سته دقلد يانوس (٢٨٤ — ٣٠٥ م) من تقسيم
الدولة الرومانية إلى قسمين شرق وغربي ثم من جاء بعده من الإباطرة إلى أن جاء تيودوسيس ،
فانقسمت بعد وفاته إلى أربعة أقسام إلى كل قسم منها أحد أولاده الأربعة :

أو سلطاناً ينوب عن الخليفة . والخليفة نائب عن النبي ، والنبي نائب عن الله .

ومن الذين تكلموا عن الخلافة رجل من كبار المؤرخين والفقهاء وعلماء الاجتماع هو عبد الرحمن بن خلدون المتوفى (سنة ٨٠٨ هـ / ١٣٨٢ م) (١) الذي تكلم عن المجتمع البشرى ووقف على خصائصه وميوله . ويرى في السياسة الدينية الخير للبشر ، لأن هذه السياسة تؤدي إلى إسعاد المجتمع في جميع أحوالهم من عبادة ومعاملة حتى في الملك الذي هو طبيعي للاجتماع الانساني . ومما ذكره ابن خلدون يتضح لنا أن الحكومة الدينية هي خير أنواع الحكومات ، وأن غايتها هي المصلحة العامة ومنفعة المجتمع ، كما يرى أيضاً أن الحياة الدنيا يجب أن تتخذ وسيلة للحياة الآخرة . وأما القوانين التي تصدر من عند الله فهي خير ما يضمن سعادة الانسان في الدنيا والآخرة . والخلافة في نظر ابن خلدون وكالة عن النبي ، والخليفة يمثل النبي في السلطة السياسية والدينية ، ولا يمتاز عن سائر المسلمين إلا من حيث كونه منفذاً للأحكام وحارساً للدين .

وقد تناول موضوع الخلافة فريق من الفلاسفة والأخلاقين من الخلافة عند الفلاسفة والأخلاقين العرب ، ممن تأثروا بعلم اليونان وفلسفتهم ، وبخاصة فلسفة أرسطو وأفلاطون . ومن بين هؤلاء أبو نصر الفارابي الذي تأثر في كتابه « المدينة الفاضلة » بما كتبه أفلاطون في جمهوريته عن المثل الأعلى للدولة ، إذ يقول إن الحكومة الرشيدة يجب أن يتولاها رجل يعرف ماهية السعادة ، وينبغي أن يكون فاضلاً ذكياً عادلاً .

كذلك تعرض إخوان الصفا لمسألة الخلافة من الناحية الفلسفية ، فقالوا إن الملوك خلفاء الله في الأرض يستمدون منه السلطة على العباد والبلاد ، وأن الملك هو حارس الدين وحاميه ، كما يقولون إن القضاة خلفاء الأنبياء .

وهناك أيضا شهاب الدين سهروردى (١٣٩١ م) الذى تأثر فى كتابه « حكمة الأشراف » بما كتبه أفلاطون فى جمهوريته ، فيقول إن العالم لا يصلح بدون الفاسفة وبدون رجل فيلسوف حكيم يطبق الفلسفة والحكمة عمليا . وهذا الفيلسوف والحكيم الصوفى هو الخليفة الذى يملأ الأرض عدلا ونورا

شهاب الدين
سهروردى

كذلك تناول نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقى موضوع الحكومة فى كتابه « سياسة نامه » ، فبحث مسألة إعداد الأحكام وإدارة الدولة وإقامة العدل وضبط الخراج وتنظيم الجيش وغير ذلك من مرافق الدولة . يضاف إلى ماتقدم ما ذكره نصر الدين الطوسى الشيعى الذى دخل فى خدمة هولاكو التتارى والذى حثه على ازالة الخلافة العباسية ؛ فقد وصف الامام كحاكم مثالى كما فعل أفلاطون وأرسطو من قبله (١) .

نظام الملك

نصر الدين الطوسى

وفى عهد الأمويين صار الخليفة يعين ولى عهده ويأخذ البيعة له من وجود الناس وكبار القواد فى حضرته ، كما كانت تؤخذ البيعة فى الأقاليم بحضور الوالى نيابة عن الخليفة . وهذه الطريقة - كما يقول السيد أميرعلى - قد جمعت فى نفسها كلا من النظام الديمقراطى والنظام الاستبدادى فى آن واحد مع تجردها من مزايا كل منهما ، إذ كانت البيعة تتم بأية طريقة سواء أكانت بالوعيد أو الوعود وبالرشوة أو الرهبة ويصبح الانتخاب على أى حال شرعياً (٢)

ولاية العهد

(١) Sir Thomas Arnold, the Caliphate pp. 121-126

A. Von Kremer, Geschichte der herrschenden Ideen des Islams, pp. 92—94.

Sayed Ameer Ali, A Short History of the (٢)

Saracens, p. 185.

أُعدوا له الخليفة:

قال ابن خلدون في مقدمته « إعلم أن السلطان في نفسه ضعيف يحمل أمراً ثقيلاً . فلا بد من الاستعانة بابناء جنسه . وإذا كان يستعين بهم في ضرورة معاشه وسائر مهنة ، فما ظنك بسياسة نوعه ومن استرعاه الله من خلقه وعباده » . . . قال بعض الأشراف من الحكماء « لمعانة نقل الجبال من أماكنها أهون على من معانة قلوب الرجال » . ولذلك طلب موسى من الله سبحانه وتعالى أن يمدّه برجل من أهله يستعين به على القيام بأعباء الحكم فقال « واجعل لي وزيراً من أهلي هَارُونَ أَخِي أَشَدُّ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي » (١)

الوزير

« والوزير مشتق من الوزر وهو الثقل لأن الوزير يحمل أعباء الحكومة ، أو من الوزر وهو الملاجأ والمعتصم ، بمعنى أن يرجع ويلجأ الى رأيه وتدييره . والوزارة فارسية الأصل وليست من مستحدثات الاسلام ، بل هي أقدم عهداً من ملوك آل ساسان ، فقد عرفت في بني إسرائيل

أما إذا أريد بها استعانة الأمير أو السلطان بمن يشد أزره أو يعاونه في الحكم فهي تتصل بصدر الاسلام . لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يشاور أصحابه في الأمور العامة والخاصة ويختص أبا بكر بأمور أخرى حتى إن العرب الذين اختلطوا مع الفرس والروم قبل الاسلام وعرفوا هذا الاسم عنهم كانوا يسمون أبا بكر وزير النبي صلى الله عليه وسلم .

ولكن لفظ الوزير لم يكن معروفاً عند العرب في ذلك العصر لبساطة الاسلام وبعده عن أبهة الملك (٢) .

(١) سورة طه

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٨

ولما أفضت الخلافة إلى بنى أمية وأصبح بقاء ملكهم يعتمد على السياسة والدواء ، اتخذوا المشيرين من رجالات دولتهم ، ومع إنهم كانوا لا يلقبون صاحب هذه الرتبة بالوزير ، ومع ذلك فإننا نجد زياد ابن أبيه يلقب بقلب الوزير في عهد معاوية بن أبي سفيان .

مجلس الصحابة

ويقول السيد أمير على إن الخليفة كان يستعين في إدارة شؤون الدولة بمجلس من الشيوخ يتألف من كبار الصحابة وأعيان المدينة ورؤساء القبائل . وكانوا يجتمعون في مسجد المدينة . وكان الخليفة لا يقطع أمراً دون استشارتهم . وكان نظام الحكم في الثلاثين سنة الأولى للإسلام أقرب ما يكون إلى النظام الجمهوري .

علاقة المسجد
بإدارة الدولة

وقد بحث السير توماس أرنولد^(١) علاقة المسجد باعتباره مكان العبادة (أى المكان الذى يؤم فيه الخليفة أو والى الناس فى الصلاة) بإدارة شؤون الدولة السياسية والاجتماعية وكيف يجمع الخليفة أو والى بين إمامة المسلمين فى الصلاة وبين إدارة شؤون الدولة أو الولاية فيقول « لم يكن المسجد مكاناً للعبادة فحسب ، بل كان أيضاً مركز الحياة السياسية والاجتماعية . فكان النبي يستقبل فى المسجد السفراء ويدير شؤون الدولة ، ويخطب جماعة المسلمين من على المنبر فى الأمور السياسية والدينية . . . فمن فوق منبر المدينة أعلن عمر تقهقر جيوش المسلمين فى العراق واستحث قومه على السير إلى هذه البلاد . ومن على المنبر أيضاً وقف عثمان يدافع عن نفسه ، كما كان الخليفة عند استخلافه يلقى من فوق المنبر على الجمهور خطبته الأولى التى هى بمثابة بيان عن سياسته فى الحكم » . فكان المنبر بذلك أشبه بالعرش يلقى منه بيان سياسة الدولة فى الأمم الدستورية .

ونستطيع أن نضيف إلى ماتقدم أن المساجد كانت تستخدم منذ

ظهر الاسلام لاجتماع العلماء فيها ، كما اتخذها علماء التفسير والحديث مقراً لهم . بعد ذلك استخدمت المساجد معاهد للتعليم يتلقى فيها الأطفال اللغة العربية وأصول الدين ، كما اتخذها القضاة مكاناً لعقد جلساتهم . وصفوة القول أنه لما لم يمكن الفصل بين السياسة والدين ، كان المسجد المكان الذى تذاع فيه الأخبار الهامة التى تتعلق بالصالح العام .

ويستطرد السير توماس أرنولد الكلام عن المساجد فيقول إنها سرعان ما فقدت أهميتها السياسية والاجتماعية . فلم تعد تمثل عرش الخليفة وكرسى الوالى ولا منصة القاضى . وغدا عمل المسجد مقصوراً على إقامة الخطبة الدينية ، يمجّد فيها الله ويُصلّى على النبىِّ ويُرحم على الصحابة ويُدعى الخليفة باعتباره نائباً عن رسول الله فى المحافظة على الدين . ولم يبق فيها من مظاهر السياسة إلا ذكر اسم الخليفة فى الخطبة ليشكّن ذلك أشبه باعتراف الولايات الاسلامية لسلطة الخلفاء الاسمية .

وكان يعهد إلى بعض الصحابة القيام بواجبات خاصة : فكان عمر فى خلافة أبى بكر يقوم بالقضاء وتوزيع الزكاة ، كما كان على يقوم بكتابة الرسائل والنظر فى أمر الأسرى وفداء أسرى المسلمين ، كما كان يشرف آخرون على تعبئة الجيوش .

الكاتب

النظام الإدارى :

ومن كبار أعوان الخليفة « الكاتب » . فقد كان السواد الأعظم من العرب لا يعرف القراءة والكتابة : فكان الخليفة يختار كاتبه من بين الذين يجيدون الخط . ومن عرف الكتابة والقراءة فى صدر الاسلام من الصحابة عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وزيد بن ثابت ومعاوية ابن أبى سفيان ، فكانوا يكتبون إلى النبى صلى الله عليه وسلم القرآن والكتب التى أرسلها إلى الملوك والأمراء . ولما ولى أبوبكر الخلافة اتخذ عثمان بن عفان كاتباً له ليكتب إلى العمال والقواد .

ولما انتقلت الخلافة إلى بني أمية تعدد الكتاب لتعدد مصالح الدولة ، ومن ثم أصبح الكتاب خمسة : كاتب الرسائل وكاتب الخراج وكاتب الجند وكاتب الشرطة وكاتب القاضى . وأهم هؤلاء الكتاب فى المرتبة كاتب الرسائل . وكان الخلفاء لا يولون هذا المنصب إلا أقرباءهم وخاصتهم ، وظلوا على ذلك إلى أيام العباسيين (١)

الحاجب :

كان الخلفاء الراشدون لا يمتنعون أحدا من الدخول عليهم ، فيخاطبون الفقير والغنى ، والضعيف والقوى بلا حجاب . فلما جاء بنو أمية ، اتخذ معاوية ومن جاء بعده من الخلفاء الحجاب بعد حادثة الخوارج مع على ومعاوية وعمرو بن العاص ؛ وذلك خوفا على أنفسهم من شر الناس ، وتلافيا لآزدهامهم على أبوابهم ، وشغلهم عن النظر فى مهام الدولة .

والحاجب موظف كبير يشبه كبير الأمناء فى أيامنا ؛ وكان يشغل منصبا ساميا فى البلاط ، ومهنته إدخال الناس على الخليفة حسبما تقضى الضرورة بالسماح لهم بالمشول بين يديه ، مراعىا فى ذلك مقامهم وأهمية أعمالهم (٢) . ولكنهم كانوا يبيحون الدخول لثلاثة فى أى وقت شاءوا ، فقد قال عبد الملك بن مروان لما ولى حاجبه : « لقد وليتك حجابة بابى إلا عن ثلاثة . المؤذن للصلاة فإنه داعى الله ، وصاحب البريد فأمر ما جاء به ، وصاحب الطعام لئلا يفسد » (٣) .

وقد أوصى عبد الملك بن مروان أخاه عبد العزيز واليه على مصر (٦٥ - ٨٦ هـ) فقال : أبسط بشرى وألن كنفك ، وآثر الرفق فى

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٥ — ٢٠٦

(٢) شرحه ص ٢٠٦

(٣) شرحه ص ٢٠٧

الأمور ، فانه أبلغ بك . وانظر حاجبك فليكن من خير أهلك ، فانه وجهك ولسانك ؛ ولا يقفَنَّ أحد ببابك إلا أعلمك مكانه لتكون أنت الذى تأذن له أو تردّه (١) .

بعد أن تم فتح جزيرة العرب عين الرسول صلى الله عليه وسلم
ولادة الأقاليم أمراء أو ولاية على الأقاليم والمدن الكبرى . وقد أبقي عمر هذا النظام وزاد عليه ؛ فقسم البلاد المفتوحة إلى أقسام إدارية ليسهل حكمها ويشرف على موارد ثروتها ؛ وهى ولاية الأهواز والبحرين ، وولاية سجستان ومكران ، وكرمان وولاية طبرستان ، وولاية خراسان وجعل بلاد فارس ثلاثة ولايات ، بلاد العراق قسمين أحدهما حاضرتيه « الكوفة » والآخر حاضرتيه « البصرة » ؛ وقسم بلاد الشام قسمين أحدهما قاعدته حمص والثانى دمشق ، وجعل فلسطين قسما قائما بذاته . وقسم إفريقية ثلاث ولايات : مصر العليا ومصر السفلى وغرب مصر وصحراء ليبيا (٢) .

وكان عمر أول من وضع النظام السياسى للدولة الإسلامية ونظم إدارتها . وكانت سياسته ترمى إلى تماسك بلاد العرب وإدماج القبائل بعضها فى بعض لتكون أمة واحدة هى الأمة العربية . وكان من سياسته عدم اختلاط العرب بأهالى البلاد التى فتحوها حتى لا تضعف قوميتهم . ويقول السيد أمير على (٣) . « لو أن عمر عاش أطول مما عاش لاستطاع بما وهبه الله من قوة الشكيمة والشخصية البارزة أن يقوى من شأن الوحدة العربية ويحول دون قيام هذه الحروب الأهلية الطاحنة التى هدمت كيان الاسلام » .

(١) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١١٥

(٢) Seyed Ameer Ali, A Short History of the Saracens, pp. 60—61.

(٣) شرحه ص ٤٧

سلطة الوالى

وكان الوالى يعين من قبل الخليفة وينوب عنه فى حكم الولاية .
وهو الرئيس للقضاء والصلاة والخراج والجند والشرطة وما اليها من
مهام الدولة .

اختيار الولاية

اختار عمر الولاية من العرب وسار على هذه السياسة من جاء بعده
من الخلفاء الراشدين والامويين . وبلغ من اهتمام الخلفاء باختيار الولاية
أن كان بعضهم يسند هذا المنصب الكبير إلى أفراد من البيت المالك .
ويقول السيد أمير على (١) : إن هناك نقصاً قد تطرق إلى النظام
الادارى فى عهد بنى أمية وجرّ إلى أسوأ العواقب فيما بعد ، وذلك أنه
كان يفرض على ولاية الأقاليم الإقامة فى حواضر ولاياتهم . أما فى عهد
الامويين فقد أصبحت ولاية الولايات تسند إلى بعض أفراد البيت
المالك وإلى كبار رجال البلاط ، فكانوا يبقون فى دمشق ويعينون من
قبلهم رجالاً يقومون بحكم الولايات نيابة عنهم .

وكان من أهم أغراض هؤلاء الاثراء على حساب بيت المال وإرضاء
هؤلاء الولاية بما كانوا يدرون عليهم من الأموال .

وكان يستعين فى إدارة البلاد بطائفة من كبار الموظفين وأهمهم
ثلاثة : عامل الخراج - أوصاحب بيت المال - والقاضى ، والقائد أو
صاحب الشرطة . على أن عمر قد عين لفلسطين ودمشق وحمص
وقنسرين عمالاً للصلاة بالناس وإقامة العدل بينهم .

عامل الخراج

كان عامل الخراج أهم العمال ؛ فكان الوالى يحتفظ بالخراج لنفسه
وربما أسنده الخليفة لرجل من قبله ، فيعمل هذا مع الوالى جنباً إلى
جنب : هذا يدير دفة السياسة وذاك يتولى شئون الولاية المالية .
وكان بمثابة الرقيب على أعمال الوالى ، مما أدى إلى تنازع السطة

والمناصفة بين الرجلين ، الأمر الذى يعلل قصر عهد الولاية وعمال الخراج . وسنذكر موارد بيت المال عند الكلام عن الحضارة المادية .

القضاء :

كان القضاء للخلفاء ، لأن الخلافة مركز ديني ينوب صاحبها عن رسول الله . وقد كان عليه السلام قاضياً ، كما كان للشريعة مبلغاً . ولم يكن للمسلمين في عهده ولا في عهد أبى بكر قاض (سواهما) ، إذ كانت الأمة لاتزال على بساطتها وضيق رقعتها . وظلت على ذلك حتى انتشرت الفتوح الاسلامية في عهد عمر ، وارتبط العرب بغيرهم من الأمم ، فدعت حالة المدينة الجديدة إلى إدخال نظام تشريعي لقض المشاكل التى تنشأ بين الأفراد من العرب وغيرهم . وقضى هذا النظام بتعيين قضاة ينوبون عن الخليفة في قض هذه المشاكل ، طبقاً لأحكام الكتاب الكريم ، والحديث الشريف (السنة) ، والقياس فيما لم يرد في كتاب ولا سنة ولا إجماع (١)

ويقصد بالقياس هنا أن القاضى إذا عرضت عليه قضية لم يجد فيها حكماً منصوصاً عليه في القرآن الكريم ولا في سنة رسول الله ، ولم تكن مما صدر فيها حكم بإجماع الصحابة ، فعلى القاضى حينئذ أن يبحث عن مشكلة تشبه ما بين يديه من المشاكل يكون قد صدر فيها حكم من القرآن أو السنة أو الإجماع ؛ فإذا عثر على شئ . من ذلك قضى به . وفى ذلك يقول الماوردى (٢) فى كلامه عن شروط القاضى « ... والرابع عليه بالقياس الموجب لرد الفروع المسكوت عنها إلى الأصول المنطوق بها والمجمع عليها ، حتى يجد طريقاً إلى العلم بأحكام النوازل وتمييز الحق من الباطل » .

(١) هو اتفاق مجتهدى الأمة فى عصر من العصور على أى حكم من الأحكام ، بشرط أن يكون له مستند من الكتاب والسنة . وهذا يكفى من غير تعرف المستند .

(٢) الأحكام السلطانية ص ٦٣ .

وهذا ما حدا بتسمية هذا المصدر من مصادر الشريعة الإسلامية بالقياس ، كما يتبين ذلك من كتاب عمر إلى أبي موسى الأشعري قاضيه على الكوفة . وفيه يقول : « . القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة الفهم الفهم ، فيما تلجلج في صدرك ، مما ليس في كتاب ولا سنة ، فاعرف الأشباه وقس الأمور عند ذلك . »

وكان القضاء يسند للوالي إذا كانت ولايته عامة ، بمعنى أن تكون إليه الصلاة والخراج والجند والشرطة والقضاء . وكان من مستلزمات القاضي أن يكون رجلاً عفيفاً ، ورعاً تقياً ، عالماً مجتهداً ، سليماً من العيوب التي تحول دون معرفة الحقيقة كالعمى والصمم ، لا تأخذه في الله لومة لائم .

أما مسألة اختيار القاضي وتعيينه ، فقد كانت خاضعة لنوع سلطة الوالي : فإن كانت ولايته عامة ، قام الوالي بتعيينه ، وإن كانت ولايته خاصة ، كأن يكون عاملاً على الخراج أو على الصلاة ، فاختياره يكون من قبل الخليفة مباشرة .

وقد دعت سنة التقدم والارتقاء إلى اتخاذ الشهود (المحلفين) حين فشت شهادة الزور ، إذ جرت العادة أن تقبل شهادة من يتقدم لأدائها ، سواء أكان ممن عرف بالخير أو بالشر . فقضى النظام الجديد بتعيين شهود عدول ، عرفوا بحسن السمعة والفقهاء ، فصاروا من هيئة المحكمة ، يعمل برأيهم القاضي فيما له علاقة بالمقاضين .

وكان من اختصاصاتهم أيضاً الشهادة على ما يصدره القاضي من الأحكام وأنه غير مخالف لأحكام الشريعة الإسلامية . وهذا النظام أشبه بنظام المحلفين في العصور الوسطى ، ولا يزال في إنجلترا

الى اليوم ، وإن كانت أعمال المحلفين تختلف الآن بعض الاختلاف عما كانت عليه في العصور الوسطى .

وكانت سلطة القضاء موزعة بين القاضى وبين المحتسب وقاضى المظالم . توزيع سلطات القضاء فوظيفة القاضى فض القضايا المرتبطة بالدين بوجه خاص . وللمحتسب حق النظر فيما يتعلق بالنظام العام وفي الجنايات أحيانا ، مما يستدعى أمر الفصل فيها الى السرعة . ويفصل قاضى المظالم فيما استعصى من الأحكام على القاضى والمحتسب . ولهذا اعتبرت الحسبة واسطة بين أحكام القضاء وأحكام المظالم .

وكان القضاء والحسبة يسندان فى بعض الأحيان الى رجل واحد ، مع ما بين العاملين من التباين ، لأن عمل القاضى مبنى على التحقيق والآناة فى الحكم ، وعمل المحتسب مبنى على الشدة والسرعة فى الفصل (١)

مرتبات القضاة :

كان مرتب القاضى لا يقل ، على ما هو معروف من التاريخ ، عن عشرة دنانير فى الشهر . وبلغ بعد ذلك سبعة دنانير فى اليوم ، حتى لا ينظر القاضى بعد هذا المرتب الى شئ . وكان يضاف الى القضاء أحيانا أعمال أخرى كالقصاص وبيت المال والمظالم ، فيتقاضى القاضى ما تخصص لكل وظيفة من هذه الوظائف مما أدى الى ضخامة مرتبه . وقد عرف عن قاضى مصر عبدالرحمن بن حجيرة (٦٩ — ٥٨٣ هـ) أنه كان يتناول ألف دينار فى العام : مائتان عن القضاء ، ومائتان عن القصاص ، ومائتان عن بيت المال . وكان عطاؤه مائتى دينار وجائزته مائتان .

(١) الاحكام السلطانية للباوردى (طبعة القاهرة) ص ٦١ - ٧٢

الحسبة :

كان للمحتسب النظر في مراعاة أحكام الشرع ، والإشراف على نظام الأسواق ، والحيلولة دون بروز الحوانيت مما يعوق نظام المرور . وكان إليه إيقاف مضايقة الجمهور ، والإشراف على الموازين والمكاييل ، وعلى استيفاء الديون ^(١)

وقد ارتقى نظام الحسبة في عهد الفاطميين ، فكان للمحتسب نواب يطوفون في الأسواق ، فيفتشون القدور واللحوم ، وأعمال الطهارة ، ويلزمون رؤساء المراكب ألا يحملوا أكثر مما يجب حمله من السلع ، ويشرفون على السقائين لضمان تغطيتهم القرب ، ولبس السراويل بما لا ينافي الآداب العامة . ويمنعون معلى النكتاتيب من ضرب صغار الأولاد ضرباً مبرحاً ؛ ويحولون دون تغيير معلى السباحة بالصغار .

وقصارى القول ، فالمحتسب هو الذى يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ؛ وهو المحافظ على الآداب وعلى الفضيلة والأمانة . وكانت سلطته من الاتساع بحيث كان له أن يستعين بالشرطة على تنفيذ أحكامه ^(٢) .

النظر في المظالم :

وكانت هناك سلطة قضائية أعلى من سلطة القاضى والمحتسب ، وهى سلطة قاضى المظالم . ولا غرو فقد كانت محكمة المظالم بمثابة محكمة الاستئناف العليا فى عصرنا . تعرض عليها القضايا إذا عجز القاضى عن تنفيذ حكمه فى قضية رجل من عاية القوم

(١) الأحكام السلطانية للباوردي ص ٢٢٨ — ٢٣٠

(٢) مقدمة ابن خلدون (طبعة بيروت سنة ١٩٠٠) ص ٢٢٥ و ٢٢٦ ، الخطط للبقرى

وقد دعت الحاجة الى انشاء محكمة المظالم لايقاف تعدى ذوى الجاه والحسب (١). ولهذا كان يسند النظر فى المظالم الى رجل جليل القدر كثير الورع . وقد نظر الرسول عليه الصلاة والسلام فى الشرِّب الذى تنازعه الزبير بن العوام ورجل من الأنصار فخصره بنفسه وقال للزبير : اسبق أنت يا زبير ثم الأنصارى ، فقال الأنصارى : انه لابن عمك يا رسول الله . فغضب الرسول من قوله وقال : يا زبير أجره على بطنه حتى يبلغ الماء الى الكعبين . وانما أمر بذلك تأديبا له .

النظر فى المظالم

ولم يجلس للمظالم أحد من الخلفاء الراشدين ، لأن الناس كانوا فى الصدر الأول بين من يقوده التناصف إلى الحق أو يجره الوعظ عن الظلم إلا عليا رضى الله عنه ، فانه احتاج إلى النظر ، ولم تكن فى الحقيقة كما صارت اليه بعدئذ . على أنه لم يفرد لسماع الظلمات يوما معينا أو ساعة معينة ؛ وإنما كان إذا جاءه متظلم أنصفه ، ثم أفردوا يوما خاصا للنظر فى أحوال المتظلمين وتصفح قصصهم . وأول من فعل ذلك عبد الملك بن مروان . لكنه كان إذا وقف منها على مشكل احتاج فيه إلى حكم رده إلى قاضيه ابن ادريس الأزدي ؛ فكان ابن ادريس هو المباشر وعبد الملك الأمر . وهذه دلالة واضحة على حسن تصرف عبد الملك ومقدار عدالته واحتياطه فى أمور المسلمين .

عكمة المظالم

وكانت تنعقد محكمة المظالم تحت رئاسة الخليفة أو والى أو من ينوب عنه وكان صاحب المظالم يعين يوما يقصده فيه المتظلمون ، إذا كان من الموظفين ، لكي يتفرغ لأعماله الاخرى بقية الأسبوع ، إلا اذا كان من عمال المظالم المنفردين بها فيكون له النظر فى جميع الأيام . وكانت محكمة المظالم تنعقد فى أحد المساجد - كغيرها من المحاكم

(١) أنظر De Slane's Trans. of Ibn Khallikan's Biographical Dictionary, vol I. pp. 346—347.

التي يعقدها القضاة — وكان صاحب المظالم يحاط بخمس جماعات مختلفة ، لا ينتظم عقد جلساته الا بحضورهم .

(١) الحماة والاعوان ، وقد اختيروا بحيث يستطيعون التغلب على من يلجأ الى القوة والعنف ، أو الفرار من وجه القضاء .

(٢) القضاة والحكام ، ومهنتهم الاشارة على صاحب المظالم بأقوم الطرق لرد الحقوق الى أصحابها واعلامه بما يجرى بين الخصوم لالمهم بشتات الأمور الخاصة بالمتقاضين .

(٣) الفقهاء ، واليهم يرجع قاضى المظالم فيما أشكل عليه من المسائل الشرعية

(٤) الكتاب ، ويقومون بتدوين ما يجرى بين الخصوم ، واثبات ما لهم وما عليهم من الحقوق

(٥) الشهود ، ومهنتهم الشهادة على أن ما أصدره القاضى من الأحكام لا ينافى الحق والعدل .

اختصاصات قاضى
المظالم

ومن اختصاصات قاضى المظالم النظر فى القضايا التي يقيمها الافراد والجماعات على الولاة اذا حادوا عن طريق العدل والانصاف ، وعلى عمال الخراج اذا اشتطوا فى جميع الضرائب ، وعلى كتاب الدواوين اذا حادوا عن اثبات أموال المسلمين بنقص أو زيادة ، والنظر فى تظلم المرتزقة اذا نقصت أرزاقهم أو تأخر ميعاد دفعها اليهم . وكان يستعان بشخصية صاحب المظالم ونفوذه وهيبته فى التأثير على الخصم حتى يعترف بالحق (فاذا اعترف حكم عليه باعترافه) تنفيذ ما يعجز القاضى والمحتسب عن تنفيذه من الأحكام ، ومراعاة اقامة العبادات كالجمع والاعياد والحج والجهاد^(١)

من هذا نفق على مبلغ أهمية هذه الوظيفة ، وما كان لصاحبها من القوة ونفاذ الكلمة ، وما كان عليه النظام القضائي بشكله الذي وضحنه من الدقة والاتقان . ولا نبالغ اذا قلنا إنه بلغ الغاية . هذا اذا راعينا أن هذا النظام الذي ساد منذ نيف وعشرة قرون لا يقل كثيراً عن مثيله في الوقت الحاضر .

هذا الى ما كان لهذا النظام القضائي في العصور الوسطى من الممكنة وما صاحبه من الحرمة ونفاذ الكلمة حتى على الولاة وعمال الخراج . على أنه لم يكن ثمة ما يدعو إلى الخوف ، اذ روعى في اختيار قاضي المظالم أن يكون رجلاً مشهوداً له بالورع والتقوى لا تأخذه في الله لومة لأثم .

نعم ! كان الخلفاء بالمرصاد لمن عرف من القضاة بسوء السيرة . ولقد حكى لنا الكندي أن هشام بن عبد الملك الأموي بلغه أن يحيى ابن ميمون الحضرمي (١٠٥ — ١١٤ هـ) لم ينصف يتيماً احتكم اليه بعد بلوغه . فلما علم الخليفة بهذا عظم ذلك عليه ، وكتب إلى عامله على مصر يقول : « اصرف يحيى عما يتولاه من القضاء مذموماً مدحوراً ، وتخبر لقضاء جندك رجلاً عفيفاً ورعاً تقياً سليماً من العيوب ، لا تأخذه في الله لومة لأثم (١) . »

الشرطة هي الجند التي كان يعتمد عليها الخليفة أو والي على استتباب (٣) صاحب الشرطة الأمن وحفظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين وما إلى ذلك من الأعمال الادارية التي تسكفل سلامة الجمهور وطمأنينتهم . « وكان عمر أول من أدخل نظام العسس في الليل . وفي عهد علي بن أبي طالب نظمت الشرطة وأطلق على رئيسها صاحب الشرطة . وكان صاحب الشرطة يختار من علية القوم وهو أشبه بالمحافظ في هذا العصر . وكان له نفوذ عظيم على الجناة .

وكانت الشرطة تابعة للقضاء أول الأمر تقوم على الأحكام القضائية ويتولى صاحبها إقامة الحدود ، ولكنها لم تلبث أن انفصلت عن القضاء ، وأصبح لصاحب الشرطة الاستقلال بالنظر في الجرائم . وقد أدخل هشام بن عبد الملك نظام « الاحداث » ، وكان يقوم صاحبه بالأعمال العسكرية التي تعتبر وسطا بين أعمال صاحب الشرطة والقائد (١)

النظام الإداري :

ظل النظام الإداري للحكومة الإسلامية في الجملة على ما كان عليه في بلاد الفرس والروم . ولن يدهش لذلك من عرف حالة العرب النفسية : نعم قد كان من المنتظر أن يقلب العرب نظام الحكومة في العراق وفارس ومصر وسورية وإفريقية رأساً على عقب . على أن شيئاً من ذلك لم يكن . فقد وجد العرب أن هذه الأمم التي بنوا حضارتهم على انقاضها كانت ذات تاريخ مجيد عريق من حيث الحضارة والمدنية والنظم السياسية وغيرها . كما وجد العرب في تلك البلاد التي فتحوها نظاماً إدارياً ثابتاً . فلم يكن بدا من قبول هذا النظام وإبقائه على ما كان عليه من قبل ، ثم لإحداث ما عسى أن يتطلبه الإصلاح من التغيير الذي لا غنى للعرب عنه مما يتفق وعقائدهم الدينية ، ويتمشى مع مصلحة الشعوب التي دانت للمسلمين . وقد بقي هذا النظام وسار عليه الولاة من العرب وغيرهم دون أن يدخل عليه تغيير يستحق الذكر . فكان بمصر المدير أو المحافظ ، والمأمور أو نائب المدير ، والخولى أو المفتش الزراعى . وهم لا يختلفون حتى اليوم في مصر من جهة اختصاصهم عما كانوا عليه زمن الرومانيين ، اللهم إلا في الألفاظ الرومانية التي كانت تطلق على من كانوا يشغلون هذه المناصب قبل الفتح الإسلامى . (٢)

Sayed Ameer Ali, p. 63

(١)

Stanley Lane-Pool, Hist. of Egypt in the middle Ages, p. 18.

(٢)

وكان القضاء والصلاة من الأمور الجوهرية التي تناولها التغيير في بد تدوين الدواوين
النظم الادارية في عهد الاسلام ، لارتباطهما ارتباطاً وثيقاً بالدين وهو
أساس الحكومة الاسلامية . وقد كان النظام الادارى في صدر الاسلام
وفي عهد بني أمية نظاماً بسيطاً أولياً ، فلم يتبع نظام توزيع الأعمال
على الادارات المختلفة واختصاص كل إدارة بأعمال معينة كما فعل
العباسيون .

كان المسلمون يحاربون ابتغاء مرضاة الله لا يريدون على ذلك مالا
ولا جزاء إلا من عند الله ، كما كان منهم من بذل كثيراً من ماله في وجوه
البر والاحسان ؛ ولم يفرض لهم النبي صلى الله عليه وسلم ولا أبو بكر
عطاء مقررأ . ولكن قد جرت العادة أنهم إذا غزوا أخذوا نصيبهم من
الغنائم بحسب ما قرره الشريعة لهم . وإذا ورد الى المدينة شئ قسمه
النبي عليهم في المسجد .

جرى الأمر على ذلك حتى كانت سنة ١٥ من الهجرة . وقد توالى
الفتوح الاسلامية وأثرت الدولة العربية بما ملكته من كنوز الفرس ؛
فرأى عمر توزيع هذه الأموال على المسلمين مراعيأ في ذلك مراتبهم
ومبلغ استحقاقهم ، ولكنه لم يعرف كيف يؤدي هذا العمل على أتم
الوجوه وأضبطها ، فأشار عليه أحد مرآة الفرس بادخال نظام الدواوين
الذى سار عليه الفرس لضبط دخل الدولة وخرجها . فعمل عمر بمشورته
ودّون الدواوين وفرض العطاء ، فجعل لكل واحد من المسلمين عطاء
مقررأ مراعيأ في ذلك السبق الى الاسلام وإلى نصرة الرسول في
حروبه ، كما فرض لزوجات النبي وأقاربه . واستخدم لذلك الكتاب في
الدواوين ، فرتبوا طبقات الناس مبتدئين بالعباس عم النبي صلى الله عليه
وسلم ثم بني هاشم ثم بمن بعدهم . وجرى الحال على ذلك مدة خلافته
وخلافة عثمان الذى أدخل في أيامه تعديلاً يستحق الذكر .^(١)

(١) الفخرى في الآداب السلطانية ص ٧٩ — ٨٠

بلغت الدولة الإسلامية أقصى اتساعها في عهد الأمويين ؛ وكانت مقسمة إدارياً إلى خمس ولايات كبرى وهى :

(١) الحجاز واليمن وأواسط بلاد العرب (٢) مصر بقسميها السفلى والعليا (٣) العراق العربى (وهو عبارة عن بلاد بابل وآشور القديمة) والعجمى (وهو عبارة عن بلاد الفرس نفسها) وعمان والبحرين ، وكرمان وسجستان ، وكابل وخراسان ، وبلاد ماوراء النهر والسند ، وبعض أجزاء بلاد البنجاب . وكانت كل هذه الاقطار تكون ولاية كبيرة يتولى أمرها والى العراق وحاضرتة الكوفة . وكان يلى خراسان وما وراء النهر عامل من قبل والى العراق ، ومركزه مدينة مرو عادة . وكانت بلاد البحرين وعمان تحت اشراف عامل البصرة من قبل والى العراق . وكان يلى بلاد السند والبنجاب عامل آخر من قبل والى العراق .

(٤) بلاد الجزيرة ويتبعها أرمينية وأذربيجان وبعض أراضي آسيا الصغرى .

(٥) والولاية الخامسة - وهى أهم هذه الولايات - كانت تشمل كل إفريقيا الشمالية حتى غرب مصر وبلاد الأندلس وجزر صقلية وسردينية والبليار ومركزها القيروان . وقد أناب والى إفريقيا ولاة من قبله لحكم طنجة وجزر البحر الأبيض المتوسط وبلاد الأندلس التى كانت حاضرتها مدينة قرطبة . (١)

«البريد فى الاصطلاح هو أن يجعل خيل مضمرة فى عدة أماكن . فاذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى مكان منها ، وقد تعب فرسه ، ركب غيره فرسا مستريحاً . وكذلك يفعل فى المكان الآخر والآخر حتى يصل بسرعة . وأما معناه اللغوى ، فالبريد هو اثنا عشر ميلاً . وأظن أن الغاية التى كانوا قدروها بين بريد وبريد هى هذا القدر . » وقال الصاحب علاء الدين :

ومن جملة الأشياء وضعهم البريد بكل مكان طلبا لحفظ الأموال
وسرعة وصول الأخبار ومتجددات الأحوال . « (١)

وقد ذكر القلقشندي (٢) أن البريد هو مسافة معلومة قدرها اثنا
عشر ميلا، وقدره الفقهاء وعلماء المسالك بأنه أربعة فراسخ، والفرسخ
ثلاثة أميال .

ويرجع هذا النظام إلى أيام أكاسرة الفرس وقياصرة الروم . على
أن مقاديره أو مسافاته لم تكن ثابتة ، بل كانت متفاوتة . وقد أضاف
القلقشندي (٣) إلى ماتقدم أن نظام البريد قد أدخل في الاسلام منذ
أيام معاوية بن أبي سفيان ، وأن أمره لم يحكم إلا في عهد عبد الملك
ابن مروان . وذكر القلقشندي أيضا أنه كان يطلق على الرسول
بريد . وقد قيل إن هذا اللفظ عربي . وذهب آخرون إلى أنه فارسي
معرب . وأصله بالفارسية « بريد » دم ومعناه مقصوص الذنب ،
وذلك لأن الفرس كانوا يقصون ذنب بغل البريد ليمتاز بذلك عن
غيره من الدواب الأخرى .

كانت وحدات الجيش من القبائل العربية وبخاصة من أهل
الحديثة والطائف وغيرهما من المدن .

وكان الخليفة في أول الأمر يختار قائد الجيش ، وهذا يختار بدوره
الموظفين الذين يعملون تحت إمرته . (٤) وكان القائد ينوب عن الخليفة

(١) الفخرى في الآداب السلطانية ص ١٠١ — ١٠٢

(٢) القلقشندي ج ١٤ ص ٣٦٦

(٣) شرحه ج ١٤ ص ٣٦٦ — ٣٦٨

Von Kremer, Culturgeschichte des Orients, trans.
by Khuda Bukhsh, p. 206

Von Kremer, Culturgeschichte, p. 279. (٤)

في إقامة الصلاة ، وإذا ما اجتمع أكثر من قائد في مكان واحد ، عين الخليفة أحدهم للصلاة بالناس ، فيصبح هذا القائد بمثابة قائد القواد . (١)
وكان الجيش يتألف من الفرسان والرجالة ، وكان الأولون يتسلحون بالدروع والسيوف والرماح ، والآخرون بالدروع والحراب والسيوف والقسي والسهام .

الرماة

وكان العرب في جاهليتهم يستعملون هذه الأسلحة . وكانت لهم بها عناية كبيرة ، لأنهم كانوا يحمون بها أعراضهم ويستجلبون بهامعائشهم وخصوصا القسي التي كان لهم بها مهارة عظيمة لحدة أبصارهم ولحاجتهم إليها في الصيد . وقد بلغ من مهارتهم في الرمي بالقوس ما فاق حد التصور ، حتى إن الرامي إذا أراد أن يرمى أحد عيني الغزال دون الآخر رماها فلما جاء الاسلام ساعدتهم مهارتهم على غلبة الروم لأن هؤلاء لم يكونوا يحسنون رميها . ولذلك كان قادة المسلمين يدرّبون رجاءهم على اتقان الرمي بالنبال . وكان عليه الصلاة والسلام يقول « اركبوا وارموا ؛ وان ترموا أحبُّ إلي من أن تركبوا » . ومن أقواله وهو قائم على المنبر « أعدوا لهم ما استطعتم من قوة ألا إن القوة الرمي ألا أن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي » . (٢)

وكان الرماة أهم عناصر الرجالة في الجيش العربي . وكان الرجالة يقفون في صفوف متزاحمة يتقدمهم حاملو الرماح لصدهجمات الفرسان . وكان جند الجيش يتألفان عادة من الفرسان .

ويرجع فوق جناحا العرب على أعدائهم في ميادين القتال إلى ما امتازوا به من النشاط والخفة وسرعة الحركة ، والمثابرة والصبر على تحمل الشدائد . وإذا ما أضفنا إلى هذه الصفات ما امتازوا به من الحما

وبذل النفس في نصرة الدين ، أمكننا الاهتداء إلى سر ذلك الفوز الذي أحرزه العرب في حروبهم . وكانت الدولة العربية تسخوف في تموين الجند وامدادهم بما يحتاجون اليه من الزاد والسلاح .

وكان الجند يقطعون المسافات البعيدة على ظهور الابل . وكانوا يقيمون أول الأمر في أكواخ مصنوعة من سعف النخل . ثم عدل عمر عن هذه الخطة وأمر باقامة الحصون والمعسكرات الدائمة . ومن ثم بنيت البصرة والكوفة في العراق والفسطاط ، وفي مصر والقيروان وافريقية وهكذا . كما أقيمت حاميات في أماكن أخرى مثل حمص وغزة والرها وأصفهان والاسكندرية لصد هجمات العدو المفاجئة .

وكان الفرسان يلبسون الدروع والخوذ المصنوعة من الصلب والمحلاة بريش النسور . وكان الرجال يرتدون أقبية قصيرة متدلّية إلى ماتحت الركبة ، وسراويل ونعالا تشبه النعال التي يلبسها أهل بلاد الأفغان اليوم .

وكان الجند يكبرون ويتلون الآيات القرآنية أثناء سيرهم للغزو والجهاد وأثناء المعارك الحربية ، كما كانوا يدقون الطبول ويقرعون الصنوج لبث الحماس في نفوسهم .

وكانت النساء يصحبن الجيش ويخصص لهن أماكن في المدن الحصينة والمعسكرات . (١)

وكان القواد يحافظون كل المحافظة على حسن سلوك الجند ويشددون العقاب على كل من يعيث بالنظام أو يتعرض لأهالي البلاد المفتوحة بسوء . وبما ساعد على حسن سلوكهم تحريم الخمر . وكان الجندي لا يقيم بالجيش أكثر من أربعة أشهر إذا كان بعيداً عن أسرته . (٢)

Sayed Ameer Ali, p. 64 (١)

Sayed Ameer Ali, pp. 64-65. (٢)

لم يكن العرب يعنون بالحروب البحرية في صدر الاسلام لبدائتهم وعدم تعودهم ركوب البحر وممارستهم أحواله . وكان أول من ركب البحر أبو العلاء الحضرمي وإلى البحرين في عهد عمر ؛ فقد توجه لغزو بلاد فارس في اثني عشر ألفاً من المسلمين من غير إذن من الخليفة ، وعاد المسلمون إلى البصرة محملين بالغنائم بعد أن فقدوا سفنهم التي عبروا بها إلى بلاد فارس . فلما علم بذلك عمر - وكان يكره ركوب البحر - غضب على أبي العلاء وعزله .

ولما فتحت الشام ألح معاوية على عمر في أن يأذن له بغزو بلاد الروم لقربها منه ، فطلب الخليفة من عمرو بن العاص وإلى مصر أن يصف له البحر وراكبه فكتب إليه عمرو :

« إني رأيت البحر خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير ، والماء إن ركد حزن القلوب ، وإن نزل أزاغ العقول . يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة ، هم فيه كدود على عود . إن مال غرق وإن نجا برق » ، فعدل عمر عن ذلك وكتب إلى معاوية يردعه عن ركوب البحر .

وقد علل ابن خلدون (١) سبب امتناع العرب في أول عهدهم عن ركوب البحر فقال :

« والسبب في ذلك أن العرب لبدائتهم لم يكونوا أول الأمر مهرة في ثقافته وركوبه ، والروم والافرنجة لممارستهم أحواله ومرباهم في التقلب على أعواده ، مرنوا عليه فأحكموا الدراية بثقافته . فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت أمم البحر خولاً لهم وتحت أيديهم ، وتقرب كل ذي صنعة اليهم بمبلغ صناعته واستخدموا من النواتية في حاجاتهم البحرية ، أما وتكررت ممارستهم البحر وثقافته ، استحدثوا بصراء بها ، فتاقت نفوسهم إلى الجهاد فيه وأنشأوا السفن فيه

والشواني (١) وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر، واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب إلى هذا البحر وعلى حافته مثل الشام وإفريقية والغرب والأندلس .

البحرية في عهد
عثمان

ولما ولي عثمان الخلافة ألح عليه معاوية في غزو الروم فأذن له على ألا يحمل الناس على ركوب البحر، فاستعمل على البحر عبد الله بن قيس؛ فغزا خمسين غزوة بين شاتية وصائفة، كما حارب عبد الله بن سعد ابن أبي سرح وإلى مصر من قبل عثمان قسطنطين بن هرقل في بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) وانتصر عليه في موقعة ذات السوارى التى اشتبك فيها ألف سفينة للبيزنطيين ومائتان للمصريين . وفى هذه السنة أيضا فتح العرب جزيرة قبرص، كما جردوا حملة لغزو بلاد الدولة البيزنطية .

البحرية في عهد
معاوية

ومن ذلك الحين أخذت الحملات البحرية تترى على ملك البلاد . ولما ولي معاوية الخلافة عنى بإنشاء السفن الحربية . وفى عهده غزا عقبة ابن عامر جزيرة رودس . وفى سنة ٥٣ هـ غزا الروم البرلس فى عهد ولاية مسلمة بن مخلد (٤٧-٦٢ هـ) وقتلوا عددا كبيرا من المسلمين وعلى رأسهم وردان مولى عمرو بن العاص . ومن ثم اهتم أمراء مصر ببناء السفن فأنشئت لأول مرة سنة ٥٤ هـ داراً لبنائها فى جزيرة الروضة (٢) أما إن العرب كانوا مدينين فى الأصل للبيزنطيين فى هذه الناحية من الفنون الحربية، فهو أمر لا سبيل إلى إنكاره . إلا أن العرب الذين فطروا على الشجاعة وحب المغامرة؛ وان تملذوا للبيزنطيين فى تلك الناحية فترة من الزمن، فإنهم قد أصبحوا فيما بعد أساتذة أوربا

(١) الشونة — هى المركب المعد للجهاد فى البحر وجمعها شوانى

(٢) المقرئى خطط ج ٢ ص ١٩٠-١٩١

في هذه الفنون . يدلنا على ذلك أن بعض الاصطلاحات البحرية المستعملة في أوروبا لا تزال تحتفظ بعريبتها إلى اليوم .^(١)

أخذ عمر عن الفرس نظام الدواوين ؛ فأنشأ ديوان الجند لكتابة أسماء الجند وما يخص كلا منهم من العطاء ، وديوان الخراج أو الجباية لتدوين ما يرد إلى بيت المال وما يفرض لكل مسلم من العطاء .

وقد انحصرت الأعمال الإدارية في عهد بني أمية في أربعة دواوين أو إدارات رئيسية وهي :

١ - ديوان الخراج

٢ - ديوان الرسائل وكان لصاحبه الاشراف على الولايات والرسائل التي ترد من الولاة .

٣ - ديوان المستغلات أو الايرادات المتنوعة .

٤ - ديوان الخاتم وقد أنشأه معاوية بن أبي سفيان (٢) وهو أكبر دواوين الحكومة . وكان فيه نواب مهنتهم نسخ أوامر الخليفة وإيداعها هذا الديوان بعد أن تحزم بخط وتختم بالشمع وتختم بخاتم صاحب هذا الديوان ، كما هو الحال اليوم في قلم « الارشيف » أو السجلات .

ويرجع السبب في انشاء هذا الديوان الى أن معاوية أحال رجلا على زياد بن أبيه عامله على بلاد العراق بمائة ألف درهم . فمضى ذلك الرجل وقرأ الكتاب . وكانت توقعاتهم تصدر غير محتومة - وجعل المائة مائتين . فلما رفع زياد حسابه الى معاوية أنكر هذا العدد وقال « ما أحلته إلا بمائة ألف » ، ثم استعاد المائة ألف من الرجل ووضع

(١) Hell, Die Kultur der Araber. Khuda Bnkhsq p. 72.

(٢) Von Kremer. Culttrgeschichte des Orients. trans. by Khuda Bukhsh. p. 193

الدواوين

ديوان الخاتم

ديوان الخاتم . فصارت التوقيعات تصدر مختومة لا يعلم أحد ما تشمل عليه ولا هو يستطيع أن يغيرها في شيء .^(١)

على أن ختم الرسائل والصكوك كان موجودا قبل ذلك . فقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يكتب إلى هرقل امبراطور الروم قيل له إن العجم لا يقبلون كتابا إلا إذا كان مختوما . فاتخذ الرسول خاتما من فضة ونقش فيه « محمد رسول الله » ، وختم به أبو بكر وعمر وعثمان إلى أن سقط من يد عثمان في بئر أريس ، فصنع آخر مثاله^(٢) . أما في الدولة العباسية فقد كان يختم على الرسائل بخاتم السلطان وكان هذا الخاتم يغمس في طين أحمر مذاب بالماء - ويسمى طين الختم - ويطبع به على طرف السجل عند طيه وإصاقه^(٣) .

وما زال ديوان الخاتم معدودا من الدواوين الكبرى من خلافة معاوية إلى أواسط الدولة العباسية ، ثم ألغى لتحول الأعمال إلى الأمراء والوزراء والسلاطين وغيرهم . ولما أراد الرشيد أن يستوزر جعفر بن يحيى البرمكي بدل أخيه الفضل قال لآبيهما : يا أبت إنني أردت أن أحول الخاتم من يميني إلى شمالي ، فكفى له بالخاتم عن الوزارة . وقد بلغ من أهمية الخاتم أن كان الوزير إذا تناوله ليختم به كتاباً وقف تعظيماً للخلافة وإجلالا لاسم الخليفة .

وكان بجانب هذه الدواوين الأربعة مصالح أخرى أقل أهمية من هذه : منها ما هو خاص بصرف نفقات الشرطة وما هو خاص بنفقات الجند .

وكان ديوان الخراج (المالية) يكتب بالفارسية والرومية إلى عهد عبد الملك بن مروان ؛ فنقل عبد الملك ديوان فارس والشام إلى العربية ونقل ابنه الوليد ديوان مصر إلى العربية .

صنع الإدارة بالصيغة العربية

(١) الفخرى في الآداب السلطانية ص ١٠٢

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢٢٠

(٣) شرحه ص ٢٠٦

ويقول السيد أمير على إن النظام الإدارى والسياسى للولايات
الاسلامية فى عهد الدولة الأموية لم يكن من عمل معاوية ، وإن عبد
الملك هو المؤسس الحقيقى لهذا النظام ؛ فقد صبغ الإدارة والمالية
بالصبغة العربية ، وبتحويله الدواوين الى العربية تقلص نفوذ أهل الذمة
والمسلمين من غير العرب بعد أن انتقلت مناصب هؤلاء إلى أيدي
المسلمين من العرب. وقد قام بتنفيذ سياسة عبد الملك الحجاج بن يوسف
لما فتح المسلمون بلاد الفرس والروم واتسع ملكهم وعظمت
دولتهم ، اقتدوا بالأكاسرة والقيصرة ، فاتخذوا الطراز عن الروم .
ولكنهم لم يستحسنوا اتخاذ الصور لتحريمها فى الاسلام ، بل استعاضوا
عنها بكتابة أسمائهم وكلمات أخرى تجرى مجرى الفأل والدعاء . وظلوا
على ذلك الى أيام عبد الملك ؛ فنقله إلى العربية . وبدأ بالقراطيس -
وكانت تنسج بمصر - وطرازها (باسم الأب والابن وروح القدس) ،
فأمر عبد الملك بترجمة هذه العبارة ؛ فلما وقف عليها أكرها وقال :
ما أغلظ هذا فى أمر الدين والاسلام . وكتب الى أخيه عبد العزيز عامله
على مصر بإبطال هذا الطراز واستبدال تلك العبارة بأحدى الشهادتين
(لا إله إلا الله) ، ففعل . وظل هذا الطراز فى سائر الدولة الاسلامية
ولم يغير شئ من جوهره . وكتب عبد الملك إلى عامله بإبطال ما فى
أعمالهم من القراطيس المطرزة بطراز الروم ومعاينة من يخالف ذلك .
وقد بنى الخلفاء فى قصورهم دوراً للنسيج أثوابهم ؛ فكان القائم
عليها يسمى صاحب الطراز ينظر فى أمور الصياغ والحاكه ، ويجرى
عليهم أرزاقهم ويشرف على أعمالهم . وبلغت هذه الدور أوج عظمتها
فى أيام الدولتين الأموية والعباسية .

الطراز

ولما حملت هذه القراطيس إلى بلاد الروم وعلم الامبراطور بها ،
أنكر ما فيها واستشاط غيظاً ؛ فكتب الى عبد الملك : إن عمل

القرطيس بمصر وسائر ما يطرز هناك للروم ، ولم يزل يطرز بطرازهم . فإن كان ما تقدمك من الخلفاء قد أصاب فقد أخطأت ، وإن كنت قد أصبت فقد أخطأ ؛ فاختر إحدى الحالتين . وبعث إليه بهدية يسترضيه بها للرجوع الى الطراز . فرد عبد الملك هديته وأخبر الرسول ألا ترد عنده ، فأعاد اليه أضعافها وطلب الجواب . فلما لم يرد عليه جواباً غضب الامبراطور وبعث يهدده بنقش سب النبي على النقود ؛ فكان ذلك داعياً الى تنبه عبد الملك الى ضرب النقود .

وكان اصلاح العملة (١) من أهم أعمال عبد الملك التي تدل على حسن سياسته وبعد نظره ، إذ لم يكن في الدولة العربية الى ذلك الحين عملة مقررّة . وكان لكل ولاية دار ضرب خاصة بها تضرب ما تحتاج اليه من العملة . على أنها لم تف بالغرض المطلوب لعدم ضبطها وكثرة تزيفها . وكانت العملات البيزنطية والفارسية هما المستعملتان عادة . وكان الصوليدى Solidi الرومانى أساس الدينار الذهبى (٢) ، والدرهم العمرى (المنسوب الى عمر بن الخطاب) أساس العملة الفضية .

فلما اتسعت رقعة الدولة العربية وارتقت التجارة ، رأى عبد الملك أنه من الضروري انشاء نظام رسمى ثابت للعملة . فبنى داراً رئيسية للضرب ، وأمر بسحب العملة المستعملة في جميع أنحاء الدولة ، وضرب بدلها عملة جديدة مصنوعة من الذهب والفضة . وكان يعاقب من يزيف العملة عقاباً صارماً .

هذا وقد سار الوليد على سياسة أبيه فحول ديوان الخراج في مصر الى العربية بعد أن كان باليونانية

(١) A short History of the Saracens, Sayed Ameer

Ali, p. 189

Von Kremer, Orient Under the Caliphs, pp.199—200(٢)

(٢٨)

لغة الديوان في مصر
الى عهد الوليد

ونستطيع أن نؤكد أن الخراج إنما كان يدون في مصر باللغة اليونانية ، التي كانت اللغة الرسمية في تلك البلاد إلى عهد الوليد بن عبد الملك (شوال ٨٦ - جمادى الثانية سنة ٩٦ هـ) ، وذلك استنادا إلى ما نجده في أوراق البردي العربية ذات الصبغة الرسمية التي عُثر عليها ، والتي يرجع تاريخها إلى عهد الوليد بن عبد الملك ؛ فقد دونت باليونانية والعربية معا .

محتويات بعض
أوراق البردي

ولنأت بوصف لبعض هذه الوثائق نقلا عن كتاب أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية للدكتور أدولف جروهمان (١) . ففي صفحة ٢١ نجد الطراز رقم ٥ المؤرخ (٩٠ - ٩٦ هـ) ، وهو عبارة عن كتاب من أهل كورة أشقوه (٢) (كوم أشقوه) إلى الأمير قرة بن شريك صاحب الخراج والصلاة في مصر .

مرسوم من الوالى
عبد الله بن عبد الملك

ونجد في صفحة ٢٥ الطراز رقم ٥٩ وهو بمثابة مرسوم صادر من عبد الله بن عبد الملك بن مروان صاحب الخراج والصلاة في مصر (٨٦ - ٩٠ هـ) . وفيه بعد البسملة وعبارات التوحيد و ذكر أمير المؤمنين الوليد (بن عبد الملك) هذه العبارة : هذا بما أمر به الأمير عبد الله بن عبد الملك في سنة ست وثمانين .

وتدل هذه الوثيقة على أن اللغتين اليونانية والعربية كانتا مستعملتين في دواوين الحكومة : الأولى على أنها اللغة الرسمية التي كانت تدون بها الأعمال في تلك الدواوين ، والثانية لأنها لغة الحاكم العربى ، وذلك لصدور هذه الوثيقة عن رجل له صفة رسمية وهو والى مصر . وكذلك نجد في صفحة ٢٧ الطراز رقم ٦٧ وهو شبيه بهذا تماما . غير أنه مؤرخ بسنة ٨٩ هـ . وكذلك كانت الحال في الوثائق التي صدرت عن والى الذى حل محله في ولاية الصلاة والخراج في مصر وهو قرة بن شريك ، فانها بمثل هاتين الصيغتين وفي نفس هذه المسائل الرسمية (٣)

مراسيم من قرة
بن شريك

(١) أنظر ترجمتنا العربية لهذا الكتاب (٢) كورة معناها اقليم

(٣) أنظر الطراز رقم ٦٨ ، ٢٩ ، ٦٠ ، ٦٥ ، ٦٩ ، في الصفحات ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٤

يضاف إلى ذلك الطراز رقم ٦٨ الذى نجد به ثبتا فيه عدة أسماء أمام كل منها مقدار ما دفع . ولهذه الوثيقة أهمية كبيرة لتعلقها بمسألة الخراج مباشرة .

صكوك قبطية
مدونة على ورق
البردى

وقد يلاحظ أن فى بعض أوراق البردى كتابات باللغة القبطية إلى جانب اللغتين اليونانية والعربية . وربما دعا هذا إلى الاعتقاد بأن اللغة القبطية ربما كانت لغة رسمية . ولكننا نستطيع أن ندفع هذا الاعتقاد بما نلاحظه على هذه الكتابات القبطية من أنها قد دونت إما فى آخر الوثيقة ^(١) أو فى ظهرها ^(٢) ، مما يدل على أن هذه اللغة كانت لغة فى الدرجة الثالثة من الأهمية ، ومن أن هذه الكتابات كلها قد دونت بحبر مخالف لحبر النص الأصيل للوثيقة ^(٣) ؛ كما أننا نلاحظ أن هذه الكتابات القبطية يختلف موضوعها عن موضوع النص الأصيل اليونانى العربى ، فموضوعها فى الغالب من نوع واحد هو الصكوك . كما وجد فى بعض الوثائق صكوك باليونانية ^(٤) يضاف إلى ذلك كله أنه لم يعثر حتى الآن على وثيقة رسمية كتبت بالقبطية فى العهد العربى وما يدل على أن كتابة هذه الوثائق باليونانية والعربية كانت عامة

(١) يقول جروهمان فى وصف إحدى هذه الأوراق : « ... وعرض الفراغ الذى بين السطر الأخير من الطراز والسطر الأول من الصك القبطى ٥ سم (ص ١٣) ويقول فى وصف الطراز رقم ٦ الموزع (٨٦ - ٩٦ هـ) وفى أسفل الطراز فراغ عرضه ٥ سم وفى أسفله نص قبطى ، وكذلك رقم ٣ ص ٤٤ يوجد بين النص القبطى ومن الطراز ٥ سم .
(٢) كما فى الطراز رقم ٦٦ ص ٢٣ ، فإن به سطرين من متن قبطى كتباً فى ظهر الطراز وكذلك الطراز رقم ٤ ص ٤٦ توجد أربعة أسطر قبطية فى ظهر الاصل
(٣) أنظر وصف جروهمان للطراز رقم ٦ فإن أصله مكتوب بحبر بنى مائل للسواد بينما السطور القبطية الملحقة به مكتوبة بحبر أسود . وكذلك الحال فى الطراز رقم ٦١ ص ١٣ ثم الطراز رقم ٦٦ ص ٢٣ . وعلى العكس من ذلك الطراز رقم ٣ ص ٤٤ فإن لون الحبر فى نصه الاصلى أسود ، ولونه فى النص القبطى بنى
(٤) أنظر الطراز رقم ٣١ ، ١٨ ، ٥٠ فى الصفحات ١٦ ، ١٧ ، ١٨ على الترتيب

لسكان مصر يخاطب بها اليونان والأقباط وغيرهم ، ماورد في صفحة ٥٤ عن الطراز رقم ٣٠ . ففيه ثبت على عمود ممتد ١١ سطرا يحتوى على أسماء من القبط . . . ويرجع خطه اليونانى المنمق إلى القرن الثامن الميلادى

النظم المالية :

تعمل السياسة المالية لكل دولة على تحقيق التوازن بين مواردها ومصارفها . وقد سارت الدولة الاسلامية على هذه السياسة منذ نشأتها ، فأنشأت بيتاً للمال يقوم على صيافته وحفظه والتصرف فيه لصالح الجماعة الاسلامية ؛ وهو بهذا يشبه وزارة المالية فى العصر الحاضر ، وصاحبه يقوم بمهمة وزير المالية .

بيت المال

والمال الوارد لبيت مال المسلمين إما أن يكون ضريبة عن الأرض

موارده

أو عن أشياء أخرى غير الأرض :

فضريبة الأرض تسمى 'عشراً' وخراجاً . ويؤخذ العشر من غلة الأرض التى أسلم أهلها بدون حرب أو التى 'فتحت' عنوة ، فصارت غنيمة للمسلمين ثم قسمها الخليفة على الفاتحين .

ضرائب الأرض

ويؤخذ الخراج - وهو مقدار معين من المال أو الحاصلات - عن الأرض التى فتحها المسلمون عنوة إذا عدل الخليفة عن تقسيمها على المحاربين ووقفها على مصالح المسلمين بعد أن عوّض المحاربين عن نصيبهم فيها أو استرضاهم كما فعل عمر بن الخطاب ، ويؤخذ عن الأرض التى أفاء الله بها على المسلمين فملكوها وصالحوا أهلها على أن يتركوهم فيها بخراج معلوم يؤدونه إلى بيت مال المسلمين .

يضاف الى ذلك الزكاة التى يدفعها المسلمون عن أموالهم المنقولة

الزكاة

كالذهب والفضة ومتاجرهم وحيواناتهم التي يُرْعَوْنَهَا في السكك المباح (أى المراعى العامة ويقال لهذه الحيوانات السوائم).

وكان لبیت المال دوارد أخرى كنصيبه من الفیء والغنائم والركاز وكجزية الروس التي يدفعها أهل الكتاب عن أشخاصهم ، والعشر الذي يدفعه المشركون عن متاجرهم وسفنهم التي تدخل بلاد المسلمين وموانئهم ، ويُسمى العشور (وهو يقابل ما نسميه في الوقت الحاضر بالضرائب الجركية) كما كانت ترد إلى بیت المال الأموال التي لم يعلم لها مستحق كالأقطة وتركه من لا وارث له والأموال التي يصلح عليها المسلمون أعداءهم ونحو ذلك .

ويجمل بنا أن نأتي بكلمة إجمالية عن كل مورد من هذه الموارد التي تمد بیت المال بالأموال .

العشر فالعشر هو ذلك النصيب الشائع من ثمرة الأرض ومحصولها ويؤخذ من الأرض التي أسلم أهلها وهم عليها ، سواء أكانت من أرض العرب أم من أرض العجم . فانها كانت تترك لهم على أن يدفعوا عنها العشر زكاة لها ، كما يكون عن أنواع الأموال الأخرى . وكذلك يدفع العشر عن الأرض التي ملكها المسلمون من أهلها عنوة إذا قسمها الخليفة على المحاربين وملكهم إياها . والأرض العشرية تظل عشرية ولو ما ملكها ذمی الخراج هو الضريبة التي توضع على الأرض المزروعة التي ملكها المسلمون بالصالح أو بدون حرب لهرب أهلها منها خوفاً ورهبة ، أو الأرض التي ملكوها عنوة وتركوها في أيدي أهلها على خراج يؤدونه لبیت مال المسلمين كأنه أجرة للأرض . ويؤخذ من يستغلها مسلماً كان أو ذمياً . .

وكان الخراج إما شيئاً مقدراً من مال أو غلة كما صنع عمر ما يدفع خراجاً

في أرض السواد^(١) وأما حصّة شائعة مما يخرج من الأرض ، وهو ما يسمى بالمعاملة أو المزارعة ، كما عامل النبي صلى الله عليه وسلم أهل خيبر على نصف ما يخرج من الأرض قليلاً كان أو كثيراً .

مسحت أرض السواد في زمن عمر بن الخطاب فبلغت ٣٦٠.٠٠٠ و ٣٦٠.٠٠٠ جريباً ، فوضع عليها مقادير معينة من الدراهم تختلف باختلاف مقدار الأرض من درهمين إلى عشرة دراهم عن كل جريب . وقد بلغ ما جرى من خراج العراق في عهد عمر ١٨٠.٠٠٠.٠٠٠ درهم ، متوسط جباية الجريب ٣,٥٥٥ درهماً . فإذا كان الفدان يساوي ٣٥٥ من الأجرية فتكون ضريبة الفدان المنزرع قحاً ١٤ درهماً . ولم يكن مقدار الخراج معروفاً تماماً في عهد الخلفاء الراشدين .

مقدار الخراج

وقد اختلف المؤرخون في الخراج ، فقصره بعضهم على جزية الروم التي كان مفروضاً أدائها على أهل الذمة ، وقصره غيرهم على ضريبة الأرض . وكل منهما يخالف عرف الرواة الذين تحدثوا عن مقدار الخراج في الولايات . فهم يعنون بالخراج المال الآتي من إحدى ناحيتين : الأولى الضرائب الشخصية المعروفة بالجزية أو جزية الروم . الثانية ضرائب الأطنان . ولذلك اختلف تقدير المؤرخين للخراج . وقد شرح هذا يحيى بن سعيد الأنطاكي المتوفى سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٦ م) في كتابه (ذيل التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق) لمؤلفه أوتيسخا أو سعيد بن البطريق المتوفى سنة ٣٢٨ هـ (٩٤٠ م)

(١) روى أنه لما فتح السواد في زمن عمر بن الخطاب شاور الناس في قسمة الأرضين التي فتحها المسلمون فأراد قوم قسمتها . فقال عمر فكيف بمن يأتي من المسلمين بعدكم فيجدون الأرض قد اقتسمت ودونت ؟ وبعد مناقشات كثيرة جمع عمر الناس وخطبهم خطبة جاء فيها : قد رأيت أن أحبس الأرضين بعلاجها وأضع عليهم فيها الخراج فتكون فينا المسلمين المقاتلة والذرية ولن يأتي بعدكم . فوافقوه على ذلك . وقد طلبوا إليه أن يقسم أرض الشام كما قسم الرسول خيبر فقال عمر إذا أترك من بعدكم من المسلمين لأشي : وفعل بالشام كما فعل بالعراق فترك أهله ذمة يؤدون الخراج للمسلمين

ولم يكن الخراج إيراداً ثابتاً. فقد كانت ضريبة الأتليان نقل وتكثُر حسب الاهتمام بالتعمير وإصلاح الجسور والخلجان ونحوها ، كما أن جزية الروس كانت تتناقص بالتسوية لدخول أهل الولايات الإسلامية في الإسلام .

يقول الماوردي في كتابه الأحكام السلطانية « فاما الخراج فهو ما وضع على رقاب الأرض من حقوق تؤدى عنها ، وفيه من نص الكتاب بينة خالفت نص الجزية . فلذلك كان موقوفا على اجتهد الأئمة » ثم « يقول والأرضون كلها تنقسم أربعة أقسام : أحدها ما استأنف المسلمون إحياءه فهو أرض عشر ^(١) لا يجوز أن يوضع عليها خراج ، والقسم الثانى ما أسلم عليه أربابه ، فهم أحق به . فتكون على مذهب الشافعى أرض عشر ، ولا يجوز أن يوضع عليها خراج ؛ والقسم الثالث ما ملك عن المشر كين عنوة وقهراً ، فيكون على مذهب الشافعى رحمه الله غنيمة تقسم بين الفاتحين فيملكونها ويدفعون العشر من غلتها . وحينئذ تكون أرض عشر لا يوضع عليها خراج ؛ والقسم الرابع ما صولح عليه المشر كون من أرضهم فهى الأرض المختصة بوضع الخراج عليها »

ويقول (ص ١٣٢) « وأما الأرضون إذا استولى عليها المسلمون فتقسم ثلاثة أقسام : أحدها ما ملكت عنوة وقهراً حتى فارقوها بقتل أو أسر أو جلاء ، فقد اختلف الفقهاء فى حكمها بعد استيلاء المسلمين : فذهب الشافعى رضى الله عنه إلى أنها تكون غنيمة كالأموال ، تقسم بين الفاتحين إلا أن يطبوا أنفسهم بتركها فتوقف على مصالح المسلمين ؛ وقال مالك تصير وقفا على المسلمين حين غنمت ولا يجوز قسمتها بين الفاتحين ؛ وقال أبو حنيفة للإمام فيها الخيار بين قسمتها بين الفاتحين

فتكون أرضاً عشرية أو يعيدها إلى أيدي المشرّكين بخراج يضربه عليها
فتكون أرض خراج . »

وكان الخلفاء يعينون عمالاً مستقلين عن الولاية والقواد كان اليهم
جباية الخراج، فيدفعون منه أرزاق الجند وما تحتاجه المصالح العامة،
ويرسلون الباقي إلى بيت المال ليصرف في مصارفه

جباية الخراج

على أننا إذا أنعمنا النظر في نظام الضرائب الذي أدخله عمرو بن
العاص في مصر وسار عليه الولاية من بعده، فانتاجدان الضرائب في العهد
الاسلامي كانت اخف بكثير عما كانت عليه في عهد الفرس والرومان .
لأن الضرائب العادية التي كان مفروضاً أدائها على كل ذي لم تتجاوز
دينارين في العام عن الشخص وهي جزية الروس ، ودينارين عن
كل فدان وهي جزية الأرض . على أن جزية الروس كان يعفى منها
الأطفال والنساء والشيخوخ

وعلى الجملة فقد كان عهد الخلفاء الراشدين عهد عدل وتسامح لم
يشتهد فيه الولاية في جمع الجزية ؛ وكانت الضرائب المفروضة على الأرض
تقدر على حسب مساحة الأرض وجودتها ونوع المحصول . ولم
تكن تدفع كلها نقداً بل كان يضعها يدفع عينا . وقد عفى الولاية بأمر
الرى لضمأن جباية الخراج ، فعنوا بمراقبة السدود وانشاء الترع والجسور
والعمل على صيانتها . وكانت الضريبة تخفض إذا قل المحصول لسبب
من الأسباب .

الخراج في عهد
الخلفاء الراشدين

وكان الخلفاء يشرفون بأنفسهم على جباية الخراج ويحاسبون
الولاية وعمال الخراج حساباً عسيراً . وقد بلغ من شدة مراقبة عمر
لعماله أن كان يحصى أموالهم قبل توليتهم . فإذا ما انتهت ولايتهم أحصى
ثروتهم من جديد ، وما زاد صادرهم فيه كله أو بعضه ورده إلى بيت
المال . ويعرف هذا بنظام المقاسمة - إلا إذا اتضح له أن هذه الزيادة قد
أتت إلى العامل بطرق مشروعة .

نظام المقاسمة

العشور

وكانت هناك ضريبة أخرى وهي العشر فرضها عمر بن الخطاب على السفن التي تمر ببعض الثغور . ويرجع ذلك إلى أن أبا موسى الأشعري كتب إلى عمر أن تجار آمن المسلمين يأتون أرض الحرب (أى بلاد الكفار الذين ليس بينهم وبين المسلمين عهد) فيأخذون منهم العشر ، فكتب إليه عمر « خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين ، وخذ من أهل الذمة نصف العشر ومن المسلمين درهما من كل أربعين درهما . ولا تأخذ منهم فيما دون المائتين شيئاً . فإذا بلغت مائتين ففيها خمسة دراهم . »

الزكاة

الزكاة^(١) والصدقة شيء واحد . وهي كل ما يؤخذ من أغنياء المسلمين ويوزع بين فقراهم . وكان للصدقة ديوان خاص بها في مركز الخلافة له فروع في سائر الولايات والبلدان . فكان على المسلمين أن يؤدوا الزكاة بمقدار ربع العشر ($\frac{1}{4} \times 2\%$) عما يمتلكونه من المال . وهذه هي زكاة النقد أو النقدين (الذهب والفضة) . أما زكاة الغنم ويلتحق بها العنز ، فكانت تؤخذ بمقدار واحدة من أربعين فمافوق إلى مائة ، ثم يبتدىء من ١٠١ إلى ٢٠٠ بمقدار واحدة في كل مائة . وفي الأبل عن كل خمسة شاة إلى أربع وعشرين ؛ فان كانت خمسة وعشرين فعليها بنت مخاض (ناقة صغيرة بنت سنة أو أقل) . والجاموس والبقر كل ثلاثين عليها واحدة (بنت سنة) إلى ستين . فإذا بلغ العدد ستين ، كانت بمقدار واحدة بنت سنتين . والخيول ، إذا اعتبرت آلة من آلات الحرب فلا زكاة عليها ، كل ذلك إذا كانت هذه الحيوانات تأكل من الكلاء المباح فان عتقها صاحبها فلا زكاة فيها وإذا دخلت في التجارة فتقوّم ويدفع عنها زكاة التجارة . (٢)

زكاة السوائم

(١) من أركى الشيء يركيه إذا نماه أو من زكاة تركية إذا طهره ؛ وإنما سميت بذلك للإشارة إلى أن إخراج شيء من مال الإنسان والتصدق به كغيل بتمية هذا المال وإنزال البركة فيه ، وأيضاً لأن إخراج شيء من المال يطهره ويبعد عن صاحبه نظرة الحقد والحسد من الفقراء ، ويذهب عن نفس صاحبه الشح والاثرة . قال تعالى (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم)

مصرف الزكاة

وكانت الزكاة تقسم على الأشخاص المذكورين في قوله تعالى
(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ
قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالنَّغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ
فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (٢)

(ج) الجزية :

وهي قدر معلوم من المال يدفعه من توفرت فيه الشروط الآتي
بيانها ؛ وهي تشبه الخراج في أن كلا منهما جزء من الفيء يُجنى في
أوقات معينة كل سنة ، ولكنهما يختلفان في أن الجزية موضوعة على
الروس وتسقط بالاسلام وفي أنها قد ثبتت بنص الكتاب الكريم .
وأما الخراج فهو على الأرض ، ولا يسقط باسلام المالك . والخراج
إنما ثبت بالاجتهاد .

وإنما وجبت الجزية على أهل الكتاب كما وجبت الزكاة على المسلمين
حتى يتكافأ الفريقان - وهما رعية لدولة واحدة - في المسؤولية
والأعباء ، كما تكافأ في التمتع بالحقوق وتساويا في الانتفاع بالمرافق
العامة للدولة « إذ ليس في مواشي أهل الذمة من الابل والبقر والغنم
زكاة » . والرجال والنساء في ذلك (أى في عدم دفعهم الزكاة عن
مواشيهم وغيرها) سواء (٢) »

الجزية على الذي
في مقابل الزكاة
على المسلم

فليست الجزية دينا على الذمى يُستوفى منه بالوسائل التي تستوفي
بها الديون . فمن وجبت عليه الجزية ومات أو أسلم قبل دفعها لم تؤخذ من
تركته ولم يطالب بها ورثته (٣)

وإنما تجب الجزية على الرجال الأحرار العقلاء الأصحاء القادرين

على من تجب الجزية

(١) سورة التوبة ٩ : ٦٠

(٢) كتاب الخراج لأبي يوسف ص ٧٠

(٣) شرحه

على الدفع ، ولا تؤخذ جزية من مسكين يُتصدق عليه ولا من لا قدرة له على العمل ، ولا من الأعشى أو المقعد والمجنون وغيرهم من ذوى العاهات ، ولا من المترهين فى الأديرة وأهل الصوامع إلا إن كان واحد من هؤلاء ذا غنى ويسار .

ويلاحظ أن الشرع لم يفرض الجزية إلا على الأشخاص الذين لو كانوا مسلمين لوجب عليهم الجهاد ، وأنه أعفى من الجزية الأشخاص الذين يُعفيهم من القتال وفى ذلك يقول الماوردى (١) :

« ... واسمها مشتق من الجزاء ؛ فيجب على ولى الأمر أن يضع الجزية على رقاب من دخل الذمة من أهل الكتاب ليقرّوا بها فى دار الاسلام ويلتزم لهم ببذلها بحقين : أحدهما الكف عنهم والثانى الحماية لهم ليكونوا بالكف آمنين وبالحماية محروسين »

مقدار الجزية : أما مقدار الجزية فقد ذهب أبو حنيفة إلى تصنيفها ثلاثة أصناف :

- ١ — أغنياء يؤخذ منهم ثمانية وأربعون درهما
 - ٢ — ومتوسطون يؤخذ منهم أربعة وعشرون درهما
 - ٣ — وفقراء يكسبون ويؤخذ منهم اثنا عشر درهما
- ولاشئ على غير الكسوب (٢) من الفقراء ؛ فحدد نهايتها الدنيا والعليا ، ومنع من اجتهد الولاية فيها

جباية الجزية : أما جبايتها فقد أوصى صاحب الشرع وقادة الاسلام بالرفق والانصاف فى جباية الجزية من أهل الكتاب وصيانة أرواحهم وأموالهم من العدوان ، وعبث الجباة والولاية . وتقضى القاعدة الفقهية أودستور الاسلام فيما يتعلق بطريقة أخذ الجزية من دافعيها بأنه « لا يضرب أحد من أهل الذمة فى استيذائهم الجزية (أى لملهم على دفع

(١) الاحكام السلطانية ص ١٣٧

(٢) كتاب الخراج لابی يوسف ص ٦٩ - ٧٢ ، وتفسير البيضاوى سورة التوبة ٩ : ٢٩

الجزية) ، ولا يقاموا في الشمس ولا غيرها ، ولا يجعل عليهم في أبدانهم شيء من المكاره . ولكن يرفق بهم ويحبسون حتى يؤدوا ما عليهم »
والأخبار الواردة في معاملة المسلمين في صدر الاسلام لأهل الكتاب كثيرة تشهد بروح العدل والرفق والشعور النبيل نحوهم .
روى أبو يوسف في كتابه « الخراج » عن أبي ظبيان قال : « كنا مع سلمان الفارسي في غزاة ، فر رجل وقد جنى فاكهة فجعل يقسمها بين أصحابه ؛ فر بسلمان فسبه ، فرد على سلمان وهو لا يعرفه . فقيل له هذا سلمان ؛ فرجع فجعل يعتذر إليه ثم قال له الرجل ما يحل لنا من أهل الذمة يا أبا عبد الله ؟ قال : ثلاث : من عمالك إلى هداك ، ومن فقرك إلى غناك ، وإذا صحبت صاحب منهم تأكل طعامه ويأكل طعامك ويركب دابتك وتركب دابته في أن لا تصرفه عن وجهه يريد »

معاملة السلف لأهل
الكتاب

وروى أن عمر بن الخطاب مر على باب قوم عليه سائل يسأل شيخا كبيرا ضرير البصر ؛ فضرب عضده من خلفه وقال : من أي أهل الكتاب أنت ؟ فقال : يهودي . قال : فما ألك إلى ما أرى ؟ قال : أسأل الجزية والحاجة والسن ؛ فأخذ عمر بيده وذهب إلى منزله فوضع له بشيء من المنزل ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال : انظر هذا وضرباه (وأشباهه) فوالله ما انصفناه ان أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم . إنما الصدقات للفقراء والمساكين . وهذا من مساكين أهل الكتاب ؛ ووضع الجزية عنه وعن ضربائه (١)

وهذا أبو يوسف قاضي هرون الرشيد يكتب إليه والدولة العباسية في أوج عزها وسلطانها وبطشها فيقول : قد ينبغي يا أمير المؤمنين أيدك الله أن تتقدم في الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد صلى الله عليه وسلم والتفقد لهم حتى لا يُظلموا ولا يُؤذوا ولا يُكلفوا فوق طاقتهم

ولا يؤخذ شيء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم . فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : من ظلم معاها أو كلفه فوق طاقتها فأنا حجيجها . وكان فيما تكلم به عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه عند وفاته : أوصى الخليفة من بعدى بذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكفوا فوق طاقتهم . وروى عن نافع عن ابن عمر أنه قال : كان آخر ما تكلم به النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : احفظوني في ذمتي (١) ؛ وعن ابن عباس أنه قال : ليس في أموال أهل الذمة إلا العفو . (٢)

وليس الجزية من محدثات الاسلام بل هي قديمة . فرضها اليونان على سكان آسيا الصغرى حول القرن الخامس قبل الميلاد ، كما وضع الرومان الجزية على الأمم التي أخضعوها ؛ وكانت سبعة أمثال الجزية التي وضعها المسلمون .

وإنما تؤخذ الجزية من غير المسلمين . قال الله تعالى في كتابه الكريم (قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ) (٣) وأما عبدة الأوثان من العرب ومن ارتد عن الاسلام فانه لا يقبل منه الا الاسلام أو السيف .

والفبيء هو كل مال وصل من المشركين عفوا من غير قتال ولا باجفاف خيل ولا ركاب فهو كمال الهدنة والجزية والخراج .

الفر.

(١) الاحكام السلطانية للماوردي ص ١٣٧

(٢) كتاب الخراج لابن يوسف ص ٧٠

(٣) سورة التوبة ٩ : ٢٩ . وقد روى صاحب الاحكام السلطانية عن بعض النفاير في قوله تعالى (عن يد) أى عن غنى وقدره . وفي قوله تعالى (وهم صاغرون) أى قابلون أن تجرى عليهم أحكام الاسلام (ص ١٣٧)

وكان للنبي صلى الله عليه وسلم خمس الفى يقسم خمسة أسهم متساوية : كل سهم منها لأربابه عملاً بقوله تعالى (مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ) . وبعد موت الرسول عليه السلام ردت الى بيت المال .

وكانت الأربعة الأخماس الباقية تقسم في صدر الاسلام بين الجند في الأعمال الحربية لشراء الأسلحة وغيرها من معدات الحرب حتى دون عمر الدواوين وقدر أرزاق الجند .

وأهل الغنمة غير أهل الفى . فلا تصرف الصدقات لأهل الفى ولا يصرف الفى إلى أهل الصدقات . فان الغنمة والفى للمجاهدين في سبيل الله وأهل الهجرة وأهل الصدقات من غير المقاتلة أو المهاجرين . (١)

هى كل ما أصاب المسلمون من عساكر أهل الشرك بالقتال . وتشتمل على أربعة أقسام : وهى الأسرى والسبي والأرضين والأموال . فالأسرى هم الرجال المقاتلون من الكفار الذين يقعون فى الأسر . وأما السبي فهم النساء والأطفال الذين يقعون فى أيدي المسلمين ، فلا يجوز قتالهم ، وإنما يقسمون فى جملة الغنائم . وان كان النساء من غير أهل الذمة أو بمن ليس لهن كتاب - كالدهرية وعبداء الأوثان - وامتنعن عن الاسلام يقتلن أو يسترقن . ويجوز قبول الفدية عنهن . فان فودى بهن أسرى من المسلمين فى أيدي قومهم عوض عنهم من وقوعهن فى نصيبه . وكذلك فى حالة المن عليهم . يدل على هذا ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم مع هوازن حينما أتوه مستعطفين . وقد قسم السبي على الجيش (٢) . وكانت الأرض التى تؤخذ فى الحرب عنوة يخرج أهلها منها لأنها غنمة كالأموال . واختلفوا فى كيفية تصرف الامام فيها : هل يحبسها لمصالح

الغنمة

(١) الماوردى ص ١٢١

(٢) أنظر ص ١٨٣ — ١٨٤ من هذا الكتاب

المسلمين؟ أم يقسمها على المحاربين؟ فالشافعي يرى تقسيمها كما فعل أبو بكر على رأى الشافعي . وقال مالك إنها تصير وقفًا كما فعل عمر ، وقال أبو حنيفة بالخيار بين قسمتها أو وقفها .

وأما الأموال المنقولة ، وهى ما يمكن نقله كالماشية والمال ، فكانت تقسم بين المقاتلة . وكذلك الحال بالنسبة للأسلاب كثياب القتلى وأسلحتهم ودوابهم . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسمها حسبما يرى .

ولما اختلف الصحابة فى تقسيم غنائم بدر شرح القرآن طريقة قسمها فى هذه الآية (وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ) (١) فكان للإمام مع ذكر فى الآية الخمس وصارت الأربعة الأ خمس الباقية حقًا للفاحين (٢)

مصارف بيت المال :

وكان المال الذى يأتى من الموارد المتقدمة ينفق على مصالح الدولة بحسب ما يراه الامام ، فتدفع منه أرزاق القضاة والولاة والعمال وصاحب بيت المال وغيرهم من الموظفين . ولا يصرف للولاة ولا للقضاة شئ من أموال الصدقة ، بخلاف والى الصدقة فانه يصرف رزقه منها . وكانت زيادة أرزاق القضاة والولاة ونقصها من حق الامام

أعطيات الجند : ويراد بها رواتبهم التى يستولون عليها فى أوقات معينة من العام . وكانت فى أيام النبى صلى الله عليه وسلم غير محدودة ولا معينة ، وإنما كانوا يأخذون من أربعة أخماس الغنيمة ، وما يرد من خراج الأرض التى بقيت فى أيدي أهلها كما كانت تقسم بينهم بالسوية .

(١) سورة الأنفال ٨ : ٤١

(٢) الأحكام السلطانية ص ١٢٥ - ١٢٧

أرزاق القضاة

أعطيات الجند

ولما ولي أبو بكر رضى الله عنه سوتى بينهم فى العطاء قائلا « هذا معاش فالأسوة فيه خير من الأثرة ». ولما ولي عمر رضى الله عنه جعل العطاء بحسب السبق الى الاسلام . فكانت الأرزاق كما يأتى :

لأزواج النبى عليه الصلاة والسلام ولعمه العباس ١٠٠٠٠ درهم إلا عائشة فقد أعطاها ١٢٠٠٠ لمكانتها ومكانة أبيها من الرسول (١) ؛ ولمن شهد بدرا والحسن والحسين ٥٠٠٠ درهم ؛ ولمن كان اسلامه كاسلام أهل بدر ولم يشهدوها ٤٠٠٠ درهم ؛ ولعبد الله بن عمر ولبعض أبناء المهاجرين والأنصار ٣٠٠٠ درهم ؛ ولأبناء المهاجرين والأنصار ٢٠٠٠ درهم ؛ ولأهل مكة ٨٠٠ درهم ؛ ولسائر الناس مبالغ تتراوح بين ٣٠٠ ، ٤٠٠ درهما ؛ ولنساء المهاجرين والأنصار مبالغ تتراوح بين ٢٠٠ ، ٣٠٠ درهما .

وكان يعطى أمراء الجيوش ٧٠٠٠ ، ٨٠٠٠ ، ٩٠٠٠ درهما بحسب الأعمال التى يقومون بها ؛ هذا فضلا عما كان يدفع لنسائهم وأولادهم ، وما فرض لكل منهم من الخنطة . وهو ما يخرج من مساحة جريبين . وقد ظلت أعطيات الجند على هذا النحو أيام الخلفاء الراشدين ؛ فلما طمع بنو أمية فى الملك واحتاج معاوية إلى استنجد العرب زاد فى أعطيات جنده الذى كان يبلغ عدده ستين ألفا . وكان ينفق عليهم ستين مليون درهم فى العام . فلما صارت اليهم الخلافة وتوطدت دعائم دولتهم انقصوا ذلك المبلغ الضخم الى أقل من النصف

٣ - كرى الأنهار وإصلاح مجاريها :

(١) تحرير الأحكام فى تدبير أهل الاسلام لبدر الدين بن جماعة المنشور بالعدد الرابع سنة

١٩٣٤ من مجلة Islamica ص ٣٨٤

Von Kremer, Culturgeschichte des Orients, tran. by S. Rhuda Bukhsh. p. 57

وكان يصرف من بيت المال على كرى الترع الكبيرة والمجاري التي تأخذ من الانهار الضخمة كدجلة والفرات لتوصيل الماء إلى الاراضى البعيدة .

٤ - حفر الترع للزراعة وغيرها .

٥ - النفقة على المسجونين وأسرى المشركين من مأكل ومشرب وملبس ودفن من يموت منهم . (١) .

٦ - المعدات الحربية .

٧ - العطايا والمنح للادباء والعلماء .

هذا ، ولا يفوتنا أن نذكر أن النظام الذى أقره عمر كان يفرض لكل مسلم دوّن اسمه فى سجلات الحكومة مكافأة سنوية عن خدماته الحربية ، عدا ما كان يمنحه من الأجر (فريضة) لأبنائه لافرق فى ذلك بين العرب والموالى .

على أن هناك أمراً آخر جديراً بالملاحظة ، ذلك أن عدد هؤلاء لم يكن كبيراً فى عهد هذا الخليفة . لذلك أصبح العطاء وقفاً على الدهاقين الذين ساعدوا العرب فى فتوحاتهم . وبذلك يمكننا أن نعلل ما ذهب إليه البلاذرى (٢) من أن العرب فى ذلك الوقت لم يكن يحفظهم أن يقاسمهم غيرهم ممن دخلوا فى الاسلام من غير العرب نصيبهم من الغنائم . وقد ذكر اليعقوبى (٣) أن علياً وحده هو الذى تمسك بالقواعد القديمة ؛ ولا نعلم إلى أى حد اتبع الأمويون الطريقة التى وضعها عمر فيما يتعلق بالأعطيات السنوية .

على أننا لا نشك فى أنهم قد أنقصوا نقصاً كبيراً أعطية هؤلاء الذين باءوا بسخطهم (كالعلوين مثلاً) ، كما استبدوا بما فى بيت المال

(١) الأحكام السلطانية للأوردى ص ١٩٤ — ١٩٦

(٢) فتوح البلدان ص ٤٦١

(٣) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٢١٣

من الأموال يبدلونها لأفراد أسرهم . ومع ذلك فقد كان الأمويون على جانب كبير من الحكمة وبعد النظر لتلافي ما عسى أن يجره عليهم ذلك النظام الذي كان يقضى بنقص عطاء رعاياهم من العرب عن القدر الذي فرضه لهم عمر بن الخطاب .

ولم يرض العرب أن يقاسمهم الموالى ثمرات ما يفتحونه من البلاد . تلك المقاسمة التي كانت تنقص نصيبهم منها نقصا محسوسا .

وقد أجحف مؤرخو الغرب في الحكم على هذه الإصلاحات التي قام بها عمر بن عبد العزيز ، والتي كان الغرض منها القضاء على ما قام به في سبيل انتشار الاسلام من العقبات ، وذلك بمنحه الموالى الحقوق التي كان يستمتع بها المسلمون من العرب وحدهم ، واعفائهم من الجزية التي كان يدفعها الكفار ، ثم مقاسمتهم إخوانهم المسلمين من العرب نصيبهم من الأعطيات السنوية (١)

ولا ريب في أن سياسة ذلك الخليفة لم توقظ إلا آمالا لم تستطع الحكومة تحقيقها ؛ فقد كانت الحال تتطلب علاجا آخر غير تلك السياسة التي سار عليها عمر بن عبد العزيز . ففي العراق أنضب الأعطيات السنوية بيدت المال ، بعد أن تأثرت موارده تأثيرا محسوسا من جراء إلغاء الجزية في خراسان . وهكذا أعقبت تلك الفوضى في الشؤون المالية بعد موت عمر بن عبد العزيز سياسة خراجية جائرة

فان فلتون واصلاحات
عمر « وعلى الرغم من ذلك ، فينبغي أن يتورع المؤرخ عن القسوة في الحكم على تلك الإصلاحات التي قام بها عمر بن عبد العزيز . ومن

Von Kremer, Culturgeschichte, vol, I. p. 174; (١)
Miller, Der Islam in Morgen-und-abendland, vol.
I. p. 438 Suiv.

العدل أن أطالب الذين يشايعون الحجاج بن يوسف ضد ذلك الخليفة المصلح بالاجابة على هذين السؤالين : (١) ألم يكن خيرا للأمويين أنفسهم مساواتهم جميع العناصر في الحقوق ، تلك السياسة التي لا يبعد أن يكون عدم الأخذ بها هو السبب الأول في سقوط دولتهم ؟ (٢) وإذا لم تكن تلك المساواة في مصلحة الخلفاء من بني أمية ، ألم تكن من مصلحة الاسلام نفسه ؟ ليس ثمة أحد كائنا من كان يستطيع أن يشك في صحة هذه الملاحظة الثانية : فان النظام العسكري الذي وضعه عمر بن الخطاب لم يعد يلائم حال الأمة العربية في ذلك الحين . «
وكان عمر بن عبد العزيز أول من فطن من خلفاء بني أمية إلى أن وقت التفرغ للإصلاحات الداخلية قد آن ، كما اقتنع بذلك عمر بن الخطاب من قبل . ومن ثم كان يحول جهده دون القيام بفتوحات جديدة . ولم تكن غلطة عمر بن عبد العزيز سوى رجعيته ومحافظة الدينية ، وتمسكه الشديد بالنظام الذي سنه عمر بن الخطاب لما كان يمكنه لذلك الخليفة في أعماق نفسه من الاحترام والاكبار ، والذي لم يكن إلا صورة صادقة منه رغم ما كانت تتطلبه الحالة من العدول عن ذلك النظام عدولا تاما . فقد كان لزاما أن تجد الحكومة أعمالا جديدة غير الغزو والفتح للرابطين في الولايات الاسلامية من جند العرب حتى لا يكونوا عالة على بيت المال

أثر هذه السياسة
في بيت المال

ولا غرو فقد كانت السياسة التي سار عليها عمر بن عبد العزيز تحول دون ملكية الجند للأرض ، بينما كانت الحالة تقضى بمنحهم إياها لاستغلالها واستثمارها ، كما كانت تسخو في منح الأعطيات حتى للوالى من المسلمين في الوقت الذي كانت تتطلب فيه مالية البلاد الغاء تلك الأعطيات حتى ما كان يمنح منها للعرب أنفسهم .

وهكذا حال ذلك التصرف الذى أنضب موارد الدولة ، وجر الخراب على بيت المال دون نجاح تلك السياسة التى كانت ترمى فى ذاتها إلى الإصلاح واعفاء الجدد فى الاسلام من الجزية . ومن ثم نرى أن سياسة عمر بن عبد العزيز كانت أبعد أثراً فى وهن العرش الأموى وهن العرش الاموى من سياسة الحجاج بن يوسف وسوء إدارته ؛ فان الآمال التى أثيرت فى النفوس لم تنطفئ جذوتها حتى أصبحت الشعوب من غير العرب تنتظر خلاصها من حكم بنى أمية ، بعد أن غدت تلك السياسة الخراجية فى نظرهم عبثاً ثقيلاً لا قبل لهم باحتماله ، تلك السياسة التى فاجأهم بها الأمويون ولا سيما فى خلافة هشام بن عبد الملك (١) على أثر فشل ذلك الإصلاح الذى قام به عمر بن عبد العزيز . (٢)

نظام الضرائب فى عهد بنى أمية :

زادت الضرائب فى عهد بنى أمية عما كانت عليه فى عهد الخلفاء الراشدين . فلم يراع الخلفاء الأمويون القواعد التى قررها أسلافهم ، بل تجاوزوا حدود الضرائب التى فرضوها . وقد كتب معاوية إلى وردان عامله على مصر : « أن زد على كل امرئ من القبط قيراطاً » ، فكتب اليه وردان « كيف أزيد عليهم وفى عهدهم أن لا يزداد عليهم ؟ »

فى عهد معاوية
(فى مصر)

وكانت الحال كذلك حتى فى الولايات العربية ؛ فقد صادر أحد اخوة الحجاج بيلاد اليمن أملاك الأهالى ، كما أثار حنقهم وسخطهم بفرضه عليهم ضريبة معينة (وظيفة) ، وذلك عدا العشر الذى قرره الاسلام (٣)

عهد عبد الملك
(فى اليمن)

وفى عهد عبد الملك عمل فى خراسان إحصاء جديد للسكان عامة ،

(١) انظر اليعقوبى ج ٢ ص ٣٧٦ لاستقصاء ما كتبه عن العراق

(٢) انظر كتاب السيادة العربية ترجمة المؤلف ص ٥٦ — ٦٠

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٧٣

وكلف كل شخص بسداد ما فرض عليه من الضريبة . وزادت جزية كل شخص ثلاثة دنانير عما كانت عليه من قبل (١) . وكذلك كانت الحال في العراق حيث كانت تزيد الضرائب الاستثنائية في عبء ما كان يثقل الأهالي من الضرائب المقررة .

بين عمر بن
عبد العزيز وعمر
ابن الخطاب

وقد أمر عمر بن عبد العزيز جبابة الخراج أن لا يأخذوا من الأهالي من الدراهم ما زاد وزنه على أربعة عشر قيراطا ؛ وهو ما أمر به عمر ابن الخطاب . وقد رأى أن العمال كانوا يأخذون دراهم أثقل وزنا من تلك الدراهم التي فرضها عمر بن الخطاب ، مما كان يزيد زيادة فاحشة في الضرائب التي كان يدفعها الأهالي . ويتبين لنا من ذلك النظام الذي أقره عمر بن الخطاب أن الأهالي كانوا يدفعون عدا الضريبة المقررة نفقات صك النقود وضربها ، وكذا نفقات العقود الرسمية ومرببات عمال الإدارة . هذا عدا هدايا النيروز والمهرجان (٢)

هدايا النيروز
والمهرجان

ولا غرو فقد كانت تتخذ إمرة إحدى الولايات وسيلة للحصول على الثروة وجمع المال . يدل على ذلك أيضا ما شاع على الألسن في تلك الولايات « أكل ولاية أو حلبها كما تحلب الناقة » - تلك العبارة التي طالما كانت تستعمل للدلالة على ذلك المنصب (٣) .

ولم يكن الرؤساء وحدهم هم الذين يثرون على حساب بيت المال ؛ فقد كان هناك طائفة من صغار الموظفين لا هم لهم إلا الأثراء من أموال الدولة .

وكان من أثر تلك الصعوبات التي كانت تعترض الحكومة في سبيل استرداد تلك الأموال أن فكر وإلى العراق (عبيد الله بن زياد) في استبدال أولئك العمال من العرب بغيرهم من الفرس ؛ ومن ذلك الحين

استبدال العمال من
العرب بغيرهم من
الفرس

(١) كتاب الخراج لأبي يوسف ص ٢٣

(٢) تاريخ البعقوبي ج ٢ ص ٢٥٨

(٣) البلاذري ص ١٩٤ - ٢١٦ و ٤١٤ في الطبري ج ٢ ص ٩ - ١٠

كان يعهد إلى الدهاقين (كبار ملاك الأراضى من هؤلاء) بجباية الخراج .
ولا غرو فقد كان هؤلاء الدهاقين « أبصر بالجباية وأوفى بالأمانة (١)
وفي عهد عبد الملك بن مروان كان يعمل تحقيق دقيق مع الجباة عند
اعتزالهم أعمالهم الادارية ؛ وكانوا يرغمون على رد ما سلبوه من
الأموال (٢)

العمارة :

كانت المباني عند العرب في غاية البساطة والسذاجة . فلم يكن في مكة
الا مباني قليلة أهمها « السكبة » . وكانت منازل الأغنياء تبنى بالحجارة
أو اللبن ، بينما كانت معظم مباني المدينة من اللبن
وكانت المنازل في الغالب طبقة واحدة ولها فناء ، وفي وسطها بئر .
فلما اتسعت الفتوح الاسلامية في عهد عمر بن الخطاب وزادت الثروة أقبل
على المدينة عاصمة الدولة جموع المعماريين من الاجانب فارتقى فن العمارة ،
وشيد مشاهير العرب في مكة والمدينة الدور الواسعة من الحجارة
والرخام . ويقال إن الدار التي بناها عثمان كانت غاية في العظمة والبهاء .
وقد هدم مسجد الرسول بالمدينة وأعاد بناءه بالحجارة والرخام .
ويقول المسعودي إن الصحابة في عهد عثمان أقاموا لأنفسهم
دورا فاخرة . وقد شيد الزبير بن العوام دورا نفخمة في المدينة والكوفة
والفسطاط والاسكندرية .

ولما استولى العرب على بلاد الشام وفارس اتخذوا لأنفسهم
طرازا للعمارة خاصا بهم يتناسب وطبيعتهم وحالة معيشتهم . وقد
فاق هذا الطراز طراز الفن البيزنطي والفارسي من حيث الرقي
وجمال التنسيق والاتقان . والعرب - كما لا يخفى - مولعون بالتقليد ،

(١) الطبري ج ٢ ص ٤٥٨ ، ٩٩٥

(٢) انظر كتاب السيادة العربية ترجمة المؤلف ص ٢٧ — ٢٣

كما أنهم معروفون بالابتكار المبني على هذا التقليد . وهم في ذلك أشبه بالامة الانجليزية .

ومما تجب ملاحظته أن العمارة العربية (١) قد امتازت بالأعمدة والمنحنيات والمآذن والقباب . وهي تماثل النخيل الذي هو أعز شيء عند العرب ، كما أنهم اتبعوا في تخطيط المدن ما يناسب حالتهم وميولهم الاجتماعية .

وكانت المدن تحاط بأسوار منيعة للدفاع عنها . وكان لأصحاب كل حرفة حي خاص من أحياء المدينة يعرف باسمهم . وقد عُرف العرب ببعضهم للنظام المركزي ؛ فكانوا أينما حلوا تجمعوا قبائل و فرقا منفصلة لكل قبيلة حيا ومنازلها ومسجدها وسوقها ومقابرها . وهذا التقسيم يلائم ما درجوا عليه من حب الحرية والميل إلى عدم الخضوع إلى سلطة حكومية تقيد حريتهم (٢) . ولعدم ميلهم إلى الاندماج كان لكل حي أو قسم من المدينة أبواب منيعة تفصله عن الأقسام الأخرى يقوم عليها الحراس

وإذا ما قامت ثورة أو اضطراب في المدينة كانت تغلق الأبواب فتقطع المواصلات بين أجزاء المدينة المختلفة .

وقد عنى العرب بتخطيط المدن وشق المجارى لتوصيل الماء الصالح للشرب اليها .

تأسيس البصرة :

شرع العرب على أثر انتصارهم في موقعة القادسية في تخطيط مدينتي

Ameer Ali, A Short History of the Saracens, p. 194. (١)

Ameer Ali, A Short History of the Saracens, p. 194 (٢)

البصرة والكوفة . وكان الباعث على انشائها حاجة العرب إلى نقط عسكرية لتكون معاقل لجيوشهم ، فاخطت عتبة بن غزوان (١) البصرة في ربيع سنة ١٦ هـ في خلافة عمر بن الخطاب ؛ أما الكوفة فقد اختطها سعد بن أبي وقاص .

وكانت البصرة في أول أمرها أشبه بالقرية منها بالمدينة ، فأنشئ بها أولاً المسجد وبجواره دار الإمارة ، وحولها خطط لكل قبيلة خطة . وكان بكل منها مسجد ومقبرة . وقد اتخذ كل ذلك في مبدأ الأمر من الغاب (٢) . ولما وجد العرب أن الغاب لا يقوى على مقاومة النار شرعوا في بناء دورهم باللبن . فلها ازدادت ثروتهم بنوها بالآجر والحجارة .

ولم يكد يمضي عشرون سنة على انشاء البصرة حتى أصبحت من أهم مراكز العالم الاسلامي ، وخاصة فيما يتعلق بالتجارة حتى حلت محل مدينة الأبلّة (٣) التي فتحها عتبة بن غزوان (٤) ، وذلك لاتصالها عن طريق البحر بالهند والصين .

وكان معظم سكان البصرة من عرب الشمال (مضر وريبعة) . وقد وفد إليها عدة جاليات أجنبية من الهند والصين ، حتى أصبح سكانها خليطاً من العرب وغير العرب ؛ وكان من أثر ذلك أن ظهرت بها حياة أدبية جديدة ، وتأثرت الحركة العلمية الاسلامية بالفلسفة القديمة .

سكان البصرة

(١) الطبري ج ٤ ص ١٤٨

(٢) Von Kremer, Orient Under the Caliphs,

trans. by S. Khuda Bukhsh, p. 100

(٣) وتقع على رأس الخليج الفارسي .

(٤) الطبري ج ٤ ص ١٥٠ - ١٥١

تأسيس الكوفة:

لم يطب للعرب المقام في « المدائن » حاضرة بلاد الفرس لعدم
تعودهم معيشة المدن الكبيرة ، ولأنهم فطروا على حب الصحراء ذات
الفضاء المتسع والهواء النقي والكلأ والمرعى لغذاء إبلهم . ولما رأى عمر
ما عثرى العرب من سقم ، أمر سعد بن أبي وقاص أن يبعث رائدين
يرتادان منزلاً برياً لا يحول بينه وبين جنده الماء إذا ما أراد القدوم
عليهم ؛ فبعث سعد سلمان الفارسي وحذيفة لارتداد موضع تتوافر فيه
هذه الشروط ، فوقع اختيارهما على مكان غربي الفرات . ولما أقر عمر
هذا الاختيار غادر سعد بن أبي وقاص المدائن ونزل بجنده في الكوفة ،
وذلك في المحرم سنة ١٧ هـ (يناير سنة ٦٣٨ م) ، وعسكر جند العرب
- وعددهم أربعون ألفاً - في الخيام أولاً ثم بنوا بيوتاً من عيدان القصب .
وسرعان ما أتت عليها النار . فأمر الخليفة عمر بأن تبني الدور باللبن ؛
فاختط شوارعها وأزقتها أبو الهياج بن مالك الأسدي ، وأسس بها جامعا .
وبني في مقدمته مظلة مقامة على أساطين من الرخام . وجعل العرب
المسجد في وسط المدينة حيث تفرعت الطرق والدروب . وبني في نهاية
أحد هذه الطرق دار سعد بن أبي وقاص ويبعد عن المسجد بمائتي
ذراع ، واتخذ فيه بيت المال .

وقد قام ببناء المسجد ودار الامارة بنامون من الفرس على مثال
مباني الآكاسرة . وكانت الطرق فسيحة رحبة حتى لا يحتاج عن
العرب هواء البادية الذي ألفوه

وسرعان ما زادت أهمية البصرة والكوفة حتى أصبحتا من أعظم
المراكز السياسية والحربية والأدبية في البلاد الإسلامية ، وغدت
الكوفة قصبة العراق الأعلى بعد الفتح الإسلامي . فكان والي الكوفة

يعين من قبله الولاية على الباب وأذربيجان وهمذان والرى وأصبهان
والموصل وقرقيسيا

اتخاذ على الكوفة
حاضرة خلافته

ولما ولي على بن أبي طالب الخلافة ترك المدينة واتخذ الكوفة
حاضرة لخلافته لأن بها شيعته وأنصاره ، ثم لخصوبة أرضها وكثرة
خيراتها ، ووقوعها في مكان متوسط سهل التواصل مع أجزاء الدولة
الاسلامية . ومما دعا عليا إلى هذا الاختيار ماعول عليه من حرب
معاوية الذي امتنع عن بيعته . ولكن الأيام قد برهنت على أن عليا
لم يوفق في اختيار تلك الحاضرة الجديدة ، فان تركه المدينة قد هدم
التوازن الذي كان بين القبائل العربية في عهد الخلفاء من قبله . وقد تبين
له بعد فوات الفرصة أن اعتماده على أهل الكوفة لم يكن إلا سرايا ؛
فانه لم يستطع أن يقر النظام في حاضرة ملكه الجديدة . وكان على يجب
الكوفة ويؤثرها على المدينة حتى قال فيها : الكوفة كنز الايمان وحجة
الاسلام وسيف الله وريحه يضعه حيث شاء . والذي نفسى بيده
لينتصرن الله بأهلها في شرق الأرض وغربها كما انتصر بالحجاز . وكان
إذا أشرف عليها قال :

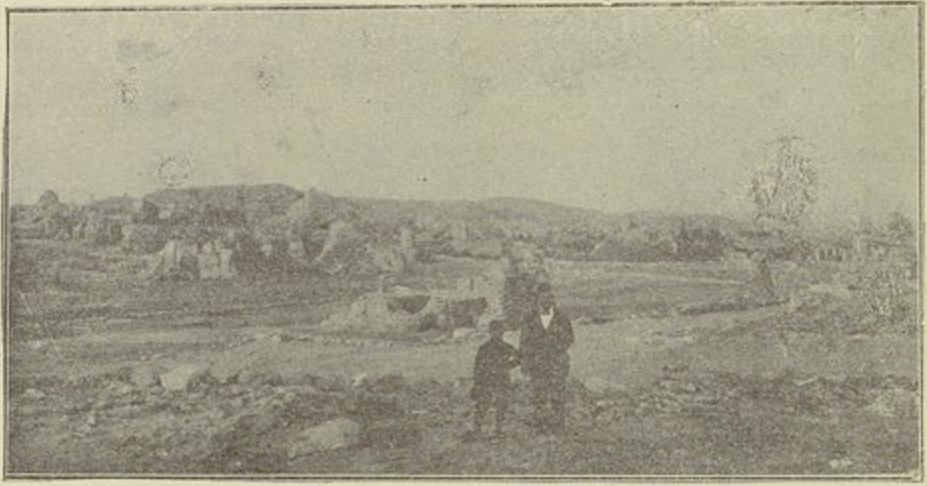
يا حبذا مقامنا بالكوفة تعرفها جمائنا العلوقة أرض سواد سهلة
معرؤفة . (١)

تأسيس الفسطاط :

بعد أن تم لعمر بن العاص فتح الاسكندرية وإجلاء الروم عنها
وطردهم من مصر ، أراد أن يجعلها مقرا لولايته لما فيها من عمران وأبنية ،
وكتب بذلك إلى عمر بن الخطاب ؛ فسأل عمر الرسول الذي أحضر إليه

(١) الطبري ج ٤ ص ١٤١ ن الفخرى : الآداب السلطانية ص ٧٨ م معجم البلدان :

أنظر لفظ الكوفة - أنظر ص ٢٧٧ من هذا الكتاب .



بعض أطلال مدينة الفسطاط

كتاب عمرو : « هل يحول بيني وبين المسلمين ماء ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل . فكتب إلى عمرو : إني لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف ، فلا تجعلوا بيني وبينكم ماء متى أردت أن أركب إليكم راحتي حتى أقدم عليكم قدمت »

ولا شك أن مدينة الإسكندرية لم تعد صالحة لأن تكون حاضرة مزاياموقع الفسطاط مصر كما كانت منذ أيام الاسكندر ؛ فكان لزاماً أن تكون العاصمة - على أثر انتقال مركز السيادة على مصر إلى بلاد العرب - إما على البحر الأحمر ، وإما على نقطة تسهل منها المواصلات البرية . ولما لم تكن العرب أمة بحرية لم يكن بد من أن يتخذوا حاضرتهم الجديدة في نقطة برية سهلة الاتصال ببلاد العرب . أضف إلى هذا حكمة عمرو في اختيار موقع الفسطاط ، لأنه كان يستطيع فيه أن يشرف على قسمي البلاد المصرية شمالاً وجنوباً . هذا عدا قربه من الطريق إلى بلاد العرب . وكان موضع الفسطاط فضاء ومزارع بين النيل والمقطم . ولم يكن

في هذا المكان من البناء سوى حصن بابليون حيث كانت ترابط فيه الحامية الرومية . وكان إلى الشمال والشرق من هذا الحصن أشجار ونخيل وكروم ؛ وبين الحصن والجبل عدة كنائس وأديرة . وقد عين موضعها الأستاذ يوسف أحمد فقال : إنها تقع في المنطقة التي حول جامع عمرو ، والتي تمتد شرقا حتى قرب سفح جبل المقطم ، وشمالا حتى جهة قِمِّ الخايج وقناطر السباع وجبل يشكر ، وغربا حتى النيل ، وجنوبا حتى ساحل أثر النبي .

تسمية الفسطاط

وقد قيل في تسمية الفسطاط بهذا الاسم أقوال كثيرة . فقال بعضهم إن عمرو بن العاص لما أراد المسير إلى الاسكندرية أمر بفسطاطه أن يُرفع ؛ فاذا بيامة قد باضت في أعلاه فقال : لقد تحرّمت بجوارنا ، أقروا الفسطاط حتى يطير فراخها فأقر في موضعه . فبذلك سميت الفسطاط . وذكر ابن قتيبة أن العرب تقول لكل مدينة فسطاط . أما « بطر » فيقول : إن مدينة الفسطاط مأخوذة من لفظ Fossatum ومعناه « مدينة حصينة » ، أخذته العرب عن الروم أثناء حربهم في الشام . وربما كان هذا أرجح الأقوال .

ولما عزم عمرو على تخطيط الفسطاط وليّ الخطط أربعة من قواد المسلمين ممن أنزلوا الناس وفصلوا بين القبائل^(١) . لذلك لا يبعد أن يكون هؤلاء قد اختاروا النزول في المكان الذي نزلوا فيه أولا لصلاحه وقربه من النيل .

(١) ذكر هؤلاء ابن دقاق في كتابه الانتصار بواسطة عقد الامصار (ج ١ ص ٣٢٢) فقال : معاوية بن حديج التميمي وشريك بن سمي الغطفاني وعمرو بن تحزم الخولاني وحويل ابن ناشر المعافري .

وقد قال بطر إن الذي قام بتنفيذ هذا الامر القبط لدرايتهم بفن العمارة التي كان يجملها العرب . ونحن نستبعد ذلك لان الابنية التي أقامها العرب هي من لبن من دور واحد لا تحتاج إلى معماري أوهندسة . ودليلنا على ذلك ما سيرد في بناء جامع عمرو ؛ فانه بنى بسقف منخفض بدون نوافذ وبدون فراغ في السقف حتى يتخلل الهواء داخله . وكان العرب يستظلون بفنائهم ويتنقلون بجوانبه تبعاً للظل وذلك من شدة الحر بداخله

وكانت بيوت الصحابة بمدينة الفسطاط في بادي، الأمر طبقة واحدة ، ثم أخذت الدور تزداد في الاتساع والعلو شيئاً فشيئاً ، حتى صار ارتفاع أغلب الدور خمس طبقات وستاً وسبعاً وثمان ، وأصبح يسكنها المائتان من الناس بعد أن كان لا يسكنها إلا أسرة قليلة العدد .

هذا وقد ظلت مدينة الفسطاط قاعدة للديار المصرية ومقر الامة حتى بنيت مدينة العسكر (١) سنة ١٢٣ هـ ، فنزل فيها أمراء مصر وسكنوها .

تأسيس الجامع العنبري (٢) :

أسس هذا الجامع عمرو بن العاص سنة إحدى وعشرين من الهجرة على مارواه ابن دقاق وأبو المحاسن (٣) . وكان على الأرض التي بنى عليها منزل لقيسبة بن كلثوم التجيبي . وقد سأل عمرو بن العاص حين عاد المسلمون من الاسكندرية قيسبة أن ينزل عن داره (٤) ليجمع مكانها مسجداً ، فأجابه إلى طلبه وتصدق بها على المسلمين . ومن ثم شرع عمرو في بنائه ؛ فكان طوله خمسين ذراعاً وعرضه ثلاثين . ومن هنا يتضح أن هذا الجامع كان في مبدأ أمره أصغر بكثير مما هو عليه الآن .

ولم يكن للمسجد الذي بناه عمرو محراب مجوّف . وأول من بناه قرة بن شريك (٥) . وكان له بابان أمام دار عمرو وبابان في الشمال

(١) جهة زين العابدين والمذبح والسيدة زينب والكيش

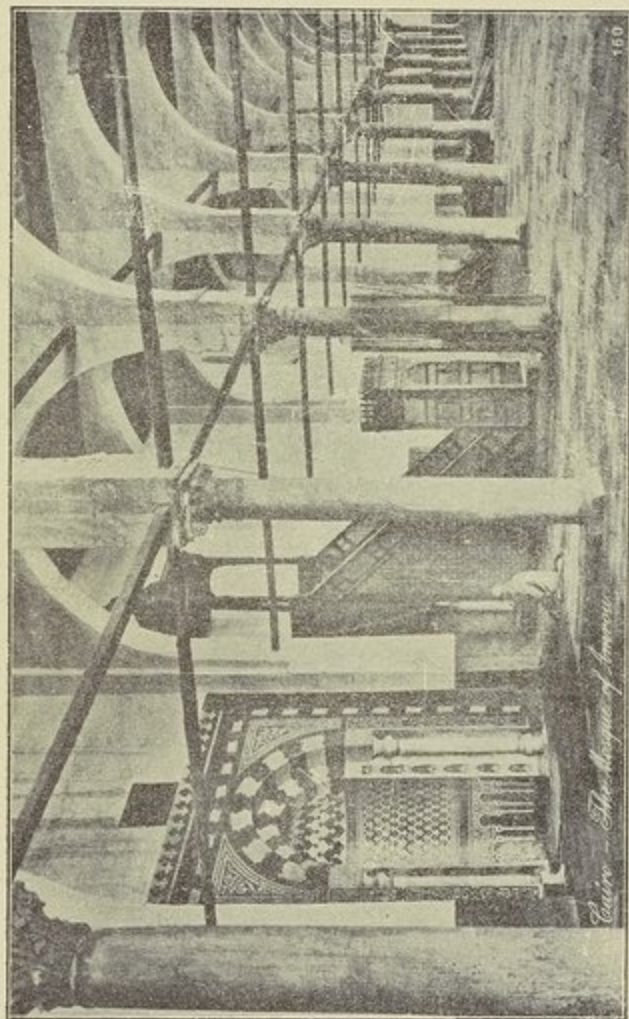
(٢) يطلق على هذا الجامع أيضاً جامع عمرو ، وتاج الجوامع والمسجد الجامع (ابن دقاق

ج ٤ ص ٥٩)

(٣) ذكر هذا اللفظ السيوطي وابن دقاق وذكره أبو المحاسن قتيبة وهو خطأ

(٤) ويقع الى الشمال من حصن بابليون

(٥) كان والى مصر من قبل الوليد بن عبد الملك بن مروان من سنة ٩٠ الى سنة ٩٦



جامع عمرو بن العاص

وبابان في الغرب . وكان الخارج من زقاق القناديل (١) يلقى ركن الجامع الشرقي محاذياً ركن جامع عمرو الغربي . وكان سقفه منخفضاً جداً ، كما أنه لم يكن للمسجد صحن ؛ فكان الناس يصلون بفنائمه . وقد اتخذ عمرو منبراً ؛ فكتب إليه عمر بن الخطاب « أما بحسبك أن تقوم قائماً والمسلمون جلوس تحت عقبيك » ؟ فكسره عمرو .

هذا هو أقدم جامع إسلامي بني في مصر . ولا يزال المسلمون من المصريين يعنون به عناية كبرى حتى اليوم . وترجع أهميته التاريخية إلى موضعه القديم الذي بناه فيه عمرو بن العاص (٢)

دمشق :

كانت دمشق قبل الفتح العربي مقر حكام الروم . وقد أصبحت حاضرة الدولة الإسلامية منذ خلافة معاوية بن أبي سفيان ، وغدت أكبر مدن الإسلام في ذلك العصر ، وأخفمها في الأبهة والعمارة ؛ كما امتازت على غيرها من المدن بكثرة الأنهار والينابيع . وقد قيل إن دمشق سميت كذلك لأنهم دمشقوا في بنائها أي أسرعوا ، كما قيل إنها المقصودة بقوله تعالى (وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ) . والتين هو الجبل الذي عليه دمشق ، والزيتون هو الجبل الذي عليه بيت المقدس ، وطور سينين هو الشعب الحسن ، وهذا البلد الأمين هو مكة .

وقد ذكر ياقوت في معجمه (٣) أن دمشق كانت حصينة ، أقيمت حولها أسوار منيعة بلغ ارتفاعها ثمانية أمتار وعرضها خمسة عشر قدماً .

(١) دعى هذا الاسم لأنه كان منازل الاشراف ، وكان على أبوابهم القناديل ، وقيل انما قيل له زقاق القناديل لانه كان برسمه قنديل يوقد على باب عمرو ، وهو من الخطط القديمة وله أربع مسالك .

Mme R. L. Devonshire, Quatre vingts (٢)
mosquées du Caire, p. 10.

(٣) انظر هذا اللفظ في معجم البلدان لياقوت .

ابواب دمشق

وكان لدمشق سبعة أبواب ، وكانت أبراجها العالية يراها القادم من بغداد عظيم . وقد شيد بها معاوية قصر الخضر (١) ؛ ولما تولى الوليد الخلافة جمل دمشق وضواحيها بالمباني العامة العديدة . وقد سارت كلفة الوليد بالعمارة سير الأمثال . قيل « إن الناس في دمشق كانوا في عهده يتسكّمون عن العمارات وجمالها ، وفي عهد سليمان عن الطعام والنساء ، وفي عهد عمر بن عبد العزيز عن الدين والقرآن »

مجارى الماء بدمشق

ومن آثار الأمويين الخالدة في دمشق مجارى الماء (٢) فنهج برى : لا يزال يجلب الماء إلى المدينة . وقد بلغ نظام مجارى الماء من الدقة بحيث صار لكل دار في دمشق نافورة خاصة . وذلك بفضل القنوات السبع الرئيسية التى شقها الأمويون لتوصيل الماء إلى أنحاء المدينة ، والقناطر الكثيرة المقامة على الأعمدة التى شيدوها لتوصيل ماء الشرب إلى الدور .

قصر الخليفة

وكان قصر الخليفة بدمشق غاية في الأبهة . وقد ازدانت جدرانها بالفسيفساء وأعمدته بالرخام والذهب ، وسقفه بالذهب المرصع بالجواهر . وقد لطف جوه النافورات والمياه الجارية والحدائق الغناء بأشجارها الظليلة الوارقة .

في الموصل

ولم يكن حب العمارة مقصوراً على الحكام . فقد تنافس الأمراء وكبار رجال الدولة في تجميل دمشق وغيرها من المدن العظيمة وقد شيد الحر بن يوسف حفيد مروان بن الحكم - وكان والياً على الموصل في عهد هشام - داراً منيفة من الرخام الخالص والمرمر ، عرفت بالمنقوشة لما تمتاز به من النقش البديع - كما بنى خانات (فنادق) في الموصل .

(١) سمي بهذا الاسم للون نقوشه وطلانه .

(٢) Ameer Ali, A Short History of the Saracens, p. 193

وقد رأى الحر ما يعاينه أهل الموصل من المشاق في الحصول على ماء الشرب ، فشق قناة لاتزال باقية الى اليوم . وقد غرس الاشجار على ضفتها حتى أصبحت بمثابة متنزه عام لأهل المدينة

يقول السيد أمير علي : (١) « لم يتغير طراز البيوت وترتيبها في دمشق عما كان عليه في عهد الأمويين على الرغم من مرور مئات السنين . فترى البواب واقفا على مقعد خشبي أمام الباب كما تراه الآن في منازل الأغنياء ، وترى على باب بيوت الفقراء قطعة من المعدن أو الحديد تستخدم مطرقة للباب .

وفي داخل الدار فناء مستطيل على جوانبه أرومة من الأعمدة ، وأرضه من الحجارة أو الرخام ، وممشى مرصوفة بالحجارة أو الحصباء على أشكال هندسية منتظمة . وفي الفناء نافورة يحيط بها حديقة صغيرة بها الأزهار الزكية وتظلها أشجار البرتقال والليمون . وعلى جانب الفناء يقام الايوان وهو عبارة عن صالة قد رصفت بالرخام والبلاط الملون . وتستعمل قاعة الاستقبال وقت الحر . وقبالة الباب كانت تقام عادة كوة غير نافذة تزخرف بالأعمدة الرخامية ويوضع فوقها الطست والأبريق للوضوء .

وكانت قصور الأغنياء مكونة من طابقين أحيانا . وعلى يمين وشمال الصالات أبواب تكسوها ستور كثيفة تؤدي إلى الصالات والحجرات الأخرى .

وفي الشتاء كانت تسكس أرض الايوان الرخامية وكذلك الحجرات بالسجاد الثمين وتدفأ الحجرات بالمنهل (الموقد) أما في الصيف فكانت النافورات والنوافذ كفيلة بتلطيف حرارة الجو .

وكانت سقوف الدار مزدانة بنقوش على الطراز العربي ومطلية

بالذهب . ولم تكن هناك مقاعد . فإذا كان صاحب الدار من أصحاب
المراكز السامية وضعت السجاجيد بعضها فوق بعض لتكون بمثابة
مقعد مرتفع له .

مسجد دمشق :

يضرِب بجامع دمشق المثل في جماله وحسن نظامه . وأول من
أخبطه أبو عبيدة بن الجراح ؛ ثم بناه الوليد بن عبد الملك سنة ٩٧ . وكان



مسجد الخربة التي بنى بالزك الممجد الأملوي بدمشق

كلنا بالعمارة وبخاصة عمارة المساجد ؛ وكان هذا المسجد في أول
الأمر كنيسة القديس يوحنا . ولما عزم الوليد على بنائه جمع زعماء النصارى
في دمشق وعرض عليهم رغبته في إدماج هذه الكنيسة في مسجد المسلمين
واستعداده لأن يعرضهم إياها بكنيسة أخرى في أى مكان شاءوا وأن
ينقدّم ثمنها مضاعفا ؛ فأبوا محتجين بالعهد الذي أخذه المسلمون على
أنفسهم ألا يتعرضوا لكنائس النصارى بسوء .

على أن الوليد لم يأبه لقولهم وسارع إلى هدم الكنيسة وبنى

مكانها مسجد دمشق (١)؛ وقد تأثق الوليد في بناء هذا المسجد حتى قيل إنه أنفق على عمارته خراج دولته سبع سنين؛ وما ذلك إلا ليتقرب إلى الله بهذا العمل الديني الجليل.

عبارة المسعودي
عن مسجد دمشق

قال المسعودي: «وحكى عثمان بن مرة الخولاني قال: لما ابتدأ الوليد ببناء مسجد دمشق ووجد في حائط المسجد لوح من حجارة فيه كتابة باليونانية، فعرض على جماعة من أهل الكتاب فلم يقدرُوا على قراءته. فوجه به إلى وهب بن منبه فقال: هذا مكتوب في أيام سليمان ابن داود عليهما السلام، فقرأه فاذا فيه «بسم الله الرحمن الرحيم يا ابن آدم لو عاينت ما بقى من يسير أجلك لزهدت فيما بقى من طول أملك وقصرت عن رغبتك وحيلك، وإنما تلقى ندمك إذا زلت بك قدمك، وأسلمك أهلك وانصرف عنك الحبيب وودعك القريب ثم صرت تدعى فلا تجيب، فلا أنت إلى أهلك عائد ولا في عملك زائد، فاغتنم الحياة قبل الموت والقوة قبل الفوت، وقبل أن يؤخذ منك بالسكظم ويحال بينك وبين العمل؛ وكتب زمن سليمان بن داود. فأمر الوليد أن يكتب بالذهب على اللازورد في حائط المسجد: ربنا الله لا نعبد إلا الله. أمر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التي كانت فيه عبد الله الوليد أمير المؤمنين في ذى الحجة سنة سبع وثمانين؛ وهذا الكلام مكتوب بالذهب في مسجد دمشق إلى وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة» (٢).

وقد قيل إن السجلات المشتملة على نفقات البناء نقلت إلى قصر الوليد على ثمانية عشر بعيراً لبحثها وإقرارها؛ فأقرها الخليفة الأموي

(١) Von Kremer, Cnlturgeschichte des Orients, trans. by Khuda Buckhsh, p. 146.

(٢) مروج الذهب للمسعودي ج ٢ ص ١٥٢

دون بحث أو مراجعة وقال : هو شيء أخرجه الله ولا نرجو من ورائه شيئاً . (١)

وفي الحق إن مسجد دمشق الذي يعرف الآن بالمسجد الأموي هو آية من آيات الفن العربي والبيزنطي ، ولا يزال حافظاً لرونقه وبهائه إلى اليوم . وإن في هذا الوصف الذي وصفه به أحد أهالي دمشق لمثلاً حياً وبرهاناً ناطقاً على ما بلغه هذا المسجد من الرواء والاتقان : « هو جامع المحاسن كامل الغرائب ، معدود من إحدى العجائب . قد زور بعض فرشه بالرخام وألف على أحسن تركيب ونظام . وفوق ذلك مقصوص ، أقداره متفقة وصنعة مؤتلفة ، بساطه يكاد يقطر ذهباً ويشتعل لهباً . وهو مُنزهٌ عن صور الحيوان إلى صنوف النبات وفنون الأغصان ؛ لكنها لا تجنى إلا بالأبصار ، ولا يدخل عليها الفساد كما يدخل على الأشجار والثمار ، بل هي باقية على طول الزمان مدركة بالعيان في كل أوان ، لا يمسه عطش مع فقدان القطر ، ولا يعتريه ذبول مع تصارييف الدهر » .

عبارة ياقوت
في وصف المسجد

نعم ! قد غلا الوليد في بناء هذا المسجد ؛ فقد كان محرابه مرصعاً بالجواهر الثمينة . عليه قناديل الذهب والفضة ، محلى بالفسيفساء والسلاسل الذهبية ، حتى أخذ الناس يرمونه بقصر النظر والتبذير ، وأنه إنما بناه من بيت مال المسلمين من غير مافائدة تعود عليهم من وراء هذا الأسراف . وسرعان ما وصلت هذه الأقوال إلى مسامع الوليد فخطبهم في المسجد فقال : بلغني انكم تقولون وتقولون وفي بيت مالكم عطاء ثمانى عشرة سنة اذا لم يدخل لكم فيها حبة قمح . (٢)

(١) معجم البلدان لياقوت ج ٤ ص ٧٦

(٢) أنظر لفظ دمشق في معجم البلدان لياقوت

قال ياقوت في معجمه : قالوا عجائب الدنيا أربع : قطرة سنجة ، ومنارة الاسكندرية ، وكنيسة الرها ، ومسجد دمشق .

ولما رأى عمر بن عبد العزيز أن المال الذي بذل في سبيل بناء المسجد الأموي لم يكن في موضعه وأن بيت المال قد تأثر من وراء ذلك تأثيراً يذكر ، عزم على أن يتدارك هذه الخسائر فيزعم الفسيفساء ويستغنى بالحبال عن السلاسل الذهبية التي علق في المصاييح وقد اتفق أن وصل إلى دمشق سفراء من قبل أمبراطور الروم ورغبوا في زيارة مسجد دمشق ؛ فسمح لهم عمر و وكل بهم رجلاً يعرف لغتهم . حتى إذا ما مروا بصحن المسجد واستقبلوا القبلة ، رفعوا رؤوسهم إلى المسجد وقد نكس رؤس الوفد رأسه واصفر وجهه ؛ فسأله من معه عما حل به فقال : أنا معشر أهل رومة نقول إن بقاء العرب قليل ؛ فلما رأيت ما بنوا علمت أن لهم مدة لا بد أن يبلغوها . ولما اتصل هذا القول بمسامع عمر بن عبد العزيز قال : اني أرى أن مسجدكم هذا غيظ على الكفار وترك ما عزم عليه :

العلوم والمعارف

الأدب :

لم يكن للأدب حظ في صدر الاسلام لاشتغال العرب بالفتوح وتنظيم دولتهم التي اتسعت أرجاؤها ثم لانشغالهم بالحروب الأهلية التي استنفدت كل مجهوداتهم .

وقد حافظت الروح الأدبية في هذا العهد على ما كانت عليه في الجاهلية ، فلم يتعد الأدب دائرة الشعر تقريباً ، إذ أصبح يمثل بعض مظاهر الساطة الاسلامية . وقد ظن بعض المستشرقين أن الدين قلل من أهمية الشعر حتى لا يطغى على القرآن ؛ وهذا الزعم لا أساس له ، لأن القرآن ليس من الشعر في شيء ولا يصح أن يكون نموذجاً له . ولو أن القرآن الكريم قد غص من شأن بعض الشعراء فلا أنهم كانوا

من أعداء الإصلاح ومن دعاة الفوضى . قال تعالى (وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ) (١) . على أنه قد أعلی من قدر غيرهم بمن قاموا بنصرة المبادئ القويمة ودافعوا عنها ، فأحلهم المحل اللائق بهم من الشرف . كما شجعهم الرسول وأغدق عليهم العطايا ، واعتبر هذا نوعا من الجهاد في سبيل الله والانتصار للحق . فقد قرب الشاعر المخضرم حسان بن ثابت وليس أدل على احترام الاسلام للشعر من قوله عليه الصلاة والسلام « إن من من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكمة »

حالة الشعر في عهد
البعثة

وكان شعراء هذا العصر لا يزالون على ما كان عليه من سبقهم في الجاهلية رغم تأثرهم بالقرآن وأسلوبه . فاذا قرأت قصيدة لشاعر من أنصار الدعوة في مدح الرسول أو هجاء المشركين ، أو قصيدة لشاعر ممن شايعوا قريشا في مدح أحد زعمائها أو رثاء قتلها ، أو في هجاء المسلمين ، ألفت هذه القصيدة أو تلك لا تسكاد تخرج عما كان يمدح به الشعراء شيوخ القبائل في الجاهلية أو يهجونهم به ؛ ولو أنه قد كثر فيها الحديث عن الجنة والنار والحساب والعذاب ، والبعث والنشور ، وما إلى ذلك من الأمور الدينية التي لم يُعْن بها العرب الجاهليون في أشعارهم .

تأثر الشعراء
الوثنيين بالاسلام

ومما ينبغى الإشارة إليه أن الشعراء المناهضين للرسول والمقاومين للدعوة لم يكونوا أقل من الشعراء المسلمين تأثرا بالقرآن وما جاء به من الفكر الدينية . فقد كانوا يقرءون القرآن ويعنون به لا لايمانهم بما فيه ، ولكن للرد على ما جاءهم به ومناقشته في تلك المبادئ الجديدة التي فاجأهم بها (٢)

(١) سورة الشعراء ٢٦ : ٢٢٤ — ٢٢٦

(٢) معارضة القرآن هي الاتيان بكلام يشبهه في بلاغته وخصائصه الفنية . وقد كان القرآن أولى معجزات الرسول وأقواها في الدلالة على أنه رسول من عند الله ، لانه أتى بكلام لا يستطيع

كما كان يوجه هؤلاء الشعراء اهتمامهم - إذا أرادوا هجاء الرسول أو الغرض من شأنه - الى تعريف أقوال المسلمين ومعتقداتهم ، وما يقابل ذلك في دينهم القديم ليستطيعوا دفع هجمات الرسول عن معبوداتهم وسخريته من طقوسهم الدينية وأوضاعهم الاجتماعية . فنالت هذه الناحية شيئا من اهتمام الخطباء والشعراء والمجادلين ، وكثر ورودها على ألسنتهم بعد أن كانت من الأمور التي كان لا يعرض لها العربي في حياته العادية ولا يلم بها إلا إماماً يسيراً .

وقد اشتهر من شعراء المسلمين حسان بن ثابت ، وعبدالله بن مالك ، وكعب بن مالك ، وكعب بن زهير ؛ ومن شعراء المشركين عبدالله بن الزبعرى ، وضرار بن الخطاب ، وكعب بن الأشرف وغير هؤلاء . وهؤلاء .

هذا هو حال الأدب في عهد الرسول والخلفاء الراشدين .

وأما في عهد بني أمية فقد تغير الحال تغيراً ظاهراً ؛ فقد ظهرت أحزاب مختلفة كلها يطاحن ويناضل بالسيف وبالقول للوصول إلى السيادة والحكم ، واتسعت صدور الخلفاء للشعراء المادحين والمشيدين بعظمة الملك وسطوة الخلفاء ، وقلدهم في ذلك الحكام والولاة في الأقاليم المختلفة ، كما تغيرت الحال الاجتماعية بما أفاء الله على العرب من أسلاب الجيوش في البلاد المفتوحة ، فارتقت بذلك الحياة العربية وارتفع

حال الأدب في
عهد الأمويين

أى إنسان أن يأتي بمثله . وقد تحدى الرسول والقرآن العرب جميعاً رغم فصاحتهم وتفننهم في أساليب الكلام أن يأتيوا بقرآن مثله فجزوا . قال تعالى (قل لئن اجتمعت الجن والإنس على أن يأتيوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) (سورة الاسرى ١٧ : ٨٨) ، ثم تحداهم بعد ذلك أن يأتيوا بعشر سور فقط فجزوا أيضاً . قال تعالى (لم يقولوا فتردها قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين) (سورة هود ١١ : ١٣) ثم تحداهم أن يأتيوا بسورة واحدة قال تعالى (وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين) (سورة البقرة

مستوى الحضارة والتمدن في البيت العربي ، وتعددت مرافقه وضرورياته . وكان للاماء الأعجميات أعمق الأثر وأبلغه في تحويل البيت العربي والانتقال به من خشونة البداوة وشظفها إلى لين الحضارة ونضارتها ، فنشأت في ظل هذه البيئة الجديدة فنون من الشعر لم تكن موجودة من قبل ، وظهرت فنون أخرى من الأدب لم يكن يعرفها العرب

تطور الإدارة
الحكومية

كما تطورت الإدارة الحكومة وتعددت حاجاتها ، مما دعا إلى إنشاء الدواوين . وكان من بين هذه الدواوين وأقربها اتصالا بالحياة الأدبية ديوان الانشاء والرسائل الذي أوجد نوعا من النثر لم يعرفه العرب ولم يكن لهم به عهد ؛ وهو ما يسمى النثر الفني ، ويقصدون به تلك الرسائل التي كانت تحرر باسم الخليفة وتصدر إلى ولاته وعماله في الأقاليم في شئون الدولة . وقد بدأ هذا النوع من النثر في ذلك العصر ونما ، حتى ظهر في آخر عهد الدولة الأموية عبد الحميد الكاتب الذي يعد بحق زعيم الكتاب وواضع أصول الكتابة وقواعدها .

عبد الحميد الكاتب

الشعر والغناء في مكة والمدينة :

كان للفتوح الإسلامية أكبر الأثر في ظهور طبقة أرستقراطية ، بما كان من رخاء الأمة المادى ، وبخاصة في الحجاز . وقد تجلت مظاهر هذا الرخاء في حياة الطبقة المثرية . وكان لتلك المظاهر أثر محسوس في الحركة الفكرية ، ولا سيما في فن الغناء والموسيقى وفي تهذيب الشعر . وليس معنى ذلك أن هذه الأنواع من الفنون الجميلة لم تكن مألوفة عند العرب قبل الاسلام ، فقد أدخلها مغنيات من غير العرب وخاصة من الفرس ؛ على أنه ظهر في القرن الأول للهجرة مغنون من العرب في مكة والمدينة نظموا قطعاً من الشعر ولحنوها . ونبع في الموسيقى كثيرون من أمثال معبد ، وابن

اثر الغنى والثروة

احتراف بعض
العرب الغناء

شريح ، وطويس ؛ ثم اشتغلت هذه الطبقة بالشعر العربي ، فنبغ منهم كثيرون في الغزل مثل عمر بن أبي ربيعة القرشي . وقد اعتقد كثيرون من العرب أن أشعاره كانت أبشع جناية اقترفت على الدين ، وزعم البعض أن كثيرا من الشعر الغزلي منسوب خطأ إلى بعض الشعراء كالأشعار التي تُنسب إلى مجنون ليلى ، حتى شك البعض في وجود رجل بهذا الاسم . وإن صح ذلك فإنه من المحتمل أن يكون كثير من الشعر المنسوب إليه هو في الحقيقة من شعر غيره . ومن نبغ في الشعر الغزلي جميل صاحب القصائد المشهورة في الغزل التي نظمها في محبوبته بثينة (١) .

الشعر في الولايات الإسلامية الأخرى :

وقد وجدت خارج الحجاز ضروب أخرى من الشعر ؛ فنبغ في عهد الأمويين الفرزدق ، وجريز ، والأخطل ؛ وكلهم من أهل العراق مولدا ومنشأ . ونزح منذ أمام الفتح الإسلامي إلى الأقاليم العربية كالعراق والشام العناصر النشيطة ، فخلت جزيرة العرب منهم . وقد بلغت المنافسة أشدها بين جريز والفرزدق ، حتى إنك لترى ذلك في ثنایا شعرهما المسمى بالنقائض الذي امتاز بالهجاء العنيف المقذع ، وإن كان قد بلغ درجة عظيمة من حيث الاتقان والجودة ، وأصبح المعين الذي تغترف منه اللغة العربية في عصرها الجديد .

وكان لكل من جريز والفرزدق أنصار يتعصبون له ولشعره . وليس أدل على ذلك مما كان من انقسام جند المهلب بن أبي صفرة إلى خراسان عند مسيره لحرب الأزارقة من الخوارج إلى فريقين : فريق يجذب جريزا ، وآخر يفضل الفرزدق .

الغزل وصلته بالغناء

النقائض

عصية القبائل
لشعرائها

الأخطل

وقد انضم الأخطل إلى هذا العراك - وكان مسيحياً هوام مع الفرزدق - واتخذته الأمويون شاعر شعرائهم وكبير ماديهم ، وكان من المقرين الى عبد الملك بن مروان ؛ فكان يدخل عليه بلا استئذان ، وهو مرتد أنخر الملابس الحريرية ، وعليه صليب من ذهب متدل من رقبته بسلسلة ذهبية (١) .

شعراء الأحزاب
الأخرى

كما كان للأحزاب السياسية الأخرى شعراء أبلوا بلاء حسناً في نصرتهم وتوضيح مذاهبهم وآرائهم والدفاع عنها والدعوة إليها . نذكر منهم عمران بن حطان وقطري بن الفجاءة من حزب الخوارج ، وعبيد الله بن قيس الرقيات من الزبيريين ، والكميت بن زيد الأسدي من شعراء الشيعة .

العلوم العقلية والعقلية :

عناية الاسلام بالعلم

عنى الدين الاسلامى بالعلم وتشجيعه والدعوة إلى تحصيله ؛ فقد حرص الرسول على تعليم الصحابة الكتابة ، إذ فرض على كل أسير من أسرى بدر أن يعلم عشرة من أبناء المسلمين ؛ ثم حث الصحابة على تعلم اللغات عندما بعث دعائه ورسله إلى الملوك والأمراء خارج الجزيرة العربية ؛ فنصح زيد بن ثابت بأن يتعلم كتابة اليهود لأنه لا يأمن جانبهم (٢) . كما كانت وسيلته صلى الله عليه وسلم في الدعوة إلى دين الله تبصير الناس بما يحيط بهم من شواهد على وجود الله وقدرته ، وبما يعود عليهم من الخير في قلب هذه الأوضاع الاجتماعية العتيقة الضاربة أو تنقيحها ، وبما يعظمهم

(١) Nicholson, Lit. Hist. of the Arabs, pp. 239—246

(٢) فجر الاسلام للإستاذ أحمد أمين (ص ١٧١) . وفيه عن زيد بن ثابت أيضاً أنه قال : قال

لى النبي صلى الله عليه وسلم إني أكتب الى قوم فأخاف أن يزيدوا على أوتنقصوا فتعلم المربانية فعلتها في سبعة عشر يوماً

به من أحوال الأمم الغابرة ثم ، يفقههم في دينهم ويعلمهم القرآن ويشرح لهم ما أتى به من تشريع .

ولم يختص النبي صلى الله عليه وسلم الرجال بذلك ويؤثرهم به ، بل كان يحرص على أن يكون خط المرأة من ذلك موفوراً

وكان الرسول يحث الرجال على أن يعلموا أهلهم وذويهم . فعن أبي بردة أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاثة لهم أجران : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ، والعبد المملوك إذا أدى حق الله تعالى وحق مولاه ، ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ، ثم أعتقها فتزوجها فله أجران . (١)

وليس أدل على وفرة نصيب المرأة المسلمة من العلم من حاجة إحدى نساء المدينة لعمر بن الخطاب حين قام يخطب المسلمين ويحثهم على ألا يزيدوا في مهور نسائهم عن مهور زوجات الرسول ، إذ قالت له تلك المرأة : وماذا تقول في قوله تعالى (وَإِنْ آتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً) ؟ فقال عمر : أصابت امرأة وأخطأ عمر .

وكان الصحابة أنفسهم مشغوفين بسماع الرسول والآن خذعنه ، حتى كان الرجل إذا لم يستطع أن يذهب إلى مجلسه أناب عنه صديقه له ثم يتعلم منه آخر النهار ما قال الرسول . قال عمر : كنت أنا وجار لي من الانصار في بني أمية بن زيد — وهى من عوالى المدينة — وكنا تتناوب النزول ؟ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ينزل يوماً وأنزل يوماً فاذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره ، واذا نزل فعل مثل ذلك (٢) .

أثر الدعاة في غير جزيرة العرب

ولم ينفرد الرسول وأصحابه ببث الدعوة وتعليم الناس في لمدينة ، بل كان يرسل دعاة ورسوله إلى الجهات النائية من شبه الجزيرة ليعلموا الناس ويوضحوا لهم الطريق إلى ربهم ويقرؤهم القرآن الكريم .

ويعتبر الفقهاء أن من أوائل حقوق الأمة على الخليفة « نشر العلوم والشريعة وتعظيم العلم وأهله ، ورفع مناره ومحله ، ومخالطة العلماء الاعلام النصحاء لدين الاسلام ومشاورتهم في موارد الاحكام ومصادر النقض والابرار (١) »

نبوغ الصحابة في
بعض العلوم

وقد استفاد كثيرون من الصحابة من صحبتهم للرسول : فنبغ على في القضاء حتى كان يقال إذا أشكل الأمر : قضية ولا بأحسن لها ؛ ونبغ معاذ بن جبل في العلم بالحلل والحرام ، وزيد بن ثابت في تقسيم الموارث والأنصبة في الغنائم وما إليها ، وأبي بن كعب في قراءة القرآن . روى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أرحم أمتى بأمتى أبو بكر ، وأشد هم في دين الله عمر ، وأصدقهم حياء عثمان ، وأقضاهم على ، وأعلمهم بالحلل والحرام معاذ ، وأفرضهم زيد بن ثابت (أى أعلمهم بعلم الفرائض وهى الموارث) ، وأقرأهم لكتاب الله أبي بن كعب . ولكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح .

وقد تفرق هؤلاء العلماء من الصحابة في الأمصار الاسلامية فقاموا فيها بحركة علمية ، والتف حولهم تلاميذ يأخذون عنهم العلم وينشرونه بين الناس

ولم يكن جميع هؤلاء من العرب بل كان أكثرهم من الموالى . ولذلك كانوا في حاجة إلى تعلم العربية لغة القرآن والحديث ؛ ومن هنا نشأت بعض الدراسات اللغوية كالنحو والصرف وما إلى ذلك

(١) بدر الدين بن جماعة: تحرير الأحكام في تدبير أهل الاسلام المنشور في المجلد الرابع

وكانت عناية هذه البيئات العلمية مقصورة على العلوم الدينية وهي القرآن وتفسيره ، والحديث وروايته ، واستنباط الأحكام الفقهية والفتاوى الشرعية فيما يجد من مشاكل وما يعرض من أحداث .
ولذا نلاحظ ان ما انتشر من العلوم في عهد بني أمية كان مرتبطاً منها بالدين ، بعكس ما كانت عليه الحال في أيام العباسيين الذين اشتغلوا بالعلوم العقلية أو الكونية أيضاً كالطب والفلسفة والرياضيات وغيرها .

اشتغل المسلمون بعد ذلك بتدوين السير والفتوح الاسلامية . وكان عبيد بن شَرِيّة اليمنى أول من ألبس هذا النوع من القصص ثوب التاريخ ، وجاء وهب ابن منبه - وهو من الفرس - فتصدى للغازي « الفتوح الاسلامية » ووضع أساسها وعنه روى المؤرخون المتقدمون .

وقد روى أن عروة بن الزبير المتوفى سنة ٩٤ هـ هو أقدم من ألف في السيرة النبوية ، وكذلك أبان بن عثمان بن عفان المتوفى سنة ١٠٥ هـ . فقد جمع له تلميذه عبد الرحمن بن المغيرة كتابه في سيرة الرسول . وكذلك روى أن ابن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤ هـ جمع كتاباً في المغازي ، ومثله موسى بن عقبة المتوفى سنة ١٤١ هـ . وقد عثر على قطعة من كتابه طُبعت سنة ١٩٠٤ م ^(١) .
ومن اشتغل بالمغازي أيضاً ابن اسحق المتوفى سنة ١٥١ هـ ، وتلميذه ابن هشام صاحب سيرة النبي صلى الله عليه وسلم والمتوفى سنة ٢١٨ هـ .
ومع ذلك لم يشجع الخلفاء من بني أمية هؤلاء الكتاب على تدوين أخبار الاسلام ، لأنهم كانوا يفضلون عليها قراءة القرآن . فقد قيل

(١) فجر الاسلام للاستاذ أحمد أمين ص ١٨٩

إن عبد الملك بن مروان رأى كتاباً لوهب بن منبه فى يد شخص ، فأمر بالكتاب فأحرق ، ثم أمر بقراءة القرآن بدلامنه ، وذلك بعكس معاوية بن أبى سفيان الذى كان مشغولاً بقراءة الأخبار والسير والآثار كما تقدمت الإشارة إلى ذلك . (١)

الحديث

وكذلك كان للحديث أثر فى علم التاريخ والأخبار ، فإن المحدثين لاهتمامهم بأمر الحديث وحرصهم على الوثوق من صحة روايته وأمانة راويه ، كانوا فى حاجة إلى تعرف حال هؤلاء الرواة ودراسة تواريخهم وأخبارهم ، ومعرفة أنسابهم وقبائلهم . فكان ذلك نواة صالحة وثروة غزيرة لعلم التاريخ والأخبار . وقد اشتهر من رجال الحديث فى الدولة الأموية محمد بن مسلم بن شهاب الزهري (+ ١٢٤ هـ) ، وسعيد ابن المسيب ، وشريح ، وسليمان بن يسار ، وربيعة الرأى (وهو شيخ الامام مالك) وعكرمة مولى ابن عباس .

أشعار الجاهلية

كما نشأ عن دراسة القرآن وتعرف معانيه الحاجة إلى الاستشهاد بأشعار الجاهلية ؛ لما أودع فيها من كنوز اللغة العربية . ولا غرو فإن النثر لم يكن مألوفاً عند العرب فى جاهليتهم . وقد ظهر من الرواة كثيرون مثل الأصمعى وحماد . ثم دعت الحاجة إلى فهم موضوعات هذه الأشعار لتعرف أنساب القبائل العربية ، فبدأت رواية القصص والتواريخ والروايات .

تحسين الحروف العربية

وفى عهد عبد الملك بن مروان أدخل كثير من ضروب الإصلاح كان بعضها سياسياً بحتاً ؛ بينما دفع به نفس هذا الشعور إلى إدخال ضروب أخرى من الإصلاح لها اتصال مباشر بالأدب . فقد جعل العربية اللغة الرسمية فى الإدارة المالية بعد أن كانت بالآغريقية والفارسية ، وأخذ فى تحسين الحروف العربية . وكانت خلوا

من الحروف المنقوطة - ليستطيع الناس قراءة القرآن والتفسير ،
والحديث ، وإن كان هذا لا يهم العربي كثيرا ، فإن الأعجمي لا يستغنى
عنه إذا ما تعلم العربية لغة الكتاب والسنة .

وقد أخذ الحجاج من هذه الحركة بأوفى نصيب ؛ فقد اشتغل في
مبدأ أمره بالتعليم . ولما ولي العراق أدخل تحسينا يذكّر على علامات
الوقف والشكل . وقد انصرف الناس ، لما كان يشمل البلاد من الهدوء
في عهده ، إلى الاشتغال بالعلم . فدرس أهل الكوفة والبصرة القرآن
والحديث تحت رعايته وتعضيده . ومن هنا نشأت مدرسة البصرة
لدراسة علم النحو .

العلوم العقلية

أما العلوم العقلية فكانت قليلة في عهد الأمويين ؛ ولو أنه قد وجد
فيهم من اشتغل بالكيمياء التي لا يبعد أن يكونوا قد أخذوها عن الإغريق
الذين اشتغلوا بها منذ ألفي عام . ولا نستطيع أن نجزم أن العرب قد
أخذوا الطب عن اليونان عقب الغارات التي قام بها الإسكندر في الشرق .
فقد ثبت أن العرب لم يدرسوا العلوم الطبية إلا بعد قيام الدولة الأموية ؛
وكان خالد بن يزيد بن معاوية أول من نقل العلوم الطبية والنجوم
والكيمياء إلى العربية .

الكيمياء والطب

وكانت صناعة الكيمياء رائجة في مدرسة الإسكندرية ؛ فاستدعى
خالد مريانوس الكاهن المسيحي وطلب إليه أن يعلمه الطب وصناعة
الكيمياء (١) . ولما تعلمها أمر بنقل كتب الصنعة من اللسان اليوناني
والقبطي إلى العربية فنقلت له ؛ وكان ذلك أول نقل للعلوم في الأمة
العربية . وفضلا عن ذلك فإن خالدا كان مشغوبا بعلم النجوم ؛ وقد

أنفق الأموال الضخمة في طلبه واستحضار آلاته . ولعلمهم ترجموا له شيئاً لم يصلنا خبره ؛ لأن الجاحظ في كتابه البيان والتبيين يقول : كان خالد بن يزيد بن معاوية خطيباً شاعراً فصيحاً جامعاً ، جيد الرأي كثير الأدب . وكان أول من ترجم النجوم والطب والكيمياء

يبد أن اشتغال العرب بالعلوم العقلية من كيمياء وطب ، وفلك وتاريخ ونحوها لم يكن له أثر كبير إلا في صدر الدولة العباسية ، وعلى الأخص في عهد المأمون الذي حمل لواء حركة الترجمة والنقل من اليونانية والفارسية والهندية ، فأخذها عنهم الغرب منذ عصر إحياء العلوم في القرن الخامس عشر الميلادي ، ولا زالت تتمثل في الحضارة الأوربية اليوم . ولا شك أن العباسيين قد نشطوا لترقية العلوم العقلية فأولوها عنايتهم .

الحالة الاجتماعية

كان لاختلاط العرب بالروم وغيرهم من الأمم الأخرى أثر كبير في تغيير عاداتهم وحياتهم الاجتماعية وبخاصة في عهد الأمويين . فقد استفاد معاوية من نظم الحكم التي أدخلها الرومان في بلاد الشام ، وابتكر ابتكارات لم يسبقه إليها أحد . فهو أول من اتخذ الحشم وأقام الحجاب على بابه ، ووضع المقصورة التي يصلى الخليفة بها في الجامع منفرداً عن الناس ، وذلك لخوفه مما جرى لعلي رضي الله عنه . فإذا سجد قام الحرس على رأسه بالسيوف . (١)

وكان من أقدم واجبات الخليفة أن يؤم الناس في صلاة الجمعة والصلوات الخمس . وقد سار على ذلك الخلفاء الراشدون ، ومعاوية وعبد الملك وعمر بن عبد العزيز من خلفاء بني أمية . ولم يهتم غيرهم من

ادخال العادات
الأجنبية

البلاط

(١) الفخرى في الآداب السلطانية ص ١٠١

الخلفاء بأن يؤموا الناس في الصلوات الخمس ، واقتصرُوا على إمامة الناس في صلاة الجمعة . فكان الخليفة في العهد الأموي يحضر الى المسجد مرتدياً ثياباً بيضاء وعمامة بيضاء مرصعة بالجواهر ، ويرقى المنبر لالقاء خطبة الجمعة ، ويبيده الخاتم والعصا وهما شارتا الملك . وكثيراً ما كان بعض خلفاء بني أمية لا يحضرون صلاة الجمعة وينبئون عنهم رئيس الحرس أو صاحب الشرطة . (١)

وقد تشبه خلفاء بني أمية بالملوك وأبهتهم . ففي التشريفات العامة كان يجلس الخليفة على عرشه في صلاة الاستقبال الكبرى ، وعلى يمينه أمراء البيت المالئ ، وعلى يساره كبار رجال الدولة ورجال البلاط . ويقف أمامه من يريد التشرّف بمقابلته من رسل الملوك وأعيان البلاد ورؤساء النقابات والشعراء والفقهاء وغيرهم .

وكان سباق الخيل أهم تسلية الشعب على اختلاف طبقاته . ويقال إن هشام بن عبد الملك كان أول من أقام حلبات السباق لتحسين نتاج الخيل . وقد اشترك في السباق في عهده نحو أربعة آلاف من خيله وخيول الأمراء . ويقول المسعودي أنه لم يسبق هذا السباق مثيل . وكانت الاميرات يتدربن على ركوب الخيل ويشتكن في السباق وكان الوليد الثاني مغرماً بسباق الخيل أيضاً

قال المسعودي (٢) « كان الوليد مغرماً بالخيل وحبها وجمعها وإقامة الحلبة ، وكان السندى فرسه جواد زمانه . وكان يسابق به في أيام هشام ، وكان يقصر عن فرس هشام المعروف بالزائد وربما ضاهه ، وربما جاء مصلياً . وهالك مراتب السوابق من الخيل إذا جرت : فأولها

Ameer Ali, A Short History of the Saracens, (١)
p.196.

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ١٨٨ - ١٨٩

السابق ثم المصلى ؛ وذلك أن رأسه عند صلا السابق ، ثم الثالث والرابع وكذلك إلى التاسع والعاشر الشكيت مسددا . وما جاء بعد ذلك لم يعتد به . والفسسكل الذي يحيى في الحلبة آخر الخيل . وأجرى الوليد الخيل بالرثافة . وأقام الحلبة وهي يومئذ ألف قارح ، ووقف بها ينتظر الزائدة ومعه سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص ، وكان له فيها جواد يقال له المصباح . فلما طلعت الخيل قال الوليد :

خَيْلِي وَرَبِّ النُّكْبَةِ المحرمه سَبَقْنِ أَفْرَاسَ الرِّجَالِ اللُّومَه
كَمَا سَبَقْنَاهُمْ وَحِزْنَا الْمُسْكِرَةَ

فأقبل فرس ابن الوليد - ويقال له الوضاح - أمام الخيل ؛ فلما دنا صرع فارسه ، وأقبل المصباح فرس سعيد يتلوه وعليه فارسه ، وهو فيما يرى سعيد يعد سابقا ، فقال سعيد :

نَحْنُ سَبَقْنَا الْيَوْمَ خَيْلَ اللُّومَه وَصَرَفَ اللَّهُ إِلَيْنَا الْمُسْكِرَةَ
كَذَاكَ كُنَّا فِي الدَّهْوَرِ الْمَقْدَمَةِ أَهْلَ الْعَلَا وَالرَّتَبِ الْمُعْظَمَةِ

فضحك الوليد لما سمعه وخشى أن تسبق فرس سعيد ؛ فركض فرسه حتى ساوى الوضاح ، فقذف بنفسه عليه ودخل سابقا . فكان الوليد أول من فعل ذلك وسنه في الحلبة . ثم تلاه في الفعل كذلك المهدي في أيام المنصور والهادي في أيام المهدي . ثم عرضت على الوليد الخيل في الحلبة الثانية فرتبه فرس لسعيد ، فقال لانسابقك أبا عنبسة وأنت القائل :

نَحْنُ سَبَقْنَا الْيَوْمَ خَيْلَ اللُّومَه

فقال سعيد : ليس كذا قلت يا أمير المؤمنين وإنما قلت نحن ، سبقنا اليوم خيل اللومه . فضحك الوليد وضمه إلى نفسه وقال : لا عدمت قريش أخا مثلك . وللوليد بن يزيد أخبار حسان في جمعه الخيول في الحلبة . فانه اجتمع له في الحلبة ألف قارح ، وجمع بين الفرس المعروف

بالزائد والفرس المعروف بالسندى . وكانا قد برزا فى الجرى على
خيول زمانهما »

الغناء

وكان الخلفاء الأول من بنى أمية يستمعون فى أوقات فراغهم
إلى أخبار الحروب وسير فرسان العرب فى الجاهلية ، كما كانوا يستمعون
لقصائد الشعراء . ولم يلبث أن حل الغناء محل قصائد الشعراء . وفى عهد
الوليد الثانى كلف الناس بالموسيقى والغناء ؛ وكانوا يسرفون فى ذلك كل
الاسراف ، وينفقون ببذخ على المغنيين المشهورين والموسقيين الذين
كان الخليفة يدعوهم الى دمشق من أقاصى البلاد . وليس أدل على كلف
الأمويين بالمغنيين والانفاق عليهم عن سعة مما ذكره الطبرى (١)
إذ يقول : حج يزيد بن عبد الملك فى خلافة سليمان بن عبد الملك ،
فاشترى حباة - وكان اسمها العالية - بأربعة آلاف دينار ، فقال
سليمان : هممت أن أحجر على يزيد ، فرد يزيد حباة فاشتراها رجل من
أهل مصر . فلما ولي يزيد الخلافة قالت له زوجته سعدة يا أمير المؤمنين !
هل بقى من الدنيا شئ تتمناه بعد ؟ قال : نعم ! حباة . فأرسلت سعدة
رجلا فاشتراها بأربعة آلاف دينار . فأراحها حتى ذهب عنها كلال
السفر ، ثم أتت بها يزيد ، فأجلستها من وراء الستر وقالت : يا أمير
المؤمنين ! أبقى شئ من الدنيا تتمناه ؟ قال ألم تسألينى عن هذا مرة
فأعلمتك ؟ فرفعت الستر وقالت : هذه حباة . فخطبت سعدة عند يزيد
وأكرمها وحباها . وقد أثر تدفق طبقات المغنيين المحترفين على دمشق فى
أخلاق الناس ، وكان له أثر فى حياة المجتمع حتى دب الترف فى الدولة .

وكان لعب الشطرنج « والدومينو » والورق معروفًا عند العرب .
ومن الألعاب التى شاعت فى ذلك العصر قتال الديكة على الرغم من
أن الوليد الأول وعمر الثانى قد حرما هذا النوع من الألعاب .

كانت المرأة العربية - ولا تزال - تتمتع بقسط وافر من الحرية . وكان نظام الاسرة العربية

النساء. في عهد الخلفاء الراشدين يختلطن بالجمهور ويسمى من خطب الخلفاء ويحضرن المحاضرات التي كان يلقيها على بن أبي طالب وعبد الله ابن العباس وغيرهما. وكان عرب الجاهلية يتزوجون بأكثر من واحدة. ويرجع السبب في ذلك إلى قلة عدد الرجال بسبب الحروب التي لم تخمد جذوتها بين القبائل. فلما ظهر الإسلام نظّم القرآن الزواج، فجعل للعربي حرية التزوج بواحدة إلى أربع، فكان تعدد الزواج أمراً طبيعياً ومنطقياً، وذلك لقلة عدد الرجال بسبب اشتراكهم في الغزوات.

وقد أباح الإسلام الزواج بأكثر من واحدة حتى لا تترك الأرمال والبنات اللاتي لم يتزوجن عائلة على المجتمع، فتفسد الأخلاق ويقل النسل. ومع كل فقد اشترط القرآن للزواج بأكثر من واحدة العدل والكفاءة. ومن هنا نشأ نظام الأسرة عند العرب

وقد عمل الإسلام جهده على إلغاء الرق. فجعل مصدره الوحيد أسرى الحرب المشروعة التي يعلنها المسلمون على غيرهم لا على كلمة الله. على أن الرق في الإسلام لم يكن كالرق عند الأمم الأخرى.

فقد حرم النبي صلى الله عليه وسلم النخاسة حتى لا يحرم الآباء من أبنائهم، وأمر بأن يطعم الأرقاء ويكسوا بما يأكله ويكتسى به أسيادهم، وأوصى بحسن معاملتهم، كما سمح لهم أن يفقدوا أنفسهم. وشجع العتق واعتبره من أكبر القرب إلى الله تعالى. فكان الأرقاء في الحقيقة كأفراد أسرة السيد

وقد أخذ سليمان بن عبد الملك عن البلاط البيزنطي الاكثاري من الخنصيان في قصره. وكان أول من اتخذهم من بني أمية يزيد بن معاوية. وكان اتخاذ الخنصيان أول مظهر من مظاهر الفساد في البلاط الأموي ويقول فون كريم^(١): ويرجع اتخاذ الحرير إلى عهد الوليد الثاني

الذى أدخل كثيراً من العادات البيزنطية في البلاط ، واتخذ الخنثيان أمناً في السراى . وكان الاغريق أول من سن تلك السنة السيئة . وقد انتقد الجاحظ هذه العادة التى انتشرت في القرن الثالث الهجرى انتقاداً مرّاً . وكانت المرأة العربية متحجبة . وكان الحجاب منتشر بين نساء الفرس منذ زمن بعيد . وقد حرصت المرأة العربية على بساطتها البدوية وعلى الحرية التى درجت عليها أيام الجاهلية رغم انتشار اللهو والترف فى عهد الأمويين . لذلك لا نعجب إذا نخر الآباء بأسماء بناتهم . فكان الرجل لا يتحرج عن أن يكنى بابنته أو زوجته أو أخته ، فينادى بأبى ليلى وأبى بثينة .

المرأة العربية

وكان نساء العرب يقابلن الرجال ويتحدثن إليهن بل ويقدن الجيوش أيضاً .

شهرات النساء في هذا العصر

وممن اشتهر من النساء فى هذا العصر عائشة أم المؤمنين التى ضربت بسهم وافر فى الفقه ورواية الحديث والفتيا ، والتاريخ والنسب وغير ذلك من العلوم ، والتى قادت جند المسلمين يوم الجمل ، وأختها أسماء بنت أبى بكر وأم عبدالله بن الزبير التى اشتهرت برواية الحديث والشجاعة والكرم ^(١) . أضف إلى ذلك عكرشة بنت الأطرش التى اشتركت فى الحرب بين على ومعاوية . وإلى القارىء تلك الخطبة التى خطبتها فى جند العراق يوم صفين : « أيها الناس ! عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم . إن الجنة لا تحزن من قطعها ، ولا يهرم من سكنها ، ولا يموت من دخلها . فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمها ، ولا تنصرم همومها . وكونوا قوماً مستبصرين فى دينهم ، مستظهِرين على حقهم . إن معاوية دلف ^(٢) إليكم بعجم العرب ، لا يفقهون الايمان وما يدرون ما الحكمة . دعاهم إلى الباطل فأجابوه ، واستدعاهم

عكرشة بنت الأطرش

(١) أنظر ص ٢٢١ من هذا الكتاب

(٢) دلفت الكنية فى الحرب تقدمت

إلى الدنيا فلبوه . فالله الله عباد الله في دين الله . وإياكم والتواكل فإن ذلك ينقض عرى الاسلام ويطفىء نور الحق . هذه بدر الصغرى والعقبة الأخرى . يامعشر المهاجرين والأنصار ! اعضوا على بصيرتكم واصبروا على عزيبتكم . فكأنى بكم غدا وقد لقيتم أهل الشام كالحجر الناهقة تقصع قصع (١) البعير » (٢)

أم البنين

ومن اشتهر من نساء العرب في ذلك العصر بالبلاذة وقوة الحجة أم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك وبنت عبد العزيز بن مروان بن الحكم . قال المسعودي : « وفد الحجاج بن يوسف على الوليد فوجده في بعض نزهه ، فاستقبله . فلما رآه ترجل له وقبل يده وجعل يمشي وعليه درع وكنانة وقوس عربية ؛ فقال له الوليد : اركب يا أبا محمد ! فقال : دعني يا أمير المؤمنين أستكثر من الجهاد ، فإن ابن الزبير وابن الأشعث شغلاني عنك ، فعزم عليه الوليد حتى ركب ، ودخل الوليد داره وتفضل في غلالة ، ثم أذن للحجاج ، فدخل عليه في حاله تلك وأطال الجلوس عنده . فبينما هو يحدثه إذ جاءت جارية فساررت الوليد ومضت ، ثم عادت فساررت ثم انصرفت ؛ فقال الوليد للحجاج أتدري ما قالت هذه يا أبا محمد ؟ قال : لا والله . قال : بعثتها إلى ابنة عمي أم البنين بنت عبد العزيز : ما بحالستك لهذا الاعرابي المتسلح في السلاح وأنت في غلالة ؛ فأرسلت إليها أنه الحجاج . فراعها ذلك وقالت : والله ما أحب أن يخلو بك وقد قتل الخلق ؛ فقال الحجاج : يا أمير المؤمنين ! دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول ، فانما المرأة ريحانة ولايست بقهر مائة . فلا تطلعن على شرك ولا مكاييدة عدوك ، ولا تطعن في غير أنفسهن ، ولا تشغلن بأكثر من زينتهن . وإياك ومشاورتهن في

(١) قصع كنع ابتلع الماء . والناقة بجرتها ردتها الى جوفها او مضغتها

(٢) صبح الاعشى للقلنشدى ج ١ ص ٢٥٣ — ٢٥٤

الأمر ، فان رأيهم إلى أفن وعزمهم إلى وهن . واكفف عليهم من أبصارهم بحجيك ، ولا تملك الواحدة منهم من الأمور ما يجاوز نفسها ، ولا تطمعها أن تشفع عندك لغيرها . ولا تطل الجلوس معهم ، فان ذلك أوفر لعقلك وأبين لفضلك . ثم نهض الحجاج فخرج ، ودخل الوليد على أم البنين فأخبرها بمقالة الحجاج فقالت : يا أمير المؤمنين ! أحب أن تأمره غدا بالتسليم على فقال : أفعل . فلما غدا الحجاج على الوليد قال له : يا أبا محمد ! سر إلى أم البنين فسلم عليها . فقال : أعفى من ذلك يا أمير المؤمنين ، فقال : لا بد من ذلك . فمضى الحجاج إليها فحجبه طويلا ، ثم أذنت له فأقرته قائما ولم تأذن له في الجلوس ، ثم قالت : إيه يا حجاج . أنت الممتن على أمير المؤمنين بقتل ابن الزبير وابن الأشعث ؟ أما والله لولا أن الله جعلك أهون خلقه ما ابتلاك برمي الكعبة ، ولا بقتل ابن ذات النطاقين وأول مولود ولد في الاسلام (١) . وأما ابن الأشعث فقد والله وإلى عليك الهزائم حتى اذت بأمر المؤمنين عبد الملك ، فأغاثك بأهل الشام وأنت في أضيق من القرن ، فأظلتك رماحهم وأنجأك كفاحهم . ولولا ذلك لكنت أذل من النقد . وأما ما أشرت به على أمير المؤمنين من ترك لذاته والامتناع من بلوغ أوطاره من نساءه ، فان كن ينفرجن عن مثل ما انفرجت به عنك أمك ، فما أحقته بالأخذ عنك والقبول منك ، وإن كن ينفرجن عن مثل أمير المؤمنين ، فانه غير قابل منك ، ولا مصغ إلى نصيحتك . قاتل الله الشاعر وقد نظر إليك وسمان غزالة الحروية بين كتفيك حيث يقول :

أَسَدٌ عَلَيَّ فِي الْحُرُوبِ نَعَامَةٌ فَزَعَاءُ تَفْزَعُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ
هَلَّا بَرَزْتُ إِلَى غَزَاةٍ فِي الْوَعَى بَلْ كَانَ قَلْبُكَ فِي جَنَاحَيْ طَائِرِ
أَخْرَجْنَاهُ عَنِّي ! فَدَخَلَ إِلَى الْوَلِيدِ مِنْ فُورِهِ ، فَقَالَ يَا أَبَا مُحَمَّد ! مَا كُنْتَ فِيهِ ؟ فَقَالَ : وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا سَكَنْتُ حَتَّى كَانَ بَطْنُ الْأَرْضِ أَحَبَّ

إلى من ظهرها . فضحك الوليد حتى فخص برجله ثم قال : يا أبا محمد
إنها بنت عبدالعزيز . « (١)

الملابس

كان لباس البدو يتكون من قباء طويل مشقوق من الوسط ومُتدل
إلى العقب ومربوط من الوسط بحزام من الجلد . ولا يزال البدو من
الرجال والنساء يستعملون هذا الرداء إلى اليوم .

وكانوا يرتدون العباءة فوق القباء . يصنعونها من وبر الجمل . وكانوا
يرتدون في الحرب أو في ركوب الخيل أردية خاصة ، يلبسون السروال
عادة ورداء قصيرا بدلا من الثياب الفضفاضة المتدلية .

أما لباس الرأس فهو العمامة . وكان يختلف حجمها تبعاً للسن والمركز
العلمي وغيره ، وكانوا يلقون الطيلسان فوق العمامة ؛ وهو عبارة عن
منديل كبير متدل إلى السكتفين ليقى الرقبة حرارة الشمس .

وكانت الأردنية تختلف تبعاً لثروة الناس ومركزهم الاجتماعي
ونوع عملهم . فكانت تختلف كسوة الفقيه أو الكاتب عن ثياب الجند
وهكذا . وكان رؤساء القبائل وغيرهم من علية القوم يرتدون قباء يصل
إلى الركبتين يعلوه سروال ، ثم جلباب فضفاض يتدل إلى العقبين ،
ويشده من الوسط حزام من الحرير . وفوق كل ذلك الجبة أو القباء .
وقد أخذها العرب عن الفرس أو البيزنطيين .

وكان القباء نوعين : أحدهما له أكمام واسعة ، والثاني أكمامه ضيقة
وله أزرار متقاربة . وهذا النوع الأخير هو الذي يرتديه كبار رجال
الدولة في إيران اليوم . كما كانوا يلبسون النعال أو الأحذية

ملابس النساء

أما ثياب المرأة فكانت تتكون من سروال فضفاض وقميص مشقوق
عند الرقبة عليه رداء قصير ضيق يلبس عادة في البرد . وكانت المرأة
العربية إذا خرجت من بيتها ترتدي ملاء طويلة تغطي جسمها وتقي

ملابسها من التراب والطين . وكانت تلف رأسها بمنديل يربط فوق الجبهة . وكانت النساء في الجاهلية يلبسن قميصا مشقوقا إلى الصدر . (١)
كانت معيشة العرب في بادىء الأمر غاية في البساطة . فكانوا في صدر الاسلام يكتفون بالقليل من الطعام ؛ فلم يكبد طعامهم يتجاوز اللون أو اللونين . وكان خير أدمهم اللحم . وكان سكان المدن أقرب إلى العناية بالطعام والتفنن فيه من سكان البوادي .

الطعام

وكان النبي صلى الله عليه وسلم وكثير من الصحابة مقلين في الطعام ، لا لفقر أو شح ، ولكن زهدا في الدنيا . وقد روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : ما شبع عليه الصلاة والسلام ثلاثة أيام تباعا من خبز حتى مضى لسبيله . وكانوا إذا أكلوا لا يملئون بطونهم . فهذا النبي صلى الله عليه وسلم يقول :

ماملأ ابن آدم وغاء شرأ من بطنه . حسب ابن آدم لقيمات يُقَمَّنُ صلبه وقد بين لنا صاحب الفخرى مبلغ زهد الخلفاء الراشدين وتقشفهم إذ يقول :

زهد الخلفاء الراشدين
وتقشفهم

« إعلم أنها دولة لم تكن من طرز دول الدنيا ؛ وهى بالأمور النبوية والأحوال الآخروية أشبه . والحق في هذا أن زيَّها قد كان زى الانبياء ، وهدىها هدى الأولياء ، وفتوحها فتوح الملوك الكبار . فأما زىها فهو الخشونة في العيش ، والتقلل في المطعم والملبس . كان أحدهم يمشى في الأسواق راجلا وعليه القميص الخلق المرقوع إلى نصف ساقه ، وفي رجله تاسومة وفي يده درّة . فمن وجب عليه حد استوفاه منه . وكان طعامهم من أدنى أطعمة فقرائهم . ضرب أمير المؤمنين عليه السلام المثل بالعسل والخبز النقى ، فقال في بعض كلامه : ولو شئتُ لاهتديتُ إلى مُصَنَّفِي هذا العسل بلباب هذا البر . واعلم

أنهم لم يتقللوا في أطعمتهم وملبوسهم فقراً ولا عجزاً عن أفضل لباس وأشهى مطعم ، ولكنهم كانوا يفعلون ذلك مواساةً لفقراء رعيّتهم ، وكسراً للنفس عن شهواتها ، ورياضةً لها لتعتاد أفضل حالاتها . وإلا فكل واحد منهم كان صاحب ثروة ضخمة ونخل وحدائق وغير ذلك من الأسباب . ولكن أكثر خرجهم كان في وجوه البر والقرب (١) . وكانوا يراعون قواعد الصحة ، فلا يدخلون الطعام على الطعام ، ولا يسرفون في الأكل . وقد ورد في الحديث « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع » . كما كانوا يغسلون أيديهم قبل الطعام وبعده ، ويأكلون بأيديهم لعدم وجود الملاعق والشوك في ذلك الوقت ، كما كانت الحال في أوروبا إلى عهد قريب . ومع ذلك فقد ذكر الإمام أحمد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستعمل السكين في قطع اللحم .

وكانوا إذا أكلوا جميعاً بسطوا سباطاً على الأرض ثم جلسوا صفيين من حوله كما يجلس نحن اليوم حول المائدة (٢) . وكان العرب كرماء يجودون بطعامهم ، ولا سيما أهل البوادي . فقد كانوا يوقدون النار ليلاً ليتهدي بها الضيفان . وقد يدل على ذلك قول الشاعر :

وَإِنِّي لَمُعْطٍ مَا وَجَدْتُ وَقَائِلٍ لِمَوْقِدِ نَارِي لَيْلَةَ الرِّيحِ أَوْقَدَ
وكان من أفضل أطعمتهم الثريد ، وهو الخبز يفت ويبل بالمرق ويوضع فوقه اللحم . ومنه اللَّمَزَةُ ، وهو الخبز يكسر على السمن ، والكوثان ، وهو الأرز والسّمك ، والأطربة ، وهو طعام كالخيوط من الدقيق و « الشعيرية » وهو طعام كالخيوط صغرُ قتلها في حجم الشعير ،

الطعام

(١) الفخرى في الآداب السلطانية ص ٧٠ — ٧١

(٢) زاد المبادج ٤ ص ٢٠٨ لابن القيم

« والحشيش » وهو حنطة تطحن وتجعل في قدر ويلقى فيها لحم أو تمر فيطبخ ، « والعُجَّة » وهو طعام متخذ من دقيق يعجن بسمن ثم يشوى . ويظهر أن الخضر لم تكن مستعملة في طعامهم كثيراً كما هي مستعملة في طعامنا اليوم ، لان بلادهم بلاد قفرة لانبات فيها . إلا أنه لا يغيب عنا أن العرب لما خالطوا الأمم الأخرى تغيرت أطعمتهم وتعددت ألوانها ، وصار لهم فيها طرق غير طرقهم الأولى . ففى عهد الأمويين استعمل العرب الفوط والملاعق . وكانت الملاعق تصنع من الخشب ، كما كانت تجلب ملاعق من الفخار من بلاد الصين . وكانوا يجلسون على الكراسى ، وأمامهم مائدة الطعام يكسوها مفرش من القماش .

ثبت بمصادر الكتاب

نورد في الثبوت الآتي مصادر هذا الكتاب . وقد رتبت أسماء المؤلفين جميعها حسب أحرف الهجاء

- ابن الاثير (+ ٦٣٠ هـ و ١٢٣٨ م) : على بن أحمد بن أبي الكرم .
 (٢٠١) (١) « الكامل في التاريخ » ١٢ جزءا (بولاق سنة ١٢٧٤ هـ)
 (ب) « أسد الغابة في معرفة الصحابة » (القاهرة سنة ١٢٨٠ هـ)
 (٣) احمد امين : الاستاذ
 فجر الاسلام (القاهرة سنة ١٩٢٨)
 (٤) الأزرقى (+ ٢٢٣ هـ) « أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار »
 طبعة وستنفلد (Cottingen ١٢٧٥ هـ و ١٨٥٨ م)
 (٥) أيرفينج Irving, Washington : A History of the Lives
 of the successors of Mohamed, (London, 1912)
 (٦) أرنولد : المرحوم السير توماس و .
 Arnold : Prof. Sir Thomas W.
 (١) « The Preaching of Islam » 2nd ed. (London, 1913)
 (٢) « The Caliphate » (Oxford, 1924)
 (٨) الاسحاقى : أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من الدول (مخطوط بدار
 الكتب المصرية رقم ٣٧٤)
 (٩) الأصفهاني (+ ٣٥٦ هـ و ٩٦٧ م) : أبو الفرج
 « كتاب الأغاني » ٢١ جزءا (القاهرة سنة ١٢٨٥ هـ)
 (١٠) الألوسى (+ ١٢٧٠ هـ) شهاب الدين السيد محمود
 « تفسير روح المعاني » (المطبعة الأميرية سنة ١٣٠٠ هـ)
 (١١) أمير على : Ameer Ali, Sayed, A Short History of the
 Saracens (London, 1921)

- (۱۲) Émile Dermenghem, La vie de Mahomet (Paris, 1930)
- (۱۳) Bradley : Henry, The Goths (London, 1887) هـ
- (۱۴) Browne : Edward G.
- Literary History of Persia—from the Earliest Times until Firdawsi (London, 1909)
- (۱۵) Brünnow, Dei Charischiten unter den Ersten Omayyaden. برونو :
- (۱۶) Butler, Alfred J : The Arab Conquest of Egypt (Oxford, 1902). بطلر ا. ج. :
- (۱۷) البغدادي (+ ۴۲۹ هـ و ۱۰۳۷) : أبو منصور عبد القاهر بن طاهر « الفرق بين الفرق » (القاهرة ۱۳۲۸ هـ و ۱۹۱۰ م)
- (۱۸) البغدادي (الشير بالسويدي) سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب (بغداد سنة ۱۲۸۰ هـ)
- (۱۹) Planiol et Ripert, Traité élémentaire de Droit Civil. (12 ème éd, Paris, 1932) بلانيل و ريبير :
- (۲۰) البلاذري (+ ۲۷۹ هـ و ۸۹۲ م) أحمد بن يحيى بن جابر : فوح البلدان (القاهرة سنة ۱۳۱۹ هـ)
- (۲۱) البياضوي (+ ۷۹۱ هـ و ۱۳۸۹ م) : ناصر الدين عبد الله بن عمر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل . ومعه حاشية شيخ زاده (المطبعة العثمانية)
- (۲۲) الترمذی « جامع الترمذی » (طبعة الهند سنة ۱۳۱۰ هـ)
- (۲۳) Gibbon : Edward. جيون : ادوارد «The History of the Decline and Fall of the Roman Empire» 5 vols. ed. by Prof. J. B. Bury.
- (۲۴) Adolfe Grohmann الدكتور جروهمان : أدولف أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية (القاهرة سنة ۱۹۳۵ م) ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن .
- (۲۵) دي جوينو .
- De Gobineau, Religion et Philophie dans l'Asie Centrale (Paris, 1865)

De Gobineau, Religion et Philophie dans l'Asie
Centrale (Paris, 1865)

Goldziher : Ignaz. جولدتزيهر : (٢٧٠ ٢٦)

(1) «Vorlesungen über den Islams», 2 ed
(Heidelberg 1910), translated into French by
Félix Arin (Paris, 1920)

(2) Muhammedanische Studien (Heidelberg)

(٢٩٠٢٨) ابن حجر العسقلاني (+ ٨٥٣ هـ و ١٤٤٩ م) : شهاب الدين بن علي

(١) « الاصابة في تمييز الصحابة » مصر سنة ١٣٢٣ هـ

(ب) « فتح الباري بشرح صحيح البخاري » (المطبعة الأميرية سنة

١٣٠٠ هـ)

(٣٠) ابن حزم (+ ٤٥٦ هـ و ١٠٦٤ م) : أبو محمد علي بن أحمد .

« الفصل في الملل والأهواء والنحل »

٥ أجزاء (القاهرة سنة ١٣١٧ هـ)

(٣١)و(٣٢) الدكتور حسن ابراهيم حسن : (١) تاريخ عمرو بن العاص
(القاهرة سنة ١٩٢٦) الطبعة الثانية

(٢) الفاطميون في مصر (عن الانجليزية) (٣٣)و(٣٤)

(المطبعة الاميرية سنة ١٩٣٢)

(٣) السيادة العربية والشيعة (عن الفرنسية)

تأليف فان فلوتن (القاهرة سنة ١٩٣٣)

(٤) أوراق البردي العربية (عن الانجليزية)

تأليف الدكتور أودلف جروهمان

(القاهرة سنة ١٩٣٤)

(٣٥) الحلبي (+ ١٠٤٤ هـ) : علي بن برهان الدين « انسان العيون في سيرة

الامين المأمون المعروفة بالسيرة الحلبية » (القاهرة سنة ١٣٢٠ هـ)

(٣٦) حمزة الأصفهاني (+ ٣٠٦ هـ) : « تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء

(٣٨٠٣٧) ابن خلدون (+ ٨٠٨ هـ و ١٤٠٥ - ١٤٠٦ م) : عبدالرحمن بن محمد .

(١) مقدمة ابن خلدون (بيروت سنة ١٩٠٠ م)

(ب) تاريخ ابن خلدون

(٣٩) ابن خلكان (+ ٦٨١ هـ و ١٢٨١ م) : شمس الدين أبو العباس أحمد

ابن ابراهيم بن أبي بكر الشافعي .

- « وفیات الاعیان » جزءان (بولاق سنة ١٢٨٣ هـ)
- ترجمه إلى الانجليزية دى سلان (De Slane) (باريس ١٨٤٢-١٨٤٨)
- (٤٠) الخوارزمي (+ ٣٨٣ هـ و ٩٩٣ م) : أبو بكر محمد بن العباس .
« رسائل الخوارزمي » (القسطنطينية سنة ١٢٩٧ م)
- (٤١) دحلان : أحمد زيني « السيرة النبوية والآثار المحمدية » (المطبعة الأزهرية
سنة ١٣٢٠) على هامش السيرة الحلبية
- (٤٢) الدردير : الشرح الكبير (طبعة بولاق سنة ١٣١٩)
- (٤٣) ابن الديبع الشيباني (+ ٩٤٤ هـ) : عبد الرحمن بن علي : « تيسير الوصول
إلى جامع الأصول لأحاديث الرسول » (المطبعة السلفية سنة ١٣٤٦ هـ)
- (٤٤) ابن دقاق (+ ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ - ١٤٠٧ م) : ابراهيم بن محمد المصري
« الانتصار لواسطة عقد الامصار » (جزء ٥٦٤) القاهرة سنة ١٣٠٩ هـ
(١٨٩٣ م)
- (٤٥) دوتى : Doughty, Charles M., Travels in Arabia Deserta. (Lond. 1930)
- (٤٧، ٤٦) دوزى : ر. ب. ا. Dozy : R. P. A., Moslems in Spain. (trans. by F. G. Stokes). (London, 1913).
- Dictionnaire des Noms des Vêtements chez les Arabes
(Amsterdam, 1845.)
- (٤٨) الدينوري (+ ٢٨٢ هـ و ٨٩٥ م) : أحمد بن داود أبو حنيفة
« الأخبار الطوال » جزءان (ليدن سنة ١٨٨٨)
- (٤٩) رفيق العظم بك : أشهر مشاهير الاسلام في الحرب والسياسة : (مصر
سنة ١٣٢١ هـ)
- (٥٠) الزنجاني : أبو عبد الله الزنجاني : « تاريخ القرآن » (طبع بمطبعة لجنة الترجمة
والتأليف سنة ١٩٣٥)
- (٥١) السرخسي : شمس الدين « كتاب المبسوط » (القاهرة سنة ١٣٢٤ هـ)
- (٥٣، ٥٢) الشيوطي (+ ٩١١ هـ و ١٥٠٥ م) : عبد الرحمن بن أبي بكر جمال الدين .
(١) « تاريخ الخلفاء » (القاهرة سنة ١٣٥١ هـ)
(ب) تفسير الجلالين (القاهرة سنة ١٣٤٤ هـ / ١٩٢٦ م)
- (٥٤) سديو : ل. ب. Sédillot, L.B. Histoire Générale des Arabes, (Paris, 1877).

- (٥٥) ابن سعد: (+ ٢٣٠ هـ) محمد بن سعد «كتاب الطبقات الكبير ٨ أجزاء (ليدن سنة ١٣٢٢ هـ)
- (٥٦) الشهرستاني (+ ٥٤٨ هـ و ١١٥٣ م): أبو الفتح محمد بن عبد الكريم. «الملل والنحل» ٥ أجزاء (القاهرة سنة ١٣١٧ هـ)
- (٥٧) الشيباني (+ ٩٤٤): عبد الرحمن بن الديبغ «تفسير الوصول إلى جامع الأصول لأحاديث الرسول» (القاهرة سنة ١٣٤٦ هـ)
- (٥٨) ابن طباطبا: محمد بن علي المعروف بابن الطقطقي. الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية (القاهرة سنة ١٣١٩ هـ).
- (٥٩) الطبري (+ ٣١٠ هـ و ٩٢٢ م): أبو جعفر محمد بن جرير «تاريخ الأمم والملوك» (طبعة دي غوييه - ليدين سنة ١٨٨١ - ١٨٨٣) والقاهرة (المطبعة الحسينية)
- (٦٠) طه حسين: الدكتور حديث الأربعاء - الجزء الثاني (القاهرة سنة ١٣٤٤ هـ و ١٩٢٦ م)
- (٦١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر: طبع بمجلس المعارف الفرنساوي الخاص بالعاديات الشرقية (القاهرة سنة ١٩١٤).
- (٦٢) ابن عبد ربه (+ ٣٤٩ هـ و ٩٤٠ م): شهاب الدين أحمد «العقد الفريد» ٣ أجزاء (القاهرة سنة ١٣٤٦ هـ و ١٩٢٨ م)
- (٦٣) عبد العزيز جاويز: الإسلام دين الفطرة. (من عمله في مؤتمر المستشرقين - الجزائر سنة ١٩٠٥)
- (٦٤، ٦٥) العيني (+ ٨٥٥ هـ): بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد.
- (١) عمدة القاري بشرح صحيح البخاري (المطبعة الميرية)
- (ب) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (نسخة قنوجرافية بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٨٤ تاريخ)
- (٦٦) أبو الفدا (+ ٧٣٢ هـ و ١٣٣١ م): اسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماء. «المختصر في أخبار البشر» ٤ أجزاء (القسطنطينية سنة ١٢٨٦ هـ)
- (٦٧) أبو الفرج الملقب (+ ٦٨٥ هـ و ١٢٨٦ م): جريجوري المسمى بارهبرائس «مختصر البول» ٣ أجزاء (أكسفورد سنة ١٦٧٣ م)
- (٦٨) فريد ليندر: إسرائيل. Friedlaender, Israël.

«The Heterodoxies of the Shi'ites in the Presentation of Ibn Hazm», Journal of the American Oriental

Society, vols. 28 and 29 (New Haven, 1907 and 1909).

٦٩) فان فلوتن : ج
Vloten, J. Van.

«La Domination Arabe, Le Chûtisme et les Croyances
Messianiques sous le Khalifat des Omayyades».
(Amsterdam, 1894)

ترجمه إلى العربية الدكتور حسن ابراهيم حسن والشيخ محمد زكي ابراهيم
(السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني أمية) (القاهرة سنة ١٩٣٤)

Finlay, George : A History of Greece from its Conquest
by the Romans to the Present Time (164B . C. to 1864)
(Oxford, 1877)

٧٢، ٧١ ابن قتيبة (+ ٢٧٦ هـ)

(١) كتاب المعارف (طبعة وستنفلد)

(ب) الامامة والسياسة

(٧٣) القلقشندي (+ ٨٢١ هـ و ١٤١٨ م) : أبو العباس احمد

« صبح الأعشى في صناعة الانشا » ١٤ جزءا (القاهرة سنة ١٩١٣ -
١٩١٧ م)

(٧٤) القلقشندي (+ ٣٢١ هـ) : محمد بن عبد الله : « نهاية الأرب في معرفة قبائل
العرب » مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٧٤ .

کرد علي : الأستاذ محمد بك

« الاسلام والحضارة العربية » (الجزء الأول) (القاهرة سنة ١٣٤٩)

(٧٥) كريم : ألفرد فون .
Cremer, Alfred von.

«Culturgeschichte des Orients unter den Chalifen.
2 vols. (Vienna, 1875), translated by Khuda
Bukhsh (Calcutta, 1920—1927.)

(٧٦) كوسان دي برسيغال :

Caussin de Perceval, A. P. : Essai de l'Histoire des Arabes
avant L'Islamisme, et pendant L'epoque de
Nohamet.

(٧٧) كيتاني : ليون (5 vols)
Caentani, Leone: Annali dell'Islam. (Milano, 1905—1913)

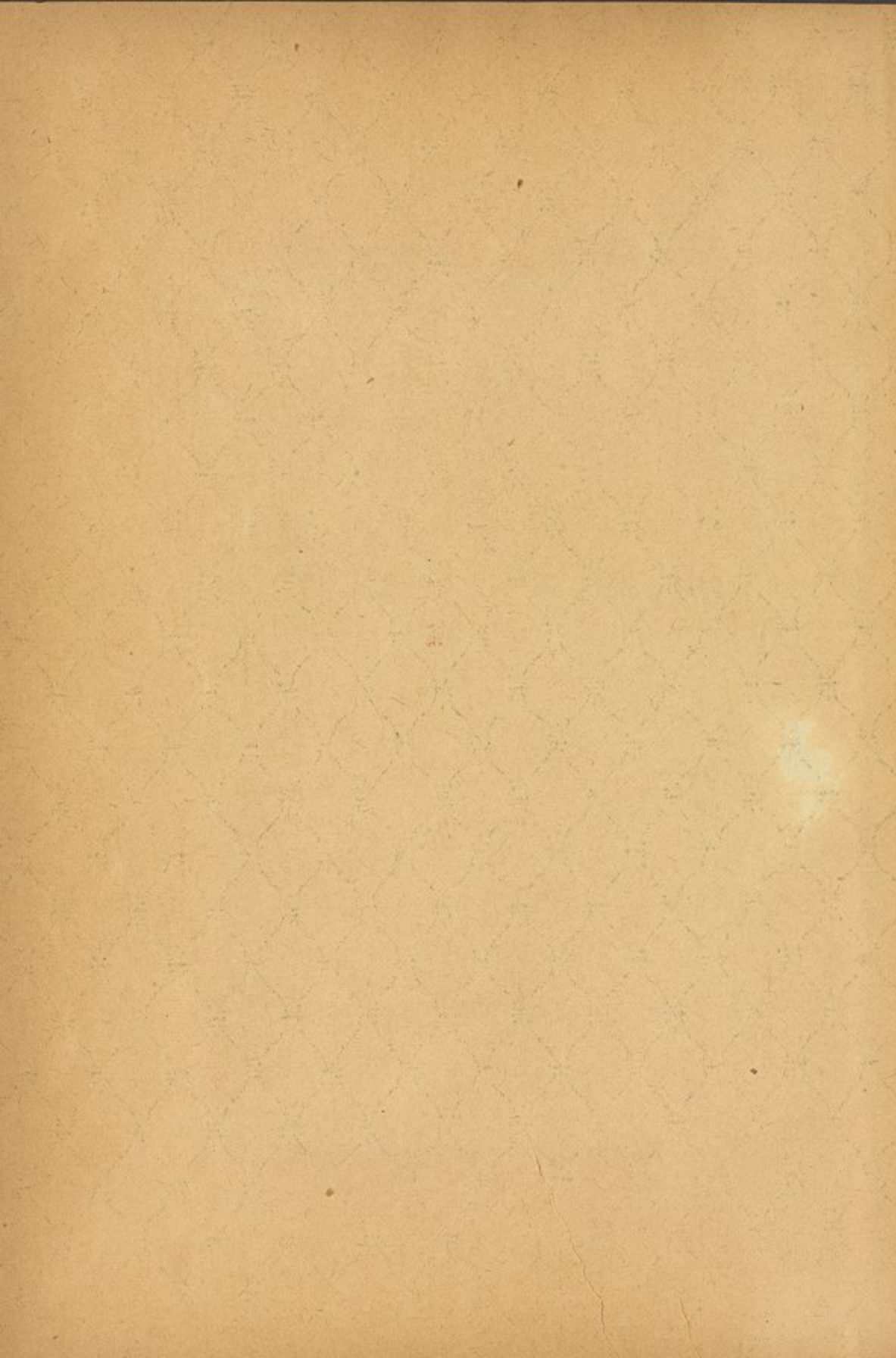
(٧٨) لامانس : الأب هنري
P. Lammens Père Henri: Berceau de
L'Islam, (Rome, 1914)

- (٧٩) لينبول : ستانلي
Lane-Poole, Stanley.
«History of Egypt in the Middle Ages» (London, 1901)
«Coins and Medals» (London 1898).
- (٨٠) ليون : جستاف :
Le Bon, Justave : La Civilisation des Arabes (Paris, 1884).
- (٨١) الماوردي (+ ٤٥٠ هـ و ١٠٥٧ م) : أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب
البصري « الأحكام السلطانية » (القاهرة سنة ١٢٩٨ هـ ولندن سنة ١٩٠١ م)
- (٨٢) أبو المحاسن (+ ٨٧٤ هـ و ١٤٩٦ م) : جمال الدين سيف بن تغري بردي
« النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة »
- (٨٣) محب الدين (+ ٦٩٤ هـ) : أحمد بن عبد الله الطبري .
« السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين » (حلب سنة ١٣٤٦ م)
- (٨٤) مرجوليوث : د . س
Margoliouth, Prof. D. S
Mohammed and the Rise of Islam, 3 rd ed. (London 1923)
- (٨٥) المسعودي (+ ٣٤٦ هـ و ٩٥٦ م) : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي .
« مروج الذهب ومعادن الجوهر » جزءان (القاهرة سنة ١٣٠٣ هـ و ١٨٨٥ م)
- (٨٦) المقرئ : « نفح الطيب » ٤ أجزاء (بولاق سنة ١٨٦٢ م)
- (٨٧) الكلبي (+ ٢٠٤ هـ) : أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب
« كتاب الأصنام » (دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٣٤٣ هـ و ١٩٢٤ م)
- (٨٨، ٨٩) المقرئ (+ ٨٤٥ هـ و ١٤٤١ م) : تقي الدين أحمد بن علي .
(١) « التاريخ الكبير المقفى » (مخطوط بمكتاب القاهرة ولندن وباريس ولندن)
(ب) « المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار » جزءان (بولاق سنة ١٢٧٠ هـ)
- (٩٠) ملن :
Milne, J. Grafton : A History of Egypt under Roman Rule (London, 1913)
- (٩١) ميور :
Muir, sir William Temple : The Caliphate, its Rise; Decline and Fall (Oxford 1902)
- (٩٢، ٩٣) نلدة (١) :
Theodor Noeldeke, Histarians' History of the World (27 vols.)
- (٢) « أمراء غسان » نقلها إلى العربية الدكتور بندلي جوزي من الدكتور
قسطنطين زريق (بيروت سنة ١٩٣٣)
- (٩٤) النويري (+ ٧٣٢ هـ و ١٣٣٢ م) : أحمد بن عبد الوهاب .

- « نهاية الأرب في فنون الأدب » (مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس
رقم ١٥٧٦) . دارالكتب المسكية ٧ أجزاء من هذا الكتاب .
- (٩٥) النوى : (+ ٦٧٦ هـ ١٢٧٧ م) : أبو زكريا محي الدين بن شرف
« تهذيب الأسماء واللغات » جزءان (طبعة ادارة الطباعة المنيرية بالقاهرة)
- (٩٦) نيكلسون ا. رينلد : Nicholson, Prof. Reynold, A.
« Literary History of the Arabs », (London 1914).
- (٩٧) (ابن هشام (+ ٢١٨ هـ و ٨٣٣ م) : أبو محمد عبد الملك بن هشام بن
أيوب المعافى الحميرى .
- « كتاب سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم » ٣ أجزاء (القاهرة
سنة ١٣٣٢ هـ)
- (٩٨) هل : يوسف : Hell, J. : Cultur der Araber; trans.
by Khuda Bukhsh
- (٩٩) هويار : Huart : C.L. : Histoire des Arabes (Paris 1913)
- (١٠٠) الواقدى : فتوح الشام : (مصر سنة ١٣٠٢ هـ)
- (١٠١) وستنفلد : ف . Wüstenfeld F. von.
Genealogische Tabellen der Arabischen Stämme und
Familien (Gottingen, 1852 — 1853).
- (١٠٢) ولز : هـ . ج : H. G. Wells, Outline of History (2 vols.)
- (١٠٣) فلموزن : Wellhausen, Reste Arabischen Heidenthums
- (١٠٤) ياقوت (+ ٦٢٦ هـ و ١٢٢٩) : شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى .
« معجم البلدان » ١٢ جزءا (القاهرة سنة ١٣٢٣ هـ و ١٩٠٦ م)
- (١٠٥) اليعقوبى (+ ٢٨٢ هـ و ٨٩٥ م) : أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن
وهب بن واضح
- (١٠٦) (١) « تاريخ اليعقوبى » جزءان (طبعة هوتسما) (ليدن سنة ١٨٨٣ م)
- (١٠٧) (٢) « كتاب البلدان » ، طبعة دى غويه (ليدن سنة ١٨٩٢)
- (١٠٨) أبو يوسف : (يعقوب بن ابراهيم) صاحب أبى حنيفة
« كتاب الخراج » (بولاق سنة ١٣٠٢ هـ)

مؤلفات ومترجمات المؤلف

- ١ - « تاريخ عمرو بن العاص » الطبعة الثانية سنة ١٩٢٦
- ٢ - « الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص » . (المطبعة الأميرية ببولاق) سنة ١٩٣٢ . وضعه المؤلف بالانجليزية وترجمه إلى العربية . وقد خففت وزارة المعارف ثمنه الأصلي وقدره ٢١٢ مليم ١ ج إلى الثمن الذي يباع به الآن (يطلب من مخازن وزارة المعارف بالقاهرة والأقاليم) . يقول الأستاذ المرحوم السير توماس أرنولد عن الكتاب : « ولا ريب في أن الكتاب يعتبر أعظم وثيقة ظهرت في هذا الموضوع إلى الآن . وتجلي فيه قدرة المؤلف العلمية ومنزلته الأدبية اللتان امتاز بهما في كل كتابه ، كما تظهر أحكامه السديدة بأجلى بيان في كشف كثير من المسائل الخفية المعقدة »
- ٣ - « تاريخ العصور الوسطى في الشرق والغرب » للسنة الثانية الثانوية (بالاشتراك مع الاستاذ احمد صادق الطنطاوى ناظر مدرسة بورسعيد الأميرية . الطبعة الثانية سنة ١٩٣٣) ملزمة طبعه ونشره المكتبة الأهلية الجديدة رقم ٦٥ شارع الفجالة بمصر . وقد قررت وزارة المعارف تدريسه بمدارسها . ويمتاز الكتاب بدقة البحث وسهولة العبارة وارتباط الحوادث بعضها ببعض في غير اسهاب . ويحليه كثير من الصور والمصورات التاريخية . ويقع في ٢٣١ صفحة
- ٤ - « أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية » تأليف الدكتور أدولف جروهمان أستاذ الثقافة الاسلامية بجامعة براغ التشيكوسلوفاكية (طبعة دار الكتب المصرية) وترجمه الدكتور حسن ابراهيم حسن الى اللغة العربية وعلق عليه (القاهرة سنة ١٩٣٤)
- ٥ - « السيادة العربية والتشيع والاسرائيليات في عهد بنى أمية » تأليف فان فلوتن . ترجمه المؤلف عن الفرنسية وعلق عليه بالاشتراك مع حضرة الشيخ محمد زكى ابراهيم خريج قسم التخصص للأزهر والمترجم بمصلحة المساحة (القاهرة سنة ١٩٣٤)
- ٦ - « تاريخ الاسلام السياسى » . يبحث في تاريخ الاسلام والحضارة العربية منذ البعثة النبوية الى آخر العصر الأموى ويقع في ٧٦٠ صفحة من القطع الكبير
- ٧ - « الدعاية الاسلامية » (Preaching of Islam) للمرحوم الأستاذ السير توماس أرنولد (تحت الطابع) بالاشتراك مع الأستاذ محمد مهدي علام المفتش بوزارة المعارف وستظهر الترجمة قريباً .



DATE DUE

MAR 29 2002

APR 04 2002

GAYLORD

PRINTED IN U.S.A.

COLUMBIA UNIVERSITY



0027056139

893.791

H27
v.1

893.791

H27
v.1

Hasan

Ta'rikh al-islam al-siyasi.

11 Mar 48

CHATTI DA 159 v97

A. P. Rodhan
576 w. 123 ch

JUN 6 '48

A. P. Rodhan
576 w. 123 ch

